ممدوح عزّام

قصر المطر

رواية

http://abuabdoalbagl.blogspot.com
أبو عبدو البغل

ممدوح عزّام

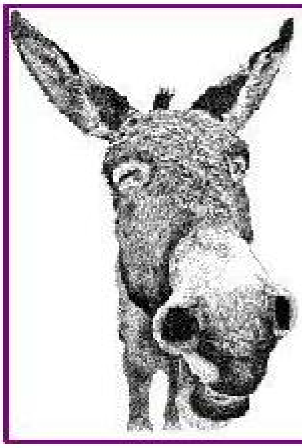
http://abuabdoalbagl.blogspot.com
أبو عبدو البغل

قصر المطر

رِوَايــة

منشـــورات وزارة الثقـــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٨

قصر المطر: رواية / ممدوح عزام . - دمشق: وزارة الثقافة،
١٩٩٨ . - ٦٤٥ ص؛ ٢٤سم .

١- ٨١٣٫٠٣ ع ز ا ق ٢- ٨١٣٫٠٠٩٥٦١ ع زا ق
٣- العنوان ٤- عزام مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ١٢٣١ / ٨ / ١٩٩٨

الاهداء

الـــى دنيـــا

بعد الكلام

أيقظته الطلقات!

سبع رصاصات اخترقت الواجهة الغربية، واجتازت الممرات الكامدة، والتجاويف المشظاة، والهامات المشرئبة والهواء المصفر في القيظ، ثمَّ استقرت في جسد ما: «إنه جسدي!»

لم يكن لشيء أن يبعده عن مستنقع الخدر الذي هوى فيه، وهو يركض في اتجاه التكتكات المتشابكة التي أعقبت الرصاصات السبع، ركض بقوة ثور. واجتاز صخور المراح قفزاً، دون أن يلاحظ أنَّه لم يجرؤ في الأمس فقط، على تخطي بعضها بسبب علوها الشاهق، ونواتئها الجارحة. كانت تبدو، وهي تُلقي ظلالها بعضها على بعض، مثل نواطير كسولة ناعسة.

وصل ممر سعد. ثم انعطف نحو اللسان الترابي المزروع كجزيرة وسط الصخور، تدلُّه غريزة خارقة راقدة في قاع عقله الى المكان: هناك رآه ممدداً على درب الحمير القديم، وقد جحظت عيناه، ممتلئتين بزئبق زجاجي ناصع، واخضرَّ وجهه كطحلب، وفتح فمه برعب مضت عليه دقائق. بدا شديد البياض، وهو مُستلق ميت. «هايل!» قال مخاطباً الميت الغريب الذي ارتدى ثياباً جديدة. فيما برز من الممرات ثلاثة رجال مسلحين يطلقون النار في الهواء من على ظهور خيولهم السوداء. ولحقت بهم امرأة وحيدة ملأت الوعر بالعويل. ثم هدأ كل شيء حين تأكد الفازعون أنَّ الممدد هنا قد مات. تأهبوا لحمله. فصاح فيهم فجأة: «لا! احكوا معه» انبجست فيه دفعة واحدة، ساعة مقتله قبل عشرين عاماً، لحظة لحظة. وصار يرتعش وهو يقول «يمكن ما مات! يمكن ما مات!»

ذلك ما يذكره: لأنّه هو لم يمت، وقد رأى كيف كان قاتله يجهز حصانه، سمع صلصلة معادن السرج والرسن، ترنّح المشهد قليلاً، وذاب في خليط من الضباب اللبني السميك، ثمّ انحسر ببطء مماثل، عن انساق الصخور برؤوسها المتطاولة، وحافاتها المضرجة بالشعاع الشمسي البازغ، رام رفع رأسه، فأومضت في عينيه بروق طاغية، منعت رغبته بجهام متقد من الحرائق. نكص عن محاولته، وواصل مراقبة الارتفاعات الذائبة في برودة الفجر، وانبثاق الظلال، وصلف الصباح بردهاته الأسيانة وهفيف طائر مرَّ قريباً من أذنه دون أن يخصه بايماءة. ظهر قاتلهُ ثانية وسط الصورة. تقوده رغبة خفية في جسِّ الميت. خاطبه هازاً رأسه بكلِمات مصنوعة من أسف مصطنع. تمتم أنه لم يكن يريدُ هذا وأنّه حزين لأجله. ثم عرض امامه حفنة من المعدن الاصفر، وقال: «شوف! هذا قتلك!» وسكتَ قليلاً «ولا تنس يوم قوست مجرِّية الذياب. بتتذكر قبل ما تقتلني قتلتك» صار يقهقه «كل شي بهالدنيا كان يقول لازم تموت. ما إلك مكان هون. روح! ارحل لمكان ثاني حل عنا! حل عنا!» صار يزعق بك، ثم نهضَ. امتطى صهوة مطيته بينما راح هو يصرخ بالقاتل: «ما مت بعد! بتقدر تنقذني» لكن ذاك غادر المكان متمهلاً. وظل وقع الحوافر يطرق سمعه طويلاً، وهي تسير وئيدة بين الممرات. رغبَ قليلاً في النوم، أو في اغلاق عينيه اللتين تعبتا، ثم بدأ يكويهما سائل حارق. بيد أنه عجز عن اغلاقهما، حتى بعد أن اخترقهما الشعاع الشمسي المفاجئ الذي أذابَ بياضهما وخلط الرؤية فيهما. لكنه لم يستمر. انحسر رويداً رويداً حين تحركت الشمس قليلاً ثم غاب طوال النهار.

عند الظهر مرَّ به بدويان. فاجأتهما القامة الهائلة للجثة المستلقية تفحصا وجهه. ولم يتعرفا اليه، وحاولا أن يحزرا من هو. ثم أقلعا عن ذلك. وقال أحدهما: «خلنا نروح!» لكنهما لم يذهبا. أشعلا سيكارتين، دخناهما، فأفعمت رائحة التبغ انفه، تنشقها بلذة. ثم أخذ يصرخ بهما كي يشعلا واحدة له، وامتلأ بالغضب حين تجاهلاه. تحدثا قليلاً، ولم يسمع شيئاً مما قالاه، كأنَّ همسهما يعيق سمعه. ولم يستطع الالتفات نحوهما، فقد نسي المكان الذي كان يدير منه رأسه.

اقترب أحدهما منه، وتأمل وجهه جيداً، وقال: «ظني أنه من السلمان أو من الفضل!». وتركاه بعد ذلك، فصاح بهما «أنا حي! أنا حي!» وحلّ الصمت وراءهما. تخترقه كلُّ آونة هبة ريح تجوس المكان الدائري، وترحل. أو غناءُ بضعةُ عصافير بطرانة، تدوم في المكان وتقف ثم تطير. مرة واحدة، تخطى واحد منها فقط ذعره. وتنزه بلا خوف على جسده حاق به الحقد، وهاج، وجمجم بالشتائم على نفسه، وعلى هذا الطير الاحمق الذي انتدب نفسه لقهره. وتبين له أنه لا يتألم، وقد أدهشه هذا، وجعله يظن بأنه يحلم، وأوشك أن ينجح في ايقاظ الغفوة. لولا أنَّ أفعى سوداء خرجت مخربة محاولته. تسللت عبر جسده، ومرقت فوق عنقه. تأملته بعينين متعاليتين مليئتين بالدهشة والحيرة، ثم تركته. وجاء ذئب، وجلس قربه، يتأمله. ثم مضى سريعاً. عندها أيقن أنه لم يمت حقاً. وها هو يرحلُ في حمادٍ أجرد. يهلكه جفاف، ويضنيه السفر وصمت البرية الغامض والهواء الشفيف الوامض باختلاق كائنات هيولية غريبة. وانتهى الى المشي بين كثبان ضائعة مغضنة بقيظ ناري. ثم مضى عبر غاباتٍ موغلة في الخضرة، وأجمات ضباب ظليلة تحفُ بمجرى مائي صاف كمرآة. وكانت بنياتٍ يرقصن هناك على كراسٍ. يتألقن من الفتنة. وينظرن بعيون ناعسة نصف مطبقة اليه.

تلك اللحظة رأى مولده. كأنما نفذ من ثغرة. كانت عماته، وخالتاه هناك. وكان بضع نساء جالسات يتحدثن. وأخريات صامتات متناثرات. رأى رفاً خشبياً على هيئة مثلثات متواليه، وقد التمعت على سطحه صحون، وصوان، ومناسف نحاسية ناصعة.

ثم غاب المنظر، وغشته رؤيا مرعبة: رأى فجأة ضبعاً مرقطاً يطلُ عليه. امتلأ الوحش ذهولاً. وكانت حيرته صريحة، ثم بدا مرتاباً بوجهه المطبق المليء بالتجاعيد، وهو يرصدُ جثة الرجل الكئيبة المتمددة على خصل الصخور. برقت عيناه برغبة عنيدة في تلمس الجسد الآدمي وشمه. غير أن الحرارة الانسانية الخفيفة الصاعدة من اللحم، جعلته يرتدُ هلعاً من شركٍ لم يتعرض لمثله أبداً.

ثم قادته الريبة ثانية لجس النبض الخفي، والتأكد من عبير الحياة. ولأنه يفهم سياق الموت تماماً. فقد آثر أن يترك الوجبة السمينة ريثما يجف فيها ماء البقاء وحده. طمأنه المخبأ الامين. فأقعى قريباً منه، حتى طردته أصوات أربعة لصوص ولجوا المكان. شاهدهم واحداً واحداً، وهم يعبرون المدخل. وحاول مكابداً أسى ثقيلاً، أن يجذبهم اليه بالصراخ. لكن الرجال ما لاحظوه. طبخوا عشاءهم مطلقين الضحكات. صلصلوا بحديد أسلحتهم وأوانيهم، وعبثاً اجتهد كي يسمع ما يقولون، أو أن يتعرف الى لهجتهم وكلامهم.

الشيء الوحيد الذي ما برح يساعده (حين كان حياً) كي يصيخ السمع، هو اغلاق العينين. لكن عينيه رفضتا ان تنغلقا بالوسائل التي جربها. لهذا ظلّ سمعه مشوشاً، تتخلله رطوبة الليل، وتفسده الرغبة المجنونة في النطق.

نام قليلاً خلال ذلك، وآتته رؤيا الولادة ثانية، ثم أعادته آهة ذعر ندت عن أحد الرجال، حين اقترب من مكانه، ليشحذ حد خنجره على حافة صخرة. أحاط الباقون به. أطلقوا نهراً من أسئلة متلجلجة عاجزة، ثمَّ لموّا أشياءهم، وتركوه.

حينئذ رحل وراءهم ببطء: تشبَّع الجو فجأة برائحة نتنه، فغمغم: «هذا أنت!» وانسدت السماء، فلم يعُد يظهر أي نجم، وانحشر في دهليز معتم، وفي فوضى من الأشواك والنواتيء، جرَّته قوة خارقة من مكانه. فاخترق رأسه عويلٌ، وتدلى فجأة في الألوان النيلية التي طغت، ورأى هناك فراغاً شبحياً هائلاً، أفسدته ضربة فزّاعة قاطعة. وانتهى كل شيء.

أيقظته الطلقات!

وحين أفاق، ذلك الفجر، لاحظ فوراً أنَّ بندقيته اختفت. لقد نام وهي قربه جاهزة معبأة، بجانب الصدر. وكانت أول شيء ينتبه اليه كلما فتح عينيه. رافقته طوال العمر، ولم تخنه قط، ما توقفت عن النار، ولا استرخت ما دامت في يده. وفي معركة «جَدْل» ظلت تطلق وتطلق خمس ساعات. وصار الرجال بعد ذلك

يقولون: «تبيعها بعشر ذهبيات؟» وهو يقول: «لا!». أين مشط الرصاص أيضاً؟ والجناد الذي يتزنر به؟ ربما كان ما يراه أضغاث حلم، غواية شيطانية تسطو عليه كلما نام في البريَّة. لكن الغوايات لا تُحَسُّ. وها هو يلمسُ بيديه العشب الطري تحت جسده، والصخور الباردة.

حرّك بضع حصوات صغيرة، وشعر بالفجر الرطب في ثيابه، واستدار مجيلاً بصره في المكان الضيق الذي اختاراه بالأمس.

أمر واحد متبدل محيِّر، لم يصدقه حين رآه، فقد كان رفيقه واقفاً في المدخل، مستنداً إلى كتف صخرة، مصوباً بندقيته نفسها اليه. ابتسم ثم ارتابَ، حين رأى الى الجواد مسرجاً.

أين حدث هذا؟ ولمَ تجرجره الذكرى، وتقود عقله؟!. لقد كانا معاً. رحلا منفردين مساءً. وكانت الشمس توشك ان تغربَ مترنحة، بعد ان أرست نهاراً قانطاً. تقابلا خارج البلدة، وجاسا سهل الحلاب على مهل، وهما يتناجيان، ويذكران مخاضاتهما. قال رفيقه أنه سيبني بيتاً اخر هناك في تلة نوح «ولكن الطريق اليها صعبة» «سأحفرها سنة فسنة! وتخيل يا صديقي مشهد السهول من هناك، ومن ورائك وعر اللجاة. وفي الجنوب يطل عليك الجبل كل صباح. وأزرع زيتوناً، وأشجار اللوز». كأنه ما يزال يسمع صليل الأرسان، ودقدقة الحوافر على جلاميد الصخر، ويرى إلى عساليج الريحان التي طاولت قامة الجياد، حين وَطئا تراب المسيل، ويطوفُ في العتمة الداجية التي ملأت اللافات. ثم تذكر لون ثيابه وثياب رفيقه لوناً لوناً: فالجبة بلون العنب الأحمر، والحطة بيضاء، والشنتان أسود، وثمة ترانيم غناء بعيده، وآمال أُخرى يحكيانها، وظلال عطايا تجأر وتستغيث بمن سيعتقها من قيود الزمن الذي ينيخُ فوقها.

أما المكان الذي قصداه، فقد ملأ الصورة الماضية بأطلال مهدمة. طغى بياب قاحل فجأة في المسافات، وتجهمٌ وهاجٌ بالأنقاض. هناك حطّا الرحال: يذكر أنهما تشاحنا قليلاً، وهما يبحثان عن ملجأ يدرأ عنهما رعبُ المفاجآت، أو نوازل القدر.

ثمَّ هجعا حين منحهما المكان ظلاً سامقاً لصخرة عتية أخفيا جواديهما، وقصدا بُغيتهما، مستعينين برموز المغربي العجيبة: أفعى سوداء ملتفتة، تشيرُ بطرف ذيلها إشارة مضببة إلى مكان يقابلها في الشمال.

هناك بحثا عن صورة عقرب، ووجدا قطيعاً منها، كانت تتجه شمالاً تندفع ممتلئة بخوف مجنون من خطر بهيمي يتهددها، مهووسة بالوصول إلى طرح مهشم تكثر فيه أوجار ضباع، أو مخابيء كائنات مرّت على المكان منذ زمن بعيد.

اكتشفا أنهما يواجهان لغزاً عسيراً. فآثرا التريث وهما يتمشيان في ردهات الحسابات والأوابد المهدمة. تحفُّ بهما أشلاء أعمدة، وذكريات. وصار سرُّ المغربي ناقصاً. ضيعهما خليط الخرائب، وانتثار الحجارة، ولعثمة الأبنية فأمضيا كل تلك الساعات ضائعين في تيه الماضي.

ثم زادت المشاهد التي رأياها، في حيرتهما، حين طغت على الخراب عصائب من حشرات هائجة، طيرتها الحركاتُ المرتبكةُ التي قاما بها: صراصير، وفراشات، وخنافس، ملأت الارجاء بزحام آخر من السر. كأن البشر الذين كانوا هنا قبل ألفي عام، لم يشغلهم سوى زخرفة وجودهم بالأسرار والايماءات ومواراة إرثهم بتلال من الغموض.

لكنهما لم يستسلما، وقد راح الحلمُ يسوطهما بجماله، وصحا فيهما لوثة بشارات. هذا ما يذكره. لكن الحشرات أثقلت الرؤيا، وعطلت ايقاع ما يعرف، وسببت له ضياع بعض التفاصيل، واختفاء أجزاء منها فلم يعد موقناً من الاشجار التي تظهر، ولا كروم العنب، والعربات القديمة. والسواقي الجافة، والكلاب (وهذا غريب) وراح المكان يترجرج ويلوح بلا شكل. والعقرب تتهيأ للوثوب واللدغ. وقد حيره نكوصُ صدى الطلقات حين انفجر الفضاء بهديرها: أفاق مرة أخرى، ورأى ما رأى:

كانوا يحملون الجثمان على فرس بيضاء، رافعة الرأس، ضاعت كلماتهم

في الصهد، وضجيج الرصاصات. أخذوه بلا مراسم، ودون انتظار، ولم يعرف أحداً منهم، فتخطوه، وغابوا في حرش الصخور، وحين استدار نحو الرجال الذين تركوه. تذكر أنه رأى قبل أن يموت، ما كانا يبحثان عنه. الكنز الضائع المخبوء في خابية. كانت ترقدُ تحت ضريح فارغ، وقد طفح سطحها بتراب طحلبي سميك، وانسدَّ بابها. شهقا معاً، وتلمسا أطرافها، محمومين، والعرقُ يتصبب من جسديهما: «يا رب العالمين!!» صرخ رفيقه مأخوذاً، وتوسد الجرَّة، ثم راح يجذبها اليه، ويتمتمُ بكلام غاب عنه معناه، وما بقي سوى رنينه، والتواء حروفه. ماذا قال؟ ما الذي أشار إليه؟ أجهد ذاكرته كي يقبض على الكلمات المتناثرة، فلم يظفر بشيء، ورأى إلى يدي صاحبه تنبشان الطين العتيق، وتزيحان بقاياه عن الجدار الفخاري. رأى الى نفسه يستجيب للعمل.

ثم أوشكت الشمس على الغروب، فجلسا قريبين، وتناولا طعاماً، ثم سهرا معاً، وانسابت في الجو كلماتٌ ما عن الباراقات، والفسحات الواسعة، والآمال وسمع طلباً ما بالبحث عن أخرى. وعبثاً فعل ذلك. وتذكر أنّه فتش المكان وحيداً، بلا عقارب أو أفاع. ثم سمع كلاماً غير مفهوم، وجمجمات، وغضب لأنه يعجزُ دائما عن معرفة ما حدث وما قيل، غير انه استطاع اخيراً ان يرى الجواد المسرج مرة اخرى. لقد ارعبه ذلك، وحين حاول ان ينهض من مكانه، سمع صوت طلقة ما. صوتاً أصم ارتطم بجسده، ورده الى الوراء. كيف يمكنك ان تنهض، وان لا تنهض بسبب رؤيا وصوت؟ ظن انه يحلم، وهناك خط شفقي مليء بالا شباح يتلامح أمامه: راحلون. مهاجرون. جوعى. نساء. فتح عينيه ببطء. محاولاً ان يبعد الكابوس بهدوئه. فشاهده وهو يصوب اليه، لم يكن في وجهه ما يشي بالحقد، أو الكراهية، كان مسطحاً بلا ملامح، وهو الآن لا يذكر سوى شاربيه الفاحمين: «ليش يا كنج؟». نعم! هذا ما سأله اياه. ثم استطاع ان يقف، فأصابته طلقة ثالثة، ثم رابعة في باطن كفه التي اتكأ عليها، وردتْه خامسة الى الارض.

الغريب أنّه لم يشعر بشيء. هجعت آلامه كلها دفعة واحدة. نسي كيف

يتكلم، وما عاد يعلم ماذا يحدث، وحين سمع صوت الطلقتين الأخيرتين. لم يبق لديه ما يعيش سوى عينيه اللتين ظلتا مفتوحتين تتأملان السماء الحليبية الشاسعة من المكان الضيق. تذكر الآن ماضيه، وعرف أنّه إنما عاش في جسد آخر. في زمن آخر، وراحت الذكريات تعود مثل أسراب العصافير، واحدة وراء اخرى. وهو يحاول أن يمسكها، ويرفع نُصُبَ الماضي قرب اللحظات الحاضرة. كي يتيقنَ من هويته وحقيقته:

(١)

في اليوم الخامس لمشيخته، سرقوا بارودةَ طلال الراعي. فأقسم كنج لأقرب رجاله، أنَّه سيمهل اللص حتى المساء، ثم سيصنع من جلده طبلاً، ويرمي لحمه للكلاب.

لم يدرك كيف خرجت الكلمات من فمه، ومن أية بئر عميقة نَبَشَ تلك الحروف الموشاة برائحة الدماء. وكيف ارتسمت صورة الانتقام المريع الذي سيوقعه على رأس سارق البارودة العثمانية القديمة!

بدا له صمته الذي استمر خمسة أيام، دهراً طويلاً متخمراً في مزابل قذره. حجبت عنه رؤية العالم، وأوشك على الانهيار، حين تذكر أنهم منذ اليوم الأول بدأوا بنهبه. فقد اختفت ثلاث نُعاج، وسُرِقت سبع ليرات ذهبية من جيب جبته. وجهر علي الشامي بكراهيته لآل الحمدان أمام ثلاثة رجال من مرابعيه، وقذف زوجته بحذائه دون خوف قائلاً: «يلعن أهلك!» ثم أحرقوا المخزن الشمالي بكل ما فيه. فسلّمه سلمان الراضي قائمة مجنونة من الخسائر تكفي للبكاء والحزن سنة: مئة مُدٍ من القمح، مئتان من الشعير، خمسون من العدس والحمص، سَرْجَان جديدان، وثلاث عشرة مذراية، وأربعة شواعيب ونير جديد وحذوات.

هكذا امتلأ صدره بالنار. وحطَّم فناجين القهوة، والدلال وأطفأ الموقد بما انسكب عليها، وراح يدوس على النار والزجاج المحطم بقدميه، وهو يصرخ كالجمل، فيما كان طلال الراعي يرتجف مثل عصفور.

غير ان البارودة لم تعد، وعند المساء جاء ضامن العسّال ولعنَ القرية بكل من

فيها. كانت السماء ما تزال مصبوغة بقليل من الضياء، وقد بدت غيوم شتائية مرعدة في الغرب، وحين توسط وجه ضامن الاطار المشروخ بدا محاطاً بمتاهة غريبة ملغزة من الاسرار. فتأمله كنج جيداً، وفوجئ بأنه لا يعرف الرجل أبداً: حيَّرَته التجاعيد الملتوية، والسحنة الدامسة الحزينة، وميلان الحاجب الايمن، وامتلاؤه بالشعر الغزير المضحك.

كَبَحَ كنج رغبةً قوية تولدت في نفسه للتهكم عليه، وطرده، وردَّ شتائمه القذره، وصفعه، أو ضربه بالخيزرانة على جسده الذابل النحيل.

ضامن نهض وحاول إشعال الموقد، دون ان يتلقى أمراً من أحد، كان يعرف واجبه، وقد صنعته السنوات الطويلة التي أمضاها في البيت، شكلت رغباته ومعارفه، وخلقت سلوكه الذي فرضه على الجميع بغير استثناء.

فهم كنج هذا، ولم يمانعْ فيما يفعله ضامن، رغم الدخان الكثيف الذي ملأ المضافة حين لم يستطع إشعال الجلة بسبب القهوة التي بللتها كلها.

هنا بصق ضامن عليها، بدا في حالٍ مزرية لحظة نهض وقد هدَّهُ النفخ الطويل المحقون بالرغبة في إشعال النار. لم يجدْ من يشاركه، لكن منظر ضامن المحير، والمذهل، في الاطار الساحر من الدخان الابيض الكثيف والشعور العميق بالخيبة، والقهر، أغواه بضحك آخر أيضاً.

ثمَّ اعتراه غضب وحشي، حين لاحظ أنّ ثلاثة رجال عادوا من أسفل الدرج نحو عمق الساحة المعتمة. فخرج إلى الشرفة، وراح يصرخ.

لم يهدأ إلا في اللحظة التي انتبه فيها إلى الظلال الشبحية التي كانت تتراقص خلفه على الجدران البيضاء، وحين التفت وراءه واجهه وجه ضامن وقد غشاه عَرامٌ من الاسى المكبوت. رأى ذلك، رغم ان العسّال بذل جهداً هائلاً كي يسدل جبلاً من البراقع على سحنته، بيد أنَّ أداءه كان مغلوطاً. ولم يستطع إخفاء إحساسه البارد بالذل، وبانكسار الروح، وهو يرى الى سيده الجديد الممتلئ بالفظاظة، وهو

يسخر منه . ارتجفت لحيته الحمراء ، وهاج هياجاً جعله يختار الصمت والقنوط .

لا ينكر كنج أن وضعه قد أذاه ، وراح يبحث عن طريق للعودة من الدرب الوعرة التي جرّ نفسه اليها بغير قصد . لم يكن يخطط لإهانة الرجل ولا لخلق جو من الكآبة بينهما . فالعسّال لم يبدِ له في أي يوم شيئاً يقلقه . تذكره الآن حين جاء الى القرية قبل عشرين سنة . بدا شيئاً زائداً عن السكان فيها . وبدت ثيابه الغريبة مضحكة فوق جسده الناحل ، ووجهه الغريب المطحون الغامض . وحين سألته أمه عن الضيف في مضافة أخيه ، قال «إنه يكرهه» «ليش؟» أضافت أمه فقال «إن له رائحة خاصة جعلته بغيضاً!» «ريحة شو؟» سألت وهي تمشط شعره ، وتفليه . ففكر قليلاً ، محاولاً أن يعرف ماهية الرائحة البغيضة ، ثم قال بلا تردد : «ريحة كلب!»

لكن ضامن صار واحداً من القرية بعد ثلاثة ايام ، ارتدى سروالاً اسود ، وقميصاً مخططاً ، وصدرية من الجوخ القديم ، وحطة ، وعقالاً ، وصندلاً من الجلد . ثم أرخى شاربيه ، وامتنع عن الشيء الوحيد الذي كان سيفضحه ، ويثير شعور الناس بغربته عنهم : الكلام!

وهذا لم يطل ايضاً ، فبعد شهور من خدمة ابراهيم الحمدان صار يحكي بلهجة الجبل ، وقد اختار الكلمات السهلة محاولاً عدم استنزاف قدراته منذ البداية . ثم بدأ ينطق الجمل بلكنة قروية اصيلة جعلت الناس ينسون أنه غريب ، وجعلت كنج يسأل نفسه الآن عن الدعامة العجيبة التي تقدمها اللغة لصاحبها في أي مكان . تذكر ذلك وهو يفكر في الاطمئنان الذي لف القرية كلها بسبب الحضور القوي لضامن الذي امتزج بماء الناس كالخمر . أضحى واحداً منهم ، رغم الهوة الغامضة التي تغرق فيها أيامه الماضية قبل المجيء إلى البلد . لم يستعصِ عليه شيء فيما بعد سوى اختيار امرأة بسبب الشكوك التي خامرت الناس عن مذهبه الديني . فبقي دون زواج . ولن يذكر النساء مطلقاً سوى بعد هذا اليوم بعشر سنوات حين سيقول لكنج إنه لا يتمنى شيئاً سوى أن يلمس لحم امرأة كائنة من تكون ، لأنه نسي طعم ذلك . وعندها سيأخذه كنج إلى الكرخانة ، حيث سيبقى هناك خمسة أيام

كاملة، يضاجع فيها العاهرات اللواتي ابتهجن بجسده الناعم البض الخالي من الشعر كجسدهن. كان رقيقاً معهن حتى الموت. وأغرقهن بسيل عجيب من النكات والحكايا التي غرفها من بحر ذاكرته لدرجة أنهن صرن يضاجعنه دون أجر، بعد أن أقنعن روبير قوادهن الذي هيجت حكايات ضامن المليئة بالاروقة، والشرفات والفجوات الغامضة، والوقائع الرهيبة، ذاكرته. حتى أنه تراجع من مكانه وقال «إن الوحيد القادر على منافسته في رعاية العاهرات هو «أنت»

قبل ذلك أمضى ضامن سنواته كلها في القرية دون أن يرفع رموشه نحو امرأة. كانت طريقة ناعمة ومدهشة لإثارة فضول النساء اللواتي لم يخفين، في مرات كثيرة، رغبتهن في معرفة أسرار هذا الخولي الموشى بالغموض والسحر.

وانتهى به الأمر كي يصير مكروهاً منهن جميعاً، حين استعصى عليهن. لكنه لم يبالِ، ولم يبدل إهابه وأوصافه مطلقاً. وقد ظن ابراهيم الحمدان انه مخصي أو عنين، لكنه لم يرغمه على قول الحقيقة ابداً، وأطلق حريته في منزله الذي لم يخنه أبداً، رغم امتلائه بالنساء اللواتي اعتدن عليه حتى نسينه تماماً.

وكان يمكن لابراهيم أن يقتل أي مرابع سواه، لو كان في البيت حين مزقت فاطمة زوجته ثياب اخته وعرّتها.

لكن ضامن أطرق، وهما تتمرغان في وحل الدار، متشابكتين هائجتين كالقطط، ولم يتدخل، استدار متعباً، واختفى مثل الضباب.

ابرهيم ساطهما بالخيزرانة، وحين حلَفَتا له انهما لم تريا «ضامن» ولم تنتبها لوجوده، قال وهو يبصق عليهما «إن ظفره أشرف منهما» فأحرقهما الغضب، ونبت فيهما كره قاتل للخادم الذي وصف في لحظة جنون بأنَّه الأفضل. وفي المساء أنذرته دلال بلهجة سامة قاتلة بدي اقلع عينك اذا دخلت الدار مرة ثانية». فلم يدخلها بعد ذلك أبداً، رغم جميع المحاولات التي بذلها ابراهيم، وكنج، وأمهما لغسل ذكرى ذلك التحذير الحاقد.

وطوال أعوام عمل في مكان واحد، لا تؤثر فيه رتابة الحياة البليدة المسورة بجدار من التقاليد المغلقة، الثابتة، في قاعة واحدة هي مضافة آل الحمدان. والتغير الوحيد الذي صادفه في هذه السنوات هو تبدل السيد بعد موت ابراهيم، لكنه رأى انه مجرد تبديل طفيف يشبه تغيير الثوب، وقد ارتداه بعناية منذ اليوم الاول.

هذا ما حير كنج، فقد توقع أن ينطوي الرجل، ويملأ القرية بكاء على ابراهيم الذي آواه كل هذه السنين، وعامله مثل أخ، لكن ضامن لم يفعل شيئاً، وقد بعث بروده الصخري شعوراً بالغل في نفس كنج. لم يهجع الا بعد شهور، حين استنتج بأنَّ الحياة نفسها لا تعرف الحزن كثيراً، وإن كانت تعرف الألم جيداً.

لكنه أخطأ تلك المرة، فضامن لم ينسَ ابراهيم. ومَظْهَرُ السلوان الذي اتخذه كان خديعة، وقد استخدمه في البداية كي يبدي لسيده الجديد ولاءه، في عالم ليس له فيه أحد. أما أساه فخبأه، وهو يترنح داخل القلعة الحصينة الصامتة المسماة: صدره. حدث هذا دون ترتيب بلا مقدمات، وقال لكنج فيما بعد بأنه ما فكر يوماً بأن ابراهيم يمكن أن يموت. قال ذلك حين أحس بالأمان قرب الرجل الذي صار مثل ابنه، لماذا؟ هذا ما لفَّه بالحيرة. هل لأنه ظن بأن ابراهيم هو الوحيد القادر طوال حياته على مزج رجولته المفعمه قسوة، وصرامة، وجرأة، بحنان أنثوي شفاف شبيه بعطف الله؟ ربما، ولكن ذلك الرجل مات الميتة الوحيدة الجديرة بشخص من طرازه. موت بلا ضعف، ولا استخذاء. وهذا ما زاده سلواناً وطمأنينة، حين رأى كيف نجا ابن الحمدان من الالتواءات، والتوسلات. والهزائم التي تظهر الانسان بمظهر حشرة، أمام الموت البطيء الذي يأتي بالمرض. ابراهيم شرب فنجاناً واحداً من القهوة، ثم اتكأ على وسادته، ومات.

من جديد تذكر كنج البارودة المسروقة، وآثر الآن ألا يخرق الصمت الرجراج الذي ملأ المضافة، أطربته فرقعات الجمر الخفيفة الناعمة التي حافظت على تكسير السكون بنظام ايقاعي متغير وحيوي. وطفق يستمع اليها بحذر، ويراقبها بانتباه، وقد اتخذت لوناً نارياً تشوبه اختراقات مدهشة وغير متناظرة من السواد

المموّه غير المفهوم. وعندما رقدَت دلةُ القهوة على النار، انفلش الجمر براحة مُجرَّبة، تحت الثقل المفاجئ للجسم الاسود الفاحم، وأضحى كل ما في المشهد من شكل، ولون، وأحجام، جديراً بالتأمل واضحاً طرياً.

«تعرف يا بك؟» قال ضامن بهدوء، وهو يراقب سطح الدلّة التي تنبثق منها فقاعات لينة. انتظر قليلاً، بينما ظل كنج متجهماً، وقد تضرج وجهه وأومض بلهيب النار: «قبل ساعة عرفت مين سرق البارودة»

التفت كنج إليه، رن الخبر في أذنه رنين النحاس: «إذا قلت بعطيك ليرتين!». فابتسم ضامن للجائزة. كانت القهوة قد غلت، وملأت رائحتها الثقيلة هواء المضافة. رفعها عن النار قليلاً، وحركها، وقال دون أن يتطلع اليه: «سعيد عثمان!»

لو كان ذلك الاسم أفعى، لما قفز كنج مثلما قفز في تلك اللحظة. أرسل الى ضامن نظرة حقد مشبعة بالكراهية. نظرة لم يعرف كيف يخفيها أو يحبسها. ارتعد العسال الذي ظن قبل لحظة أنه يحدِّثُ السيد القديم الكئيب المجرب. ذاك الذي يطغى عليه برود لا نهائي يصعبُ فهمه أو معرفة خباياه، فتحطم كيانه، وهو ينتظر كيف يمكن لكنج أن يتجاوز محنته.

هذا لم يصدق، وشلّه الغضب الذي احتشد فيه، ضاقت ثيابه على جسده، وعصرته لوثة جنون افقدته توازنه، وصاح: «كذاب!» ثمَّ طأطأ رأسه، وظل قاعداً هناك ساعة، ارتفع بعدها، وتمتم: «مين قال لك؟» قال: «طلال»

قال كنج: «روح جيب الراعي!»

* * *

ظل وحيداً. وبرقت السماء شمالا، وأرعدت، ثم انهمرت حباتُ برد كادت تكسر زجاج النوافذ. فتح أحد مصراعي الباب، وراح يستمع للوقع الفوضوي القوي: لم يستطع رغم الريح القارسة، والماء الذي بلل وجهه وصدره،

الدخول الى المضافة. وقد منحته السماء هذه المنة الممجدة من الأمطار التي يعشقها، ويتلهفُ الى الصوت القرباني الذي تبعثه عند اصطدامها بالارض: «شتي!» هتف بالسماء المدلهمة، وهو يبتهل الى الله أن يكذب النبأ الذي تلقاه منذ لحظات. كانت رغبته في المطر ان يصير طوفاناً، وأن يأخذ نصف المنارة، ويضيعها كي تنسى قَسَمَهُ العظيم هذا الصباح، وتسدل على خبر البارودة المسروقة تلاً من النسيان، «شتي!» خاطب البروق، والرعود التي قوّست الوعر الشمالي بوميض باهر، ووراكمت فوق بلاط الساحة أسطالا من البَرَدِ الذي لوّن الارض ببياض صلصالي شاحب.

شعر بالغم بسبب موت أخيه، ورأى أن ذلك الراحل تركه وحيداً محاصراً لغرض سخيف لا معنى له: «اختبار قواه!» لكنه كان يفضل لو تركوه في عزلته، يرتادُ ذلك الوعر المتلىء بالاسرار. ويستقبل مشاكله وحده. لكن الزمن لا يقفُ، حتى لو أوحت اليه جولاته الدائرية اللانهائية في اللجاة، بالثبات والبقاء في لحظة واحدة. هنا كانوا يمشون، يركضون نحو فاجعته ومصيره بلا رحمة ولا اختيار. وسواء شاء أم أبى، فإنّ الساعة التي لم يتوقعها (ربما بسبب طيشه) قد جاءت «هات الراعي!» لأن مستقبله كله متعلق بكلمة واحدة يقولها ذلك الديدبان القذر بعد لحظات.

قطع تفكيره وصول ثلة من أهل المنارة، تكاثروا بعد قليل، وانشغل معهم في تبادل عبارات العزاء. شربوا القهوة المرة من يد شاب طويل القامة لم يعرفه. ودهش للسرعة الخاطفة التي كان يسكبُ فيها القهوة، ويقرعها بالفنجان وهي تشخب كالحليب. لا بدّ أنّ ذلك الفتى أمضى طوال شبابه يتدرب في المضافات كي يقوم بهذه الألاعيب المثيرة.

هدّأ وجود الرجال خشونة روحه، ولكن استسلامهم للصمت أخفى كما خمن رغبة في تفحص الرجل الكبير الذي صار منذ خمسة أيام زعيم المنارة. ورغم الانهاك الذي يفجعه، فقد حاول النجاة من حصار العيون الشاخصة اليه، باختراع سلسلة من أحاديث القرى: مواعيد الزراعة، وأحوال الحلال، والطرش، الخيل، وأخبار العائدين من السفر برلك، والديون، والمراعي.

فعل ذلك كله. وقاله، كي يضيع (كما خطط) انشغاله بنبأ السم الذي قطّره ضامن في أذنيه عند المساء. ثم أنصت بعد قليل لحديث الشيخ شمس الدين الآسيان عن الموت والقدر (وكان يشرد عنه كل ثانية، ويمشي في الزقاق القديم المبلط الذاهب الى دار عثمان، صارت البلاطات ترن رنيناً نحاسياً ترتدُ أصداؤه وتتجاوب بين الجدران الزرقاء العاليه. اجتاز الزقاق الأول وحيداً، وحين تجاوز الدرجات الثلاث العريضة لاحظ وجود ذلك الشبح الذي يتعقبه، بدا كالظل، حاول تفحص ملامحه لكن ذاك استدار وطفق يختفي ويضيع وحين رفع كنج رأسه أحس أن شالاً عريضاً يلتفُ حول عنقه) استيقظ حذراً، واستمع الى جزء ختامي من موعظة مشيخية.

قال: «يا شيخ! اليوم عرفنا سرآق البارودة، وأني حلفت بشي. وما في مين يرد يميني، شو رأيك؟!»

قال الشيخ: «صب قهوة!» كان سؤال كنج مباغتاً ومشبعاً بالخبث فغرق شمس الدين في تفكير حاول فيه استعادة محفوظاته النبويه القديمة. وكأنما نام لحظة، ثم استيقظ وقال:

قيل: أتى ذو القرنين إلى أمة صالحة هدوا بالحق وبه يعدلون فوجدهم أمة حالهم العدل والتراحم أخلاقهم حسنة وطريقهم مستقيمة وقلوبهم طاهرة ليس في أيديهم مما يتعامل به الناس قد احتفروا قبورهم على أبواب بيوتهم فإذا أصبحوا جاؤوا اليها وصلّوا فيها فإذا تعالى النهار خرجوا الى البرية فرعوا بقلها كما ترعى الدواب الحشيش وليس على بيوتهم أبواب ولا عليهم ولاة ولا بينهم فظاظة ولا غلظ ولا يتنازعون ولا يتباغضون ولا يتحاسدون ولا يقتتلون وليس فيهم فقير ولا مسكين فعجب الاسكندر منهم وقال مالكم ملك قالوا بلى رجل جالس على رأس هذا الجبل فأرسل الاسكندر اليه فقال مالي اليك حاجة فركب الاسكندر وصعد اليه وسلم عليه وإذا به رجلٌ من أعقل الناس وأزهدهم بين يديه جماجم يقلبها ولم يكترث بالاسكندر ولا انزعج له قال له الاسكندر أخبرني عن هذه الحالة التي أنتم عليها فإني لم أجد أحداً من الامم على مثلها قال اسأل عما بدا لك قال ما أرى في

ايديكم شيئاً من الدنيا فهلا سمعتم بالذهب والفضة وتعاملتم بها فقال لا لاننا مارأينا أحداً نال منها شيئاً إلا وتاقت نفسه الى ما هو أعلى منه قال فما بالكم احتفرتم قبوركم على أبواب بيوتكم قال لإنا إذا نظرنا اليها قصرت آمالنا فنذكر الموت قال فما بالكم ليس عليكم حاكم قال لاننا لا نتنازع على شيء قال فما بالكم بيوتكم ليس لها أبواب قال لان ليس بيننا خائن ولا متَّهم قال فما بالكم ترعون البقل وتتركون الحيوان قال نكرهُ أن نجعل بطوننا قبوراً لنا وفي البقل كفاية وقنعٌ قال فما بالكم لاتتنازعون ولا تتحاسدون قال لقد ألّف الله بين قلوبنا قال فما بالكم ليس فيكم فظاظة ولا غلظ قال تواضعنا لله فنزع الحسد والفظاظة منّا قال فما بالكم أطول الناس أعماراً قال لاننا نعطي الحق ونحكم بالعدل قال فما بالكم لا تضحكون قال لاننا لا نغفل عمن لا يغفل عنا قال مالي أرى هؤلاء القوم يضحكون قال مات لهم ميت قال ولم يضحكون قال سروراً بانه قبض على التوحيد قال ومالي أرى هؤلاء القوم يبكون قال ولد لهم مولود ولا يعلمون على أي دين يقبض قال فما هذه الجماجم التي بين يديك فبكى وقال هذه جماجم ملوك ملكوا هذه الارض واما هذه الجمجمة جمجمة ملك مَلَكَ هذه الارض مئة عام فبغى وعتا وتجبر وتكبر وظلم فلما رأى الله منه هذه الحالة حسمه بالموت فصار كالحجر الملقى، فانصرف عنه ذو القرنين متعجباً منه ومتعظاً به!».

لم تغب موعظة الشيخ عن عقل كنج أيضاً، وقد عرف انها كانت رسالة من معلمه القديم الذي أراد أن يواجهه بامتحان الايمان. قهقه بصخب ساخراً من سخافات الحكيم المتبطل، ثم صمت حين لاحظ أنّ ثلاثة عشر زوجاً من العيون تخترق لحمه، ولامَ سوقية التصرف الذي أبداه، وهو يعرف أنها ردة ضعف، وميوعة، كان أجدر به لو تحاشاها، ولم يكن هذا هو كنج الذي يعرفه «يا الله!» ردد في نفسه مستغرباً من نفسه، مدركاً أن شيئاً ما عميقاً وسرياً آتياً من الخفاء يغيره.

أنقذه وصول الراعي، كان مذعوراً وخائفاً. ومنذ أن لاحظ وجود الساهرين أصيب بالصمم، وتجاهل نصف الكلمات التي خاطبه بها ضامن العسّال وحين

هوت عليه عصا كنج، انبعثت من ثيابه كتلة هائلة من الغبار ورائحة ماعز. وفي اللحظة نفسها تبدل وجهه واكتسى وهجاً نارياً حاقداً. قبض بكفه على الذراع التي ألمتها الضربة، ودون أن يبدي ألماً أو اعتراضاً وقف منتصباً مستعيداً حواسه كلها وقواه.

لعن كنج الكلام في سره: فبالكلمات وبخه الشيخ منذ دقائق فقط، وبالكلمات التي سينطقها هذا الرجل المنتن سوف يدمر قلعة حبه كلها حجراً حجراً. وفي حين كان من الممكن ان تُنسى أشياء رخيصة لا تساوي شيئاً فإن مصائر بشر كثيرين تقررها تفاهة يمكن الحصول عليها كل يوم: «قول!» صرخ بالراعي المأفون.

«اللي سرق البارودة سعيد عثمان يا بك»

ردد الراعي العبارة مثل آية محفوظة، فشتمه كنج: «يلعن أبوك!» ثم طرده من المضافة، كأنه لم يكن يتوقع سماع هذه الجملة التي أيقن ألف مرة أنه سيسمعها. قعد ماسحاً بكفه العرق المتراكم فوق جبينه، وتولد لديه ايمان بأنه صار وحيداً وبلا سند حين غادر المضافة كل الساهرين، وها قدامتلأت حياته بالنيران، وباستثناء ضامن العسّال الذي ظل هناك استحالت المضافة الى ظلال. حولها الخولي الى سخافة حين تقدم الى كنج ومد يده وقال: «هات البشارة يا بك!».

* * *

(٢)

الرجال الاربعة الذين اختارهم كنج أخيراً بعد ليلة مسهدة، كانوا تعبيراً واضحاً عما يريدُ قوله لأهل القرية منذ الآن.

فالجميع يعرفون سلمان الراضي، ويخشون سوطه المجدول بعناية حائك، هذا الرجل لا قلب له، ولم يحترم في حياته سوى أولئك الذين يخيفونه. أمامهم، يطأطئ مطيعاً راضخاً دون أن تُمسَّ كرامته بخدش. شيء من القناعة الرسولية بأن مشيئة الله هي هكذا، كانت تتملكه. أما الضعفاء من أولئك الذين حرمتهم الطبيعة قوة الجسد، ومهارة العراك فقد احتقرهم دائماً. وطال احتقاره ابراهيم الحمدان نفسه. إذ رأى في تعقله غلواء تافهة، لا تصلح للشيوخ. فآثر البقاء مع الكسارة والغزاة كل الوقت.

ونواف الحماد ثعلب. لا يخب أمه نفسها. وقد شمَّ كالسلوقي رائحة صيد، فأفضى بسر البارودة لضامن، وانتظر ما يستجد. راح يراقب المضافة، ويسأل طلال إلى أن أيقظوه قبيل الفجر. فتمتم: «بسم الله الرحمن الرحيم!» مفتتحاً النهار الجديد الذي رآه مشوقاً، مليئاً بالمكاسب. حتى إذا سألته زوجته عن وجهته قال: «إلى العيد!» (وقد تذكرت ذلك وهي تنوح عليه مساء اليوم ذاته، وتعدِّدُهُ أمام سبعين امرأة)

أما حمود الحسن فكل ما قدمه هو أنه صب القهوة المرة في مضافة كنج، لكن أعظم ميزاته التي سيحتاج ابن الحمدان اليها هي: قوته الجاموسية، وامتلاكه عينين قاتلتين تميتان أيَّ كائن حي ما أن تبديا اعجاباً ما «وهو حسد مشحون بالكراهية

والبغض في الحقيقة» فإذا أضيفت إلى سمعته، رغبته الحيوانية في القتل والافتراس، فإن كل ما فيه كان شهادة طيبة لأغراض كنج.

طلال الراعي وحده، ادَّعى مرض إحدى النعاج، فقال كنج إن الرعاة اعتادوا دائماً بيع بواريدهم، واتهام الاخرين بها. عندها جن طلال، وشتم نفسه، وأباه، وأمه طوال ساعة، وقال: «يا بك، أنا خدامك!» وهو متعب ذليل، لاينظر إلى أحد.

حين اجتمعوا أمام المضافة، أوصاهم كنج وصية واحدة فقط:

«لا تكتفوه!»

كان يدرك طبيعة ردود الفعل لدى رجاله، وقد جاهروا برفضهم تنفيذ المهمة كما اقترحها، وقال سلمان الراضي: «ابعث له نسوان!» فعبس كنج فيه. كان يعرفُ أنه قادر على مباطحة الراضي، وكسر أنفه بضربة واحدة، وقد غامر برصيده الجسدي، ومشيخته حين قال: «وأنتو شو؟!» ارتجف الرجال الاربعة واهتزت شوارب حمود، وامتلأت عيناه بالدم. طأطأوا صامتين وقال نواف: «مثل ما بدك يا بك!». لكنهم لم ينفذوا مشيئته، وقد عرف ذلك في اللحظة التي سمع فيها صراخ سعيد، ونداءاته التي كسرت صفاء ليلته كلها. لكنه كان قد تجاوز رغبات قلبه، وميوله الصادقة، لتخليص الرجل من التهمة. وحين بعث إليه رسالة سرية في الليل الماضي، يطلب إليه إعادة البارودة، عاد ضامن خائباً. فقد أنكر سعيد كلَّ شيء، ولم يدفع الثمن، وفي أعماقه استيُقظت رجولة كانت غائبة دائماً. هكذا شرح ضامن: «سبَّ آل الحمدان، وتحدى كنج، وطرد الرسول» «ولن يعرف أحد أين تنتهي تلك الشتائم» كما شرح الخولي.

كانت رسالة محكومة بالاخفاق، ولكن فشلها لم يعذبه. لأنه رأى في حلِّه، سمواً ورفعة، رفضهما سعيد، وما ترك فرصة للتسامح. أغاظه ذلك جداً. وشعر أن الاشياء تندفع الى قدرها بقوة القضاء. لتسر اذن! ما دام الاخرون لا يفعلون شيئاً لردها وإعادتها. لكنه، مع ذلك، لا يستسلم لكل شيء. فالحلمُ ما يزال جزءاً من براعاته التي عامل الناس بها دائماً.

ثم إن الانتكاسة التي جاءت من رجاله الذين انتقاهم بكل تلك المهارة، وحاولوا ان يثبتوا أنّه أضعف من أن يكون سيداً مطاعاً، يأمر وينهي ويطاع. أضحت في الوقت نفسه ضربة حظ سعيدة له.

فالناس الذين فاجأهم غضبه المدوي، وشتائمه التي قرَّع بها المرابعين المارقين، ظنوا أن السبب هو إهانة سعيد. فانحازوا اليه، محتفين بهذه الروح المتسامحة، ممتدحين بداية الشيخ الشاب الساخط على ظلم سلمان، وحمود، ونواف، وطلال.

لم يتوقع ذلك. وقد أحس أنه تُوِّج قوياً من حيث أرادوا كسْرِه. ثم أيقن، بفضل ملاحظات ضامن التي أبداها فيما بعد، أنَّه صار مطلق الصلاحية. فالحب الذي وهبوه إياه في ساعة، سيصعب انتزاعه في أقل من سنة. لهذا وبخ سلمان علناً، بينما راح ذاك يصرخ أن الفكرة كانت لنواف، وأكد الآخرون رأيه. عندها تبسم كنج، والتفت نحو المرابع الصغير وقال: «أنت مطرود يا نواف!» قال انه يريدُ كلباً ينبحُ معه، لا كلباً ينبح عليه. فارتجف المسكين كطريدة، وصار يتوسل، ويرجو كنج دون أن يحظى بالرضا.

عند العصر وجدوا نواف مشنوقاً، وسرت شائعة بأن آل الفضل قتلوه حين عرفوا أنَّه مَزَّقَ ثوبَ فضه عثمان الفضل، وشتم أخاها وأباها وسلسلة أهلها.

لكن آل الفضل أنكروا ذلك. وقال صايل إنهم يشمئزون من تلويث أيديهم بدماء واوي. واعتبروه مثل دودة. لم ينظروا لضعفه -هذا ما يذكره- فهو لم يكن ضعيفاً، وإنما لقدرته الشيطانية على التخريب. امتنع عليهم دائماً، وما استطاع أحد الامساك به في أي جرم. ورغم مؤامراته التي لا تعد، فإنَّه كان يفلت دائماً. إما بفضل الحماية التي يسبغها عليه آل الحمدان، وهم الأسياد هنا بغير منازع، أو بسبب قدرته الخارقة على الافلات مما يتهمونه به. وفي جميع الأحوال، كان يتملص كثعلب وما سعوا لإخفاء كراهيتهم له.

لرجاله، قال كنج: إن عليهم أن يطيعوه فقط. وأوضح لهم أن مخالفة

أوامره ما عادت تعني له الكثير، بقدر ما يعني له الانطباع الذي يمكن أن تتركه لدى الناس. وقد بين أنَّ بإمكان الحشرة الصغيرة أن تغدو نمراً حيال كائن آخر تحس أنه أضعف منها. ما سبب ذلك؟ قال إنه لا يحبُ أن يعرف، ولا يهمه ذلك، لكنه لا يريدُ أن يرى أي محاولة أخرى لتبديل رأيٍ ارتآه.

السبب هو أن الآراء التي سيبديها ستكون، كما أكدَّ، ثمرة تفكير، ودراية بمصلحته هو.

«أكل هوا» قال حمود فيما بعد، «كلام لا يقوله سوى مجنون دعي أحمق» لكن المشكلة أن كنج كان يعنيه. وقد أقلق رجاله حين لم يأمر بفك قيود سعيد. فبدت كل الثورة التي افتعلها خداعاً أعمى لرجل محيَّر.

حتى كنج نفسه لم يفهم تماماً مغزى انعدام الرغبة لديه بتحرير الرجل الذي تسبب له بكل هذا. وحين اختبر عواطفه، وَجَدَ أنه لا يشفق عليه، وقد كرهه أيضاً. وساعة تلمس الرواق المفضي الى الروح، تبين أنَّ كلَّ ما كان يربطه بهذا الرجل قد انتهى. انقطعت الطريقُ بغتة، مطلة على هاوية، ولِم يبقي هذا القناع اذن الذي لم يعد يذكره إلا بسمِ الحاضر؟

ثمَّ أجلَّ لعبة الاختيارات للمساء، دون أن ينسى للحظة أنه يُغيظ المرأة التي يحبها. لكن طباعه، انقلبت فجأة «كأنك أخذتني وجبْتَ غيري» قال لضامن. امتلأت روحه برغبة في قهرها، واذلالها وكسر أَنفَتِها الفارغة كأَنفَةِ عنزة.

نادى سلمان وسأله إن كانت صباح موجودة عندما أحضروا سعيد. فقال: «لا» قال: «روح!». تخيلها وهي تبكي الآن، ثم توهج بالراحة والطمأنينة لأنهم لم يمسوها وإن كانوا قد مرغوا أختها بالتراب. المهم الآن رضاها. وقد يمكنه ذات يوم أن يرتق هنا الجرح الطفيف الذي سببه لقلبها. وسره الآن أن الاشاعة التي روجت غضبه وسخطه بسبب القيود التي أنهكوا سعيد بها (والتي ما تزال في معصميه) ستكون وصلت إلى مسمعها، وجد الأمر شبيهاً باللعبة، وهي لعبة ذكية خلقتها الظروف وحدها (ومنذ اليوم سيؤمن بها كثيراً، وينتظرها) فأنت تجني ثمار انتقام رخيص ما كنت تريده من شجرة لم تعتن بها.

أسعده هذا النظام العبقري الذي يسير الاشياء والأحداث والكائنات، متخذاً لنفسه سمات الشفيع، وأكسبته السعادة المخفورة بالأمل في اجتناب المنغصات، قوة جديدة لمواجهة مظهر التمرد الخفي الذي أظهره رجاله المهووسون باستعراضات العنف. وأطماع السيطرة، وأبداه أهل المنارة بخسة الحرائق، ولؤم السرقات.

بسبب هذا اعتقل سعيد، وبسبب ذاك طرد نواف الحماد لأنَّه ضرب الرجل الذي كان يمكن أن يكون نسيبه، ووصفه بأنَّه ناكر جميل ماكر ومحتال. وسأل ضامن إن كانت لهم ديون «عند هذا الكلب» فقال: «لا» أمام الحاضرين. ثم بدل إجابته حين اختلى بسيده واضعاً أمامه لائحة طويلة من الديون، اشتملت على أربعة أمداد من القمح، ومثلها من الشعير. و٦ ليرات، وثمن قماش لزوجته، دفعت نقداً لعلي الطبال وأبي معروف، يضاف إليها ثمن عصا من الخيزران، وسرج لحصانه، وعلبة خرطوش كاملة، ونصية حلاوة، وسحارة راحة، وهريسة.

«يكفي! يكفي» ردد كنج «العمى يحتاج ابن الكلبه لعمل سنتين حتى يسدد كل شيء»

هذا ما دعاه أيضاً ليرسل هدية «صغيرة» كما وصفها الى صباح سراً حملتها أم يعقوب الى هناك، متخفية وراء حجابها السميك الذي غطت به وجهها منذ أن جاءت الى هنا. كانت امرأة رسائله التي اعتمد عليها منذ شبابه، وصباه. لكن الهدية ما كانت صغيرة. إنما وصفها هكذا كي يبين تفاهة الاشياء تجاه أجمل نساء المقرن: ثلاث أزواج من الأساور الفضية، منديلان ملونان، وقطعة قماش لفستان. وخمس ليرات ذهبية

لفّت المرأة كل ذلك بصرة، ومضت بها محروسة برجاء كنج الى الله.

صباح التي كان من الممكن أن تجن وهي ترى الى وهج الذهب الخالص وطيور الوانه الهائجة. أو أن تنسحق تحت وطأة الشعور بأنها يمكن أن تغدو واحدة من عائلة جبارة تحلم جميع النساء برجالها. رفضت الهدية، غشى عقلها في البدء طنين مهلك عجزت عن مقاومته، وهوت في فراغ شفاف غلف أفكارها برداء سديمي غامض. ماذا ستفعل؟!

بجانبها رأت صحراء مقفرة خالية من أي عون أو رجاء. لقد خطفوا أخاها الأوحد اليوم، وظلت مع أمها وأختها مثل دجاجات. تقوّض حبها لكنج فجأة، حين سجنوا سعيد أخاها، ورأت إليه كيف يفجر بيده عمارة الوعود التي دقَّها، وعمقها، ورسم حدودها ذات يوم. هل هذا هو ثمن الحب الذي منتحه إياه؟! اختطاف، وتهمة رخيصة، وإصرار على إهانة الكرامة؟

لقد أنكرت في البداية خيانة كنج، راحت تحكي لأختها عن خصال الرجل الذي كان يبدو أمامها أعظم من مجون آل الحمدان، واستهتارهم بالناس. وكان يمكن للخبر الذي سربه أنصاره أن يزيد صلابتها في مواجهة سلاسل الحقد والكراهية التي قذفوه بها، لكن أمها صرخت: «بتبيعي سعيد بأشعار»

كان إحساس الام هو الغالب، وقد نقل آخرون لهن أن كنج كافأ جميع الرجال الذين اشتركوا في حملة الاعتقال: (بعد أن وبَّخهم) حيث قدم بارودة جديدة لسلمان وحمود وسترة وسروالاً لطلال.

بدت صباح مذهولة حائرة. ترى الى الاحداث تتطاول وتمضي في طريق التيه، مثل اللائذات الغامضة. وحين وصلت أم يعقوب وفلشت بكثير من الاحتفالية والجلال (اللذين ظهرا في حركاتها أكثر مما ظهرا في تعابير وجهها الذي لم تبد منه سوى عينيها) أحست أنها صارت في وضع اليائس: فقد أضحت مقتنعة بأن الهدية لم تكن سوى محاولة لشراء القلب من رجل باعها بكل برود من أجل بارودة.

احتاجت إلى شجاعة الشهداء كي تنطق بكلمة: «لا» وكان مدهشاً لها أن تقولها، وهي تحسُّ بالفخر، بلى، إذا لم يكن الانتقام وحده هو السبب للرفض، فإنَّ التحدي الذي يمكن لامرأة عاشقة مُحبة أن تظهره كافٍ لذلك.

حين فعلت، أحست أنَّها تخرج ناراً كاوية. وأن وجودها الذي سيجه كنج طوال السنتين الماضيتين بالحجارة والطين، يستعيد فجأة منفذاً هائلاً تتسربُ منه ريحٌ منعشةٌ محملةٌ بالحشائش.

بيد أنها راحت تنتحب بعد ذلك، فيما راحت أختها فضة التي نالت حصتها ذلك الفجر من الضرب، والإهانات، تواسيها.

بدت مواساة نافلة. فالاخت المهانة، لم تستطع اختلاق ارادة مقاومة لدى غيرها، في وقت راحت تحسُّ فيه بحاجة العطشان لمن يبلُّ فيها عروق الحياة. كانت كلماتها خالية من العزيمة، عارضة، وناحلة، تفتك بها الكارثة وتمزقها.

آثرت الصمت بعد ذلك، وآوت إلى همومها، وفراغ روحها وراحت تنتظر ما اعتقدت أنه شيء ما، فذّ، يهبُ هذا النهارَ البغيض إهابَ الرضى والقبول بينما راحت بعد ذلك تردد: ما في عدل! ما في عدل! ما في عدل!» كأنما تخاطبُ مخلوقات خارقة قادرة على تبديل الوقائع ومحو الشرور.

كانت الوحيدة التي تعرف أسرار أختها الصغرى، وقد حاولت مراراً ثنيها عن مبادلة هذا الرجل الحب، لكنها عجزت.

كانت صباح تصف لها تلك اللقاءات المختلسة من فضاء الوعر وتحويش الخبيزة، والهندبة البرية، والرشاد. فتتصنع الغضب وهي تحاول اقتناص تفاصيل اللقاء واحدة واحدة. منذ الاطلالة الأولى للرجل المتخفي خلف الصخور، إلى مفتتح اللقاء بالسلام الذي ينشر الطمأنينة، الى نهر الكلمات الفياضة باضطراب العذراء، واندفاع الرجل، إلى الخيال السارح لعاشقة فقيرة، رمى بها جمال نادر وسط نار مشتعلة بالروايات والقصص التي يمكنها، إذا انتشرت أن تلتهم عشيرة من الرجال. «لا يهمني» كانت صباح تقول «ما بقْدَرْ. صبُّوا علي الزيت وموِّتوني».

أما في هذا الضحى، فقد راحت تتمنى الموت. وهي غارقة في بحار أخرى من الهذيان، والجنون، وردود الفعل الثقيلة، وضياع الهدف والمخاطرة بنهاية الأبهة التي كانت في الامس فقط، تضيء دروب هذا الحماد الاجرد الذي يطمسُ وجود الكائنات.

لقد تحدت كنج، وبدلت ذكْره داخل عقلها، وراحت تخترع من خيالها

صفات مكروهة لأي رجل، وتلصقها به. حمّلته صنوفاً لا تحصى من الطباع الوحشية، والأفكار السوداء، والنتانة، وقفصت عليه سياجاً من القسوة. وجعلته كالديدان والزواحف وسمته افعى وذئباً وكلباً.

كل هذا لم يروها، واستحوذت عليها رغبة ضارية في اقتحام الدار الشمالية، وقذفها بالنار ووابل الحجارة، وتهديمها كلها.

عند العصر، جاءت أمها. بدت مذهولة ومتصدعة، فقد وشت لها فضة، في لحظة ضعف، بسر العلاقة بين صباح وكنج الحمدان.

علناً، صبت عليها لائحة لا نهائية من اللعنات، للإصابة بالأوبئة والأمراض، والفضائح، والعذاب الالهي. هاجت، وماجت، وقذفتها بالميجنة. ولولا خفة البنت، وسرعتها، لحطمت الأداة الخشبية رأسها.

عندها أقفلت الغرفة على نفسها، ورفضت أن تفتحها لأي طارق مهما توسلوا إليها. واضطرت أمها وأختها لاقتراض العدس، والبرغل والسمن، والملح، وأرغفة الخبز، والبصل لعشاء سعيد الذي أرادتا أخذه له في المساء.

غفت قليلاً، وحين نهضت، لاحظت، مذعورةً، خواء الدار. وبسبب النوم والغيظ، تلعثمت وهي تنادي فضة. لم تسمع أي صوت، وشعرت بالوحدة. وراحت تصرخ: «يايامـا! يا فضة!» ولم تهتد إلى الباب، وقد شلَّ الرعبُ أصابع يديها، فعجزت عن تحريك المزلاج الخشبي العريض. لم يهرع لنجدتها أحد. وانهارت تحت وطأة اليقين بأن شيئاً ما قد حدث.

وحين فتحت الباب بعد زمن، كانت الدار صامتة وساكنة، تعثرت ببيطس الفخار المليء بالماء، فدلقته، وكسرت بضعة كؤوس تركت في الطريق. ثمَّ انزلقت كعب رجلها حين لامست التراب المبلول، وهوت الى الخلف، تمسكت، بلا أمل، بقبضة ما، متُخَيَّلَة. ثم خبطت على الارض بكل ثقلها. طرطش الماء ملطخاً وجهها، وثيابها بنثار من الوحل، والصابون، وقطع الزجاج. سمعت شخصاً ما

يبكي. ثم دوت بضع طلقات. فأيقنت أنها تحلم. أجل، روَّعتها هذه الفوضى المنبئة بالخراب: فالبكاء، والطلقاتُ، وفراغ المكان، والخيوطُ السديمية الصفراء المفروشة على السلاسل الحجرية، وصمتُ الحمامات الغريبُ، والنظرات التائهة، والنباح الأرعن للكلب، واختفاء أمها وفضة، كانت عناصر لا واقعية، اجتهدت كثيراً كي تُقْنع نفسها بلا وجودها.

لكن آلام وركيها، حيثُ وقعت. وبرودة الماء الذي تسرب الى لحمها عبر المسامات المبتلة لكل ثيابها، أعادتها الى وعيها.

أطلقت شتيمة ضد نفسها، ثم سبَّت كنج، وأهلها، وحياتها وعمرها، والمنارة.

وحين نهضت، اقتحمت فضة البوابة. مشعثة الشعر، وارتمت على الارض، وهي تنوح: «ليش يا ربي؟ ليش يا الله؟!»

جنت صباح. وهاجمتها، وراحت تهزها بعنف، وتشد شعرها وتمزق ثيابها، وهي تسأل عما حدث.

لم تجبها النائحة، ونبهها صريرُ البوابة الذي تصاعد ثانية، لدخول أمها. كانت تحمل سراجاً، ووقفت هناك شاحبة كالأموات جليلة متحفزة. حدجتها بعينين غامضتين، وغمغمت: «فرحتِ؟!»

لقد منعها الرجال من الوصول إلى دار كنج بصرة العشاء، وخشيت أن يكون قد مات. وعندما قابلها وجه صباح، ورأت إلى ذلك الاشراق الغريب الذي يتغلغل فيها كالملح، تضاعف غضبها، وعرتها قشعريرة اجتثت كلَّ قدرة لديها على الفهم تقدمت من ابنتها، قرفصت قربها، وقالت بحقد:

«والله! إذا صار شي لخيِّك، غير طعمي لحمك للكلاب!»

(٣)

كان ذلك اليوم موعد سوق الطرش، ومنذ شروق الشمس أخذ الناس يفدون إلى المنارة، كانت قد أقيمت بضعة خيام في الطرف الغربي للميدان، ونصبت اثنتان عند حافة المطخ وواحدة في الزاوية الشمالية قرب البئر، وبُنيت الحظائر القديمة على عجل، وحسنت حيطانها، لتمنع قطيع الماعز الذي وعد حمود الساقي بجلبه اليوم، من الهرب أو القفز.

وصل فريق قرباط راقصين بصحبة ثلاثة سعادين حمراء، وفريق مبيضين بنوا كوراً في طرف الميدان، وأرسلوا فتيانهم الى القرية كي يجمعوا القدور والطناجر والمناسف النحاسية، فراحوا يصرخون «مبيّض! مبيّض!» وارتفعت نداءاتهم القصديرية في صباح الشوارع شبه راجية مستغيثة.

وحين جاء أول قطيع من الأغنام عجَّت في المكان دوائر غبار صفراء ورائحة حريفة وثغاء طويل متناغم مختلط لأكثر من مئة رأس، ما أن ولجت المكان حتى صار يسمع دبيب حوافرها، ووقع مشيها السريع المتراكض وصفير الراعي الذي يرافقها، وقد استجاب لأوامر سلمان الراضي الذي كان يدير السوق «خذها للصيره الشرقية»، قال آمراً بحزم: تردد الراعي قليلاً قبل أن يلاحظ قسوة نظرات المرابع الضخم. ثم رجم الاغنام بسيلٍ من الحجارة كي تندفع نحو الشرق.

جاء باعة جوالون، يحملون على ظهورهم بقجاً ملفوفة، فرش أحدهم فجةً عند طرف المطخ، مستظلاً بظل الخيمة هناك، واعتنى بالصُّرر واحدة واحدة، يفك عقدها ويفلش الاشياء منها: بدت هناك عقود ملونة، وأساور من الفضة، والتنك

مناديل زاهية، ومكاحل وصابون وأحجار مخرمشة لفرك الأرجل، وشبّة بيضاء، وأمشاط من العظم أو الخشب.

سرعان ما اجتمع الأولاد حوله، تشدهم البضائع الزاخره بالألوان والأشكال وراح البائع يبعدهم بلطف قائلاً: «روحو جيبوا أمهاتكم».

تلك اللحظة دخل عجال أبقارٍ، اندفعت إلى الساحة بلا نظام وهي تخور وتتناطح، وتركض مذعورة، يُخيفها الرعاةُ الثلاثةُ الذين ركبوا البغال بلا سروج، وراحوا يحيطون بها، ويدفعونها دفعاً ناحية الحظائر الكبيرة في الطرف الغربي.

جعل البائع جسده حاجزاً بينها وبين بضاعته، مذعوراً من أن تدوس أشياءه. راح يرفع ذراعيه عالياً ويصرخ بها «هوعي! هوعي!» والناس يضحكون، والابقار تتطلع اليه بعيون محمرة حاقدة، ثم تلوي رقبتها وتواصل ركضها. إلى أن دخلت صيرتها، واصطفت معاً، متداخلة، تجتر الوقت والانتظار وتحوم حولها اسرابُ ذبابٍ وقرادٍ وزيزان.

وجاء مرعي الدكنجي يرافقه أولاده السته حاملين سحاحير الراحة وكراتين الهريسة، وعلب الحلاوة، والجوزيه، وأسفاط الحلويات، وأطعمه، وأخذ لنفسه مكاناً قرب حيطان دور السمانين، مقتعداً كرسياً ضخماً، وراح يجيل بصره في الساحة، ريثما ينهي الأبناء ترتيب الدكان المتنقل.

أتى فلاحون من القرى المجاورة، يقدمون أعواد حراثة جديدة، وأنياراً وأكياس شعير وعروضاً لبيع التبن الزائد، وبيضاً، وجبناً جديداً طازجاً مغطى بفوط رقيقة ناصعة، ولبناًو وسمناً.

وحين استقروا في الوسط، تحدُّوا الرعاة البدو الذين كانوا يفتحون ظروفاً جلدية ويسكبون قليلاً من السمن على طلامي الخبز، ويقدمون لُقماً منها للمتجمهرين هناك. بدأت شبه معركة، وخاض المتنافسون في كلام ومساومات ولعبة أسعار، والناس يتكاثرون، ويأتي باعة اخرون وشارون ومتفرجون، ثم

يفسح الجميع الطريق لقطيع خيول داست السوق وهي تصهل وتعدو، كان حمود الحسن يقودها، وبدا وسط معمعة الغبار التي ثارت كالشبح، كبحها حالاً. ثم استوى واقفاً، وصار يضحك وهو يشد أعنتها إليه معجباً بقوته. راح حصانٌ يصهل حين رأى أنثى واقفة خلف متراس من الحجارة. حفر الأرض بقائمته الامامية وحمحم بلا جدوى.

داخل الساحة وقف رجال يختبرون بعيونهم أجساد الخيول المعروضة للبيع وقال بدوي سمين ذو كرش ضخمة، يتزنر بحزام من الفشك «هذي كُدش. عرفتها من صهيلها. ما تشوف كيف تخن وترتخي؟» فقال حمود: «هذي أصيلة أكثر منك» فارتجف البدوي وشزر الرجل بعينين قاتلتين ثم استدار وهو يقول: «وش علي، نشوف!»

لم يسمعه حمود، وساق الخيول إلى سور القلعة حيث ربطها إلى حلقات حديد كانت هناك، ثم راح يتلهى بالفرجة على النساء والبنات اللواتي جئن إلى خوام فرشَ أقمشته قرب الدرج الصاعد إلى منازل الجزارين، فجأة طرق الاسم سمعه، أنصت جيداً اليه، وعرف أنه ذلك التاجر الذي كانوا يذكرونه ليلة أمس في مضافة كنج، فجره نحو القلعة، صاعداً الدرجات قفزاً، ليعلم الشيخ بوجود أبي معروف الشهير في بلدته.

الخوام الذي جاء إلى المنارة لأول مرة في مشيخة كنج، أبدى امتعاضاً خفياً، ظهر في تباطئه، وحركاته العصبية، وهو يلم أقمشته ويلفها كيفما لُفت، ثم يحزمها على ظهر حماريه القبرصيين بشدة، ويمضي وراء حمود.

أبو معروف ظن أنه مدعو لحضرة واحد من أولئك الشيوخ الذين اعتادوا سلبه وابتزازه طوال السنين التي أمضاها هنا، يزور القرى، والبلدات لبيع الأقمشة. كان ذلك هو الثمن الباهظ الذي اضطرَّ دائماً لدفعه لقاء الحماية الكلبيه التي يمنحونه إياها، من قطاع الطرق، والكسارة. والمشلحين. بيد أنهم كانوا يشلحونه أيضاً اكثر منهم جميعاً.

لهذا لم يتحمس للقاء كنج، وهو يعرف على كل حال أنه مجرد حمداني آخر صغير ربما كان أكثر شراهة من الجميع.

غير أنه بدل أن يرى ثعلباً، كما ذكر لمعارفه فيما بعد، وجد سبعاً. أحس أم مفاصل يده كادت تتحطم وسط سلاميات كنج الخشبية العملاقة التي أحاطت بها من كل جانب كالنير، بهره الرجل وقال إنه رأى النبي لوط بقامته الشبيهة بصخرة، وعينيه البركانيتين، ووجهه الترابي المؤطر بسواد حطته وشعره الفاحم الملبد الذي لا يمشط إلا بمحس خيل، وصدره العريض كصدر حصان، وقامته التي تبدو مثل قطعة رخام، صنعها الله سبحانه وتعإلى ليظهر عظمته فقط، أما ترحيبه بالتاجر فيشبه قصيدة.

اكتفى أبو معروف في البداية بترداد عبارات الشكر والعرفان. لكنه بعد نصف ساعة من التأمل والتفكير ورؤية ما يحدث، قرر أن يتحرك: راعه ذلك الصوت الرخيم الممتلئ الذي ما أن ينطق بأمر حتى يتراكض المرابعون لتلبيته، أذهله تسلسل الأشياء التي يتحدث بها، ثم تلك التوصيات القوية لتنفيذ ما عزم على تنفيذه في سوق الطرش. كان سلمان الراضي هناك، وحمود أيضاً، وطلال الراعي وكبار الجزارين، وآل السلمان، وأولاد بارود، ورغم أن أبا معروف لم يعرف ماهية السر فإنَّ أحساسه بسخونة الأرض، وشدة الأمر على كنج كانا صريحين.

ما أدهشه هو تماسك الرجل الجديد الذي بدا لعينيه أكبر من عمره، لقد ظل يبحث منذ خمسة عشر عاماً عن هذا الشيخ بالذات كي يحميه حقاً، وحين أهداه منسف النحاس الضخم الذي كان معه، فاخر كنج به الحاضرين، وأوصاه أمامهم جميعاً بجلب واحد خاصٍ به ذي اثنتي عشرة حلقة.

وعندها قدّم له أقمشة من الأغباني الدمشقي والبروكاو، وقنابيز من المرمَّح الأزرق، وقلادة عقيق مزيف، وثوب خام أبيض، وأقمشة للجبة وحطتين.

فيما بعد، حين توطدت صداقتهما، أفضى أبو معروف لكنج بما كان في قلبه تلك الساعات: «لو عرفتك قبل سنين ما شاب شعري» كان يشير إلى لحظات

الرعب والهلع التي كانت تنتابه وهو يعبر هذا الوعر الزرقاوي المجنون ويفكر بقطاع الطرق، وبالذئاب المزبدة التي يمكنها تقطيعه بضربة، وبالضباع التي تنشر رائحتها النتنة لتختطف فرائسها.

ضحك كنج بقوة. قهقه وخار كالثور: «لكن تعرف اني بحب الأخوة أيضاً» وكان يعني مسلك الضبع التي تسبع الناس وتجعلهم يركضون خلفها صائحين: «وقف لي يا خي!»

قال أبو معروف وهو يبتسم ابتسامة ماكرة حاذقة:

«لكن أنت سبع يا أبو هايل»

كان ذلك التقريظ كافياً ليملأ أعطافه بالمآثر، فقال طَرِباً جذلان: «ليك يا بو معروف، عهدا علي، اللي بيطلّع فيك غير اقلع عينو، اللي بيمد ايدو عليك غير اقطعها، واللي بينهبك رح اقتله!»

لقد وفى بوعده، واغتال، بعد سنوات، محمد العابد في مغارة سعد، حين سرق بضاعة أبي معروف دون أن يكون لديه علم بقسم كنج الحمدان.

عند الظهر، كانت الساحة ممتلئة بالبشر، وكان اللغط والصخب ومجادلات البيع والشراء والتوصيات والحوارات تشغل الجميع عما يحدث في الركن الغربي حيث بدأ مرابعو كنج يثبّتون عموداً غليظاً من الخشب الأسود في حفرة عميقة حفروها بسرعة. وزاد في استغراب أبي معروف أنهم كانوا يضحكون، وجرّبوا مرة واحدة شد العمود وزحزحته، ثم راحوا يدعسون التراب حوله، ويشيرون اشارات رمزية خاصة، ويقومون بحركات ايمائية ممثلين ادواراً خفية لم يفهمها.

وربطوا السارية من الأعلى بحبل أبيض، عرف أنه من بضاعته، وأراد أن يعرض عليهم حبالاً أخرى ملونة، وقد اعتقد أنّ الأمر ربما كان لعبة يريدون تنفيذها في السوق بحضور هذا الحشد.

لكن قلقه تضاعف، حين لاحظ أنّ بعض النساء والبنات والأطفال جيء بهن

عنوة من الأزقة البعيدة، وسحبن إلى الاسطحة ثم أُرغمن على الجلوس هناك، كنَّ من جميع الاعمار، حدس ذلك من ألوان ثيابهن التي صار خبيراً فيها منذ زمن بعيد.

وصعد فتيان وصبيان إلى الأمكنة العالية، وتسلق قسم منهم سور القلعة وقعدوا هناك مشرفين على الساحة، يدلون أرجلهم إلى الاسفل.

بعد قليل أغلق مرعي دكانه، وظل في مكانه بينما حمل أولاده السحاحير والعلب ومضوا بها مسرعين إلى الدار، ليعودوا بالسرعة التي ذهبوا بها. وراحت أشغال السوق تهمد شيئاً فشيئاً، وتوقف البيع، والشراء، دون أن يبدو على أحد رغبة في مغادرة المكان.

واضطرب أبو معروف، وأحس أنه غريب فعلاً، وأنه لا يفهم أيَّ شيء عن هذه البلاد العجيبة، وكاد ينادي بضعة شبان وقفوا بعيداً عنه يراقبون حركة المحيطين بالسارية، حين لاحظ حشدَ المسلحين الذين اتخذوا مواقع حراسة ومراقبة ورصد في مداخل الساحة، وعلى الاسطحة، وفي الشوارع المفضية اليها.

ووصل كنج مخفوراً بحاشية من حاملي البنادق، والسيوف والعصي يجرُّ وراءه وجهاء البلدة ورجالها الذين تلفعوا بعباءاتهم وحطاتهم منذ أن وطئت أقدامهم الساحة.

اشتد البرد فجأة، وهبت ريحٌ غريبةٌ عاتيةٌ ثم برزت في السماء غيوم رماديةٌ، وهطلت بضعُ قطرات، بينما أخذ كنج يتحقق بنفسه من ثبات العمود ويهزه، ثم يأتي ناحية التاجر المأخوذ الذي فأفأ وهو يرد السلام ونهض من مكانه وهرول خلف مضيفه الشاب وقال وهو يشير إلى الكلاب والبكرة في الأعلى الشبيهين بكلاليب جزار:

«بدكم تذبحوا شي جمل يا بك؟»

فالتفت نحوه كنج مندهشاً، ضاعت عيناه والتمعتا التماعة فاجرة، وقال بفرح:

«لا يا بو معروف، بدنا نعلق حمار»

فابتلع الرجل الجواب التافه المخنوق، وخامره شعور بالرطوبة في حلقه والبرودة عند الصدر، وخلا عقله من أية فكرة، وتراجع ببطء إلى موقعه، وراح يجمع بضاعته مسرعاً ويحزمها بقوة، سوى انّهم لم يسمحوا له بالرحيل، وجاء أحد المرابعين وقال إن البك يريد منه أن يبقى ويتفرج وينبسط.

ولم يطل الامر حتى جاء حشد من الرجال المدججين، يسوقون فتى ناحلاً معوجاً خائفاً كأرنب، كان ذلك هو سعيد عثمان نفسه، وتقدم سلمان الراضي، وأخذه من وسط المسلحين أخذاً، بدا بجانبه كالطود، وقاده بيد واحدة بينما راح الفتى يحاول التملص منه، كالديك، وينظر حوله إلى الناس بعينين زائغتين مستغيثتين، وينادي ويطلب العون ويقسم أنه لم يفعل شيئاً!

لكنه عندما وصل إلى العمود الخشبي كان قد فقد كل أمل، ولم يبدِ هناك أي مقاومه، حين أخذ سلمان يقيده إلى الحبل في الأعلى بعد أن جعل ذراعيه تعانقان السارية، وحزم ساقيه في الاسفل كما يحزم القش ثم اسند خده إلى أحد وجهي الخشب، فصار مقابلاً لأبي معروف، ينظر اليه نظرات فارغة بلا معنى.

أحضروا سوطاً كستنائياً لامعاً، وجاء مرابع بزجاجة عطر صفراء، فمسح الراضي وجهه ويديه ورش بعض العطر على ثيابه ثم أعاد الزجاجة، وخلع جبته وشمر عن ساعديه. صمت الناس. وتأهبوا، وراقبوا:

مزق سلمان قميص سعيد بيده، فسُمع في الساحة ذلك الصوت الاخرق الشبيه بالحشرجة، واستغاث سعيد بأمه، بينما طاف الراضي بعينيه في الحشد. فطأطأ الجميع رؤوسهم، وسارع الأقربون اليه يشيحون بأبصارهم عنه، أو يبتسمون له ابتسامة رياء، ثم توجه ببصره ناحية كنج وقال: «جاهز يا بك!» فأشار ذلك اليه إشارة غامضة تشبه الارتجاف.

في الحركة الأولى فرقع السوط في الهواء ثم أصاب ظهر سعيد في الوسط فصرخ هذا صرخة مجنونة، وانبجس الدم، وشهق الجمهور، وأجفلت الخيل وتطلعت نحو الساحة منتبهة، وغطت بضع نساء عيونهن وتأوهن.

أما في الضربة الثانية، فقد تشنَّج رأس سعيد، وارتفع عالياً، كأنما شدته أضلاع الجسد، وضغط على أسنانه، فخرج صوته شبيهاً بالشخير والوتوتة. ثم تجمد منتظراً آلامه.

بعد ذلك، راح الراضي يجلده بلا توقف، محاولاً في كل مرة أن يبعد مكان الضربة عن أختها، وفي كل مرة كان اللحم يتمزق، وكان الدم ينبجس أحمر قانياً ويسيل في خطوط متعرجة نحو جزئه الأسفل المغطى.

وصارت الضربات مؤلفة من حركتين وصوتين: احداهما فرقعة فارغة في الهواء، والثانية اصطدام الجلد بالجلد.

وصار سعيد بعد الضربة السابعة، يتراخى ويسقط، وبدأ صوته يخفت ويتلاشى حتى أضحى أنيناً شبيهاً بالنحيب. وتقدم حمود إلى الساريه وشد الحبل بواسطة البكرة قليلاً، فارتفع الجسد إلى موضعه الذي انزاح عنه، بينما تابع سلمان شغله، وراح يهدر مع كل ضربة سوط بصوت خشن متقدٍ: «هه!.. هه!.. هه!»

وهاجت الكلاب منذ أن شمّت رائحة الدم، وعوت بسعار، وقد غشّى أبوازها فقاقيع زبد دخاني، واقتربت، وراقبت بعيون محمرة ضارية كشاكش الجروح المدهشة التي يتلألأ فيها الدم، وأخذت احداها تخرأ خراء أخضر، وصارت أخرى تعوي عواء طويلاً متصلاً جارحاً كعواء ذئب.

بعض الناس بدأوا يتركون الساحة، وخرجت احدى النساء عن الصمت وبدأت تبكي بصوت مسموع واضح، ثم تخلى أحد الرجال عن مكانه في الصف الأمامي، وشق الحشد متراجعاً ثم مضى نحو القرية، لحق به بضعة شبان ورجال.

غير أنّ اولئك الذين كانوا ما يزالون بعيدين. اقتربوا قليلاً الآن حتى

استطاعوا رؤية وجه سعيد: كانت عيناه ذابلتين، ولونه شاحباً مصفراً، وخداه يرتجفان رجفات سريعة متواترة ورأسه تهتز بلا إراده، وصار صدره يحشرج حشرجة عميقة، ويدفق قيئاً أنمش من فمه.

أشار كنج لسلمان إشارة خفيفة، ثم أدار ظهره ومضى، حوله اتباعه ورجاله ووجهاء بلدته. لا ينطقون ولا يتكلمون ولا يتطلع أي واحد فيهم إلى الآخر.

وخوت الساحة من الناس بعد دقائق، فيما ظل سعيد معلقاً إلى خشبته مكرها على أن يظل مشدوداً إلى الأعلى، فيما يرغب الجسد في السقوط، مدمى يهاجمه قراد خيل وبقر. ويكوي جلده العاري برد قارس اشتد بعد الظهر.

وترك هناك أكثر من ساعتين، مخفوراً بأولئك المرابعين الذين سدوا المنافذ كلها، إلى أن أمر كنج، فجاؤوا وفكوا قيوده وأخذوه إلى باكة القلعة، ورموه هناك في الزبل والخراء.

وفي المساء، سأل أبو معروف كنج حين كانا وحيدين «ليش هذا يا بك؟» فقال: «الحياة يا بو معروف لعبة، بالأمس بعثنا ذهب ردوه بهدله ومسبّات، اليوم بدنا نبعث دم وزب ثور (مشيراً إلى السوط المصنوع من عضو ثور) لنشوف شو بيرجع!»

فقال الخوام بلا تفكير: «وإذا رجعلك دم؟»

سكت كنج، وظل يحرك النار في النقرة، أحسّ أن رأسه خوَت من كل شيء، ولم يجد ما يجيب به عن السؤال فقال:

«منجرب!»

(٤)

لم يمض على مجيئه من المقلع أكثر من ساعة، حين أخبروه عن احتفال الجَلْد في سوق الطرش. فتأهب «كامل الفضل»، وارتدى ثيابه على عجل، ثم انطلق إلى هناك محاولاً أن يمنع الجريمة عن ابن عمه، لكنه منذ أن دلف الى الشوارع القريبة من القلعة، لاحظ كثافة الأسلحة المنتشرة هناك، وازدياد عدد المرابعين المتربصين بجميع المداخل والمنافذ المطلة على القلعه أو على داره.

كان رجل حسابات وعقل، عرف عبث المحاولة، ولا جدوى التدخل المتأخر لدى الرجل الجديد الذي أضحى سيد المنارة، فعاد من حيث أتى إلى الدار، ليجدَ هناك امرأة عمه وبناتها ينظرن إليه باحتقار، وهنَّ يبكين بكاء مراً مبحوحاً مضى عليه يوم وليلة، وأخوته يتأملون تردده، وأخواته مروعات برجوعه السريع الذي جعلهن مكشوفات من الرعب والهلع «ما الذي يحمله لهن هذا اليوم؟!

لم يحدث قط أن عاد كامل بهذا الوجه. بدا رثاً، تالفاً، شبه منهار وقد ضلّله الموقف تماماً، وصدَّع عقله، وعلى الرغم من أن ثنيه أخته فهمت أمره، فإن في عينيها ظلاً من الشك والوجد والأسى، ملأ صدره بالكآبة. وصار يفكر: «هل أمضي مرة ثانية وأعرِّض نفسي للموت، أم انتظر وأفوز؟» وذهب إلى الباكة هارباً، وهناك وجد جماله عطشى، فتلهى بسقايتها، ورأى الى جملهْ الكبير شبه هائج، وعرف أنهم تركوه بلا أكل في اليومين اللذين غابهما في المقلع، كان يحدق فيه بعينين ناريتين، أرهقهما الانتظار، فقال كامل: «شو عليه! شوْ عليه!».

ظل هناك حتى المساء، ثم عاد. وأغلق الباب على نفسه محاولاً أن ينسى،

إلى أن سمع دبيب «صايل» في باحة الدار كدبيب بغل: كان يشتمُ آل الحمدان جميعاً، وهو يتمنطق بحزام الرصاص، ويملأ صدره بالجنادات المحشوة حشواً، ويحمل بندقيته الألمانية ويمضي.

كان يعرف أنه يحتاج لسرعة الفهد، حتى يستطيع اللحاق بأخيه، وأنَّ عليه أن يكون بعد ذلك سداً أو جبلاً حتى يقدر أن يوقفه. هكذا عندما قفز من عليَّته منادياً «يا صايل! يا صايل!»، كان أخوه يعدو كالنمر نحو قلعة آل الحمدان.

هذا هو صايل-وهو يذكر كيف كان يعود كل مرة من رحلاته بفوز ما، يذكر أنه جاء قبل تلك الحادثة بفاطمة بنت حمزة السعد من جبل المسيح إلى هنا.

لقد رآها من نافذة المضافة أولاً، ثم عرض عليها أن تتزوجه حين صار في باحة الدار. ثم جاء عند الفجر واختطفها. لكن البنت فوجئت في السهل بأنه ساق معها ثلاثة ثيران من عجّال أبيها، فصارت تضربه وتقول «تأخذ البقر معي؟!» قال إنه أراد أن يجعلهم يتلهون بالثيران فقط وينسون أمرها. كانت أيام حراثة، وقد عرف بقوة الحيلة أحكام اللعبة ونجاعتها، كانت الفكرة طرية في ذهنه، وقد فطن لها عندما خار أحد الثيران وهو ينتظر فاطمة، ففك وثاقها، وقادها الى السهل الغربي، ثم رجع إلى البنت.

لكنها لم تبق عنده أكثر من سنة، أنجبت له فيها صبياً، أخذته معها إلى أهلها حين طلقها، كان قد صبر على رائحة فمها التي سببها نخر الاسنان وتآكلها، أهملت علاج الأعشاب الذي وصفوه لها، ورفضت أن تقلع أي واحد منها بسبب رعبها من الكلَبَة في يد حسَن، وندمت بعد ذلك لأنَّ حالتها تفاقمت، وأضحى النوم قربها هماً يجعل صايل شبه مريض، ولا بد أنه صار يكرهها، وعشق امرأة أخرى اختطفها من دار أبيها قبل طلاق فاطمة، لكن هذه ما لبثت أن أرسلت إلى بدور تسألها كم بقرة جلب معها هذه المرة.

كانت المرأة سليلة آل زيد، وشقيقها هو غالب الذي قَتَلَ زعيم عرب النجا في معركة المرج الشهيرة. وقد اضطر آل الفضل للتوسل عند نصف شيوخ المنطقة كي

يرضوا غالب زيد نفسه، ووددفعوا مهراً بلغ نصف ثروتهم، لهذا فإن بدور، التي لقبوها هنا بالست، ردّت السؤال قائلة «إن الفلاحين وحدهم تهمهم البقر أكثر من بناتهم»

لم يعرف صايل بالمعركة الكلامية إلا بعد أربعة أشهر، فأعطى بدور حماراً، وأعادها إلى أهلها قائلاً: «رجعي عيشي عند الشيوخ!»

الذين حوله اعتقدوا دائماً أنهم ازاء زير مزواج، ومغامر كسّار فقير القلب، لكنّ صايل كان بعكس ذلك، قلقاً، معذب الوجدان باحثاً عن امرأة تشبعُ القلب لا الجسد، في وقت كانَ الرجال فيه يرون أن المرأة ليست أكثر من حقل خصب صالح للحراثة وحسب!

لم يفهموه، وساهمت اختياراته في خداعهم، وهو لم ينكر أمام أي واحد عشقه للجمال الذي اختطفه كل مرة، لكنه قال للذيب الأعرج فيما بعد أنه أراد دائماً صنفاً من النساء يوجدن كي يحبهن. وقال إنه لا يريدُ أن يفعل أي شيء لتغييرهن، وأن المرأة التي سيحبها موجودة في مكان ما من هذا العالم.

لهذا آمن بالطلاق، وجده حلاً الهياً خلاقاً وعبقرية ربانية لا تدانيها سوى عبقرية الخلق نفسها. وطالما تعجب من ذلك المبدأ الذي يرغم اثنين على تقاسم حياة معذبة لا يريدانها طوال العمر، وحين سمع ردّ بدور على فاطمة أحسّ أنها تجرح كبرياءه، وقال: «إنّ من تملك هذه الخناجر لا يمكنها أن تداوي القلوب».

صايل لم يستطع الوصول الى بيت كنج الحمدان، إلا بعد المغيب، وقال لكامل فيما بعد معتذراً «مين بشوف هالبواريد، لازم يعد للألف قبل ما يمشي صوبها». كان كنج قد نشر سبعة عشر مسلحاً على أسطحة المنازل والشرفات المطلة على دار الفضل، وملأ بوابة القلعة، وأسوارها، والطرقات الشمالية، والساحة بهم أيضاً. لقد أوقد النار، واستعد لها.

اضطر صايل أن يختفي بعد ذلك، مبتعداً عن آله، وعن المنارة ذهب الى

الوعر، وربض هناك بانتظار الليل، ثم مشى بعد ذلك نحو القلعه، كانت الليلة حالكه بلا قمر، وتحاشى المرور من المنافذ الرئيسية، معتمداً على ذكاء كنج وحده، الذي لم يضع حراساً في منازل آل الجزار. ومن هناك تسلل زحفاً وتسلق الجدران درجة درجة إلى أن صار قبالة المضافة الممتلئة بالساهرين والحكايات.

لم يكن يعلم أنه حين سيرقى أول درجة من درجات الحائط الحجري الغارق في العتمه، إنما كان يزج بنفسه، وبآله، في طريق شائكة، طافحة بالمجهول الصعب. لن يعرفوا الخروج منها أبداً.

ومن المصراع المفتوح، رأى الى المصباح المعلق وسط المضافة المكتظة بالناس. فصاح: «كنج!!» ثم أطفأ المصباح بطلقة واحدة من بندقيته.

انتظر وهو يرتعد سماع الجواب، لكن المكان الذي ثقبته الطلقة، انفغر وامتلأ بالصمت، ورطوبة المساء البليدة، ورعشة الوحدة التي حاصرته بغتة، حين قابلوه بمجرةٍ من السكون واختفاء الرد.

نسي ما الذي أراد قوله، وماذا سيفعل بعد هذه اللحظة الخافتة. ملأته الكلمة اليتيمة بالوحشة، وأسرفت في هدِّه وتخضيب روحه بخدر ثقيل مدبب، تراجع من مكمنه كالمأخوذ، لم تكن هذه من سجاياه، ولم تكن تلك اللحظة الناصلة مما يعرف، فقد اعتاد أن يواجه بهول من المرايا الغاضبه، تنثال على جسده، أو على روحه كالماء، ولا يحلو لصايل أن يعيش بلا ماء تشفي فيه النار العمياء التي توصد قلبه.

لكن كنج تركه عطشان، وقال لرجاله حين سمع صوته. واستثارهم النداء: «لا توقفوا بوجهه!»

أما حين غادر صايل المكان، واضيئت المضافة فقد قال بأسى:

«يظهر ان فخاخنا ما بتصيد يا سلمان»

قال الراضي بغطرسة:

«يمكن نصيد من غير فخاخ يا بك»

فهز كنج رأسه، رازحاً تحت وطأة القهر العميق الذي طفح في صدره:

«هاي بدها نمر»

فقال سلمان بلا تردد «أني نمرك يا بك»

أسقط كامل طاسة الماء من يده حين أخبره صايل بما حدث، لقد صَدَقَ حلمه الآن: فالشجرة التي رآها تحولت الى ثعلب، وخرجت من الوكر حمامة بمنقارين وعين واحدة، حطّت على جبال سوداء قاحلة. لقد جهد منذ العصر أن يظهر لاخوته أن مقارعة كنج صارت اليوم صعبة، وأن ذلك سيحول حياتهم الى لعنة. ولكنه نسي في الجرس الصاخب للمساء المترنح، خرابَ صايل، وفوضاه، وخفوت صبره.

تغلغلت، الآن، في دمه، رائحة المصيبة، وانثالت في احشائه، وضيعت ايقاع تفكيره الذي انساق كرهاً نحو المصير الذي غدا ينتظر أهله، كان يعرف كنج، وقد امضيا شبابهما معاً، وادرك أن وراء ذلك الرجل الهادئ، ثمة خطر صقيل مرهف كالسيف. والان إذا جمع مقتل نواف الحماد في الأمس، وجلد سعيد، وسرقة البارودة. وتهديد آل الحمدان في القلعة، فإن كل الحسابات كانت عدوة.

أهلكه التفكير في مصير أهله وخوفه عليهم، وذعره من جنون كنج الشبيه بجنون جبل، كل هذا صدع رأسه، وأثقله، وأوصد مسالك الضوء فيه، ومضى يدخن بشراهة، وشرب ثلاث كؤوس من الدبس، من خابية خزفيه حارة.

«تذكر فجأة لون الخابية: حيث يختلط الاحمر بالبني المحروق، ويتحدان في التماعهما، مزروعان برشق من السواد، وخدود من الصفره الشاحبة. من «عين قنيا» جاءت مليئة بالزيت ذات يوم، ثم امتلأت دائماً بالدبس، أو الزيتون أو النبيذ، يذكر أنه ألهب بلعومه بالنبيذ الحار الذي جاءهم من دار حسن الجمل، كانت الطعوم الطرية الغامضة قد ملأته بالنشوة، دخل الى فراغ غريب انسربَ إلى رأسه

فجأة. وفيه تختمر ملامح خطوات جديدة وآمال. تذكر أن لون الخابيه هناك في خربة موته كانت مثل ذلك، وأن صاحبه اختفى وراءها، فأين مضى؟!»

تلك الليلة، أحصى كامل وأخوته ثلاثين بندقية في المنارة، وحين قسَّمها على أسرته وجد أن نصيب كل واحد من الرجال خمس بنادق. فعمي قلبه عند هذه النتيجة، وصمم أن يدفن الحادثة بأي ثمن.

لم يكن قد جرب كنج بعد، واعتقد بأن الرجال الذين يحيطون به الآن سمموا أفكاره وقراراته، وسلمان الراضي يصفي بسيف سيده حساباته القديمة بغلٍ قنفذ كئيبٍ، وحمود الحسن يصعد السلم لوحده، قادماً من اليتم والفقر، وطلال اللعينَ يبصقُ نذالة الرعيان، وآل الجزار والسلمان، وأولاد الضواهر...

أخذه الحزن ومضى نحو الغرفة الشمالية، فقابلته رطوبتها الخانقه. أيقظ دخولُه أخاه الأصغر هايل، فقال له: «نم!» ثم استلقى على ظهره، وأغفى.

تذكر أنه مضى بعد ذلك نحو وادٍ مجهولة. مشى في أزقة معتمة حيث أغاظه مسلحان، وقال لهما إنه يبحث عن كنج، فتركوه، وأنهم حاصروه بعد ذلك وسط الساحة، هناك حيث جلدوا سعيد، وكانت دماؤه ما تزال غضة. خرج إليه خمسة مسلحين، خرطشوا بنادقهم في الدائرة حوله، ثم أرغموه على الركوع، وكتَّفوه، وعصَّبوا عينيه، وقادوه في طويق طويلة صاعدة.

لا شك بأن الأمر بدا لكنج مثل السحر، فقد أوقعوا بكامل الفضل نفسه، وساقوه اليه. مقيداً، لا يبدي مقاومة.

لم يصدق في البداية، وظنَّ أنهم في الظلمة قادوا غريباً، لكن البطر استبد به حين رآه من شق في الجدار واقفاً أمام المضافة.

كما توقع، لم تكن آثار المذلة ظاهرة على ملامح الرجل، وأوقدت الكبرياء المجلجلة التي تحداه بها نار كراهية، شرخت روحه شرخاً، فلم يخف حقده، وأيقن تلك اللحظة أنه كان يكره الرجل طوال عمره، رغم أنهما أكلا معاً، وشربا، ورغم

أن صلات دم بعيدة تربطهما، لكن شيئاً ما كالخدوش الكئيبة في مرآة روحه، جعله ينبش من قلبه روح الغيظ الذي طالما استحوذ عليه من غريمه هذا. حتى هذا الرأس المرفوع بشموخ فارغ بدا مشبوهاً وفظاً في لقائه.

مضى وقت طويل قبل أن ينطق أحدهما، كامل في القيد الذي لفَّ جسده-وكنج في مشاعر الشؤم التي حاصرته.

أخيراً، تحدث كامل و وبدأ يكلمهم جميعاً بصوت راعش جبار قائلاً إن هذه الحبال التي يربطونه بها ليست سوى لعبة أولاد، وأنه جاء بنفسه اليهم لكي يوقف الدم الكثير الذي يوشك أن يسيل، وهو مستعد لاثبات ذلك الآن «شوفوا!» قال لهم، ثم انتفخت أوداجه، وعروق رقبته، واحمر وجهه، وجحظت عيناه. وطقطقت عظامه، ونفخ كالثور، وأرغى كالجمل حتى بدأت الحبال تنسل خيطاً وراء خيط، وتنشُّ كالماء، وتتقطع وتتساقط إلى أن صارت نتفاً من المزق الهالكة المرمية على البلاط الحجري. ذهلوا جميعاً من القوة الفاجرة التي انهمرت هنا، وهيأوا بنادقهم ليطلقوا النار فأشار كنج إشارة صمت.

تلك هي اللحظة التي رأتها دلال، أدهشها الرجل الضخم بصوته الراعد وقوته الجاموسية. توقفت حركةُ دمِها، وغمرتها قشعريرة وبرد ترك جسدها معلقاً في هواء الليل الصامت الزمهريري، ومضت، وروت لأمها ما حدث، وهي تهمس لنفسها (ما حدا بيصلح لدلال الحمدان غير كامل الفضل).

كان ما يزال واجماً منتظراً جواب كنج على عرضه: يدفع ثمن البارودة ويكمل سجن سعيد بنفسه حسب ما يقرره كنج وتتوقف العداوات.

لكن كنج بدا ساخراً هازئاً بالعرض، قاصداً ان يجعل من فكرة التضحيةِ التي لا يجرؤ عليها سوى رجل مثل كامل الفضل، شيئاً تافهاً وصغيراً.

قال: «لا» رافضاً كل شيء، وهو يدرك أنه يحطم الماضي والمستقبل بكعب

حذائه، قال: «لا» كي يظهر لكامل أن زمان كنج القديم ولى، أخرجها من تحت لسانه، واستدار باحتقار وقال: «اتركوه!»

عند البوابة، قابل أمه، فقال: «ها! أم ابراهيم؟» كان واضحاً لديه أنَّها عرفت ما يحدث، سألته عن كامل، فقال باستخفاف «بدو يدفع ثمن الباروده» قالت: «قبلت؟» فقال: «تصكْ!» ناطقاً صوت الرفض وحده. هزت رأسها بأسى، وقد داخلها إحساسٌ ترابيٌ مبُهم، وداهمتها رؤيا نبوئية جارحة، فلحقت به. وركزت عينيها في وجه ابنها الذي بدا طافحاً بزرقة الحقد وقالت: «من اليوم عُد الميتين يا كنج»

سوف يعدُّهم كثيراً، لكن ما لن يفهمه إلا متأخراً هو كلمات دلال التي قالت له بغيظ: «السبع ما بيرجع فاضي!»

(٥)

تلك الليلة أقسمت صباح أن تخلّص أخاها بنفسها، أخفت عزمها عن أهلها، وارتدت أسمال عجوز، ورقت نفسها رقوة طويلة من كتاب الأمير السيد، خشية أن يذعرها الرصد الكامن في خربة شيان، تحزمت بنطاق، وتلثمت بحطة سعيد، ثم انسلت كالحية خارجة.

لكنها قبل أن تصل البوابة رجعت حالاً، وكادت تتسبب في خراب قسمها حين داست ذيل القطة التي ماءت خائفة ثم استكانت للمسات صاحبتها، ولنومها المترع بالغرغرات.

استلت خنجراً من خزانة طينية، وتأملت ترصيعاته قليلاً ثم دسّته في نطاقها، ومضت خفيفة مسرعة إلى دار كنج.

كانت تنوي أن تجثو عند قدميه، وأن تقدم له كل ما يريد: خذ سلة الروح، جرار الجسد، ملبية نداء ذلك الشيخ الطاعن الذي جاء في الحلم اليها وكان يطفح برائحة شوق، وصرخت به «بيَّ!!».

كانت تعرف رسالته منذ كان حياً، وها هي تتذكرها، فآل الحمدان هم أسياد هذه البلدة، منذ أن قال لها كوني فكانت! هكذا كان يؤمن، وقد نُذر لهم، ولم يستطع أحد ممن عاداهم أن يبقى حياً، إذ لدغت سلمان النصر حية، ومات مؤيد العامر مسبوعاً تنهشه الضباع، ومزقت سيوف رجالهم علي الكايد في وادي الصقر، وهو يتعشى في خلوته التي دامت سنين.

كانت نادمة لأنها ردَّت هدية كنج؛ «حمارة!» قالت لنفسها وهي تسمع صلصلة الموت الزاحف نحو أهلها وترى إلى ذعر كامل وإخوته.

لكنها لم تدرك انعدام البصيرة في قرارها إلا في اللحظة التي انعطفت فيها نحو مضافة كنج، وقد عوَّلت على المفاجآت، وردود الفعل وحدها، حين قابلته، فجأة، عند الدرجة الأخيرة لداره. كان متلفعاً بفروة سميكة، وممسكاً بعصا غليظة من المنتصف. عرفته من عصاه، وأوشكت أن تقع، وقد أحست بدوخة مفاجئة، وشعرت أنَّها تنعتق من وجودها، وتدخل في ضياء زرقاوي مزبد. اتكأت الى الجدار مفعمة بالوجد، وبحالة اللاوجود، وكادت تهوي لولا كنج الذي احتضنها بذراعيه، شمت رائحة عرق منعش يانع، واستعادت يقظتها.

قال كنج، وهو يرمقها بانبهار وخوف:

«أمي قالت. .» ثم لم يكمل، جرحت الكلمات بلعومه، وفجرت قلبه، وحقد على أمه لأنها تلفظت بتلك النبوءه البائسة، سألها وقد نضب ماء قلبه:

«ليش جيت؟!»

فردَّت دون أن تفكر:

«منشان آخذ الهدية». لم تخف دلالها، ورفرفت بينهما روح رقيقة، ارتعش كنج بالغل، وامتلأ بحقد حبيس وصار يرتجف، وهو لا يعرف ماذا يفعل:

كانت تمد نحوه بصراً خاشعاً مشبعاً بالندى-وايماءات الحب، فاحتضنها، وقبَّلها، وحملها بين ذراعيه، وقال لشخصٍ ما «روح من هون!»

أحست أنها ترقى درباً هلامياً طافحاً بايقاع خطواته الشاسعة. لاحظت رقة حركاته حين وضعها على الفراش، ونعومة أنفاسه، ورأفته. وبعثت الجلود الدافئة رعشة خافتة في جسدها، فهمست: «احضني!» لكنه بدل ذلك راح ينزع عنها ثيابها، ويلقي في الهواء ذلك الحطام الخفيف، فيتزوبع ثم يهوي، وينتشر على الأرض في ايماءةٍ مرهفةٍ.

وشيئاً فشيئاً، امتلأت أرضُ المضافة بجزرٍ مزركشةٍ وصافيةٍ ومجعدةٍ من أمطار الملابس، برق جسدها كالضياء، وقد تلاشت، وراحت تنزف عرقاً، وحباً، ورائحة صابون: «احضني!» تمتمت، فعصرها، وهو عاجز عن ضبط انبجاس الرغبة النشاب، ثم احتضنها، ملبياً نداءها الخافت الغض المقدس، وهو يجهر بغرامه، امتلأ حضنه بلحمها الفائر بالغلمة. كل شيء فاض بالنور: الوجه، الذراعان، الصدر، النهدان المنتظران، الساقان، وفوهة النار المنداة بشوك طريٍ داكن، وماءٍ جليل!

ودون أن يملك قُدْرَةً على ردِّ قَدَرِه، أولج فيها. ثم تغلغل حتى النخاع، حين سمع من الغيب تقريباً، آنةً ليليةً ناعمةً، تكسرت قليلاً قليلاً مبشرة بانتهاء النزوح.

(٦)

تلك الليلة أيضا، مضت دلال الى كامل بلا خنجر. غسلت جسدها بالحليب، ورشته بماء الزهر، وفوحت شعرها، وغمرته بعطر جارح ابتاعته في اليوم نفسه من أبي معروف. ولبست له طربوشها المشنشل بالرباعي، والليرات، والغوازي، والقرانيصات، وفوطتها الجو رجيت الباذخة، وثوب عرسها القديم الذي أعادته معها من دار ذوقان الهندي بعد موته. وحين تخطت عتبة الدار، أحست أنها تتخطى عتبة انشغالها وهمّ قلبها الذي روعها طوال المساء: لم تلتفت الي الوراء أبداً، كأن هذه الدار التي شهدت مولدها، وصباها، جدها وعبثها زواجها وعودتها السوداء. لم تكن موجودة في أي يوم.

ومنذ أن رأت كامل، وهتفت بنذرها الذي نذرت نفسها له، وهي ترزح في حمّى تقصي الطريق التي ستفضي بها إليه. امتلأ عقلها وقلبها بالخوف، وهلعت وهي تنحت التوقعات، واللوعات، والصبوات التي ستخلقها فعلتها. هل ينتهك آل الفضل أخيراً ملكية آلها التي طوقت المنطقة بأسرها، منذ سبعين عاماً؟ هل يفجرون، في التعرجات المفاجئة لافعال كنج، رقودهم الذي ظن الجميع أنه نضب؟ لن تفلح في استجلاء ما سيحدث. وقد أرهقتها حوارات العقل والرغبات، ونبش الحكايات القديمة بلا طائل.

أرادت أن تذهب الى المضافة، حيث كنج. ثم امتنعت، حين وجدت أنّ رأسها فارغة خاوية كالدخان. ونامت قليلاً دون أن تبدل ثيابها فيما كان ابريق الشاي ينفث بخاراً أبيض. وكانت الجمرات الأخيرات تهدر آخر لهب تملكه.

بدلت وسادتها، وتغطت باللحاف جيداً، ثم تأملت أمها قليلاً، لتكتشف أنها لاتحبها! شعرت أيضاً بأنها لن تأسف في أي يوم على فراقها: «مسكينه» همست للعجوز النائمة، وقد رأت اليها بعين الخيال، بعدما سترحل: وحيدة في قفارٍ كئيبةٍ، ترعش بالأسمال. عجوز هشة، ممحوة تقريباً، ناحلة وزرقاء، لا تمنح إلا ما تريد.

هذا ما قدرت عليه في حياتها، أدركت أنها لم تكن بخيلة تجاه أحد ومنحت كلَّ ما لديها لآل الحمدان: للأب الذي لم ترَ بريق قلبه أبداً، وللأخوين اللذين كانا كالماعز يرفسان بياض خيرها، واخضرار تعلقها بهما كلما مرق في رأسيهما زيز أخرق، وأخيراً لهذه الانقاض المكومة تحت اللحاف، المخدده بستين عاماً من الوهن واحتمال الجنون المشتعل لنمر الحمدان، ذي الوجه الزيتوني، ولولديه ابراهيم وكنج.

يكفي هذا! قالت دلال لنفسها. تكفي الزوايا المعتمة التي عاشت فيها. تكفي غياهب الوحدة في ممرات عمرها الأربع والعشرين.

هكذا أقنعت نفسها، لكنها فوجئت بهذه الصفحات الموحشة التي قلبتها، ونبشتها من ذاكرةٍ ظنت أنها طمست في اللحاء الخشن لبلوطة عمرها. وبدت لها المناكدات الصغيرة. والمنغصات التافهة، أهوالاً حارت كيف تفسر صبرها عليها.

لكل هذا صار لديها الحق باختيار كامل الفضل، والذهاب اليه، وأن تقول له «سامحني!» لأنها ردت طلبه قبل عام، حين جاء يخطبها، احتارت في مهارات العقل، في قبوله ورفضه، فيما يبغضه، وفيما يقود القلب إليه. ولهذا أرسلت أم يعقوب لتقول له: «اقبلني»

كان بردٌ، وبدأت تمطر رذاذاً، أغواها وشحن قوتها بطاقة جديدة، لفّت نفسها بمملوك شديد السواد، وتأبطت صرتها التي وضعت فيها زوجاً من الأحذية، وفوطتين، وزجاجة العطر، وشقفة ثياب سوداء سوف تفصلها شنتاناً لكامل (الذي رأت الى ثيابه العتيقه المرقعه وهي تتلصص في العشاء) ثم خرجت من البوابة

الكبيرة، خلافاً لخطتها الأولى التي فكرت فيها أن ترتقي السطوح، وتنزل عن السلم الشرقي.

اجتازت الخطر الأول بلا منغصات، وانزلقت البوابة بين يديها بخفة، بسبب الشحم الذي أشبع ضامن به مفاصلها، مرت منها نحو زقاق آل السعد، حيث سارت بحذاء الجدار الشاهق الذي أحلكته الغيوم، تلفتت وراءها أكثر من مرة، ووقفت، وأنصتت وحين تبينت أنها وحيده، ولا أحد رآها، ولم يتبعها أحد، اندفعت في طريقها كالعصفورة.

كامل، الذي رآها مقبلة، غصَّ بريقٍ جافٍ نشَّف أوتار حنجرته. كان قد انتهى لتوه من السؤال عن حال سعيد، دون أنْ يظفرَ بإجابةٍ، وتمنعِ جاد الله الجزار، وفوزات الشامي، وسلامه العبد الله الذين استفسر منهم واحداً واحداً عن تقديم الأخبار إليه، اكتفوا بالصمت، أو ادعاء الجهل فعاد من الطريق الشرقَية وحيداً مرهقاً مسحوقاً بسبب ما رآه من الذعر على وجوه الرجال.

عشّى الجمال، والخيل، والحمير، وطلَّ على الطرش والحلال، ثم دار دورة واحدة حول الدار، يستقصي أمانها. يتبعه أحد الكلاب الى أن أكمل مشواره، ورآها.

كانت تشق طريقها إليه وسط الضباب الناعم. انتظرها حتى دانته، ووقفت أمامه وهي ترتجف، وتلهث في ايقاع مطري مبهر.

لم تستطع النطق بحرف، ورنت إليه بعينين واهنتين. فشلت رغم القوة الهائلة التي بذلتها، أن تمنع عنهما ظلال الرجاء.

باغتته الدعوة النابضة بالألق، وبدت له دلال جميلة كالنسيم، وقد بللتها الأمطار، فالتصق نسيج فوطتها الشفاف بطربوشها الذي سالت داخله دوائر الذهب الحار.

دهش من المجيء المجهول الذي أسره بحمى الاسئلة، وفراغ اللحظة التي لم يجد ما يقوله فيها.

دلال نفسها، تمنت لو تتسول، أخرستها المفاجأة التي واجهتها وأذهلها التوقيت الطيب لمغامرتها الغضة.

انتبها معاً إلى أن المطر قد اشتد، فأخرج كامل محرمة بيضاء من جيب جبته، ثم جفف الماء عن وجهها الذي بدا كالواحة، مضاء بهالة مستديرة، وقال:

«جيتي وحدك؟»

بدا غبياً في السؤال، لكنها عرفت أن اللقاء المفاجئ قد أصدأ كلماته وتفكيره فتمتمت:

«إي، لكامل الفضل!»

عندها صار يهز رأسه، ويلوح رقبته وفيما بعد قال لدلال بأنه اعتقد أن الحائط الحجري قد شف وصفا حتى استطاع رؤيتها حين كانت في دار كنج، وساعة شلحت ثيابها، ورأى إلى جسدها العاري، هتف: «الآن عرفت» لأن لون بشرتها الأسمر سال بشراهة لا حدود لها على الفراش، والأغطية. واخترق النوافذ والأبواب وجدران المنزل هاطلاً كالليل في كل مكان.

تذكر أنه اكتسح أنسجة لحمه تلك الليلة، ونقي عظامه، وخثارة دمه، وشرايين صدغيه ووجنتيه وسحقه سحقاً في عاصفة ظهوره:

قال لها بما يشبه التقديس: «اللي بتتحدى بيت الحمدان بتنشال عَ الراس!»

فهمست: «لا، خذني بين يديك!»

كانت متعطشة إليه، تعطشاً جعلها لينة كالخبيزة، تسربت شمس الرغبة اليها، واختبأت تحت جلدها، وفي حلمتي ثدييها اللتين لم تلمسا منذ دهر.

أمسك يدها، ثم صعد بها نحو العلية، حيث أيقظ أخاه نايل الذي نظر متلعثماً نحو العروس البيضاء التي لم يعرفها. لكنه هبط الدرجات ركضاً، وأيقظ اخوته وأخواته، وقال إن كامل تزوج جنية! بدا كالحمار، غبياً ومسرفاً في الرثاثة، أقسم لهم أكثر من مرة أنه رآها، وأنها تنام هناك في العلية قرب كامل. فركضت

هنده وحدها نحو النافذة كي ترى رفيقة أخيها، لم تنل شيئاً، وصدقت خرافة نايل حين سمعت انزلاقات حروف محمومة لشخصين مضطجعين، فعادت الى أخواتها مملوءة ببهجة غامضة، لم تفهم معناها، فيما كان صايل قد ذبح كبشاً، وهو الذي يعلم سرَّ مسارات الليلة، وأوقدت ثنيه ناراً واستعملت غريبة كل مهاراتها في تسخين الدف الذي بدأت تنقرُ عليه بخفة فأر حقول.

حين سمعت دلال غناء البنات ذُعرت قليلاً، ثم استكانت لكامل. عانقها كالغيم، فهمست:

- «ظنيت إني رح اتجوز مثل الأرامل»

كانت جذلانة بالعُرس الذي أوقدوه في الأسفل، وهي التي اعتقدت، حين كانت في الطريق إليه أنَّ أهله سينشرون حولها سياج بغضاء. فقبلها في جبينها، ثم قبل فمها، وعندما لاحظ أنها ترتجف أججَّ الموقد بحطب زيتون وجزل، حتى استحالت الغرفة الى جحيم مسعور، عندها لفحه وهج جسدها العاري، اخترقه كالنصل وقاده كالفراشة اليها، فتحت ذراعيها ودعته، وحين رأت أنه صار غريقاً جزعاً تدوي فيه الصرخات، عانقته، حين أتى نحو عريها البرتقالي المكلل بالجمر.

شعرت بالرعب والإختناق لحظة انهال عليها كثيب الرغبة هذا واستغاثت: «خذ يدي! هاتِ ذراعك!» حيث كانا قد ابتدأا رحلة الجنون التي لم يعرفا كيف ينتهيان منها في جميع السنوات التي أعقبت ليلة زواجهما الخضراء.

(٧)

وفي الليلة ذاتها مات سعيد عثمان. كانوا قد رموه في باكة الحمير الغربية منذ العصر، مقيداً بحزام من الجلد نسوا أن يفكوه، وتركوه هناك بلا ماء، ولا طعام. وحين استيقظ من اغماءته، خنقته رائحة القذارة المباغتة.

كانت تصل اليه هدهدات ناشجة من النافذة العلوية، وطرقات حديد مُحمى ونحنحات، وصهيل خيل من عند حنا البيطار، ولغط زبائن، فشعر بالخزي بسبب الرائحة البغيضة التي يغرق فيها، والاستلقاء الثقيل الذي ظن أنه لم يستطع تغييره بسبب القيد في يديه.

لكن رعبه، اندلع فجأة حين تململ، فأحس بأنه يهوي في سرداب دامس بلا نهاية، موشى بالدوامات والسكاكين القاطعة، ثم طفحت عظامه فجأة برطوبة صفراء، حين حاول النهوض.

تأكد بأنه عاجز عن القيام بذلك، عاجز عن تحريك ذراعه الأيمن أو الأيسر، ولا الالتفات إلى أية جهة، والحركة الوحيدة التي استطاع القيام بها، وهي تحريك وركه وفخذيه قليلاً، أحرقت جروحه من البول الذي تسرب اليها.

ظن أنه ميت، والشيء الوحيد الذي لاحظه هو سحب البخار التي يصعدها الزبل المتراكم في غلالات شفافة، تدوم ثم تنسل من نافذة علوية مكسورة الزجاج.

لا يعرف لماذا انتهى تفكيره فجأة الى أمه، ولا كيف تذكر أقاويلها التي كان يصفها بالخراقة، والجنون، حين كانت تهدده كل يوم بهذا المصير القذر. كيف

استطاعت كشف هذا المجهول الغامض قبل حدوثه بسنين؟ ومن أين استمدت قوة الغيب تلك كي تنذره، فلا يستمع لها؟ لا ريب أنها أحست بذلك منذ مات أبوه، وقد أصابها جنون عجيب توّج عقلها بنبوءات الخراب التي جعلت آل الفضل يسخرون منها بعد أن ثقبت أذانهم برغبتها في العودة الى وادي التيم.

رفضت صباح ذلك، ورفضه هو كذلك، ولم تستطع أمهما ولا فضة التي وافقتها، أن تفرضا رغبتهما.

لماذا لم يستجب لذاك النور الذي خاطب عقلها، وأقنعها بالغيب الحاصل؟

وها قد تخلى عنه الجميع، تركه أبناء عمه بين يدي كنج، مطروحاً هنا في القذارات، دون أن يعلم شيئاً عن سر عذابه.

وقبل هبوط الليل الذي أدركه من عتمة النافذة، وانقطاع مطارق حنا، وتثاؤب الخيل المضطرب، انتعش فجأة على صوت المزلاج في البوابة، مرق شبح قصير ناحل الى الداخل يسوق حماراً، ربطه إلى معلفه، وبصق رائحة الروث والبراز بازدراء، كان سعيد يرمقه بعينين وانيتين، وهو يرجو أن يلتفت نحوه كي يكلمه، وظن أكثر من مرة أن الرجل سيفك قيوده، بعد انتهاء هذه الحماقات التي يقوم بها، لكنه لم يفعل. وبال في الزاوية، ثم ربط دكة شنتانه وفتح الباب وخرج.

عندها ارتكب الخطأ الذي أفضى إلى موته، فما أن ارتفع المزلاج وأوصد الباب، حتى أطلق من أعماقه صراخاً صاخباً طويلاً رناناً مفعماً بانتفاضة الحياة فيه:
«وين راحووووا!!»

الكائنات الوحيدة التي استجابت لندائه، هي القراد، لقد أغواها هذا الجسد المبقع بنبشٍ من الدماء الشهية، واللحم المسحوق، فبدأت بالتهامه منذ المساء وحتى جاء كنج، فجر ليلته الخارقةو ليجده غارقاً في الروث، منحنياً على خاتمة جسده انحناءة اخيرة، كان بإمكانه بها، لولا القيود التي نسوها، أن ينهض، ويفرَّ، قبل انفجار احشائه في وليمة الحشرات الأكولة.

ركض كالمجنون وأخذ ينتزع رجاله من نومهم، ويطلق النار على كل شيء. قتل البغل الكبير، وحماراً أبيض، وكلباً متجولاً نبح عليه في الخارج، وكاد يصيب ساق حمد العجاج الذي كان اول الفازعين اليه، ثم امسك بحامد الحمار (وهو الذي أطعم الحصان في المساء) ومرّغه بالبراز حتى غدا كالجيفة.

هيمنت علي الرجال حالة ذهول وكآبة، جعلتهم يتسربون من أمامه واحداً بعد الآخر، كالدخان، مثقلين بأسئلة غامضة عن سر ثورة الشيخ الوحشية لموت الرجل الذي حكم عليه بنفسه قبل ساعات.

اجتروا في الخفاء ألف سبب دون أن تثير ريبتهم آثار الحب التي بدت عليه، فظل وحيداً في الدارو مزبداً كالجمل، حيث لم يجد ما يفعله سوى تكسير الصحون والكؤوس والمصابيح التي طالتها يده، قبل أن يستسلم لنشيج حبيس أهلك صدره بسبب موت الخراء هذا.

بدأت القرية تتغطى بالضباب، فسارع يأمر رجاله ليغسلوا الميت، وقد لملموا مزق لحمه، وقطع ثيابه وجاؤوا بها إليه، ثم حمموا ما تبقى منه بالماء والصابون وعطروه وفوحوه ولفوه بكفن شديد البياض من المقصور. وفرشوا تحته سجادة مزينة بتراصيع وأفلاك وتشاخيص نساء سابحات، فضرب كنج جبينه قائلاً «أخ!». قالها بلا تفكير ولم ينتبه في لحظة الصدق العاطفي التي غمرته إلى دهشة رجاله الذين حدّقوا به.

هكذا بدا في أعينهم ضعيفاً ورخواً حين أبدى هذا التأوُّه المزري، على ميت مُنتن بائس. لم يكن هيناً عليهم تصديق انفعاله. وعدُّوه غريباً عنهم، أخرجوه للتو من قلوبهم التي لم تكد تمتلئ به في النهار الفائت حين وجدوا فيه آفةً آكلةً كثعبان، وغوراً مخيفاً كبئر.

لكنه الآن، وقد أبدى تلك الحركات الحمقاء، المملوءة بخرق صبيان، وجزع نساء، انفضوا عنه، وتركوه قائماً قرب جثمان سعيد، يتأمل القتيل الذي طفح في رائحة العطور، وطفا داخل كفنه، وقد بان وجهه فجأة شديد الاحمرار، حين

انعكست نار الموقد عليه، تألق حتى ظن كنج أنه يسمع همهمة خافتة تندلع من المكان، وتملأه بإيقاع مرهف حبيسٍ على حافة التفجر.

هذا بلبل عقله، وجعله يخفقُ في تدبير أحوال النهار المقبل: كيف يوصل النبأ لصباح؟ كيف يقلل هولَ الكارثة؟ وكيف يواجه ترديه في نظرها الى مستوى قاتل؟ كيف يرمي هذا الحاضر الماثل القاهر في غيهب النسيان؟ ومتى؟!

وإذا نسيه جميع البشر، فهل تنساه صباح؟. حين يتذكر أنها قبل ساعات كانت مطروحة بين ذراعيه، تختلج بالشهوات، وتتأجج بالحب الفردوسي الذي منحته إياه، يكاد يجن، لقد خلبت لبَّه، رغم أنه حين رآها على حافة الدرج الحجري، ذليلة، رخيصة، وضعيفة كل ذلك الضعف، صمم فجأة على قهرها، وأخذها دون تردد.

أما حين يتذكر كيف طاف في كل تلك السجايا الفصيحه، وأبحر في الشواطئ والأعماق، ومضى في الدوائر والدوامات، فإنه يشكر حظه، ويتقدم ويجثو طائعاً مسترسلاً في العبادة، والصلاة للهمة الالهية العظيمة، التي ألهمت صباحَ دوافع المجيء اليه.

ربما لم يدرك ذلك كله في الحال، لكنها حين مضت بعد ساعتين الى بيتها، كَوَتْهُ الحمى، ونبشت دمه، وعصرته وجففت حلقه وعقله، حين أيقن بأنه لن يقدر على التخلص من نفثات رائحتها، ونشيج ألوانها الى الأبد.

حتى تلك اللحظة لم يكن قد علم بما حدث تحت سقفه، كانت أمه ما تزال نائمة، ولم توقظها الطلقات، ولا الهرج الذي ملأ المضافة والساحة، وآثر ضامن، الذي أطل بضع مرات على كنج من النافذة أن يتركه وحيداً، يناجي جثمان فشله المسجى، وعاد الى أوضته، وقد غاب عقله في أجمة أفكار: ما الذي سيسفر عنه ذاك الفجر؟!

صباح التي خرجت في رذاذ يانع، توقفت قليلاً، ثم لفت رأسها بالحطة،

وسارت الهوينى، منتعشة كوردة، نزح من قلبها كل خوف. أحسَّت وهي تمشي في المطر، أنها تخلصت من عبء مرهقٍ أهلكلها طوال العمر، وأنها خفيفة ومشمسة تتقدم في الطريق المعتم، كالغمامة، بيضاء راشحة بالسعادة.

لم تدرك ما الذي أصابها، وكانت قد ظنت قبل شهر حين مسَّ جسدها كنج أنها ستقتل نفسها في المرة الثانية التي تمتد فيها يده الى لحمها، ما كانت لتصدق، حتى لو رأت ذلك في الحلم، أنها هي التي انخرطت في مهرجان الغرام العاصف هذه الليلة، ولم يعنِ لها أيَّ شيء زوال غشاء الشرف الذي كانت تبطن به فرجها، إذا ما قرنته بالحب والفرح اللذين قدمهما لها كنج اليوم، وحتى ذلك الرعب الذي يتملك جميع النساء اللواتي سمعت أحاديثهن عن حرمة الغشاء، بدا لها سخيفاً وباهتاً ومفعماً بضعفهن فقط. انتابتها رغبة في الضحك، وقهقت بصوت ذئبة، خارقة الشتاء الموحش، والأزقة البليلة ثم أدركت حمقها وولدنتها، وصارت تبكي، انتحبت بمرارة، وقوَّضها سقوطها السريع المباغت، ورقادها السهل منذ أن وطئتها شهوة الهوى، مشت مشياً وئيداً. وراحت تدندن لحناً غريباً ما عرفت من أين جبلته، وفرحت حتى الموت حين لاحظت بطرف عينها أن كنج يحرسها، لكنها لم تر الشبح الذي تربص بها في المنعطف الأخير المفضي إلى وعر الكلاب.

تلك أمها التي انصعقت لغيابها منذ ان انتبهت بعد منتصف الليل له، ظنت أنها في الزريبة تبول أو تقضي حاجة، ثم نهضت من فراشها ومضت إلى الصيرة. لم ترها هناك، ونادتها بصوت خافت مرتعش، ثم أدركت حالاً، حين تذكرت تلك الايماءات الطافحة بالأسرار بين ابنتيها، وذلك العشق الذي ملأ عيني صباح، أين ذهبت البنت؟!

لم تستطع تقدير الزمن الذي مضى، وهي تنتظر، كانت تتدثر بفروة، وتنام لحظات ثم تستيقظ مذعورة، أو تغمض عينيها كي تمنحهما فرصة مراقبة الزقاق المعتم الراكد في المطر، ولم تعرف عدد الساعات التي انقضت قبل أن ترى صباح وهي تأتي في الليل، سوداء، منسابة مثل أفعى، فتمتمت لنفسها: «يا عاهرة!».

تجمدت روحها في رغوة الهياج الجنائزية، وحين توقفت صباح، ونظرت خلفها، بدت في عيني أمها مترددة خائفة. وظنت أنها لمحتها، أو شعرت بوجودها، وأنها تروم العودة الى حيث كانت. فبدأت تتضرع هامسة: «منشان الله تعالي!».

واصلت صباح سيرها، رافعة رأسها كناقة، فيما انتظرت أمها بصبر قطة، وصولها. حتى إذا حاذتها، اندفعت نحوها، ببغض منتقم، وأمسكت بها من خناقها وهي تهتف: «موتي يا بنت الحرام!»

تلاشت صباح في لهب الذعر وأظفار القهر التي أنشبت بها، وأضعفها انقطاع الهواء عن رئتيها اللتين حطمهما كنج قبل ساعات، وتراخت مثل خرقة، ورنت إلى أمها بعينين مغرورقتين بالدموع، ضارعتين بالرجاء، اخترقتا قلب المرأة الكبيرة الممتلىء بالوحل والعار، ظنت أنها ماتت. ارتعشت، وأوحشتها المرثاة الخرافية في العينين الواهنتين. فتركتها فجأة، ثم احتضنتها، مهدمة، مضطربة كدودة، وطفقت تبكي.

بعد ساعة، وكانت صباح مغلولة، مسحوقة، تمعنُ فيها البغضاء التفتت نحو أمها وقالت:

«يا ما، أني صرتْ مرت كنج الحمدان!».

(٨)

قبل خمس وسبعين عاماً من تاريخ افتضاض بكارة صباح وصل قاسم الفضل إلى المنارة، في الضحى الذي وجدوا فيه أمينة زوجة رشراش الحمد ميتة، وقد احترق نصفها الاسفل بكامله، وهي تخبز وراء الصاج. كان موتاً عجيباً، فالنار التهمت لحم المرأة وعظامها ببطء سلحفاة، بينما كانت قاعدة أمامها دون حركة.

لم ينتبه لموتها سوى هرٍ متوحش وقف بعيداً تجذبه رائحة الشواء الوردية، وطفق يراقبُ المكان بعيون نارية مكوية بنشيج الجوع الناهش مذعورةً من الرعب الذي انتابه بسبب قعود المرأة الصخري المبطن بالغوامض.

ماء حتى بُحَّ صوته، وطافَ، مثقلاً بشهوةٍ جحيمية، في المكان، وهو لا يجرؤ على التقدم، ولا يقوى على الذهاب الى ان وصل قاسم الفضل، الذي لاحظ صدى المواء المأتمي في الدار، وهو يعبر قربها، قادماً من الغرب.

توقف هناك، ونادى بضع مرات، أصحاب الدار الخاوية، فلم يأته أحد، واعتقد أنهم لم يسمعوه، وكان من المحال سماعه بسبب ذلك الصراخ الجزع المشدود بعزم الى الجثة، والنباح المتلاحق الذي لاقته به الكلاب، رأى في ذلك دسيسة مشؤومة، ولم يستطع منع نفسه من تمزيق الهر برمية حجر يلقى به الى هاوية الصمت.

لكن الشؤم لم يأته من الروح التي غَدَرَ بها احتدامها بكل ذلك الشبق، بل من موت أمينة الحمد الذي لون يوم وصوله، وقد أعياه، فيما بعد، الزمن وهو يحاول

سحوَ الذكرى من فضاء القرية دون جدوى، فقد قرنوا التاريخين بعضهما ببعض، كعادةٍ، لا كبغضاء.

تحول النهار إلى أجر، وبدلاً من سؤاله عن تفاصيل موت الرجل الذي كان رفيقه وقائده، وقفوا مشدوهين وهو يخبرهم عن تفاصيل موت ابنتهم: كانت فكرته تقول أنها ماتت قبل أن تحترق، في الوقت الذي ظنوا فيه أن أحداً ما قد أحرقها.

دفنوا المرأة التي ظل سر احتراقها غامضاً، واستضاف يحيى الحمدان قاسمَ الفضل، الذي ألهبه النذير المفاجئ المترعُ بالبؤس وأفعمه بالكآبة والانطواء، فظل رغماً عنه حبيس يأسه من المخاوف الغامضة التي انتابته بسبب النحس الذي صادفه.

وقد سببت له حالة القلق هذه انتفاخاً غريباً في الساق بجانب الكاحل، قال عنه أحد المعمرين أنه ريحُ الحيات، مبدياً جهله بالعلاج، رغم أنه أكد بعد ساعات معرفته الاكيدة، بأن هذه الريح سوف تلتهم جسد الضيف خلال بضعة أيام.

قاسم الفضل لم يدرك خطر ذلك الانتفاخ إلا في المساء، حين حاول النهوض بشكل مفاجئ، فباغته ألم خانق أقعده، وغاص به في عتمة حديدية باردة، عندها استعاد تقاليد أسرته من الذاكرة:

طلب أن يظل وحيداً في المضافة، بعد أن قدم قائمة بحاجاته، ثم حمى على الجمر يد محماس قهوة قديم، حتى احمرَّت وصارت تلمع، ووضعها على الانتفاخ بلا تردد.

الذين في الخارج سمعوا صراخاً شبيهاً بصراخ طفل، لم يفهموا ماذا حدث إلا بعد أن دخلوا إلى المضافة، ليروا قاسم، بجثته البغلية الفائضة باللحم والعضلات مستلقياً على ظهره، يصدر غرغرات ميت، وقد أحرق كاحله حتى العظم.

حين استيقظ من اغماءته بعد ساعة، كان أول ما فعله هو المشي، قام وقطع المضافة طولاً وعرضاً، ثم طلب أربطة، وكحلاً، وريحان وقطعة تنك، ووضع ذلك كله على الكي.

في الصباح قصد أول بيدر صادفه، وظل يكربل القمح هناك حتى الضحى، حين وقف علي الحمدان، وزوجته، وفتى طويل رفيع أمرد مذهولين أمام همته التي خلصتهم من عذاب التبن الأحمق، وتفاهة الشغل البارد والغبي دون سبب.

بعد يومين طلبوا اليه أن يروي لهم حكاية مجيئه الغريب الى هنا، كانوا يعرفون انه رفيق شبلي العريان، وأن الأمير الذي حارب هنا ذات يوم ضد ابراهيم باشا، قد انتهى الآن قتيلاً في الآستانة، ما كان أحد من الشبان يعرفه، ولكن الرجال والشيوخ كانوا اصدقاءه، وجنوده الذين انخرطوا في بيارقه، استعادوا الليلة معاً جلال حروبه، وإشراقات وجودة الماضي هنا، وعبوا من لحن الذكريات المرقش سطولاً هائلة من ضجيج الحروب وأقوال الشعراء وألوان السيوف والبنادق التي انهالوا بها على اعدائهم، وبدوا كأنما يخوضون الآن في هذا الليل المثقب بالحزن معاركهم التي ولّت. وفي كل ساعة كانوا يعودون إلى قاسم الذي لاحظ اهتمامهم بالأمير، فلم يستطع أن يسوق عنه سوى حديث الانتصارات وخوارق الفروسية التي اخترقت الشعاب والوديان وقمم الجبال البعيدة في أواسط لبنان، وحتى حروبه هنا. وحين تحدث فجأة عن هزيمة الرجل رأى أن الساهرين، انتفضوا، لقد نقض سكرهم بكرامات شجاعته، بحديثه عن استسلامه لقوة الدولة العثمانية، ومن بين كل أولئك الساهرين. وجه اليه ذلك الشابَ الأمرد الذي رآه في بيدر علي الحمدان قبل يومين نظرات حقد، ثم سأله عما اذا لم يكن جباناً وتخلى عن الأمير في لحظة الضعف، وعما اذا لم يكن بقية الذين قاتلوا معه مثل قاسم أيضاً ضعفاء تافهين لا يصمدون تجاه الخطر!!

سكت قاسم، وصمت الحاضرون كلهم، وراحوا ينقّلون أبصارهم المبهورة بين الفتى وبين الضيف، راقبوا بحذر رد فعله، تجاه الملاحظة الحقودة التي قيلت له.

تريث قاسم كثيراً قبل أن يجيب، وشهق قنطار هواء، وشحن روحه التي أوهنتها الطعنة القاتلة، بترياق الصبر، وانتظر، وهو يتأمل نقطة خفية في أرض المضافة الحجرية، كأنه يريدُ اقتناص قلوبهم في سجن صمته، ثم قال مغامراً بوجوده كله:

- «الأمير يا أخت الرجال، هو اللي تركنا، مش نحنا»

وقف الفتى مذهولاً، راجفاً من هول الاجابة، وراح ينظر إلى عيني قاسم مباشرة، بدا كالصلصال، وسمع ضحك ومرح في المكان. ظل قاسم صامداً أمام النظرات الوهاجة، وهو يخفي وراء جموده ابتسامة دفينة عميقة طيبة.

«تصبحوا على خير» قال الشاب، ثم استدار وغادر المضافة.

كانت فتاة فعلاً، وقد عرف قاسم أنها كذلك، رغم اجراءات الحيطة التي كانت تتبعها أمام الغرباء بحرص ثعلب، لكنه حلف لها فيما بعد بأنه لم يرَ ثياب الرجال التي كانت ترتديها في اللحظة الاولى، وأن عينيه طافتا في جسدها، طواف فرجه، في الدقائق التي استطاع أن يختلسها، حين لفَّ الجميع الذهول، ولم يفكر فيها إلا كامرأة، ولم ينتبه لزيها سوى حين غادرت المضافة مهزومة مقوضة.

كانت ترتدي ثياب الرجال منذ أن قتل أخوها الأكبر بيد أولاد محمود في السماقيات، وقد أقسمت ألاتشلحها حتى يثأروا له، ولكن الثأر تأخر كثيراً، ولم يستطع أبوها تنفيذ وعوده طوال سنين، واضطرت هي إلى البقاء في قسمها، حتى اذا مرت الأيام صارت تنسى، وتتحول إلى رجل، أتقنت السيف، وقذف الخنجر، واعتلاء صهوة الفرس بقفزة واحدة ثم راحت تنسى ضغوط جنسها وقروح الرغبات، دون أن تقوى في البداية على منع بعض الاختراقات المفاجئة لتلك الغلمة الخضراء الآتية من أعماق الجسد في الليالي، ولا ذلك النبض الدافئ اللطيف الراغب في حب رجل.

وحين جاوزت العشرين، وأشرفت على بور العنوسة المغبر، توقفت قليلاً

ورصدت مستقبلها على قماشة ناصعة، فوجدته رمادياً لا حياة فيه: لم يكن أي شاب قد تقدم لخطبتها، يمنعه زيها الرجالي، وقسمها الوثني الذي خشي جميع الشبان أن يتورطوا فيه، عندها صممت أن تبقى هنا، حيث شاءت لها الأقدار، لأنّ الله نفسه خلقها كذلك: جسد رجل وفرج امرأة.

شيء واحد أبقته، هو جديلتها، في وقت كان فيه معظم الشبان يرخون ضفائرهم ويجدلّون شعرهم الطويل خلف رؤوسهم.

وحين خاطبها قاسم بتلك الكلمات، أحست أنه عراها وكشف جسدها أمام الرجال، ولم تستطع منع الضعف النسائي عن لحمها الذي امتلأ بحبيبات الارتعاش، ولم تعرف فيما بعد لمَ انتابها ذلك الشعور الغريب المفاجئ بأنوثتها، عندما أبدى ذلك الغريب العابر صراحة في مخاطبتها كامرأة!

وفتنتْها هذه الحالة العلوية، وقد أعادت بعد ذلك الى النصيب جميع أحاسيسها ومشاعرها. رمت بظنونها الى النار، وحنثت بقسمها مدفوعة بقوة خفية غامضة نحو جنسها الذي ظنت أنها انعتقت منه.

وحين رجع أبوها الى البيت كان أول ما فاجأه هو منظرها النسائي وهي تخطر بثياب امرأة، وقد اعتبر ذلك عاراً، وكان إحساسه بالمهانة تجاه نفسه، بسبب عجزه عن الثأر أكبر من غضبه بسبب حنث اليمين، ولكن فضه الحمدان قالت له: «إن ردت تستد ما تتأخر كثير»

لن يفعل، ولن يحلها من قسمها أبداً، بينما راحت هي تنجز مراسم عودتها واحدة واحدة: صارت تسهر عند النساء بضع ليال في الشهر و تنصت وتستمع الى حكاياتهن، ونمائم الحياة الصغيرة التي يعشنها، وأخبار البلد، وتشتغل مع أمها بعد انقطاع سنوات، وما لبثت أن أضحت تخجل من الجلوس في المضافات، ثم ارتدت مرة واحدة حين التقت ذات يوم بقاسم الفضل:

كان قد اغتنى وامتلأ بالاسرار بسبب النحول الذي حلّ به، وبدا شبيهاً

بالحوار، رهيفاً مثل هر، محكوماً باللعنة التي حلّت به واضطرته الى الرحيل عن بلده والمجيء الى هنا، وقد سمعت أشياء عن ذلك وتمنت لو تسأله إن كان هو حقاً من استطاع أن يغتال نصف دزينة من الجندرمه التركيه وحده، وأنه فقد أسرته كلها في الحريق الذي أشعله الجنود في داره.

لم تستطع أن تنطق بحرف واحد حين رأته، وقاسم وقف مكانه يحدق فيها، كأنه يعد تفاصيلها. أدهشتها نظراته المفترسة وظلت بلا حراك، قبالته، ترنو إليه بعطف، وتستقصي ملامح وجهه الضخم، وعينيه الفاحمتين وجدائل شعره، ثم ابتسمت له. وذلك كل ما استطاعت أن تفعله. فصار يقول إنه حمار ومجنون وابن كلب. وهي تضحك بقوة وتقول «ليش؟» بدلال عجيب، اخترعته الآن من وهج روحها.

بعد يوم واحد، أحضر جاهة وخطبها من أبيها، لكن الرجل رفض طلبه، وقال «ما عندي بنات» ولم يتراجع عن كلامه، بينما أخذت فضة تبكي، ورجع الرجال خائبين، وهم حائرون، وقد أبدى علي الحمدان روح بغل في عناده، قائلاً «إن الثأر وحده هو الذي يستطيع أن يعيد فضة إلى الوراء» كان مقهوراً، ذليلاً بعد سنوات من النسيان، أيقظتها فضة برغبتها في قاسم الفضل، ولم يستطع علي تقبلها أبداً.

قاسم بدا كالممسوس، ورغب في الذهاب إلى أولاد محمود كي يستطيع الثأر لفضة والفوز بها، لكنها قالت «لا! كل شاة معلقة بكرعوبها» وهددته إن فعل ذلك بأن ترفض الاقتران به.

الغريب أن أباها منعها من الخروج بعد ذلك، في الوقت الذي منعها أيضاً من ارتداء لباس النساء، وراح قاسم يحوم حول دارها كل ليلة حومان ضبع، صار يراقبها من كوم راحيل كالوحش، وهو ينفث الغضب والقهر.

يحيى الحمدان وحده هو الذي وجد مفتاح الحل، قال لقاسم: «تقتل أي واحد من أولاد محمود، وأقول إنني قاتله، ثم نرى بعدها»

مضى إلى السماقيات ذات ليلة واغتال تركي المحمود سراً، وبينما أذاع آل الحمدان نبأ صعود يحيى بثأره، قبع قاسم ينتظر، وجاء يحيى أخيراً وقال روح جيب البنت واتركْ الباقي علي!» شجعه هذا وأرسل إلى فضة يسألها فقالت إي، كان قلبها الآن قلب امرأة. وشعرت أنها سعيدة، وأن العالم لا يتسع لها وهي تستعيد وجودها وتحسُّ أنها مطلوبة، ومحبوبة من رجل وأن هناك من يفكر بها ويسعى لنيلها.

وحين جاءت إليه قالت: «سيفك معك؟» قال: «إي، ليش؟» قالت: «يمكن تحتاجو بكره»، كانت تعرف أن أباها لن يوافق الآن أيضاً وقد صار تغيير جلدها صعباً عليه.

هكذا بدل أن يكون لآل الحمدان ثأر، صار لهم ثأران، ولكن قاسم كان عصياً على القتل، أما فضة فمنذ أن أنجبت محمد وعثمان ماتت، قالت لقاسم إنها تحاول أن تخلصه من عبء الأعوام القادمه، كانت مصابة بالحمى، وصارت تهذي ولم تذكر آلها مرة واحدة، حتى لفظت أنفاسها.

(٩)

كانت القرية تطفح بضباب خافت سميك، ملأ أركان الكون كله، فلم يرَ كنج الحمدان شيئاً، ووقف على باب مضافته يتأمل الأشياء عبثاً. أحس أنه وحيد، ولا أحد في هذا العالم غيره، حتى صوته، الذي نادى به ضامن العسال بدا له ضئيلاً، عاجزاً، عن اختراق البياض السميك.

لم يجبه أحد وتجمد في مكانه حين اندلعت موجاتٌ أخرى من الضباب في جميع الأرجاء، جعلت يده نفسها تبدو مثل ظل كسيح باهت أمامه.

لم يجرؤ على التنقل أيضاً، خشية الوقوع في المتاهة التي حاصرته. تلمس الخواء الثقيل، وشعر بجوع قاتل وعطش منهك ورغبة رملية في الماء ورأى في دائرة الرعب أنَّ جسده طفق يختفي ويتلاشى غارقاً في كآبة الغيم.

عاد مرة أخرى يطلق نداءه في الجدار المجهول المبلل بمطر ناعم أزرق. كان ينبعث في المكان صمتٌ، وهواءٌ راكدٌ، وحلم، ونتانةٌ، فضاع صراخه هباء في السرداب العميق الخادع.

أنقذته رائحة الكلاب التي شمّها قربه، فشهق بقوة اللطف الالهي، وصاح: «ضامن!». كان يمكن أن يبكي لو تأخر الرجل بضع دقائق أخرى، عانقه دون رحمة، حين انبثق أمامه من الخفاء البارد وكان مستعداً لعناقه طوال جيل. وحيّاه الخادم بكل قوة، بدا نضراً، مشبعاً بضياء رخامي لامع، وكانت بشرته بيضاء كالعظام، وحين نظر في عينيه رأى ضراماً من الذكريات الدافئة العجيبة.

ضامن وجد في الضباب ستاراً ساحراً للجنازة، واستولى عليه نشاط وهمة وصخب بررها بولائه لسيده، وحين أراد الذهاب لجلب الرجال، تعجب كنج من جرأته. وأظهر خشيته من أن يضيع في أحد الوهاد أو يسقط في هاوية. وقال له: «طلع قدّامك مليح!»، فقال ضامن برضى: «لا يا بك، منشان نمشي بالضباب لازم نغمض عيوننا» ثم شرح له أن معرفة المكان وحدها هي التي تقوده الآن،

كان منذ الفجر يجربها، وقد اجتاز بضعة شوارع، وطاف حارتين دون أن يخطئ مرة واحدة، وحين سمع نداء كنج، أحس بالحزن وبالغضب، بسبب سوء الطالع الذي رافق صعوده، أدرك أنّ روح الرجل انحبست في جناح القتيل وصار هذا يثيره، ويشعل في جسده حقداً مريعاً على المصادفات السوداء. فانطلق نحوه سريعاً، خفيفاً، محاولاً أن ينقذ سيده من الخديعة الشريرة التي وقع فيها.

لم يطل غيابه كثيراً، عاد بعدها يقود عشرة رجال، بدوا كالأثير ممتلئين بالتوجس، حملوا جثمان سعيد، وانطلقوا واحداً بعد اخر في بحر النسيان.

ما استطاع كنج البقاء وحده، لحق بآخر رجل حالاً، وهو يتمنى أن يبلغ دار صباح، وقد انقشع الضباب وذاب في الفضاء.

وفي الطريق انهالت عليه عاصفة أسئلة، لذعت جلده، وأحشاءه، وخلاياه عن اللقاء مع أسرة النساء التي سيفاجئها هذا النهار بخسارة المستقبل. كيف سيكون؟ ماذا يقلن؟. أحضر لهن خمسين ليرة ذهبية ووعوداً بعشر نعاج، وبقرة، إذا ما قبلن دية سعيد.

كان ضامن هو قائد التشييع، وقد تتبعوا خطاه الماكرة، بعد أن عصب عينيه بحطة سوداء قاتمة، صاعداً نازلاً في الطريق الصخرية بخفة هر، سعيداً بهذه الغفلة التي دبرها الله لسترهم عن القرية برمتها، جازماً بأن الحرب التي توقعها في الليل سوف تغور الآن وراء غضون الضباب.

خابت توقعاته، فالنساء اللواتي وصلهن النبأ ورأين مقدمة التابوت وهي تمخر الخفاء نحوهن، جنّن.

ما كنَّ يتوقعن هذا بعد الآمال العظيمة التي ملأت صباحُ أرجاء الدار بها، وبدت هذه المفاجأة للأم كميناً قاتلاً لم تشأ أن تستسلم له، فمزقت خدَّ ضامن بأظافرها (فيما بعد لن تزول الندبة التي صنعتها من وجهه أبداً) وتلا ذلك نواح نادب أطلقته فضة حارقة سلسلة المشيعين الذين انطرحوا أرضاً مثقلين بعبء الدم الرهيب الذي حملوه قسراً، جللهم إحساس منذر بالعار، جعلهم ينصتون كالموتى، لاختلاط النواح بالصراخ باللعنات بهمهمات ضامن الجريح.

كنج الحمدان نفسه، ما تجرأ على التقدم، وانفجرت مرارته من القهر، ومن ضياع الحكمة، وصوتِ العقل الذي أراد أن يخاطب النساء به. هكذا وجد نفسه مطارداً منبوذاً وسط حمى الانتقام الذي تربص به.

شعر بالبرد، وبالهول من الوحدة الموحشة، وأزمع العودة، وتركَ هذا المكان الهمجي، لكنه لم يجرؤ، وكيف يجرؤ وهو الذي ما أن أغمض عينيه كي ينفِّذ آيات ضامن حتى امتلأ بظلام دامس بدل أن يرى طريقه! أين اختفت الطريق؟ وكيف نسي جميع التفاصيل التي كان يعرفها؟

تسمر مكانه، كسيفاً، منتظراً، وبدا له أن دهراً قد مضى، قبل أن يأتي إليه ضامن ليقول بأنهما تخنقان صباح!

هنا نسيَّ كل دوامات الخراب التي أهلكته، فاندفع نحو دار عثمان الفضل، محملاً بالذعر من أن يكون قد خسر صباح.

وفي الداخل وجدها مطروحة بين امرأتين، مسودة كفحمة، تنفث حشرجاتها الأخيرة، وارتجافاً شبيهاً بالموت الوشيك، وكانتا تخاطبانها بآلام قلبيهما: «فيا عاهرة! يا كلبة! ويا ذباحة الأخوة!» كان نوعاً من الندب الصاخب، الغريب، المترع بوطأة الموت.

أما هي فقد استسلمت لهما، ورضيت بالمصير الذي اختاره القدر، ومضت،

بارادتها، نحو الفراغ المتأرجح الذي طفق يلوح لها، مصدراً عواء أخرق غريباً من الغيب المقبل قليلاً قليلاً.

حاول مرة واحدة ثنيهما عن قتلها، بكلام مبهم، ردده من بين شفتين مختلجتين، ثم حملهما، ورماهما الى الخارج، نحو البخار الأزرق البليل، ارتمتا كالخرق العتيقه في الغيهب، وسمع صوت نداءات مروعه، وعزّ عليه أن يزيد آلامهما، بدل أن يقدم العزاء لهما، أراد أن يقول لهما إن القضاء هو الذي غدر به وبهما، وأن يجلس بينهما ويبكي على سعيد، ويترحم عليه.

لكنهما لم تنتظرا سماع ذلك، ولا توقفتا لتلمس دفء يديه وقلبه الذي ادخره لهذا الصباح، ولا نظرتا إلى ميتهما كيف أشرق بفضل حنانه.

كل ما فعلتاه، هو أنهما راحتا تطلقان، من كثافة الضباب المحيطية، ولولاتٍ وصرخاتٍ، وحريقَ قلب لاهب.

ترى أي عقل يستطيع احتمال غابة النواح هذه، دون أن يعتريه الزمهرير؟!.
فكر أن يخرج اليهما، ويُسكت صوتيهما الموحشين المرصوصين بالدعاء عليه وعلى ظلمه وآله، لكنه لاحظ أن صباح كانت تتململ، وتفتح عينيها كالحالمه: لقد نسيت ما حدث، وظنت، قبل أن تفتح عينيها أنها تدلفُ من دهليز مترع بالظلمة والمتاهات، أما العويل الذي يفعم المكان، فقد وثب إلى عقلها وأوقد فيه فجأة، ذكرى اللحظات التي لم تمض دقائق على وقوعها.

لم تستطع النهوض مثلما أرادت، والنار التي اشتعلت في الرأس، أرسلت الى الجسد قشعريرة كاسحة أرغمتها على البقاء في عجزها وتراخيها.

«صباح!» همس كنج بكل ما استطاع أن يلمه من الحب: «صباح!» ردد النداء بانبهار: «صباح!»

كانت تعبر المدخل النهائي لدهليز اغمائها، وتنفذ إلى حاضرها: «صباح!».
وحين فتحت عينيها، ورأت إلى كنج كادت تجن، لم تتح لنفسها وقتاً كي تأخذه،

وتعود به، كان يمكن لها (كما فكرت فيما بعد) أن تناجيه، وتعاتبه، وتشكو إليه هذا الغدر، وأن تصف آلامها واحدة واحدة على الرصيف الكئيب الذي زجها فيه! ولكن: لمن تشكو؟!

أحست وهي تتفرس في وجهه الشاحب المبقع بالجزع، أنها لن تستطيع اللجوء اليه، ولا استجداء العون من روحه الموشمه، رغم أنه راح يهز رأسه هزات مجنونة حمقاء، موافقاً على ما توقع أن تطلبه منه.

زاد هذا في شعورها بالأسر، وبأن هذا الرجل الذي ظنت بالأمس فقط أنها وجدته، وشغفت به، وأضحت امرأته، ما كان إلا شخصاً غريباً ملفقاً من صورة باهتة لذاك الذي انطبع في ذاكرتها، وفي خيالها، وفي الكلمات البهية التي هدهدت بها أمها وأختها طوال الليل.

لكنها لا تعرف هذا الوجه المصمت الخالي من وشاح القلق الذي كان يضفي عليه حين واجهته ليلة أمس، ظلَّ نبي، حتى ملمس يديه، حين احتضن كفيها، كان فاتراً، متعباً، بعث في جسدها حمى بخار. فارتجفت وامتلأت بكرهٍ عميق له، وقد رأت إلى أجيج التردد الذي يشغل قلبه المشتبك بقتال عنيف بين ذعره على المرأة المتكاسلة، ورغبته بالفرار.

ظنت أنها نار حقد، وتشفٍ، لم تعرف كيف يمكنه (وهو الذي أفرحها كل ذلك الفرح ليلة أمس) أن يشعلها. كانت ترى بعين الافتراضات الحزينة وحدها، لأنها منذ ساعات فقط غرفت من الآمال الفاتنة التي قدمها لها كنج غرفاً، وها هي لا ترى منها سوى هذا الموت المفاجئ الذي يجرها الى زقاقٍ أعمى أصم ضائع في متاهة.

ماذا تقول؟! كان شعوراً غريباً، فالرجل الذي اعتقد منذ برهة أنها سترتمي في حضنه لاجئة مستغيثة، أضحى غولاً خرافياً أدخل روحها في سرداب فوضى دميم.

وحيدة ستتجرع المرارة، مثلمة مغلولة بالخدوش والتكسرات، ومن جوارها جاء عويل أمها وأختها الذي بدا موحشاً مرصوصاً بالتباريح، اشتاقت فجأة إلى الفتى المرتبك الضعيف الذي كان منذ يوم يضحك مثل مهرج، لكن لا! قالت لنفسها، لن تعود تلك المرأة الضعيفة الفاسقة التي كانت تستسلم لسدول الموت منذ قليل، ولا تلك البنت القديمة التي يجرها فحل مثل كنج إلى الفراش، كان يجب أن تنهض من هذا الانمحاء الذي خرقها، وأحالها إلى حشرة يدوسها العابرون.

دفعت كنج في صدره بقبضة يدها، فترنح وحدق فيها بعينين جاحظتين، ونهضت مروعة، وقد دمرت طمأنينتها الى الأبد، واعترتها رغبة رهيبة بالبكاء، أو الفرار من هذه الأنشوطة التي تخنقها، وامتدت يدها إلى الخنجر، وهاجمت كنج به، لكنه ردَّها بيسر، وأطاره من قبضتها، فحدجته بحقد جمل وقالت: «ليش قتلت سعيد؟!» نظر إليها مذهولاً، مملوءاً بالحيرة، مغلق الأفق: «ليش قتلته؟» لم يكن يفكر بشيء، إذ أن الكلمة أصابت عقله، واندست في قلبه، فشغلته بلهاث مهلك أذعره: «روح من هون!» قالت له.

نهض مرتعداً، ملدوغاً، واستدار كي يخرج، حتى إذا صار عند الباب تجمد في أرضه، وهو يسمعها تدمدم: «الله يلعنك!» فدبت القشعريرة في جسده «الله يغضب عليك! ويصير دمنا شوكة بقلبك حتى تموت!!»

(١٠)

تذكر أنّه حين خرج في الصباح، ورأى إلى ذلك الضباب المتغلغل في الكون، أيقن أنّ الله يحتفي بعرسه، يمنحه هذا المعبد الضيق المؤلف من زبد وندى.

وقف كامل، عاري الصدر، وتوجه نحو الأعلى وصاح بصوت جهير أخضر: «لا إله إلا الله! كثر خيرك يا رب»، فأيقظ صوته دلال، ونهضت ملهوفة اليه، وهي تظن أنّ كنج جاء لينفذ حكمه وعقوبته هذه المرة في كامل، اجتازت الغرفة قفزاً، وصارت بجانب الباب وفتحته.

هناك رأت كامل عارياً ضارعاً إلى الله، وقد تجمد جسده مثل تمثال، ذاهلاً مشدوهاً يصلي في الدوامات الموهنة الساكنة للغيم، ارتابت منه، وظنت، وقد رأت كيف تعرّى في هذا الزمهرير أنّه قد جن، لم تسمع بهذا من قبل ولم يرو أحد أن لقاء امرأة برجل يمكن أن يليثه! فما السر الملغز الذي يدفع كامل ليجثو في الضباب النفاث الذي أصابه بالبلل؟!

حين التفت ورأى عجبها، شرَّع ذراعيه، واحتضنها بغتة إلى جسده، وراح يقبل شعرها، كأنها منَّةٌ طيبة انبعثت من الغيب الآن. بادلته العناق مسحوقة بغرامه، وعشقه اللذين ما توقعتهما. وانجذبت إلى قوته الخارقة التي هلعت منها في المساء الفائت. ذاك، كما أدركت الآن، ما كان يشدها إلى الرجال، فترتعش، وتتقد النار فيها كلما رأت أو سمعت عن خوارق رجل. وتهمس لنفسها: «ليته لي!» لكن الايام لم تلبِ مطالب ضميرها، وظلت دائماً تشكو الغصات وتنوء تحت ثقل الرغبة البرجية الشرهة.

أما الآن، وقد اكتظت بدفق جسده في ا لليل، وعبّت من طراوة روحه وحبه هذا الصباح، فقد أدركت أنها ظلت طوال عمرها عمياء، إذ أن لدى هذا الرجل أشياء بديعة غير قوة الانتصاب.

كانت قدماها تغوصان في سيول الضباب، وذهلت من ذلك، وهي تفطن لمغزى العبادة التي أدَّاها كامل. فقالت إنه كان أولى بها هي أن تفعل ذلك. فما تراه، كان أكبر من خيالها الذي أمضى ساعات الليل الفائت، وهو يحاول نسج احتمالات المضاعفات الممكنة لفعلتها التي لم تستشر فيها أحداً، لانقيادها نحو كامل في ساعات الشدة التي تواجه أخاها كنج، تقصّت ردود الفعل جميعا، وحسبت أنها قرأت دفتر المصير برمته، من دائرة الرعب إلى بساتين السعادة. وفيما كان كامل نائماً في ليلة فرحه بعد سيل الجماع الذي خلدها به، ترحمت على نفسها، وعلى آل الفضل الأبرياء الذين ورطتهم في نزوتها، ثم تراجعت، حين لامسها جسد كامل بنبضه المتوهج، منعتقةً من حمى الوقائع التي تدفقت إلى عقلها وأحرقته.

لكنها في كل الأحوال، لم تستطع منع الحزن عن نفسها، نعم لإن ما تعرفه عن آل الحمدان هو أنهم لم يتأخروا قط في محو اعدائهم وترحيلهم بلا تردد نحو الموت، فهل ينجو كامل الذي استجاب لهواها؟ هل يكافأ على إسرافه في العطاء، بالقتل؟! بكت وحدها، حين رأت كيف نفث كل ذلك الماء من ظهره إليها، وأيقنت أنها لن تقوى أبداً لا على رؤية كامل ميتاً، وإنما على خلق التصورات وحسب، وأقسمت أن تتحمل وحدها، تبعة رغبتها.

أما الآن، وهي تشاهدُ هذا الضباب الآسر، فقد أيقنت أن أوهامها المرعبة، تلفظ الآن أنفاسها، وتمضي في الغياهب المعتمه لهذا الكون العجيب.

فكرة ضامن العسّال، لم تخطر لأي مخلوق هنا، فاضطرت ثنيه كي تصل إلى علية كامل، أن تزحف زحفاً على بطنها، صاعدة الدرج الحجري فوصلت وهي تقطر ماء، حاملة زوادة بسيطة لفتها في صرة، وقالت لهما حين وصلت بأن المسافة

التي صعدتها، أشعرتها بأنها تنتقل إلى السماء، وأن العلية تبدو لها الآن، وهي معلقة في الفراغ مثل غرفة الحساب في الآخرة، ضحكا لها، وسألها كامل إن كان الشيخ صالح قد أدخل في وهمها أن الله سيعتقل الناس في غرف ضيقة كهذه ريثما يحاسبهم؟ فلم تجب، واكتفت بفتح الصُّرة الصباحية التي اضطرت لإعداد طعامها من نواشف لا تندلق أثناء الصعود، وقالت: «صباح مبارك» ثم قبلت دلال التي أدارت خدها، منتعشة هشة.

ثنيه كانت تحضِّر مفاجأة أخرى، فما أن بدأا يأكلان حتى أخذت تترنم بأغنية، كانت قد ألفتها الليلة الفائتة.

شدهت الكلمات الخارقة دلال، وهي التي سمعت كثيراً عن نظم ثنيه المدهش، من النساء اللواتي كنَّ يزرنها، أو يعرفن آل الفضل، لكنها لم تأبه كثيراً لمثل تلك الحماقات التي اعتبرتها تسلية فلاحين، أعيتهم الحياة الجدباء فراحوا يراقصون الأحلام والكلمات، ولم تغن لأحد قط، والمرة الوحيدة التي سمعت فيها الأغاني كانت ليلة عرسها. لكن الأصوات الزاعقة آنها أصمّت أذنيها وعبأت رأسها بالضجيج.

لم تكن ثنيه قد انتهت بعد، وبدا لدلال أنها لا تذكر شيئاً من كلماتها، وأن ترانيم الغناء شردت بها وضيعت متعتها، فَرَجت ثنيه أن تعيد غناء الترنيمة! «على عيني» قالت المرأة التي لم تخف بهجتها، تريثت قليلاً، ثم انطلقت ثانية، تغني أغنية أخرى، ذكرت فيها صايل هذه المرة، «قديمة، قلتها من زمان» همست في إحدى لحظات الصمت التي صادفتها، ثم واصلت الغناء بيسرٍ، جعل دلال تتوقف عن الأكل، فيما كان كامل يتأمل انبهارها بفرح، وهو يعرف تأثير أشعار ثنيه الساحر على مستمعيها الذين يذهلون، ويغيبون مرتاعين في السفر الصاعق لكلماتها الذهبية.

حتى ثنيه ما عرفت هذا الذي يحدث: أدهشها الرنين الغامض في الطبقات العميقة لصوتها، وأغوتها القوة الغامضة في مخارج الحروف والنغمات المفاجئة

التي أسكرت حبال حنجرتها، فمضت في نشيد حنون متألق ملأهما بشهوة جنية، ضاقت حدقتاها، وأرهفت شفتاها ورقتا، وتلوت أعضاؤها مفتونة بالأسرار اللطيفة التي كانت تبزغ من روحها، وترفرف في المكان.

اعتبرت هذا كله فأل خير. وقالت لدلال: «بتعرفي، كنت ناوية أحقد عليك لأنك أخذتِ كامل من غير ما نعرف»

كانت تردد الكلمات بقوة خارقة، جعلت دلال تخشى الرد عليها وهي التي اعتادت طوال عمرها سماع ايقاع آخر لمن يخاطبها. لقد نسيت أنها صارت من آل الفضل الذين ما كانت تعرفهم من قبل، والروايات السوداء التي كان يرددها عنهم آلها ما كانت تهمها، وقد ظنت دائماً أنهم مجرد أشباح يخلقها ابراهيم وال الحمدان لترويع الأتباع فقط، وعندما اختارت كامل، لم تفكر بأي شيء آخر سوى اللحاق به، ومعانقته والانتشاء بقامته الفارعة كالمدى.

أما ثنية التي كانت تحكي بصدق اعتاده فيها إخوتها وأخواتها، فما كانت تأبه لأحد حينما تريد قول شيء، وكان إخوتها يعرفون متى يصمتون كي تتكلم، وقد منحها الله قوة بصيرة، أرغمت جميع آل الفضل المجانين على طاعتها، وملاقاة طلباتها دون عبث، وأعانها قلبها في المهمة الجليلة التي نهضت بها بعد موت أبيها وأمها: امتلأ بقوة مماثلة لقوة عقلها فراحت تمنح إخوتها وأخواتها من أقحوان الحنان ما عوضهم عن عواطف الأم التي ماتت منذ ولادة هايل، وعن رعاية الأب الذي اغتيل في المجاهل المغرية للغزو، كانت مثل سماء، هكذا وصفها نايل، الذي ستلمُّ عظامه، بعد سنين من الوعور، حين سيمزقه رصاص القتله «مثل السما» قال لاخوته، «بتشتي، وبتشمس، وبتبرد وبتدفا» ألهبت الصورة خيالها، وعشقت نايل حتى العبادة، ونظمت قصيدة قصيرة بدأتها بكلمات مجنونة:

نايل عسل ردو على قلبي المسا
يمشي الزمان وننتهي منو وعسا
يحميه من غدرو كمان!

أما حين وافقت على طلب الشيخ صالح الحراني يدها، فقد حيرت إخوتها الذين ظنوا أنها ستسخر منه، أو تهجوه بقصيدة.

كانوا يريدون أن يرجوها ألا تفعل، لكنها سألت عن الرجل، فوصفوه. لم تبدِ لهفة ولا رغبة، بل بروداً صاعقاً، أضاف الى مفاتنها الكثيرة فتنة، لقيت في أعينَ إخوتها صدى وموسيقى.

أعلنت رضاها بصوت بصوتٍ مليء بالثقة، فصاح صايل: «مسكين!» مشفقاً على الشيخ الذي قدر أنه لن يستطيع التأقلم مع ثنيه المفعمة بالرجولة، وطباع القطط. وهو رجل الدين الذي اشتهر في المقرن بأسره بخمود عواطفه وضغينته المُعلنة تجاه النساء.

ظنوا أن ثنيه سترغمه فيما بعد علي خلع زيِّه، ليستطيع مجاراتها في ايقاع حياتها المجلجل الذي اختارته.

غير أن أكثر الأشياء التي أدهشتهم كل العمر، كانت موقف ثنيه تجاه هذا الخاطب الغريب الذي وافقت على الاقتران به، لقد التزمت الصمت والتأمل في حضوره، وتخلت عن حيويتها، مثقلة بالغموض، تراقب كسل صالح، وتحاول التقاط الخيط الذي يؤلف قوام شخصيته الزجاجية (كما وصفه اخوتها)

لم تظفر بشيء، لا بسبب رخاوة الرجل، وإنما بسبب ظنها ببراءته ويقينه الطفولي بما يؤمن به، وبالطريق التي اختارها لنفسه منذ الشباب. اكتفت بهذا ممن سيشاركها العمر، وهي مدركة بأنه لن يعمد أبداً لقسرها على الدخول في مملكته الجميلة البيضاء. أما من أين جاءها هذا الايمان، فهذا سرٌّ صارت تعرفه وحدها: إن نظرة سريعة منها إلى حركة رجل، أو همزة، أو غمزة، أو سلوك عادي كانت كافية لجعلها ترى نصف المستقبل بألوان التوقعات الزرقاء أو الخضراء بعد ذلك.

ولكن هل تعلقت بصالح لهذا السبب؟! لا، فالسر الحقيقي، باحت به لصديقتها تركية فقط بعد الزواج. ففي ليلة الدخلة، حين أقفل الباب، جاء وجلس

على الفراش قربها، مطأطئاً، كئيباً، راغباً في الابلاغ. لم يكن هذا ليخفى على ثنيه، التفتت اليه مشجعة، وقالت: «بدك تحكي؟» فتنهد بقوة وقال: «إي!» ثم أغمض عينيه وسأل بلهجة صنم:

«بتعرفي ليش تركتني خزعه؟»

لم يكن يهمها، وقد نسيت أنَّه كان قد تزوج مدة أسبوع من خزعه الحسين، ثم طلقها دون أن يثير انفصالهما أي ضجيج.

سألت نفسها الآن: لم انفصلا حقاً؟! لكن صالح كان مستعجلاً، كما بدا عليه، للتخلص من عبء الكلمات الخبيثة التي تثقل ضميره:

«ما بتعرفي؟»

كانت تراقبه باهتمام، وهو يُعدُّ نفسه للإفضاء بشجون قلبه، بدا غامضاً وظل صامتاً عاجزاً عن الكلام. وأدركت، من الحذر الذي تلبسه، أنه يروم تشجيعها، وأنَّ في الماضي الذي عاشه سراً ما أراد أن تعلم به قبل أن يبدأا معاً حياتهما، تأخرتْ كثيراً، كانت تريد أن تقول له، ولم تسعفها الجرأة، ولا عرفت كيف تحمله على الحديث.

أخيراً فقدت صبرها، اضطجعت قليلاً، ثم نهضت وبدأت تخلع ملابسها وهي تقول: «بدي نام» فقال: «لا، استني شوي» ووقف، وراح يخلع ملابسه هو كالمجنون، وهي تتطلع الى انفلاته المتوحش، وبلاهته بعين ذهول: «شوفي!» عرض عليها صدره المشعر، وعضلاته المبرومة كالجذوع، ورقبته الغليظة كرقبة ثور: «عاجبك؟!» سألها، فرنت اليه بابتسامة مطمئنة، وأراها فخذيه، كانا مفتولين، مليئين بشعر رجولة أسود متجعد، ثم توقف ونظر اليها، كانت عيناه تبرقان كعيني شيطان، أحست أن صدرها يتمزق، وأن أعصابها تبرد وهي لا تعرف ماذا سيفعل، ثم اختلج جسدها كله حين تعرّى وأخرج لها علامة رجولته الأخيرة باستعراض مهيب مفزع: كان شيئاً قائماً ضخماً ومتعطشاً ينفث كالتنين عبوساً وناراً.

هي التي أعدت نفسها دائماً لمثل هذه المفاجآت العاصفة، قعدت على طرف الفراش، ثم انخرطت في ضحك متواصل.

لم تتوقف إلا بعد أن احتضنها صالح، وبدأ يعريها بشهوة تيسٍ، ذهبا معاً في ليلة العرس التي جعلت ثنيه تعشق صالح (لأنه خرق عظامها) كما قالت لتركيه، وأشبع شغفاً غريباً كان يتلألأ في دمها دون أن تتعرف اليه قط إلا في حضنه.

وأفضى صالح نفسه في ا لليلة ذاتها بسره الذي جعلها أكثر بهجة أيضاً، حين اعترف بأنه اختارها زوجة له، مقامراً بحياته، منذ أن رآها راجعة من المعلقات وعلى كتفها تنكة الماء، فقد أبرز ذلك الوضع جمال جسدها، وأبرز متانة حوضها العريض الذي بدا له مثل حصن، فحلف لنفسه بأنه إذا أراد أن يتزوج فلا توجد امرأة في العالم تستطيع احتمال مضاجعته سوى ثنيه الفضل، ضحكت، وقالت: «طمنتني، بحياتك مش راح تلاقي مرة غيري تتحملك» قال: «نعم» وروى لها كيف روعت خزعه حين رأت شيئه، وأغمي عليها، عندما حاول أن يدخل بها، واضطر لإعادة الكرة سبع ليالٍ، كانت ليالي قهر وعذاب ومرارة لا تُنسى.

الأمر الوحيد الذي لم تتنازل عنه هو رغبتها في العيش بجوار إخوتها وهو ما وافق عليه الشيخ صالح بعد أن قدم مطالبه أيضاً: أن يختار بنفسه سبيل عيشهما دون أن تفرض عليه التعاون مع إخوتها، وأن لا تحتقره أمامهم مهما حدث بينهما، وأن تخفض أصوات غلمتها أثناء الجماع.

أقسمت أن تحافظ على مشيئته، رغم أنها لم تفهم معنىً لهذا التناقض بين الطلبين الأولين اللذين أبدا فيهما اعتزازه برجولته، والطلب الثالث الذي يَنْذُرُ نصف رجال الجبل أرزاقهم كي يوصفوا بتسببيه للنساء.

صالح لم يجب عن تساؤلها، واكتفى بمداعبتها، وترطيب خديها بلحيته الملبدة الدامسة، صمتت حانقة غاضبة، وارتضت أن تعض في الفراش طرف كفه، كي تخنق رغبتها القاتله في الصراخ.

دلال اكتفت بعدم الرد على ثنية، محاولة اصطناع السعادة التي انكسرت بعنف المرأة وتهديدها الباطني، تناولت بقية طعامها الناشف بصعوبة ودون أن تعلن شهيّتها للشاي، وو ارت إعلانها هذا بسبب ظنها من عدم وجوده لدى آل الفضل، وقد أبدت ثنية أعجابها بشكوك دلال، واعتبرته تفهماً بارعاً من امرأة اعتادت على عيشة البذخ.

هذا ما قربها اليها، وجعلها تدين لها بالاعتذار «أنت واحدة منا» قالت لها، طالبة أن تصفح عن جفاف لهجتها، وفظاظتها في خطابها، موضحة بأن هذه هي عادتها في الساعات التي يدخلُ فيها شخص غريب إلى دائرة آلها التي اعتبرتها دوماً مغلقة، قابضة، لا مطرح فيها الجديد.

ما لم توضحه أيضاً هو خشيتها من منافسة كامل لها على سلطة العائلة، وقد حزرت دلال أن أحد أسرار بقاء ثنيه مع اخوتها بعد زواجها من صالح هو رغبتها في استمرار سيطرتها على أقدار الأسرة.

ما أثارها هو ذلك السر الذي جعل هؤلاء الرجال، المتبرمين العنيدين كالبغال، والحرونين الممتنعين على جبروت آل الحمدان، ينقادون بكل هذا اليسر، والسهولة، ونظرات الود، والبشاشة، تجاه كل ما تقوله ثنية. كأن ما تتلفظ به، وما يتقلب في خاطرها من الوعيد إلى الاعتذار، قدر مفروض لا يتطلب منهم سوى أن يبشوا في وجهها ويفرحوا.

«عجيب!» قالت لنفسها، وهي ترى إلى صمت كامل، ورضاه، ورأت أن ذلك كان زيفاً، وقهراً ولا يمكن تقبله.

وريثما تتيح الأيام لها عمل شيء، اكتفت بالموافقة على هذه الحماقات التي تقولها دون تعليق، رغم أن هذا لم يكن من سجاياها، فما الذي يمكن أن تفعله في هذا الحصار؟!. فكنج سيهددُ من هناك، وحرب العائلتين افتتحت الآن والضباب يقتحم النافذة، ويضغط على الغرفة التي امتلأت برائحة اليتامى ووحدة الخراب، كيف تجتاز هذا الغيم الغبي الكاذب وتمضي إلى نهاره المخضوضر؟!

نهضت، وتصنعت البحث عن ماء لتغسل يديها، فلاحظت أن ثنيه أحضرت ابريقاً نحاسياً، كان يطفو ببطء في النسيج المحكم. هل جاءت به في غفلة عنها؟ أيعقل أنها لاتنسَ شيئاً؟ ماذا لو طلبت اليها أن تعطيني الآن ساعة من العزلة كي أريح نفسي من السأم الذي حل بي؟ وكيف أوصلُ اليها هذه الأمنية التي تتغلغل في تضاعيف روحي؟!

حين غسلت يديها، مشت ثنيه من الغرفة، تأملتها دلال قليلاً، وحارت فيما إذا كانت قد عرفت شكواها إذا أرادت أن تلحق بها وتعتذر عن الخاطر الذي شاب فكرها، ونأى بها بعيداً في ظنون وخيالات ناضبة.

لكن ثنيه لم تنتظر الرد، لَمّت بقايا مائدتها، ولفتها، وكنست الغرفة مصرة على دورها كأم: هذا ما لن تتخلى عنه أبداً، هكذا فكرت وقد مسَّها تفكير دلال مساً خفيفاً، وأيقظ الدوري الحذر القاطن في عقلها وإحساسها. كانت ستفنى حتماً لو لم تمتلك هذه اليقظة المبكرة تجاه المفاجآت وفي كل المرات كانت تنقذ نفسها من المهاوي، حين يقرع في باطنها جرسُ تنبيه: بهذه الطريقة استجابت لفكرة دلال، دون حقد، شعرت بالشفقة تجاه هذه المرأة التي صارت بلا أهل. وأضحت تحت يدها، لا تقوى على التخلص من قدرتها على قراءة ترنحات فكرها، وتتبع ايقاع ظنونها اينما ذهبت، ووجدت أن أفضل ما تفعله الآن هو أن تترك الغرفة لصاحبتها، بعد أن استطاعت اعتقال رغبتها، وقيدتها بالولاء والطاعة اللذين هما هي نفسها.

شاحبة كالصوف، قالت دلال إنها تريدُ أن تأخذها معها، وافقت وقالت: «حيا الله!». خرجتا معاً، وهمست دلال حين صارتا في الغيم «بدي اتحمم» ذلك أنّ المطر، والمضاجعة، جعلا لحمها لزجاً، ومشرباً بطفح حكّاك أهلكها، سارتا معاً حذرتين. ونصحتها ثنيه أن تضبط خطواتها على ايقاع خطاها، حين زعزعها الضباب، وطمس قدرتها على معرفة جهة الشمال. لم تجرؤ على المغامرة غير المحسوبة، غامت بصيرتها، ووجدت نفسها ضاوية منزوعة القوة ازاء عتو الكون،

وجبروته الذي ألغى امكانات العقل. ثنية بدت تعيسة بعد ذلك أيضاً، وخافت قليلاً لأنها تعثرت مرة واحدة في مأزق الغيم. خشيت أن تودي بدلال، وخشعت لربها، وتوسلت إليه أن يمنحها القوة كي تستطيع النزول في ذلك المجهول الممعن في الانغلاق.

صاحت: «يا صالح!» ولكن صوتها بدا كأنما لم يذهب أبعد من حواف شفتيها: «يا صالح!» صرخت ثانية، فجاءها من القاع صوت صالح الدافئ الذي بدا لها مثل صوت ملاك: «أي جاي» كان قريباً وممتلئاً، ومستشاراً بعنف النداء الذي أطلقته، برز أمامهما مثل مخلوق سماوي. ولم تستطع أن تكبح رغبة جامحة في احتضانه، كان ضعفها مفزعاً لها، وأخذها بغتة، وأعادها دونَ حصانةٍ الى حجم امرأة أعانهما الرجل على الوصول، محمولتين على ظهره، وهو يقول:

«هذا امتحان من الحق نفسه!»

قالت دلال: «تحممي معي!!» ففهمت الطلب على خير وجه: إذ أن امرأة أخيها لم تكن تريد سوى أن توصِّل اليها رسالتها بأنهما امرأتين. وفي الحمام، حيث ستتعريان، لن يبقى لأي منهما ما يميزها إلا ملامح الجسد والتماعاته التي تدفعهما ليقينٍ بالمساواة، كانت دلال تنتظره. «طيب!» تمتمت لنفسها، ثم مضت معها، وخلعت ملابسها قبلها وقالت لها: «دلال، افركي لي ظهري!».

لم تستجب دلال في البدء، وحين التفتت ثنية نحوها، فوجئت بها وهي تتأملها وسط البخار المتموج بعيني بومة، لأن عيني دلال اتسعتا وجحظتا، واشبعتا بالرطوبة، وقد سلطت عليها نظرات موتورة ساخطة، لماذا؟!: «لا تواخذيني» قالت لها «يمكن زعلتك!» فابتسمت تلك لها، وحملت القنديل وقربته من الجسد المغتبط بانتظار الماء الدافئ والصابون وجروح الليفة الناشجة. لقد استجابت دلال لكلمات ثنيه بهدوء متدرب قادر، وشرعت، وهي مخلوبة العقل، تتنزه في الممرات الظليلة، أو العاسية للَّحم الدهين. وعرفت ثنيه أنها أُخذت بها أخيراً، وأنَّ

ألعاب الخفة التي اتبعتها لم تُجدِ، قدر مناورات الجسد الآسرة التي باغتت المرأة وسحقتها.

تبادلتا بعد ذلك غسيل جسديهما، فركتا لحمهما، حتى سبرت كل واحدة منهما الأطراف النائية، والضواحي الآهلة، والأزقة الخالية، ودوامات السعي، وصبت كل منهما على جسد الأخرى ماءً أغرقها وواراها كالسفينة. ضحكتا مثل هرتين، وخمشت كل منهما وجه الثانية، ودفأت صدرها، وكانتا خلال ذلك تؤججان النار، حتى شعرتا أنهما منهوكتان، مقتولتان بالتعب والبهجة.

خافتا أخيرا أن يملأ الضحكُ الصاخبُ، يومَهما بالنحس، فتوقفتا، ثم أخذتا تنفخان الماء وهما عاريتان. وبعد هذا نشفتا جسديهما قرب الموقد وارتدتا ثياباً جافة، ثم خرجتا معاً، متلفعتين، متصاهرتين، إلى الدار، حيث عُرِّفت ثنيه امرأة أخيها إلى بقية أسرتها الذين كانوا مجتمعين معاً: صايل ونايل وشامل وهايل وهنده وغريبه، وبالضامر المفتول كالحصان: صالح الحراني!.

(١١)

طوال أيام الضباب، ظل كامل مضجعاً في السرير قرب دلال، جائساً في شعاب جسدها، ساعة بعد ساعة. حتى يبست عظامه، وأمسكت بلحمه أفراس من الرغبة لا يدري كيف استطاع النفاذ منها، فيما بعد.

بيد أنها كانت أياماً رحيبة، تجرَّع فيها طعم المرأة التي لم ينلها في أي يوم، من حياته، ماذا كان سيحدث له لو لم تأت دلال في تلك الأيام الموحشة؟ ربما كان سيدمر نفسه وسيفرغ للبطش باخوته الذين كانوا يفسقون في المنارة على مرأى منه، وهو يحسُّ بأنه يخسر عزيمته، وأيامه ومغفرة الله. إذ لم يقوَ على مخاطبة امرأة بكلمة مغوية، وكل ما كان يحسنه حين تباغته إحدى النساء هو الصمت، وهو يعلم أن لسانه لن يسعفه إلا بالتأتأة، وأن جسده لن ينجده إلا بضربات القلب المخدوش بعجزه، وأن روحه ستطفح بالوهن. لماذا؟! لماذا وضع الله في هذه القامة التي كقامة بغل، هذا القلب الناحل الطري كقلب خنثى؟!

«هذا ما يذكره: كان يمضي كلما أعجزه القلبُ عن مخاطبة أنثى، الى الوعر، فيقتل ذئباً، أو ثعلباً، أو ضبعاً، ثم يعود مطفأ، مغيباً».

فيما بعد حين تعرف الى الذيب الأعرج، قال له ذاك «النسوان مضيعة للوقت!» ومضيا معاً، الى الغزو والحروب».

«الذيب!» أحسَّ بالشوق اليه، «كيف لم يذكره حين اغتالوه هنا قبل سنوات؟ كأنهما لم يمضيا سنين طويلة في الصحبة؟! ولكنه الآن يذكر كل شيء عنه، منذ تلك اللحظة التي أحس فيها أنه يفقد توازنه، وهو يرى إلى الطيور الجارحة المدومه في المكان، بدا مشوشاً مثل مصاب وقد لاحظ أن خيال رجل يلاحقه. كانت ليلة

صيف، ارتاد فيها بضع قرى، ولم يظفر بأية غنيمة، وعاد خائباً قبل الفجر، اجتاز وادي الحصا كالأعمى، وقد ترك لحصانه عنان القيادة، في تلك الصخور المقنعة المعتمة. وربما نام بضع ثوان، أو دقائق خلت من الأحلام والتوقعات طمأنه الهدوء الجليدي الذي انسرب في المكان: هكذا ما يزال الصمت ووقع خطى جواده يقرعُ سمعه ببشارة تلك الليلة طِقْ! طَقْ! طِقْ! طَقْ! أو يزحط قليلاً فوق صخرة ملساء مطحلبة امتلأت برطوبة الليل وتشربت نداه. يستيقظ ثم يغفو مولعاً بهذا النوم المر. إلى أن انتبه عند جورة العميان للشبح الداكن الذي كان يتبعه، بايقاع ثابت، محشو بالتوجس. كان راجلاً مثل ثعبان، وحين شاهد مشيته الذئبية الموقعه الغارقة، أدرك أنه وُضع فجأة، في الخطر الذي تحاشاه وحاول الانعتاق منه طوال عمره، همس لنفسه كالتعويذه: «الذيب الأعرج!».

كان هو، وقد واصل مشيته الشيطانيه، كأنه محروس بعناية الله وحده، هكذا كان الذيب يفرض على الجميع شرعية وجوده. ومقاصد توجهاته، حين يتحرك بذاك الهيجان، نحو أي شيء.

كان أسبق منه في المكان، وقد اضطر كامل للتوقف. توجه نحو المجهول القادم محاولاً اختراق الظلمة. كلاهما لم يتكلم، وبدا لكامل أن الذيب تهيَّب منه، ولكنه واصل تقدمه نحوالفارس المترصد في منعطف الجوره. كلاهما صرخ بعد ذلك «وش الزول؟!» وكلاهما ذكر بصوت محشرج اسمه!.

تلك الليلة لم يناما. وقال الذيب إنه ينوي الذهاب نحو الغرب، إلى الجولان، ومرج ابن عامر. فهذه البلاد العجفاء لا تكفيه، وقد سئم انتقاله كالذئب، في شعابها، ووديانها هارباً من مجهول لا يعرفه، فاراً من دماء كثيرة صارت ديناً عليه، هكذا قال: طوال حياته وهو يجبر الناس على دفع ثمن بقائهم في دنيا ليست ملكه، وقد استحال عليه أن يسير في درب أخرى غير هذه الدرب. يقْتل ُثم يقْتلُ، وكلما أمعن في القتل، أوصدت أمامه أبواب النجاة. وازداد أكثر في الجريمة، حتى أضحى وحيداً، فاراً، من أشباح تطارده، لا وجود لها. لكنه

يخترعها من أجل إرهاب نفسه، وإركاع الرغبة الغامضة التي تطمس تفكيره كلما استثارته كلمة أو أغضبه حادث، فيمضي الى القتل.

«ماذا يقولون عني؟!» «سبع!» قال كامل «رجّال!» لكن الذيب رفض رجولته السخيفة تلك، ثم قال إنهم يطلقون هذا اللقب على من يخيفهم فقط، وأغرق في الضحك، *«يذكر أن الضفادع وحدها أجابت الذيب حين اندفعت آلاف منها في نقيق مباغت كأنه الترانيم!» لو كانت ثنيه حاضرة لقالت، إنهم ينوحون على الذيب، أو تنبأت بموته الذي كان يحمله بين ذراعيه منذ فتوته، ويعرضه على الناس. «لكن أين ثنيه؟ وماذا حدث لها بعد موته؟ وأين مضت دلال؟ وما الذي فعله إخوتك؟ لم يدر كيف يجيب على أسئلة كالرصاص انهمرت على ذاكرته وتفكيره»*

«هكذا انطوى ينحتُ شوقه إلى المرأتين اللتين ابتدأت بهما حياته الماضية. ولم يستطع حجابُ الضباب الذي خيم تلك الأيام اخفاء ملامحهما المضيئة عنه».

* * *

(١٢)

في نهار الضباب الأول، اكتشف كنج الحمدان، بعد عودته الخائبة من دار صباح عثمان، فرارَ دلال. لم يحزر أين ذهبت. ولا خطر كامل الفضل بباله، فأحسّ أنه يهوي نحو موته ونهايته.

ألم يكن بإمكانها أن تنتظر يوماً آخر؟ شهراً أو سنة؟ جُنّ لأنه لم يستطع معرفة الوجهة التي اختارت الذهاب اليها، والرجل الذي راحت معه. ولم تجرؤ أمه أن تفصح عن شكوكها حين تذكرت عند الظهيرة، كيف تزعزعت ابنتها لحظة رأت إلى كامل الفضل وهو يقطع الحبال. هل ذهبت إليه؟ هل يمكن؟ لم تقو على قبول هذا الظن، ولا صرحت به، ثم صار قلبها مُثْلَماً بعد ساعات، وهي تعد فواجع اليوم المنصرم. حتى بدا لها الأمر كعقاب رباني:

فإذا كان فرار ابنتها وحده نوعاً من المصيبة، يمكن الشفاء منها، فإن ذهابها إلى آل الفضل كارثة مشينة، لا يمكن أبداً لآل الحمدان غسلها حتى لو أراقوا دماء عشرين جيلاً منهم. كانت ذكرى فضة القديمة تعشش في نخاعها. لكنها مدت يدها في الفراغ وأبعدت الفكرة القرمزية عن صدرها، ضمت قبضتها على الحروف الجارحة، وانتزعتها من صدرها الذبيح مثلما تنتزع خنجراً.

غير أنها ظلت تحوم، مثل اليقين، خلف غلالة الشؤم التي حطت على القرية برمتها. زاد الضباب السميك في نضوب توقعاتها، وضاعف ايقاع احساسها بالخطر. لكنها لم تستطع أن تفضي لأي مخلوق بما يرزح على صدرها، وضبطت قلبها بعد لحظات وهو يسرفُ في دعاءٍ خاشعٍ لله كي يطيل أمد الضباب. تمنت أن

يستمر إلى الأبد كي تفرَّ دلالُ إلى اللاشيء. هناك حيث تنجو من جور آل الحمدان، وسخطهم الذي يهلك كل حي. ربما أتاها نصيب باسل واختفى بها في هذه البلاد موصداً وراءه أخبارها. هذا ما ارتضته لابنتها في المرقاة التي اختارتها لهواها، وهي تفكر في الفاجعة التي حلت بدارها. رفضت أن تذكر أمام كنج أي خاطر ساورها. فالوقت لم يكن مناسباً كي تعلن ولاءها لابنها الذي حيرها في تلك الأيام بما فعله، ولم تسأل أم يعقوب كذلك، التي بدت أكثر انشغالاً بشؤون البيت.

كل هذا دوخها، وشعرت أنَّها تفقد عقلها، فلم تنتبه إلى رائحة العطب التي انثالت في الغرفة، إلا بعد أن مست النار ساقها، عندها قفزت مذعورة، وراحت تلعن بصوتها الخشن كنج ودلال اللذين لم ترَ منهما طوال عمرها سوى العذاب.

اختلطت مشاعرها بعد ذلك، وقد أبدت غضبها على كنج الذي قَدِم اليها من الضباب، وهو لا يجرؤ على مواجهتها. لم يجد في رأسه ما يقوله، كي يزيح عن كاهلها جزءاً من قروح أعماله «نصيبي!». هذا ما جاد به عقله المسحوق، وهو قاعد قبالة أمه، على حافة وسادتين، يدخن، جاعلاً بينه وبينها غلالة غامضة من الدخان، توارى خلفها، بدا لها موهناً، متعباً.

فَشلَتْ في سبر مساعيه، واجتياز خفاء أغراضه، فظلا صامتين، أحدهما قبالة الآخر ثلاث ساعات. أحرق هو فيها عشر لفافات صنعها بيد راعشه مرتجة، دون أن يكف طوال الوقت عن التدخين، إلى أن انتبه أن علبته قد فرغت. حينذاك رماها. وغمغم بكراهية: «عاهرة!» ثم خرج راكضاً من الغرفة.

من كان يقصد؟ دلال، أم صباح، أم العلبة الفارغة؟ هو نفسه لا يعرف، فالمرأتان أحرقتا لحمه وعظامه، والعلبة خانته.

بدت الكلمة مثل لُقيه. اكتشفها خلف جدار، وزاد غموض الأشياء في قيمتها وبهائها «عاهرة!!» صرخ مرة ثانية وهو يحاول تلمس طريقه الى المضافة مغمض العينين، فنجح في المشي دون أن يتعثر أو يقع. أُخذ بالنسيان المفاجئ

لهمومه، والمعرفة الواضحة لكل خطوة يخطوها. مشى دارساً مواضع قدمه واحدة واحدة، وزاد في اغلاق عينيه، محاولاً اختراق أمواج الغيوم العجيبة ودوامات البخار التي تندفع حوله.

نجح أخيراً في الوصول إلى المضافة، كان متعباً، رثَّ الملامح، وكان ضامن يطبخ قهوته بلا حماس. ولم يستطع كنج مقاومة الضوء المشتعل في أعماقه بسبب الكلمة الشيطانية التي رافقت دربه: «عاهرة!» رددها أمام ضامن مخرجاً الحروف من بين أسنانه فلم يجبه الرجل وواصل انشغاله بقهوته، وبالنار التي تكاد تخمد.

لم يزرهما أحد. واعتقد بعد الظهر، وهو يلاحظ وحدته الزرقاء أن الله يمتحنه، وأن عقله وأعصابه المقروحين يُراقبان من قبل قوة داكنة متخفية وراء غلائل الغيوم التي لامست الأرض منذ الليل. واستدل على صدق احساسه بكثافة المادة الغريبة التي حاصرت المكان، وذعر فجأة من الخاطر الغريب الذي خامره، وهو أن المنارة هي البلدة الوحيدة الواقعة في حصار الامتحان!!

ماهية تلك القوة ظلت غضة ومغلَّفة بالأفكار المخدوشة: لقد تلفعت بكل هذا الجلال كي تخفي هويتها، وما كان عليه سوى أن يطيعها، وأن ينتظر قدره المخبأ في ارادتها الجليلة خاشعاً، مضاء باليقين.

لكن لماذا يختاره الله من دون الناس أجمعين كي يفحص قواه، وتقواه، وولاءه؟! لم يفعل ذلك؟ بمَ يفعل ذلك؟ بخيانة دلال؟ أم بحقد صباح؟ وضراعتها إلى الله كي ينتقم منه؟ لا، ليس امتحاناً: (هكذا رآه بعد انتظار) بل هو شؤم، وحظٌ عابس!

اضطرب وهو يرى إلى سلسلة الأحداث التي لم يمضِ عليها أكثر من يوم واهتز ايمانه أكثر حين فطن إلى مكائد الطبيعه التي ماتني توصد الطرقات والأسوار أمامه ممتلئة بالغموض والانقلابات.

بهذه الفكرة فقد نداء الخشوع دفعة واحدة: لن يستطيع القيام بشيء لأحد، غير أنه لم يخفِ وعيده للأيام المقبله.

عند المساء طلب إلى ضامن أن يذهب الى البلدة ويأتي بأي زائر أو ساهر حالاً، كانت عيناه مطفأتين، وكان عقله منكوباً بالوحدة.

عصب ضامن عينيه، ثم اختار جهة الشمال، ومضى في الهدأة العميقة ملبياً رغبة سيده.

ذهبت الى بيت نواف الحماد وهو ينتش قطعة حلاوة يابسة. قاده حدسه الذي توقع وجود بضعة معزين تراءى له أن يقودهم إلى القلعة.

لم يجد أحداً، وناحت زوجة نواف بصوت طويل، متخم باللعنات على آل الفضل. لم يبال ضامن بصراخها، لكنه حين مضى خارجاً انتبه فجأة إلى أن صدرها كان مفتوح الأزرار، فبصق على غبائه وتقاعسه وامتنعت الطريق عليه بضع دقائق لم يجرؤ على أن يتحرك فيها.

استطاع بعد قليل استعادة نفاذ رؤيته، وواصل مشيه في رحم الضباب ممتلئاً بشكوك مفاجئة هبت عليه من المجهول: هل يمكن أن يستمر هذا الضباب إلى الأبد؟ وهل سيظل يتجول فيه هكذا مقاداً بالذاكرة وحدها؟ ربما قضى كنج حينها نحبه في المضافة مخنوقاً بعجزه عن مواجهة الطبيعة؟

كانت ظنوناً خبيثةً، حملها الى حمود الحسن في طريقه، قائلاً له إنه إن لم يزل الضباب هذه الليلة فهذا يعني اقتراب يوم القيامة. شحب حمود مثل كلب، وأرتأى أن يلجأ إلى المجلس كي يستطيعا شحن قواه على الدرب الطويلة التي قد يرغمون على المشي فيها، بدا منهوكاً وهو يذكر كلمات مبهمةً عن الرحيل، حتى أضحك ضامن الذي عاد اليه فجأة ثباته، فقال إنه إن تأكد من اقتراب الساعة فلن يختار لنفسه رفيقاً مثل حمود.

قال ذاك «بأنه لن يذهب معه اذن الى الدار!» متجاهلاً تهديدات الخولي، ووعيده الذي لوح به. فقال ضامن منذراً بأنه لن يساعده إذا ما انتقم منه آل الفضل.

ظلّ حمود صامتاً يحدق فيه، وجعله ذكرُ آل الفضل يرتجف قليلاً، زادت

كلمات ضامن في ذعر قلبه الذي حاول أن يميته طوال النهار، فكر طويلاً طويلاً، ثم قال لضامن «إنه لا يخاف منهم» «لماذا؟» قال «لأنهم مش راح يعرفوا من وين بدو يجيهم الرصاص» بدا مطمئناً ومشرقاً بسرٍ دفين يخبئه ويخفيه، استفزَّ طمأنينة ضامن وخشوعه «شو مخبي يا ولد؟» سأله بحذر خارقاً تقاليده الأبدية للمرة الأولى والأخيرة:

ضحك حمود وقال: «شو بتدفع؟»

توقع هذا منه، لكن هل يستجديه؟ أم يسلم نفسه له؟

قال بازدراء: «كل ما عندي»

صار حمود يرقص ويغني، وتقدم قليلاً وجلس قبالة ضامن وقال برفق:

«وبتحميني من آل الفضل كل عمري»

قال: «بسيف آل الحمدان»

قال: «إي اسمع: دلال خطفت كامل الفضل!»

ابتلعت الكلماتُ اليابسةُ ماء حياته. وحين ترك دار حمود كان محطماً، مخترقاً بوقاحة الرجل الذي أقسم أن دلال ستكون قد حبلت في هذا الضباب الذي لن يفعل كامل فيه شيئاً سوى مضاجعتها، تمنى لو استطاع تحدي كلماته التي انطوت على شماته وحقد، غير أنه لم يستطع، ثم تجاهل ذلك عمداً حين طفت داخل رأسه الذكريات، آمن الآن بأن الأيام لا تطوي أي شيء. «تفو!» بصق على المرأة البغيضة.

لم يفشِ السر لأحد، وتوسل لحمود أن يخفي هذا عن الجميع ريثما ينقشع الضباب المربد، فوافق ذاك وقال إنه لا يهتم بأحد، وإنه لن يذهب لتسلية كنج الحمدان، وإنه يكره كبرياءه ووجهه المغلق.

لم يأتِ للسهرة أحد أيضاً، تذرعوا بالخوف من الضباب، وانتظار المجهول

الذي كانوا يُحسونه، ويتلمسّون مجيئه دون أن يستطيعوا معرفته. وقد رضي ضامن بتلك الحجج، بينما امتلأ كنج كرهاً، وقد تزعزعت آماله بالرجال. انطفأ، وطال انتظاره، وشوقه وتضاعف قلقه: كيف سيمضي أيامه ولياليه وسط هذا التيه؟!

شعر بالأسى لأنه لم يستطع جلب رجلٍ واحدٍ كي يبث إليه آلامه ويأسه، لقد صار منبوذاً، ضائعاً، وطلب إلى ضامن أن يدثره، وأن يخرج من مضافته، وأن يسمرّ الباب بعوارض سميكة، وألا يوقظه قبل أن يختفي من الكون حرشُ الضباب القاتلُ هذا.

(١٣)

طوال النهار الفائت. كان ساخطاً ومقهوراً. وأحس أن اعتقال سعيد، وزواج كامل. وهجوم الضباب، شعائر لعنات، انصبت على رأسه وحده، وحطمت مشاريعه. وقد تجمد على حافة الرعب حين جالت ثنيه بعينيها في قامته. وأيقن أنها عرفت ما يجول في عقله الضال.

لكنها لم تعرف كيف تحل تلك الرموز الغامضة التي انشغل بها، ولا استطاعت اختراق صمته الصقيعي لتعرف الطريق التي يذهب فيها عقله.

اختفى دهاؤهما فجأة، وانهارت أعمدة مهاراتها، وعادت الى حجم أخت مذعورة، حين رأت إلى يأسه، وكآباته، وظلت طوال الليل تحاول أن تجد طريقة حصيفة للسير وسط الضباب، كان ضامن قد توصل إليها منذ يوم. إلى أن وجدتها مصادفة، تائهة ضائعة في نومها. فذهبت إلى نايل، وأيقظته، وقالت له: «إن كنت بدك تمشي بالضباب، قوم امشِ بالليل!»

عندها، روى لها أن حسن الشماط رفض أن يعطيه هيلا. فجحظت عيناها وهي تنظر اليه: «رحت خطبتها وحدك؟!» قالت بحقد. فتراجع من وجهها وغمغم: «ردت أعرف رأيه قبل ما يروح كامل»

لا مراء بأن النبأين أفجعاها. وبدأت تبكي موجوعة زاهدة، لأنّ نايل حلف لها أنه إن لم يتزوج هيلا فسوف يهجر هذه البلد «يا الله!!» همست لنفسها وهي تلومها، لأنها ما انتبهت طوال الشهور الماضية لنايل الذي كان يذوي، ويهبطُ إلى خواء وحدته، أمام عينيها. فقد استأثرت بها شؤون صالح. وانشغلت بالدار. ورعت صايل خائفة مذعورة.

بكت من القهر، حين أدركت أن فضائلها العظيمة كلها لن تستطيع تقديم المساعدة لنايل.

ما لم تفهمه هو قعوده البطيء القاتل، وتسكعه الممزق في جنبات الدار، ومشيه الرخامي الذؤوب المتوج بهالة غامضة، رجحت أنها هالة حداد.

تعقبته محاولة انتزاع فكرة واحدة من تفكيره الرث دون جدوى. لأن نايل بدا مبدداً على قارعة يأسه: فهيلا ستتزوج ذلك النهار، وقد أهلكه يوما الضباب اللذان مضيا، وزجاه في مصير عسير لم يكن يتوقعه. ضاقت ردهة الحسابات، وتصدعت، وسقطت في غروب حامض حتمه الغيم اللعين الذي أحاط بالكون.

فكر بعد ذلك أن يذهب إلى دار حسن ويأخذ هيلا، مثلما فعل جده قاسم من قبل ومثلما فعل صايل وكامل، وربما جميع آل الفضل، هجس بأن الله نفسه يأمره بهذا، وقد ازدرى حسن الشماط الذي اعتبره كلباً لآل الحمدان، برائحة البصل التي تفوحُ منه، ولهاثه البطيء، والبرص الذي يلتهم أصابع يديه، وساعديه، وجزءاً من خديه. واستمد قوة مضاعفة من يقينه بأنه يخربط سلطان كنج ويخرب شاراته ورسوماته، إذا اختطف ابنة الشماط الحبيبة.

وفي مواجهة عيني ثنيه، فرَّ، إلى لا شيء، تلهى بالبحث تحت مطاوي الفرش، وبين الخزائن، وعلى الرفوف المزركشه، بينما راحت أخته ترصده. وتجيلُ نظرها العسلي في تحركاته الرمادية الحافلة بالقلق. أحس كل منهما بأن الصلات بينهما بهتت وصارت قاحلة، فالكلمات لن تسعفه مهما كانت. ولا تملك ثنيه في هذا العماء سوى رواق كثيف من كلمات. فماذا يمكن أن تنفعه إذا كانت هيلا ستصبح زوجة حامد الحمار اليوم؟ ومن هو ذلك الرجل؟ وكيف يزوجونها من الحمار ذاته؟

عجزت عن فهم المرابع الصغير الذي أطاع الشيخ بلاتردد: وهي تعرف أن أخاها معذب باختيار الشماط للحمار أكثر من عذابه بخسارة هيلا كأن الكلب أراد أن يهينه، ويصفعه، ويزجه في الهشيم! كأنها تراه الآن يقهقه، ويضحك بصوت

مبحوح فاسق، ويرقص في الضباب وحيداً مشرقاً بالمنة الالهية التي جاءته من القلعة بالرضى.

لم تستطع كتمان حنْقها وغضبها الذي آلَ أخيراً إلى قهر. وراحت الأحداث تضيّع حصافتها، وحكمة السنين التي راكمتها، كلما أمعن الوقت في الانقضاء. وقد أجهدت عقلها وخيالها طوال النهار حتى استطاعت أخيراً أن تمسك نايل، وتهزه من كتفيه وتقول:

«روح جيب هيلا!»

التفت نحوها دون أن يرمش. لم تره في حياتها بمثل هذه الرثاثة، كان مثقلا بالغبار والتعب، فازدادت أصراراً وقوة «انت مش أول واحد» وكانت تشير إلى قدر إخوته الذين سبرت مصائرهم «إما بتروح بتجيبها انت، أو بروح أنا!»

ثم نهضت، وأحضرت خنجره، وفرده العثماني، وخصرته بهما، وقبّلت خديه ودفعته مثل طفل نحو الباب.

لم يبدِ مقاومة، ولا نطق حرفاً، وهذه على كل حال هي طريقته، «لماذا؟» كان يقول لإخوته «إذا كنت بدي نفذ شو بدها آخرْشي» وحين ذهب من الدار، راهنت صالح بأنهم سيحتفلون الليلة أيضاً بزواج نايل!

كان خاوياً كخربة، وقعد وراء البوابة الكبيرة، لفَّ سيكارة لنفسه، من علبة الدخان التي طرّى تبغها هذا المساء، أشعلها، ودخنها، ثم لف نحو دار الشماط، حافلاً بالكآبة، عميان بالكثافة المطبقة، قطع بضع وهاد، وصعد تلة المريج، إلى أن صار أمام الدار.

هناك التقى بنايف السابق، وراح ذاك يضحك ويقول: «تأخرت! هيلا تجوزت من الأمس!»

لعن نايف، ولعن نفسه أيضاً، وهو يظن أن حساباته كانت خطأ، ولكنه حين عد الأيام وجد أن اليوم كان الثلاثاء وأنهم دعوا إلى العرس فما الذي غيَّر أراءهم

وجعلهم يزوجونها؟ لعن الضباب، وخرطش فرده وهو يمضي إلى دار الحمار ناوياً اغتياله.

كانت الدار خامدة وسط الصقيع العنكبوتي الطاغي، وأخذ كلبان ينبحان دون أن يغادرا مكانيهما مُستسلمين لحاشية الظلام الدامس الذي شلّ رؤيتهما، معتمدين على سمعهما، الذي دلّهما على رائحة الرجل الغريب الذي كان يجوب الأسوار الخارجية لدار حامد بيقظة واوي، رمى اليهما خبزاً من التنور، وتسلق من ناحية الوادي، حيث تعلو الدار هوة عميقة. سار مستكشفاً الغرف واحدة واحدة: رأى حامد نائماً نومَ هر، يشخر ويتقلب. وقد استغرقه سباتٌ رخي، بعثته فيه أنوار زيتية كابية من قنديل راعش. وحين خطا بعيداً عن غرفته سمع الرجل يصرخ: «مين؟»، لم يتحرك ثم بدا لامبالياً، أسير هدوء مميت. وحين فتش عن هيلا، لم يجدها في أي مكان من الغرفة، حاول مرة واحدة أن يفتح باب إحدى الغرف، فانفتح بيسر، انتزعته فجأة يد حانية، بيضاء كالملح، واحتضنه جسد عرقان، مشغول بركام من العطور وروائح الأعشاب:

«هيلا!!»

صرخ بصوت هامس مرتعش، وقد أحس بذعر لم يعانه قط. وامتلأ بجسد المرأة البدينة التي عانقته، وأخذت تنتحب ورأسها ملقى على كتفه.

لم يستطع رؤية وجهها، ولكنه تخيل الدموع، وهي تنسكب كما في العهود القديمة، كما في الأحقاب التي مضت منذ أن عرف الواحد منهما الآخر. فانتابه احساس غريب (لم يدر إن كانت العتمة قد بثته فيه أم عقله المتصدع) بأن هيلا تكذب.

وبخ شكوكه سريعاً، وأمر نفسه أن تكون منصفة، وأن تذعن للقناعات التي جاء من أجلها.

كانت ما تزال تمسكُ به، وكانت تعانقه باطمئنان عاشقة مصممة على

الابتهاج به، والاحتفال بمجيئه المنقذ بعد أن فقدت أخر أمالها منذ الأمس. انتظرته موقنة أنه لن يتركها تضيع في مجاهل الذل التي قسروها عليها، وزاد في ارتياحها مجيء الضباب المجيد، وانتهاء حامد من مهمته منذ المساء، حين وجد نفسه وحيداً، ولا شيء يفعله سوى تطيير دمها، «استنيتك كثير» قالت له، وقد سخنت بذكرى اللقاء الذي حفزها على الامتلاء برغبة مريعة في الاستسلام لنايل، ومنحه هذا الجسد الذي بخلت عليه به دائماً حين كانا يلتقيان في الأيام الخوالي.

لماذ ارتضت أن تستلقي لحامد الذي نالها بقسوة كلب، وهي التي تمنَّعت على نايل؟!

هنا هدأت، انقلب هياجها الى صمت، وتراخت واستكانت حين انتصبت في خبايا عقلها ضلالات بؤسها: كيف سيتقبلها نايل بعد الآن وكيف يمكن أن يغفر لها استسلامها لحامد؟ لكنه صار زوجها، وهي لا تنكر صخب اللذة الخفية التي بثها فيها ذاك، وتساءلت بخبث في أعماقها إن كان بمقدور نايل أن يفعل أشياء مماثلة لانجازات حامد الذي أتخمها بفجوره، وفخامة الجماع الذي مارسه.

سؤال فاسق كما رأت، وقد رغبت الآن أن تجرب، مندهشة من وقاحات الجسد الذي فطن فجأة لشرائعه المتغطرسة. غير عابئ بصبابات اللحظة التي يفترض أن ترقص الروح، وأن تسيل كلمات الغزل.

قادت نايل من يده اليها، مستسلمة لحشرجة الرغبة الشمعيه في المضاجعة، فانقاد مثل طفل، وبدا مأخوذاً في مدارها، تالفاً، ومتصدعاً من الغُلمة، وكانت تفوح منه رائحة الأعوام الطويلة، والضباب وأشجار البطم، وعندما لامست يدها ذلك الكائن العابق بالرجس، المتحفز، شعرت أنها صارت فراشه.

فوجئ نايل بحمى الشهوات التي أبدتها، فيما كان مساقاً اليها بأحلام الفضيله، وأمال الزواج. وفيما بعد سوف يتساءل: كيف استطاعت يدها وحدها أن تحيل جسارات الوجدان، واقتحامات العقل، إلى فوضى، وهل ضيعت هيلا حياتهما المشتركة التي كان يخطط لها، في اللحظة التي زحفت يدها فيها إلى مكمن رغبته؟

وقد ضلله طعمها، فحيثما ذهب في جسدها، كان يشم رائحة الحمار المسحوقة: في العنق، والنهدين، والبطن، والفخذين، وفي الرواق السحيق المحرشف. ملأه هذا بالأحقاد، واقتلع منه أمطار العشق، فيما وشحه باللذات، فانساق في شتاء رغبتها، التي جادت بها بطيبةٍ محبة، مكرهاً مهشماً كالزجاج، وقد اختلطت عليه الشرائع، والدروب.

«لعنة الله على أنفي» كان يصرخ بعد شهور وسنين، متمنياً لو خسر حاسة الشم القاتلة، كي يربح هيلا.

كلاهما أبدى ضروباً من الفجور، روَّع بها الآخر، فقد تعقب نايل رغبات هيلا كلَّ مرة. عدا خلفها في الأنفاق السرية الريانة، وطاف في الضفاف الراعشة، هبط إلى الجنبات القصية المنبوذة، أتلف غطرستها، وحفز مهاراتها، وأذاع حريقها في أصقاع الجسد، وهُزمت مرة، حين بزها نايل في ركضه الدؤوب على الطرق الحافلة بالولائم، ثم تفرغت لبريق الشرارات، وأسراب النجوى التي بثها في المدى الشاسع لسمعها، وراحت تناجيه بأنغام مُختلةٍ نحتتها من سماءِ الأمجاد الكريمة التي أشرقت في سهوب اللقاء.

حتى إذا انتهيا، تنزهت عارية، منورة، ممحوة، في الغرفة، عارضة خيرها الحقيقي المحسوس، في محاولة أخيرة قاهرة، لتأجيل لحظة القرار الذي لم تستطع أن تتأكد منه (ربما بسبب العشق الذي نعنع تفكيرها) ولإبقاء نايل ساعات أكثر في غرفة حبها.

لم تفلح، فقد صرعته رائحة حامد، بددت حماسه: «لا!»، كان يزعق في وجه ثنيه التي تراءت له في الظلمة الضبابية الجوفاء، فتضرعت اليه هيلا أن يخفض صوته، في اللحظة التي أفاق فيها حامد، وصاح من غرفته المجاورة «مين؟!»

كانت تعرف أنه يملكُ صفات الحمار العظيمة كلها: نومه الشحيح، وسمعه الفاجر، الذي كانت تنقضه دعسات نملة، فغطت وجهها بيديها، متلوفة هالكة، وهي تظن أن حامد دبر هذا لها (منذ أن نصحها بالنوم وحدها في هذه الغرفة):

مكيدة دنسة أراد بها الانتقام منها لأنها رفضته، والثأر من الشتائم الحاشدة التي كانت تقابل بها حضوره كل مرة.

لكنها اكتشفت سريعاً أنها ظنون حمقاء هشة. فحامد الذي أبدى تلك الفضيلة (حين أبعدها عنه) كانت أفكاره تذهب الى مكان آخر، فقد خشي عليها من شخيره الفظيع الذي رافقه منذ الطفولة، يوم تسللت علقه إلى حنجرته، وجرّحت شرايين بلعومه، تاركة فيه إحساساً أبدياً بالاختناق، ظل يحرقه كل ليلة طوال عمره.

وقد أشفق على هيلا، ومنحها منذ اليوم الأول حقاً، لم تكن تطالب به، ولم يتراجع عنه أبداً، رغم أنَّه بعد زمن، سوف يعلم أنها كانت هناك في صومعتها تضاجع نايل الفضل.

أما الليلة فقد مكث بضع لحظات في باحة الدار، حادث كلابه وسألها، وهي تهرُّ وتتمسح به، وتكتفي بالزحف اليه، متصدعة، رامشة ترطن بالحشرجات، وتجرجر أرواحاً رثه.

لن يرى شيئاً، وقد بلبله الضباب، وملأ ضميره بشكوك من أنه توهم سماع ذلك الصوت الغريب (كانت هذه أول مرة في حياته يحيلُ فيها الحقائق إلى ظنون) وقد اعتقد أنها غطرسات الضباب أو أصوات ازدحامه فآب الى غرفته زاهداً بصفاته كلها دون أن يوقظ هيلا.

أغفى بعد لحظات، عقب أن تزود بالطمأنينة. فيما كانا يغالبان الهلعَ الذي باغتهما، ويحاولان دحره، وقد تغير مزاجهما كليهما: نايل استحال إلى عود يابس، وتكسَّرت هيلا مثل مساءٍ باهت.

تبدل مسعاهما، والمسالك التي أرادا اجتيازها قبل ساعة، وافزعهما الانقلاب المفاجئ.

نقم نايل على نفسه التي امتلأت بالأنقاض، ضاعت منه الإجابات لماذا؟

كيف يمكن أن يبدد أعوام الخيال؟ وكيف يستطيعُ أن يتلف خزائن الأفكار والحب دون تردد؟ ولا يدري لماذا شعر بالخواء، وبأنه لا يريد هيلا. وقد رأى أن هذا كله بلا معنى، رغم أنَّه استحوذ على تفكيره، ودفعه لمغادرة المكان دون رادع.

راعه أن هيلا تنظر اليه، كأنه لم يوجد. الشيء الوحيد الذي فعلته هو أن قالت «تعال! كل ما حبيت تعال!» ورمت اليه رزمة مفاتيح، لكن الرزمة حيرته، وأذهلته، وقهرته.

وبعد يوم، حين حملها وعاد مثل مجنون، دخل بلا استئذان، وجد الدار مرمية في الكآبة، ووجد هيلا ناذرة نفسها له هذه الليلة، مانعة حامد من الاقتراب، دون أن تلزم نفسها بتفسير.

عرف ذلك من الرائحة التي زالت فجأة، ومن الجسد المختمر الذي وشى بحبه، لم يستطع كتمان حيرته وعذابه: لماذا لا تعودين معي؟ عندها روت له أنَّها أقسمت في اليوم الأول الذي أكرهوها على الزواج بحامد، أن تظل تخونه إلى يوم القيامة، وأنها تخيرهُ الآن، هوَ: نايل الفضل بين أن يكون عاشقها الوحيد، أو أنها ستضاجع رجال المقرن جميعاً!

* * *

(١٤)

الوحيدان اللذان ظلا يجوبان الخضم الكثيف هما : نايل الفضل الذي ضيعته هيلا، وضامن العسّال المدحور بالوحدة!

كامل ظل حبيس احتراقات دلال. وثنيه انتحلت صفات الامومة جميعها وهي ترعى اخوتها الذين صدّعهم شحُّ الكون، وضيقه. ولم يجد هايل في تلك الظلمة ما يحتاج إليه من الحوافز كي يهتم بانجاز دروسه والفروض التي قررها الشيخ شمس الدين. وأبى شامل أن يشارك أسرته تقبلها الفارغ للضباب، فاعتقد أن بإمكانه (إذا ما استطاع اختراع آلة تنفث الريح مثلاً) أن يُبعد كتل الضباب الممتدة، أو أن يخترقها بأنفاق آمنة، تخلصهم من هذا الاستسلام المشين الذي انطووا عليه.

كانت آماله بسيطه، بحيث أنه لم يفكر إلا بتحرير منزلهم، لكن المروحة التي صنعها من الصفائح، وشرائح الخشب، كانت رثة، وبائسة الى درجة أنها خلقت حوله دوامة شائكة ومتحشرجة من حلقات الضباب، خنقته وبددت جهوده سُدى، فحطّمها بلا ندم بعد أن أمضي أربع ساعات وهو يديرها بلا توقف.

بعد ذلك ادعى صالح أن هذا الضباب هو احدى علامات اقتراب القيامه. (لم يُقنع ثنيه ادعاؤه) واستقى من الحدث مادة هائلة لاقناع آل الفضل بصواب ظنه. وبدا مكسوراً وخائفاً حتى الموت من الضلالات التي ارتكبها في شبابه. والأخطاء التي لم يعرفها.

كان صادقاً في انكساره وذعره، ولم تعرف ثنيه كيف تحميه، أو كيف تعيد

إليـه إحسـاسـه بـالأمـان، وقـد شعـرت بغـضب اضـافي بسبب انفـراطه وضـعـفـه، واستجاباته الوانية لأخطار الطبيعة. ولقد أضاع كل المواعظ والرقى التي كـان يهرع اليها حين يواجهه أحد الاخوة بتجديف مفاجيء، أو يراوغه آخر بدجل مكشوف. كيف تهديه اذن؟! . وقد نسيت هي أيضاً جميع مواعظه التي حشا بها عقلها كلَّ يوم منذ تزوجا . أين ذهبت، وهي التي صارت تحبها الآن، وتحسُّ أنها نافذة أمان؟

لكن الايمان بما يبشر به، بدا لها مجازفة حافلة بالحزن، فلم تجاره. رغم أن صـالح كـان على شـفـا المرض. ناحلاً ومـقـوسـاً كعكاز زاهداً في متـاع الدنيـا التي وجدها ضئيلة، راجفـة، إزاء القوة الالهيـة الخارقة التي أعـمت الكون. لا أمل! وسوف نظل نتخبط طوال العمر باحثين عن بارقة. وأقصى ما نصبو إليه أن نرى شريكاً من البشر يرافقنا.

لا! لم يكن هذا مقنعاً. ولا معنى له. وليس ثمة ما يدعو الله كي يُكْرِهَ الناس على الانزواء في هذا الاحتضار السخيف، كما فكرت ثنيه.

لكنَّ صالح تكلم عن الضباب بوصفه النهاية. فالكون الذي ابتدأ بعنصر الماء، ممتلئاً، وكثيفاً، تبعثر الآن، وتراخى، وتفكك حتى تحول إلى ذرات خفيفة خاوية تستعد للرحيل!

تملكه الذعر، وتمنى لو استطاع أن يفرَّ الى أصقاع مجهولة شاسعة وغريبة من كوننا. وأن يهرِّب معه ثنيه التي أدرك الآن، في هذا الصمت التعيس أنَّه لا يستطيع البقاء في أي مكان دون وجودها العميق الحامي. صار صالح ريشة كئيبة واهنة. فـحضنته ثنيـه مـحـاولة أن تنقـذه من الانمحـاء. دون أن تكف عن تأمل نـحـافتـه الجريحة، وفوضى كلماته، وابتسامته المجهده، ومروره العابر في الزمن المستقر الثابت المحير الذي ملأ المكان.

لكنها صارت متعبة. وهذا ما تخشى أن تقوله، ولاتجرؤ على الافصاح عنه، وتحاول حثه على الابتعاد عنها، رغمَ أنها اشتهت في لحظات كثيرة أن تبكي، وأن تنوح بسبب اكفهرار العالم، وتشكو إلى المعين القادر قوة النقمة التي ترجِّف كل شيء حولها.

«لمَ هذا يا ربي؟!» يهيمُ السؤالُ في السد المروع المسدل. يهيم في البقاع المخنوقة، كي يضطرها للبقاء شفيعة يحتاجها الآخرون. هذا قدرها فقط، وليس لها سوى أن تكون راعية، وأماً تحنو على الاخوة الراجفين، والأخوات الخائفات بعد ضياع البوارق والآمال.

صالح رقّ وانتحى ركناً قصياً من الدار، وراح يضرع منه الى الله كي يعفو عن ذنوبه وخطاياه. حاولت صادقة أن تخشع وتصلي، لكن مشاغلها الدنيوية كانت أقوى. وقد تخلت عن اصطناع التعبُّد في اللحظة التي أحست فيها بأنها دجالة متغطرسة فارغة. ضحكت في أعماقها من فُسقها، ومن شكها العجيب بنوايا الكون، وشدة الجبروت التي تخفيها الطبيعة.

حتى شحوب صالح، وضراعاته، ظهرا لها تقلباً مؤقتاً غطى به رخاوة روحه الزلقة. فلم تعجبها الأفكار المجنونة. فرمتها بعيداً، وتركت زوجها في رطانته مشروخاً مخرباً، ثم عادت الى اخوتها الضائعين في أصقاع الدار.

أطعمتهم، وبدلت ملابس هايل ونايل، ودلت هنده على الطريق الى البئر، ثم رطبت جبين غريبة المحموم، بسبب البرد الذي سببه عرس كامل، بكمادات باردة. كانت البنت ترتجف، وترنو إلى ثنيه متوسلة، لاجئة حتى أحرقت لحمها، فطفقت تعدُها بالشمس، وتغمرها بالانتظار، وتطوف حولها باكتشافات جديدة مأخوذة من صفاء المناخ، حتى استكانت غريبة بعد أن تشربت الطمأنينة مثل برتقاله.

عندها، امتلأت ثنيه بازدهار قمر، مشوقة بأمل انقاذ حبتها من أخطار الاودية السرابية. ومن يأس الاختفاءات، ومن رمل المجهول.

* * *

اختفى صايل تاركاً وراءه رائحة خزانة. انتظرته في اليوم الأول كالمجنونة، ممتلئة بالكآبة. صارت تذهب الى النافذة، وتتكئ اليها حتى يتيبس مرفقها،

وينجرح جلدها جرحاً خفيفاً، بسبب شقوق الخشب العتيق. تنتظره هناك، مفعمة بأطياف باردة موهومة، وهمسات بهيمية صاعقة دون جدوى.

توارى خلف الضباب، وخشيت على نفسها حين بدأت تسمع صدى سقوط معذب، وصرخات مذبوحين. ورأت في اليوم الثالث شمساً ضئيلة متجمدة، فهرعت إلى الداخل، مرتعشة حزينة دون أن تدرك أنَّ ما رأته، وما سمعته كان حقيقياً، ونقياً، وحياً.

ثم أخذت، كلما استعادت جأشها، تخرجُ إلى باحة الدار، أو الى الغرف الأخرى، وهي مؤمنة بأنها سوف تجده. فقد حدست بخطواته، وشمت وشوشاته المتلعثمة، وأحست أنَّه ما زال هنا موجوداً، زاهداً في الظهور، بعد أن أحرقه الخفاء المزين بالبرد، وميض الماء المحدق بكل شيء، لكنها لم تجده. ضاع مثل زورق. حتى اذا فقدت كلَّ أمل صاحت: «ياصاااايل!!»

وعلا صراخها حين فكرت بأنه ربما ضاع في الضباب الأحمق، ولم يقوَ على اختراق هذه الممالك الصاعقة دون أن يتزود بحكمتها.

لكنها حمدت ربها لأن دلال لم ترَ ارتجافها، ولا التلف الذي أصابها وهي تدرك أنها لحظات ضعف. أما بقية اخوتها فقد هرعوا اليها مستجيبين للنداء، لم يصدقوا أنَّ السبب هو اختفاء صايل، وكان يمكن أن يسخروا من أي واحد فيهم لو فعل ذلك. أما ثنيه فقد أذهلتهم، وأذاعت فيهم شكوك السؤال الفاحش حتى أنَّ شامل تساءل: منذ متى لم يجلس مع صايل؟! وحين تذكر أنهما قعدا معاً قبل عشرة أيام، جعله بطء الزمن يظن أن تلك الذكرى بعيدة وموغلة في الوهم. غامضة الى حد الرعب، ودفعه يأس ثنيه للاعتقاد بأن صايل قد اختفى حقاً، وأنه لن يعود إلى الدار مهما نادوه. رجَّفه هذا الظن. هل يختفي؟! أو أنها ظنون سخيفة مضحكة؟ فليبعدها عن تفكيره كما يبعد ذبابة! لكن أين ذهب صايل؟!

* * *

(١٥)

هذا الجنون انتهي فجأة صباح يوم مماثل لليوم الذي ابتدأ به، فقد تفسخ الضباب بلا توازن، وانهال نحو الجهات الأربع، في اللحظة التي بزغت فيها الشمس، ثم تطاير هباء كأنَّه لم يكن.

شهقت ثنيه حين فتحت نافذة غرفتها: لاحظت اختفاء الضباب. ورأت أمام البوابة الكبيرة في الظلال البائسة للشمس المعكرة المتعبة، شبحَ صايل.

بدأت تصرخ، وتستغيث، وقد أتلفتها السعادة، حتى لمت حولها أفراد أسرتها جميعهم، متأهبين بكامل عدتهم لمواجهة الخطر المروع الذي ظنوا أنها تخشاه.

لكنهم حين فتحوا البوابة لاستقبال أخيهم، لم يجدوه. لم يكن هو وإنما غريب جوّال أتت به البلاد إلى هنا في هذه التباشير. استضافوه، لأنه كان بشرى سامية، وطلعة كريمة، أتت مع تلاشي الضباب الداعر من جنبات كونهم، بكل تلك الخفة.

كان طويلاً بطريقة عشوائية، وممتلئاً مثل ثور، يخفي، كما بدا في عيني نايل، رغبة حارقة في العراك. أخذ الرجال يراقبونه بأطراف عيونهم، فيما تجاهل نظراتهم، حتى شرب قهوة صالح ببطء ويسر ودون ارتباك، محافظاً على هدوئه اللامبالي.

لم تفتهم رثاثة ثيابه، ولا القذارة التي ينفثها جسده، وقد رجحوا بضع مرات

أن يكون قـاتلاً، مطارداً، ولاجئـاً الى حـمـايتـهـم. أو أن يكون طالب ثأر أوقـعـه الضباب المضيع في غير أرضه. ولم يستطيعوا سؤاله عن غرضه، بسبب العادات على الاقل، رغم أنّ فـضـولـهم، وشـدة الضـيق الذي كـان يخنقـهم بعـد الوحـدة الطويلة التي عاشـوها، كانا يحرضانهم على إلغاء التـقـاليد، أو اختـراقـهـا، كي يسمعوا أي شيء من هذا القادم الغريب من العالم الذي اعتقدوا أنهم لن يعودوا اليه أبداً.

لم تواتـهم البـراعـة في السـؤال. وضـيع كـامل على شـامل ونايل وصـالح الرغبة. حين طلب افطاراً للضيف، وقد صوب نحو شامل نظرة ملساء قاتلة حين تباطأ قليلاً في تلبية أمره، لم يكن يسأله، ولم يعتد سؤاله من قبل، ولكن شامل تأخر فعلاً في تنفيذ الأمر «كيف؟ لماذا؟» ما كان كامل يطلب منه، بل يقرر له.

كـادت حماقة شامل تهلكه، حين أبدى نفوراً واهياً من الذهاب، فقد اندفع كامل فجأة وراءه، واستل سكينه في باحة الدار، ثم أمسك به من صدره، وزأر بلا رحمة: «لا تعيدها!»

بعد ساعة، امتلأت الدار بالضياء، حين تحررت الشمس ببسالة من بقايا الشروخ التي سببها الضباب. كان الضيف قد أنهى إفطاره، واغتسل، وشرب القهوة، ورطن ببضع عبارات باهتة جريحة. حين تصدعت البيوت فجأة بالنواح. نحيب دؤوب تناهى الى آذان الرجال كالمدي، كان متخمراً، مشبعاً باحتراقات المكوث والانتظار.

فزعوا جميعاً من المضافة، وهناك وجدوا أم سعيد وفضة تنوحان قاعدتين في باحة الدار مثل بومتين. تبكيان، وتصرخان، وترددان كلمات ولعنات. علا بكاؤهما عندما رأتا الرجال، وراحت فضة تحدق في أبناء عـمـهـا، وهم يتفرقون كالنمل، يركضون ويهتفون ويدخلون إلى الغرف ويخرجون منها في حركات عشوائية حائرة «كأنه كان محتوماً أن يموت سعيد كي تري محبة أبناء عمك لك!» لأنهم عانقوها، بكى كامل. وبكي نايل، وجاء هايل يصيحُ، والبنات ينحن

ويندبن «ابكي اذن!» راحت تهمس لنفسها «ابكي على الأخ الذين لم يعرفوه بعد، وابكي على الغد المغلق المترع بالفخاخ! وابكي على جسد الأخ المنهوك الضائع!»

هكذا أوصلتا اليهم نبأ فاجعتهم. ألقتا بهم في الفضاء اللامحدود، في الفراغ الأحمق، في ازدحام الأسئلة، في حشود التقلبات وشرود الأقدار.

هذا كله حتمه مقتل سعيد السري، المليء بالاقنعة والغرائب، وراحت فضة تزيدُ أُواره بتلال من الندب الجارح الطويل. وهم يضرعون اليها أن تكف عن نحيبها بعد ذلك.

لكنها لم تتوقف، فقد ملأها حشد الرجال الطوال المنحنين عليها بالصخب، بقنديل الشفاعة، واستعاد قلبها وعوده التي بددها الضباب طوال أيام العُسر الماضية.

لم تحسب بعدُ أنها أعمتهم بغبار أحمق: أي الطرق يسلكون؟!

حتى ذلك الضيف المحير بانهمار النحيب، والثارات حوله، بدا ممسوساً بالأفق المسدود الذي صار جلياً، وقد حاول مراراً تعزية كامل أو تبديد الكآبة عن شامل أو نايل دون جدوى.

كانت ردود أفعالهم عجيبة وخرقاء: بدوا متعثرين، ضعفاء، ورخوين إلى حدود البلاهة، كيف يمكن لأسرة عمالقة مثل هؤلاء أن تحمل قلوب نعاج؟ نعم، وقد أظهروا من التردد، والانحدار أمام الفاجعة المعلنة، ما أذعرهُ، لن يبقى هنا، فإذا كان هارباً من الموت، فلن يختار حماةً موهونين مثل هؤلاء.

لكنه لم ينفّذ ذلك. وقد تناول منذ ساعة خبزهم وملحهم، وأحسّ أنه مسؤول عنهم في لحظة الموت الفاجع لابن عمهم الذي اضطرت أمه وأخته لدفنه في قبر حفرتاه في حوش الدار بدلاً من وضعه في الخشخاشة. أما مسؤوليته، كما فكر، فهي أن يمسك بيديه، هذه الفوضى الرثة، وهذا الحزن الفاسق، ويحولهما الى حصافة وعزة رجوليتين.

كانت مهمة جليلة لم يستطع أن يضطلع بها، لكنه لن يندم، لأنَّه بعد ساعة فقط سيكتشف أن ما رآه فيهم لم يكن رجساً وشحاً، وإنما رقة أدرك بعد ذلك ألف مرة، طوال السنين التي سيمضيها في ديارهم، أنها لا تصلح الا للشجعان فقط.

لكن غموض الموقف خنق كامل، ولم يعرف ماذا يفعل، وهو المكلف باتخاذ القرارات! لم تنفعه حكمته، ولاترويه! وقد توقف تفكيره وهو يرى الى فضة تنوح، والى أمها تتقلب كأفعى:

«يذكر أن الضياء الشمسي الذي غمر الدار كان شاسعاً، تفوح منه رائحةقدر، وأن وجوم اخوته بدا فارغاً كالليل، ولكن هذا لا يفسر موقفه الأخرق، ورؤيته المعتمة العمياء لما كان واجباً أن يصير!. لماذا مثلاً لم يمنع نايل من الذهاب الى كنج الحمدان وهو يعرف جيداً اختلال الموازين بينهما؟ لماذا أيضاً جازف بالتعقل لحظة كان واجبه الجنون؟ حين يتذكر ذلك يملؤه يقين بأنه كان دجالاً قميئاً، ودعيّ فتوحات قزماً. فلا معنى لاندحاره، وصمته، وتصنعه الحكمة سوى أنه كان متخوماً بالتردد والخوف».

«دجال؟! لا لم يكن هكذا، فقد أعجزته الأحداث الطائشة، التي اختطفت سكينته، ودنسه النواح الصائت المستمر، فبدد أفكاره، وجرجره في الأمكنة بعيداً عن ضفة الأمان» ماذا يفعل؟!. حين ينظر إلى إخوته يمتلئ بإحساس بالأبوة والحرص، فيسدل على قوانين الثأر والانتقام عباءة النسيان، ثم حين يخرق سمعه عويل فضة، ونحيب أمها، تتملكه الرغبة القاهرة في هلاك كنج، حتى أنّه لم يعد يقوى على مقاومة هذا التفكير المتقلب كالبحر، سدَّ أذنيه، وكبا على حافة الطواطي، لاعناً ساعة مولده، كأنَّ حياته كلها كانت افخاخاً وشراكاً ملعونة!

فمن أين تأتي الحصافة اذن؟!»

هكذا مضى الصباح بطيئاً. حافلاً بالضلالات، أمام عيونهم. كان شامل يحترق بالغيظ طوال وقته، وقد تحتّم على قلبه تقبُّل جليد الموت ببرود البنفسج وانزوى في الركن القصي لباحةِ الدار، حزيناً، يبكي ابن عمه. ويشرب نبيذه

اليومي بتشفٍ ودون شهوات. كان طعمه كئيباً، وباعثاً على النوم، ولم تنفع سيكارة الحسنبكي اللاذعة في اصلاح رثاثة النبيذ.

لعن جدعان في سره، على هذا الاختيار الفاسد! كيف أكرههَ اللعين على قبول هذا النوع المخرب الحامض الخالي من الوحي؟!

حين تذكر أنه تذوق جرعةً طيبة من عنده، أدرك أن جدعان صار تاجراً تافهاً إلى حد البلاهة: لقد ضحك عليه، ولكن ماذا يفعل تجاه موت هذا الابن العم الآن؟ ألا ترى يا سعيد أنَّ هذه المفاجآت المسعورة سوف تدمر حياتي؟ لعن الميت في أعماقه، ولعن فضة النمشاء بهذا الفحيح الذي تملأ به سماء الدار «اخرسي! اخرسي!» راح يدمدم في أعماقه: «العمى! أكلتِ لحمي» وقد اشتهى أن يخاطبها بأعلى صوته. أن يقف أمامها، ويلقي كلماتٍ ناقمة راجفة، عن كل أصناف الموت: موت الحبق مثلاً! موت الذباب (وقد فكرً أن يطلق هذا الاسم على قتلى العشائر) موت القناديل: (وفيه ينطفئ الناس بنفخة واحدة) على أيهن تبكين مثلاً، إذا لم يمت سعيد بأي واحدة منهن فلا داعي للبكاء «خذي!» همس لها في سره «اشربي من نبيذ جدعان السخيف! وكلي من مخلاة حصاني!»

سخر من الضيف بعد ذلك، وقد رأى في لعبة الشكوك التي كان يمارسها، أنه يتصنع الرهافة، واليتم. أضحكه هذا التعاطف المجاني، وبؤس التشيع المخلوق اللذين يبديهما، اشتهى ان يعرف اسمه، وحاول أن يبتكر عشرين طريقة لتنفيذ ذلك دون جدوى. ثم وجد أنه يدخل نفسه في متاهات لئيمة، فأطلق على الضيف لقباً غريباً انتزعه من خرابة عقله وانحطاط مزاجه: «جحيشان» كي يتخلص من التفكير في اسمه الحقيقي. أحسَّ بالارتياح عند هذا، وتجرع نبيذ الحساسنة (كما نسبه الى جدعان الحسون) وكان مترعاً بالهزيمة، وهو يعلم أنه يهرب من المواجهة المحتومه هروباً مؤقتاً يرميه في فراغ، يخرقه نواح فضة: «نوحي!» صار يقول وهو يعلم أنها لن تتوقف إذا ما أراد ذلك» ولكن لماذا لا تبكين مثل ثنيه أو غريبة أو افعلي مثل هنده التي تبكي كملاك، تبكي مثل عاشقة: مازجةً جمالها بأسرار الدموع!»

لماذا؟ هل لأنها الوحيدة التي تعرف كيف تضيء طريقها ودروب الآخرين «وخذي مني هذه النصيحة: اخلطي حليب التين بالطحين! وجربي شربه! فهذا سيجعلك يا ابنة العم تدمعين الى آخر السنة».

صار يضحك على ضعفهم وانكسارهم جميعاً، أما الضربة التي خربت مزاجه، فقد جاءت من جهات نايل: فذلك الولد الشارد، افتتح فجأة دون تمهيد سواد الانتقام، حين أفاق من غفلته، وقد علته النقمة «ليش واقفين؟!» صرخ بإخوته الذين بدوا عاجزين عن تعقب رهافة اللحظة، كان يسألهم «شوعَ بتستنوا؟» وشامل بقول لنفسه: «أنا أعرف» مستجيباً للسؤال «وربما كنت الوحيد بينكم الذي يعرف. فأشرب النبيذ، ولكن نبيذ جدعان قذر وحارق كالخل ولهذا السبب فأنا عاجز عن الحركة، تبذت نفسي وحكمت عليها بالمكوث وراء المريا»

بدا شامل حريرياً، ومشبعاً بالغبار وهو يراقب، بصمت، وحيادية مشهد اخوته المجرجرين كالرقاع إلى خنادق الحرب التي لم يختاروها. لم يدر من أين يستمد قواه، من نايل الناقم المشبع بالحماس؟ أم من كامل الهالك كالحطب؟ أشفق على كامل، ثم ضحك حتى النخاع حين تذكر ليالي أخيه الماضيه التي أمضاها مولهاً، جوالاً في أحضان دلال.

نايل كان ما يزال يهتف في باحة الدار أمامهم: «عَ شو عم نصبر؟ شو بقي لنا؟ إذا كان بيت الحمدان عَ بيتقاسموا دمنا قدامنا، وما النا غير الجمال والحمير والحجارة!».

«والنبيذ كمان ياخي!» قال شامل بصوت عالٍ خشن، فالتفتوا اليه كلهم، بينما جرى نايل إلى جناده، وتمنطق بالرصاص، وحمل بارودته وراح يعدو نحو دار كنج.

حدث ذلك كرمش العين، وتمنى لو استطاع أن يمنعه في تلك اللحظات لكنه لم يكن هناك. لقد تذكر الآن أنه كان في الداخل يحاول أن يشرح لدلال ماذا يحدث، ولم كان عليها أن تبقى داخل غرفتها، تذكر أنَّ نايل هدد إخوته أيضاً:

«والله إن راد واحد يمنعني غير اقتلو!» كانت عيناه أقسى من فوهة بارودته، وقال لشامل: «هاي بدك تشوف شي غير الشرب» فصار ذاك يتنحب ويناديه: «تعال! ما بديش! ما بديش!»

* * *

حين دقوا على الباب، كان الشيخ شمس الدين يكتب الرسالة الأولى من كتاب الرسائل الجديد الذي ابتدأ بنسخه. مبهوراً مندهشاً من عظمة المعاني التي ما انفك طوال عمره عن الارتباك، والشرود، والتعظيم كلما اقترب منها، كانت تمده بالفخامة أيضاً، بإحساس صاحب بالبشارات، والمهارة، وإشراقات الروح.

في الصباح، حين انتهى من خط العنوان بالأسود والأحمر، أخذت الحروف السوداء، تتقلب وسط الصفحة، سامية، بارقة، تغدق على البياض خصباً شبيهاً بحقل ذرة! أما الحروف الحمراء فقد جعلت ترفرف وتجوب المكان بجناحي باشق، ثمة اذن معانٍ أرضية. وغطرسات بشرٍ في الثنايا المقدسة لهذا الكتاب الباسل، كانت تجعله يتهيب نسخه، رغم أنه فعل ذلك مئات المرات.

وقد بقي طوال أسبوع الضباب، يخشى الدخول في مملكة الحكمة منتظراً الصحو.

لكنه لم يكن يظن أنَّ ذلك السطر الواحد من رسالة التحذير والتنبيه الذي ابتدأت به: «ستكثر فيكم البلايا والامتحانات» سيكون عنواناً لذلك النهار، ولجميع الأشهر والسنوات الكثيرة القادمة.

ترك ريشته ساخطاً، ممتلئاً بالغم، وهو يظن أنه أحد الآباء الذين يأتون لحقن قلبه بالحقد على أولادهم، أو على المشاغبين من أولاد القرية. لم يكن بوسعه أن يقول لهم شيئاً، رغم أنه في الأعماق كان يتمنى ألا يقاطعه أحد أثناء الكتابة. غير أنَّ المهام التي أناطوها به طوال السنين الماضية، أرغمته دائماً أن يتجاوز وظيفة معلم الأبجد هوَّز إلى مشاغل المصلحين.

كان يعلم أن العبارة أطول من قامته. لكنه لم يتوانَ قط عن اختراق التخوم الخطره، والجزر العاطلة، مهما كان الخطر. كان مساقاً بإحساس الربابنة نحو الشواطئ النفيسة. وعندما أخبره صالح الحراني بما يحدث في القرية صرخ: «يا فاجر» قاصداً كنج. ثم أشعل شمعة، واعتلى ظهر أتانه العالية، وانطلق في الأزقة مبتهلاً إلى الحق أن يؤخر نفاذ أقداره.

شطر القرية في الوسط متوجهاً نحو دار الحمدان، وقد اصطدم في طريقه بمسلحين محتشدين في المدخل الشمالي للقلعة. فلعنهم بصوت جهير ورمى سلمان الراضي بنظرة ازدراء لم يستطع اخفاءها. أشاح سلمان مذعوراً عاجزاً عن المواجهة. لأن شمس الدين كان يستنزفه دائماً بقوة بصيرته. بأمطار القسوة التي كان يقابل بها فساده، وجوره. ولم يستطع أبداً مقابلته، أو مواجهته. شيء ما في سحنة ذلك المعلم كان يجعله يستقيل، ويترمد.

تجاهل هذه المرة أيضاً احتقاره الكاشف مكرهاً، فيما واصل الشيخ تقدمه نحو القلعة بلا وجل: بدت له عصية على الاختراق. عالية وضخمة ومخيفة، رغم أنها تخردقت في الجنوب، وأنبعجت من الجانب الشرقي حيث يمتد سهل الحصى «حقوق الدهر!» كما كان يصفها كل مرة، ومنذ أن بناها يحيى الحمدان على أنقاض خراب قديم وجدوه هنا مبعثراً، ظل آل الحمدان يقهرون المنطقة من خلالها، كأنما كان البناء نفسه يترك في نفوس الناس أثار رعب وخوف، فالمكان العالي والأعمدة المتوجة والحجارة المنحوتة وأبواب الحلس المتخومة بالنقوش، ما كانت فناً الآن، ولا طراز عمارة، وإنما مجرد قامة شوهاء كبيرة تخفي وراءها حصن لعنات وأحقاد!

كل هذا بعث الكآبة في نفسه، وأتلفته التوقعات تماماً، فلكز حمارته متسلقاً الطريق الوحيدة الصاعدة إلى دار كنج، بخفة وشموخ وقوة.

لكن المعركة كانت قد انتهت، وقد فهم هذا حزيناً مكسوراً حين رأى نايل الفضل، جريحاً، يتلوى، بين حائطي الطريق العاليين، خاسراً ونازفاً حتى الموت. كانت ذراعه اليسرى مقطوعة من الرسغ، تتأرجح كأنها لعبة.

نايل وصل إلى هناك قبل ربع ساعة فقط، في الوقت الذي ظن فيه إخوته أنه لن يصل الى القلعة أبداً، فكثرة المسلحين، والأخطار المحدقة، وتدخل الناس، سيمنعه حتماً، بعد أن هددّهم ورحل عن الدار. لكن كنج أشار لرجاله أن يتركوا رسول آل الفضل كي يدخل فخاخ قلعته بنفسه. هكذا تركوه يتسلل من الثغرة الجنوبيّة، مدججاً بأسلحته وحماسه، ليجد نفسه أمام كنج، وجهاً لوجه. لم يعرف ماذا يفعل، وأعياه أن يستخدم بارودته، وتطلع الى عدوه بنظرات ميت، حين أدرك أنه خسر المواجهة. إذ أطلت نحوه من جميع الحيطان بنادق وعيون تراقبه وتهدده. تقصّف وانشطر باحتراقات حدسه. وبسبب هذا فإن كنج ناور مرة واحدة أمامه بسيفه قائلاً: «قاتلني!»، ولم يستطع استخدام سلاحه سوى مرة واحدة، قرع فيها كلاهما سيف الآخر، ثم هوى كنج بضربة قاطعة قسمت ذراعه، دون أن يقطعها قطعاً:

«خذها معك!» قال له بكرم مشيخي بارع.

تراجع نايل، وهو يرتعش كدودة، ثم مضى مترنحاً إلى أهله.

لم يستطع الشيخ رفعه الى ظهر الأتان، فنادى أحد رجال كنج الذين وقفوا في الزقاق يتفرجون. مغتبطين باندحار نايل، وبالقوة الجبلية التي أبداها كنج.

جاء واحد كي يساعده، وصاح به شمس الدين من وراء جثمان نايل المتلاشي «سمِ بسم الله!» ثم أنهضاه مطوياً مثل رخوية، حتى إذا استقرَّ هناك، دفع الشيخ الرجلَ المغيث في صدره، ثم دمدم:

«حا!»

وطفق يلعن أولئك الواقفين على الجنبات، مستعيناً بقاموس خصيب من كلام الخالق، وتواريخ الناس.

(١٦)

حين جاء شمس الدين الى المنارة، ظنوا أنه مجرد ضوء، لفرط بياضه، وشفافيته.

كان ضعيفاً كالخس، نحيلاً ضامراً يوقعه الهبوب المفاجئ في كل لحظة وقد كرهوا رهافته، وارتجافه الحريري، وجرأته الحمقاء حين جلس في المضافة منذ اليوم الأول قرب ابراهيم الحمدان، دون أن يدعوه أحد إلى هناك، بدا مثل زعيم ممجد، رغم صغره، وحقارته، وتقصفه، ونقمة الفقر التي تقطر منه، حتى أنَّ مظهره هذا، أوغر صدر سلمان الراضي، فحاول استفزازه بإشارات خفية غامضة، راح يوجهها نحوه، في غياب انتباه ابراهيم، أو شروده، أو انهماكه في الحديث.

لكن تلك السخافات لم تجدِ شيئاً، فقد ترفع شمس الدين عن ملاحظته. واكتفى، في المرات التي كان يلتقي فيها نظره مكرهاً بعيني سلمان المتخابثتين بالرد عليه بابتسامة نافرة، مجنونة، زاخرة بالغموض. دفعت دهاء سلمان للانفجار المروع.

لقد اعتقدوا أنها براعة أصيلة، احتاجت زمناً طويلاً للتدرب والاتقان. سيعجزون عن مواجهتها بأية طريقة، وبعد ساعة من المناكدات الصامته همس بعض الساهرين همسات سخَرية من سلمان الذي عجز عن استنفار حمية الرجل، لقد هزمه الضيف بصمته وجبروته. فامتلأ سلمان بالغضب وقام، وتقدم من شمس ووقف وسط الحضرة، أخضر كالزيتون، وقال بتحد قاطع: «تعال باطح!»

استنجد الشيخ بابراهيم الحمدان، وقد اكفهر، وشف كزجاجة لم يكن

بمقدوره أن يجازف بلحمه الخفيف وعنقه المائله، في عراك سلمان الفاحش الطول، وقد ارعبته فحولة الرجل. وفحمة وجهه المغبره. أنجده ابراهيم، وقال لمرابعه ضاحكاً بأبوة ويسر:

«باطح حامد يا سلمان!»

عندها خلع شمس الدين جبته، وعصبته، وقال بصوت ذهبي مزخرف: «بتقاتلني بالسيف؟!»

بدا صافياً مثل نبع، حتى إذا التفت سلمان نحوه، تزعزع بالضياء الذي كان يرشح منه، وحين استل سيفه، قال شمس الدين لابراهيم الحمدان: «هات سيفك يا بو خليل» كانت لهجة آمرة، لم يستطع ابراهيم تجاهلها، فناوله السيف وهو عاجز عن إخفاء إرتعاش قلبه.

بعدها ما استطاعوا أبداً رواية ما حدث، فقد قصَّ شمس الدين بخفة الذئب ثوب سلمان وشرواله من حفرة الرقبة حتى الكعبين.

هكذا ابتدأت قفار حقدهما، وقد تناسى شمس الدين فيما بعد بغضاءه وسخطه إلى اليوم الذي قدم فيه سلمان الراضي إلى مدرسته برفقة كنج الذي كان آنها في الخامسة عشرة من عمره. عندها تحرش به، مخالفاً كل العهود التي قطعها على نفسه من قبل قائلاً له «إذا شفتك هون مرة ثانية قتلتك!» كان جادّ كالموت، وقد صدق سلمان تهديده فلم يُرِهِ وجهه حتى جاء بعد أكثر من عشر سنين وَجَرَّه جراً الى سهل الزرازير.

فيما بعد لم يتجرأ أي واحد في القرية على التعرض له، رغم أنه لم يكن يستحي من أحد (هكذا كان يصفُ تصرفاته وأقواله) وهو يردد أنَّ الحياء صفة الجبان. وفي الأوقات التي كان الرجال يتيمنون بمحاسن خيولهم، يهرع شمس الدين لمديح الآتان، وقد اقتنى حمارة أنثى، سحماء كالفحم، عالية، وبيضاء. وعندما امتلأت القرية بالبواريد، ظل يستخدم السيف، معلناً تمسكه بالمعدن

الرباني، وأطال لحيته التي ابيضت كالقصدير، عندما شارف الأربعين، وبالغ في الصيام، وقهر الجسد، حتى حلف الأولاد الذين انضموا الى مدرسته لتعلم القراءة والكتابة، أنهم يرون الماء في بلعومه وهو يشرب!

ثم توّج قلة حيائه. كما قال، برفض النساء. فلم يتزوج، ولم يعرف عنه واحد قط أنَّه رفع بصره نحو امرأة، لاية غاية. ثم انتهى الى نسيان تلهف الذكورة فيه، متُعزياً عنها بشغل النُّساخ الذي ملأ حياته باحتراقات الألوان الرمانيه المشرقه، وصفاء الخطوط السوداء الكريمة، وخضرة الزخرفات والأدعية المنعنعة في كتب الحكمة. إلى هذا اليوم الذي أوصل فيه نايل الى بيته جريحاً. فوجئ بغريبة الفضل أمام البوابة، انهارت وسقطت بين يديه حين رأت دماء أخيها، وتداخل شعرها الخرنوبي بشعر لحيته، وانغرس أنفه رغماً عنه في النسيج الرهيف.

لم يقوَ على تحمل إعصار الرائحة الأنثوية القارسة، وتلعثم لأول مرة منذ عشرين عاماً في مقالاته، وأهلكه الكساح وهو يغوص في الباطل. وحينما حاول إبعادها عنه بيديه المقفرتين المستنزفتين، أفاقت. ثم شهقت، وراحت تبكي على كتفه.

كان هشاً تبكيه نملة، لكنهم ما استطاعوا معرفة سبب بكائه ذاك النهار، هل يبكي بسبب الذراع المقطوعة؟ أم يبكي بسبب عجزه عن التعرض لكنج؟ أم يبكي لأجل غريبة.

لن يعرفوا أبداً. فمنذ أن التفتت غريبة اليه فجأة، وقد انتبهت إلى الرجل الغريب الذي ما رأته من قبل، حتى راحت تهزُّه من كتفه ومن ذراعه وهي تقول بعنف وقسوة: «ليش خليتن يعملوا فيه هيك؟ ليش؟»

أكانت تسأله أم تهجوه؟! هذا ما لن يعرفه هو أيضاً، وقد أمسك عن الكلام، صمت فجأة وتقصف كالقمح، صار واهناً حائراً يلتهمه بردُ الوحدة وسط هذه الحشود البشرية التي تلاحقه، وتجوفه كبطيخه التهمها ضبع!

فيما بعد رفض الظهور في شوارع القرية، فقد خذله ضعفه وتردده، وتغلب عليه الحنين الجارف في داخله إلى رد الظلم، أحس أنه سقط في امتحان الرجولة أمام كنج، وأنّه تردى وانتهى أمام غريبة.

تلك الساعة تمنى لو مات حقاً، فقد أهانته المرأة الوحيدة التي فاجأته بنبض الأنوثة منذ ولد: نعم! شالته من تصوفه وعبادته. ومن أبدِ التجوال في السطور، إلى لحظة الرغبة، إلى نحاسِ الغلْمة:

كيف يمكن نسيان تلك الرائحة الغبارية النفاذة التي تغلغلت إلى نقي العظام؟ وكيف يستطيع أن يحظى بامرأة أخرى ترمي نفسها على كتفه، وتذيقه أهوال البرق المتخمر في جسدها؟ كيف؟ نعم وكيف يمكن أن ينسى كلماتها الجارحة التي مست رجولته؟ تأخرت قليلاً يا بنت!

هل يقول لها هذا؟ كاد يموت وهو يعجز عن الجواب، هو الذي امتلك مفاتيح الكلام وخطاب المخلوقات والأشياء، أقرَّ بعجزه، واكفهر وخالجه شك عميق قاتل بجدوى التسليم الذي أوجبه على نفسه منذ شبابه، ومعنى القناعة التي آمن بها.

بعد ذلك التجأ إلى مقره، وأقام فيه، ولم يعد يخرج منه، ومنذ أن ينهي فروض دروسه، يغوص في الأوراق الصقيلة أو في استخراج الألوان، من لحاء الشجر، وقشور البصل والرمان، والزهور النادرة، التي صار يجلبها له أبو محمد قاسم الجبر من الجبل.

أيضاً بعد ذلك حاول أن لا يرى امرأة، ظاناً أن ذاكرته الخاليه من معرفتهن ستحميه، وتمنع عنه ضلال التفكير بهن، لكن الرائحة كانت تغزوه كلَّ بضعة أيام أو كل شهر مثل القدر، فكيف ينجو منها؟ كأنما هذا هو نصيبه الذي كان يكمن له وراء أكمة الأيام.

❊ ❊ ❊

وفيما راحت البنات يبكين أخاهن، ملأت فضة فضاء الدار بنواحها، جنّت وهي ترى إلى نايل المسجى على الأرض شاحباً ونحيلاً، ظنت أنه ميت فراحت تشد شعرها، وتندب، وتنزل على نفسها غضب الله والأنبياء والجان والشياطين، وترجو أبناء عمها أن يسامحوها، وتبكي دون توقف كل ذلك النهار. رغم أنهم رددوا أمام مسامعها الف مرة؛ أن نايل لم يمت، وأنها بريئة من دمه، لكنها صارت صماء، مخبولة وقد أنهاها المشهد الدامي لنايل الذي صبغت الدماء الغزيرة جسده كله بلون قاتل.

«تذكر حسان أنها بكت حتى جفّ لحمها، ويبست عروق الدماء فيها وتعجب كيف أمكنها أن تظل تشهق، وتنحب وتسيل الدموع! وشكَ إن كانت من الجن أو من الأنس، ثم شك أكثر حين تذكر أنها بعد ذلك بخمسة أعوام ستصير كالفيل، سمينة ومترهلة حتى تساءل إن كانت تلك هي فضة أم مخلوق آخر من كوكب آخر.

وعندما هوت قرب نايل، كان جسدها كالنفق، بارداً ومسوداً وبلا لون، وكانت مثل غلالة: خفيفة وسرية ومتعبة».

* * *

ومن بين تلك الدائرة المحيطة بنايل وفضة، صرخ صوت شبيه بالمجرشه:
«ابعدوا هيك! روحوا من هون!»

كان الضيف القادم من الضباب واقفاً وراءهم، يحاول شق طريقه إلى المصاب، حتى اذا وصل إليه حمله، ومضى به إلى المضافة، حيث وسده الفراش، وشمرّ عن ساعديه وأخرج من خرج حصانه عدة طبيب كاملة: مشارط ومباضع ومقصات وأربطة وسكاكين كي، ومُدي عريضة النصل، صفّها مظهراً اهتماماً بعرضها والتباهي بها «سخّنوا ميّ!» أمرهم، ثم غسل جرح نايل، ونظف اللحم المقطوع، وحمّى على الجمر إحدى المدي، حتى احمرت. واقترب منه رويداً رويداً. شاب حركاته بعض التردد، حين لاحظ العيون التي جحظت وهم يحدّقون

به، فقال: «اطلعوا بره!» ثم طوى ركبته، وناخ بها فوق صدر نايل، بعيداً عن القلب، وشد بركبتيه الأخرى على فخذيه، وأمسك ذراعه النازفة وكواها بالحديد المحمى.

طشّ اللحم، وفاحت رائحة شواء قاتلة في المكان، أذعرتهم جميعاً ففرت النساء وهن يعولن، وارتجفت أجساد الرجال، وطأطأوا وهم يتوسلون «يا لطيف! يا لطيف!»، غير أن صراخ نايل الذي أعادته النار، بجرأة حديدها، إلى اليقظة قطع كل الأصوات، خرسوا كأنهم أموات، فيما وقف الضيف مثل داهية شامخاً بفضائل طبه، ومهارة يديه، وبلسم النار الذي داوى به اليد المقطوعه.

لن ينسى كامل ذلك المشهد، وبعد سبع سنين حين سيشرب شاهين من ماء رانِ الحلال، ويفقد صوته الى الأبد، دون أن يستطيع أحد علاج الأوتار المخربة المحزوقة بسمٍ عجيب في ذلك الماء الآسن. سوف يتذكر مشهده هذا أيضاً

«أحس بالشوق اليه، وإلى ذلك النظام العجيب الذي أرساه في الدار بعد بقائه معهم، وإلى تلك الغطرسات التي كان يبديها، وإلى لطفه ومشاويره وشوقه الغريب. شاهين يا شاهين؟ أين أنت؟!»

* * *

(١٧)

ليلاً تسلل حنا البيطار اليهم، موصلاً أنباء الحصار الذي بدأ كنج يُحكمه حولهم، وكانت رسالته واضحة: فلا مكان لآل الفضل، بعد ذلك اليوم في مملكته الصغيرة.

كان قد وزع أكثر من ثلاثين بندقية أخرى، ووضع رجالاً دائمين في شعب موسى، وغيرهم قرب المعلقات.

حنا، وَشّى التهديد بصور جهنم كلها، ساعياً لارغام آل الفضل على الرحيل والنجاة، وكلما رأى فتور الرجال، وتقاعسهم زاد في أوصاف الجيش القاتل الذي بدأ يتشكل في البلدة.

أقامت النساء مأتماً، بكين فيه كلَّ شيء، «لاجدوى!» هكذا فكر كامل أخيراً، وقد اكتشف أن كل العالم من حوله، سدَّ آفاقه، وصار صوانياً آلَ فيه الأحياء إلى الموت، آبارٌ وثقوبٌ، وجبالٌ من الحلكة، وكراتُ حجر، وتماثيلُ موتى، كأنَّ الكونَ والناس والأشياء، صارت بلا معنى «لا جدوى!» ولن يستطيعوا فعل شيء مثلما يريدون. ولا العيش كما يحبون، ولن يستطيعوا الموت أينما يشاؤون والحقيقة الوحيدة التي تخصهم هي ما يدفعهم كنج اليها دفعاً: هذا المكان صار له، وسوف يمضون هم إلى قفار وحدتهم اذن، فالشجر شجر، والتراب تراب وهم محكومون بهذا منذ ولدوا من نسل قاسم الفضل، عوى كذئب!! ثم رمى الهواء بحشد من الشتائم، وأطلق نحو التلال مشطاً كاملاً مفرغاً فيه قهره:

«شو، قوست الهوا؟!»

جاء صوت ثنيه المخرش، من ورائه، ولم تتمكن من اخفاء سخريتها، ولا تبديل مشاعر الحقد التي انتابتها تجاه الجميع. ماذا فعلوا؟ ماذا حدث بين الأمس واليوم؟ فارقتها النبوءات، وتحولت في غمضة عين إلى امرأة مليئة بأدران العمى، وغبار الترهات. تلاشت اشراقاتها الشهيرة وتبدد حدسها، حتى غدت لا تعرف ماذا ستفعل؟ كيف تعالج فاجعة أهلها التي لم تختبرها من قبل قط.

عرف ذلك، والتفت نحوها وقال: «جهزي كل شيء! بدنا نرحل!»

«لوين؟» قالت

«عَ أم الجرابيع» قال

«وإذا لحقنا كنج؟» قالت

«منرحل كمان» قال

«لايمتى بدنا نظل هيك؟» قالت

«ليوم القيامه» قال، كان وجهه مدحوراً تالفاً، وكان قراره قاطعاً.

بعد ذلك، بدأوا يعدون للرحيل، تحت إشراف ثنيه الحاشد بالتفاصيل والأسئلة، راحت تعيد السؤال بصبر سلحفاة، عن جميع الأشياء التي طلبت حملها، دون أن تنسى شيئاً: أخذت جميع الأغطية وأحد عشر فراشاً وجميع البسط (فرشت ذلك البساط الأحمر الذي حاكته بنفسها ورسمت عليه بحيرةً حلم بها هايل ذات يوم) والسجادات من المضافة، وجميع الحصر، والثياب، وأدوات الطبخ كلها باستثناء خلقينة السليقه التي لم يجدوا لها مكاناً، ودلال القهوة النحاسية، وجرن السنديان الكبير، وحطام صندوق أمها، بأصدافه الممزقة وكآبات لونه البني، والحقيبة الوحيدة التي أحضرها أبوها معه حين فرَّ من السفر برلك. بكت لما شالتها من السقيفه، وقد انداحت أمامها دفعة واحدة في الليل القارص سيرة الغائب الميت المليئة بهالات الموت. لم تنسَ أيضاً حجر كامل الحارس، وبندقيته المحطمة بأنياب الضبع الأزرق.

أخيرا وضعوا نايل على سلم، سمكوا فراشه، وأمرت صالح أن يسير في المقدمة، أمام الحمير، فالتفت نحوها وسألها:

«من أي طريق؟»

رمقته بعطف، كان منهاراً، وكان انهيار صالح أكثر شيء، يمكنه قهرها. سار أمامها مرتبكاً، مكوياً في الطريق الوعرة التي أرغموا على المشي فيها. وقال معتذراً بعد قليل: «ما تركوا لنا أي منفذ»

كان كامل يسمعه، وقال وهو يصحح وضع شاغر الجمل «ما حدا قادر ياخذ كل أسرار الدنيا يا بو قاسم»

بدت لهجته مقفره، مكسورة كالزجاج رغم ذلك، وبدا كل واحد منهما منقسماً الى جزئين: جزءٌ يحاول أن يتماسك، ويبدو قوياً مجرِّباً، وآخر متهالك رقيق، خربته الأحداث.

وفي الطريق غنت ثنيه منذ أن خرجوا من الشعاب الشمالية. لا تعرف كيف هبط اللحن البلسمي، حيث ملأت جنبات وادي موسى بأنغام خصيبة انهمرت من حنجرتها كالمشاعل.

أنعشتهم الموسيقى قليلاً، رأبتْ شيئاً من شقوق أرواحهم، وأفكارهم المبعثرة. تغير ايقاع خطواتهم. ورأت كيف استحثوا أنفسهم فجأة، كأنما أضحى الرحيل الآن فقط واقعاً حقيقياً. وما عاد للمنارة بهجة المكان الفردوس المفقود، سار الحمار أولاً قائداً الجمال بحكمة الكهول، وقد تشجع عندما رأى كامل يسبق القافله على صهوة جواده الأبيض.

وقاد شاهين الخليل الخيول ماشياً بعد أن أعطى حصانه لفضه التي تقدمت بجسارة الآن محروسة بدندنات ثنيه الباذخة، وسارت قربه.

في البداية لم يتحدثا. لكنهما حين سمعا عواء الذئاب، نمت بينهما مملكة كلمات ظليله «بتعرف؟ اني خايفه» همست له فقط، فهز رأسه موافقاً وقال: «معك

حق، لكن اللي نجي من البشر ما لازم يخاف الوحوش» فاندهشت من كلماته، وسرحت في وهاد الأيام الماضية، تفكر فيها وتقلبها وتستعيد أحداثها. بينما مشت خلفهما صباح، وغريبة، وهنده، يحملن صرراً ضخمة حشيت بالثياب وباليأس، ورحن يندبن الآمال، والشفاعات المنهارة، سرن بلا عزاء. شاردات كالقدر. يجرحهن الذعر وتمتمات فضة وشاهين، ووقع الحوافر الميته، والركضُ الخفيف لأخيهن هايل، والدبيب السري الرث لشامل الذي أتلفته الخمرة والتجديف:

لم يعرف من أين استمد عزيمته كي يمضي بأهله الى أم الجرابيع، وثق بالليل، وباتساع الخربة التي يعرفها، لكنه أخفى هلعه من الطريق الذاهبة الى هناك، خشي أن يكون كنج كامناً لهم فيها، وأن يفني أسرته كلها بين الحجارة، وقد أقفرت الطريق، وخوت، وبدت له عدوة، بصمتها. واشية حقيرة بهدوئها وسكينتها، وتمنى بضع مرات أن يتحطم كل ذلك بسلسلة من الطلقات والصهيل وعويل النساء.

أنقذتهم المصادفات: فبعد دقائق من انعطافهم نحو الخربة، سمعوا لغط خياله، يجتازون الوادي، وميزوا بضع أصوات من مرابعي كنج. كانت منة سماوية، لن ينسوها أبداً، وقال شامل «يا لطيف يا رب» ثم توجه الى السماء الحالكه وتمتم «سامحني يا الله» وتجرع نصف زجاجة النبيذ التي كانت في عبه!!

(١٨)

ما حدث هو أنه لم يكن مهتماً بأي شيء قدر اهتمامه بهذا الليل الأميري الذي رحل فيه آل الفضل عن بلدته، وحين جاءه سلمان بأخبار هجرتهم أحسّ بالعطش، وشرب طاسة ماء كاملة، كان لها مذاق العسل، وكان ليلاً من الخضرة والأمنيات المتوجة: فالمنارة خلت من الجبابرة الذين كانوا ينغصون هواءه، وها هي تتجمع الآن في قبضته، وتنمونحو الداخل، وسوف تنضج على الأغصان التي يبقيها في زيتونة رغباته الميمونة.

بقي له أمر واحد يشغله: كيف يمحو من ذاكرة الفلاحين أقحوان ذكرياتهم عن أسرة الحجارين الذين اعتاد الجميع هنا رؤيتهم على سلالم الحيطان، وربد البيوت والقناطر؟ لمن سيلجأ الآن من يريد بناء بيت؟

ضامن قال «الناس بتنسى يا بك!»

«طيب والبيوت يا عسّال؟!»

«حجار سودا عميانه!» أجاب الخولي بلا أي ظلال من الشطارة.

غير أن كنج، كان مقتنعاً بأنه محتاج إلى سنوات أخرى قادمة، كي تعينه على شطب وجود آل الفضل من أرجاء المنارة كلها، وربما احتاج إلى نصف قرن، حتى يموت اولئك الذين رأوا بأعينهم بُناة بيوتهم وعرفوهم.

ضامن، كان الوحيد بين مرابعيه، الذي أظهر اطمئناناً وثقةً، وكالشيطان تحول من خموله وعطبه في أيام الضباب إلى حيوية الخادم التي اشتهر بها منذ

وصوله الى المنارة. هكذا قرر أولاً أن يمزق شكوك كنج، وأن يبدد هياكل الأفكار المعراة، المغلقة من عقله الغض الطري الذي كان يرى الاشياء والأحداث من خلف غلالة الشباب المنخورة.

لقد أدرك أن كنج يمشي في الطريق الصحيحة التي رُسمت بقوة الخالق، وعزم شيوخ آل الحمدان، ولكن المسكين منهوك بالتأملات كما رآه، والبحث عن أسماء لأفعاله، وأقواله، يرضي يها ضميراً ملوعاً، ما تزال ترقه خصل التأنيب والتبكيتات.

كل ذلك لا معنى له في نظر ضامن المحنك المتحفز للّحظات المُعاشه:

«أنت ما بدك يا بك غير تخليهم يمشوا وراك!»

هذه هي وصيته لابراهيم من قبل، ولكنج اليوم، وسوف يقولها، لكل طفل من آل الحمدان «طيب، تركهم من غير حماية، بتشوفهم صاروا نمور، خليك فوق راسهم، ولوح بسيف العز ولا تضرب فيه، . . إلا إذا احتجت!» هكذا راح يلقن كنج دروس مشيخته، كان رأيه أن الناس كالكلاب لا يحبون إلا من يخنقهم، لكن السرّ، كما بين له، هو في الطريقة التي يستطيع سيد المنارة أن يخنق الناس دون أن يميتهم، وأن يميتهم دون أن يخسرهم: «شفت كيف؟!» راح يردد بين جمله وعباراته.

كانت سلطة البكوات القديمة لا تعجبه، وقد رأى أن العنف الزائد الذي أبدوه طوال قرون، كان حماقة وطيشاً، تبدَّد بسببها ولاء فلاحيهم، وأدخلهم قوقعة كراهية، صار من الصعب إخراج واحد من آل الحمدان منها. وجاءت أعمال التخريب وسرقة بارودة طلال، وحرب آل الفضل الملاعين لتثبت أنهم يريدون اغلاق القوقعة على الرجل الوحيد الذي فتنه من بين آل الحمدان جميعاً.

ظهور كنج بلبل كيانه: فقوة الرجل الجاموسية، وحنينه الجني إلى الحرب، وتقلباته، ورهافة قلبه، وعشقه المفترس، وفطنته القاتله صفات لا يمكن تجاهلها

أبداً، وهذا التعقيد في شخصية السيد الجديد، أيقظ داخل روح الخولي أفكار الوزير التي شغلت حلمه دائماً.

أكثر المواقف التي ملأت قلبه اعجاباً، كانت رفض كنج مبادلة البارودة المسروقة، بثمنها، وامتناعه عن وضع كامل مكان سعيد. كان يقينه يقوده الى أن هذا السلوك هو تصرف حكيمٍ، وكلما تذكر خرافات أجداد كنج من آل الحمدان، أدرك أن عنفهم الصغير الذي كانوا يمارسونه ضد فلاحيهم كان وساخة قذرة منحدرة من إحساس غامض بالضعف، ومن شعائر حيوانيه، فالحكم أكبر من بك يقايض، أو يأخذ نعاجاً من فلاح، أو يضرب بعصا، والسلطة أوسع من سعي شيخ مثل يحيى الحمدان لنيل امرأة بكلب صيد. لعنه في الخفاء، حين تذكر أن ذلك اللعين كان يمكن أن يتسبب بضياع مشيخة آل الحمدان بحماقاته وتفاهاته، ولا معقولية الأشياء التي كان يفعلها.

هكذا راح يشرح لسيده بأنَّ موت سعيد، لم يكن فساداً ولا كارثة، وإنما مجرد هبة ريح غير مواتيه، سرعان ما استطاع الربان نصب شراعه وجعلها تسيِّر القارب الجديد في بحر ساكن طيب، نظَّر وفكَّر وأوضح لكنج كل شيء لكن ذاك ظل واجماً معذباً بمستقبل أيامه القادمه، شكاكاً بأفكار الخولي لا يصدقُ ولا يرق، إلى أن حدثت تلك المجزرة العظيمة بعد ذلك بستة أشهر:

ففي تموز، وقبل أن تشرق شمس يوم جمعة حار، بدأ أكثر من ثمانين رجلاً من مرابعي كنج وأتباعه يبذرون بيادر المنارة، والأراضي المحيطة بها، بمئة مد من القمح والشعير، وطوال ذلك النهار، أخذت آلاف من الطيور المبهوته، الداعرة، تلتهم كالإعصار شراك الرجال ومحصول الفلاحين برمته. الأرض البنية الشاحبة تحولت إلى زبد من العصافير الرمادية، المزقزقة الأكولة، هاجَ الفلاحون وحاولوا عبثاً انقاذ أي شيء من محصولهم، لكن الطيور راحت تلاحقهم وتنقر وجوههم، حتى سقط معظمهم وراحوا يتأملون الهجوم المباغت، منذهلين بالنشيد الصيفي الثقيل الذي دمرهم، ثم صارت عيونهم فقط، هي التي تراقب سطح الأرض

الكئيب الثائر كالبحر، وكتل الكائنات الصغيرة الشيطانية، وهي تتكدّس في محاريب البيادر، وزوايا الكروم!

حتى الفئران والجرذان، ما جرؤت على التقدم، واندفعت خارج القرية، تحاول التهام ما تبقى من وليمة العصافير، وهناك قرضت أعواد الذرة مضحية بربع عددها الذي ديس تحت أقدام أصحاب الحقول، أو قتل بمذاريهم، وعصيهم، حتى دمرت وقضمت كل شيء أخضر ظل في طريقها.

في الأعلى، من شرفات قلعة المنارة وقف كنج وضامن متجاورين، يفكران في المعاني الذهبيه التي صاغتها فكرة الخولي السماوية. كان سجل الخسائر يتضاعف كل لحظة، فتحولت المنارة إلى مقبرة. في حين أضحت بيادرها مأدبة سائغة لجموع الطير الرابحة المساقة إلى الحب المنثور بحنين شره مفاجىء، اقتحم عقل كنج أيضاً.

السؤال المحير هو عن اندفاعة الطيور، لكن ضامن أوضح بخبث العبقري الذي فتقت الفكرة عقله، أنّ ثلاثين رجلاً من اتباع كنج اخترقوا الوعر منذ الفجر، ودفعوا إلى المنارة من جميع الجهات بالطيور الجاهلة، النقية، بقعقعة التنك، والصيحات، وطلقات البنادق الخلبيه، والخيول المطارده، بعد ذلك تكفلت الطيور نفسها بنداءات القدوم فقال كنج معجباً «شو بساوي إذا صرت عدوي يا عسّال؟» فقال ضامن بلا تردد أنه سيفجر رأسه بالرصاص قبل أن يفكر بايذاء كنج. كان صادقاً مثل طفل، لا يعنيه شيء سوى رضى والده. وأضاف وهو يشير إلى المناره المنهوكة التالفة: «هذه هديتي لك؟».

طوال أربع ساعات لم يتحرك كنج من مكانه، كانت جلبة الأصوات التي يوصلها إليه نقاء الصباح، تتناقصُ وتختفي وراء الحر التموزي الملطخ بأشعة شمس أوائل آب، وهو ينعم بشارة السلطة الجديدة التي تسلمها، ويحتفي بانتصاره في أول اجراء هجومي واسع، اتخذه ضد أعداء مفترضين مجهولين، ربما تكوّنوا وتواجدوا ذات يوم. الآن صار بوسعه أن يقول أن جميع أعدائه صاروا في مهب

الريح. فالمشهد الدموي الذي يتجسد أمامه، كان أكثر بلاغة وقوة وعمقاً من أي قول، وقد خلقت الطيور مساحة من اليباب الأصفر، غريبة وحية (وهذا ما كان يثير اعجابه ويذهله) وممتلئة بألوان مشرقة كريمة كافية لملء جوانحه بيقين قاطع بأن الزمن الجديد الذي يصنعه هو زمانُ عز لا صلة له بآل الحمدان، ولا بتقاليدهم، ولا بالمعارف البليدة التي عزفوا عليها طوال سنوات أغاني مجدهم التالف.

الشيء الوحيد الذي عجز ضامن عن اصلاحه هو كَرَمُ كنج الذي نزل عليه كالوحي. ففي اليوم التالي لمجزرة العصافير. امتلأت المضافة الحمدانية بالضيوف الذين دعاهم، وبعابري الطريق، وبالتجار، والباحثين عن شغل، ورجال الليل، والمرابعين، والفلاحين. وراح كنج يقدم طعاماً لكل من داست قدمه عتبة مضافته، وسقى حصان الأمير اسماعيل شراباً محلى بالسكر، في بارقة ولاء رفيقة جعلت ضامن ينفض يديه يأساً من خميرة الجنون.

منح فلاحيه بعد ذلك طعاماً ليوم واحد، وقال إنّه مستعد لمنحهم مثل ذلك كل يوم إذا ما احتاجوا إليه، فيما كان ضامن يضرّع إلى الله أن يوقف حماقات سيده، وأن ينزل المطر في الشتاء القريب!

في ذلك اليوم التموزي، كان جنرال فرنسي جبار اسمه، غورو، يرفسُ قبراً دمشقياً منسياً قائلاً بحقد: «ها قد عدنا يا صلاح الدين!»

(١٩)

ذعرت هنده، وصرخت، حين رأت أشباحاً تحوم حول الخرائب بعد شهر من رحيلهم الى أم الجرابيع، كانوا أقاموا لشاهين وفضة فرحاً يليق بالخرائب، شاركت فيه ذئاب نورانية حجّرها الصخب، وثعالب متألقة، وعصائب شريرة من طيور الدوري ملأت المكان بزرقها، وهي تخترق الأروقة المحطمة والأعمدة المتعفنة. في دورات جهنميه مذعورة. ومئات الفئران المتلفعة بفصل الربيع وعقارب وثعابين سوداء كبيرة أو ذهبية يافعة، وأشباح خاوية زئبقية تدلت من الزمن الغابر وقد استغرقتها الأهازيج.

. غنت ثنية قصيدة لفضة، كان الجو بارداً، فراحت ترقص وتهتز وتغني، بعد أن نعمت بحريتها لأول مرة: نعم، هنا، في هذه الخرائب المتهدمه والقبور الضائعه، والغرف الغارقة في الظلمات، وأرخبيلات الأزقة المتراخية، والشوارع المعوله.

دوزنت صوتها رويداً رويداً، وزخرفته، وضبطته، ووازنت أجزاءه ارتجالاً، ثم اندفعت في غناء طويل آسر، ففاحت رائحة الحنين والحب العائلي.

وارتقى الليل في معارجه، فخرج شامل للرقص، وراحت ثنيه تعزف على الشبابة، جرًّ وراءه كامل، ثم غريبه وهنده، وصباح والعريس الطويل. وفي البداية اعتقد الجميع بأن ذلك لن يطول: لكن اللحن القمري المحموم. وإشراق الاخوة. وعواصف الرقص نقضت التكهنات: هرعن إلى امتحان الحلبات. يعلوهن دويٌ كقصف الجسور، وأرسلن تهتكاتهن-ووزعْنَ مجونهن في الخرائب مثل ورود!

ما الذي يجعل الخرائب حصناً للحرية؟!

كن مستعدات، فيما بعد للتضحية بسنين من عمرهن لقاء ساعة واحدة يمكن اقتطاعها، واستعادتها من الزمن الهارب في الأروقة القديمة: فالرقص خلصهن من ذلك الاحساس الحديدي الصدئ بأنهن يغرقن. والخرائب أغنت وجودهن وكست تفكيرهن بأقنعة خيال دغليه. انتفى عنهن ذلك اليوم مغولُ الخواء والموت وعبث الوجود.

رقصن كلهن بعد ذلك معاً، بينما اصطف الرجال يصفقون ويغنون ثم نزلوا إلى الرقص، دبكوا على أنغام الشبابة. يذكر أنه وقف على رأس الدبكة، وأن يده كانت تلّوح بمنديل زهري أخذه من رأس دلال، وراحت الذكرى تنتفخ بالحياة، وتسمنُ، وقد ظن أنه في تلك الامسية ارتكب آلافاً من الأخطاء، لكثرة ما صخب واحتفى وفرح! . كان مستحيلاً أن يفعلوا ذلك لو كانوا في المنارة، لا لأنها لا تفرح، ولكن لأن لا أحد يغني لاخته في يوم زواجها، فكيف تمنح الخرائب الحرية؟!

لكنها منحتهم الخوف أيضاً، وقد اختفى أحد الحمير في الليلة نفسها، وحين ذهبوا إلى هناك، حيث رأوا الأشباح، لم يجدوا شيئاً. ولم تنفع معارفُ صالح في تتبع الأثر، فاللصوص لم يتركوا أثراً واحداً يشير اليهم، وقال شامل إنّ اختهن صارت تهذي من الغناء.

لكن اختفاء الحمار، نبش طمأنينتهم كلها، ولم تنفع محاولة شامل لكسر ذعر النساء، باختراع تهمة الهذيان والحمى. إذ إن احتمالات مجيء رجال كنج، أو اللصوص، أو عابروا الطرق الغرباء، ظلت ترد الى عقولهم كل لحظة، فمن من هؤلاء جاء واختطف الحمار؟ ولمَ يختطفونه إذا كانت القرى مليئة بالحمير؟

لم يناموا، وأمضوا الليلة متأهبين وراء أسوار خربتهم، أما الأوقات القليلة التي استطاع كامل أن يغفو فيها، فكانت مكلفة، مروعه إذ هاجمته الأشباح، أو واجهته وجوه صماء لمئات الرجال الغامضين، أو اندفعت منها إليه وحوش محشرجة، وقطط، أو نيص ضخم رماه بسهامه دون أن يصيبه.

استيقظ مرغماً عشرات المرات ليرى إلى إخوته محطمين في الصدوع الشاملة، المسدلة عليهم.

ولم يظهر أحد، لا اللصوص بانوا، ولا رجال كنج هاجموا. لا تلك الليلة ولا في الليالي الخمس التي أعقبتها. إلى أن نبههم ذات ليل ضجيج حيوان مخبول يعدو في الجوار. كان خليطاً صعباً من الفحيح، والصراخ الحيواني والركض الأخرق، وقال كامل: «هذا الحمار!»، كان يعرف أنَّ الذئاب تحاول التهامه وأنه يدافعُ عن نفسه بهذه الفوضى، بهذا المسّ المكرب من النهيق الآسيان والعَدْوِ الهلع، وبدا كامل حزيناً وغاضباً، لكنه لم يسمح لواحد من إخوته أن يذهب لنجدة الفريسة.

وفي الصباح وجدوه عند بوابة الجحور التي استوطنوها، مجرّحاً بأنياب رهيبه، ساخطاً ومليئاً بالعتاب.

وفي تلك الساعة أحسَّ بالشفقة وانعدام اللهفة والود فيه غير أنه رغم ذلك لم يقترب منه، وقد رأى تردده، ووقفته البليدة، وفطن الى أنهم ربما جعلوه شركاً لاصطياده، قال إنها اختبارات سلمان الراضي. ولم يعد مهماً عنده أن ينقذ البهيم المصاب الذي لم يتحرك من مكانه طوال ساعات، حاولوا خلالها استثمار الوقت لرصد المخابئ والمشارف التي توقعوا هجوم أعدائهم منها. لكن، لم يأتِ أحد، وكانت الشمس تزداد دفئاً، ولم يدرك لماذا بدا له المشهد لذيذاً، فقد أضفى وجود الحمار المعذب، في الضوء الشمسي الفاتر معنى عميقاً على الخراب.

عند الضحى ركعت الدابة على يديها أولاً، ثم شخرت شخيراً قصيراً خارجاً من الأعماق، وسقطت ميتة! فعرفوا أن الحيوان الميت كان ضحية الأحاجي التي ولّدها الخوف والذعر، وأن جميع الشكوك التي خامرتهم كانت حماقات جوفاء لا معنى لها.

لم يخفف من شعوره بالبرودة والأسى سوى يقينه بأن الحمار كان مشرفاً على موت أكيد في جميع الحالات. أما في المساء فقد أصيب نايل بالحمى،

واجتاحته آلام مفاصل قاتله، كادت تميته، لولا المقدرة العجيبة التي أبداها في الصبر. بدلوا ثيابه ثلاث مرات، وغطسوا جسده في الماء البارد طوال الليل، صارت اللحظات تمرُّ بطيئة مملوءه بالوجوم، وهمس النحيب الخفي لصباح وغريبه وهنده، ومراقبة الأخوة جميعاً حتى الصباح، حين قال شاهين إنه محتاج لمن يرافقه، ومضى الى الوعر، وجال فيه طوال النهار بحماية بندقية كامل، ليجلب أخيراً خرجاً مليئاً بمؤونة سنة كاملةٍ من أعشاب الحياة: الحلبة والشيح، ولسان الثور، والحسيكة، وبذور الهندباءً البريه، والبابونج وشربة الراعي، ثم عالج التهابات نايل بالسماق، وسقاهُ منقوع الحدندوق حتى بدأ يتعافى بعد الظهر.

فضة منحت شاهين تلك الليلة ثواب عمله، فأغرقته في جسدها كله. وراحت تهمسُ له في الفراش بكل ما في جعبة عاشقة مُغتلمة من مفردات العشق، بكرم امرأةٍ ممسوسة بفضائل الرجل الذي اختارته، صار يشخر بعد دقائق من الجماع، وملأت أصداء حماسه باحة الدار، تشبثت فضه به وهي ترجوه أن يخفض صوته: «ولا تفضحنا! ومنشان الله!» وقد ظنت في النهار التالي أنَّ عيون الجميع كانت تراقبها. ولم تستطع اخفاء سرها، فنضارتها وظلال الحب الحافل، كشفا مغامرتها الليلية، خاصة أمام ثنيه ودلال اللتين أظهرتا شغفاً صريحاً بصخب الحب الذي جازفت به ليلة أمس.

* * *

(٢٠)

يذكر أن العواء أيقظه أيضاً!

تسمرت قدماه، وقيدتهما الصرخات الماضية في الليل القمري، قطع أنفاسه أنصت. فهدر الصوت ثانية، مليئاً بالرهبة، مغلفاً بأمطار من الذعر والشراسة. بلل حلقه الساخن، واندفع يلملم خوفه، ويتشبث ببقية قواه. سمع عواءاً آخر لذئب اعتلى قمة صخور الكوم الغربي، وراح يحدقُ فيه. أغمض عينيه تحت مدِّ الحقيقة التي اكتسحته فجأة. بينما ملأت دقات قلبه الوعر برمته، تمضي فيه وتكبر، وهو واقف مقوض، يصارع الانهيار أمام المعركة المقبلة التي لم يخترها هذه المرة.

لا عقله هداهُ، ولا جسده منعه، وقد انكشفت الأرضُ عن صخور، وضجيج ضارٍ يتشعبُ ويتكاثر كالصبار حوله.

برز ذئب في الجنوب، ثم صعد الى جانبه آخر ارتضى بترداد الصدى ومراقبة الوعر المترامي. بدا فتياً، يا الله! كيف أدرك أنه فتي؟ كيف استطاع عقله المشوش الملغم بالرعب معرفة ذلك؟

ظهر ذئب ثالث، وقف بلا حراك، ينظر في كل شيء، ثم يعوي، موقفاً الزمن، مُسيلاً في أصقاع من المدى، شلالَ صوته، بنبرة ترشح رغبة، وتختزن ناراً مخبأة منذ دهور. شوقاً الى الدم، دعوة مشتعلة لوليمة ناصعة. من يعلم؟ من يعرف أنَّ بإمكان «كامل» أن يرى أحداً بعد الآن؟

في الخلف، في شعب الحرير الذي توقف فيه قبل لحظات، وأشعل سيكارة،

وسعل، وبصق، لعلع عواء قطيع، واندلاح حفيف خطواته القافزة في مدى سمعه الذي بدأ ينغلق. طنين! طنينٌ ملون، وكوكبة من انفجارات تضيء، وتنطفئ، وتلوح كأشرعة ضائعة تتأرجح بين أعمدة الصمت، وتبزغ، وتختفي، ثم تتلاشى بين حفر الدماغ المنهارة كي تسلم كامل الفضل إلى خليط مذعور من أفكار تتراكض. لم يكن لذلك كله من منفذ سوى وجه وحيد يرزح فوق عقله (وهو الآن يبدو زاخراً بالحياة، رائعاً، نضراً كتفاحة) هو أن يجد في دائرة الموت التي بدأت تنقفل بالذئاب الكاسرة، طريق خلاص وفي الرواق المعتم، تحت الأقواس المظلمة المشرفة على وادي الموت المفاجئ امتلأ برغبة حارقة في أن يحيا، فتوقيت الموت لا يعجبه، لم يعجبه. جاء مبكراً. وكامل الذي امضى سنواته العشر الماضية في الخروج الى هذا الوعر، وملأ حيطان بيته بجلود الذئاب والثعالب وبنات آوى أحس أن لحظة الحساب لم تحن بعد، وإن كان يهجس بها منذ دهر.

ثم قال «لا» سوف يصعد الى مخبأ آمن، وينتظر هناك وصول صيده الشارد ويصوب إليه، وهو يتابعه، ثم يطلق. هذا ما كان يفعله كلَّ مرة، ولم يخطئ سوى مرة واحدة. وحين نجا من هجوم الضبع الجريح الذي ظنه ذئباً، ولم يقتله. أيقن بأنه سيعيش زمناً طويلاً. بلى!

يذكر أنها كانت ليلة منحوتة من ضياء، وقد انتصب القمر على يمينها، ناصعاً، شفافاً، مخيماً بلا عناء. فيما هجعت الكائنات جميعها تاركة الكون لصمتٍ ثقيلٍ مصفرٍ شاحب.

فك رباط حذائه، واسترخى على قمة صخور الحديد، تثاءب على غير عادته، ثم نوى اشعال سيكارة حين داهمته رائحة الضحية، كان يبحث عنه، وهو يعرف ذلك، لكنه أشرع بارودته وصرخ: «هذا أنت!» (هل كان هو نفسه؟!) وقف الوحش، وقد صدعه الصوت البشري الذي كالحجارة، نظر إليه من مكانه، محطماً يائساً، مصاباً بالدوار. لم ينتظر فالزمان بينهما لا يتسع لاثنين، والليل الهادئ تشقق من صراخه، ومن هدير الحيوان الذي عرف قاتله، ودبيب الكائنات

التي أيقظها صراع الحياة. لا ينكر، تلك كانت أول مرة يدوخه فيها الخوف. والخوف نفسه هو الذي رفع سبطانة البندقية. وهو الذي سدد وهو الذي أطلق.

كيف أخطأ؟ أية قوة تلك التي حرفت مسار الطلقة عن رأس الضحية! لم يستطع أبداً تفسير لقائه ذاك وأخطائه؟ لمَ أخطأ؟ أبسبب الخوف؟ أم المفاجأة؟ أم العجلة والتسرع؟!

أما الثواني التي أعقبت ذلك فقد كانت شفرة بيضاء بين ضفتي الحياة والموت. شيء ما لا يزيدُ عن حجم ذرة من تراب.

فجأة، اخطأت يدُ الضبع الذي هاجمه، فانزلقت بسبب حجر ملساء تدحرجت تحتها، تهاوى الحيوان قليلاً، متأخراً بضع ثوان ناصعة أخرى، أكمل فيها كامل حشو بندقيته، ثم ماجَ، وصرخ كالثور، وأطلق في اللحظة التي اقتحمه الحيوان الجريح بقوة فهد، سقطا معاً، وفي تكة واحدة، ربما، اندفعت طلقة مذعورة معبأة بخراب العالم، وانطبق فكان غاضبان ممتلئان باندفاع الموج، وبين الطلقة وفكي الضبع، ومضة، برهة رهيفة موغلة في الصغر.

هكذا انتهت حياة ضبع وبندقية، ومنذ ذلك اليوم لم يخش أنّ يقول لمن سأله كيف نجا؟ إنَّ الله أرسل إليه حجراً كي ينقذه، كان ذلك قد غدا ايماناً عميقاً واصلاً إلى الروح، وقد صار لكل مخلوق في هذا الوعر البركاني المترامي معنى بعد ذلك. هكذا بدت له اللجاة دوماً: رباطاً من حقائق كونية متصلة وباقية من عصور سحيقة. كيف وصل ذلك الحجر إلى هناك، كيف جاءت تلك الصخرة؟ ولماذا رقدا معاً، وكيف التمت الذرات، وتعاونت كي تحميه، وتخلصه؟

لا ريب أن الحكمة الربانية وحدها هي التي ساقت كل الأشياء كي تنتمي إلى عالمها، ثم تنتظر مأثرتها التي ستقرر مصيراً ما لمخلوق ما أو لنفسها. أحمد الشامي قال: إنه اعتاد أن يرى الحجارة تقتل الناس لاتنقذهم!

أما هو، فقد علّق بندقيته، بفوهتها المهشمة، قرب جلد الضبع المرقط وأرقد الحجر مثل تعويذه، فوق بوابة داره.

دهش الآن، وهو يرى إلى نفسه ضعيفاً بهذا القدر: ارتعاش وقشعريرة تنخر في العظام، قرع في القلب، صراخ يضني الروحَ طالباً النجاة.

أكملت الذئاب حصارها، أحسها تقترب من أعماق الوعر. وتطبق قيدها وتفسد عليه آمال الفرار، وهو، كأنما صنع من تراب، تفتت، وتقوض، وانقصم بضربتي خوف، وخيبة، رزحتا فوق عقله.

بدت الخربة ضئيلة، وضيقة كبئر، نسي في غمار هلعه كلَّ تفاصيلها، مع أنه يعرفها كجسده، وما زال حتى غسق الأمس يجول فيها واثباً، مستطلعاً خباياها، ومطاميرها، وجدرانها، وشوارعها المرصوفة بحجارة بدائية (هل كان قدراً أن يموت هناك فيما بعد؟)

بيد أنها الآن أقفلت نفسها كقنفذ. فأضاع بوصلة معرفته الوطيدة بل إن الذعر الفالت صيرها غريبة عنه، عميقة الغور، محاطة بحوش غموض.

أما الذئاب، فقد برزت كلها فجأة من وراء الصخور، أنيقة وخفيفة كالنسيم، توقفت هناك، فيما تقدم واحد منها فقط، راقب الخربة بوقار كهل، ثم عوى مرتين.

ما الذي حدث؟ ففي الشمال، بعيداً، وراء الطريق القديمة، ظهرت رؤوس ذئاب زخرى، استجابت للعواء. لم يكن هذا حفل عشاء اذن! إنه يعرفها جيداً، ولم يعتد منها هذا، وقد اندلعت جميعها الآن إلى الوسط وتلاقت، وتلامست، وعوت، واستباحت الليل، بينما امتدت يدٌ خفيفة طيبة ولامست ذراعه.

خرج من خذلانه، وبلا تفكير استجاب لليد الإنسانية التي سحبته بلطف راعش، وصعدت به بضع درجات. ثم دفعه صاحبها دفعاً الى نافذة هائلة، وأغلق ضلفتيها الحجريتين وراءهما.

«أنت!!» قال براحة طفل، حين عرف صاحبه، وارتاح إلى سعة المكان الملكي الباذخ (هكذا افترض دائماً بأن هذا المكان الذي تذكر كل ما فيه الآن، كان قصر ملوك)

حين أطلا، رأيا مجموعة الذئاب، وسط المسرح المهدم، مصطفة متربصة، وفي نسقين متقابلين. بدت كدغل، وطفق واحد يجوس المكان، مجالداً، مرتعشاً في انتظار مجهول.

بدا ممتلئاً، رحباً، لا يُرى غوره، وهو يستدير حول الساحة، يتلمس طريقه عبر الدرجات المحطمة، ثم ينساب نحو المسرح ليستريح هناك على قائمتيه. غيرت الجماعة وضعها في استعراض غريب مثقل بالرهبة والتردد. واستقرت خمسة منها خلفه، فيما انفرد ثلاثة، وواصلوا مشيهم ثم توقفوا في الضفة الأخرى.

ملأه الذعر، وفي الذهول الذي هطل عليه من كل صوب، لم يفهم شيئاً، نسي دروس حياته كلها، كل ما تعلمه على يد ذئاب ماتوا، وثعالب قضوا، وضباع سلخ جلودها، أضحى كالسخام وتلاشت خبرته التي أمضى عمره يتباهى بها، صارت رماداً.

وظل السؤال عن تحركات الذئاب الغامضة في المسرح القديم لا يطمئنه أرعبته أكثر تلك الوجوه الضاوية المحاصرة بلهاث غامض للذئاب الثلاثة التي بدأت تنكمش، وتصغر مشروخة متراجعة، فجأة، ظهر القمر بدراً، نهض ذئب ضخم، واعتلى حجراً مستديراً ثم زخرف المكان الصامت بعقد من العواء المقتلع من خزان نداء.

رددت الذئاب العواء مثل نهر، ثم صمتت.

ومن الباب الشرقي أقبل وحش مجبول من صخرة، تقدم يسبقه حفيف، ويرافقه تكسر ضلوع يابسه، استوى بجانب الثلاثة التي تبدلت فجأة، وأطلقت في الهواء رشاش صرخات متلاحقة مليئة بفرح ناجين.

بدا له ذلك أشبه بطيش أخرق للاعبي حجوج وطالع: إلى المنصة حيث كانت بضعة أحجار مبعثره، وعمود قديم ناقص. تسلل الذئب الأول مجتهداً أن يظهر هدوءه وحكمته، وراح كامل يهز رأسه هزات عارف، وجاره يقول: «شوعَ بساوا؟» قال «راقب بس! طلع! وشوف!»

بدا الذئب مروعاً، ممتلئاً بحزن دفين شوّه مشيته، لا بدّ أنه قد تشرخ مما آل إليه في نهايات العمر. بدأ يمشي بخطوات قصيرة لكنه، دونما انتباه، تعثر بشوكة خشخشت كاسرة سكون الليل، واصل سيره الوئيد، محاذراً عثرات المكان بعد ذلك، ونجح في الوصول الى منتصف المنصة متجاوزاً حدود التنازلات التي خشي منها أكثر مما خشي من غريمه.

وكما يلتفت غريق، نظر الذئب نحو النافذة حيث كان كامل. وحدق فيه بعينين ضارعتين مودعتين. ثم تقدم، وقف أمام الآخر الفتي الذي أقعى في مواجهته. لقد حاول ضبط ردود فعله، لكن دمَ الشباب فيه كان يغلي، لا من خوف. اذ انتهى ذلك منذ مساء هذا اليوم حين سافد الأم الكبيرة، كاسباً بضربة واحدة جولتين: المستقبل وجنون الجماع المبهر!

لم يخفِ تبجحه، وافترض ان الوضع كله لا يلائمه إلا إظهار الهوية حالاً، سوف يفوز. فلِمَ التواضع والتردد؟!

فورة دمه كانت ظاهرة، وهدوء الخصم لم ينطلِ عليه، ورأى أنَّ من واجبه أن يظهر كل شيء حالاً. انقض نحو غريمه ممسكاً به من رقبته. كانت حركة خارقة، ثم راح يدفع به بعيداً.

حاول الاخر أن يقف، ليردَ الضربة، بيد أنَّ كل ما استطاع فعله هو أن يذعن لغريمه الذي شاله من الأرض بعسف جلاد وقذفه مثل حجر نحو كرسي الملك المحطم. فانبطح هذا على بطنه منتظراً موته المقبل: لقد رآه بالأمس فقط. وتعجب من السرعة التي أتى بها، أهكذا تموت الذئاب؟ سأل نفسه وهو يجالد لواعج الأسى الذي قرع رأسه، لقد عجز أولاً عن الإمساك بالإبنة الصغرى لذئب السهل الغربي، ثم فشل بعد ذلك في مضاجعة الأم الكبيرة التي راحت تنظر إليه نظرة حقد، وهي تنتظر أن يولج فيها دون جدوى.

لم يخطر بباله أنه سيعجز عن فعل ذلك، فلم تختفِ الرغبة منه بعد. وكان ضميره صافياً وهو يشمُ ذرات الشهوة التي طرحتها في الفضاء حوله، نسي هزيمة

بعد الظهر الموجعة، لكنه حين اعتلاها شعر بأن الأمر لا يعدو كونه عمل صبيان، بدا له ساخراً، وقد تحول الجسد المشدود تحته إلى جلد وشعر رماديين مخضرين، خال من كل الارتعاش ووجد نفسه يردد بلا مقدمات، ودون أن يذكّره أحد بشيء: «إنها النهاية» لم يكن مذعوراً حين نزل عن ذئبته، كان خائباً وخجولاً من الهزيمة التي لم ينتظرها أبداً.

الأم الكبيرة لم تحاول مواساته «لماذا؟!» وقد ضاجعت في المساء هذا الشاب الذي أُرسل إليه كي ينتزع روحه «أهكذا تموت الذئاب» سأل نفسه مرة أخرى، ربما، إذ لم يقل له أحد شيئاً ما عن مستقبله، فقد كان صغيراً يحبو، وأنقذه ذئب ما، رباه، ثم أورثه سلطاته.

أراد أن يقول شيئاً ما للرائحة البشرية التي شمها في الأعالي، لكنَّ الغريمُ المتأنق، لم يتأنَّ، كان مستعجلاً لإنهاء القتال، وقد أيقظ الانتصار السريع، وعبقُ المكان الزاخر بذكريات الحروب، والصراعات، والسكونُ الطاغي، وخنوعُ القطيع واستسلامه، ورائحة الدم التي شرعت تنبجس من الجسد الأعزل، أجراس ضراوته. لم يضع وقته، تذكر فجأة كلَّ الساعات الهلعة الشعثاء التي أمضاها وهو يخشى بطش الرئيس. انقض عليه انقضاضة أخيرة، قاصمة كالنصل، رحبة، وعارمة بالعنف، ونهائية.

حيّت الذئاب الحاضرة في المدرجات المعركة بسلسلة مرتجة من العواء المتلاحق، ثم ساد الصمت، حين تقدم الذئب المنتصر، وقلب ضحيته ببوزه. كانت قد سلمت بلعومها، لكنه تركها، واعتلى حجراً، وجعل يحدق في المكان متفحصاً، كأنه يراه للمرة الأولى في حياته، بدا شبيهاً بإله، منصتاً، يبحث عن نسب جديدٍ خارجٍ من هذه المعركة الضارية.

انصاعت الذئاب لعرام فوزه وانسابت أمامه وهي تعوي عواء خفيفاً شائهاً، ثم انقضت على جثة الزعيم الكبير الساكنة.

التهم القطيع الجسدَ الميت خلال دقائق، ثم جمدوا وهم يلهثون بألسنتهم

المصبوغة بالدماء. ضحك رفيق كامل، وقال: «الله!». كامل قال «ابن العاهرة» بينما كان الذئب يزمجر فجأة، ثم يسافد ذئبة فتية متزينة تحت شجرة بطم معمره. كان ذاك هو انتقامه المفاجئ الأول من الأنثى التي رفضت أن يطأها قبل شهور.

أذهل تصرفه «كامل»، اتقد بكراهية عميقة لحماقات هذا المتسلط ورعونة حضوره. لكن الذئب الذي أدرك أنه صار كلي القدرة، استدار وأطلق نداءه الثاني، فارتج المكان برجع عواء القطيع كله. أومأ برأسه نحو الأنقاض، حيث كانت ترقد الذئبة الأم الكبيرة.

بدا متوجاً بالدماء ومضطرماً، ممتلئاً بجبل سلطة، سريعاً خفيفاً كالهواء، مندى بماء القتال، راغباً في إعادة ترتيب أركان المملكة التي آلت إليه الليلة، بلا حساب، مملكة من الأرض الوعرية القاسية المجردة من الرحمة، شبحية ومسكونة بالأرواح.

أغواه الخراب. أغوته الذكريات القديمة المدفونة هنا. ورأى في العزلة الرهيبة التي تكتنف المكان، صورة نفسه: وحيد ممعن في البعد والرحيل، كاره لهذه الوجوه الفارغة التي تتثاءب اندحاراً.

نأى عنه إحساس الأب الذي افترض أنه سيتملكه ذات يوم عندما يستولي على الأمل الناقص. نأى مفتاح اللحظة، وتلوت أعضاء جسده مثل أفعى، وتلاشى، وهو يغالب رغبة قاتلة في تحطيم الأم الكبيرة الجاثية تحت ساقيه. هذه العجوز الملتهبة الباحثة طيلة سنين عن لذتها وسعادتها مع ذكور أقوياء كالفحول، توعُ، وتنتقم، وتنساب كالعطر، وتثب، وتلتهم ثم تفتح ذراعيها، وتنتظر جالسة على نعوش ضحاياها، زعيمها الجديد.

لكنها لا تبدي الآن مقاومة. لم تتوقع هذا. لم تحسب له حساباً قطُ. على الرغم من أنها تدرك الآن أنه مكتوب بحروف كبيرة في دفاتر الذئاب الحمراء.

لقد تذكرته، وحاولت أن تلاقيه. فأي غواية تختار؟ منحته جسدها مساء

هذه الليلة حين عجز ذئبها عن السفاد. كانت ممتلئة بمهرجان رغبة، وأفنت مع هذا الفتى كلَّ الأضواء المشعة في لحمها حتى انطفأت واحدة تلو أخرى. ولم يعد للعيون أن ترى في الزبد البرتقالي للشهوة شيئاً: أتغويه بالصيد اذن؟ ولكنها ترى كيف ولغ في الدماء، وأتخم جسده المرصوص من لحم غريمه، ودم عشيقته الخائنة؟ أم تغويه بالشفقة؟ كأن ترمقه بعينين ذابلتين؟ أو تقدم له على طبق الضراعة وجودها كله، خذ ما تشاء! سلة الروح! أو جرار الجسد!

بيد أنه صار عصياً على الغواية، وقد بدله الصعود الناري المتفجرَ تبديلاً صاعقاً، طفق يملأ المكان بلعلعة صاخبة ضاجة. عضَّ بقسوة بضعة ذئاب. عوت متأوهة موجوعة، ورضخت مكانها وهي تئن. عوى في الاتجاهات الأربع، بدا كالبرج: وحش معصوم امتلك البرية، عطشان لا يرويه دم العالم.

امتلأت الساحة بذئاب لا تُعد، بدأت تخترق الدائرة من جميع الجهات، ثم تتوقف أمام المنصة متسائلة عن معنى العواء الليلي الأخضر.

غصَّ المسرح بالحضور، وارتفع الذئب الزعيم بقامته المليئة. بتوقيت محسوب. أثقلت اللحظة تفكير كامل، وتاه في الانبثاق الملكي المفاجئ لسيد هذا المكان «مثل النهر» همس لنفسه، وهو يتأمل المشي العاصف الذي أظهره الجسد الحيواني، انفجارَ القوة الغاشم. لكنه لم يدرك أبداً ماذا أراد الذئب من اجتماعه ذاك. أحسَّ أن الذئاب كانت تعرف ذلك، وقد استسلمت لحسابات قائدها برثاثة، مدَّت وجوهها كالجثث، وسكنت، وتراخت، وهي تشرع حسها للرغبة القادمة.

شعر كامل أنه يختنق هنا، في الحبس الضيق الذي اختاره لنفسه، أمسى تنفس الذئب يغرقه، ولم يرَ مثل هذا من قبل، أرهقه هذا الطوفان المجنون من السلطة، والعنف، والسطوة الحالكة.

فجأة التفت الزعيم نحو تابع ضئيل كان يهزج بالعواء قربه، فانقض ذاك على الذئبة الأم الكبيرة، نهشها بفك مشتعل، فأخذت تئن مستسلمة ضائعة وسط الحشد الذي انفرط كالذباب: «ولك ليش؟!» تمتم كامل هنا مخاطباً الذئب الزعيم، لم

يعد راغباً في دوره، كره كرسي المتفرج المحشور في وكر دور الذئب الذي صار شمساً محرقة، لا شيء يعود، ولا مناص من المواجهة التي لم يجد لها حلاً.

بهدوء صياد، صوبَ بوزِ بندقيته نحو عيني الاله النسريتين وقال: «الله يلعنك يا زعيم!» ثم أطلق

سمع صوت رفيقه يصرخ: «لاااا!!».

(٢١)

حين أوصل اليهم حنا البيطار أخبار مجزرة البيادر، دمدمت دلال بحقد: «العمى، ما بينعق غير بالخراب»، وأعلنت النساء تشاؤمهن من وجوده، ومن سيل الويلات التي لاحقهم بها منذ رحيلهم عن المنارة، حتى أنهن صرن يرقبن الدار كلما سمعن صوته آتياً من الممرات، ولم يستطع المسكين تبرئة نفسه لأنه كان يحمل إليهم أخباراً أكثر سواداً «فقد منح كنج الحمدان دار آل الفضل لحامد الحمار!» وكان يريد أن يحكي عن صباح، وهو يغالب رغبة هائلة في نشر أخبار البلد، وأحداث القرى المجاورة التي يجول فيها لبيطرة الخيل والبغال. لكنه آثر أخيراً ألا يذكر شيئاً عن الحزن والمكابدات. وبدل ذلك بدأ اللعين يروي حكايات أخرى: عن أعراس القرية، وفلان مات، وفلانة رفضت علان، وزيد يسلم عليكم. وحسن وعلي وحمد يريدون التسلل إلى الخربه لزيارتكم، وعن سباق الخيل، ولعبة حجوج وطالع التي انهزم فيها فرحان. سلسلة خارقة من الماضي البهي، جعلت النساء يطفحن بالبكاء «ملعون يا حنا» قال كامل «بكيتنا من الزعل ومن الفرح!»

وبدأت ثنيه تنوح على الدار، منذ أن سالت دموعها، وقد شعرت الآن فقط أنهم لن يعودوا إلى هناك أبداً، وأن المنارة صارت بعيدة، ومستحيلة، وأن الدار سيضعف قلبها، وتخرب، وتنهار. ما الذي سيفعله ذلك الدابة في الأسرار القديمة لقاسم الفضل؟ وماذا تقول له الاحجار والقناطر والمخابئ القديمة؟! وكيف يستطيع الوصول إلى أقبية جدها، وآثار مشيه، وصموده في وجه آل الحمدان؟!

وصار شامل يشتم أهل المنارة، ويلعنهم، ويقول إنهم لا يريدون أي واحد

منهم. ولماذا يجيئون الآن بعد أن تخلوا عنهم، واصطفوا الى جانب البك، ثم صار يتذكر المنارة. ويوشوش حنا سائلاً إياه عن الأصحاب، واحداً بعد آخر، حاول أن يتتبع برفقة البيطار المتمهل كل بارقة من بوارقهم، وكل حماقاتهم، وعداواتهم وحبهم، وهو يتنهد. ويقول: «أووف! أوف!». إإلى أن سمع شاهين الخليل يقول بصوت مبحوح مشوب بالغضب: «انسوها!»

وأضاف وهو يشمخ بعينين ارجوانيتين كعيني صقر:

«الحنين مفسدة!»

ذلك أن كل حياته. قد أفسدتها هذه المشاعر الرخوة، التي تجعل القلب يرتجف. والعقل يجف ويتوقف بلا حركة في مكان واحد، وربما إذا ما استسلم الرجل سوف يبقى في زمان واحد، نعم لقد ضيعه الحنين أيضاً وجعله لا يستقر ولا يهدأ راكضاً في أزقة الحياة، ودروب الجبل هنا، وشعاب لبنان هناك بحثاً عن ماضٍ طحلبي مفتت راكض إلى اللانهاية، لكن الأشياء ما كانت هكذا قبل عشر سنوات، بدأ يتأمل السماء كأنما يقرأ على صفحتها الحليبية المغلفة بالدخان دفتر الكلام: ربما يمقت نفسه إذا أمعن التفكير في ذلك التأييد العجيب الذي منحوه لأبيهم حين أعلن ذات يوم أنه ينوي الرحيل إلى الجبل، كانوا قد استوطنوا جبل الشوف. ولدوا جميعهم هناك، لكن الأب بدا مأخوذاً بالقرار الجديد كأنه يعيد تكوين العالم مرة أخرى، كأنما هو ذاهب لبناء مملكة، وفي كل ذلك، ظلوا مصعوقين بقوة الحنين، واختناقاته، وعالمه المسكون بالليالي الجميلة، والقمم، والأحباب. أشياء كثيرة غامضة وهوجاء ومجنونة. هل كان تأييداً ذلك الحماس الذي أبدوه؟ أم بذرة الشيطان؟!

لم يسبق أن جربوا مثل ذلك، حتى أن الطريق بدت طويلة. تعرجات هائلة من الدروب المضاءة بشمس خريفية باهرة، وهم يذهبون نحو الجنوب، ممتلئين بسحر خفي تناهى اليهم من الرهافة التي صارت تسمُ تصرفات أبيهم، وربما كان السبب أن الصفات التي راح يسبغها على المكان المنشود الذي يعودون إليه، شديدة

النضارة، حية وطيبه لكنها، يا للأسف، لم تكن موجودة في أي مكان من العالم، سوى في خياله الرطب المعذب.

«مدافن الزرقا!» هذا هو اسمها، وهذا ما تلفظ به أبوه حين وقفوا فوق رابية جرداء يطلون منها على سهل شاسع مرشوق بحجارة شاحبة هشة مخرقة بطريقة مريعة، وفي وسطه يلتقي واديان جافان حيث ترقد القرية الرثة البائسة، بلا شفاعة من أحد.

حتى تلك الدقائق، كانوا ما يزالون مأخوذين بصخب البشارات التي حاكها بمهارة، فبدا المكان شبيهاً بتخوم الجنة، أو هذا ما أرادوه، كي يخففوا من الحر الفظيع الذي واجهتهم به البادية، توقفوا قليلاً هناك وراح أبوهم يشرب ماء من القربة، ثم غسل رأسه المتربه، ووجهه ويديه ومسح رقبته وأنفه، وحين انتهى، عبّ من هواء الفجر الثقيل، واكتسى غبطة مفاجئة، وصار ينظر إلى المدافن ويقول: «طلعوا! شوفوا! في أجمل منها؟» لماذا؟ أمن أجل أعواد الشيح اليابسة هذه جاء بهم؟ أم احتفاء بالصحراء؟ لقد هزموا فوراً، وزادت الشمس البازغة في كآبتهم وحزنهم.

بعد يوم واحد من وصولهم مات علي الديك، كان عمره ستين عاماً، وقد أمضاها كلها دون أن يذوق طعم لحم الدجاج، لكنه ذلك اليوم فعلها، حين أغرته وردةُ بنت طلال بتناول فخذ ديك سمين كانوا قد ذبحوه لعشاء الضيوف، وكان يمكن لعليٍ أن يحتقر الدعوة دون تردد لو كانت موجهة اليه من رجل، أما الان، فإن قواه كلها تراخت، ونسي كبرياءه وصلفه حين لامست يد وردة الرقيقة كالخبيزة يده، أخذ اللحم منها، وقضم الفخذ الطري بلذة، وما أن رغب في التعبير عن رأيه حتى مات: في البداية تحدث بلطف بضع كلمات، ثم ضحك بلا سبب، وكانت ضحكة قتيل، إذ شرق بعظمة خنقته بعد ثوان دون أن يقوى أحد على إنقاذه. حاولت البنت في البداية أن تمنعه من السقوط، وهو يسعل، ويشهق، ويتعثر. ثم خرجت تصرخ وتنادي!

حين وصل أبوه إلى هناك، قلب الشيخ، وتأمّل وجهه، وجسّ نبضه، ثم قال: «البقية بحياتكم!»

من النظرات التي حدجوه بها، تكهن أنهم يحملونه وزر موت الرجل الكبير في القرية، ولم تنفع شعائر الدين التي رددها، محاولاً أن يخفف وقع الكارثة عليهم، في اقناعهم بأن عمر الرجل قد انتهى، بدا حزنهم أكبر من ايمانهم، وحين عرفوا بأنه طبيب، يفهم في الأعشاب، ازدادت كراهيتهم له، فيما راح يعتذر عن ذنب لم يرتكبه، قائلاً إن عظام الدجاج، لا تعالج، لكن مصطفى ابن علي، رفض أن يدعه يعمل في الطب، وقال: «انت ما بتفهم غير بالزبل» آمراً إياه بالعمل سائساً لخيله.

هكذا اذن حمّلوهم دم رجل قتيل بالغزل والعظام، واختلط بالروث، والشوق، بصهيل الخيل، ورفس البغال الشموسة، ونبذوهم بأمر من مصطفى نفسه، وخوف من اللعنة التي تصاحبهم. داس مصطفى خرج الأعشاب مثل حمار وأسكنهم خربة الشمس دون أن تنفع لديه شفاعة أحد.

منذ ذلك اليوم، ارتدت أبصار أبيه مرة ثانية نحو الغرب، كان هذا عادياً بالنسبة لهم لو أنهم ظلوا في الشوف، أما هنا فإن الرجل أضحى مضطراً لصنع خوارق حكايات كل يوم، عن الأرض التي تركوها، خالقاً المفاجآت، الاكتشافات، الجبالُ الضبابيه، والسهوب المضيئه وأشجار الأرز. وكانت أمه تراقب ذلك بعينيها فقط، وهي التي تعرف معنى هذه اللعنة التي تحك جلد زوجها، وعندما أعلن ذات يوم عن نية العودة، استعانت بكل اللغات الفصيحه لتمنعه، وهو مستسلمٌ للرصيف الذي استراح اليه:

«روح! الله لا يردك!»

صرخت أخيراً، تاركة إياه لقدره، لعبث أحلامه.

لم يعرفوا إن كان قد حاول إقناعها لترحل معه. الأرجح أنه لم يفعل، وانتظر بصبر الضباع مجيء الشتاء حتى يرحل. وكان قبل ذلك يعلم أولاده مهنته

الملعونة: طب الأعشاب، وجمعها وتجفيفها، والأمراض التي يشفى منها كل نوع، الى أن استنفذ كل ضميره.

ذات مساء، حين أنهى عشاءه، قال: «يا الله!»، ولم يلتفت إلى أي واحد منهم بعد ذلك، وقعت اللقمة من يد الأم، وبدأت تبكي بصمت، كانت تمطر. وربما انتظر في الخارج بضع دقائق املاً أن يخرج واحد منهم لوداعه. لكن النظرات الصماء التي حدجتهم بها أمهم، اغتالت رغباتهم.

ظلت ذكراه تتجدد كل سنة بعد ذلك: وقع الحوافر الشاسع. دبيبه السري بين البيوت، انتظاره، وأدغال حلمه. وكانت أمهم تعلم أنَّ شرارة واحدة من هذا كافية لقتل ثور.

وزاد في عذابهم أن مصطفى أرغم أكبر اخوته على العمل سائساً مكان والده، وهكذا فإن شهوراً أخرى مضت حين قرر ذاك الرحيل أيضاً. أيقنت وهي شبه ميته أنَّ عنكبوت الحنان الذي ظلت تنسجه طوال العمر، كان أدهى من أن يصمد أمام هبّات الحنين، ها هم يتسربون من يديها كالنذور.

وكانت تُعلن عن سخطها بطريقة واحدة كل مرة، هي تلك الكلمات التي بشرت بها أباهم: «روحوا! الله لايردكم!» ومرة واحدة فقط سمعها تقول: «يا مجانين!»

وفي كل مرة كان الباقون، يعجزون عن فهم هذا الشغف بالبعيد بالمجهول لديهم، وكيف كان يستحث الأب والأخ ويوجه الخطى اليه، فينقلبون واحداً بعد آخر، على أحوال البيت المستكينه، متحولين إلى ما يشبه الطيور. وهكذا راحت الدار تنقص واحداً كل عام أو عامين، وكانت فاجعة الأم التي لم تنجب سوى الصبيان، تكبر وقلقها يزداد.

الشيء الآخر الذي كانوا يجهلونه هو: ما الذي يحدث هناك في بلاد الحنين؟ ربما كان غياب الأخبار ينشط خيالهم بدل أن يحبطه، أضحى هو الخميرة المنبهة في

تربة المجازفات. وكانت هناك أيضاً سعادة التخلص من نقمة آل الديك، وفرح اللحاق بالمهاجرين.

أمهم هي الوحيدة التي لم يشغلها هذا المسُّ المجنون، لكنها لم تكن من آل ا لخليل، كما تهامسوا دائماً، فكيف يمكن أن يرتعش فكرها بمرض لم يكن في دمها؟ هذا ما استنتجوه، لكن المسكينة كانت تعتقد أن ما دفعهم للرحيل أول مرة سيدفعهم للعودة مرة ثانية وثالثة ورابعة، وقد حدث هذا مرة واحدة، حين رجع نمر إلى هنا، فسجنه مصطفى شهراً كاملاً، وهي تذهب اليه وتستعطفه، ولكن نمر مات بعد أيام من خروجه، كان شاهين شاباً، وقد أهلكه، كما يذكر في تلك السنوات، شعورٌ خفي معذب. يدفعه دفعاً للذهاب الى أبيه وإخوانه، «حنيت؟!» سألته فجأة وهما ساهران معاً، قال: «بدي موت من كثر شوقي إلهم» فقالت: «روح لا تعذب حالك» «وانت؟» سألها. قالت: «بدي ابقى بجنب قبر نمر» وبدون أن يرمش، رحل إلى الغربَ. وما لم يحسب له حساباً قط، هو وجودها في وداعه، وهذه المرة لم تقل له يا مجنون. لقد ملت، كما بدا له، تمتمت وهي عاجزة عن اخفاء كربها: «سلم!»،

صارت الكلمه مثل تعويذة، لكنه حين وصل إلى الجبال، أدرك أنها مجرد لعنة أم من نوع آخر، قالت عجوز تالفة، وهي عمته، أن أباه عاد إلى المدافن، ولم يكن ذياب هناك، ولا فهد، ثم روى له جوال أنه شاهد فهد نفسه في المدافن.

استيقظت لهفة آل الخليل فيه، فصرخت عمته التي حاولت التمسك به بكل طريقة «روح! الله لا يردك!» حين نوى الرحيل. ففي أي زمن تعلمت النساء في آل الخليل هذه اللعنة الأبدية؟

ولكنه لم يجد في المدافن أحداً، لقد جاء أبوه ثم رحل، وجاء ذياب ثم رحل، وفهد أيضاً. لا أحد هناك، وهم دائماً على سفر، حتى هو نفسه عاد بضع مرات الى الشوف ثم رجع، وربما كان موت أحدهم سبباً أقوى في ايقاد نار الحنين إلى مكان آخر، وكلما بحث عن واحد، صار قلبه مشغولاً بالاخر، ولكن ذلك كله مفسدة، شرٌ محض، وليس في شجرة الذكريات الماضية سوى أرجوحة ضياع بين البقاء والرحيل.

* * *

(٢٢)

دلال وحدها، كانت أكثرهن ظنوناً، كما فكرت، وقد امتلأت منذ حكاية شاهين برغبة عجيبة في انتزاع فكرة العودة من الخرائب إلى المنارة من رأس آل الفضل، وراحت كل مرة ترسم لأخيها صورة جنائزية مكبرة، خالقة منه شبه غول، وحش خال من العواطف، جبار محروق وروت عنه روايات كلبيه غذتها بالخيانات، والدجل، حتى أنهم دهشوا واستمعوا اليها كالميتين، تذهلهم حيرة الحمام المطارد، واستغراب المهاجرين. كل ذلك ودلال لا تعي، ولا تفكر، ولا تعيد التطلع إلى أعماقها كي تعرف معنى ما تقوله، كانت رغبتها في أن تظل حية، وأن تمنع آل الفضل من العودة، أكبر من كل التقاليد، حتى انتبهت ذات يوم، بينما كانت مارة، قرب جناح ثنيه إلى من يذكر اسمها. فاسترقت السمع، وأنصتت إلى حديث النسوة هناك، كانت ثنيه تحاول تكذيب نصف حكايات دلال، سمعت شتيمة ما، عنها: «بنت حرام!» وصار كل ذلك في ذهنها كالعجائب: واحدة من آل الحمدان تحول أهلها الى ذئاب وأخرى من آل الفضل تعيدهم إلى سلك البشر!

نحبت قرب كامل في الليل، فقال إنها هي التي سببت لنفسها هذا العداء، حين شتمت أخاها بين نساءٍ يَعْبُدْنَ اخوتهن! قالت: «تريد أن تراضي عدوك، وتقتلنا؟» قال: «دار قاسم الفضل لا تُنسَ».

بالنسبة لها لم تكن تلك الدار تعني أي شيء، وما كانت تنوي العودة إلى كنج، وهي تعرف مصيرها، بعد كل ذلك، فبدت مثل خرقة، معلقه في مهب عجاج، ضائعة وممزقة لاتجد مَنْ يريدها أو يتقبلها، ولهذا قررت أن تنس الكآبة، وتتعلم الصمت، كما قالت لكامل، رافضة الخروج، أو السماح لأحد بالدخول إلى وحدتها، التي بدأت تكتشف، أن لها محاسن الوجود، وخصبه.

نسيت بعد ذلك احساسها بمرور الزمن. وصارت حين لم تعد تتناول سوى اللحم والخبز والجبن. والعدس كلَّ بضعة أيام، سمينة ممتلئة، وعادت اليها غلمة أيام الضباب، التي خبت وتناقصت أيام الخوف.

في الايام الاولى لام اخواته بسبب ثرثراتهن، وقد أخافه رعب وحدتها، واندفاعها لتكون جزيرة وسط بحرهن، ثم كف عن ذلك فجأة، حين اكتشف تأثير العزلة على امرأة وحيدة غريبة. حيث راحت دلال تغدق عليه بروق الشهوة وجنون اللذات ويمضيان رحلات خالدة في حدائق الجماع.

بعد شهر، اغتسلت دلال، وارتدت أفضل ثوب جاءت به، وتزينت وضمخت جسدها بالعطر. ثم خرجت إلى النساء لتخبرهن أن آل الفضل سيستقبلون بعد تسعة أشهر أول مواليدهم في البلاد الجديدة.

كانت ثنيه تنحت جرناً من خجر بازلتي، وكان ايقاع النحت البطيء شبيهاً بشعائر الحب، وقد اختلطت الدقات، بوجيب الكلمات الناعمة التي قالتها دلال، حتى إذا توقفت، بان في المكان بهاء النبأ الطازج المحمل بآمال العائلة. زغردت البنات، وقبلن دلال، وأحطنها بهواهن، ثم رحن يضعن قائمة الشروط الضرورية لمجيء أمير امنياتهن معافى سليماً: أعفينها من أشغال المكان، ومن الطبخ في شهور

الحمل الأولى (وهو اقتراح أم سعيد) وانتزعن وعداً منها بأن تشرب كل يوم كأس حليب، (كان الحليب يغيظها، وما استطاعت قط أن تفهم سبباً لرغبة الناس في هذا السائل السميك الذي تفوح منه رائحة ماعز) وأمرنها بالنوم الطويل، والرقاد على الجنب الأيمن.

تكريماً لذلك الضيف القادم، خرج كامل إلى الصيد. كان ممسوساً بمزاج الصخور، وقد ظل طوال النهار يجوس التلال هارباً من الأسى، وحين رأى الى الطرق والممرات التي أغلقت بحواجز من الحجارة والأخشاب، أحس بالتلف، لقد نأت الديار بعيداً. وامتنعت عليهم، وها هم ينجبون أطفالاً جدداً في الغربة، بينما تُسد الطرقات إلى المنارة.

هناك لم يستطع ذلك اليوم، مقاومة الفضول في استكشاف المكان المحاصر من جهاته الأربع. وفوجئ أنه لم يجد أحداً في الطريق. كانت الدروب خاوية تماماً، لا وجود فيه لأي ابن آدم، اختفت تلك الأشباح، وتلاشت الكائنات الغامضة التي كانت ترعبهم، وتبين أن رعب الماضي كان وهماً، فهذا المكان لم يرَ بشراً منذ شهور. ولم يطأهُ أحد، أما الصخور المطلة على وادي الزبدة، فكانت جامدة، وهي تسرب شعاعاً خفيفاً إلى السفوح المقابله، تتبع الممرات كلها، وتفحص الطرقات الوعريه، وتلال الصخور، فزاد اطمئنانه أكثر، وتنقى دمه حين سمع، بعيداً عنه، هناك في الشرق، صوت طلقات غائرة في عمق التلال النائيه.

الأرانب فقط هي التي ملأت المكان، كانت ثلاثة منها تقضم الأعشاب أسفل صخور الغربان العالية، بدت شديدة البياض في السفوح غبيه، ومطمئنه، حتى تتيح له فرصة اختيار أكثرها عافية، ذاك الذي اصطاده بطلقة واحدة في الرأس، رمته بعيداً عن شقيقيه اللذين فرا هلعين، واختفيا في رمشة عين.

بعد ساعة اصطاد حجلتين خبيثتين أتعبتاه، ثم مضى الى وكر مخفي ببراعة، وأرغم ثعلباً سميناً على الخروج منه، كان الحيوان مضحكاً مذعوراً، وهو يحاول الإفلات من مهارة كامل، وقد اضطر لسلخه هنا، مع الأرنب الآخر، كي يخفي هويته عن أهله الذين ظلوا دائماً يرفض أكل لحم الثعالب.

التهموا الصيد بيسر وهم يغنون، ويهزجون، وارتوى شامل لأول مرة من نبيذ جديد أوصى عليه حنا، ثم شرع يرقص. رقص على مجوز هايل، وصَوت ثنيه، اللذين اخترقا الليل وملأا الحصن بالنغم العائلي الذي أحرق قشَ الظمأ المضلل في رواق الهجرة.

* * *

(٢٣)

بعد ذلك أخذوا يعملون في وادي الزبدة حيث مقالعهم. قصَّبوا آلاف الحجارة. منها حنوت ضخمة قصُّوها من بازلت صاحب الزرقة. تركوا أحدها للتحديات (كان هذا أحد رموز الحجارين المتغطرسة) وهم يعلمون أنَّ واحداً فقط يستطيع زحزحته، وحمله، والصعود به إلى أي سقف منذور لهذه الغاية هو: صايل الفضل! نقشوا اسمه على صفحة الحجر كي يظلوا يذكرون غربته المفاجئة عنهم.

نحتوا زوايا متوجة برسوم غامضة، صممها شامل بجسارة، لتبدو مثل أنصاب فقدت صوتها، ووجهها. ورغباتها. وهي تتأرجح على أقواس الغربة. أما الحجارة فقد زين كامل بعضها بصور حيوانات برية: أرانب مذعورة، وذئاب متوحشة، وأخرى خائفة رثة، وثعالب، وأنياص، وأفاع مباركة كانت تراقب أشخاصاً مجهولين من أدغال المسامات الحجرية الزرقاء.

خلال تلك السنة علّموا صالح الحراني فن المحاجر. رغم أنها كانت مجازفة لم يفعلوها من قبل أبداً. فآل الفضل ظلوا منذ مجيء قاسم الجد، يرفضون توريث مهنتهم لأحد، فما الذي غيرهم حتى يملكوها لسلالة أخرى؟!

أصوات المطارق والأزاميل، ما كانت تُسمع في أي مكان، فالصخور الصمُّ امتصتها ببراعة، مثلما يمتص الزمن الأمنيات. ومنذ البداية كان كامل يعلم أنهم قد لا يبيعون حجراً واحداً قبل سنوات، قبل أن يستطيع واحد من المنارة أو من القرى الأخرى الجرأة والمجيء الى هنا طالباً بناء بيت. لكن عزاءه الوحيد هو المستقبل.

فعدو المحنة، كما كان يقول محمد الفضل، هو الأيام. ها هم الآن يجربون ذلك. ويحاولون دحْرَ فاجعتهم بالأيام المشبعة بالعمل أما الحجارة فإنها لاتهترئ، ولاتبلى، ولا تتبدل، ولا يطالها اللصوص.

ثنيه تفهمت فكرة كامل أيضاً من وجه آخر، حين استطاعت أن ترى في الرمل معنى انشغال الرجال بعمل الحجارة. فقد ازدحم البيت بهم في أم الجرابيع. وصاروا يذعرونها بثقلهم وكثافة النار التي يحبسونها داخل اجسادهم وأرواحهم. أدركت بيقين المرأة، أن الصخور وحدها هي القادرة، في هذه القفار الموحشة، أن تحيل فحولة الرجال إلى بؤس، وأن تتلف رجس رغباتهم الفاسقة، وكان هذا أقصى ما تريده لهم.

أما عن صباح فقد عرفت ثنيه كل التفاصيل فيما بعد، وقد احتاجت إلى الكثير من البرق حتى تستمطر لها رحمة الله، وهي تبتهل اليه، وتمجِّد أسراره طلباً للستر والشرف.

كانت تخشى البنت، فقد رفضت هذه الاقتران بأي واحد من أبناء عمها الذين تطوعت ثنيه نيابة عنهم بطلب يدها لأحدهم، خيرتها بينهم: شامل أو نايل أو صايل. لكنها قالت: «لا». كانت تجرجر روحها في الأشواك وقد عجزت عن التخلص من رائحة كنج الممزوجة بطعم الصدأ. راحت تغتسل كل صباح ومساء، محاولة سلخ مسام جلدها القديم، دون جدوى. فقد انهمرت تلك الروائح في دمها. لهذا رفضت الطلب، متذرعة بأسباب أخرى، ولكن إلحاح المرأة القوية، واندفاعها المتواصل الشبيه باندفاع نهر، أرغماها على البوح بكل شيء.

باحت وهي تبكي، وتسأل كيف سيَتَقبَّل أبناء عمها صدمة فقد عذريتها؟ ثنيه التي فكرت طويلاً بعد ذلك، استغربت خبث أفكارها حين وجدت عشرات الأعذار التي أمكن دائماً للفلاحين ابتكارها عن زوال البكارة: عود حصاد في الصغر! قفزة خاطئة! ركوب الحمار بساقين مفتوحتين!. ولكن صباح رفضت كل ذلك. قائلة بأنها غير مستعدة للمقامرة بحياتها لقاء أكاذيب. ورغم أنها بعد ذلك

لم تحاول غواية واحد من الرجال، أو هكذا وعدت نفسها، فإنَّ ثنيه وحدها خامرتها الشكوك بكل شيء. لم ترغب بالمجازفات وهي ترى إلى الهواء كيف يتكاثف، حين يجتمع أحدهم بها، وكيف يهلكهم لهاث البراكين إذا غنت أو رقصت، أو ضفرت شعرها. أو ضحكت ضحكتها الخليعة التي لم تستطع تغييرها، رغم توسلات النساء.

خافت أيضاً حين بدأت النساء يفضين بعضهن لبعض (في وحدتهن وافتقادهن لما يشغل وقتهن) بالأسرار. تحدثن عن غوامض الزواج وعن وجوه اللذة، وشرارات الرغبة الكاسحة حين يمسهن الرجال بعد غياب، ثم حكين لبعضهن نكاتاً بذيئة. واستعدن حوادث وطرائف مملوءة بتفاصيل اللقاء الأبدي بين الرجل والمرأة. قالت فضة إن أعذب لحظة عندها هي لحظة البداية، أما بعد ذلك فإنها تحس بالدوار والملل الى أن تقترب النهاية. وعندها تعود اليها شهية اللقاء مرة أخرى، وعلقت قائلة إن كل الأمور متعلقة بضخامة عضو الرجل. مبدية حسدها لثنيه. كانت تضحك، فلعنتها المرأتان بحقد، ثم ذعرت ثنيه، وتنازلت عن هدوئها، وقد قرصتها الشكوك الداكنة، حين بدا لها أنَّ ما اعتبرته نعمة لدى صالح الحراني، كان في حقيقته نقمة. وأمضت ليالي هائجة كالريح، وهي تتعذب من أحلام فاحشة أمسكت صالح فيها يزني بمحارمها.

لكنها قبل أن تمتحن ظنونها الرثة، تلقت فكرة كامل. فكانت مطراً شكرت الله عليه كثيراً، وقد صارعت، طوال ساعات، إخوتها (في اليوم الذي هيؤوا فيه عدة الحجارة) حتى أقنعتهم، لا باصطحاب صالح معهم فقط. بل تلقينه مهارات الحجارين كلها.

ما لم تعلمه النساء أن الرجال لم ينقطعوا عن المنارة تماماً. وقد سمحوا لهايل بالذهاب إلى الشيخ شمس الدين ليلاً بضع مرات، برفقة كامل. كان يريد أن يواصل دراسته. ويريه تلك الصفحات التي ينسخها من كتاب الحكمة. وقد أبدى شمس الدين هناك حماساً لمخطوطة من الرسالة السرية إلى جماعة الموحدين.

كانت مكتوبة بخط نسخي مستقيم، برزت فيه أسنان الحروف ومطالعها واستطالاتها باتقان نادر.

تعليقاته تلك. جعلت هايل يعلق الأوراق المقدسة على حائط غرفته حتى جاءت ثنيه ورفعتها محذرة أخاها من عقاب الله.

ومضى شامل برفقة حنا متخفياً بالليل. وبالرغبة في شراء النبيذ الذي أدمنه. كانا يذهبان مساء ثم يعودان قبل الفجر. وفي كل مرة يأخذان معهما إحدى أدوات الحجارة لسقيها في كور حنا، أو اصلاحها، أو ترقيع أحد جوانبها، حتى أن شغل حنا في الليل أثار مزاج كنج فطلب إلى مرابعيه أن يمنعوه عن ذلك. لكن البيطار قال: «ماذا أفعل إذا كانت خيل البيك تتلف حذواتها في النهار؟»

شاهين الخيل وحده استطاع التجول في القرى المجاورة دون خوف من أحد. كان غريباً، ولم يعرف الناس شيئاً عن مصاهرته لآل الفضل. وقد ارتأوا هنا إخفاء الخبر. فكان يرحل ثم يعود بعد بضعة أيام محملاً بالأقمشة، والأخشاب، ولوازم النساء، والأطعمة، والزيت، وعدد الحديد التي يوفر أثمانهامن أجور مهنته النادرة.

وفي إحدى رحلاته قابل قساً فرنسياً كان يتجول في الوعر والتلال والوديان باحثاً عن الأعشاب الطبيه، ببراعة. ظن شاهين في البدء أنه ورثها عن ابراهيم الخليل الأول.

ضحك الفرنسي الغريب كالمجنون حين دلَّه شاهين بالإشارات والعلامات على النبات الذي يوقظ الرغبة. وصار يصيح: «بيان! ترى بيان!»

هكذا تفاهما. لكن شاهين لم يجرؤ على دعوة الرجل إلى موطنه ولم يستجب للهفة التي أبداها بيديه، وعينيه، خوفاً على نفسه وآل الفضل جميعاً. وقد نسيه بعد شهر من لقائهما دون أن يفكر أنَّ المقادير ستكون بارعة إلى درجة أن لحظة التعارف الوحيدة تلك ستنقذ حياته بعد ذلك بأكثر من ثلاثين سنة! وأن ذلك الفرنسي سيريه كتاباً ضخماً مكتوباً بلغته عن أعشابه العزيزة الغائبة!

ورغم الحصار فإن ورود الرغبات ظلت تتفتح. واستمرت الحياة هنا تغتني كل يوم بحادث جديد يلحق باليأس نصف الهزيمة أو ربعها (ذلك أن الحياة كالسلم -قالت ثنيه- تخفي بين درجاتها دائماً فراغاً خطراً يعرض الصاعدين لخطر السقوط المروع)

غريبة كانت قد نسيت أمر شمس الدين الذي أحرقته، لكن أملها بالنصيب والحظ رغم وجودها في الخرائب، ظل ينبض وينتظر.

حاولت أن تشغل الأيام باستنبات بذور الأزهار التي جلبتها معها. وقد انتظرت شهرين كاملين كي تقدم لعائلتها نتائج شغلها. فدعتهم إلى الخطيرة البعيدة خارج الحصن. حيثُ مشتلها. هناك طلبت اليهم أن يدخلوا واحداً واحداً، خشية أن يتسببوا بأي ضرر. ولولا حياؤها من كامل لأرغمتهم على خلع نعالهم. ولكنها لم تفعل. كانت بحاجة لمباركتهم واعجابهم وتقريظهم الذي انتظرته طويلاً.

سيد الحظيرة كان الحبق. وبدا للوهلة الأولى أنَّ المكان لم يتواجد فيه شيء سواه. وهي خدعة محضة. إذ أنَّ غريبة تشيطنت قليلاً فمرت بأصابعها بين أغصان النبات الذي استجاب بحماس وملأ الهواء بأبخرة عطره.

لكن كل خديعة يمكنها أن تستمر طويلاً عدا خديعة الحبق، وتلك هي مصيبته. إذ أنه لم يعد يستطيع الإستمرار في إشغال المكان بعد أن تجاوزته غريبة. وجاء الآن دور الأزهار الأخرى. حين برز الياسمين. شيخ النبرات الباقيه، والجوري صاحب الألوان الساذجة، وعطرة الشاي، وشقيقتها الخبيزه، ومديدة الجدران المجنونة التي فرضت الصمت على ا لحاضرين بحفيفها الناعم، وطريقة تحركها الخفيف والخضرة الحاسمة التي أفعمت بها الهواء.

كل هذا كان اكتشافاً مبهجاً لشاهين الخليل الذي تحير كيف استطاعت هذه الفتاة أن تكتم براعتها كل هذه المدة. ودون تردد عقد معها حلفاً نباتياً تعاهدا فيه أن يوليا الخضرة، والزهور، حماية مشتركة ماداما حيين.

لكن ثنيه قالت إن المعاهدة لم تكن سوى حلف شيطاني، اكتسب فيه رجل غريب عن آل الفضل فضيلة إحدى المعارف التي يتقنونها مما أغضب فضة التي انتقمت فوراً بالسؤال عما يمثله صالح إذا كان شاهين غريباً؟

حدقت كل منهما في عيني الأخرى. في مقدمة اشتباك قاتل كان يمكنُ أن يخرب جحرهم الضعيف حالاً. ثم تراجعتا معاً وانسحبتا هاربتين بلا غالب ولا مغلوب.

لكنْ هل كانت ثنيه تخشى أشياء أخرى غير افشاء الأسرار القديمة؟ ربما. ولن يستطيع أحد أن يعرف منها ذلك. فالظنون الفظيعة لا تقالُ عادة، ولم تكن تريدُ إحراق الحاضر، كي تنقذ المستقبل. رغم انها رأت بخوارق عقلها وقدرتها، أن الأيام الآتية لم تكن رائعة إلى الحد الذي يدفع الإنسان للدفاع عنها.

اضطرت للسكوت عن الدخان خوفاً من النار، هكذا همست لنفسها، ولم يشاركها أحد من أهلها هذه المخاوف. كانت شكاكة بطبعها، وهذا ما تأكدت منه حين ظلت تنتظر، دون أية حقائق، وقوع خيانة في عائلتها يكون بطلها صالح مثلاً، أو شاهين. وأمضت شهوراً وسنين عديدة، من غير أن يتحقق هذا اليقين الذي أضحى شبيهاً بالأمل. لأنها لا تريدُ الاستسلام أو التراجع.

ما دفعها إلى هذه الشكوك هو شخص شاهين نفسه، فالرجل الذي احتفظ بسيماء المسافرين، كان طاغياً بلباسه النظيف، وحرصه على الوسامة، والعناية بجدائل شعره الخرنوبي، وذقنه الحليقة، وعينيه السوداوين، وزينته ورائحة النباتات التي تفوح منه. كانت له ملامح أمير، وسطوة سيد مطاع. وكان يدرك ذلك بغير شك. فإذا أضافت الى هذه الأخطار (التي تكفي وحدها لجر أية امرأة إلى الفراش) خراقة غريبة، ومزاجها السعيد وحماقة الأزهار التي أغرمت بها. ازداد احساسها بالخطر الماحق الذي يقبلون عليه.

لم يخفف من ذلك سوى تأكيد شاهين الذي ذكر أنه لم يعتد أن يشرب من بئر ثم يرمي حجراً فيه. كان يحدق بعينين مملوءتين بالبرد. حتى أنها صدقته

وأقسمت بأن كل شكوكها كذب وتخريص. ربما أخطأت. ولكن ماذا تفعل بالجنيات اللواتي يحذرنها من الشرور القادمة؟!

كلما فكرت أن تنسى كانت الحقائق تداهمها. فشاهين وغريبه ما انقطعا بعد ذلك عن اللقاء في حظيرة المستنبتات التي راحت تصرخ بالخضرة والالوان الشهية. فتزداد قناعة بأن العدوى وحدها كافية لجعل النباتات تزهر وتتلاقح. شكت بالاخضرار اذن، ولا بدَّ أنَّ غريبة قد سقطت في فخاخ الجمال المنصوبة من ورد. وصار عليها أن تخفي أسرار البكارات المفضوضة بالجملة. وكالمجنونة بدأت تبحث، كلما خلا لها المكان، عن آثار الدم قي ثياب أختها، أو في صفحة الأوراق. وهي مُساقة بإحساس أمومي حاول شاهين الخليل بكل وسيلة أن يبث فيه الطمأنينة.

صار يطلب اليها، كلما أراد زيارة المزرعة، مرافقته، كي لا ينفرد بأختها. فترفض متذرعة بالزكام، والخوف من غبار الأزهار. وراح يرغم فضة على المشاركة في زراعة نباتات لا تهواها. وطفق فيما بعد يصحبُ ابنته وردة معه، وهو يعلم أن عقل ثنيه مخرب بالظنون والشك.

لكنه لم يتراجع، ولم ينسحب، محاولاً بكل لحظة أن يمسح عن قلبها الراجف زيت الخيانات. بينما ظلت تنتحل الأعذار، وتأبى أن تصدق.

سوى أنها احتفظت بأسرار مشاغلها تلك بعيداً عن أخوتها الذين لم يأبهوا لشيء طوال عمرهم، مادامت ثنيه موجودة بينهم. حتى أن شاهين لم يدرك كيف يحدث لأسرة من الفحول أن تقودهم امرأة. وحين تعرف الى الشيخ شمس الدين، وروى له حيرته، قال الشيخ:

«هذه طباع السباع»

ومرة.. بعد الكلام

القتيل الذي اغتالته الرصاصات السبع، أخذ أسراره معه . ومع أن الموت اليومي هنا كان عادة مألوفة سهلة . فإن غموض هذا الموت، وسريته شغل الناس، وأفلت احساسهم الجنائزي بأهميته . فالموت الواضح هين ومريح ولا يضيف الى الحزن والأسى خراب الأسئلة، ولا البحث في الفجيعة، ولاالإحساس بأهمية الحياة، ولا موضوع البقاء وانفلات الرحيل الدائم عن الارض هنا . الموت الواضح حليف السلطة والأسياد . أما غموضه فقد بدا فاتناً مشرعاً على لجاة شاسعة من التكهنات .

هذا ما فكر به حسان، وهو يشرع في قراءة تميمة الموت الغريب . وفي أعماقه ثمة شعور ما خفي بالسعادة . لقد خبأه بعناية، في قوقعة الروح الهالكة . لأن اللقاء بالطلقات السبع بعد الشتات، سقى نبضات قلبه . وامتزجت في وجدانه، وعقله، وأفكاره، ذرية خارقة من الذكريات، وحوادث الحاضر : لقد كان الوحيد الذي عرف هوية الميت .

كان سعيداً سعادة مكتشف، رغم أن الاكتشاف ما كان سوى جثة ذاك الذي أحبه، وأغرم به، في جيله السابق، أكثر من أي كائن في الوجود .

ومنذ الليلة الأولى، بعد أن دفنوه بلا أجر، ودون أن يستطيعوا الاستعلام من أحد عن جثمانه، كان الاحساس برائحة الموت، وطعمه، مختلفين حين داهمهم السؤال المرُّعمن يكون القتيل؟ ومن الذي قتله؟

كان يريدُ أن يقول لهم، أنا اعرفه! إنه هايل الفضل! لكنه كان خائفاً، ولم

ينسَ منظره، وظلت تحيره تلك المرأة التي تخلفت تنظر الى الجثة القتيلة بعينين محتقنتين، وجسد مختلج، دون أن تفوه بحرف. بدا أنها تعرفه أيضاً، ولكنها لا تبوح باسمه، وراحت بعد قليل تنتحب وقد تملكها الضعف، وشبكت ذراعيها حول صدرها. ثم استدارت ومضت مخلفة وراءها رائحة دموع. لكنه الآن يذكر أنها ركبت فرساً بيضاء غاطسة في البياض، ثم نظرت اليه، وكان في عينيها شيء ما مألوف وقريب. ثم غامت الرؤيا، وصارت لا مرئية. وظن أنه عاد إلى يقظة الشهوة التي خلفتها محاسن، حين دسَّت نهديها الساخنين في صدره عمداً. كان للذكرى قوة المرض. فنام في فراشه ثلاثة أيام وهو يهذي. ويذكر أسماء غريبة جعلت أهله يمضون الليل وهم يغطسونه في ماء خابية بارد. رأى شاهين الخليل، وهو يحاول مساعدته بأعشاب محفوظة في كيس من جلد، وقد اختفى شاهين من الحلم في اللحظة التي قدمت له أمه فيها كوباً من حليب الماعز. صار يبغض الحليب (هل تذكّر دلال؟!) محاولاً بجهد حصان إعادة تركيب الأجزاء المكسرة من الذكرى الضائعة.

عبثاً! فقد جاء بضعة رجال بعد يوم، ودخلوا الدار عنوة، ثم راحوا يهددونه، طالبين اليه نسيان ما رأى: «ما شفت شي!» قالوا له، وانصرفوا!

بعد ذلك لم تتركه أمه. راحت تتوسل إليه كي ينسى، وهي تظن (وقد أعماها الذعر) أن الذاكرة شيء ما يشبه القدر، يمكن بحركة بسيطة وضع غطاء النسيان عليها كلما شئنا. لم يخطر ببالها بالطبع أن الوهن الذي أصابه كان سببه الإحساس المستعاد برعد الطلقات القديمة التي اخترقت الجسد السابق لروحه، لا منظر القتيل وحسب.

لكن الأمر الذي لم يفتها هو تكرار اسم محاسن على لسانه الهاذي الذي خلط، في الحلم والمرض، بين الواقع والذكرى. وبين الكوابيس والفراديس. ولم يدرك حجم غلطته التي اقترفها، دون قصد، إلا بعد أيام. حين تعافى وشفي، فجاءت أمه اليه: «ما لقيت غير محاسن الفياض منشان تحبها»

قال: «ما في شي بيننا»

قالت : سمعت كل كلماتك ، لا تكذب!» ثم أمرته أن يستعد للرحيل مع أبيه .

هذه السنة كانت سنة خير . وقد امتلأت باحة الدار باهرامات القمح ، والشعير ، والعدس التي تجمعت هنا بانتظار أن يشحنها أبوه على الجمال إلى ازرع أو إلى خربة غزالة .

وما احتاجت أمه إلى أي جهد كي تقنع أباه باصطحابه معه . كان شيئاً عادياً داخلاً في تقاليد الوراثة . اضافة الى أن الوالد اعتاد أهواء زوجته المتقلبة التي كانت حتى ذلك اليوم ترفض التخلي عن وحيدها الذي فتنت به منذ ولادته . ظن أن طلبها لم يكن أكثر من محاولة للتجربة وحسب ، من امرأة تريدُ حقن الشغف بأشواق اللوعة . وربما كانت زلة حسابات خلت من تذكر المخاطر . أجل ، لأن الطريق إلى المحطة ، أو إلى الخربة كانت موسومة بالمخاطر . وما كانوا يستطيعون المجازفة بالمرور من هناك مرة واحدة دون أسلحة . فقد غدا اختراقها ، منذ سنوات ، عملاً بطولياً يحتاج الى إرادة الرجال ، وحظهم الطيب : فوراء كل منعطف ، أو رقّه ، أو شِعب من شعاب الوادي ، تكمن عصابة من لصوص اللجاة الذن يتجمعون في فرق من شخصين أو ثلاثة أشخاص أو أربعة . يفقسون هناك كالفئران ، كالجنادب . وقد تجاهلت السلطات الاستعمارية وجودهم ، وبدا الأمر فيما بعد كالمعاهده (دون أن يستطيع واحد اثبات اتفاق الفريقين) . فالمناطق التي يسيطر عليها الكسارة لا يقترب الدرك منها . وبالمقابل فإن قطاع الطرق لم يخرجوا من أوكارهم ، وكهوف اختفائهم ليغزوا المدن أو القرى الكبيرة طوال ربع قرن . ولم تكن الحكومة الوطنية التي جاءت بعد ذلك أفضل من هذا الحال .

لم يرفض الأوامر . ووجد بعد أيام من التفكير أنها فرصة طيبة لتحريض الذكريات بالمشاهد القديمة . حتى إذا جاء يوم الرحيل ، قاد وحده عشرة جمال محملة بعُدل القمح . واتجه وراء قافلة أبيه ، في الطريق الرومانية القديمة ، بجوار قناه نامر . كانَ الوالد يفكر أن يذهب جنوباً حتى يستطيع ملاقاة الطريق الجديدة التي

شقها الجيش الفرنسي قرب قصر المطر. ثم يتجه غرباً إلى محطة القطار. لكنه غيَّر رأيه منذ الصباح، وبدا كأنه نسي فكرته، وربما كان السبب هو العادة، أكثر مما هو حسابات المنطق.

كان صباحاً خريفياً. ولم يعرف حسان أين يمضون، حين تكاثرت الجمال وصارت أكثر من خمسة وستين. لكنه كان آمناً على ظهر الدابة التي لا ينافسها أحد. ولم يفهم أشياء كثيرة من تحرك الرجال الغريب: مسلحين رائحين، غادين حوله، وحول الجمال. فمعرفته بالطريق كانت مقتصرة على الروايات التي يحكيها رجالٌ قابعون حول مدافئ الشتاء يتسارون، أو نساء عجائز غطى الغبار أجزاء واسعة من ذاكرتهن، أو أولاد ثرثارون يعتقدون أن كسارة الوعر جنيون بأرجل مقطوعة، وعين واحدة.

ولأن أحداً من حراس القافلة لم يكلمه، اكتفى بالتفرج على الوعر الذي كان ينفث فطوراً جافة، وطحالب قديمة. ولم تقلقه سوى الأصوات الغريبة التي بدأ المكان يمتلئ بها منذ أن جاوزوا المعصرة.

هناك توقفوا. كانوا سيتناولون طعام الإفطار. وقد حيرته المعصرة بضخامتها. ولم تعد له شهية للأكل. بسبب الرغبة الرملية في اكتشاف المدى العظيم لتلك المنشأة البدائية المهدمة: لم يبق فيها من آثار الماضي إلا اقنية التفريغ، وحجر الطحن المستديرُ الهائل الذي لم يستطع أحد في حُمّى نهب الحجارة المنحوته، زحزحته.

وفي الداخل بدت مثل جمجمة محطمة. وقد مضى عليها قرن من الغبار والوحدة، ما حيره بعد ذلك أنه لم يرَ في الوعر الشاسع شجرة زيتون واحدة، ولا نبع ماء. وعندما سأل خزاعي بن مسعود الذي كان يمشي قربه، قاده الرجل في طريق فرعية، ثمَّ دلَّه على جذوع أشجار منخورة، مشقوقة ضائعة في التلال الجرداء. وقال: «العصملي ما ترك شجره. أخذوا كل الخشب ليمشُّوا الترين!» ثم لكزه، وهمس في أذنه:

«لو صرّخت هلق. راح نلاقي نبع مي»

صرخ بالفعل. فتردد الصدى من جهة الشمال. لكنَّ ما وجداه لم يكن سوى بركة مستنقعية خامدة حافلة بالأشنيات والسراخس. أذهلتهما مئات الضفادع التي قفزت إلى الماء مصدرة صوت بقبقة حريري.

«العمى ما ظل غير الضفادع» قال خزاعي في اللحظة التي سمعا فيها طلقات متقطعة ونداء رجال.

في البداية ظنا أن بعض رجال القافلة يصطادون. ولم يفطنا إلى اللصوص إلا عندما رأيا ملثمين اثنين كانا يحاولان اغلاق طريق القافلة من الأمام. بينما انهمك الرجال في صد الهجوم من الخلف.

ما حدث بعد ذلك، لم يستطع تفسيره أحد، ولا أدركوا ماهيته. وقد اضطر حسان بضغط من والديه أن يكتم السر الذي سيبوح به لهما بعد هذه الساعات. لأنه لم يعد قادراً على احتمال بحر الذكريات الذي أغرق شواطئ أمانه:

كان خزاعي ما يزال يتسلق المنحدر الصخري، حين وجدا نفسيهما مواجهين تماماً مسيرة اللصين الملتفين بلا حذر. ووجد الأربعة طريقهم في وضع اليائس. أما الأفضلية الوحيدة التي امتلكها حسان، فقد استغلها بلا تردد. فالملثمين كانا متجندين بالبنادق حول كتفيهما، وكانت بارودة خزاعي في يده.

هكذا تذكر أنه يُتْقِنُ إصابة الإبرة، وأنه رأى العيون الأربعة التي حَدَّقت بهما من وراء اللثام الف مرة قبل ذلك. وكالذئب أجرى حساباً جغرافياً سريعاً قَدَّر فيه المسافة الفاصلة بينهما وبين الرجلين اللذين تجمدا. وشعر أن قرناً مضى قبل أن ينتزع البندقية من يد خزاعي، ويطلق أول رصاصة أصابت الملثم الطويل (الذي اكتفى بالدهشة) في جبينه.

أما الثاني فقد تكفلت به الصخور. أصابته الطلقة الأخرى في كتفه وهو يحاول انتزاع البارودة التي أعاقته. وبينما كانت تلك رفيقة أمان، أضحت الآن عصابة موت غاشمة. تعثر بها، وسقط الى الوراء، وارتطم رأسه بالصخور.

فمات دون أن تصدر عنه نأمة أو كلمة، حتى أنهما اعتقدا أنه نام، أو أنه يتحايل كثعلب!

لكنهما، حين أفاقا من حماقة اللحظة، ورعبها، وزحفا معاً الى الجثمان الراقد في أعلى الرابية. اكتشفا أن الثاني يتدلى من رجليه في شق صخري، وقد تهشم كبطيخة.

بعد دقائق لم يصدق أبوه حكاية خزاعي. وظنَّ أنَّ الرجل يسخر من الفتى محاولاً مواراة الهلع الذي تسبب به قاطعو الطريق، فقال هذا دون أن يرف له جفن:

«بعمري ما كنت مضطر ساوي ابنك بطل»

تبدلت سحنة الأب، بدا مأخوذاً، وهو يتأمل فتاه الضامر الذي وصفَ الآن بالبطولة. وخالجه احساس بالخطر. ولم يفرح بالرواية التي استمع اليها. وإنما اكتسحته كواكب ظنون حالكة، وارتجف قلبه. فحاول أن يرد الحقائق إلى المصادفات وحدها. ولو لم يكن الرجل الذي يحدثه هو خزاعي بن مسعود نفسه، فإن الحادثة برمتها كان يمكن أن ترمى في المزابل. فهذا الولد المحو الذي لا يعرف من البواريد والبنادق سوى شكلها. لا يمكن أن يواجه ملثمين مجربين بمثل هذا الجنون. إلا إذا كان يحمل في داخله قوة الأنبياء!

حسان وحده ظل صامتاً. يترقب أباه، والرجال الذين انطووا داخل اجسادهم تحت وطأة الأسئلة. خبأ سره في أدغال قلبه، وضمَّ عليه لحمه وعظامه ودمه. حتى وصلوا إلى البيت عائدين بعد غيبة سبعة أيام، حاول أن يفرَّ من وجه أبيه، ولكن ذاك تقدم منه سائلاً عن مغزى ما حدث، وأين تعلم اطلاق الرصاص، فقال بصوت مخنوق، استطاع انتزاعه من برد عظامه:

«يا با... أنا كامل الفضل»

لم تكن تلك أول مرة يسمعون فيها الرصاص، فقد اعتادوا سماع مثلها

داخل المنطقة، و في تخومها، أو في المتاهات الشائهة للجاة، حين كانت تمتلئ بالكسَّارة الذين يأتون من المجهول، في الليالي السوداء: بغتة يزخرُ الوعر بهم، ذئاب طائرة، وخيول مجنونة. تندفع بهم نحو القرية التي تكون قد ارتاحت إلى لفاع آمان، ما حصلت عليه إلا بمشقة وجهد. تغدو الصخور عدوة مكروهة من أهلها، وهي تفتح فاها، وتخرجُ كلَّ هؤلاء الغزاة القساة المعبئين بالشر.

يندفعون على ظهور خيولهم، عبر أخاديد الطرقات الضيقة، ومسايل الوديان، والجداول، مصعّدين في السماء الدامسة صراخهم الذي كالعواء، وصخبهم، وقعقعة أسلحتهم القاتلة، ومشاهد تخريبهم الذي لا يتوقف. وزارعين خمائر موت، وحطام. تظل تحيِّر أهل القرية زمناً طويلاً: كيف أمكن لغرباء ملثمين، يغطي حركتهم ليلٌ حالك، تخريب كل هذه العمائر والأبراج الفردوسية؟!

سؤال محيِّر، يقبعون في ظله أياماً وشهوراً، ينقبون اللجاة شبراً شبراً، بحثاً عن اللصوص، أو ينتظرون آخرين منهم، سوف تخرجهم اللجاة ذات يوم ليسرقوا، ويملؤوا المكان بالطلقات ثم يهربون.

لم تكن تلك أول مرة، وقد سمعها منذ أيام فقط. حين عادت زهر البان بنت تركي إلى البلدة، وقتلوا هنا الذيب الأعرج!

كانت قد قطعت مسافة أربعة أيام مَشياً على قدميها، لاجئة من قرية إلى قرية، فراراً من جنون الذيب. وقد رفض جميع زعماء القرى والعشائر حمايتها.

في البداية، هيّجها رفضهم، ودمرَّ ضميرها المضطرب تخليهم النذل عن بذل النخوة. لكنَّها حيْن وصلت الى بيت حمود العطا الله، عرفت كلَّ شيء: فالرجل الذي كانوا يلقبونه بالحصان، قال لها وهو مطأطئ الرأس إنه عاجز تماماً عن مواجهة الذيب الأعرج. استيقظت من غفلتها على كلماته: كيف فاتها أن تدرك سطوة زوجها الصخرية المهلكة، وهي التي عاشرته، وعرفت عنه ما عرفت؟!

عندها لم يبق أمامها سوى أهلها، فجاءت إلى هنا ذات صباح، ممزقة، هالكة، وقد خبا نور وجهها، وانغرزت في جسدها أشواك، ورؤوس حصى، ممتلئة بالرعب، مشعثة الشعر، يبللها عرق ساخن وتراب، ونعاس شهور طويلة. وشهوة لنوم استمرَّ يومين. حتى استيقظت كي ترى أهلها محيطين بها، بوجوههم الراجفة، وعيونهم الممتلئة بالشكوك والأسئلة، واجمين متقدين، يحرقهم الهلع من فضيحة ما، أو عار. لكنها ذكرتهم بأنها ابنتهم، «ولا تخشوا شيئاً! لا تخافوا!» ثم روت حكايتها:

فجأة انتابت الذيب حمى ايمانٍ عجيبة، كان من قبل خاوياً من كل صلة بالله أو الأنبياء. ولم يعرف الطريق اليهما قط، ولم يجرؤ أحد من رجال الدين على دق بابه، أو ايصال صدى دعوة مهما كانت خجولة لتقديم خدمة ما للخالق. إلى أن انقلب بغتة في طقس صارخ للضراعة والتذلل أمام سعة السماء وجبروت الله. شيء ما يشبه عشق الضواري، ملأه بالهذيان، والإندفاع إلى نسكٍ مباغت أقعده عن الخروج من البيت. توقف عن الغزو أيضاً، وأمسك عن مشاركة رفاقه في الحملات الليلية. صارت حياته ثمرة أكلتها العفونة، والتهمها الدود كما قال لزهر البان. تمدد كالضريح في الحجرة الشمالية المعتمة، واستسلم، كابن آوى، للموت الذي صار يحسُّ أنه يقترب منه.

لم يأتِ. واستمر الذيب في انتظاره، إلى أن ادعى أن وحياً قد بلّغه بتأجيل ساعته. لكن زَهر تمنت لو مات فعلاً. وقد شكت إلى الله ملاكه القابض للأرواح فيما بعد، حين فاجأها الذيب بما يشبه الحشرجة. يطلب اليها مؤاخاته. كانت شفتاه قد رقتا، واشتعلت عيناه بجذوة ظنتها جذوة ملائكية. واستهلكته الصلوات التي ظل يجمجم بها طوال شهرين. قال: إن الحياة ليست هنا، هي هناك بانتظاره. وسوف يصل اليها طاهراً نقياً مضيئاً.

تمنت لو بصقت في وجهه. «هل صرتُ نجسة يالعين؟!» همست لنفسها وهي تكافح غثياناً غاشماً فاجأها. لكنها وافقت: «ليكن ما تريد يا حسن!»

أعلما سايس البلد، فقال: «عسى أن تكون إرادة الله» وانفصلا تماماً. رحل هو إلى مضافته، وظلت هي في الغرفة السفلى. تقاسما الأثاث، والأوعية، وأدوات الاستعمال اليومية. ولم تعد تجمعهما سوى أوقات الغداء. كانا يتعشيان كلٌ وحده. وصارت تتحاشى أن يرى لحمها، ولم يكن أقل منها حشمة. إذ راح يشيحُ بوجهه عنها كلما تقابلا. وهي تهمسُ في حقد أكرهتها روحها عليه: «يا نذل!»

لم يطل حلفه مع الله، فقد أتعسته الأنغام الحزينة الكابية لآياته. تلاشت طاقة الإيمان العنيفة التي اجتاحته كالسيل، وصارت آفة ضحلة، أمكنه تحطيمها بيسر.

صار يضعف أمام الغوايات التي يشغله بها الجسد، وحين أحس أنَّه ينزلق في رحلة سقوط، نقم على زهر البان. وخامره يقين بأنَّها الشيطان نفسه. لكنَّه حين فاجأها في إحدى الليالي وهي تستحم عارية، اجتاحه فوحُ الماء الساخن، ولون الجسد القمري، فانقض عليها، . وبدأ يضرع: «من شان الله نامي معي!»

رفسته في دغل لحيته بلا تردد، وارتدت ثيابها، ثم هددته بملقط النار. فتركها تلك الليلة. لكنه ظل طوال الليل قلقاً، تنتابه كوابيس جنسية لاهبة. وفي الصباح خلع جبته، ولفَّته، وحلق لحيته، ثم حطَّم صور الرسل والحدود، ومضى إلى أصحابه الذين استقبلوه كالمجانين.

غابوا خمسة أيام. ويومَ عرفت ما فعلوه كل ذلك الوقت قالت: «ويل الناس من الذيب» لكنها نسيت نفسها، فقد دفش الذيب الباب بعنف قاتل في منتصف الليل! كان مخموراً يتقيأ غُلمةً. فتمتمت: «استحي يا حسن!» قال بلهجة داعرة: «بس هذي مشيئة الله!». كانت العتمة تخفي وجهه الحليق عنها. ولو رأته، كما خمنت في الصباح، لاستسلمت له حتماً. فقد ملأته شهور التبتل والعبادة وجداً وشبقاً. لكنها رفضته. قالت: «سأخصيك وأقتل نفسي يا ذيب!»

تركها. لا بسبب ضعفه. بل بسبب قوتها، وعنادها الذي كعناد فرس. بكت

حين غادرها . كانت تشتهيه ، وتحبه ، وأوشكت بعد الحرمان الطويل على الذوبان :

في الأيام الأولى ، كانت تحتضن وسادة ، أو تحلم به ، ثمَّ راحت تخمدُ وتتلاشى ، وتغيب في الزمان المتراكم .

حتى إذا جاء الليل ، خشيت من بركانها الذي سينفجر لم تستطع احتمال الفضيحة التي بدا مهيئاً لها . فقد طار خبرهما في الجبل كله ، وادعى كثيرون أنَّ الكسّار المقاتل قد يتحول إلى ولي صالح في بضعة شهور . وحين ارتد ، أدركت أنها الوحيدة التي ستدفع الثمن .

تكررت محاولاته ، وتكرر صدّها ، وفي كل ليلة كانت تسمع ضجيج عظامه ، وهو يخبط جسده بالحيطان ، والأبواب . ثم تصلها فيما بعد أخبار غزواته ، حتى أدركت أنها تجاوزت كل حد ، أيقنت أنه لن يطيق بعدها أكثر . لن يغتصبها ، لكنه سيقتلها حتماً (ربما أخطأت لأن الذيب ، كما عرفت فيما بعد ، كان ممتلئاً بحبها والشوق اليها) .

تأملت زوجها من خصاص النافذة ذات يوم ، وتمنت لو ترتمي عليه ، وتقول : «خذني !» لكنها بدل ذلك ودعت بيتها في الصباح التالي وهي تهمس : «لا حبك ياذيب ، ولا ذلي !»

«أنا بنتكم» قالت لأهلها ، وقد أرضتهم الرواية ، وبعث الشيخ علي إلى الذيب يقول : «خذ أي بنت من بناتنا ! وطلق زهر البان !» والذيب يقول : «لا !»

جاء بعد في منتصف الليل ، في الساعات التي ينتظرون الكسارة فيها . ترك حصانه في ممر النسور ، ثم ترصد القرية قليلاً ، ولم يلاحظ ما يريبه ورغم أنه سمع عواء ، وصفيراً ، فقد قام ، ودار دورة كاملة حتى صارت دار زهر أمامه . سار نحوها قدماً يخبُّ ويدمدم كالضبع ، وفي اللحظة التي انحدر فيها من التل الصخري ، صرخ به صوت راعد : «وش الزول؟ !»

فردَّ بقوة ، وبلا أي ارتجافة :

«الذيب الأعرج!»

عندها خيطوه بالرصاص!

الآن فقط تذكر كيف عرف الذيب.

ما لن ينساه هو بزوغ القمر تلك اللحظات القاطعة التي أعانته على تمييز الجناد الأسود الذي يتمنطق به: صف طويلٌ ممتلئ بالرصاص في جيوب قرمزية غامقة ومخيطة الى جلد لامع.

وهو الهارب الذي عرف (منذ أن ثأر لأبيه من صالح عرفان) أنه انما كان يقتل طمأنينته. أحس بالرعب من منظر الذيب الأعرج وسط الوعر، مرة، وبالأمان مرة أخرى. لأن جاذبية الرجل كانت أكبر من أن يقاومها شاب فزعان يحتمي بالصخور. فالذيب كان يحوّل كل من يراه إلى عاشق له، نظراته تنصب على العينين والوجه مباشرة، وابتسامته تُعلن الصداقة. وصبره لا يجارى، وكل ما فيه ناتئ جهير متحفز كالهر وبارع كالشيطان.

يمكنه أن يقول أنّه اكتشفه اكتشافاً، وربما كان ينتظره منذ سني الفتوة. كان حلمه، مثاله الوحشي الغريب الشارد، قوة العاصفة المجنونة التي تدمر كلّ ما في طريقها.

هكذا عرفه دائماً، وهذه هي الصورة التي انبثقت الآن، في سيل الذكريات، رطبة، قريبة، واضحة.

العجيب أن الذيب كان يرتدي الجناد الأسود ذاته حين رآه مقتولاً قبل أيام (لكن عينيه كانتا قد فقدتا تلك النظرة الحريرية المليئة بالدهاء، وكان مفرقاه مبيضين، وحلقه متيبس جاف ملأته التجاعيد) ولهذا السبب لم يذكره، ولم يحدث موته صدمة تعيدُ له ذاكرته. تمنى الآن لو استطاع أن يعرفه في هذا الجيل، وأن يقول له إنه نجا من الشيخوخة الخرفة التي أودت به (تذكر كيف أمضيا معاً سنين طويلة يزرعان السهوب، وسفوح الجبال فشكاً وقتلى. يذكر أن الذيب بدأ يزهدُ في كل

شيء سريعاً، ويمسه الجن حين يسمع صراخ امرأة، أو استغاثة بنت، إذا ما سطو على أحد المنازل.

الآن، يسأل ماذا كان بوسعهما أن يفعلا غير ذلك؟ وماذا يختاران إذا كان كل منهما يواجه أحد المصيرين: قاتل أو مقتول، فلم تخطر ببالهما هذه الأسئلة في ذلك الزمن. وإنما كانا يمشيان مسيرين بقوة القدر، والرغبة بالبقاء، لم يسألا، فالوقت ما كان يسمح لكامل أو للذيب بهذا الترف المخملي. ولا يتذكر أنّه توقف مرة واحدة بعد ثأره وانضمامه الى جماعة الذيب ليجيب عن مشاغل الأفكار. كان قريباً من الصخور، بعيداً عن الغيم، حتى أن مشاكل الذيب التي سمع عنها في هذا الزمن (وكان ذاك يهجسُ بها من قبل) بدت له احتراقات لا دفء فيها وقد أودت المقادير الخالدة بالذيب إلى سلة الموت الفارغة عقاباً له على ارتجافات التردد الحمقاء.

يذكر أنه رفض طوال عمره اعتلاء صهوة حصان، كان يزحف مثل قطيع من الكواسر، على قائمتين كقائمتي دب، حاملاً أحقاده، وضغائنه، وموت ضحاياه. ولا بدّ أنه كان يحمل موته أيضاً. أدرك كامل ذلك من زهده ومن صمته المتوحش، ومن برجه الخلبي الذي تنبأت به أم الأكارم ذات ليله، في الرمل والوَدَعْ.

يذكر أنَّ البنادق صارت أنيسة، حينما هيمنت عليه حمى الصيد، وكان يجرب واحدة جديدة، كلَّ مرة. وفي ليلة الذئاب العظيمة كانت الالمانية رفيقته البارعة. وعاد بالجلود إلى صالح الحراني، خبير دباغتها الذي كان يصنع منها تعاليق زاخرة بالخطوط الرمادية.

لكن الرصاص الذي يشفي جراح الروح المنتقمة، يملأ القلب بالصدأ أيضاً. أدرك ذلك حين راحت أخواته يروين له في كل مرة يعود، عن خوفهن، وهلعهن من أولئك الغزاة الليليين الذين كانوا يقتحمون المنارة، وينهبون أهلها.

لكنهن كنَّ أكثر تعلقاً بالبنادق. رغم أنهن لا يُجدْنَ استعمالها. وقد عرفت ثنيه وهي تطلب اليه أن يدرب إخوته، أن تلك الحدائد الفتاكه هي الوحيدة التي

يمكن أن تضمن لهم مساحة آمنة من الأرض، وسط عالم أبله مولع بالموت، والتقتيل. رصدته، وقلبته، وحاولت أن تفهمه. لكن دون جدوى!

وحين شرحت له ذلك كله، لم يغادر الدار بعد ذلك. كان احساسه واضحاً وصريحاً. فهو أحد صناع ذلك العالم. وهناك في مكان ما، في بيت ما، تقف أخت، أو امرأة، أو أم، وتقول لكسّارها: «خليك! معش تروح!» وكان بوده أن يهمس لثنيه قائلاً: «سامحيني» لكنَّ الكلمة علقت في الحنجرة، ورفضت أن تظهر، أو أن تقال.

* * *

سمع أيضاً ما هو أعظم. تلك كانت قنابل المدافع الفرنسية المنصوبة على بعد خمسة كيلو مترات، في قصر المطر، حين أخذوا يقصفون المنطقة كل حين، محاولين إرهاب الوعر، والصخور العظيمة التي جعلت من نفسها حصناً يقي أهلها الأخطار. حاول الفرنسيون ألف مرة اختراق المنطقة، غير أنهم فشلوا.

قبل ذلك، روى لهم بعض سكان السهول الذين قدموا لهم خدمات ما لقاء أجور عالية، حكايات عن الجن الذي يحكمُ المكان، ويحفر فيه متاهة تُضيع رغبة الساطين عليهم. وقد صدقوا ذلك حيث كان الجنرال يحمل معه كتاب القائد سيف، ماريشال جيش ابراهيم باشا. هناك كان ذلك يقول: «لقد هزمني أولئك السحرة» وهو يصفُ جنونهم الأصفر، ومغامراتهم، واندفاعهم المميت.

اكتفوا دائماً بالبقاء في قصر المطر، يقصفون القرى بقنابلهم محولينها إلى أشلاء ممزقة في الشعاب، والتلال. لكن أهلها كانوا يظهرون فجأة، ثمَّ يختفون مثلما ظهروا! أين يذهبون؟ كانت المراقبة الحذرة بلا جدوى. وظل اختفاء ساكني الصخور سراً مبهماً لا يفهمه أحد. وعندها تجرأ كابتن فرنسي مغامر اسمه: ريشار، على الولوج إلى المكان:

أذهلتهم المرتفعات الصخرية. وقال أحد الضباط، وهو يتأمل أضلاع

الحجارة الهائلة المرتفعة نحو السماء، مثل الأعمدة: «هذه أول قلعة بناها الله على الأرض». كان هذا الضابط، هو الوحيد الذي نجا من المذبحة، ليكتب عن قلعة الله هذه.

توغلت الحملة في المكان. تشدها اليه قوة شيطانية خفية. ثلاثة أو أربعة من الجنود السنغال أدركهم الهلع والذعر، فراحوا يتوسلون لقائدهم كي يعودوا من الشعاب، والصخور الناتئة كالحراب. ومن الشقوق المغبرة التي تعلوها هامات عظيمة لحجارة بركانية ساخنة، وأخاديد تتقاطع، وتتداخل في تكوين يلتهم العقل. عاقبهم الكابتن، وساقهم وراء الحملة قسراً. وقد شجعه على التقدم أنَّ القريتين اللتين مرَّ بهما كانتا خاليتين من أي أثر لبني البشر. لقد تهدمتا. وانهارت حجارة البيوت فيهما. كأنما صعقتها فجأة يدٌ عملاقة. زاد هذا في بهاء المكان. رغم أنَّهم كانوا يعرفون أثر قنابلهم.

خالجه الخوف قليلاً، وهو يحسب كل دقيقة تمرُّ في الخرائب والوهاد التي يخطو فيها. أذعره أكثر رؤية جثث الحيوانات النافقه، والطيور المذبوحة، وعظام الوحوش المتكلسة، لكنه واصل التقدم وقد عزم على انهاء مهمته التي كُلف بها مهما كان الثمن. حاول مراراً حساب ذلك. أبداً لم يحزر، وأبداً لم يفكر أنه سيكون دمه، أو أنه سيكون أول هدف تُوجَّه إليه البنادق.

حدث ذلك عند مشرق الشمس، في اللحظة التي خرج فيها من خيمته، تمطى وتثاءبَ وراء الحرس المنتصب، ثم انتبه أنه يرى رؤوساً ملثمة جهمة تحدّقُ فيه من وراء البازلت المتوهج.

لقد عرفهم، رآهم في الشهادات البائسة لجنود ميشو، وفي ذكريات سيف، ودموع العائدين من حروبهم ألف مرة: وحوش، متلفعين مصنوعين من السواد فقط، يطوفون كالشهب في بحار من الوعور العذراء، وهم يزرعون الرعب في قلوب أعدائهم، يحمي ظهورهم البركان القديم الذي أيقن كل إنسان أنه خلق لأجلهم.

لم يستطع نطق حرف واحد، والحركة الخرقاء الوحيدة التي قام بها، أفضت به الى الموت. إذ انتزع بارودة حارسه، وصوبها نحو لا شيء فاخترقت جسده (الذي بدأ يرقصُ محموماً، ويقفز كالمجنون) عشرات الطلقات، ثم انهالت الرصاصات على المعسكر بكامله.

الذين فروا من الخيام، نحو الممرات الصخرية، أو التجؤوا الى اللافات البركانية، لاقتهم السيوف والخناجر، وقد ذبحوا كالنعاج وتركوا هناك بلا قبور، كأنما الذين قتلوا ما كانوا بشراً، بل كانوا جناً نفَّذَ مهمته، ثم تلاشى في الخفاء.

نجا ضابطٌ واحد، لم يرَ شيئاً من القتل، فقد سمع الرصاص وهو مختف تحت إحدى الصخور، يقضي حاجته. كان مريضاً. وأهلكته أمعاؤه طوال الليل. فالتجأ الى المتاهات، حيثُ أفرغ حُمَّاه. وهناك نجا. وظل أربعة أيام يزحفُ متراجعاً، حتى استطاع الخروج ناحلاً شاحباً كشبح. صلى لربه، ويمم وجهه شطر القصر. ليكتب في السنوات التي بقيت له قصة تلك المجازفة، وحكاية هذا المكان.

فيما بعد. حين جاء المفوض السامي هنري بونسو لزيارة إحدى القرى أدهشته أبواب الحجارة البازلتيه الهائلة التي يسمونها «حلس» وقد عجزت مدافعه عن زحزحتها شعرة واحدة. فيما توقف صبي صغير أمام أحدها. بال بهدوء، ثم دفعه بأصابع يده الرقيقة، فانفتح بوقار جبل، مصراً صريراً شحيحاً غامضاً بعث الرعب في قلبه. فسأل بلا حذر: «هل قال: افتح يا سمسم؟!

لحظتها، عرضوا أمامه قوة الانسان، فالبابُ الضخم يغلق من الداخل فقط، بحجر صغير حاد كسكين في أحد وجهيه، وغليظ كالمقبض في وجهه الآخر:

«هذا الحجر واجه مدافعك يا مستشار!!»

دمدم رجل أسمر طويل القامة، دون أن يعرف رتبة محدثة.

* * *

(٢٤)

انهار المقلع فجأة، مضيعاً تعب أربعة أشهر، وثلاثة حنوت ضخمة، وربداً جميلاً نحته كامل، وأخشاب عدة الشغل التي كانت هناك كلها. هناك أيضاً بدأت حرب شامل ونايل. كلاهما أراد الذهاب الى المنارة لشراء عدد أخرى، وكلاهما لم يقدم أي سبب يفسر حماسه، واندفاعه إلا برغبته في التضحية بنفسه، إذا تطلب الأمر ذلك، بدل اخوته.

كانا مضحكين. وبدت ذرائعهما رثة وفاسقة، وقد فشلت جميع المخاطر التي رسمها لهما كامل، وشاهين، وصالح الحراني في اقناعهما. كان شيء ما يشبه الشوق يغطي عينيهما، ويشعل بارود الرغبات، مثل جرح فاغر ينزف، مثل نافذة مشرعة على سفر رحب، لا غور له.

شامل، لم يعد يستطيع الصبر بعد نفاذ ما لديه من النبيذ. وكان راغباً في اختبار المحصول الجديد الذي جاء به البيطار. وقد أغراه حنا أيضاً بقنينة عرق أحضرها من السويداء، وجاء بها إلى أم الجرابيع. شرباها مبردة بماء الفخار. كانت المرة الأولى التي يشربُ فيها شامل عرقاً، وكان مشغولاً بيد خمار ماهر رفض حنا افشاء اسمه، مستفيداً من عجز شامل عن الخروج من أسوار الحصن الذي آووا إليه، ومن قلة خبرته. لكن رفضه لم يدم طويلاً، فالخمر كانت تجعله ليناً كالريحان، وثرثاراً فاجراً مثل هر، فلم يستطع الصمود أكثر من ساعة، تراخى بعدها، ووشى بخمّاره الأثير مقدماً جميع التفاصيل والبيانات التي تجعل أمر ايجاده في غاية اليسر.

كان أرمنياً وصل إلى المدينة منذ أشهر فقط. اسمه بطرس وقد فتح خمارة هناك. وراح يصفي العرق من عنب الجبل الذي اكتشف أنه مخلوق لأجل ذلك، كما قال.

أغراه حنا أيضاً بالذهاب إلى هناك. قال إنهما سيتسللان من وراء رُقَّة المطر، ويذهبان بعيداً إلى الجنوب. ثم يخرجان من هناك إلى السويداء. واتفقا أن يأخذ شامل فرس أخيه البيضاء. ويلبس جبة شاهين الحمراء، وحطة صالح السوداء، ويتقلد سيفاً وطبنجة، ثم يحلق لحيته اللعينة تلك، بينما يرتدي حنا لباس مدينة، ويأخذ فرساً سوداء فرحاً بالرحلة المتخيلة، وسُرًّا معاً وهما يرسمان ويحكيان القصص والكلمات ويتخيلان المكان الذي سيذهبان اليه، ونوعَ الطعام الذي سيأكلانه، حتى سكرا، وراحا يغنيان معاً في الأسوار الشمالية للخرائب، تحت شجرة بطم كبيرة ثم بكيا، وبدأ شامل يشرق بدموعه، نادباً هذه اللعنات.

بعد هذا لم يكف عن التفكير في سبب يقنع أهله بضرورة ذهابه إلى القرية، وأضحى هاجس الذهاب إلى المدينة يسمُ جميع تصرفاته. فقلَّ حذره، وهيمنت عليه حالة وجد توجته بمزيج من الضعف والرقة وانعدام الروية.

لكن نايل الذي عرف نصف فكرة شامل، أفضى لاخوته بالسر كله، وأضفى على الحكاية أردية إرهاب، وخوف، لهذا رفضوا جميعهم السماح له بزيارة المنارة أو شراء أي شيء منها.

نايل أيضاً كاد يخسر حين راح شامل يهتف بكل قواه: «بدو يروح لعند هيلا!» لكن الأخ الجريح، أظهر بروداً قاتلاً في الإنكار، وأبدى عجبه من رواية أخيه المشبعة بالنميمة والكذب. ثم أبدى ضعفاً آخر تجاه عدوه كنج، وقال إنَّه نسي ثأره أيضاً. وأن التجربة علمته الحذر والحكمة. ثم راح يستدرُ عطفهم، وشفقتهم، في الوقت الذي كان فيه تعلم النحت بيده الوحيدة، والتصويب بالبندقية القصيرة، ومهارة ركوب الخيل.

ثنيه وحدها لم تصدقه. ولكنّ شفقتها عليه كانت أعظم من مخاوفها. وطلبت إلى شاهين أن يذهب معه، فقال:

«أني رايح من غير ما تطلبي مني يا أم قاسم»

سرها الجواب، وسرها الخطاب المحمل بآيات احترام جديدة، في الكنية التي كنّاها بها. فقالت محاولة أن ترد الجميل الكريم:

«طول عمرك قد كل غانم يا بو حمد!»

وتبادلا نظرات حديدية عميقة. أحسنا فيها التفاهم والمودة. وهكذا استطاع نايل الوصول إلى هيلا: مضى في العشاء إلى الدار، تسلل اليها من الخويخة الصغيرة وراء صيرة الحلال. وزحف زحفاً حتى صار مطلاً على حوش الدار الأمامي. وهناك راح ينتظر بصبر ذئب حلول مسائه الممجد، راقداً فوق السطوح المليئة بالأعشاب.

اشتهى الآن أن يقفز إلى هناك مثلما كان يفعل من قبل. وأن يجري في الغرف كلها، ويتلمس حيطانها واحدة واحدة، ملاحقاً رائحة الأهل والأب والأجداد الأقدمين. وأن يمضي إلى المضافة، ويتمدد فوق تلك الطواطي العريضة فاتحاً ذراعيه، ومفرشخاً فخذيه على وسعهما، ومتنفساً بعمق هواء الطين المكلّس ببياض ناصع.

لم يستطع الحركة، ظلت الدار مضاءة، وقد أغفى قليلاً على السطوح. ثم استيقظ عند منتصف الليل. شمّ فجأة رائحة الحمار، واعتقد أنّ العشب، والليل الدافئ، قد أفسدا حاسته. ولكن المفاجأة كان كبيرة حين لاحظ من مكمنه أن حامد كان مستيقظاً، واقفاً قرب البوابة الاولى المفضية إلى دار قاسم الفضل، بعين عقاب.

تسلل عبر التبان، ثم نزل من الروزنة التي نَبَشَها ببطء، ومرق إلى الدهليز الطويل السري الذي أيقن أن سكان الدار الجدد لم يروه بعد. مشى حذراً، متمهلاً

حتى استطاع الوصول إلى باب التبان الخارجي. ومن هناك حاول فتح الباب. ظل أكثر من ساعة وهو يدفش الجسم الخشبي محاولاً أن يمنع المفاصل من الصرير، ولاحظ بعد ذلك أن الحمار صار بعيداً عنه، كان يبدو ناقماً مكفهراً، يجلس متكئاً إلى بندقية قصيرة كالقط.

لم يكن نايل يعلم أنباء القرية، فقد أوصل الجواسيس إلى كنج خبر وصوله، ودلّه بعضهم على السمت الذي اتخذه حين اتجه إلى الدار القديمة فأرسل كنج إلى حامد طالباً اليه قتله. قال ضامن: «لا تتركه يعود أبداً والبيك بدو جثته بس!» ثم أضاف: «لا ترجع عَ المربعات إذا ما قتلته!»

كان كنج يعتقد أن الشخص الوحيد الذي يصلح لقتل نايل هو حامد فقط. وقد أضحى قراره بإيواء الرجل في دار الفضل شفيعاً قوياً لآرائه وأمانيه وعندما سربت أم يعقوب اليه نتاتيف من العلاقة بين هيلا ونايل، قرر أن يهدي ذلك الخبر إلى حامد، بعد عودته ظافراً بالدم.

حامد لم يرنَايل طوال الليل. ولكن شعوره بأنه يسمع أنفاساً ما في الدار، جعله يقظاً، وقد جاس أرجاء الدار بضع مرات، حين اقترب نايل من مكمنه، وراح يفتش عن ذلك الصوت الغريب لرجل مضمخ بالمواعيد هذا ما عرفه جيداً. بقدرته الحيوانية التي ما خدعته يوماً. لكن الحسابات هي ما ضيع مقصده. فقد اعتقد أن ما يسمعه لم يكن سوى مكيدة دبرها ضامن، أو كنج، ليجعلاه شركاً طوال الليل، مثل شراك الثعالب وحيداً مدفوناً.

الغريب أن نايل وجد هذا مسلياً، وقد اعتمد على ذاكرته وحدها للتسلل إلى الغرف في غفلة من ترصّد حامد المرتاح إلى خديعة عقله الذي هداه إلى أن غريمه لن يأتي إلا عبر البوابة.

مشى كالعصفور، وفتش الغرفة واحدة واحدة، حتى عرف أين تنام هيلا، كانت تنتظره هناك، عارية، متمددة، تتنفس فجوراً، وحباً، وبرداً سببه الانشغال المروع بقدومه، والخوف عليه من رصاصات حامد.

لكن غياب زوجها، ووجوده في المكان الخطأ، أشعلا فيها نعومة اللؤلؤ على تخوم آخر الليل. فاحتفلا باللقاء الجديد الذي لم يكرراه منذ أيام الضباب: نايل الذي ابتهج لاختفاء الرائحة النتنة من جسد جبيبته (وقد اغتسلت لاجله بمنقوع الحلاب الذي وصفته لها سمرة حين علمت بوجود الرجل في الديار) وهيلا التي استننت كثيراً طوال أشهر مجيء هذه اللحظات المشّعة.

لم يستخدما الكلمات سوى مرة واحدة، حين شهقت هيلا، وهي تمسك الذراع المقطوع وبكت، وهي تقول: «ريتني أني عنك»، ثم تعانقا، فالعناق أولى. وتمسكت به بكلف أخرق كاد يخنقه. ثم راحت تتمتمُ بشوقها. وكان دائماً كلاماً غامضاً خفياً التمسته من الجوى الذي أحرق عودها في جحيم البعد المرير.

أبعدته عنها قليلاً كي ترى وجهه، وحاولت في العتمة أن تسبر غور الرجل الذي تحتفل بحضوره الربيعي الشفاف. وحين انتبها الى أن حامد لم يعد هناك، لم تتوقف عن الكلام طوال الوقت الذي أمضياه معاً: بدأت من الساعات المسحورة التي أعقبت ذهابه قبل عشرة أشهر، ثم انطلقت في دروب الأيام السوداء السحيقة، حين كانت تتشقق عطشى، وتمضي ببصرها إلى قلعة الموت الغامضة هناك في أم الجرابيع.

كانت تحكي بذاكرة مكروبة ساخطة. حفظت كلَّ التفاصيل كأنها لم تكن تفعل في شهور الفراق سوى تسجيل الحوادث لأجله، فلم تحك عن شيء ولم تذكر أشخاصاً لا يعنونه، ولا تركت يوماً واحداً يفلتُ منها، ونايل يستمع اليها كالذبيح. لأن أولئك البشر كانوا شيعته، وتلك الحوادث كانت جزءاً من فتوحاته. وكلما شعَّ حزناً كانت تزداد فخامة. حتى جرجرته في الأزقة القديمة لموطنه المفقود، وصورت له شهور الغياب يوماً يوماً. من الذي جاء، ومن رحل، وكيف امتلأت البلد بعد رحيلهم بأنفاس كنج. كأن الهواءتشبَّع به، واتخمت البيوت بآيات حمده، ومديحه. وفي هذه الضلالات ظنت أنها لن تراه، فقد اختفى آل الفضل حتى من فناجين القهوه، ولكن الدار وحدها، التي قبلت أن تقطن فيها، كانت تنفث اليها وجودهم المدحور الذي ترك هنا آثاراً لاتنسى من طيبه وحبه!

الأمر الذي لم تستطع قوله لنايل، خوفاً على عشقها، هو أنها صدَّت بقوة أنثى عاشقة، كلَّ محاولات الغواية التي قدمها الرجال الأقوياء في القرية، أولئك الذين أدهشهم أن يملك الحمار مثل هذه المرأة البدينة البيضاء المشبعة بدهن الحب والفراش. لكنها روت له أنَّ سمره الفياض نفسها قالت بأنها تشتهي نايل من كثرة ما روت لها عنه. ثمَّ ضحكت مثلما يوشوش الماء. قلت «انك بطلع نبع من بطنك يوم بتخلِّص! جنَّت المره، وصارت تقول: هذا ثور يعني؟!» فقال: «يلعن والديكم!» وصار يضحك.

أثناء ذلك كان حامد يقطع يقظته باغفاءات من النوم اللذيذ الذي حتَّمه هواء آخر الليل البارد. ثم يفيق أكثر استعداداً. تدفعه غريزة المرابع الساخط على أعداء سيده. متلهفاً لتنفيذ المهمة التي كلف بها وحده، يغذيه شعور غامض بأنه مرسل من الله لأداء عمل مقدس، لم يكلف طوال عمره بمثله من قِبَلِ واحد من آل الحمدان.

إحساسه بأنَّه مختار، عمَّق كراهيته لنايل، وجعله بعد ساعات من يقظة الثعبان التي اضطر لتمثيلها، ومن اختفاء نايل، وتأخره، حاقداً، مستعداً لتفريغ مشط كاملٍ من الرصاص في جسد الرجل الذي أعد لقتله!

لم يكن يعرف نايل الفضل، وكانت تفصل بينهما سنوات من العمر وجبال من الأحلاف. فلم يعمل واحد من آل الفضل قط منذ مجيء قاسم إلى هذا اليوم عند آل الحمدان. ربما بسبب كونهم حجارين، لا يخضعون إلا للبازلت. فيما ولد حامد في خرج المرابعين المغبر. وفيما كان نايل الفضل يتعلم قطع الصخور، ونحت التيجان. كان حامد يلَقب بالحمار من قبل ابراهيم الحمدان الذي أدرك قبل غيره ميزة القدرة الجسمية النادره لدى مرابعه، فضمه إلى سكان الدار. ولهذا لم يلتقيا قط سوى في الأزقة، مصادفة، أو في الأعراس. وفي هذا المساء. حين أبلغه العسّال بمهمته، ابتهل إلى الله كي يساعده في إنهاء العمل العظيم الأول الذي يثبت ولاءه. دون أن تكون لديه أية فكرة عن عهود هيلا ونايل. وما علم أن كنج يخبئها له، كي يغرزها في قلبه المخذول، حين سيأتي فاشلاً، إليه، صباح اليوم التالي.

كنج بدوره لم يستطع النوم، وعلى الرغم من أنه لم يرَ في نايل خصماً من قبل، وأنه حسم المعركة بينهما بخفة ويسر انئذٍ. فإن استقصاءاته عن نايل وهيلا، جعلته يحيلُ استخفافه إلى بغضاء.

فمنذ أن أرغم حسن الشماط على تزويج ابنته من حامد، وهو يحاول أن تكون المرأة له. لكنها قاومت هجماته المتعاقبة بمتانة قلعة. ولم يستطع معاقبة زوجها في الأيام التي احتاج فيها للاتباع والرجال. ولأنه أيقن بعد شهر من اقترانها بحامد أنها تمكنت من عنق الرجل، وأحكمت وثاقه: «حمار!» صار يردد عن حامد معزياً نفسه: «شو ممكن يساوي غير يمد رأسه حتى تحط فيه الرسن»

ولقد فكر مرة أو مرتين. أن يرغمهما على الرحيل، أو يرغم حامد على طلاقها لكن اللعين امتنع عن فعل ذلك. بعناد الحيوان الذي تسمّى باسمه! رغم أن لم يطرح أية أسئلة، ولم تثره الشكوك، وربما ظن بعض المرات أنها الضرورات التي يعرفها البكوات، ولا يدركها المرابعون المساكين!

لم يتخلَ عن هيلا اذن! وكيف يترك هذه المرأة السمينة التي امتلأ بها؟ ومن أين يأتي بأخرى غيرها وهو الذي بحث بعينيه وقلبه في أرجاء الدنيا التي يعرفها (وهي لم تتعد حدود المنارة كثيراً) فلم يجد امرأة تدانيها. تلك كانت المرة الوحيدة التي يرفض فيها رغبة لواحد من آل الحمدان، وقد غفرها له كنج، إذ ظلت الآمال تؤوب إليه طوال السنين، في أن يدحر، دم المرأة الممسكة بجسدها الخير كما يمسك النور.

لكنه لم يرغب إلا في جسدها، وقد اتخذ هذا الجسد الممنوع، بضعَ مرات في الحلم، هيئة عضو مخضل شبيه بفوهة بركان. العجيب أيضاً أنه حين تفحص قلبه وجده نظيفاً بلا ضغائن تجاهها. وفي الليلة التي سيأتي نايل الفضل اليها، وينام في فراشها، تاركاً إياه ينتظر موته في مكان آخر. سيضحك حتى الموت من حماقة القدر الذي ظن أنه دبره بقوة الله!

بعد ذلك حوّل سخطه إلى حامد نفسه الذي أعد له الخبر اللائق بخيبته. ولم

يرضَ أن يؤجله على الرغم من طلب ضامن العسّال الذي أرتأى تأجيل ذلك إلى اختبار آخر للحمار. حيث اقترح أن يرسلوه الى أم الجرابيع لاغتيال نايل أو أي واحد يطاله من آل الفضل.

امتعض كنج من تفكير ضامن، المليء كما رآه بسُمِّ النذالة. وقال: «أني بدي ياه يقْتِل مش يقتَل يا عسّال!» موضحاً له أن الذاهب إلى تلك الخرابة الملعونة لن يعود أبداً. كان قد اعتاد ألا يفرط برجاله إلا في حال الدفاع عن النفس، أو عن الوجود العزيز لآل الحمدان. لكنه لم يبخل في أي لحظة بكل ما يمكن أن يقترفه الخيال في معاقبتهم.

أغرب ما واجهه هو الرد التافه للحمار على المعلومة القاتلة: لقد ظن أنَّه سيسحقه، لكن حامد لم يفعل سوى أن يشرد في رياح الخريف التي كانت تهب من جديد على المنارة، والمضافة العالية «شوبك؟» سأله بخبث وهو يحاول التكهن برد فعله التالي. بيد أنه، لم يكن هناك ردٌ تالٍ على الإطلاق. ويبدو أن حامد قد اكتفى بهذا، وما لم يخطر ببال كنج هو أن المرابع الخائب ظنَّ بأن سيده يحاول تنكيده، وسحله بسبب فشله في قتل نايل. ثمَّ إنَّ كنج أوصل خبر زيارة نايل لهيلا، مواربة. إذ أن شجاعته خانته. وانقبض قلبه حين أراد أن يعيره بلا روية. اكتفى بسرد رواية ثمامين ادعى وجودهم في مضافته ليلة أمس. فما كان من الحمار سوى أن آمن بهذه المخلاة، دون تردد، وهو يظن أنها محشوة شعيراً وقمحاً، لا سخرية وكراهية.

غير أن الرماد تحرك في دمه منذ أن خطا الى داره، ففي كل خطوة كانت الحكاية تتجرد من ألوانها وبراقعها.

وفي العري الكامل لها، رآها حقيقية، وكاسرة كالحجر. واستعاد، في لحظات، كشوف الليلة الماضية. ليجدَ أنه كان حماراً فعلاً، عندما كذَّب فضائل وظنون وتخريجات عقله الذي ظنه مثقوباً. وهداه يقينه الصواني إلى فكرة اعتقد أنها الاكثر عَظَمة في تاريخه. فعقاباً لجحشنته (وهو الجدير بالعقاب) قرر أن يسامح هيلا.

لم يسحب قراره هذا أبداً. مثلما لم يتخل عن اقتراحه الرائد بالسماح لهيلا بالنوم في غرفتها حرة. والمخالفة الوحيدة التي ارتكبها كانت تلك الليلة، حين لم يترك في جسد امرأته شبراً، دون أن يعلمه بالعصا.

كنج الحمدان وجد غريماً آخر ينتقم منه حين عرف أن سمره الفياض هي التي أعلمت هيلا بوجود نايل.

كانت امرأة من جحيم، قادتها البراعة، وبعضُ المجازفات، منذ الشباب إلى الهيمنة على نصف رجال البلد. رغم أن الذين ناموا في فراشها كانوا أقل من أصابع اليد في ذلك الوقت.

أول أزواجها هو مخمد العابد الذي فضّ بكارتها حين وجدها نائمة بين المواشي في زريبة أبيها، يوم جاء للسرقة، مخلفاً فيها لهفة عنزة، وقد فضحتهما النعاج التي بدأت تثغو جماعة وهي مأخوذة بحمى الجماع التي أخذتهما معاً في غفلة من يقظة العابد.

أمسكوهما معاً. وأخذ أبوها مهرها عشر نعاج، ووعداً من اللص ألا يقارب مواشيه أبداً. أما مؤخرها فكان خمساً وعشرين شاة. دفعها العابد بعد شهر حين سطا على قطيع لبدو السلمان القاطنين على تخوم اللجاة.

فحين رجع من غزوته وجدها ساهرة في البيت، قبالة عبد الأنيس الفرحان، كان ذاك لصَّ مواشٍ آخر، وكسّار، زامل العابد نصف عمره، لكن محمد رفض أن يصدق أن الكائنين اللذين لم يكن يثق بأي منهما، اكتفيا بالحديث، وتبادل التحيات والعشاء.

لم تنفع جميع المقدسات التي أقسمت بها. لأن اللص الحذر لم يكن محتاجاً إلا لهذا القدر من الخيانة كي يتخلص منها. فصاح: «طالق!» ثلاث مرات، دون أن يسمح لها (وهي مرفوعة على سارية الحق الرجولي الذي استخدمه) بأي دفاع. اقتلعها من بيته لأول ظن خبيث راوده، وهو على كل حال ما كان ليصدق امرأة سلمته جسدها، قبل أن يقدم لها وعداً.

كانت ضربة معلم، تشربتها كأشنية رخوة، وقلّبتها وهي محمومة، وواقفة قبالة محمد العابد: فأدركت أنها ما كانت في نظره أكثر من نعجة، سُرقت من زريبة أبيها، وبيعت بيع المواشي، أحست أنَّ دمها قد نَشِفَ، وأن عقلها زاغ في الكأس الخاوية التي تجرعتها من يد الجلاد الذي اعتقدت أنّه المنقذ.

ثم أذعرت العابد نفسه في اللحظات التي ظنَّ أنَّه تخلص إلى الأبد من حكم المؤبد الذي سيق اليه، بدت خضراء كنار التبن، ممتلئة بالضغينة كوثن، حين ردت إليه جميله وقالت أنها لن تنسى ما فعله بها أبداً، وأنها وإن كانت قد سعدت في فراشه، وانبسطت معه، لكنها لن تغفر له زلته هذه!

كانت قد فكرت في لحظات الفجيعة الخاطفة، أنها لن تقوى بعد الآن على مفارقة الرجال، فأقسمت أن تصير عاهرة. وفي الرعب البازلتي السام أعلمته أن دم الرجال سيكون منذ الآن قرباناً للحمها الذي سيعرضُ رخيصاً في مهرجان اللذات الأزرق.

أول ضحاياها كان نواف الفهد ابن شما، زوجها الثاني الذي أرعبها بقسوته، وظنونه، فتخلصت منه حين أغرت حمود البقاعي، فقتله في فراشه، واختطف حماراً وعنزتين كي يحيل الجريمة إلى الكسّارة.

لكنها لم تعاشر حمود أكثر من شهر. راحت بعده تحشو فمها كلَّ يوم ثوماً وبصلاً. وابتلعت خلال عشرة أيام قنطاراً منه. حتى كره وجودها نفسه. ولم يطق البقاء قربها لحظة واحدة. بينما أصابها الوهن، وانطرحت في فراشها وهي تتجشأ، وتفسي، إلى أن راح حمود يصرخ: «طالق! طالق...» ولكنه رفض أن يدفع مؤخرها. فسلطت عليه ابن الجزار الذي اشترى منه حصاناً وبقرة وأعطى سمرة كلَّ الثمن. لكن حمود قوسه، وأصاب ساقه فكسرها. وقطعت بعد ذلك، واضطر المسكين لدفع دية الساق كاملة.

بعد ذلك ضاجعت ألف رجل، كانت تفتح فخذيها لكل من امتلك قطعة لحم منتصبة بين فخذيه، وشيئاً من المال. حتى أنها اشتهت طلال الراعي نفسه، ولولا

خوفها من شهوة الحيوان البهيمة، لجربت ايلاج عضوه في لحمها الموحل باللزوجة المشغوفة.

قبلت أن ينام معها محمد العابد نفسه، فأغدق الزوج القديم عليها فيضاً من الحب، واللذة، والهدايا. جعلها ترى قيمة الحرام وشموخ مقاصده. ثمّ حين ضاجعت كنج الحمدان، اضطرتها الفضيحة التي واجهتها لاختراع مُلهمٍ، لم يكن يستطيع رجل، بعد أن يعرف به، ضبط نفسه من الضحك.

كان ذلك أو ل لقاء لها مع البيك الشاب الذي ملأ البلد بطنينه الفاسد كالدبور. منذ يومه الأول. وقد دبرته جيداً. حبكت التفاصيل بذكاء نحلة، ثمّ باشرت تنفيذها واحدة بعد أخرى: زيارة الدار الكبيرة، خدمة الأم والتوصية بالخطوط، والتعاويذ للجم كنج، أو تحويطه، أو نسج الحكايات عن أم يعقوب، ثم مفاجأة الفحل المُشتهى في الحوش «نصيبي مابيجي غير مع البهايم» قالت ضاحكة لكنج الذي فوجئ بالمرأة القصديرية الناصعة التي ضمت خصره بذراعيها، وهو يبول بين البقايا النشادرية الحريفة.

لم يجدا مكاناً مناسباً كي يناما. فاضطرا لفعل ذلك واقفين. لكنّ سمرة فوجئت بعد لحظة، وفي التفاتة رعب مصيرية، بأم ابراهيم وهي تُقْبل نحو الحوش. وثب كنج، وصار خارج أسوار عاره، تاركاً سمرة أسيرة الخزي، والمفاجأة، والعجلة التي تسببت في ارباكها اثناء ارتداء السروال الطويل: «تفو!» قالت وهي ترى أنها أدخلت ساقيها معاً في إحدى رجليه. وقبل أن تتمكن من تصحيح بلاهتها، قابلت وجه الأم الهالكة، المعبأ بالتهديد، وجاءها الوحي بحسن التخلص الذي ستقبل عليه!

حال عودتها الى المنزل، قصّت فخذي السروال، ووركه، وأبقت ساقيه المزركشين اللذين أضافت اليهما عند الركبة شريطاً من المطاط قائلة له: «بعد اليوم ما رح تأخرني عن أي رجّال نطاط لعين!»

كان السروال جزءاً من كمال الزي، واحتشامه. وكانت زلة صعبة أن تغامر

امرأة بخلعه، وحتى بالنسبة لعاهرة مثل سمرة، بدا الزي أقوى العوائق في طريق بغائها، رغم أنها صارت تقهقه هي أيضاً في حضرة اللذات حين رأت كيف تحدت قوانين الأخلاق، وعجزت عن إلغاء نظام الملابس.

لكن مخاطر الاقتراب من سمرة، اغتالت حماسه الثأري، وخفف ردُّ فعل حامد الفاتر، من غيظه واندفاعه. وقد تعكرت خطته للانتقام، ثم عدل عن كل ذلك عند منتصف الليل. حين شعر أن مزاجه صفا في الرذاذ الناعم الذي بدأ ينث منذ ساعة. كان حساساً تجاه المطر، ولم يخفِ هواه به قط. ولأن جميع الأشياء الرائعة في حياته حدثت في المطر، فقد جازف بالإيمان بقدسية العلاقة التي تربطهما «أنا رجل شتائي!» كان يردد أمام رجاله. وكانت أيام الصيف تملؤه بالكآبة والغم. وفي هذه الليلة نسي موضوع هيلا، وخيبة حامد، وخيانة سمرة. لتعود إليه ذكرى عذراء الليل التي اقترف حبها بلا حد.

كانت دائماً تعود لتؤرخ أيامه المستنفذه بين ليل ونهار لهما رائحة حطام. يسألها: ماذا تفعلين الآن، وأنا أدور حولك كالثور، واملأ الطرق والقرى وهذه اللجاة بصراخي، وتعلقي، دون أن تسمعي! هل تسمعين؟ أحس أنه محتاج الى صباح هذه اللحظات أكثر من أية لحظات أخرى في العمر. وهو لايني يسأل: متى اخترقه اليقين الأبدي بأن صباح وحدها هي امرأته الحقيقية في هذا العالم؟ حتى أنه في الساعات الظليلة كان يردد أنه لن يقارب العذراوات أبداً، محاولاً التمسك بالذكرى الكريمة التي كانت تتبدد مع ذلك. كان ينسى كلَّ مرة. ثم يعود إلى يمينه، دون أن تغيب عنه فكرة عظمة الرجال التي استشعرها أول مرة حين فضَّ بكارة صباح! فكم من المعاني تكمن في أن يغير الرجل مصير امرأة، بحركة ليلية لطيفة تخرجها بلا عودة من سلك العذرية إلى شيعة النساء!

تهرأت ليلة المطر، مرة بعد مرة. لكن شغله في ترميمها وإعادة بنائها، منح العناصر القديمة في اللقاء لوناً جديداً كلَّ يوم. فعزا ولاءه إلى هذا العلاج العجيب الذي داوت به الذاكرة أضرار الزمن: أصبحت الدرجات القليلة هناك صعوداً دائماً

إلى السعادة. وكان مشهد الزقاق الماطر في الظلمة يهيمن على كل لقاء جسدي مع امرأة تاليه، أما النساء اللواتي يصرن مألوفات بعد لقاءات عديدة فكان يستبدلهن باغماض العين، بوجه صباح، معلناً لفته لهفته إلى بروق اللقاء بها!

وكلما ازدادت لهفته اليها، تفاقم بطء الأيام، وأخذ إحساسه بثقل الوحدة، يسحق تفكيره. حتى العسّال نفسه، هذا الرجل الذي لا معنى لوجود آل الحمدان بدونه، بدا له أعزل فريسة للضعف، وتنويعاً اضافياً ثقيلاً في أساه ووحشته.

* * *

نايل الفضل أمضى الهزيع الأخير من الليل ممتلئاً بالضغينة والحقد، فقد أخذ شاهين الخليل حصانه، وأشياءه من اسطبل حنا البيطار، حين عرف أنهم اكتشفوا وجوده في المنارة.

مشى ساخطاً على فحشه، واختار طريق الوعر الطويلة كي يمشي فيها، متحاشياً كالثعلب أفخاخ كنج التي توقَّع أن يقطع طريقه بها لاجئاً إلى ظلمة الصخور الضخمة، والصمت الليلي.

وعندما وصل الى أم الجرابيع، أحس بأنه لم يكن طوال عمره سوى طفل ترعاه الفتيات. فقد كن جميعهن ساهرات، وكان اخوته متأهبين ينتظرون عودته.

«تذكر حسان الآن، أنَّه عرف كل شيء من ثنيه التي خشيت حين تأخر نايل أن تحمل أعباء السر وحدها. كادت تنوح حين رأت شاهين عائداً وحده. لولا النظرة الحارقة التي كواها بها، واستفسرت منه، فاكتشفت أنه أبدى علامة دراية حين أحضر الحصان. ولكنه قال «روحوا احرسوا الطريق!»

أحس في تلك اللحظات برغبة في عناق أخيه، لكن ذلك لم يكن من طباعه، كان يتعمدّ اخفاء مشاعره للاختباء وراءها، بحيث تمنع الآخرين من معرفة الأشياء التي سيقدم عليها. وسواء كان ساخطاً أم مستبشراً فإن التجاعيد لا تتغير. فحيثما ذهبت كانت تجد في خديك العريضين، ووجهه الصخري مسافة للامتداد.

توقف نايل أمام كامل، متوجاً بالفرح الليلي الذي قدر أنه آت من جسده، كانت له هيئة منتصر، فغفر له المخاطر التي جازف بها، واكتفى بأن يدير له ظهره. وعاد إلى مقعده الحجري أمام البيت الملكي المهدّم وكان أقصى ما يفعله ازاء الذين يرضى عن أعمالهم من إخوته.

أبرق بهذا التصرف الى الجميع، فاستقبلوا نايل بالغبطة والعناق. لماذا فعل ذلك، لا يدري! ولكن ثمة شعور خفي أقنعه بأن الفتى، كسر تلك الليلة حجراً من جدار قلعة آل الحمدان.

* * *

(٢٥)

رفض شامل الذهاب إلى المقلع، وانزوى يقضم قهره، ويمزُّ نبيذ جدعان دون إلهام، وهو يحاول التفكير في طريقة للخروج من منزل الرحيل.

كان يدرك أنه بلا آمال، وأن أشواقه الوحيدة هي أن يشرب عرقاً من خمارة بطرس، لأنه لا معنى لهذا البقاء الجنائزي في خرائب الميتين. وإذا كان لنا أن نبقى، فعلينا أن نشرب لا أن نبكي، ولا أن تمحونا الحجارة.

تحاشى بعد ذلك أن يواجه أيَّ واحد من أهله، بدا مملوءاً بأجراس الملل، يهلكه الوقتُ الفارغ، وروح الدمار التي تتمدد كالجليد، وكانت عظامه تلين وتنسحق تحت وطأة مشهد صباح وهي تستحثه، وتستميله، وتطلب أن يحتويها، وتبعث اليه تباشير نداء، واستغاثة، وقناديل. وها هو يلهثُ وراءها، مبصراً قصر اليد، تتناهى فيه الرغبة المغتالة العاجزة في أبجدية القرابة، والحرص على الدم المشترك، والخوف من العار.

كل ذلك يمنعه من الركوع أمام الجسد البارع والهمس: «يا صباح!». وهي تتنقل في المكان، مضفية على الخرائب حياة حاضرة، تطفئ الموت الراكض في الكيان القديم، بلمسة هنا، ومباركة هناك. وارفع هذا! وتعال إلي، وساعدني في ترتيب الأحجار المنهارة، وادفن الجثث النافقة. ولمَّ الفخار! وتضحك إذا ما قال شيئاً طريفاً، وها هو يقول، وكلما أراد أن يقول، يشرب جرعة نبيذ، أو يكرع قدحاً من العرق التذكاري الذي خلفه حنا. فتطلق صوتاً خليعاً وهي تتثنى، ثم تحضن وجهه بكفيها (دون أن يستطيع قراءة حقيقتها) وتقول: «ما أحلى كلامك!» كأنها

ترتدي قناعاً، وتخبئ عالمها وراءه، وتصر على الانفصال عنهم جميعاً، فيزيد الخمرة، والهواجس، وغياب الحقائق في الهول الذي يحسُّ به.

كان متردداً، ومع الهواء الخريفي المتقلب، أحسَّ بصدع مفاجئ في رغبته، وغدا إحساسه بأنه ضعيف، وأنه عاجز هو الذي يدفعه لأن يطلب من أخته الكبيرة، الممتلئة خشونة، المالكة لكل شيء، أن تخطب صباح.

عانقته برقة وردة، وقالت بشفقة أم: «يا حبيبي!»

ثم فاجأته بالرد النهائي القاتل الذي لم يصدق أذنيه حين سمعه: «صحيح صباح بنت عمكم، لكنها صارت أختكم»

لم يفهم أحد من الاخوة أيَّ معنى في الإجابة القرمزية، وكان هذا كافياً لشامل كي يُسقِط صخب رغبته في رمال الصمت، وأن يتحول إلى شبح.

لكن صباح لا تكف عن تهشيمه: إنها تصعد الان الدرجات الحجرية المفضية إلى علية مملوءة بالخزائن، وهي تحضر من هناك مؤونة للغداء، وتطلب اليه أن يتناول شيئاً ما. فصار يرى أعلى الركبتين جزءاً جزءاً:

الثنيتين المائلتين الممتلئتين بالوبر الموزع بمهارة، والخطوط الضئيلة الذاهبة إلى الأعلى، وعظام الركبة المدورة المحسوبة بفكرة خاصة عن الجسد الانثوي المشتعل. «خذ البرغل والعدس الى ثنيه!» ويعود مرة ثانية ملتهب الجسد فيرى (وهي تناوله جرَّة الدبس) ظلال العرش. ويفاجأ بالشعر الأسود الكثيف كالأشواك الذي يغطي العربة الملكية، وبعض الأزقة الخفية، ولا يفيق إلا على ضحكة صباح التي بلا عُمر، وهي تدق على رأسه الدائخ، بفخاخ الزرقة العميقة، وتقول مؤنبة بلا حقد، ولا ضغينة: «أكلتني!».

لا تتزحزح، لا تغير وضع جسدها، ولا تجفل مثلما تفعل جميع النساء وإنما تظل هناك تاركة للمصادفات فقط، امكانية إظهار المفاتن المخبأة للرجل المنطفئ.

أخطأ مرة واحدة، حين ظنَّ أنَّ التسامح الأنثوي الطيب هو دعوة للقاء.

فجرب أن يغوي الفتاة التي كانت ترتب الأغراض فوقه. مدَّ يده المرتجفة الخائفة إلى الساق التي كانت قريبة اليه. فأطلقت صيحة رعب، وكادت تتعثر، وتقع بسبب الهيجان المفاجئ الذي انتابها. وسمع من في الدار الصرخة، وجئن يركضن، ليروه مهزوزاً، طرياً، يرتعدُ من الهول، وهي تنتحب، وقد كسرها حديدُ المفاجأة الصدئ.

لم يكن هو من اختلق الأعذار، وإنما هي قالت: «طلعت الحية وشامل خاف علي!»

كانوا يعرفونها، وقد رأوها جميعاً، واعتبروها جارة كريمة، لم يحاولوا ايذاءها قط.

شكر المرأة بعينيه، لأن لسانه كان مربوطاً، وكان قلبه يقفز قفزاً زئبقياً، لكن عقله وحده، هو الذي استطاع التماسك في الزمن الذي تلا الصرخة المذعورة.

صباح اليوم التالي، تأمل وجهه في المرآة، وهو يظن أنه السبب: بلى! فالعينان المحمرتان، والشعر المنبوش، وارتجافة الفك السفلي التي لا سبيل لمنعها أبداً، أسباب كافية لأي انثى كي تفقد رغبتها فيه!

لكنها لم ترغب فيه أصلاً، اذن يمكن تغيير الجملة مرة أخرى: فمرآهُ يشبه الحطب المكسور. وفي بعض الصباحات يكون لهيئته منظر ضفدع: رخوٌ، لزجٌ ونتن الرائحة. فكيف يمكن لفتاة بهذا البهاء أن تميل إليه؟ ولا بدَّ أنها هي التي طلبت إلى ثنية أن تؤاخي بينه وبينها، بهذا يمكن إنهاء أي شيء. ولن يفكر في الخطوة الأخيرة بعد الآن «خذ كأسك اذن!» خاطب نفسه «وسر في الطريق الزرقاء سيرك القديم، واترك لعينيك فقط سعادة النظر والتملي من المرأة التي تغدقُ عليك حضورها المليء، ووجودها الشجري الثابت. دع عينيك، في الصمت، تتابعان الصعود، والنزول، والحركات الخرقاء، وتبديل الثياب خلف الستائر المواربة، واستراق اللذة! اكتف بهذه الخطوة التي منحتك إياها، حيث لا يلاحظها أحد، وأنت تشرب خلف الهيكل المهدم مجرباً (بعد كل زيارة لحنا) نوعاً جديداً من العرق الذي صرت بعد ثلاثة أشهر، تعرفُ جميع أنواعه، مثلما صرت تحفظ عن ظهر

قلب شكل الأجزاء المكشوفة من جسد صباح: القدم الصغيرة ذات الوسطى الطويلة، والكاحل الخشن المتورم قليلاً بسبب الانتفاخ الدهني البسيط، والساق الملساء، والظهر المنقسم بخندق العمود الفقري الأجرد، وأسفل الابطين المتوحشين الممتلئين بنشوة حنين! أما البقية الباقية فقد جزأها إلى نصفين: أحدهما استطاع رؤيته في الخفاء: كجذر الفخذين، ومنحدرات العرش الشوكية. والآخر حاول تصوره بخيال قاطع طريقٍ. فكان أخضرَ، جذاباً، مليئاً بالعقود واللآلئ، وأقراط الذهب، والأحجار الكريمة!

صباح نفسها لم تبالِ بشامل في البدء، لأنها رأت بعد شهور من التأمل أنه ما كان أكثر من تمثال.

أثارتها رتابته، ورائحة الكآبة التي كانت تفوح منه، واعتقدت أن الخمرة التي يتشربها سوف تلتهم جدار معدته قطعة قطعة، فحقدت عليه وكرهته كراهية عميقة، وهي تراه مقيداً الى جُحره الضخم، أمام الواجهة القديمة لما قالوا لها إنها هيكل العبادة: شامخاً، مرصعاً بنظرة ثعلب. لكنها لم تنكر أنّه شلّ تفكيرها، وقد أدهشتها وحدته، ورثاثته، ورفضه للقوانين الضارية في آل الفضل، ولا حقيقته، والرغبة اللامرئية في أصابعه العظميه النحيلة. وصارت تحوم حول مقعده كالغزالة، وتقدم له طعاماً يسيراً، وماءً، وبعضَ الكلمات. حينها اكتشفت أنَّه كالغيمة: شفاف، مفكك ولكنه عابق بالماء «هل أحبته؟» كان ذلك مستحيلاً، كما أيقنت، كانت تضحك لخليط الكلمات التي يستخدمها بمهارة جرذ «صباح! صباح الخير» كل عبارة يستطيع تحويرها كما يشاء، ناصباً منها شراكاً لكل شخص «هذا عرق صالح» فتشرف على الموت من الضحك، ثم استدرك وهو يقول: «لأ. كامل!» مازجاً فضة بالفضاء، والخسارات باسمه وبعد شهر لم تعد تستطيع فراقه. وقد محت بيدها لطخة الحقد التي دوّت في رأسها منذ مقتل سعيد. ضد آل الفضل.

وبعد شهور، سوف تحبهم جميعاً، دون أن يستطيع واحد فيهم اختراق القلب النسائي الذي كان يصرخ باسم واحد عاشق قاتل معشوق هو كنج الحمدان.

(٢٦)

مساء أول ليلة من الشهر الخامس عشر للهجرة إلى أم الجرابيع، لاحظت ثنيه أن الكلاب تغير صوتها فجأة، وبدأت ترتجف، وتلجأ إلى الصناديق، والزوايا الخبيئة. فصرخت مثلما صرخت يوم اختفاء الضباب:

«صايل!!»

كان المساء معتماً، وقد رأوا رأس الفارس الملثم في اللحظة التي سمعوا فيها شخير الحصان المتعب، ووقْعَ حوافره الوقورة، على الصخر الأصم، ورائحة الضباع التي تفوح منه.

كان مجيئه كاللغز، كما كان غيابه المفاجئ، قبل زمن، كادوا يظنون أنه دهر. ترَّجلَ عن الحصان، وفتح ذراعيه لأول من لاقاه: هايل الخفيف كأرنب.

كعادته، جلس متربعاً، وبدأ يتناول عشاءه بين اخوته الصامتين بانتظار روايته. واخواته الشامخات باكتمال بهجتهن، المتوسلات إلى الأخ الجبلي الخارق السمنة الذي ازداد حجمه مرتين، وامتلأ باللحم الغامق القوي، والعضلات، وتمادت فيه الفحولة: أن يملأ انشغالهن، وولههن إلى أخبار الجبال والسهوب، والوعور التي أمعنت في البعد، والاختلال، والضياع وراء الوحدة الفاحشة.

أكل بشهيةٍ طعامَه العظيم: المجدرة التي تفوح منها روائح الحطب، والبصل الحريف، والرَّشادً المدجن والبري، والسمن العربي المتلألئ.

التهم أربعة أرغفة من الخبز الملّوح الأسمر الشاسع اللذة، ثم لامس بيده ركبة

كامل، وتجشأ كالثور، وأفسح مكاناً آخر لهايل كي يقعد قربه ثم بدأ يحكي عن شهور التجوال الطويل في البلاد العظيمة. واصفاً البراري الممسوسة بالجن والعفاريت، والجبال التي تشرف عليهم من الغرب، حيث تنعم القمم الشاهقة بالثلج الذي يمنحها اسماً مستمداً من هيئة الرجال المتدينين: جبل الشيخ! هناك حيث أكل فواكه ممتلئة بالسكر، والماء، وشرب ماء جليدياً من نبع يزيل الأسى. وراح يبشر الإخوة بالبلاد التي تمنح الرزق والمال. وأفاض في وصف البحر الذي يجاور مدناً ساحلية. كان قد زار في شهور غيابه بيروت، وصيدا، وصور وحيفا، ومدينة الجزار التي باع فيها حوائج النساء وزينات، وأقراطاً، وتوابل، وأقمشة حريرية، وأنسجة دمشقية. ثم عاد إلى الصحراء متابعاً تلك الطريق القديمة التي جاء منها الوالد بعد الهروب من السفر برلك. وأبدى افتخاراً بذاك القتيل الذي استطاع أن يقطع الرمال المباغتة، وراء الجبال البعيدة وحيداً مشرداً، يقتات البقايا، ويتحاشى الناس، فاراً من العصملي الممعن في المراقبة. ثمَّ استجاب صايل لحمى اللغة الزاخرة التي هيمنت على الذكريات فروى كيف أوغل في الهجرة، حتى وصل إلى بلاد مصر، ورأى قبور الفراعنة الهالكين الذين راموا الوصول الى السماء، وأسد الصحراء الرابض، ومسجد مولانا الحاكم «جلَّ ذكره» (تمتم صالح وثنيه والبنات) ورأى الانكليز وجيشهم المرابط في المدن.

ثم رأى خيبات تكفي لجيل قادم، حين راقب في بور بيروت وصول الفرنسيين الصاخب، ونزولهم المهرجاني على الأرصفة العريضة للميناء وصار كل مرة يعود الى رواية ذلك: لأن ذاكرته كانت ماسكة بقعقعة الأسلحة الحربية، وضجيج المصفحات، وهدير الدبابات، والبزات الكتانية المليئة بالأزرار النحاسية، والشارات، و القبعات المدوره، والكلام الغريب الذي تنبعث منه لكنات بحارٍ مجهولة، والأرتال الملونة التي حملت مخلوقات الأرض كلها: سود وبيض وحمر وسمر.

«يذكر الآن أنه رأى مثل هذا، وأن العسكر الذين كانوا أوصافاً، وأحوالاً في

حكايا صايل، غدوا ذات يوم حقيقة، وقنابل، وعربات اخترقت مشارف الوعر هناك على الطريق الصاعدة. تذكر أنَّه تأملهم طويلاً صبورين مثقلين بالأحمال، ومدججين بأسلحة فتاكة قاتلة. وأنه أبدى قلقه وغياب تفهمه من الوجود المفاجئ لهم وهو يسأل: «ماذا يريدون من الحجارة، وأشجار البطم؟»

قالت ثنيه إنها رأتهم في أحد أحلامها، وأنهم كانوا يسيرون في دروب ملفعة بالغبار، وأن الحجارة كانت مطروشة بالدماء، وأن منامها تفسر الآن. ولكن الذعر منع عنها قوة النبوءات القديمة. فلم تستطع اكتشاف أنفاق التفاصيل التي سوف تأتي على مصير إخوتها، وهي التي طالما ادعت أنها تعرف الخفايا!

ما لم يذكره صايل هو ذلك الحلم الذي رأى فيه، أيام الضباب، امرأة تسللت إليه من وراء الحجب، وراحت تناديه كالعيّوطة، وقد استطاع أن يرى ملامحها، وأن يتلمسها تقريباً، ويدقق في جسمها، حتى أنه تأكد من وجودها حين استيقظ. فقد ظلت بضع ثوان موجودة هناك في ا لغرفة. بحيث أمكنه أن يراها رؤية العين، وأن ينهض ويمشي خلفها في ضباب الليل. وحين اختفت، ظل نداؤها مقيماً، ودعوتها حارة، تكسر وجوده الذي أقلقه الضياع.

لم يجد ما يفعله سوى أن يرحل بحثاً عنها، لأنها إذا ذهبت الآن، فسوف ينسى ملامحها، وستبقى امرأة تخوم غامضة، وشفافه لهذا قال: «لا شيء سوى التجارة يقرب الرجل من النساء» لكنها كانت حماقة ضيعته، وأرغمته على السفر في البلاد طولاً وعرضاً، شرقاً وغرباً، دون أن يظفر بامرأة المنام العجيبة، أين هي يا رب؟!

انشغالاته تلك جعلت شاهين يتكهن بأن صايل ملعون كآل الخليل، ضحية غوايات قاتله، وصدوع مهاجرين جوالين لا يجنون فائدة سوى أقنعة روايات، يتخفون وراء كلماتها، وزخارف الألوان التي يسبغونها على الأمكنة.

بعد أيام طلب هايل منه أن يقف بضع ساعات كلَّ يوم أمامه، كي يرسمه وقالت غريبة، بعد أن رأت ما فعل، إنها صارت أختاً لستة رجال، بدلاً من خمسة!

هل كانت تعني الصورة، أم قوة البصيرة لدى هايل؟! في الرسم بدا صايل حافلاً بمسارات جبل. فثمة أمواج من المرارة في وجهه، وكثيرٌ من الضغائن في صدره الممتلئ بأجندة الرصاص، وشهوة عصفور في عينيه المتوجستين اللتين كانتا تراقبان مرور أي شخص أمامهما، بحذر وريبة، ورغبة في المراودة. ولكن الصورة بكاملها بدت حزينة، وقد أضفى السواد، والبياض اللذان رسمت بهما بؤساً عميقاً على روح صايل.

أما الشيء الوحيد الذي كان غير مفهوم فيها، فهو خيال القلعة القائمة على تلٍ غامضٍ ممعنٍ في السديم. ظنوا في البداية أنه يرسم أم الجرابيع، لكن صايل هزَّ رأسه هزات عارف، ومطَّ شفتيه وقال: «هاذي المنارة!»

كانت هي المنارة المشتهاة ذاتها، وقد فهم أن الفتى يرسل إشارات تحذير ضد الطمأنينة، والحياة السهلة التي يعيشونها.

أسعده هذا، فها هو يرى واحداً آخر من آل الفضل يقترف طباع العاشقين ويتمادى في الشوق.

أزال اليقين عنه كرب شعوره بأن أهله نسوا المنارة، وأنهم ارتاحوا هنا في خرائب الهجرة، واستقروا. وأحس أنه لم يعد وحيداً، وأن نسل محمد الفضل أثمر أخيراً فاكهة بهية طازجة. عندها مضى إلى السماقيات واشترى حصاناً أبيض كحصان كامل، وأهداه لهايل!

ثم أبدى خلال شهور صبر جمل في تدريب أخيه على ركوبه ومعرفة أحواله. ولم يترك فرعاً واحداً من كل تلك الحركات الممكنة والمستحيلة في اعتلاء صهوة الحصان، أو التمرجح على أحد جانبيه، أو العدو به خبباً، أو دحواً، أو رجم الأرض بالحوافر، دون أن يعلمه إياه. وأخذ بعد ذلك يراقب قدرته على إصابة الأهداف القريبة، أو البعيدة، في المشي، والركوب، والجري، والتقدم، والفرار. حتى تأكد أنه استطاع ادخاله سلك المحاربين. حينذاك أخذ أخاه مرة ثانية إلى حيث كانت صورته، وقال: «هات، شو شايف؟»

لم يكن الفتى يظن أن بإمكان صورة رسمها بيديه، أن تُلقي عليه دروساً لم يعلمها من قبل. وحين تمعَّن فيها، أجاب بهدوء حكيم مشغوف: «والله يا صايل إنك مثل البير، المي بتبنع من جوآك»

سمعا همهمة خلفهما، واكتشفا أنهما لم يكونا وحيدين، وكانت صباح تحدق فيهما بشفقة خاصة، باغتت صايل، واغتالت ثقته البازلتيه بنفسه. كانت تبتسم ابتسامة سخرية مرة، وهي تراقب تأملهما المعجب بالصورة الحاذقة: المصوِّر، والمصوَّر، كلاهما، كان متقداً بكبرياء الوجود القوي لفن البقاء الخالد.

لم يخفِ صايل بعد ذلك دهشته من براعة دخولها الرهيف، ولا استطاع أن يتجاهل قوة حضورها، وإشراق نظراتها التي شملت جنبات المكان برمته، أولاً، ثم استقرت أخيراً في عينيه. عندها أدرك ببصيرة الزير الحصيف أنَّ المرأة ممتلئة بالفحش إلى حافتها، واستغرب كيف لم يرها من قبل، وتساءل إن كانت قد كبرت في الشهور الماضية التي غاب فيها، أم أنها صارت واستوت في آوان آخر!

لم يقل لها شيئاً، غير أنه هددها في سره، دون إرادة، ودون أن يكون قد فكر في ذلك.

لكن عقله فقد قدرته على التركيز، حين بدأ ينوس بين أجراس الرغبة التي ملأته وخوف الفضيحة الذي شغله، والحرص على المحارم الذي شدَه، وكبحه.

لكنهما حين تركاها، كانت تراقبهما بشرود أعمى، وقد فقدت هي أيضاً براعتها في الحديث، لأنها لحظة رأتهما مغادرين نطقت بالكلمات التي لم ترد أبداً أن تقولها لأي واحد من آل الفضل طوال عمرها. كما كانت فكرت من قبل، سألته: «ايمتى بشوفك؟»

ثم انتبهت الى أنها غرزت سكيناً في صدرها هي، لأن شهوة العصفور الرابضة في عيني الرجل داخل الصورة، قفزت الآن لتصير يقيناً لا يمكن رده أبداً.

تأملها بلا ضجة، لطيفاً، ماضياً كالسيف، وقال:

«يمكن أقرب من جلدك لعظمك»

ولم يتح لها الوقت للفرار، عاد بعد دقائق، وبلا تمهيد، ودون مداعبة، بطحها أرضاً، في نهم الضباع، بدأ يمزق ثيابها الداخلية، حين تأخرت في رفع الثوبين اللذين كانت ترتديهما. بدت بين يديه مثل حمامة، بيضاء وناعمة، ودون أية قوة. ولكنها وجدت في عقلها بقية قدرة كي تهمس له، وهي تقبله وترتعش تحته: «أني مره» كان واضحاً أنها تقول له أن يذهب حيث يشاء.

كان الوقت مساء، ونفذت اليهما فجأة، روائح الطبيخ الليلي، ولغط الرجال العائدين من المقلع، فسارعا إلى القمة عدواً، لكنها لم تستطع مجاراته، كان أقوى منها بألف مرة، بيد أنه حين تأكد من وصوله إلى ذرى جبله السعيد وحيداً، كان قوياً وجريئاً الى الحد الذي استطاع أن يقبض على صبره كالكلب كي تلحق به، فراحت تتنزه ببطء، وهي تحقد عليه، وتخاطبه بكلماتٍ جارحة، حتى استطاعت الرسو هناك، وانطفأت مثل شمعه، ولم تعد تتحرك.

بعد ذلك أيقنت أنها ستصير عاهرة، إذا ما سارت في دروبه، فصدّت مراوداته كلها دون أن تضعف في أي ساعة.

كان يعرف معدن النساء، فامتنع عنها منذ المرة الثالثة التي رفضت فيها أن ينام معها. قال إنَّه يريدُ أن يعتذر عن فظاظته واستعجاله، وتأثير الذعر عليه. فقالت إنها لا تأبه لما حدث أبداً، فقد أخذت حصتها كاملة، ولم تخسر شيئاً.

لكن السر الدفين الذي لم يجرؤ على سؤالها عنه هو: من الذي صيرها امرأة؟!

انصرفت شكوكه إلى أحد إخوته، وظنَّ أنّه شامل. ولكنه حين رأى إلى إنسحاق أخيه، ونظراته المريضة، ولغته الصفراء، أدرك أنه لم ينل من صباح شيئاً.

كذلك أخرج «كامل» من قائمة اتهاماته، وبرأ «نايل» الذي عرف غرامه بهيلا، ولم يخطر بباله هايل بسبب صغر سنه، ثم لم يبق لديه سوى صالح الحراني، وشاهين الخليل. ولكن صالح لن يفعل ذلك، لأنَّه يعرف ولاءه لثنيه

واستخذاءه، وعجزه عن الإغواء. أما شاهين فهو وحده ظل عصياً عليه. لايفهمه، ولا يعرف المدى الذي يشغل عقله.

ما فكر بكنج الحمدان قطعاً، بل إن الفكرة لم تكن ممكنة في عقل مشبقوق وثني مثل عقله، ولهذا ظل حائراً ضائعاً في بادية الأسئلة الخانقة، حتى استطاع الزمن والنسيان أن يطهرا شكه، ويلماه ساعة وراء ساعة.

باستثناء هايل الذي لم تغب عنه شرارات الرغبة التي تناثرت في تباشير لقائهما، لم يلاحظ أحد من آل الفضل شيئاً يثير الريبة.

صايل نفسه لم يتمادَ، وصباح نبذت سهراتهم، وانعزلت وهي تقتاتُ الندم، والسخط على خبث جسدها المتطلب القاسي.

لا عزاء لها، فلن تسموَ بعد الآن على كنج بطهارتها، وقربان الدم الذي بذلته كي تنقذ أخيها، وقرارها السري الذي وهبت فيه نفسها لذكرى الحبيب القديم الذي أضحى قاتلها.

أما عندما استفسر أولاد عمها عن حالها، فقد أحالت رغبتها الى المرض والضيق الذي لا تعرف له سبباً، ثمَّ تجرأت وسألت فضة، وهي تستغيث لو استطاعت أن تجد لدى شاهين عشباً يقيها وخز الضمير، وعذابه! فقالت هذه بطيبة قلب:

«فكرت إن الأيام شفتك»

اعتقدت المسكينة أن أختها ما تزال تنزف دماً من الجرح الملعون القديم، وحزنت لأنها عجزت عن تقديم أي مساعدة، حين ردت صباح:

«ليش مين قال إن الايام دوا؟»

راحت فضة تبكي، محاولة التكفير عن ذنب لم ترتكبه قط، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة لديها لرأب الصدوع، والحماقات، والأخطاء التي يقع فيها الآخرون.

لكن صباح كانت محتاجة لغوث عاجل يعوضها الخسارات أكثر من حاجتها الى الدموع التي تخصب شجرة مأساتها. فأخذت تواسي أختها وتسعى لمنعها من الاستمرار في إشعال الرماد الماضي «لا تبكي يا حبيبتي» طفقت تقول، وهي تربت على كتفها، فيما تستمر فضة ببكائها الفاجع نائحة على مصيبة أختها، ومقتل أخيها، وموت أبيها، ورحيلهم. حتى شعرت صباح بأنها تكرهها، وراحت تصرخ: «خلص! خلص! بعمرك ما عملت شي غير إنك ترفسيني عَ جهنم!»

كانتا قاعدتين قرب موقد ممتلئ بخشب بلوط هش. ولهذا لم تستطع فضة التوقف عن البكاء، وكانت نار البلوط تملؤها بالأسى بسبب الحشرجات المروعة، والدخان الحزين الناعم، والفرقعات الخفية المفاجئة التي تعبث بأعصاب المتدفئين حولها.

انهمرت فيها الذكريات القديمة كلها، ولم تجد لديها ما تقاوم به سوى البكاء، ظلت تبكي طوال الليل، وبكت نصف النهار الثاني بلا انقطاع. فلم ينشف دمعها، حتى كادت صباح تجن، وأرادت، في لحظة يأس زجاجية، أن تذهب، وتقذف في وجوه الرجال جميعهم سرها، كالبرميل، لتنقذ فضة من نكبة البكاء الخائنة.

لم تفعل، فالشوق إلى كنج، والحنين المزبد، جعلاها جبانة، رخوة خويِّفة، فكانت تتملص من وعودها، ومطاردات الأحزان، بذكاء أفعى كي تبقى حية، مشرعة الصواري، للاندفاع ذات يوم إلى محيطه الحبيب.

وهذا التفكير الكلي بكنج، كان عالقاً بجدار عقلها، في مخازن الأحلام، دون أن تجهر به، أمام أي شخص كائناً من كان.

حتى فضة التي كانت تمحضها حنانها الأنثوي الموغل في اللطف، لم تكتسب لديها سمات الخليل. ولهذا هددت بالفرار، حين عجزت عن تحمل النحيب الخالد لأختها، وفشلت في قلب الحياة المطمئنة لآل الفضل.

عند ذلك فقط، غارت الدموع السخية في عيني فضة، وقد ارتجف القلب،

وقوضته التكهنات الكلبية عما سيحدث: صمتت، واستكانت، بعد أن لثمت يد أختها متوسلة. فضحكت صباح، وقبلتها في خدها، واحتضنتها، وقالت: «يامجنونة! وين بدي روح؟!»

تلك اللحظة، ما كانت كاذبة، فحين جالت بخيالها في الأصقاع الواسعة المحيطة بأم الجرابيع، وجدتها ممعنة في الموت والخواء. اعتبرت تهديدها سخافة صغيرة، عديمة الخيال، وسوف يدوم هذا طويلاً إلى الحدود المنسيه لربيع الأمنيات.

* * *

أيامهم، مضت كتيمة وكحلية كالحجارة. اقتاتوا الساعات واحدة بعد أخرى، بلا ضجيج، دون مفاجآت، وقد نسوهم هنا. ولولا بضعة ذئاب، كانت تعوي ملقية تحيات الليل عليهم، أو قطعان ثعالب وواوية كانت تثير ضوضاء من الزعيق، والصيحات حولهم، لاعتقدوا أنّ اللجاة أقفرت من الكائنات.

لكن الذئاب اغتالت ثلاثة نعاج بعد يومين، مستغلة أمطار كانون المتواصلة، وقد سُحقت النعاج سحقاً بأنياب الجوع الوعري، على بعد خمسمئة متر فقط من أم الجرابيع.

وبعد يوم آخر، عادت الجماعة لأخذ حصة جديدة من رسوم البقاء في الوعر.

هذه المرة كانت البنادق بانتظارها، قتلوا ذئبين أغبرين كبيرين، وفرّت البقية في المسالك الضائعة.

استمر المطر بعد ذلك، وأفسدت المياه المجنونة نصف مزرعة غريبة وشاهين الخليل. وتعطل عمل المقلع، وأضحت النهارات سُلسلة خانقة ورتيبة من الزمن المتشابه الذي أنهوا فيه مخازن الحكايات جميعها. تلك التي كانت تنتقل من واحد إلى آخر، في الغرف المدخنة بالجلة، أو الجزل، أو الحطب.

أما الليالي فكانت طويلة كالموت، حاولوا أن يكسروها بالنوم والنسيان،

فترك هذا في روحهم حثالة تربة من الأسى والغم الذي لن يتمكنوا أبداً من إزالته، وبدا المستقبل أكثر فجائعية، دون وجه.

شامل كان يغلي، وهو يتمتم كالمجنون، لاعناً هذا القعود الشيطاني الحذر، كان يفقد روحه قطرة قطرة، ويحترق بلهب انتظار المهاجمين المجهولين من بحر الصخور، كل ساعة، ولكنهم لا يأتون.

عدت عليه وعلى إخوته الذئاب والثعالب، فراح يسخر من وضعهم البائس قائلاً بأن ما ينقصهم هو أن تتركهم الحمير نفسها، بعد أن ملَّت من رقادهم، ثم إن على النعاج أن تحمل البواريد، وتمضي إلى الحرب لتداوي جراحهم التي ينكؤونها بالتفاهات.

بعد قليل، ما عاد يصبر، لأن أخوته كانوا يغتالون بركان الهم في أعماقه، وكل ما يستطيع فعله هو أن يُعلن لهم كلّ مرة اكتشافه بأن هذه الحياة تافهة لا تساوي شيئاً. ولكن لماذا لا يفعل ما يقوله مرة واحدة؟!

هكذا فاجأ اخوته.

ففي الليل، حين كانوا ساهرين، قال لهم إنه سيذهب الى المنارة كان يرفع سبابته في وجوههم، ويمطر من عينيه شوقاً مزبداً لرؤية البلد الملونة التي عاش فيها منذ أن ولد.

كلهم تفهموا كلماته بلا نقاش، كأنما كانت خواطره وقراره موجزاً سامياً لعذابات أرواحهم، فقال نايل: «أني رايح معك!»

وقال صالح: «وأني رايح معك»

وقال هايل: «خذوني أني كمان»

وأخيراً وقف صايل، وقال وهو يتطلع إلى بارودته: «كلنا رايحين».

«يذكر أنَّه ظل يحرك نار الموقد البنفسجية بملقط طويل أسود، فأخذت تفرقع

فرقعات ناعمة. صار يهز رأسه شاعراً بأن الزمن يباغته، وأنّه يخطو نحو شيخوخة مبكرة، تتوغل فيه مثل دودة، ما الذي أخره عن قيادة إخوته؟ وكيف ظل متلهياً بتحريك الجمر، في الساعات التي انطلقوا فيها على ظهور خيولهم نحو المنارة؟

كان يراقبهم من الباب: خمسة فرسان غادروا الخرائب، بعضهم خلف بعض، وهم يغنون، مثل جوقة في الحرب».

قام كامل ومشى وراء الضوضاء التي خلّفوها، شيعهم إلى أن اختفوا في الممرات البعيدة كالماعز. ثم نبهه البكاء النسائي، من أخواته اللواتي صعدن إلى الأسوار كي يملأن بصرهن بمرأى الإخوة الراحلين إلى المكان الأثير القاتل. فصاح: «انزلوا!»

حين دخلن إلى القاعة حيث يجلس، سمعهن يبكين: لم يعد في جعبة آل الفضل سوى الرصاص والدموع. يرحل الرصاص بعيداً، خارج منفاه، وتبقى الباكيات هنا، يذرفن الخوف والشوق والرهبة.

قال لهن «خلص معش ولا وِحْدي تبكي» فسكتن، ووجدهن يحدقن اليه: ضارعات أم ضاغنات؟! ما تبقى له من الوقت لم يكفه للتفكير في نظراتهن. لأن الشيء الوحيد الذي فطن له هو السؤال عما يفعله هناك بعيداً عن منارته. كيف يتركها تنام هادئة وادعة، وهو هناك معذب مقهور؟ كم كان شامل في تلك اللحظات واضحاً، قوياً كالعقاب، حين تحدث عن «قلق المنارة» فقال: «أني رايح»

دلال فقط هي التي صرخت «لا!» بدت كالبلهاء، وهي تضرع إليه أن يبقى. تمنت لو استطاعت الآن أن تجمعهم كلهم وتقول لهم: «يا مجانين!» لكن كامل كان يخبُّ خارج الخربة وراء الصخور البعيده لاحقاً اخوته.

* * *

سار مختاراً الطريق الشمالية، كان القمر بدراً، وكانت الطريق قصيره أكثر

من تلك التي افترض أن اخوته اختاروا المرور منها. لقد خشي أن يغتالوا حامد في الدار القديمة. ولهذا رغب في مشاغلتهم عن ذلك.

المنارة!!

«ما يزال يذكر دهشته حين تأكد أنَّ منظر البلدة التي لم يرها منذ زمن لم يكن له علاقة أبداً بموضوع الذكريات التي كانت تسكن عقله، إنَّه الآن أبهى، وقد فُجع تقريباً لأن غيابه الطويل عنها، غيَّرها. وبدا له أنه كان يقتاتُ طوال الشهور التي انقضت صوراً يابسة كاذبة عن بلدة لم يعد يعرفها.

عبثاً حاول أن يتذكر متى رآها من الشمال هكذا، ولم يعد يعلم إن كان الغياب هو الذي بدَّل الحجارة أم أن الأيام غيرت صورتها. وظن لوهلة أنَّه مخدوع، وأن البلدة التي وصل اليها لا وجود لها على خريطة الوعر، فصرخ:

«يا منااراااه!»

يستطيع الآن أن يقسم أن كل الكائنات قد أجابته: الشوارع المرصوفة بالحجارة رددت أصداء صوته، والكلاب نبحته، والنعناع عبق في الفضاء، وثغت النعاج، ونهقت الحمير، وصهلت خيول مربوطة إلى معالفها.

هذه هي المناره، هذه بيوت الفلاحين. منتشرة هناك في أطراف القلعة كالفراشات. يليها حزام من مصاطب الزيتون، ثم منازل آل الجزار، وهامات أشجار الحور العجيبة التي اختصت بهم. ولا بدَّ أن تلك الكومة الوضيعة المظلمة الضائعة وسط العمائر هي بيوت المرابعين. ماذا يفعلون الآن؟ سوف يحزر: ربما يكربلون التبن، أو يحضرون عشاء الحلال، أو الجمال أو الخيل، ربما يتعاركون، أو ينثرون الكلام عن الفضائح الغامضة، يُرْفَس أحدهم بحافر حصان حاذق، أو يتزحلق فوق الروث الطري، أو يشتم وينادي على آخر من فوق، ويركض ثالث، ويتعثر. ويُسخر منه بلا رحمة، ويشكو خامس النعمة الموزعة بينهم، وهم يحيون كنج، ويحمدون سوطه الذي سحق القمل والبراغيث في أجسادهم، أو يسهرون

معاً، ينقون نفوسهم التي لا تعرف في هذا الجنوب المؤرق سوى ظلمة البوايك والتبابين. وقد تأتيهم ساعات جنون: يا لساعات الجنون التي سيندمون عليها! إذ يجرحون حصاناً لآل ا لحمدان، ويدلكونه بالروث كي يسمموا جلده، ويملؤوه بالبثور، ليمرض ويقتل دون أن يُعْرَفَ ماذا حدث.

من كان في تلك اللحظات يتجول في أزقة المنارة باحثاً عن سهرة شتائية دافئة؟! ابراهيم الحسن؟ أم أحمد الجزار؟ أم ذياب بن غانم؟ أم الزير سالم أبو ليلى المهلهل؟ أم ضاهر العوامري؟ أم علي الشامي؟! أم حسان التبعي؟!

يستطيع أن يقسم الان أنَّه صرَّخ مرة ومرة منادياً أصدقاءه القدامى دون أن يظفر بأي رد، أين اختفوا؟ ولمَ لايجيبه أحد؟

قعد هناك، دخَّن، وكان البرد يشتد، فالتف بجبته، وبالرغبة في تأمل طمأنينة المنارة الساكنة

استطاع بحدسه أن يكتشف موقع اخوته. لا بدَّ أنهم صاروا في الطرف الغربي عند منعطف الكلاب. كان يسبقهم، وقد أحس بالأمان حين أيقن أن الزمن، والحساب الخاطئ، يساعدانه.

فكلا الفريقين، كنج وأبناء محمد الفضل، لا يعرفان ابتكارات التشرد التي ورثها من قفار الجبل، ومن التهديدات بالموت، ومن عقل الذيب الأعرج.

«كيف بتخوف الناس يا حسن؟» سأله ذات يوم.

فابتسم الذيب وقال: «بسيطه، اذا فكروا إني بدي قوسهم، بقلّهم: صباح الخير! المرة الثانية بدْخل من الباب اذا كان في أي واحدعَ بيستنَّاني عند الشباك»

أين ينتظر كنج؟ كان يعرف أنهم يحرسون الطريق الرومانية، ومداخل المنارة، والجسرُ الشرقي الذي بناه قاسم الفضل قبل نصف قرن، والزمنَ الليلي نفسه.

لهذا اختار الدخول إلى القلعة من الجهة الجنوبية التي تواجه المضافة. من هنا

جاؤوا به من قبل، وقادوه إلى غريمه كالفاتحين! كيف أمكن له أن يسلم نفسه لعصابة عبيد؟!

تقدم عبر الزيتون، وضاعت ضوضاؤه، في الهبوب المباغت الشديد للريح، بدا الهواء منة ربانية كاملة. فتمادى في تقدمه نحو الضجة الخفية التي كانت تأتي من شقوق الحيطان، ممتلئاً بحماس ذئب. ما الذي يبدل الانسان؟ ، كيف يتبدل؟ هذا ما خطر بباله وهو يستعيد بلادة حاله ووهنه قبل ساعات.

وكلما أوغل في اقترابه، داخل المساكن المأهولة، والأصوات البشرية، كلما ازدادت شراسته، ورغبته في الاغتيال، وتقويض الرقاد الآمن، وإطفاء هذه الهمهمات.

حين أطل اطلالته الأولى على أبواب الحلس القديمة، شعر بثقل خاص في رأسه، فثمة في الباحة الواسعة، قرب محاطب لاهبة، أربعة مرابعين يتناولون عشاءهم.

عندما رأوه تجمدوا أمام فكرة الموت الذي أضحى أقرب من لقمة الحياة التي بين أيديهم.

لم يعرف أي واحد منهم، لكنهم عرفوا كامل الفضل من مباغتاته. صار لونهم نحاسياً، وقد تبلبلوا، وانتهى بهم البحث السريع المفاجئ بالعيون المتلصصة، وحساب التحركات إلى اليأس، حين أدركوا أنهم لن يستطيعوا الوصول إلى بنادقهم النائمة أبداً، لأن كامل بذاته هو الوقف هناك.

راح يحدقُ فيهم بعينين مقهورتين تائهتين في التردد، مفجوعتين بعاطفة خفيفة ورغبة مقوضة من الشوق إلى هذا الهواء الذي حرم منه. كان عليه أن يقتلهم، لأنهم سيقتلونه إذا ما ظلوا أحياء. لكنه مع ذلك اكتفى بأن قيدهم، ثمَّ قعد قربهم، يعيد التأمل في المنارة من الأسوار العالية الآن. أحس أنها فقيرة ومسكينة ومعدمة، بينما راحوا هم يحدقون في هذا المارد الذي يحيرهم بعواطفه الغريبة.

أخيراً حمل بارودته، ثمَّ صوب نحو نافذة مضافة كنج، وأطلق النار. تحطم زجاج النافذة، وسمع هرجاً، وصخباً، وصراخاً. أطلق مَرَّةً ثانية، وحطم نافذة أخرى، وثالثة، ثم أطلق في الهواء، واختفى وراء رصاصاته.

الاخوة البعيدون الذين كانوا يمرون الآن في الشوارع متجهين إلى الدار فهموا الرسالة جيداً، انتبهوا إلى صيحات «الوين راحوا» التي أخذت تتدفق من شرفات الأسوار والساحات. ومن القلعة هبط بضعة فرسان، واتجهوا نحو طريق أم الجرابيع. وكانت هناك مراسم تأهب أخرى، وفي كل لحظة تنطلق أمواج من الطلقات في ليل البلدة. ينفجر صراخ الاستغاثة الجبلي الأشهر: «وين راحوا!!!». وكانوا هناك يندفعون من بوابات القلعة، على صهوات خيولهم نحو الشمال، حيث سمعت بضع رشقات من الموزر، حيث صهيل الأشهب مرصعاً الوعر برسالة الربان الأكبر لآل الفضل: لقد أخلى المنارة كي يدخلها إخوته!!

تلك الليلة مروا على دار قاسم الفضل: مساء الخير يادار! مساء الخير يا هيلا! كانت رائحة الرطوبة والوحدة تملأ التيجان الحجرية، ونقوش الحنوت والزوايا، والأركان القديمة، وكانت الدار تقتات الخراب، وتوغل في التلاشي، دون أن تجد من يشفق على خوائها، ويباب غرفها الموصدة.

تجولوا فيها كأنما يرونها لأول مرة: من المضافة إلى العلالي. ركضوا نحو الحجرات الواطئة، هناك خبأوا متاع فضة الحمدان جدتهم أخذوا مخزن الذاكرة برمته: ثياب قاسم، وعدد الشغل الصدئه، والأعواد ثم جاسوا باحة الدار حجراً حجراً، ومسُّوا الأمجاد الغابرة في وداع أخير.

كانت هيلا تراقبهم، ونادت حين أرادوا الرحيل: «ترى ما غيرت شي بالدار».

مضوا إلى قلعة كنج، وراحوا يطلقون على الفوانيس المضاءة، يطفئون أنوارها وهم يصرخون: «هذه لكامل! هذه لكامل!»

وباغتيال أنوار الجحر الحمداني، أحسوا أنهم يمزقون بساطاً سميكاً من خوف جليدي أمسك قلوبهم طوال الشهور والسنوات، ويرممون صدوع أرواحهم، ويشعلون جواهم وشوقهم.

راح صايل يصرخ: «خذي يا منارة!» وهو يفرغ أمشاط بندقيته أينما كان في هواء البلدة المشغول!

بعد ذلك بأكثر من عشرين عاماً سوف يذكر هايل الفضل هذه الليلة، حين سيعود من هجرته، ويقف هنا في المكان ذاته ويتأمل حيطان القلعة المخرمشة في ضوء النهار:

«ما كان أحد ينتظره هناك، ولكن الخواجه النظيف الذي تجول في شوارع البلدة، يلحقه طابور من الأولاد. كان هو نفسه ذلك الفتى الحائر الذي جعل المنارة حلمه ذات يوم.

لم يكن قراره بالعودة سهلاً، ولكن حريق روحه ما انطفأ منذ أن قابل أنيس الحمد قبل شهرين في مرسيليا، حين أدهشه بأحاديث الحنين: كان يمشي في شارع الميناء، بعد أن انتهى ذلك اليوم من نسخ سبع لوحات من أعمال الطبيعة لمانيه، وكونستابل، وروسو، ودو بيني، وهو العدد الكامل الذي طلب منه خلال الشهور الخمسة الأخيرة. لقد ضمن بذلك حياة عادية للأشهر القادمه. وقد يستطيع خلالها أن يعود إلى باريس ويتابع الدراسة، والاهتمام بهمه الحقيقي الذي ابتعد عنه كثيراً. كان يعرف أنها أوهام عظيمة ماتني تتكرر منذ أعوام طويلة، قضى ثلثها في السجن وبقيتها متسكعاً مثل آلة تافهة.

لكن الحياة بدونها صارت صعبة، خاصة حين فقد الرغبة في العودة إلى الوطن مهزوماً بهذه الطريقة. راح يجول، كالضائع، المدن الفرنسية مؤجراً موهبته لمزاج المهتمين باقتناء نسخ من اللوحات الشهيرة. وفي كل مرة يحدوه الأمل بالعودة للدراسة ثانية، لكن بلا أمل.

هذا المساء كان مخرباً، وقد زاد في توجسه وغيظه، يقينه بأنه ملاحق وفي محاولة أو اثنتين للتخلص من متابعه، تأكد بأن الرجل لن يتخلى عن الوصول اليه. لقد أُخضع لمراقبة صارمة، وملاحقة نهائية، زاد في غرابتها فقر الرجل، واحتراق نظراته، واضطراب لحيته التي تغطي وجهه كله تقريباً.

بعد دقائق توقف عند أحد المنعطفات، وفي اللحظة نفسها كان ذلك الرجل الشبيه بناسك يبرز أمام عينيه، ويخاطبه، مغامراً بتلك اللهجة الناعمة النابضة التي لم يسمعها منذ زمن: «أنت عربي؟» قال: «إي! نعم!» بفرح مشجع.

فبان الضعف على الرجل، وقال بصوت مرتجف: «من السويداء؟»

كانت تلك هي المرة الأولى التي يسمع فيها هذا الاسم، بدا للحروف صدى آخر، وبدا في السؤال تطلب عجيب لأن يجيب: «نعم» أيضاً. أجل، لن ينكر أنه طوال الأعوام الطويلة التي أمضاها هنا، لطالما تمنى أن يفاجأ مرة واحدة، بمن يعيد اليه، قسراً، رباط هويته الضائع.

غمره الرجل بعناقه، كانت رائحته منتنة، ولحيته جافة مليئة بالقذارة ولكن هايل لم يتوقع أن تصدر عن ذلك البؤس، تلك الحيوية. بدا المشهد خيالياً طافحاً بالمرارة، ففي اللحظة التي كان ينوي فيها أن يهدر أشواقه، وجد رجلاً آخر يعدو نحو الحنين.

لكن الرجل لم يهدأ، وراح يبدي مزيجاً من الحركات العاشقة، والطقوس المجنونة التي يريدُ أن يعبر فيها عن لوعته. وعبر ذلك النسيج الرقيق الأبيض للذكريات. توقف مصفراً، مرتجفاً كفراشة، وهو يستعيد تلك الظلال البعيدة الغارقة في النسيان لمرابع الماضي البديعة.

الغريب الذي غادر السويداء قبل هايل، كان يحفظ تفاصيل البلاد بذاكرة قديس. ولم تستطع سنوات السجن في جزيرة الشيطان، انتزاع أي جزء من ذكرياته، أبداً، لقد أرستها ومكنتها من البقاء، كما روى له، بحيث أنه يستطيع،

بكل يسر، التحدث عن كل شيء في الأزمنة الغابرة، كأنه حدث بالأمس. لأنه، وهو قابع، هناك، في تلك الجزر النائية وسط المحيط، أدرك أن الأمر الوحيد الذي يستطيع انقاذ عقله من الجنون، هو منع الماضي من الانهيار. هكذا تصبح مدن الذاكرة أعظم من العالم الحاضر، وتصير الأحلام أجمل من الحياة: «أنا رجلٌ يعيش في دفتر!»

كان قد أمضى سنوات سجنه في منافي غويانا، في انتظار ممضٍ عسير للعودة، ومنذ أن عرف بفشل جميع المحاولات التي قام بها السجناء للهرب قرر أن ينجو بطريقة واحدة فقط، هي الاستسلام لبندول الزمن. وتغير الأيام، وحين بدأ يتلو ذكرياته عن منفاه بدا مشوشاً، خلط السنوات بعضها بالبعض الآخر. لكنه منذ أن وصل إلى اعتقاله، بدأ يحكي بتفصيل عجيب لا خروق فيه: تلذذ بالجزئيات، ودون اختيار أو اقتطاع، دون أن ينسى شيئاً، أعادَ خلق صورة الجبل كثيفة، حية، ورطبة كالأرض المحروثة.

كان إصراره على سرد التفاصيل، يشبه قدرةَ الخلق. فقد جلب إلى هنا، حيث يجلسان معاً قريباً من الشاطئ الآخر للبحر المتوسط، رائحة اللجاة العظيمة، وألوان ربيعها الخفيف المنتشر بفوضى غريبة معجزة، بين شقوق الصخور البازلتية، وأشكال الآبار، وتوزع القلاع الصغيرة والكبيرة. وعدد أشجار البطم، وجذوع الزيتون البري المقطوعة، والفوالق الهائلة التي صنعتها الزلازل أو البراكين يوماً، صوت الزيزان والصراصير، والعقبان والبواشق، وشقرقة الحجل، وخبث السنونو وركضه المتواصل في الشعاب.

تذكر شعائر الموت، وطقوس الأفراح، وغنى بصوت خفيض لحناً رفيعاً من الحداء: خذ طعم العكوب! هل تستطيع نسيانه؟ أبداً، خاصة تطبخه زمرد مسلوقاً وسابحاً في الزيت والبصل؟ ولون القمح والشعير وظلال الأحراش الزرقاء البعيدة في الجبال، وضخامة الأشجار فيها حيث كنا نختفي عن أعين الفرنسيين! تصور أنَّ شجرتين فقط من السنديان أخفتا فصيلة من الثوار «يضحك» الخيول أخفيناها أيضاً

بين الاشجار كانت لها رائحة لذيذة لا تنسى، ونحن نتوارى فيها، لأن رائحة شجر الغويانا بائسة، وممتلئه برطوبة لاذعة تبعث على الملل. وهنا مستنقعات كئيبة، وذباب، وحشرات قاتله بخلاف الجبل، هناك كنا ننام ليالي طويلة دون أن نخشى أي خطر! هل رأيت اللبيدي مثلاً! عصفور غبي وغشيم، ينظر اليك وانت تصوب بندقيتك ثم يموت بكل راحة، أو يركض بضع خطوات حين تخطئه قائلا لك: من هذا المكان أفضل. صوب! أطلق!

هايل الفضل رأى ضياء بهياً في كل الحديث الذي تلاه السجين العائد الذي عرف اسمه في تلك الساعة: أنيس الحمد! قال برقة وحب، لكن وجهه تشوه تماماً حين سمع اسم هايل، توقف عن الابتسام، وشبك أصابع يديه، ثمّ نفخ هواء رئتيه، كأنه يرغب في الهروب من انفجار فظيع، وسأل: «بتعرف رجال اسمه شاهين الخليل؟!»

عندما وصل إلى غوايانا، كان أول نبأ صادفه هو الحديث المتوهج المدهوش عن شاهين الذي استطاع الفرار بعد ثلاث سنوات من وجوده هناك. لقد عرف أنه أحد المحكومين بالأشغال الشاقة لمدة ثلاثين سنة اشتهى أن يعرفه، وابتهل إلى الله كي يساعده، غير أن ما حدث له حدث للآلاف قبل ذلك: لقد أعيد وحُكم بالسجن خمس سنوات أخرى قضاها في الانفرادية بجزيرة الشيطان، ثم رجع إلى المعتقلات. قال أنيس:

«أني بعرفك يا ابن الفضل وبعرف كل اخوتك»

كان شبيهاً بهوميروس وهو يروي رحيل المحاربين الشجعان، وبطولاتهم واندفاعهم الخرافي ضد الدولة المطلقة القوة. لكن هايل، أحسّ، بسبب الألم الساحق الذي أصاب روحه، بعد سماع أخبار شاهين، بأن الانسان كله لم يكن أكثر من سخافة حقيرة لا معنى لوجودها. اختلطت الأفكار في عقله: لماذا تبنى دولة خارقة، انبتت أعظم العقول، والمعلمين، والمبادئ الفردوسية، سجناً وحشياً كهذا كي تضع فيه بضعة رجال دافعوا ذات يوم عن بلادهم؟!

لكن انيس صار يقهقه، فالغويانا لم تكن مجرد جزيرة أو جزر داعرة تحتفظ بمصير بضعة رجال! إنما هي أوقيانوس للشر الفالت الذي نمّاه وكيفه وانتجه عقل جميع الغزاة والطغاة والجلادين في دولتك العظيمة. الغويانا بلد الشيطان نفسه، لغة خاصة لمعقل ضائع خارج الزمن، ولا زوارق، ولا بشر ولا سفن ولا أية فكرة عن العودة. كل الساعات ممتلئة بالموت المجاني المحتمل. والعائد من هناك مخلوق كوني من الغازات، معبأ بإرث وحيد هو ذكرياته فقط، أما الباقون فهم سكان تحت الأرض، مكان ملغز يبعث الغيظ في العظام نفسها. حيره هذا: هل سبب الشوق هذا السواد والرجس والفجور والضغائن تجاه سجانيه، أم الحقيقة أم الغربة؟ سؤالٌ عارضٌ، كما رآه، وقد عزاه إلى السنوات الطويلة التي قضاها هنا. ماذا فعل حقاً؟ لا شيء. وإذا ما جمع ذكرياته، فلن تملأ حقيبة يد صغيرة، ولن تقدم سوى الخيبات.

كان يكذب على نفسه كل الوقت ويؤجل لحظة المكاشفة إلى زمن آت، لا يأتي. «أنت لا شيء» هكذا جذبته فكرة صادقة نبتت في أعماقه إلى واقعه التافه. وبدا أنيس الحمد بلحيته المعجمية الحافلة بالألوان واعظاً أسطورياً خرج الان كي يقول له الحقيقة الوحيدة التي أهملها وتناساها في هذه البلاد العجيبة التي لم تعلمه شيئاً سوى أن يقلدها. أجل لم يكن سوى ناسخ لوحات شهيرة، أعطوه حق الحلم، وثمن أتعابه، بينما كان ينتظر أن يصبح ذات يوم سيزاناً آخر مثلاً ليعود إلى آل الفضل. بعد الغياب المديد بتاج الشهرة. كذب!

كذب رخيص لا اكثر، وقد بدا له أنَّ تلك الاشياء البسيطة التي خربشها ذات يوم في أم الجرابيع، بساط ريح، وصار ذياب بن غانم شبيهاً بحامل الرمح، وراح يندب غيابه الاخرق.

لكن السويداء لم تغره كثيراً بالبقاء فيها حين عاد، أصابته التغيرات التي أضفاها الوجود الاستعماري عليها، بالغم. حين رأى كيف بنوا حياً جديداً من الأبنية القرميدية ذات الطراز السويسري، في التلال المنبسطة شمال المدينة. وأحاطوا ميدان الخيل في الوسط بسور حجري متين.

بدا المكان معادياً، لا علاقة له بالوجود الخيالي الممعن في الضياء والألق لذاكرة أنيس. فشل في استعادة أي شيء من معرفته، فقد رأى السويداء مرة أو مرتين في فتوته. ما شاهده آنها، كان عالماً آخر من البيوت المتجاورة، والشوارع المتعرجة، والأزقة، والساحات الضيقة الأليفة الممتلئة برائحة ربات البيوت ودواب الحراثة، وشيطنة الاولاد.

لكن ما يراه الان، ما كان سوى صورة أخرى، مقلدة لعمارات اوروبا، مضافا اليها توابل من العسكر، والضباط، والمدفعية المرابطة أمام الأبنية، وطعم الوجود الأجنبي.

طاف بالمنارة حارة، حارة، ثم رحل عنها نحو أم الجرابيع، بحمله الفلاحي الكبير المؤلف من أمنيات اشتراها بكل حماس: أثواب عربية كاملة لست نساء، وفوط بيضاء وسمراء من اليشمه والجورجيت، وأحذيه وأكياس قهوة، وهيل، وسراويل سوداء وبيضاء، وحطات صفراء وحمراء، وست جبات ملونة من الجوخ، مقصبة بالحرير، ودلات قهوة من النحاس وفناجين صينيه رسمت عليها أبراج عالية، ونساء سعيدات، وكرتونة راحة، وأخرى من الهريسة، وخام ابيض، وسكر ورز.

قاد الحمار في الدرب القديمة الشمالية التي صاروا يسمونها: درب الحمير!

* * *

(٢٧)

رغم أنَّ الرسالة الصغيرة التي وصلته، كانت مكتوبة بخط فاتر، وحروف شاردة متباعدة، فإن كنج فهم محتواها منذ البداية.

كانت معرفته بالشيخ منصور واهية، وقد اقتصرت لقاءاتهما حتى تلك الساعة على المحافل ودعوات الغداء، تبادلا خلالها بضع عبارات فخمة.

ومع أنَّ الجمل صيغت بلغة عاطفية مشحونة بالوداد، فإنَّ براعة الكتابة عجزت عن إخفاء دهاء الغرض الذي دفعه اليها:

كلاهما: كنج وضامن العسّال، تبادلا نظرة تفهم مشرقة. ليكن! فالشيخ مهتم باللقاء والمقابلة، وقد كانت حصافته تعجبه، وكان دؤوباً على الاستماع إلى مواعظه الماهرة، الخصيبة التي يتحف بها ليالي العزاء الكئيبه، ويملؤها بالقصص المجنحة الرطيبة للأنبياء والرسل والأولياء والصالحين دون أن يغضب أو يزهد، ولم يكن يضارعه أحد في اجتذاب الأسماع إلى حديثه المحتوم المشبع بمحبة الأقدار، والترويج لها.

لكنَّ رائحة الدنيا ما كانت أقل جمالاً لديه، فالرجل يعرف معنى الحياة كما يريدها كنج تماماً، وهذا ما شده اليه، حين وجد أن الشيخ كان ينبذ علناً ترهات المتدينين، ويستبدلها بدعوة حارة صاخبة للغرق هنا، في الزمان والمكان البشريين. بدل التشهير بتفاهة الحياة، وزوالها، ولا حقيقية السعادة فيها.

حتى أن بعض أحاديثه كان فاجراً، مليئاً بمسارات اللذة، وشهية الحديث عن النساء.

وجد كنج نفسه يوزع الأرزاق على فلاحيه، ومرابعيه، وعبيده خلال الأيام التي ظل هنا ينتظر موعده، مسيراً بوساوس تسيطر عليه كل مرة قبل السفر، فتملأ عقله بغيلان التوقعات السوداء والخوف الأعمى.

كان يخشى الموت، ويتسمر إزاء الساعة التي تسبق السفر وتغيِّر كيانه كلَّه، متوهماً أن المبعوث الالهي ينظر إليه، ويراقب حركاته، بنظرة بارعة خبيثة، لارحمة فيها، عندها لايملك ما يعالج به ضعفه سوى القرابين والأضحيات التي يبذلها.

كان كرمه وعطاياه يشفيانه من الكآبة، وفي يوم رحيله إلى قرية الشيخ، تجول في المنارة فجراً، محاولاً طمر الرغبة في الهزيمة، والتخلي عن المكاسب التي وعدوه بها.

لكن شكر الفلاحين، والعرفان الذي غمروا به الخير الذي أغدقه عليهم، كان يستحثه، ويرفرف فوق رأسه كجناح الرحمة.

عند شروق الشمس، في اليوم الموعود، كان ضامن مستعداً قرب المدخل الجنوبي، بانتظاره.

تحركا نحو الشرق، محروسين بعشرة رجال رافقوا البك حتى مشارف السنديان.

في الطريق، نظر كنج إلى رجاله نظرة تشاؤم، لقد رآهم مثل المشيعين، وحين توقفوا، وودعوه، قبل أن يعودوا إلى المنارة، أصدر أوامره الأخيرة بأن يستبدل جميع الحراس الجبة السوداء المقيته التي ودعوه بها بجبة حمراء مقصبة، وقال لضامن وهو يراقب الفرسان العائدين: «العمى! مثل الغربان!»

غير أنَّ الأحداث التي تلاحقت بعد ذلك أوقفت إلى الأبد حسَّ الفجيعة الذي لازمه حتى الآن، فقد رحلوا بعد يوم واحد إلى الشام، وهناك استقبلوا بثلة من الجنود المسلحين وحرستهما دبابتان غريبتان حتى وصلوا إلى بناء قديم ذي مظهر تركي خشن.

كان الضحى شاحباً، وممتلئاً بغيوم جافة، وبضجيج العربات، وكانت الشوارع المفضية إلى المكان محاصرة بالحراس، وبضعة رجال مدنيين، وحين دخلوا الى القاعة التي خصصت لهم، فوجئوا بالأثاث الافرنجي الفخم، واللوحات الغريبة، أما الرجل الفرنسي المربوع الذي دخل إلى القاعة، فلم يستطع، رغم بشاشته وسكينة الروح التي اصطنعها، أن يكسب ودَّهم:

كانت عيناه مسكونتين بالصدأ، وكان يبدو عليه النعاس والملل، والرغبة في الرقاد.

وراءه سار رجل ذو ملامح عربية، وقد سمع كنج فجأة خليطاً شديد الحماقة، من الكلمات، بينها، كما يذكر، بضع كلمات مفهومة. وأخذ الفرنسي يتجول في القاعة بلاتوقف، وكلما أراد أن يبدي فكرة جديدة، كان يتوجه إلى الشيخ منصور، أو الى الرجال الخمسة عشر الآخرين، رافعاً إصبعه في وجوههم، دون أن تحمل أية شبهة. وكان العربي واقفاً في مكانه يحول الكلمات الخفيفة المتساقطة كالحصى، إلى سطور مقروءة يرددها أمام الوفد الجبلي المتثلج.

خرج الفرنسي، بضع دقائق، ظن كنج أنه نام فيها، لكنه حين عاد كان يمضغ شيئاً ما، أثار حفيظة الرجال الذين استغربوا أن يعجز رجل بمثل هذه الضخامة، عن الصبر على الجوع ساعة أخرى ريثما ينتهي الحديث، أو أن يتناول الطعام وحده.

ساعة بعد ساعة، كان الرجل يبدي نفاذ صبر، وأطلق بعض الشتائم التي نقلت إلى لغتهم، بكلمات حاذقة تعمد المترجم أن يؤولها، مستنداً إلى جهل مستمعيه وانبهارهم.

عند الظهر، أصبحت المباحثات ثقيلة، لقد طالت أكثر مما يستطيع رجال اعتادوا اقتطاع الأحاديث، واختصار الجمل، تحملَّه، وفهمَه.

أما التبديلات التي كان يجريها الفرنسي، أو الشيخ منصور، على نصٍ طويلٍ مقيد ضمن بضعة أوراق بيضاء، فقد بدت عبثاً وغموضاً.

وزادت الرياح المفاجئة التي أخذت تهب على شجرة الليمون الضخمة المجاورة للنافذة في بلبلة أفكار كنج، وأخذ يفكر بطريق العودة، وقد خشي هياج الطقس، ثم خطرت بباله فجأة تلك الروايات القديمة لابراهيم عن الطريقة التي يعدم فيها الفرنسيون المحكومين:

كان يراقب الآن الألعاب التي يقوم بها مهرج مقنع واقف في الفسحة الضيقة، بعيداً عن النافذة، يمثل لجماعة من الجنود مشهداً غير مفهوم. كان يومئ فيه إلى رقبته، وعينيه، ثم يقتل، ويحمل إلى جهة مجهولة بأيدي المتفرجين الذين اصطنعوا جدية عجيبة. واندماجاً حماسياً صادقاً في الأدوار المسلية.

وقال لنفسه إن أفضل الطرق لتحمل البرد، هي نسيانه، ولكنه لم ينسَ أن يحسد نفسه على المكان المدفأ، في الوقت الذي يتعرض كل أولئك الجنود المزركشين، السود والبيض والسمر، لزمهرير الظهيرة (هنا شرد قليلاً وهو يفكر من أين جاء السود؟)

شعوره بالعظمة، تلاشى الآن، إزاء شخصية الفرنسي القاتلة. ذلك الرجل الذي لم يجلس حتى الان، وإنما بقي، كالمغزل، في القاعه، شابكاً ذراعيه حول صدره، أو عاقداً كفيه وراء ظهره، مفكراً دون لهفة ودون إدعاء.

كنج الحمدان الذي امتلأ قبل ساعات (حين استقبل كالقائد) بالضياء تقوَّض الآن من الداخل، وتلفت بهجته، كلما أمعن الوقت في التقدم حتى إذا ما صاروا فيما بعد الظهر، بدا أن الرجلين اتفقا، ووقف الشيخ منصور، وهنأ نفسه، والوفد الصامت الذي رافقه، ثم أشار بيده إشارة العارف.

بعد ساعة أحضروا أوراقاً مكتوبة بخط جميل شطبت فيه بعضُ العبارات، وطلب المترجم إلى الحاضرين أن يوقعوا.

وما ان أخرج أول واحد فيهم خاتمة، حتى سارع خادم ملون باحضار علبة قرمزية كبيره، ليضعها أمامهم، وأخرج المترجم قلماً أسود قائلاً بلطف: «إذا أردتم»

ختموا الأوراق دون أن ينطقوا حرفاً، ثم تقدَّم الفرنسي الربعه، وأخرج قلمه من جيبه ووقع: «دي كيه!»

كانت تلك هي وثيقة استقلال الجبل، التي وقعها كنج برفقة خمسة عشر زعيماً، وقد بذل شاهين الخليل جهدَ العمالقة كي يشرحَ لأبناء عمه معنى البنود العجيبه التي تضمنتها.

كان يبكي تقريباً، وقد راح يسهبُ في البوح بجميع الأخبار والمعارف التي جمعها طوال الشهور الماضية، وخبأها عنهم محاولاً أن يؤجل الكلام الخطر المتفجر إلى الأبد: إنهم هناك، وقد اخترقوا هضاب ميسلون التي انهار المدافعون عنها، تحت وطأة القوة النارية الجباره لمدافع غورو واحتلوا الشام بعد أن تخلى عنها الملك فيصل راحلاً إلى الأردن، ذكر لهم حكايات عن التمردات ضدهم، وعن انذارهم المكفهر الى حكومة دمشق، ودخولهم الظافر بعد ذلك اليها. إنهم هناك، راح يردد أمامهم، وقد ذهب كنج اليهم وجلس مع واحد من كبارهم، وكتبوا ورقاً، ووضعوا أختاماً ثم عادوا.

كان كامل يتأمل صهره مندهشاً من انشغالاته المغولية، والتغير السافر الذي أصاب شخصه: كان محموماً، وهو يعد التفاصيل، والأرقام الجديدة، التي كلفته حزنه هذا، وثورته، ولهجته العالية، وتدخله الحماسي في شؤون منطقة بدا طوال الزمن السابق، معزولاً عنها، منهمكاً في مشاكله، وهموم شغله فبدلاً من الطباع النباتية الرخوة، والجسد المترهل الجاف لطبيب جوال، اكتسى الرجل قوة معارض، ونفسَ محرِّض راح يعبئ الرجال من آل الفضل بالمخاوف والاحتمالات السوداء.

وظل كامل يحدق فيه، وفي الأنباء التي يسردها الآن، مفكراً في ظنونه التي جعلته يصدق بأن كنج قد تراخى، وأهمل ثأره، وأحقاده بينما كان في الحقيقة يحكم أنشوطة الانتقام، ويدحرج ساعات الانتظار بدأب خنفساء، كي يصل الى اللحظة التي يغلق فيها جميع المنافذ أمام ساكني خرائب أم الجرابيع.

أحسَّ بالضغينة تجاه تفكيره القاصر الذي لم يستطع أن يحدس بالفواجع التي يدبرها عدوهم لهم، أحس بالخطر الذي يحدق بهم أيضاً، صار يراه مشخصاً، وموجوداً في حاضرهم كحيوان لاحم يتربص بفريسته.

عرته قشعريرة وهو ينظر إلى قامات إخوته، ويتخيل الأضرار التي سيلحقها بهم كنج: التهجير ثانية؟! أم السجن؟ أم الموت؟

نسي نفسه في خضم الصقيع الذي جمده، نسي أن يتساءل: ماذا سيفعل كنج له أيضاً؟ وكيف سيثأر منه ومن دلال، ومن هجومه المفاجئ على قلعة المناره؟ ومن تحطيمه لغرور حراسها، وتلويث سمعة قوة ظلوا طوال السنتين الفائتين يزرعونها في اللجاة كلها؟!

منذ اليوم صار بمقدور كنج أن يقول بأنه حقاً صار ذا يد طويلة، وأنه قادر على تعقب الناس، وعد أنفاسهم، ومعرفة خواطرهم، والتنصت الى همسهم الليلي، وحفيف مضاجعاتهم، وخطط الفلاحين، ونمائم النساء، ولا بد أن كل ما فعله كامل، سوف يصير حبلاً معلقاً جاهزاً لشنق آل الفضل في أي رواق من أروقة المناره، أو دروب اللجاة.

بدا له أن كل ادعاءاته، مجرد لعب رخيص، تافه ولا قيمة له أمام التدبير المذهل الذي اتخذه كنج، لقد أدرك أخيراً، أنهم كانوا كالدجاج، لا يرون أكثر من حبة قمح واحدة، بينما كان كنج، مثل الذئب، يعد القطيع الكثيف، كي يلتهم نعجته السمينة مرة واحدة. يا رب العالمين! من أي المواضع جاءته تلك الحكمة؟!

وفي الوقت الذي ظنوا فيه أنهم هيمنوا على قلب اللجاة، وسيطروا على دروب الكسارة، من أم الجرابيع، كان كنج يخطط، ويرسم قصة ضياعهم في الزمن ببرود أفعى.

لم يفهم كثيراً من بنود الوثيقة الاستقلالية، ولم يدرك لمَ يروم كنج الاستقلال عن بلاد لم يحكمه أحد فيها بعد. ماذا يستفيد هذا اللعين حين يجعل من البداهات ألغازاً لا حل لها؟

الاستقلال؟! كلمة خارقة أرقته كل الليل، حتى إذا استيقظ عند الفجر قال إن دي كيه هذا لم يأتِ إلا ليغتال آل الفضل جميعاً بعد أن عجز كنج عن نيلهم هنا.

* * *

وفي المنارة استقبلوا كنج عند المشارف الجنوبية، منذ أن علموا بعودته، كان ضامن العسّال موجوداً هناك، وسار في البلدة، بيتاً بيتاً، يرافقه خمسة من المرابعين المسلحين، لدعوة الناس إلى الشوارع ومشارف القرية للترحيب بالبك.

أول ما انتبه إليه هو مهارات الخولي الرهيبه: أنساق الرجال والشباب، والنسوة الملثمات، والأطفال الملونين الذين ينتظرون في الهواء الثلجي وصول موكبه، ومفرزة الفرسان التي تتقدم عند سهل الزارزير كانوا يتسابقون على ظهور خيولهم، ولم يستطع أن يعرف إن كانوا أكثر من خمسة عشر فارساً أو عشرين بسبب الغبار، وجري الخيول، والبيارق المرفوعة فوق الأحصنة.

وحين وصل إلى السهل، أوقف ضامن الذي تركت له الان قيادة الاحتفال، الموكبَ المتقدم بإشارة خفيفة من يده، لبى كنج الأمر أولاً، ونزل عن الحصان، ولكن ضامن استدار بسرعة وقال بلهجة وعرة: «لا يا بك، على ظهر الحصان أفضل!»

إنّ المنظر الرحيب الذي يمكن الاستمتاع به من على صهوة الحصان، أكثر جمالاً وخصباً بعشر مرات مما يراه الراجلون! ولا بدّ أن العسّال يملك عيون الجوارح، حتى يتخيل المشاهد الشامخة بهذا اليسر والضياء!

بإشارة أخرى من حطته البيضاء، اندفع الفرسان الذين كانوا مصطفين بعيداً عند صخور النواطير في السهل، على موجتين، تلت كل واحدة منها أسراب من الزغاريد النسائية المخزونة، وطلقات مرابعين متفرقة:

كانت دفعة كريمة من الخولي المخلص الذي لن ينسى فضيلته هذه أبداً، توجته بإحساس جديد بالانتصار لم يجربه من قبل، لا هنا، ولا في الشام، ووصل

إلى الاستنتاج واليقين بأنّ ما فعلوه، كان صائباً، وأن محاسن المسيرة الجديدة التي أعلن منذ يومين بدأها، راحت تتدفق على إيقاع الطقس الفلاحي العظيم، ازداد إحساسه بالمسؤولية، وبالسيادة، والرغبة في الاخضاع: إنه سيد المنارة، زعيم هذه الأجساد المحتفية، نبي هذه اللغة العجائبية التي يستقبل بها، كلُّ شيء صار ملكه، وبتلويحة من خوليه الرصين يتحرك من يشاء، ويقف من يشاء. وتنطلق الخيول، ويصعق البشر والأشجار:

أما سباق الخيول الذي كان في منتصفه فقد قدم له جميع الذرائع كي يختبر بنفسه هذه المره، قوة أسلحته جميعاً.

فالفائز في الجماعتين اللتين كانتا قد تسابقتا، بدد جميعَ المحاولات التي بذلها منافسوه، وطار بفرسه أمامهم بأكثر من عشرين متراً. كانت جدائله تلوح من بعيد، ألقة، وقوية، وهو يعدو فوق صهوة الفرس مثيراً شريطاً من الغبار المتراقص الشاحب وراءه.

لكن الشعابَ أخفت نتيجة الموجة العائدة، وحين برز الفرسان من وراء التلال، كان اثنان منهما يتدافعان بقسوة، وسُمعت تعليقاتٌ من الحشد، ولكن كنج رفض أن يتدخل، ولم يجرؤ واحد من الرجال الذين امتلأ دمهم بالتحفز والرغبة في النزاع أن يتقدم خطوة واحدة حين رأوا إلى بنادق المرابعين المشرعة، وظل الفارسان يتدافعان حتى وصلا إلى منتصف المسافة، عندها وقعا معاً، واشتبكا، وراحا يتمرغان في التراب، ويغلبُ كل واحد منهما الآخر ثم يقفان، ويتضاربان بالأكف، والقبضات، ثم ركل أحدهما الآخر في بطنه، وبادله الثاني الركل، وتدحرجا كديكين خفيفين على الأرض وشالَ واحد منهما الاخر عن الأرض، ثم بطحه وحاول أن يدوس رقبته، ولكنه وقع فجأة إلى الوراء، حين سُمع صوت رصاصة، كانت قد اخترقت جنبه الأيمن ومزقت أحشاءه.

ضامن العسال وسلمان الراضي، اللذين تفهما موقف كنج، أسرعا مثل ثعلبين إلى موقع الميت الذي أحيط بالنحيب والنخوات وزعيق الأطفال، وشقا صفوف المتقاتلين هناك، بخمس عشرة بندقية. صوبت إلى كل ناحية.

سمحوا بالكلمات، والشتائم، والغضب، والتهديد، لكن الرصاص كان جاهزاً لإصابة أي تجاوز، وحين وصل كنج، بدا المكان مؤهلا ومرسوماً في لوح القدر لهذه اللحظة، خلع عباءته، فبان صدره، المجند بجعب الرصاص وخصره المزنر بالفشك، ثم تقدم، ووقف قرب والد القتيل أحمد الجزار وغطى صقر ابنه، وعزّاه، وطلب إليه أن يصالح!

الأب المفجوع، أدرك الحقيقة الجديده للسيد المنتصر، وحين راقب الموقف الصاخب المتخم بفوضى الخراب، تأكد من إنّ هذه اللحظة هي لكنج فقط. وأنّ دمً ابنه قد ضاع، ولم يدرِ لماذا خطر بباله أبناء الفضل المختفين منذ دهر في اللجاة. وكان هذا مدهشاً لواحد من آل الجزار الذين ظلوا طوال قرن مؤيدين لآل الحمدان!

ومن بحر مصيبته، رفع رأسه المثخن، وحدّق في المدى بعينيه الصغيرتين، تأمل الحشود المكفهره، وعلم أنَّ عليه أنْ يقول شيئاً ما. لا مفر، فغمغم:

«اعقدوا الراية!»

نعم، لقد أنقذ بقية آله بكلمتين، ولا يهم بعد ذلك إن كانتا قد خرجتا كالحشرجات، ولا يهمه البيرق الأبيض الذي ارتفع مغدقاً على الموت نسيج السلام، تجاسرت الشعائر على قلبه، وغلبته أبجدية ا لكلمات، فراحت شفتاه تنطقان بما يراد منه أن يقول، وهو يحسُّ أنه يكفر، ويعتدي على إيمانه، ويدجّل، ويتلف جبالاً من طباع الجزارين الممجدة بذكر الثأر.

ولكنّ ذلك كله كان نعمة لكنج، وبنظرة واحدة إلى الحشد المطيع، المطأطئ، أدرك أنه خرج إلى الأبد من مساكن الفلاحين، وبلا سبب احتقر مشاعرهم الحمقاء الرهيفة التي يثيرها أي شيء، خفيفاً كالكلمة كان، أو ثقيلاً كالحجر. لذلك فإن أول المراسيم المشيخيه العظيمة التي أمر بها كانت بناء السجن الجديد في المنارة، وقد وضع فيه هاني العباس الذي قتل صقر الجزار رغم الراية التي عقدوها.

أحدث وجود ذلك السجن بلبلةً ورعباً قاتلاً في المنارة، وبسبب ذلك أباح

لضامن العسّال وسلمان وحمود أن يسدوا أي فمٍ يفتح، ويكسروا أي يد. وقال في سهرة الثلاثاء إن السجن ضروري كالخبز، ولم تكن عبارته بحاجة لشرح، فالحبس نفسه كان تنوراً قديماً، أُصلحت نوافذه وسُمِّرَ بابه جيداً وتُرك الشحّار فيه.

وبسبب إحساسه المتعاظم بتحقق انتصارات مذهلة، ابتلع تلاً من الدخان الذي جيء بقسم من تبغه خصيصاً له، من متاجر السويداء، أما القسم الآخر الذي وصل طازجاً جاهزاً للفرم، والتقسيم بحسب الرغبة. فقد بعث به أبو معروف، عرفاناً بالحماية، من الشام.

ولكن حقداً جديداً استوطن في عظامه ضد آل الجزار، حين علم أن أحمد زار آل الفضل في أم الجرابيع، فوجد نفسه مرغماً على قراءة عشر صفحات كل يوم من سيرة بني هلال!

وخلال ذلك لم يكف عن التفكير بصباح، حتى أنه زاد عدد القناصة في دروب اللجاة، وحول أم الجرابيع، واشترى خمس بنادق جديدة، كانت إحداها مزودة بمنظارٍ ساحرٍ يجعل أي مخلوق يراد قتله قريباً، وواضحاً كأنه في اليد!

وحين أوضح له محمد العابد أنّ المنظار من صنع فرنسي، اعتبر ذلك تقريظاً لحكمته، ومعارفه، وسعة فهمه.

وفي جميع الأحوال صار منذ يوم دمشق يعتبر كلمة فرنسي أينما وضعت، بمثابة شهادة، لها أن تمرّ على المكرمةِ العظيمةِ التي اجترحها.

حتى ذلك الوقت، كان الفرنسيون ما يزالون في الشام، ولم تتحرك قواتهم نحو السويداء بعد. وفي أعماقه كان يتمنى ألا يأتوا، قبل أن يتزوج سيدة المنارة ووردة اللجاة التي تمسُّ شغاف قلبه كالموج.

وفي الليل أخذ المتسلقون المهرة، مرهفو الأسماع، القادرون على إخفاء حركتهم من رجاله، ينصتون طوال الوقت، رغم البرد والزمهرير إلى ما يمكن أن يقوله، أو يفعله أحمد الجزار.

كانت مشاعر كنج ما تزال تلهمه بأن حليفه الأبدي يوشك أن يرتد، ولكن جواسيسه، لم يأتوه بشيء، لقد حطمت المأساة المفاجئة كيان الجزار، وطوال شهر بعد ذلك، لم يغادر مضافته، وحين زاره كنج، زيارة ودٍ، فوجئ بأنه كان ممتلئاً بخضرة الموت وملح وحقد دفين. وقال ضامن إن الرجل يخفي وراء مظهره الترابي حقد الجمال، فأجاب كنج بأنَّ الله وحده هو الذي يحاسب الناس بسبب ما تخفيه ضمائرهم.

لم يظهر الجزار أي شيء، ولكن ضامن أدرك، دون آلام تقريباً أنه بسبب التوابل اللعينة التي يحبها، يفلتُ لسانه أحياناً، ويتجاوز تخوم المسموح، ولكن ماذا يفعل، إذا كانت تلك الحدود نفسها غير محروسة، مهترئة، وبلا أحجار؟!

(٢٨)

بعد شهر ذهب شامل إلى السويداء ليتفرج على الجيش الفرنسي وهو يدخل المدينة! تلافى الدروب المعروفة، وأحتاج إلى بصيرة حصان للوصول إلى هناك دون أن يلاحظه أحد رجال كنج، وقد أعاقته الأمطار التي عادت إلى الهطول بعد الظهر، فلم يصل حتى المساء.

أما بيت مضيفه، فقد دخل إليه بعد غياب الشمس مستعيناً بشابين تطوعا ورافقاه إلى هناك، ولهذا فإنه لم يستطع ملاحظة أي شيء في المدينة التي تنام مبكراً، سوى شارعين طويلين معتمين ومحاطين بصف من الدكاكين المغلقة، والمتاجر ذات الأبواب الحديدية الضخمة، والفراغ. كان مبكراً على اللقاء بحنا، ولأن موعدهما هو يوم الثلاثاء، فقد بدا الاثنين بلا معنى، وبدت المدينة كلها عابقة بدخان المدافئ.

استقبله شيخ طاعن يكابد السنين، والرغبة في الثرثرة، وشابٌ وضيعٌ أبدى امتعاضاً من ثيابه الموحلة، وفرسه الجائعة التي اضطر لاطعامها، وأسئلته الكثيره عن المعزِّب الغائب الذي لم يأت طوال الليل.

لم يخف ابتسامته الساخرة حين خلع شامل ثياب رأسه، وبانت لبدته الخرنوبيه، وجدائله الخشنة، ولكن هذا تغاضى عن السخرية، بسبب التعب، والنعاس الكريه الذي راوده. وعندما نام، لم يحلم أي حلمٍ حتى الصباح، حين امتلأت أذناه، بضجة مهباج القهوة، وهمهمة المدينة.

أنعشه الفنجان الساخن، وتخلى عنه إحساسه بالملل، وزادت رغبته في

احتساء قدحٍ من العرق، وظل يتخيل ذلك المكان المعبأ بقناني الخمر، الذي وصفه حنا وصف مغرمٍ.

ومشى وسط الشوارع المحفرّه، الممتلئه بالمخاضات، والمستنقعات. وتحت رذاذ المطر، في الجو الغامض الذي أزال شعوره بالمحنة تماماً. ولفتت انتباهه بضعة بيوت مغطاة بنباتات عارشة، وخرائب مهجورة، زالت منها الحياة. وقناطر في حالة حداد، ورسوم، وصالات خفية، ينزلون اليها عبر أدراج رومانية بعثت في جسده رسالة مجد مدمرٍ، فاتكأ إلى جدار الهوة العجيبة دقائق مأخوذاً بالحطام الشبيه بأم الجرابيع، الذي انحدر إليهم عبر الزمن، صامتاً موحياً، باعثاً إليه كلماته البليغة عن النهايات المحتومة لهذا العراك الذي يخوضه الإنسان بلا معنى ضد فنائه.

ثم وجد أن بقاءه في المطر لا جدوى منه، وأنَّ حقد كنج سخيف، وأن أجراس الخطر التي تقرعها دلال كلَّ جمعه كريهة، أما الملجأ الوحيد الذي يمكن أن يلوذ به فهو صباح، وخمور أبي سمعان حنا العجيبة.

الرذاذ خرق جبته، ولكن قدميه ظلتا دافئتين في الجزمة الجلدية التي لم تسرب شيئاً من الماء، رغم المخاضات التي غاص فيها.

واصل مسيره صاعداً، ومن بعيد بانت القلعة، واشتهى أن يعرف ما بداخلها، ولكنهم منعوه من الدخول حين غامر بطلب ذلك.

أحد الدرك كان واقفاً قرب البوابة الشمالية، طويل الذقن ملولاً، وقد التف بفروة سميكة سوداء اللون، لم يتردد في طرده كانت بحوزته مارتينه قديمة كما حزر شامل، وودَّ أن يقول له إنَّ ماسورتها صدئة، وأن المطر يذهب بنشاطها، وقدرتها على الإصابة، لكنه حين أبصر دورية قادمه من الداخل، آثر أن يغادر المكان، شيء ما ذكره بكنج: ايقاع الخطى! الاسلحة! الرجال المسيرون بعنف!

منظر المدينة بدا الآن أكثر وداعه، لكنه لم يستطع فهم أي معنى وراء صمتها المرتبك، وانطوائها، وسرية الترقب الذي تحمله، ولم يدر فيما بعد إن كانت تلك

المشاعر هي الحقيقة، أم أنها أسئلة عقله الشارد المشبوه وسط الشوارع، والبيوت الغريبة المعادية!

حنا البيطار، كان بانتظاره في ميدان الخيل منذ ساعة، ولم يستطع شامل تبرير تأخره، حتى أن الكلام عن التنزه في المطر، تسبب في إثارة البيطار. ردد بضع كلمات غاضبة، دون أحقاد، ثم ضحك بسرور فلا أحد يمكنه أن يقابل هذا المناخ الهائج بجنون مماثل سوى واحد من أبناء الفضل، ولا جدوى من الشكوى، فحنا صار يعرف منذ زمن أن شامل جمع في رأسه رعونة فضة الحمدان وحماقات قاسم الفضل! فسامحه، ثم صححا نفسيهما بزيارة خمارة بطرس.

هناك أدهش الصمت والظلمة عقل شامل، كأنه رأى هذا المكان ألف مرة «هيك لازم يكون المطرح يللي بيقدموا فيه عرق!» قال لحنا، صحيح أجاب ذاك، مبشراً إياه بكرم الضيافة الذي يقبل عليه ثم فتح زوادته العظيمة: عبق المكان بروائح البيض واللبن المخلوط بالزيت والزيتون، والجبن.

ومن مكان ما، جاء بطرس حاملاً صحناً ممتلئاً بمخللات ملونة، راحت نكهتها تخدش أنف شامل، أدهشهما الرجل ذو اللكنة الأرمنية الصارخة كان بسيطاً وسهلاً في الترحيب بضيفيه، ولأنه يعرف حنا، فقد أولى شامل عناية خاصة، وتحدثا معاً عن المنارة، وأم الجرابيع، والفرنسيين القادمين ثم جاء لهما بقدحين من العرق، فهمس شامل إنه يريد قنينة، لكن حنا لم يجب نظر بطرف عينه فقط منبهاً إلى تقاليد المكان.. ولم يعلّق بأي كلمة معتمداً على تفهم رفيقه الذي انشغل بتأمل الوقائع الجديدة في شرب الخمر.

الجديد أن الأقداح كانت تملأ حسب الطلب، وكلمة السر هي هزة رأس لطيفه، ولا ضير، إذا كانت السعادة مرهونة بهذه الحركات الخفيفة، والتمثيليات المتفق عليه، فإن الوصول إليها يصبحُ فضيلة.

كان بطرس لا يني يرحب بالمتدرب الطارئ بصدق بعث الراحة في ضمير هذا الذي كان النفاق يثيره، ويغريه بترك المكان، وقد كره طوال عمره طريقة

المرابعين، وخذلانهم، ومقدمات التملق والرياء التي يخاطب الفلاحون بها بعضهم بعضاً، ولم يتردد في ابداء اعجابه بالأسلوب المباشر المستنير الذي يتخذه الأرمني تجاه زبائنه، فقال حنا شبه فخور بأن بطرس مثل الحمار، لين ومطيع، ولكن أمة البيطار نفسها لاتقدر أن تجبره على المشي في طريق لا يريدها! فقال شامل: «هل تسبه يا حنا؟!»

كانت عيناه محمرتين، منتشيتين، وقد تردد في الإجابة على السؤال إنه يحبُ هذا الرجل بطريقة خاصة جداً، ولم يسأل نفسه من قبل، لمَ يُحبه هل السبب تعلقه بآل الفضل؟ أم عاطفة عميقة استحوذت عليه تجاه الرفيق الوحيد الذي استطاع تفهم رغبته في الشراب، في أصقاع اللجاة؟ لم يجب أخيراً، لأن شاباً مربوعاً، دخل فجأة إلى الحانة، معلناً عن وصول الطلائع الأولى للجيش الفرنسي: إلى الشوارع خرجت المدينة كلها، كانت اللهفة إلى الجديد، والرغبة في اختبار قوة الغزاة، هي التي تقودهم، وقد هرع الفتيان والأطفال والشباب خلف القافلة التي اختار منظموها أن يجعلوها طويلة جداً وبلانهاية.

الفرنسيون الذين درسوا أطباع الجنوب جيداً، بالغوا في المظاهر العسكرية لدخولهم، كانوا يعرفون أهمية السلاح عند شعب محارب، فأثقلوا العدد الكبير من الجيش الذي جاؤوا به إلى المنطقة، بالزخارف هكذا: أسرجت الخيل بطراز نابوليوني، وأُلبس الضباط جميعَ الأوسمة والشارات، وأوصي الجنود بعدم الالتفات إلى أية جهة مهما كان السبب، أما عربات الذخائر، فقد حُملت بصناديق خشبيه مغطاة بالخيش الجديد واختير لجرها أفضل البغال لدى الجمهورية المنتصرة، كانت تُسمع أنفاسها المتعبة، بعد أن قطعت مسافة خمسين كيلومتراً في الطريق الوعرية الصاعدة من سهول حوران إلى هنا، منذ منتصف الليلة الفائتة.

صوتُ الموسيقى العسكرية ملأ المدينة برنين خاص لم تعرفه من قبل، وأخذ الضباط الجوالون يروحون، ويجيئون بسيوفهم اللامعة ومسدساتهم السوداء، وشرائط بذلاتهم مثيرين الغبار والإعجاب وإذا كان الوصول الصاخب هو حديث

المدينة ذلك النهار، فإنّ العبيد وحدهم استأثروا بالحصة الأكبر، ولم يستطع أي واحد أن يفسر سبب وجود أولئك الجنود السود في الجيش الأبيض، ورغم أنّ شهرة السنغاليين ستعم الجبل فيما بعد، فإن صفة العبيد لصقت بهم كجلودهم دون أن تحمل لدى أحد معنى الاحتقار.

أحد السكارى قال إنهم جميعاً خصيان، وأن فرنسا لاتمنحهم الحرية إلا إذا معست ما بين أرجلهم.

شامل ارتجف حين راح يسمع طلقات المدفعية التي بدأت تحي نفسها بعد ساعة من استقرارها في القلعة، وعندما خرج من خمارة بطرس أصابة الغم بسبب الغيوم البيضاء التي كانت تنبثق في السماء مع كل انفجار جديد، وزال سُكْرهُ فجأة، دون أن تقوى طرائف حنّا على تطيب خاطره، وقال: «يا الله ما النا غير أم الجرابيع».

لكنهما حين وصلا إلى دار مضيفهما، وجدا أنه لم يأتِ بعد، وخرجت إليهما من البيوت العميقة فتاة، بدا أنها كانت نائمة، لأنها جاءت مغمضة العينين تقريباً، فهمس شامل كالمأخوذ، بلا حذر: «صباح!» «ها؟!» سألت بيسر واستغراب عن الاسم الانثوي الذي سمعته، وحدقت إليه بعينين من العسل، ووجه مسائي.

«شو اسمك؟» سألها بشجاعة المخمور الذي كانه.

«عذبه» قالت، ثم استدارت عنهما، وذكرت شيئاً ما، عن حصانٍ ما في الباكه، جعلَ حنا يقفز كالمجنون، راكضاً نحو الداخل «ماذا قالت يا ملعونٌ؟ ولمَ تركتني وحدي هنا؟» حاول أن يقف رصيناً، متغلباً على خفة رأسه وجفاف شفتيه، فطلب ماء، ورآها وهي تمضي إلى الخابية، وتملأ طاسة الماء، وتعود اليه، فقال وهو يشرب:

«هذه تكفي حصان» ورأى، وهو يرفعُ جفنيه فوق حافة الطاسة اللامعة أنها كانت تبتسم، حتى إذا ارتوى، سمعها تقول: «هنيئاً»

ولكن حنا، منعه من أن يجيبها، حين لكزه في خاصرته، ودمدم غاضباً:

«حصانك!»

فقال شامل لعذبه: «شفتي! قال لسانك!»

صارت تضحك، فهزه البيطار من كتفه وقال: «حصانك مرضان يا ولد!» بدا كأنما زال سكره، فقال شامل وهو يتلوى: «وحالي كمان!».

البنت التي تنبهت الان، بعد القيلولة، لم تستطع تركهما، راحت تراقب الرجل الطويل الناحل الممتلئ بجرأة الضحك، حنا عرف أيضاً حالة رفيقه، فمضى الى خرجه، حيث أدواته، وأدوية الخيل «أنت بنت أبو علي؟» سأل شامل البنت أخيراً «إي» لم يظهر أحد في الدار فقال: «ليش ما سمّاك صباح؟» فقالت «اسأله!»، فأخذ نفساً عميقاً، وبدأت شفتاه ترتجفان، ومسَّد شاربيه بكفه وقال بصوت مبحوح: «بتتجوزيني يا بنت؟!»

فحدقت فيه ناقمة زاخرة بغموض عجيب: «مرة ثانية؟!» غمغم بألم، متذكراً صباح نفسها، مدركاً أن عرق بطرس أو قعه الآن مثلما فعل به نبيذ جدعان من قبل: «هل أنا ملعون حتى تواجهني النساء بهذا الكره؟» منتظراً أن تشتمه، أو تطرده، أو تقول له أنت حمار، وبدا له أنه مريض فعلاً، فأشار لها أن لا تنطق، وقال: «بتعرفي يمكن لازم نشوف حنا!» فضحكت بسعادة، وسألت بأبهة «ندمت؟!» ثم سرحت شعرها الأشعث بأصابع يدها المفتوحة.

لكن والد الفتاة، رفض طلب شامل في الليلة ذاتها، كانت البنت مخطوبة لابن عمها، مع أنّ الرجل ظل معذباً بعد ذلك، حتى التقى به كامل في معارك الجبل الشرقي، وصار يقول «كانت البنت بدها خويك!»

«تلك الذكرى وحدها روعته، لأن شامل كان مخلوقاً من طين وماء، وقد تعلق به منذ صغره، وكان يشفقُ على نحوله وضعفه ويسأل نفسه «من أين جاء

محمد الفضل بهذه البذره؟!» : ذلك اللين وتلك الطراوة التي تشبه الخس، والصوت المخلوط ببحة، والعينان الذابلتان، والأصابع الطويلة كالأغصان والرغبة في الموت».

حنا البيطار، قال إنهم حين رفضوا طلب شامل، لم ينطق بحرف، قام وذهب إلى حصانه، ثم رجع، وقال «إنّه بخير» ثم هاجر إلى الصمت، حتى إذا خلت المضافة لهما، همس «تضحية أخيرة يا بيطار؟» ثم رجاه أن يجدَ له في السويداء شغلاً، كانت لهجته من حجر، فأدرك هذا بأنه لا وجود لقوة في الدنيا، قادرة، على تبديل رأيه، فقال له «والله رايح تقتل نفسك»

وحين ذهب شاهين، ليبحث عنه، كانت المدينة ممتلئة بالجيش، وأدهشه السواد الذي أحاط بعيني شامل، بدا مثل رمه، كسرةَ حجارة محطمة، بلا فرح، فغامر بعواطفه، وقال له وإن أم الجرابيع اشتاقت اليه، غير أن شامل دمدم من بين أسنانه مثل من يمضغ حصى.

«أم الجرابيع ملعونة من رب العالمين!»

لم يبق له شيء، وخطر له أن يصفع هذا المجنون، ويقول له: «إلى جهنم» ولكنه شعر بعجزه وخارت قواه أمام التلف الذي أصابه، وعرضَ عليه أن يزوجه أيَّ بنت يريدها غير عذبه، «لا!» قال، كانت حاسمة ونهائية، ترفضُ كلَّ ما يعرضُ عليه.

(٢٩)

وإلى الخربة وصل شاعر جوال، قادماً من الشمال بعد أن عبر قرى اللجاة خلال الشتاء.

كان حمله، بين يديه، غريباً: ربابة وقوساً، وآلاف الأبيات الشعرية من السير، والملاحم، والقصص الخرافية، والحكايات وقالت ثنيه وهي ترحبُ به: «أمس حلمت فيك».

ظهر الرجل ليناً، ومبللاً بالمطر، وقد حزرت هويته من آلته التي وضعها قريباً من الموقد بشفقة ظاهرة، وهو يعلق «صارت طرية» ثم نقر باصبعه على طبلتها، فتجاوب الجلد الرخو ببطء وخشونة.

حرارة النار أعادت للربابة، بعد دقائق فقط، سحرها الغائب، والرنين الذي ظنت النساءُ أنه كان مهاجراً، أعيد، فجأة من الغيب بنقرات خفيفة من الأصابع النحيلة المدربة.

الشاعر ظن حين رأى إلى مضيفاته النساء، وحين انتظر بلا جدوى دخول رجل إلى المضافة الشاسعة، أن المكان مسكون بالجنيات، وهذا هو سر الأصوات الحيوانية الغريبة التي يسمعها، وقرقعة الحديد، والخشخشات، ولم ينفع الشاي الساخن الذي قُدِّم له، في تطمينه، لأنه كان عابقاً برائحة حشائش برية غريبة.

لكن ما أثار استغرابه هو تلك الأشياء البشرية التي تملأ حيطان المكان: ألبسة رجال، وجنادات محشوة، وبنادق مختلفة: جفت، ومارتينه، واثنتان من نوع أم

زر، وموزر، والمانيتان، ودلال قهوة، وفناجين رجاليه كبيرة! ومع هذا فإن الجنيات يشربن القهوة أيضاً، ويستخدمن السلاح، ولم لا؟! . عند هذا أحس بالضعف، وأهلكته الهواجس فقرر اختبار ظنونه، وراح يبسمل، كلما تناول شيئاً ما من يدِ إحدى النسوة اللواتي بالغن في خدمته بثقة.

كانت المرة الأولى ممتلئة بالهدى، ولكن تكرار البسملات أغاظ النساء. لقد أدركن لعبته، وكدن يرتكبن خطأً قاتلاً بطرده، لولا حكمة ثنيه التي تدخلت، حين شاورتها غريبة في قرارهن قائلة إنه سيجعل أسماءهن مكروهة كالشتائم في أسماع سكان الجبل كلهم، محذرة إياهن الى الابد، من التعرض بالسوء لشاعر!

لكن أسرارهن، واجتماعهن، زادا في قلق الرجل، واغتالا بقية قوته، فاستسلم بعد حساب قصير إلى مصيره الأحمق، وهو يتلو كلّ ما يحفظ من الايات الربانية التي تبعد الشياطين.

الأمر الوحيد الذي طمأنه، هو ظهور ثلاثة أطفال متساوين في العمر أمام باب المضافة!

كانوا رسل العناية الأنثوية لعقل ثنيه، لقد تفهمت حمى الرجل، وجنون خوفه، وكانت ترى أن لا شيء في الحياة، يمكنه اقناعنا بحقيقتها قدر الأطفال، فأرسلت ابنها قاسم ومحمد ابن كامل وحمد ابن شاهين، ليلعبوا (وكأنما الأمر حدث مصادفة) أمام المضافة. كان تحركاً بنوياً اختارت فيه أن تخترق تقاليد التربية، كي تحافظ على كرم الضيافة.

لم تطمئن إلا حينما بدأت تتسرب اليها، من القاعة الكبيرة أنغام الربابة التي كانت في البدء نشازاً، وضوضاء، وشروداً بعثه لعب الأطفال بالآلة السحرية، ثم تبدل بعد قليل فجأة، حين استجاب الشاعر لشهوة الاطفال: الدهشة! ومنذ النغم الأول، استولى عليهم، قعدوا معاً، راكعين، متوجين بغبطة المفاجآت التي قدمت لهم على الوتر الممجد.

كان لحناً جديداً لم تسمع ثنيه به من قبل، وقد قدّمه الشاعر الآن للمرة الأولى أمام الأطفال، كان يخبئه لمناسبات أعظم. ولكن منظر الأطفال الهائجين، الذين لطفوا ذعره، وصانوا وجوده من التلاشي. أوقد عزيمته الموسيقية حالاً: كانت أصابعه غير أصابعه، وقوسه المحسوب الذي تاه منه في السهرات القروية التي جاء منها، يندفع دون تردد إلى نور جديد يضيء روحه بقوة غير مرئية.

التجأت النساء إلى الحيطان، واسترقن السمعَ مرهفات، ومكسوات برعشة الحياة التي دبت في المرابع. بكين، وضحكن وتضاربن قليلاً. ثم جئن بأصوافهن، ورحن يغزلن كلَّ ما لديهن رغم أن بعض ذلك الصوف، كان شائخاً رثاً لأنه نُسي طوال الشتاء.

مجيء الشاعر الجوّال، أضفى على الليلة طقساً خاصاً، فأم الجرابيع خرجت الآن، إلى الأبد، من النسيان وشحوب الخرائب، وقد أحسوا بقيمة موطنهم، حين استمع الرجال، مساء، إلى مطلع التغريبة الهلالية، وقدروا أهمية زيارة شاعر من هذا الوزن لديارهم.

أما الشاعر الذي لاحظ احتفالهم به، فلم يُشر الى أخطاء الدروب التي أوصلته مصادفة إلى أم الجرابيع، كانت براعته تكفي بلاداً، أما القصائد، فقد سرقت قسوة آل الفضل، وشيعت خواء الخربة، واستطاعت البحورُ الخليطة التي استمرت تنشد طوال السهرة، جلبَ جميع أبطال التغريبة إلى القاعة المدفأه، لكن ذياب بن غانم، استأثر هذه الليلة بالنشيد. وفي آخر الليل، أهدى هايل إخوته صورة لذياب وأبي زيد: كان طوال الوقت يسندُ ذقنه إلى ركبتيه، مستغرقاً في التماثيل النادرة التي صاغها منشدون لا عنوان لهم لأبطال الهجرة القديمة الهاربين من الانقراض، والموت. انتقل بخياله إلى الأصقاع، والبراري، والوهاد التي اخترقها شعب من المهاجرين طوال قرون عجيبة في المدن، القرى، والسهوب والجبال! في المقابلات الساحرة، والشيوخ المزيفين، والدجالين، والكهنة اليهود المتزيين بزي العطارين، والملوك الطغاة.

استطاع أخيراً اكتشاف صورة البطلين: أبو زيد بدا شديد السمرة، كبير الرأس، واليدين، بينما ظهر ذياب ممشوقاً ناحلاً كالذئب، صعباً وماهراً وهو يعدو على صهوة حصانه، وكلاهما أطلق شاربين متينين غاضبين، لكن فيما كان شاربا أبي زيد كمنقار النسر، امتد شاربا ذياب كالرماح.

كلماتُ الإعجاب من إخوته، ومن الشاعر، حرضت خياله، أيضاً، فأضاف إلى كل من الصورتين، عمقاً أزرق، ملأه بالمقاتلين والفرسان، والطيور الجارحه، ورؤوس السباع.

كانت النساء اللواتي جلسن في ركن المضافة البعيد يراقبنه وما أن انتهى، حتى أشارت إليه ثنيه، كي يحضر رسمه، وهناك عانقته، وهي جذلى «يا ويلي، كأنو أبو زيد» وشهقت الأخريات، ونسين أنهن في حضرة ضيف غريب، ورحن، بلا رقابة، يتابعن زخارف الرسوم معجبات إلى حد الرهبة بالرجلين المرسومين، وبالموهبة الالهية الكريمة.

تلك السهرة، رفعت هايل إلى مصاف الرسامين الكبار، وقد نقل الشاعر إلى المقرن كله، أخباره فيما بعد. وأول رجل سوف يتصل به هو الشيخ شمس الدين نفسه، حين سيرسل إليه، بعد خمسة عشر يوماً، خمسة كتب مقدسة، كي يرسم زخارف عناوينها.

ذلك الليل، سحب هايل جسده المتعب، ومضى إلى الباحة المبللة بالمطر، كانت السماء صاحية، وفي صدره، كانت فرقعة الأسئلة والأفكار التي شغلت باله طوال السنتين الماضيتين، تزداد عنفاً وضجة، وللمرة الأولى يسأل نفسه هذا السؤال: إلى أين؟ وما هي كلمة السر التي ستخرجه من القمقم؟ ومتى؟ دون أن يظفر بإجابة إلا في الحلم: كان قد أكل كثيراً في العشاء الذي لم يعتد على تأخره، ثم نام بعد ذلك، وفي المنام نبهه صوت رجلين، فاستيقظ وسمع أحدهما يقول: هايل! هايل! تعال! كان نايل نائماً في الغرفة فأبعده الآخر، ثم أشعلا الموقد، وارتديا ثياباً جديدة، وراحا معاً يناديانه: هايل! تعال! هايل! تعال!!

في اليوم الثاني، احتضنت ثنيه أخاها الصغير، الذي كادت تنساه في غبار الأسى. لقد أذعرها الحلم، وكشف لها فجأة، حماقة انشغالها عن الفتى المزهر بالرغبات الدفينه، وضياع سلطتها. فطفقت تبكي، وهي تقول له: «بدك تسافر وتتركني يا حبيبي؟»

كئيباً، صامتاً، استمع لها. كان يؤمن بنبوءات ثنيه، وقراءاتها التي لا علاج لها، ورغم أنه لن يعرف وجهةَ سفره، فإن الخوف والذعر واللوعة والبوارق والأمجاد أشعلت خياله: رسم سفناً تطوف في بحار من الرمل، حيث لا يرى فيها البحارة ولا القباطنه! وخيولاً تمضي عبر البادية! وجمالاً تقاد إلى القفار!

كانت الرسوم كلها، بلا أفق، لأنه لم يستطع رؤية المكان الذي سيرحل إليه، لكن الأشياء والحيوانات كان لها قوة الرقى، ولم يصدق ما حدث بعد ذلك!

فحين أنجز كتابة، وزخرفة تسعة عناوينٍ من كتابٍ جديد للشيخ شمس الدين، عاد الشاعر فجأة، الى أم الجرابيع حاملاً نسخة منً التغريبة اشتراها من الشام لأجله، وقال له: «خذ! ارسم!»

أوقف أحلامه كلها، وأمضى سبعة أيام في قراءتها، ثم اختفى عن أهله ستة أشهر، رسم خلالها أبطال السيرة العظيمة، واحداً واحداً على الورق الأسمر الشهير الذي خُصص لنسخ الكتب المقدسه. حتى أن شمس الدين ذاته غفر له، حين رأى أن الألوان العظيمة التي أراد بها مرضاة الله، قد صنعت هذا الوجود الإنساني الفذ.

هكذا نُسي الحلم، وغاضت مخاوفه الفحمية في الصفحات العميقة التي زخرت بالبشر الذين ملؤوا أم الجرابيع بالحيوية، وحس الولادة.

وراح الشاعر، خلال تلك الأشهر، يغيب، ثم يرجع حاملاً كتباً أخرى.

سيرة الظاهر بيبرس، وسيف بن ذي يزن، وألف ليلة وليلة، ودستات من الألوان. لقاء بعض الرسوم التي يختارها بنفسه، ثم يضعها في حقيبته ويرحل بها لكي يحكي للناس قصص الذاكرة، مصحوبة برسوم الخيال:

بعضُ هذه الرسوم وصل إلى يدِ القومندان ترانكا، المستشار الفرنسي في السويداء، فأبدى دهشته، وقال للأمير سليم، بأنّه كان يظن بأنَّ شهريار سمين ومترهل، ولكن النحافة والهزال يلائمانه تماماً.

وقد أصابت حمَّى الرسم شمس الدين أيضاً، فطلب صوراً لبعض أولياء مجتمعين، وواحدة للخضر، وأخرى ليونس، لقاء الورق المقدس الذي كان يقدمه، وبتلك الصور حَمَى جدران بيته من أرجاس الشياطين الذين كانوا يلاحقونه، وطَرَدَ الضد الصاخبَ، مخرِّب الأهواء والرغبات.

ثم رغب في زيارة أم الجرابيع بنفسه، لكنه عرف في اليوم ذاته أن الفرنسيين أمروا بانتزاع السلاح من أيدي الناس، فلم يتجرأ على الخروج لأن رجال كنج حاصروا جميع الدروب، وصار يخشى على آل الفضل الذين لن يتخلوا عن أسلحتهم أبداً. تلبسه القهر، ولم يغفر لنفسه انعزاله، وبعده عنهم كل تلك السنوات.

لكنه حين استطاع الذهاب الى هناك بعد اسبوع، برفقة شاهين الخليل لم يترك أم الجرابيع بعد ذلك أبداً (وكان يفكر دائماً بأنه حين ينجب ولداً من غريبة سيلحق نسبه بآل الفضل)

وضع، إلى جانب عدة هايل، عدتّه: ثمانية عشر قلماً من القصب المقصوص، وسبعين ريشة، مأخوذة من أجنحة نسور، وصقور، وطواويس وطيور صغيرة خصصت للحركات، ومحابر ألوان: للأحمر الدموي، والأحمر الزهري والأخضر الشجري، والعشبي والأزرق البحري والنهري والسماوي، والأصفر والأسود والبنفسجي.

اشتغلا معاً، في نسخ الكتب المقدسة، وبيعها، غير أنَّ هايل كان يسرق الدقائق، أو الساعات، أو الأيام، كي يرسم ما يَعْبرُ في خياله، أو ما ينطمر في باطنه طوال لقائه بالآيات العجيبه للحكمة.

بهذه الطريقة وحدها، استطاع تخيلّ رسوم أكثر بهاء وهوى للأنبياء والحدود، جعلت الشيخ شمس الدين يصرخ مستسلماً طائعاً «أنت كسبت!» كان يعرفُ أسرار مهنته، فيدهشه الخلق الطازج والشرائع الجديدة.

أما هايل، فاستمرَّ دائماً، يخرب وساوسه، وأسرار قلبه، بوهج الرسم، وتراصيع الأشكال التي يبتكرها.

وحين ابتدأت رسومه بغزو الجبل، كان اسمه مجهولاً، ولم تكن الشهرة تهمه، وما كان بمقدوره أن يفكر بأن صور الانبياء يمكن أن تكون سبباً للرزق، رغم أن الشيخ أيَّد ذلك يوم قائلاً بأنه إذا كان كلام الله نفسه يكسب رزقاً، فما يضر صور الأنبياء؟!

* * *

الشاعر المسمى فضل الله، لم يعد يغيب طويلاً عن أم الجرابيع، وكانت ثنيه اعتادت القول بأن لعين الزبدة، قوة السحر وإن من يشرب منها مرة، سيعود إليها دائماً كالطير. ربما كانت تشير الى الشاعر، البارع في النشيد والقصائد: لكنه أثبت فيما بعد بأنه بارع في كل شيء تقريباً.

ذات يوم، ذهبوا جميعاً إلى الوعر لاصطياد النيص هناك بدا الشاعر ملهماً في معارفه، كان ماهراً في نصب الشراك والافخاخ وقد بنى قبواً صغيراً أمام باب النيص، ثم راح الباقون يحاولون إخراجه بعصي الخيزران، حتى غضب، ونفش سهامه ثم اندفع نحوهم، ليجد نفسه أسيرَ ذلك السجن المعتم.

كامل، اكتأب من منظر النيص المغلوب، الذي راح يكافح، ذليلاً مقهوراً، عاجزاً، للنجاة، يرفسُ ويترنح، حين يواجه نظرات السخرية والنشوة من صائديه المبتهجين. وأحس بهوانٍ مفاجئ سببته القسوة التي عومل بها الحيوان المطارد، ولعبة الصيد المخادعة، شعر أنه هو نفسه ما كان سوى نيص يعدو في قفار الرمل والصخور، نحو شراكه.

لكن العشاء اللذيذ، وربابة الشاعر أطفأا في المساء، حريق روحه وراحت سيرة سيف بن ذي يزن، تطيب خاطره، وتملأ أعطافه بحنان دافق تجاه إخوته، وأخواته، الذين راحوا ينصتون الى مجازفات البطل القديم، وأقداره الحمقاء في الصحراء الخالية. وبعد يومين حين أراد الشاعر أن يذهب سألته ثنيه إن كان سيعود قريباً؟ فقال«إي!»، ولم يبال بالنظرات المستطلعة التي قابله بها آل الفضل، لقد ملَّ كما يبدو من صمته وارتباكه وقال لنفسه ستحل الساعة لا ريب، لأن هواه بهنده، صار يملك قلبه وعقله وكان عليه أن يأتي إلى هنا، وأن يتوقف: هذا رصيف معجزة، حلمٌ كان يحمله معه في جولاته الحكائية.

هنده نفسها، كانت تشجعه، وقد رنت إليه، كأنها تقول، كما أيقن: «تعال! تحدث! قل شيئاً! اطلب!»، رغب أن يصرخ، وأن يهتف لاختياره الجديد للبنت البرية التي افترسته، ثبتت رحلاته وجولاته. واثخنته بحراب شبيهة بحراب أبطال حكاياته، وصار يحكي لنفسه: «والتقى البطلان، كان أحدهما فراشةً، والآخر ناراً لاهبةً أحرقته بشراراتها».

بعد ثلاثة أيام، رجَعَ. كان يرتدي ثياباً جديدة، وقد وضع ربابته في خرج الحصان. وكان وحيداً، وطلب يدَ هنده من آل الفضل. فسأل صالح الحراني متى سيحضر أهله لخطبتها، أطرق، ثم هزّ رأسه، وتطلع إلى وجوه الإخوة الصامتين، وقال: «بدي احكي حكايتي! بحكي؟! قالوا: «احكِ»

(٣٠)

لمامات سالم حماد، ترك وراءه أرضاً وثلاثة أولاد، شابين وفتاة، لم تكن في وصيته أية إشارة إلى حقوقها بعد موته، سوى ملاحظة ختامية بائسة ومليئة بالمرارات: «الغرفة الشمالية لنايفه، إذا عادت مقطوعة!».

هذا كل ما ورثته عن أبيها: «غرفة مطلقة». وفي ذلك الوقت بدا لها الأمر بلاهة، كانت في السابعة عشرة من عمرها، في تلك السن التي تظهر فيها الأشياء مغلفة بالورد، طاهرة وطرية ودانية. مثل دالية عنب، لم تعبأ، مدَّت لسانها لتلك الوصية، واتكأت على قوة أخويها ونسيان الأقدار.

ذات يوم حلمت أنها تزور حديقة، ورأت هناك رجلاً غريباً، لم يلبث أن جاء بعد عشرة أيام لتصير زوجته.

كل شيء كان مقدراً، لا غرابة فيه، مثلما يحدث لجميع نساء الأرض، يولدن، ويكبرن، ويبكين آباءهن، ثم يتزوجن، ويذهبن الى بيتهن الجديد، وتستمر الدنيا، ويظل الناس.

لكنها بعد سنتين فقط، ستعود إلى دار أبيها، كأنما كان ذلك هو المكتوب في وصيته، مع أنه أغفل أمراً واحداً لم يخطر له على بال: كان على حضنها صبي عمره سنة واحدة، يبكي من الجوع والعطش بسبب المسير الطويل الذي قطعته منذ منتصف الليل، وطوال النهار القائظ! كان أزرق الوجه، نحيلاً. واستقبل بجفاء وكراهية باعتباره ابن اولئك الذين أهانوا الأخت الوحيدة العائدة إلى الرحم.

تلك هي البداية: لأن مسار الأحداث العادية، توقف وانقلب بعد شهر من ذلك بسبب كلمة: كانت تتحمم، وقد أصم الدفء ورائحة الجزل القديم مسامعها، فظلت تفرك جسدها وتصب عليه الماء الساخن طوال ساعة. ربما لم تسمع صوت امرأة أخيها منصور وهي تناديها، كانت تريدها أن تذهب لحلب الشياه قرب المطخ، ربما سمعت ولكنها لم تجب، كانت أفكارها تتقلب هناك على هسيس النار المشتعله. وخرير الماء المنسكب على لحمها: أفكار هوجاء، أو شيطانية، أو لطيفة لا رابط بينها: سرحت في الجبال والشمس، ولون الفراش الباهت وأمنية صغيرة تشتهيها.

كان زمان ذلك الحمام المشؤوم قصيراً وقاطعاً بالنسبة لها، ولم تستطع بعد ذلك طوال السنوات التي جاءت بطيئة وقاتلة أن تتذكر منه سوى ضروب غريبة من اللحظات المكربة التي تسببت بكل مصائبها.

وهذا ما جعلها مجنونة، لا تفهم ما يحدث منذ أن تلقت شتائم زوجة منصور إلى آخر عمرها: واجتها المرأة بقسوة، ووبختها حتى الموت، فصار لونها كالليمونة، وجلست على حافة الطوار الحجري المجاور لباب المطبخ، وراحت تنتحب وهي تقسم لها أنها لم تسمع «الله يلعنك- يافلتانة راح الراعي وما حدا حلب الغنمات!» لكنها حين ردت بأنه كان عليها أن تذهب بنفسها للقيام بذلك اندفعت المرأة بلا عقل نحوها، وخضتّها من صدرها وصرخت: «هالدار لك، أوهبينا اياها! تفضلي مالك مطرح عنّا!»

«هاي دار بي» قالت

«ما لك دار، انتِ بنت حرام»

فاندفعت نايفة نحوها، ولكمتها على وجهها وهي تصيح:

«تتهمين أمي بالزنا!»

كانت زوجة الأخ الآخر هناك، فتعاونتا معاً وبطحتاها أرضاً، وداستا على رأسها، وصدرها، وقصتا شعرها، مزقتا ثيابها، ثم حبستاها في القبو.

بعد ذلك يمكن التكهن بكل شيء: فالأخوان قبلا جميع التهم التي وجهت اليها بلا نقاش، المضحك أن هذا ما يحدث دائماً. لكن نايفه ظلت عشرة أيام بعد ذلك، عشرة شهور، عشر سنين تسأل نفسها، لماذا صدقوا كل ما قالته النساء؟

وطوال الأيام التي حبست فيها، كانت صورة وحيدة، وفكرة نارية فكرة تائه، وسط الصحراء تخامرها: فكل ما يمت الى راحة الانسان، وطمأنينته، تلخص، وتقدم، وتسامى في وصية الأب الميت: الغرفة الشمالية! إنها لها ومن حقها أن تستقل بها، وسوف تغتسل هناك من مشرق الشمس إلى مغيبها.

حلم متواضع، شاحب، صار هياماً. صار وجدَ امرأة أدركت، متأخرة أنها تعيسة، ومسحوقة، ولا تساوي شيئاً.

لا تؤاخذوني يا أولاد عمي! رفض أخواها طلبها، ولأنها ظلت طوال الايام تخلق مستقبلها، وتكونه، فإن رفضهما زاد في إصرارها وعنادها. لقد آمنت أنه إذا كان ما كتب في الوصية هو مشيئة أبيها، فإن الله ألهمه إياها. ومن الواجب اذن على أخويها الرضوخ لذلك، «امسح طيزي بوصية أبوك» قال جاد الله «بدك نعطي رزقنا لابن السعادين!» فقالت «الغرفة الشمالية الي وابني لما بيكبر مش راح يظل عندك» قال: «تكون صارت ملكه! روحي لجهنم أنت وياه»، كان منصور يتفرج، ولم يتكلم، وظل واقفاً، لكن حزيناً كالتمثال.

تضرعت اليهما مثلما يفعل مؤمن أمام ربه، باست الأرض تحت أقدامهما وهي ترجو أن لا يتركاها في يد الزمن. الزمن غدار، هذه هي الجملة التوسلية التي توصلت لاستنتاجها من حكمة الكون، وعلى الرغم من أن مضمونها لم يكن واضحاً في عقلها، لكنها كانت قد ابتدأت تحس به. فإذا كانت قد تعرضت بعد

شهر من عودتها لهذا العنف، فماذا سيحدث لها بعد سنة؟ بعد سنوات؟ ولكن رفضهما تواصل بلا تردد، وعندها بدأت تستخدم أسلحتها الأخرى:

قضت عشرين ليلة تبتهل إلى الله كي يميت زوجتيَ أخويها، ودعت مرة واحدة على جاد الله (بكسر اليد فقط، وكانت ترتعد) وعندما لم يستجب لدعواتها كانوا قد طردوها من المنزل كله. لجأت إلى أعمامها، وبدا أن اولئك الذين ما كانوا يخشون أن تقاسمهم الإرث، أو الأرزاق، قد قبلوها، ليس كابنة عم، أو أخ، وإنما كخادمة، أو لاقوطة.

رضيت بالنوايا، تواطأت ضد نفسها علناً، وفتحت أمام أقاربها جميعَ نوافذ المراسيم العائلية، وآزرتهم أكثر من مرة، حين كان ابنها يصارع واحداً من أولادهم، وأخفت بمهارة جملٍ، تلك القناعة من التطلعات، والوعيد، والانذارت، التي صارت شبيهة برسالة أنبياء، أو متصوفين، مخبأة هنا في الصدر.

كان الزمن يتقدم، يكبر الجميعُ، هي، إخوتها، أولاد إخوتها، زوجاتهم، القرية، العالم، ومعهم يكبر ذلك الكائن الغريب المحشرج المتخم بالضلالات: الحقد.

شخص واحد كانت قد أقسمت أن تتركه بعيداً عن سموم قلبها: ابنها «هذا غريب، ولا يحق له أخذ أي شيء».

بعد عشرين سنة استجاب الله لدعائها القديم، فماتت زوجة منصور تاركة خمس بنات بلا ذكور، وراءها. ووجد الرجل نفسه معرّى، مكشوفاً أمام أخيه الذي راح يتأمل أراضيه، وأمواله القادمة، بعين الرجس والشراهة.

وقفت أمام شجرة النبي أيوب، وقالت: «ياشجرة، مليت غصانك بالخرق، من كل الألوان، خزّقت كمام قمصان ولدي، وجناب قنابيزو، وغطيتك حتى صيرتك مثل العروس، مرصعة بالارجوان (والاحمر، والاصفر، والابيض)

كسيتك مثل الشحاذ، يا شجرة هاي أني بتدخل عليك لتسمعي كلماتي!!»

كانت تحضر ذلك الدعاء، منذ عشرين سنة، أبدعته من بؤسها وفقرها، من أيام التشرد الطويلة في مواسم الحصاد، ركضاً وراء الفلاحين الذين ينسون، عندما يستبد بهم التعب، بضعَ سنابل، تلمها، وتخرمها وتدقها يوماً فيوماً. من شهور البرد، والصقيع، والارتعاش كالكلبة في الشتاءات الباردة، حين ينتهي الجزل والجلة. ومن تسول الخريف، وزحف الربيع الذي تمضيه في الحشيش وتحويش النباتات. كان ابتكار الأدعية واللعنات حافزاً يمدها بالعزيمة والصبر.

كل التفاصيل بعد ذلك، صارت مؤذية. كلبة مسعورة، فالزمن الذي ظنت أنه غدر بها، كان ينضج حقدها، وقواها، تفتحت مواهبُ أحشائها لا عقلها، لأنَّ ما فعلته كان يختمر هناك، ذئب بلون العاصفة، عنكبوت مبلبل، فضاء وظلمات ممتلئة بالموتى والصور المحطمة.

نعم، هذا ما أحمله معي، فقد ماتوا جميعاً: جاد الله أولاً، وقد ظلت تغذي منصور، وتعبئه، وتصف له خيانة الآخر وأطماعه، وتقدم له أدوات جريمته من حسابها، حتى قتل أخاه. اغتاله ببندقية من مالها لقاء وعدٍ منه بإعادة الغرفة الشمالية وأرض ثور لها!

ذلك المسكين اضطر للرحيل عن القرية، حكموا عليه بالخروج منها فرحل إلى الشام. ومنها إلى جبل الشوف، ثم ضاع في بيروت. الأخبار المفردةعنه، كانت تصل مع جمّال، أو تاجر، أو مهاجر قادم. وفي كل مرة كانت ترتسمُ ابتسامة ماكرة على شفتيها، وتضحك حين ترى نفسها سيدة دار تحوم فيها خمس فتيات يتيمات.

لكن ابن جاد الله، الأكبر لم يعطها شيئاً، ظلت هناك في دار نايفة، وهي خربة من غرفتين أعطوها لها) بينما أخذت تُبعد ابنها عنها، علمته القراءة والكتابة، روح قالت له، دور على بيّك، روح شوف حالك! تعلم واحفظ!

كانت حظوظه من ذهب، وكان جسده ليّناً وضامراً، أما عقله فقدْ قُدَّ من شعاع، فحفظ آلاف الأشعار، ومئات السير والحكايا، وتعلم غواية الموسيقى، الربابة والمجوز وشبابة الرعاة، وهي تقول له كلما عاد اليها: روح! اترك هالديار!

بدأت ثنيه تنتحب، وقالت هنده: يا شحارك! فرنا اليها بطرف عينه، مكسوراً كمشعل! ثم عزف على المجوز قليلاً، ورغم أن تلك الآله ذات الصوت المشبع بالأنغام، كانت تترك دائماً انطباعاً ساراً لدى سامعيها، فإنَّ بضعَ نفخاتٍ من بطنه، وحركات من أصابعه، جعلتها كئيبة وطافحة بالشجن، فعزف «تعالي يا بنت الناس» ثم عزف «يا ديرتي مالك علينا يوم!»

حين رجع منصور، كانت هي طافحة بالحقد على غالب ابن جاد الله، لماذا يفرح ابن الأخ برزق صار محرّماً عليه، «انظر إلى اللعين» راحت تزود اخاها بالنصائح قائلة إنه قضم الأرض، والبيوت، والحواكير، وتركنا جميعاً بره، وإنه ترك البنات عوانس مشردات لا يريد أحد الزواج منهن. وإن الناس عاقبوهن بسبب ذلك، وهذا الغالب حرم بنات عمه من حبة قمح، وتركهن مثلما ترك أبوه نايفه يزحفن خلف الحصادين ويبعن إذا أردن شرفهن (لكنها أقسمت أن أي واحدة منهن لم تخن كرامته)

شحنته بدم جلاد، بشوك منتقم، بالوعور، بقرون تيس، وهي تردد أن خمس سنوات أخرى ليست كثيرة، ولكن كل هذه الخضره، وهذه الأراضي، هذه التلال المكسوه بالعنب ستكون لك، وهي الشاهده: أراد غالب أن ينتقم ومنصور دافع عن نفسه!»

لكن تلك الجريمة لم تمضِ مثلما يمضي الليل، كانت شيئاً فائضاً، طفا على جدار القلوب كالورم، كالسم، كالصدأ، كالجذور الميته، وما لن تعلمه نايفه أبداً هو أنَّ أهل القرية اجتمعوا تلك الليلة في غرفة بعيدة، اغلقوا نوافذها، وجاؤوا بأعمامها، وأقاربها جميعاً، ثم سألوا: من سيقتلهما؟

كان ثمة شعور بأنهما صارا ميتين، جثتين من عجوز وكهل لا قيمة لهما، شخص ما، لم يعرف بعد ذلك، قال: أنا ثم قال واحد اخر أنا، ثم أنا، أنا، أنا، أنا، أنا، أنا، أنا، أنا، أنا، أنا. . . خمسة وعشرون بوارديا، مضوا عند الفجر إلى منصور ونايفه حمّاد، ساروا معاً أرتالاً وأنساقاً، شوارع وأزقة، إلى أن وصلوا دارهما، كانت تسقي أخاها حليب عنزه، قبل أن يذهب للحراثة «تأخرتم؟!» كان عليها أن تقول لأولئك الذين صاروا الآن قضاة وجلادين، لكنها لن تقول، صاح واحد منهم «منصور!!» ثم أفرغوا رصاص بنادقهم في الجسدين.

تلك المرأة المسماة نايفه هي أمي!

* * *

(٣١)

رفضت ثنية السماحَ لأي واحد من إخوتها بالذهاب الى السويداء، فقد كفاها اغتراب شامل المبكر، الذي ما كانت تتوقعه. وبدأت تقلق من الأخبار الآتية من هناك، عن كتائب الفرنسيين المتزايده وتجنيد الشبان والفتيان في الجيش.

خشيت أن يمسكوا أي واحد منهم ويرغموه، على الانخراط في قواتهم، وساعدت الشائعات التي يجيء بها شاهين أو فضل الله، في هلاك عقلها وتحطيمه. وأذهلها التصميم الفرنسي على البقاء، منذ سمعت هنا أحاديث عن تجديد القلعة، وإعادة بناء أسوارها ونصب المدافع هناك.

كانت لهجة الرجال مليئة بالخوف وكانوا يبذلون جهداً خارقاً لفهم التطور الجديد في مسار الأحداث، وبدا أنهم كأنما دخلوا مرة أخرى في دائرة خرائب جديدة، لا يعرفون كيف يمكن أن ينجوا منها هذه المرة!

صاروا محتاجين للصابون، والزيت، والأخشاب، وبعض عدد المقلع، والثياب، وألبسة الأطفال. لكن ثنيه ظلت صامدة، ترفض أن يذهب أيٌّ منهم الى هناك، إلى أن جاء الحل من عند أبي معروف.

عرفوا أنه في المنارة، فتسلل الشاعر، وطلب اليه المجيء، فقال ذاك: «حاضر» ثم ساق بغله وحماريه باتجاه أم الجرابيع متجاهلاً ضغائن كنج التي يعرفها، ولم تكن دوافع قبوله الحضور الى هنا، تشغل بال القاطنين في الخرائب. إذ أنه ما أن وصل حتى أخصب حياتهم دفعة واحدة.

فالنساء اللواتي دفعتهن الوحدة، وخلو المكان من الرجال الى الانطفاء يوماً بعد يوم، ربما كنّ يتقدن ويتغيرن بضع ساعات كل شهر، لكن مشاعر الوحدة سرعان ما تباغتهن، حتي أنهنّ نسينَ بعد أشهر، حليهن وزيناتهن، وأهملن المرآة الكبيرة، التي بدأت تتقشر بسبب الرطوبة، في قبو ثنيه. ثمّ أضحت شفافة، تكسر صورهن، وتضفي عليها كآبات ملعونة. وقبل أسبوع بكت هنده طوال النهار، حين اكتشفت أن عقدها المزيف، صار لعبة بين أيدي أولاد أخوتها وأخواتها.

كان أبو معروف يبدأ دائماً من طلبات النساء. ولكن بيع ما لديه استغرق أكثر من ساعتين، حتى ظن أنهن لن يشترين، فحين رأين تلك الأشياء الفاخرة، دهشن، وكدن لا يعرفن ماذا يأخذن، لأنهن كنّ يحتجن الى كلّ شيء: فوطات فاخرة من حرير، وعقود مذهبة، وأساور وخواتم، وأقمشة شامية وحلبيه باهرة، وخلاخيل فلسطينيه فضيه.

ومن وقت لآخر كانت إحداهن تدخل الى إحدى الغرف، ثم تخرج لترى اخواتها بهاء ما اشترت، أو ملائمته لعنقها، أو شعرها، أو جسدها.

صبر التاجر على طيشهن، ونكاتهن الملغزة، وتدافعهن واعجابهن المفرط بما لديه، صبرَ ثعبان. وأضفى مشهد السعادة، الذي يراه صفاءً بالغاً على روحه.

ورغم أنّ التفافهن حول بسطته، وزعيقهن، وصيحات دهشتهن ما كانت جديدة عليه، لكن إدراكه لمعنى ذلك الآن، هو الذي بدل حالته، وترك في وجدانه مشاعر أخرى مختلفة عن رغبات التاجر وشهواته.

لقد خامرته مشاعرُ منقذ، حين ظن أن الأساور والعقود التي يقدمها، منةٌ، هداه الله أن يقدمها لنساء أم الجرابيع الوحيدات المعزولات عن عالم مائج، مضغوط بملايين البشر.

وللمرة الأولى في حياته لم يساوم في أسعاره، وارتضى بما تقرره ثنيه، وهو يعرفُ أنّ مهارتها لن تتعدى جزءاً واهياً من أرباحه، ولم يتأثر بالغارات التي شنتها النساء الأخريا على بضاعته، عندما اختبرن تهاونه ورضاه.

ثم انتهت كل هذه السعادة، حين اشترت ثنيه ثوباً كاملاً من الخام الأبيض وقال: «هذا كفني!».

بُهِتْنَ جميعهن، وبوغتْنَ. واحتضنتها صباح وهي تنتحب، حين اكتشفت فجأة، مع الكلمات، أنها لن تستطيع أبداً، أن تبقى، وأن تعيش دون هذه المرأة التي ترفرف فوق خراب أم الجرابيع!

ولأن ثنيه ذكرت ذلك عرضاً فقد فوجئت بردة فعل النساء حولها، وربتت على كتف صباح وهي تبكي أيضاً قائلة بأنها لن تموت اليوم، ولكن هذا هو قدر الجميع، وهذا ما تفعله امرأة تقترب من الأربعين. ثم ضحكت بأسى وقال: «لاتزعلوا، هذا أحسن زي منشان قابل وجه ربنا فيه»

لم يتضرر أبو معروف كثيراً، ولكن الانقطاع المفاجئ للفرح الذي عمَّ النساء قبل نصف ساعة، أكد له، أنَّ هذا الخراب ملعون. وأنه لن يجلب على أهله وقاطنيه سوى الفواجع، وحين أعاد النظر في تفاصيله، وتأكد من فوضاه الأبدية، ومن إشارات الموت التي يرسلها في كل اتجاه، شعر بالكراهية لكنج الحمدان، لأول مرة في حياته. وقد روِّع تماماً، لأنه علم أن ما لا يمكن الدفاع عنه هو اقتران القوة التي يحبها في ذلك الرجل، بالظلم الذي يكرهه.

ثنيه أيضاً حيرها لجوء صباح اليها، في أوقات كانت تعتقد أن تلك البنت لا تنظر إلا إلى المنارة. وتملكها فرح التفكير بأنها أمهن، واكتشفت أنه ليس فرحاً وحسب، وانما انفجار أفراح حيث ما كانت تظن أن لها هذا الهوى في وجدان نساء آل الفضل، رغم أنَّ كلَّ ما فعلته طوال عمرها، كان ترسيخ وتثبيت هذه الفكرة بكل وسيلة!

ما تأكدت منه أيضاً، أنه ليس بوسع الانسان أن يخفي حقيقته الى الأبد، فصباح التي بدت حتى هذا النهار، امرأة مغلقة لا سبيل الى مخاطبتها من الداخل، انهارت في لحظة ضعف وكشفت هشاشة عواطفها، وامتلاءها بالفوضى والخراب.

كان ذلك صحيحاً، ورغم أنَّ ثنيه كانت تحدس به فقط، فإن الحواجز الشاهقة التي ارتفعت بينها وبين صباح منعتها طوال السنوات التي مضت من اختبار صحة حدسها.

كانت صباح مقتنعة، أكثر من الجميع، أنها الوحيدة التي دفعت ثمن الاقتتال الأحمق بين آل الفضل وآل الحمدان.

دفعها هذا الى شرنقة الصمت، ثم تجاوزت ذلك الى الحجر المظلم للعزلة عمن حولها، وهي ترى الى النساء وهن يجدن رجالاً يحببنهن، ويتزوجوهن، بينما تترمد بانتظار الوصول الى كنج الحمدان.

كانت مؤمنة به، ايمانها بالسماء، لكن الشهور الأخيرة أنهت تقريباً آمالها، فقد نضبت مخيلتها بعد وصول الفرنسيين حين اعتقدت أن كنج قد ابتعد أكثر عن دروب أم الجرابيع، بعد سماع الأحاديث التي يتناقلها الرجال هنا، في البداية. كرهت أحاديث شاهين الخليل، ورغبت عن الاستماع اليه. لكنها كانت تعود مرغمة، بدوافع الفضول والشوق لسماع أخبار كنج، وسماع اسمه، لأن صورته القديمة التي مضى عليها سنوات تلاشت، حين أنفقت جميع تفاصيلها في لحظات التذكر.

ما ظل لديها سوى ليلة المطر، محمولة بين ذراعيه، والرذاذ ينث ويزيد في رطوبة شفتيه اللتين تقبلانها، بتلك الثقة المطلقة لرجل مغطرس. دفء النار، وصورة ثيابها المبعثرة، ثم سخونة ذلك الشيء وارتعاشه، وحماقة تفتيشه البطيء عن منفذٍ اليها!

في البداية، عندما جاؤوا الى الخراب، ظنت ان الهجرة لن تطول، فآثرت أن تظل وحيدة، بعيدة عن مجتمع النساء، تلهو بالذكرى الممتلئة، لكن الزمن تغلب عليها، وما عاد لديها ما تتعزي به، وبدت حين حاولت العودة نشازاً بين النساء اللواتي بنين تقاليد قاسية وصعبة لهن، وقلعة أسرار وأفكار، كان من الصعب عليها الدخول اليها، فلم تعرف ماذا تقول لهن، ولا ماذا تختار.

لكنها وجدت ثنيه، وهي الوحيدة التي تلقت خبر دنسها بالهدوء اللائق بأم وربة أسرة. ولم تضطر للتفكير في أي عمل، لأنّها اختارت منذ اللحظة الأولى التستر على النبأ الدموي.

لم تتردد بعد ذلك في احتضان البنت المعذبة، التي كانت تضمحل وتخبو أمام ناظريها. أحبتها حين رأت كم كانت عيناها كئيبتين، ووجهها وحيداً. ثم منعت عنها حماسَ إخوتها الذين رغبوا في الزواج منها، وهي لا تحتاج لبصيرة منجمه، كي تعرف مصير ذلك الزواج إذا حدث.

لكن صباح لم تظهر امتنانها، ووِدادها، سوى هذه الساعة، حين جاءت فكرة ثنيه عن الموت، ووضعتها، بغتة، وحدها، في العراء.

* * *

(٣٢)

«همج وبرابرة!» هكذا وصف الكابتن كاربيه، سكان السويداء في ثالث يوم وصل فيه إلى الجبل، ليكون مستشاراً لأميره، قام بجولة شخصيه، برفقة اليوتنان موريل، في شوراع المدينة، وأزقتها وحاراتها، واحدة واحدة. فأصابه الغم وفُجع بمنظر البيوت المبنية بلا ضابط، أو نظام، فوق، أو بجانب آثار الرومان القديمة المدهشة، المنحوتة بغوايات خاصة، وترفٍ فني خارق، صاغه، وحفره، ذوقٌ فني رفيع، أضاعه هؤلاء الرعاة، أو هدموه، أو بدّلوا معالمه بلا رحمه.

لهذا بدت رسالة التمدين التي حملها من حكومته حماقة محضة، فقد فاتَ الأوان. ولم يعد لأمته أي دور، للسموِّ بشعب أبله، ينتزع حجارة المسارح، والمعابد، ليبني بيوتاً له، أو للبقر!

أصيب بعد ذلك بداء البغضاء، وأضحى قلبه حطباً محضاً وهو يحس بالاشمئزاز من أزياء السكان المحليين، الذين بدوا له في سواد ثيابهم، خارجين من جنازه أبدية، لاتنتهي.

وفي المرات التي رأى فيها جماعات النساء يسرن في الشوارع امتلأ بالغرابة من أشكالهن الشبيهة بالبطارق. كأن عالمهن مصنوع من لونين وحيدين فقط «الابيض والاسود!» لماذا؟ سأل أحد الزعماء الذين جاؤوا لزيارته، ابتسم ابتسامة سخرية، لأنه رأى كيف وضعهم في شباك ذكائه «هل هو سر؟» سألهم كي يزيد في ارتباكهم، لكن الزعيم قال إن السواد هو لباس العقل، هكذا فهم المترجم من عبارة «العُقّال» التي عنى الرجل بها أولئك الذين تجاوزوا سن الشباب، من الرجال

والنساء. فقهقه الكابتن بقوة: «العقل!»... «ومن قال لكم إنَّ لونه أسود؟! اللعنة! كنت أظن دائماً أنه أزرق!» ضحك بلا توقف، وامتلأت القاعة بالجليد!

وحين جلس إلى طاولة الطعام بعد ذلك، وأبلغوه أن حاكم الجبل مات، واصل تناول غدائه، بين حيرة ضباطه ومعاونيه الحاضرين، حتى إذا ما انتهى، وغسل يديه، مط شفتيه وسأل المراسل الذي ظل واقفاً في الباب أكثر من ساعة «هل دفنوه؟!»

«لا... سيدي!»

«وماذا ينتظرون؟ هل يظنون انه من سلالة الآلهة، أم يعتقدون أنَّ كاربيه سيذهب للصلاة على جنازته؟!»

بعد يومين، أصدر أمراً، عين فيه نفسه، حاكماً بالوكالة، وقد أذاع النبأ في السويداء أولاً، ثم نشره، بعد يوم في أنحاء الجبل، غير عابئ بجوقة الاعتراضات التي أثارها أعداؤه ضده. وقال لمعاونه «إنَّ هذه هي العادة دائماً: يبدأون بالغضب، وينتهون بالرضا والخنوع»

لكنه، رغم ذلك، ملأ السويداء بالحرس، والجنود الخياله، ووزع في جميع الطرقات تقريباً، مصفحات، ودبابات مدججة بالذخيرة والجنود، وقد ارتجف ذات ليلة، حين علم من استخباراته، أن مهاجمين ما سيغيرون على مقر الحكومة في الغد.

كانت أخباراً ملفقة تماماً، فلم يظهر أحد في اليوم التالي، ولكن الكابتن لم ينسَ نار ليلته، وقد أدرك أنه لم يفعل شيئاً حتى الآن سوى التساهل والبلاهات، تجاه من يفترض به أن يقدم لهم تيجان مدنيته بأي شكل!

الأمر الأعظم الذي لم يستطع نسيانه، ولا تجاوزه، طوال الوقت هو تلك التحركات العجيبة الغامضة التي كانت تتم في الجنوب، يقودها متمرد عاصٍ لم يره، ولم يعرفه، اسمه بهاء الدين، الذي كان يجمع المقاتلين، ويدربهم بصمت وراء ظهر الدولة المنتدبة.

كان الاسم مطبوعاً في رأسه كالنقش. منذ أن عرف بمقتل الملازم بوكسان قرب تل الحديد، ذلك الرجل كان «شوكتي!» كما كتب لصديقه هنري دياز في فرنسا «إنه قاتل مجرد من كل ثقافة، لا جدوى من الكلام معه، ولا نفع في اقناعه، ولا مناص من حربه حتى النهاية!»

وقد استطاع، أن يصوغ فلسفة فرنسا في الجبل: «إنَّ دمَ بوكسان سينمو إلى أن يصير حرشاً» هكذا كتب في جريدة لاماتان.

أول القرارات الشديدة التي أصدرها، هو وضع سعر رسمي للرأس البشرية، فكل متمرد يقتل، وتسلم رأسه الى السلطات، يُدفع ثمنه من خزينة الدولة، سبع دولارات عداً ونقداً (فيما بعد، دفع المبلغ أكثر من مرة، وقد تسلَّم البدو سبعين دولاراً، لقاء عشرة رؤوس من اللاجئين، الذين اعتبروا قطاع طرق)

ومع أنَّ الكابتن، لم يوافق في البداية على التسعيرة، واعتبرها تبذيراً، لا ضرورة له، فقد وقَّع أمر الصرف الدائم، وسلمه إلى جميع ضباطه مشترطاً رؤية الرأس المسلمة بالعين المجردة، من قبل أي مسؤول فرنسي، مهما كانت رتبته.

بعد يومين من صدور القرار، أعلموه أنَّ غالب الحجري (وهو متمرد لبناني، قتل ثلاثة أفراد من الجيش قبل سنة) موجود في مضافة عبد الجليل أبو رغاب، فحاصر المكان خلال نصف ساعة، ثم دخل إلى المضافة وأطلق النار على غالب، وقتله، والتفت نحو الملازم كلود مارتي وقال: «اصرف لي سبعة دولارات يوتنان!»

تلك الحادثة، أيقظت أفكاره أيضاً، فقال إنَّ تلك الجحور المكعبة المسماة: مضافات، ما هي الا أوكار فساد وضغينة، فأحضر أحد الشوام يبني فندقاً، وقد أصدر في اليوم الذي افتتحوا فيه الفندق، أمراً باعتقال كل الضيوف في المدينة، وإرغامهم على المبيت فيه. كانت حملات التفتيش تتم يومياً، وأخذ الجنود يسوقون المتمردين، والمعارضين من الضيوف القادمين من القرى، إلى السجن بدل الفندق.

هكذا بات في غرف الفحم المبلل بالماء، مئة شخص، تدثروا بعباءاتهم أو فرواتهم، بدل أن يناموا في الأسرة البيضاء النظيفة التي تفوح منها روائح المنظفات: «إلى جهنم» كان يقول، كلما أبلغوه أنهم زجوا بأحد الناس في غرفة الفحم.

لكن الكلمة لم تعد تكفيه، فأمر أن يدفع المسجونين، ثلاث ليرات ذهبية عن كل ليلة، وهي أجرة المبيت في الفندق ذاتها.

مع هذا فإنّ المضافات، ظلت مفتوحة، واعتقد الكابتن أن التخلف، والهمجية، قدر الهي مفروض على سكان جمهوريته مثل الموت، فأمر باغلاق جميع المضافات، ومراقبة زعماء المدينة خصوصاً، والاغنياء والمحاربين العائدين من قتال الأتراك، ومنع الاجتماعات الكبرى (حتى في الفندق) كما قال لقائد دركه موريل. وقبل يوم من ذهابه لزيارة شيخ العقل، سيّر عرضاً عسكرياً، طاف في شوارع المدينة بصحبة فرقة موسيقى الجيش التي عزفت المارسلييز، ومارشات عسكرية ذات ايقاع صاخب..

لقد أفلحت سياسته، فبدت السويداء بعد ذلك طائعة، سهلة رضخت فجأة لأوامره، ولانت، واختفت من أزقتها، وشوارعها، وجوه الغرباء والقرويين.

عندها أمر ببناء سراي دولته، كان قد اختار التلة الواطئة شمال المدينة القديمة مباشرة. فبدأوا بالبناء هناك، وفق طراز فرنسي محض جاؤوا بمخططاته من المفوضية السامية في بيروت، وحين عبر عن احتقاره صراحة لطريقة العمارة المحلية، قال له شاعر، كان صديقاً لحسن رشيد وجاءا لزيارة الحاكم معاً: «نحن يافخامة الحاكم نبني مثل ما نحتاج» و«مثل ما تحتاج بلادنا»

«ونحن؟!» سأل كاربيه بحدة

«أنتم غزاة» قال الشاعر بلا تردد.

لم يكن للكلمة وجود في قاموسه، لم يسمعها من قبل، وقد نفذت إلى نخاعه، حارقة، ساخنة. فلم يجب، وراحت يده اليمنى ترتعش وضاقت بزته

العسكرية عليه، وازداد سواد وجهه، حتى بدا في الستين من عمره، وابتلع الطعم مثل حوت.

ولأن تلك الكلمة ستظل تخز حلقومه طوال العمر، فقد أصدر أمراً يمنعُ الأحاديث الودية بين الضباط، والناس، والاكتفاء بالأحاديث الرسمية «وسيصبح آمناً من أن يتعرض له أو لضباطه أي ابن كلب بعد ذلك» ووضع حراسة مشددةً على بيت حسن، ليراقب تحركات ذلك الشاعر، حامل الربابة، المسمى فضل الله حمّاد.

لكن استخباراته، أوصلت إليه تقريراً «بائساً» ذكرت فيه أن الرجل اختفى، ولم يعد في المدينة. فسرح الجاسوس، وأمر بسجنه في غرفة الفحم: «اكتب الشعر هناك أنت!» قال له، ثم طلب أن يقدموا له لائحة باسماء جميع الشعراء في الدولة.

منع النحنحة أيضاً، لأن معظم الشعراء، يطيبون حناجرهم بها قبل انشاد قصائدهم، وربما كان وراء كل نحناحٍ شاعرُ، منع البصاق كذلك، وأصدر قراراً بسجن كل من يبول في الشوارع، وعلى الحيطان. «إنهم لا يفعلون ذلك أبداً ياسيدي» قال له السرجان شارل، فقال «سيفعلون بالتأكيد» دون أن يشرح فكرته هذه، وربما كان السبب هو قناعته بأن تلك العادات هي من شيم الشعوب البربرية. «تلك الشعوب التي ما تزال فرنسا العظيمة، تحاول جاهدة (وهي تدفع الضريبة من دم ابنائها) أن تهدي الحرية اليهم. ولكن من اعتاد أن يعيش في المستنقعات، والوحول. لن تطيب له حياة الحدائق والمروج. وهذا هو سبب الفتن، والعصيانات، والاضطرابات التي يقوم بها مأفونون آفاقون يغيرون على حدود الدولة من خارجها، ويفتكون بالناس المسالمين الذين يتلهفون لإعلان ولائهم لنا».

غير أن الكابتن المؤمن بعدالة قضيته، لم يكن بلا آمال، واتّبع سياسة سمّاها: العصا والمائدة! كانت العصا سيدة المكان، طوال أربعة أشهر، بينما مدت المائدة بضع مرات فقط «لأن العصا أسرع وأجدى وأقل كلفة».

في أحد الأيام الماطرة، بينما كان يتأمّل الشارع الخالي من نافذته، خطرت له فكرةٌ، اعتبرها الهاماً، فإذا كان قد رأى سكان دولته، يبكون ويتألمون، ويسجنون في غرف الفحم، فلم لا يجرب رؤيتهم، وهم يرقصون. إن كل لحظة من الخوف، تبعث في الانسان قوة موازية على الفرح وهي نعمة، على كل حال، ستقدم مع الحرية، وأفكار التمدن لهؤلاء البرابرة.

شرب ثلاثة فناجين من القهوه، احتفاء بوحيه المقدس. ونام سعيداً. ورأى نفسه مميزاً بألوان علم الوطن الأم، وقد خف الهواء وامتزج برائحة صنوبر.

بعد الظهر استقبل الكابورال ديبو شيل الذي ظل أكثر من ربع ساعة، مستعداً، قبل أن يلتفت إليه الكابتن:

«عزيزي ديبوشيل!»

ذهل الكابورال، وجحظت عيناه.

«بهذه الطريقة، تستطيع أمنا فرنسا، أن تطمئن الى أن رجالها البعيدين يحملون لشعوب الارض شعلة حضارتنا! أحييك كابورال، فالتمدن الذي بنيناه بجهد مئات السنين، لن يأخذه الآخرون كالماء، ها! هات، حدثني بما حصل معك هناك مع هؤلاء الرعاة!»

اعتدل العريف في وقفته:

«المسألة سيدي أنهم مروا دون أن يقدموا لي التحية»

«يجب قصّهم من الوسط، اللعنة عليهم، لا شك أن الله نفسه تخلى عنهم عندئذٍ؟»

«نعم سيدي!»

«وعرفت أنك أمرتهم أن يزحفوا، وأنهم كرروا التحية خمساً وعشرين مرة!

هذه بسالة يا كابورال! وسوف ترى أن أمنا لا تغفل عن بطولات ابنائها! لكن هل جربت أن تجعلهم يرقصون؟!

«لم أفهم سيدي الكابتن»

«ليس مهماً، سنجرب ذلك في أمكنة أخرى. لكن تلك براعه منك سرجان ديبوشيل... مع السلامة.. لكن قل لي لماذا كرروا التحية خمساً وعشرين مرة مثلا»

عمري أنا الان خمس وعشرون سنة سيدي»

الكابورال الذي لم يذكر للكابتن أنه جلد سبعة رجال، وتركهم عراة في قرية سالم، أصيب بالخبل هين سمع الحاكم العام، ينطق برتبته الجديدة. لقد ظن أنها هفوة، ولكنه وجد الأمر بترقيته موقعاً من كاربيه. فقال لصف الضابط الذي كان في ا لطابق الأرضي. بأن حساباً سريعاً لما حدث، يجعله مؤمناً بأنه سيصبح قومنداناً بعد سنة واحدة! لقد وصلته أفكار الحاكم كاملة، وانطوى قلبه على الداء الذي فتك بالكابتن من قبل، حتى أنه صفع أول بائع مرَّ من أمام دكانه، لأنه ظل قاعداً وراء البسطة!

بعد ذلك أضحت أيام الدولة أفراحاً محضة، وشارك كاربيه نفسه في مئة وثلاث عشرة واحدة منها. أخذت القرى والبلدات تتهيأ، قبل وصوله بأيام، بالزينات والتدريبات على الرقص والغناء، دون أن يستثنى واحد من سكانها. فيما تسبقه دائماً إلى هناك سرية كاملة، تحاصر البلدة، وتقطع صلتها بجميع القرى، وحين يصل، يخرج المواطنون إلى الروابي، والتلال لمرافقته من هناك، إلى داخل قريتهم.

أخذت الأهازيج، والأغاني المحلية تبهجه، رغم أنه لايفهم شيئاً من معانيها، لكنها ألحانه، وأغانيه. بعض السكان بالغوا في تكريمه. وقد نظروا اليه أخيراً على أنه ضيفٌ لامناص من إظهار كرمهم وحسن أخلاقهم أمامه.

أرضاه هذا، فأمر بشق الطرقات إلى القرى التي لم يستطع الوصول اليها بعد، لأن أفظع شيء واجهه، هو عجزه عن الوصول إلى قرى اللجاة، والجبل الشرقي. لماذا يا سادة؟ وكيف ينتقل اولئك الهمج؟ لم تكن تنقصه المعلومات، وطلب إلى نائبه، أن يضعَ أمامه خريطة الدولة، وقال، وهو يمسك قلماً، ويسيرُ به بين دوائر القرى: هكذا يوتنان. كيف يستطيع جيشك الوصول إلى هنا؟ والى هناك؛ مثلما يصل هذا القلم؟! هل تريدني أن أحكم دولة عمياء؟!

فوق تلك الخطوط، التي رسمها القلم، انخرط آلاف الناس، منذ اليوم التالي، في صناعة العيون لدولتهم الوليدة.

بعد ثلاثة أشهر، رُزقَ اليوتنان موريل صبياً، فأعلن الكابتن اليومَ عطلة، لكن المفاجأة التي أذهلته هي أن المدينة خرجت إلى الشوارع لتغني، كان أكثر من أربعة آلاف شخص، يهزجون في الجغرافيا الشاسعة لعاصمته، مرددين أغاني الاعتراف بفضائل الحاكم.

ومن القرى جاءت كواكب الفرسان المزينة بألوان علم الدولة. حتى أن كاربيه نفسه، وقف مذهولاً، أمام الروح الكونية، والاندفاع الصادق للرجال الملتحين، وأصحاب الشوارب، الذين مروا أمام مقره، وهم يرددون قصائد عجيبة، في ايقاع مدهش، لم يدر كيف يخترعونه.

استمرت الأفراح ثلاثة أيام، لكن اليوتنان جاء بعد شهر وقال للكابتن، اسمح لي سيدي أن أقدم هديتي الآن!

نظر اليه كاربيه من وراء حاجبيه السميكين وقال: «نعم يوتنان!» ابتسم هذا، وقال: «إنها تحتاج منك لبعض الارتحال»

قال كاربيه: «بيانْ موريل! بيانْ!»

(٣٣)

فجراً، وفيما كان صايل يتمطى، صرخ فجأة، وهو يحدقُ في النافذة «بنت الحرام!»

كانت قافلة مؤلفة من ثلاثة فرسان، بصحبة امرأة وصبي تدخلُ إلى الخرائب، في حراسة نايل وترحيبه. لم يصدق عينيه لأن المرأة، لم تكن سوى بدور، مطلقته الثانية التي داست، كما فكر في الثواني الأولى، المحرمات، وقدمت إلى دار مطلقها، خلافاً لجميع التقاليد.

وحين توقف الضيوف، ونزلوا، تسلل من الأبواب الخلفية، ومضى نحو الخرائب الشرقية، واختفى هناك، دون أن تخامره أية ظنون، في الوقت الذي قدَّمت فيه بدور، التي بدت في إهاب القائد، مرافقيها ثم ثبتت الطفل من كتفيه، وقالت «خذوا! ربوا ابنكم!»

كان شبيهاً بصايل، إلى حدود الخرافة، فبهتوا جميعاً، فاجأهم الشبه المعجز، والخبر الجديد الذي ما كانوا يعرفون عنه أي شيء. لكنهم أيضاً لم يترددوا في تقبل الولد، واحتضنوه بحماس أغاظَ بدور نفسها التي ظنت أنَّ بمقدورها قهر آل الفضل، بيتيمٍ، لم تعد تستطيع تربيته، بعد اقترانها بسعيد باشا سليل مشايخ الجبال.

هكذا فتنوا بالصبي، وراحت النساء، يتأملنه، وهو يتفحص المكان الجديد الخاوي الذي نقل اليه، متوجساً، أحطن به، حين اعتلت بدور، صهوة فرسها، وغادرت المكان، وبدأن يصحن كالطيور، ويحاولن الهاءه عن فجيعته،

لكن الطفل، الذي لم ينتبه لغياب أمه، إلا بعد أن صارت بعيده. سقط على الأرض، وتدحرج معفراً نفسه بالتراب، والدموع. حينها، وقفت، ثنيه، وصرخت في الفرسان البعيدين:

«يا بدور! . . شو اسم الصبي!»

فتوقفوا، استدارت المرأة نحوها وأجابت بصوت كالرصاص:

«نواااف. . . نواف!»

فجرين كلهن، ينادين أخاهن، ويهتفن: مبروك يابو نواف!»

صايل المباغت، بدا في حالة مزرية، لم يدر كيف يتصرف، وقد رأى أنَّ آله تبنوا الصبي، وقبلوه.

هل هذه شطحة من آلاعيب الزمان؟! أم فاجعة حلت عليه؟ وكيف استطاعت تلك المرأة تدبير هذه المكيدة؟ لم يستطع أن يستخلص أيَ مأثور، وهل هذا الصبي هو ابنه حقاً؟ هل يكفي أن تأتي امرأة غابت منذ ثلاث سنوات كي تقول: خذ ابنك! ليصدق أنَّ له ولداً؟ كاد يجن وتمنى لو استطاع العودة قبل فوات الأوان، والقبض على بدور اللعينة، وخنق انتقامها الرخيص الذي خدعت به كل نساء آل الفضل.

حين وصلوا إلى القاعة، كانت النساء قد أخذن نواف فأحسّ بالذعر، لما عدنَ، كان الصبي مطأطئاً، ولم يجرؤ صايل على النظر إليه، وقالت غريبه إنّ وجه أخيها، يخيف بلداً، ثم قلن «طلع فيه!» سوف ينظر مرغماً، لانه لا يملك إلا أن ينظر مرغماً، ويتفحص من أصبح رغماً عنه ابناً له.

لم يحدق في الصبي فقط، بل مسَحَ بيده الضخمة شعره، وهزَّ رأسه هزةَ سخرية مُرَّة، حين تأكد من الشبه الشاسع بينهما «كان يجب أن نسميه صايل أيضاً» قالت ثنيه، فابتسم، وقرّب الولد اليه، وقبّل جبينه، «لا!» تمتم «بدور وحدها بتعرف اني بحب اسم نواف»

وسوف يشكر الأقدار فيما بعد، ويبسط لهذا الصبي كلَّ ذخيرته من العشق والمحبة، ولن يُرى إلا برفقته.

جاسَ به اللجاة كلها، توغلا في مجاهلها شبراً شبراً، حتى أنَّ هذا اللا متوقع من الحياة (سواء أكان وصولُ نواف، أم حنانُ صايل الذي اعتقدوا أن تعلقه بالغزو والرحيل والنساء، قد قضى على حس الأبوة لديه) صار شيئاً عادياً في أيام أم الجرابيع المقنعه بالغرائب.

وبدا أنَّ نصيبه من الحياة قد اكتمل، حين هيمن الصبي عليه، وطوى أجنحته، ونزعاته المغامرة، صار زاهداً، ورعاً، مكتفياً من أم الجرابيع بطعام بسيط، وفراش عادي، بينما تحولت شراهته الى نواف. كان يطعمه بإصرار، ويراقب نومه، وتنفسه، ويلحق به إذا قام في الليل، بخفة النمر، ثم أظهر براعة لا تضاهى في غسل الجسد الرقيق، حتى قالت غريبة أن عقل أخيها صار مثل عقل ابنه. لعبا معاً، وقفزا فوق الحيطان والحجارة، وعلّمه رمي المقلاع، وقذف الحجارة، وصيد الحجل.

لكن أسى شفيفاً، ولهفة سوداء، ظلا يخيمان على روح صايل طوال الوقت، وهو يراقب ابنه، ويتأمله خائفاً مذعوراً من مجهول غائب.

لم يجرؤ أحد على سؤاله، وعجزت ثنيه عن معرفة شيء، من هذا الأخ الذي كان يغلق قلبه دائماً على اسئلتها. كان يردد أمام الجميع أنّ قلب الرجل غابة تفتحها المرأة بزلة لسان. فجعل شريعته الصمت، والتكتم ولم تستطع السنوات الطويلة، ولا آلاف الأحداث، والأسرار التي عرفها أن تزيح عاداته أبداً.

لجأت النساء إلى نبوءات أختهن وقواها، لكن كل ما استطاعت قوله أنها ما رأت حول أخيها سوى التراب، والأفاعي، وقد نجحت في معرفة الأفعى، التي لم تكن سوى بدور، لكنها حارت في أمر التراب.

بعد أشهر من جولات صايل، برفقة ابنه، وبينما كان يدربه على امتطاء

الحصان لاحظ وجود حركة غريبة في الوعر، فأختبأ هناك، ثم لاحق دورية من الدرك جالت في المكان، وعادت الى المنارة.

شعر بالخوف، وظن أنَّ شكوكه فقط هي التي جعلت جسده برتجف، أو أنها هيأت له تلك الرؤية، وهو يعرف أن رغبته في المناره لا حدود لها، وأن الوحدة تمرضه وتسلب عقله.

وكثيراً ما كَرِهَ تفكيره هذا، وحسد اخوته الذين رأى إلى طمأنينتهم، ورتياحهم العجيب للمكان المشيد في خرائب التاريخ، وكثيراً ما اعتبر أحاسيسه غشاً، وخداعاً، ولكن إذا كان ما يفكر به وهماً فماذا يقول عن عشرات الفرسان الذين رآهم يجوبون مشارف المنارة بعد ذلك؟

لهذا غير في أمكنة تدريبه لابنه كلَّ يوم، وصار يبتعد أكثر عن الطرقات المعروفة، والدروب، ويلجأ الى تلك المساحات الضئيلة المحجوزة بين أكوام وتلال الصخور.

لكنه لن ينكر، أن الطريق التي مشى عليها مئات المرات بدت معادية الآن، انطفأت جرأته تماماً، وهو يقود الصبي، لأن الوعر بدا ممتلئاً برائحة غرباء ذات ظهيرة. انتصبت أذنا الحصان، وتأهب وهو يسير في الدرب الضيقة، ويرصد، متوتراً، تحركاً غامضاً في حصن الصخور لم يجد أحداً طوال نصف ساعه، ولكنه ظل متوجساً، وظلت الشكوك تخامره، بسبب عجزه عن رؤية أيَّ شيء وراء الصخور الضخمة المحيطه بالطريق، لم يكن ينتظر طوال السنوات التي أمضاها هنا، أن يتحول إلى خائف رعديد، وأن تصير الوعور دار رعب، وأن يكو المشي نفسه والترقب والحذر عبئاً ثقيلاً يبهظ قلبه.

شعوره بأنه مراقب، وأن قوة غامضة تلاحقه، كان يرغم قلبه على الخفقان بقوة كالحجارة، ندم على مجيئه الأخرق، وتمنى لو استطاع العودة الى أم الجرابيع طيراناً، ولكن فات الأوان. ولم تكن كبرياؤه هي التي تمنعه من العدو بالحصان والهرب، وإنما يقينه بأن الطريق إلى هناك سدت، وانقطعت منذ مغادرته، لماذا؟

ومن الذين يقومون بعمل ذلك؟ لا يعرف ولكن إحساسه لا يخونه، وتبقى دهشته لطبيعة هذا الإحساس هي التي تغيظه.

أدرك أخيراً أنه صار أسير مهمته الاستكشافيه، ثم حين انعطف نحو عين الزيده، من الطريق الواسعة هناك، لاحظ بطرف عينه أنهم بدأوا يطوقونه، فوجئ بهذه الحركة، أكثر مما ذعر، إذ أن المراقبة نفسها كانت غير مفهومة، ولكن الحصار بدا ملغزاً، وشديد الضلال.

فحص الطريق، والمكان، فأيقن أن ملاحقيه، كانوا أكثر ذكاء منه، وأنهم يعرفون ما يريدون، فقد اختاروا الظهور عند غدير الصوف.

انتبه، أنهم جاؤوا من جميع الجهات تقريباً: اثنان منهم تقدما قفزاً فوق حيطان الكروم، كانا مستعجلين، وقد هجسَ من المسافة البعيدة التي تفصلهما عنه سبب ذلك. فيما تقدم من فوق، من أعلى تلة الغربان، ثالث كالجدار، ضخم الجثة، طويل كمارد. أما الرابع الذي انتبه اليه بعد الشكوك التي راودته، فقد بعث الرعب في قلبه، لأنه وهو يتقدم من أسفل الرابية، كان مجنداً بصفين من الفشك وممسكاً بندقيته بيده اليمنى. ولم يستطع معرفة الخامس الملثم الذي جاء على الطريق الترابية ممتطياً صهوة جواد أدهم، يخب به خبباً:

امتلأ بالبرد، وأدرك أن الوقت قد فات، طارَ رفٌ من الدرغل، وشمل المكان بعد ذلك سكون رهيب، سمح له في لحظة الهام خالدة، أن يُركب الصبي على ظهر الحصان ثم يهتف به، وهو يصفع الكفل العريض «روح! روح لعند عمامك!». فاندفع الحصان، أو الصبي يعدو باتجاه أم الجرابيع، وعندما صوب الآتي من التلة بندقيته نحوهما. أشار له الفارس الملثم. فتوقف قلب صايل، وكاد ينفجر لولا أنه سمع ضجيجاً أصم وراءه بالضبط، ثم فقد وعيه.

* * *

سمع صوتاً مألوفاً يرن مثل طاسة من النحاس: «كم رجال صاروا» رأى

صاحب الصوت، وأحس أن رأسه كانت فارغة، خاوية، حين تأكد أنَّه سلمان الراضي نفسه.

نظر إليه الراضي نظرة جليدية باردة. بلا معانٍ، ثم واصل طريقه، كان واضحاً من تحركاته، ولهجته أنه يقود هؤلاء الرجال، وأنهم يطيعون أوامره، وينفذونها دون تردد.

كانت يداه مقيدتين، وذهل مما يحصل أمامه، وفي كل اتجاه، ذهبت اليه عيناه، كان يرى كتلاً من الناس، والخيل، والحلال، تتحرك في مهرجان من الغرابة. ثم اغتنت الرؤية، بطقطقة الرصاص، وصراخ الحماسة القادمة من جهة القلعة. ولأن الصورة كانت مقلوبة (بسبب اضطراره للاستلقاء على ظهره) فقد اعتقد أنه يحلم، وأنه سيستيقظ الآن، بحركة ملائمة من جسده، ثم سيحكي لنواف مصاعب هذا الحلم المزعج، مثلما يحكي له قصص الجن والعفاريت!

لكن سماعَ صوت الراضي نفسه، لا يمكن أن يكون حلماً، فكيف إذا كنت تراه الآن بكل صخبه، وفوضاه؟

وكان منظر المنارة مريعاً، إذ بدت لعينيه مدينة أشباح، أما الصراخ الغامض، والجلبة غير المفهومة فقد جعلاها مثل بَصْرةِ سندباد وقد ظهرت الآن بيوت الفلاحين، على حقيقتها، مجرد أكواخ، رثة، تالفة، لا تنتج سوى الخوف.

بإشارة من يد سلمان الراضي، جاء أحد الفرسان، نزل، ثم مضى بعيداً عنه، وللمرة الأولى في حياته، وجد نفسه عاجزاً عن التصرف، لقد انتهى جنونه، لأن المنظر المدجج بالأسلحة، الممتلئ إلى حافته بتحركات سلمان المثيرة، جَمَّده.

هناك رآهم يسوقون ستة رجال مربوطين، نحو الجنوب، ورأى خيلاً تعدو، وخيلاً أخرى ترعى في البيادرالغربية، وكان أحد الفرسان أو المرابعين يأتي فجأة، ويخبر سلمان بأمر ما، ثم يتلقى تعليماته، ويغادر.

أما سلمان فقد بدا مثل آلة، لا تكل: أوامر، وصراخ، وإشارات وعَدْوٌ

بالفرس، وغبار كثيف يغطي جسده، وثيابه، ووجهه، وشعره الذي كشعر الماعز، تدلى على كتفيه.

كل ذلك، كان يجري أمام ناظري صايل، في ايقاع سريع، منتظم مرسوم بحيوية ورهافة لا يتقنهما سوى الراضي. ذلك لأنه الوحيد الذي يفهم كيف يمكن استخدام القوة التي يمتلكها، في اللحظة المناسبة، والمكان المناسب!

هذا ما كان يجذب صايل اليه، إذا ما عُدَّ أمامه رجال كنج، كان يقف مدهوشاً، تجاه التنظيم البليغ لعناصر القوة التي تتوفر في أي مرة لآل الحمدان، تجاه اعدائهم. لقد عرف الآن أنّه في ا لمرات الكثيرة التي ضيع فيها فضائله، وقواه، فإنَّ سلمان الراضي، كان يبني لنفسه صورة الحكيم الذي يساوم ويربح.

هكذا، شعر بالرعب حين أدرك حجم المخاطر، التي سيواجهها بعد أن وقع في يد هذا الشيطان. وقد استسلم تماماً لأنه تأكد، أن طرق النجاة قد سدت. فالمنارة وراءه، إلى الشرق، وعشرات المسلحين أمامه في الواجهة الغربية، والأسرى يساقون نحو الجنوب، إلى سهل الزرازير، لا مفر إذن!

لم يكن هذا رأي الحليم فيه، وإنما يأسُ الأسد، وبانتظار ما يأتي به هذا اليوم، حاول أن يوقف، اندفاعة أفكاره، وخرابها، لعل الفرج يأتي من الله، أو من أي مكان، ولكنه لن يظهر سوى احتقاره وازدرائه، لهذا العهر العجيب، الذي يبديه كنج دون سبب، نعم، لم يكن حتى الآن قد فكر في الدواعي التي تسمح لهؤلاء الكلاب، باصطياد الناس. وتكتيفهم، ودفعهم سدى الى الذل والمهانة. صحيح! لِمَ يحدث كل هذا؟! وماذا يريدُ كنج من المنارة، في هذا اليوم؟!

لم يكن سلمان الراضي أقل ترقباً، وقد أظهر حتى الآن رباطة جأش كافية، ومشاعر استصغار تجاه عدوه الأبدي، وصنوه الملقى أمامه على التراب. وربما كانت جميع أُوامره، وزعيقه، وتحركاته صادرة عن رغبة لامرئية في إرهاب صايل، وتخويفه. كان يرغب أيضاً في الاستيلاء على شجاعته، وتهشيم كبريائه الجسورة، قبل أن يحدث أي شيء. وقد اختار، للقيام بهذا، مناورة طويلة

محسوبة، بدأها بترك الرجل في عراء أفكاره، وظنونه، أكثر من ساعتين، دون أن تغفل عيناه، عنه في لحظة واحدة. كان العثور على برهة الهزيمة لدى عدوه، أصعبَ من الإمساك بمشاعر النصر، التي توهمها، هذا الظهر، حين أسرَّ صايل! لماذا لم يفرح؟ ولماذا لم يركض إلى كنج، لينقل اليه النبأ المشرق المنتظر؟ لا يعرف! إنه لم يفعل ذلك وكفى!

لكنه، حين اقترب من صايل، للمرة الأخيرة، ولاحظ انكساره وكآبته، لم يستطع كتمان حماقاته، واستجاب، دون مقاومة، لوسواس الشماته، وقال لصايل، بلهجة، تفوحُ منها خميرة التحدي والضغينة:

«شو؟ أول مرة بشوفك ذليل!»

لم تفاجئه الكلمات الزاخرة بالثأر، وبراعة المرابع المستقوي بالبنادق، والرجال هزّ رأسه الضخم موافقاً، وقال وهو يرفع، أمام عيني الراضي، قبضته:

«المرة الثانية مش راح تلحق تشوف شي يا سلمان!»

كان جاداً كملك الموت، وارتجفت قوائم الحصان، تحت سلمان، حين باغته التهديد الصريح، الذي أيقن أنه لن ينجو منه بعد الآن أبداً، لم يجرؤ على قول شيء: هكذا كانت حياته، فهو يخطو خطوة واحدة إلى الأمام، ظاناً أن بإمكانه اجتياز ذلك الخندق المستحيل، ليفاجأ بأنه لا يسير إلا في سراب. ولم يعد يجد عزاء في مباهج المسؤولية التي أوكلت إليه. وبدت له ثقيلة، وتافهة، ولا تليق بهمته. ولهذا فإنه بعد ساعات، حين التقى بكنج، لعن نفسه، مئة مرة، لأنه قبل بهذه المهمة الفاسقة.

لكن البك، لم يأبه كثيراً برأي سلمان، متجاهلاً دلالات استقالته التي ما كان ليغفلها لو حدثت في وقت آخر.

أكثر ما كان يحنق سلمان، هو تلك المفاجآت التي لم يكن يعدُّ نفسه لها إعداداً جيداً. وعلى الرغم من أنه بعد كل هزيمة كلاميه، كان يعيد النظر في كل

كلمة قيلت، ويرى أنَّ بإمكانه، لو تمهل قليلاً، أو أعاد صياغة كلماته، أو ردوده، دون يأس، أن يحقق انتصارات على اعدائه، فإن الفشل كان يرافقه، كاللعنة. ولم يدر، لماذا تذكر الآن، وعوده القديمة لكنج باصطياد صايل! هل اصطاده حقاً؟! لقد وجد السؤال متصدعاً، وتالفاً من البداية. فرأسه الممتلئ بانتصارات كنج آنذاك، وانهيار آل الفضل الوشيك، تفجَّر بالخطط، ولم يكن مخدوعاً، حين ظن أنه ذئبُ آل الحمدان، لأن سلمان لم يسقط في أي امتحانٍ للرجولة، إذا وضعنا امكانيات اللسان جانباً، طوال السنين الماضية.

تعزى قليلاً، بما توصل إليه، ثم فلسف مخاوفه، بالذريعة البشرية الأبدية عن القوي والأقوى، معترفاً لنفسه فقط، بأن صايل الفضل وحده لا يجارى، وفي هذه اللحظة التفت نحوه، كانوا يدفعونه، بفوهات البنادق نحو سهل الزرازير، وحيداً كالتل.

هناك، في السهل الجنوبي، كان المئات جالسين على الحجارة أو مقرفصين كالبط، صامتين، وقد غشاهم ذهول، وغبار. وأحاط بهم عشرات المسلحين، من رجال كنج.

وعندما وصل صايل إلى السهل، لاحظ أن سلمان، ترك الجموع واندفع بفرسه نحو المنارة، لم يكن، قد أدرك، حتى هذه اللحظة، ما يحدث ولا استطاع أن يخمن أي سبب لحملة الأسر التي يقوم بها رجال كنج لأنه كان كالميت.

الشيء الوحيد الذي أيقظ عقله، هو يقينه بأنَّ لقاءه مع كنج صار وشيكاً، كيف سيكون هذا اللقاء وسط هذه الجموع؟

طوال السنوات الفائتة، كان يحسب حساب المواجهة، ولكن هذا التفصيل، لم يكن متوقعاً قط، فغريمه الأكثر خطراً، وشده، انتصر عليه انتصاراً سهلاً، وسخيفاً، ولا أحد يعلم، إلا الله، ما الذي سيأتي به هذا النهار!

لكن قدره هذا، لم يكن يشغل كنج الحمدان، فمنظر السهل، من مضافته

كان مروعاً، ولأول مرة، يرى أن اسم المكان، طابق معناه: سهل الزرازير! هكذا بدا الناس المنتشرون هناك، لعينيه.

كان لغطهم، يصل إليه منذ الضحى، مثل دبيب سرب ضائع وكان كلُّ ما فيهم ينذر بالشر. وقد تحاشى، حتى تلك الساعة، لقاء أحد. واكتفى بمراقبة السهل من علياته، بخليط من المشاعر المتنافرة: مشاعر الرب مرة ومشاعر الزاهد مرة أخرى، وفي كلتا الحالتين، كان شيء ما، يدفعه بعيداً عن البهجة. لقد تلاشى تقريباً، ومنذ ثلاثة أيام، لم يعد يظهر بين رجاله ولا امتطى الحصان كعادته كل صباح، ولا سمع أحد صوته، حتى أن بعضَ اتباعه ظنوا أنه ميت.

كان تالفاً مثل جلد قديم، وأضاع كل قواه، وهو يحاول أن يتماسك، أويسكِّن جهنمَ القهر التي سدت ألوان العقل، وكواكبه، «تفاهة!» قال لنفسه، وهو يبصق على رثاثة كل شيء رآه، وفعله، طوال العمر.

وحين يتذكر ما حدث، يحسُّ أنَّه ما كان سوى طابة من الجلد اليابس المحشو بالملح، حجر رمي، كلب صيد قاده جندي أرعن:

عندما وصلوا صباحاً، ورأى إلى غبار خيولهم من شرفته لم يستطع كتمان أساه بسبب كثرتهم. وعندما نزلوا، تقدم نحو القلعة شاب طويل ممتلئ، ومدني قصير القامة، وخمسة جنودٍ مسلحين. لم يخفِ اعجابه بالفرنسي، حين تقدم المدني، وعرّف به، بلهجة متغطرسة فخمة: «الكابورال جان دوتي!» ثم أضاف بصوت هادئ «وأنا حسيب.. المترجم حسيب!»

احتفال كنج بالضيوف، لم يسهم في تخفيف حدة الكلمات التي وجهها الكابورال اليه بعد انتهائه من قراءة رسالة اليوتنان موريل. كان نصُّ الرسالة مكتوباً بلغتين: فرنسية وعربية.

أما الفرنسية، فقد قرأها الكابورال، جملة، جملة، بكثير من الكبرياء بينما قرأ حسيب، النصَ العربي بخشوع: «فاسق!» وصفه كنج في سره

وهدده، وقد اكتشف فيه شيئاً ما مريباً، ولم يعرف ما هو، ولن يعرف أبداً، حتى أنه استغرب تماماً، بعد خروج الكابورال ومرافقوه، من شكوكه بالترجمان.

فكرة الرسالة دارت حول موضوع واحد، هو ما اعتبرته «قضية الامة الفرنسية في مساعدة الشعوب المتخلفة التي ما تزال في ظلام الفقر، على الانتقال إلى شمس الحريه التي تليق بالإنسان!»

بعض الفقرات، لم يفهمها، خاصة تلك التي تحدثت عن «استنتاج ثروات البلاد المدفونة» لكنه استوى قليلاً في مقعده، وتحرك وهزته مشاعر العزة والأنفة، وهو يسمع ُكلاماً عن «نهضة الزراعة، وإحياء التجارة» وجاس َفي الفضاء الشاسع لصورة المستقبل.

ربما كانت خردة أحلام، فالكابورال، ازدراهُ، حين رفض الاستماع إلى تعليقاته. كان رسولاً مكلفاً بالتنفيذ فقط. ولم يكن راغباً في الاستماع إلى اللغة العامية لسكان البلاد الذين قتلوا منذ سنتين فقط فارساً فرنسياً كان يعده زهرة الجمهورية. لقد رآهم حين هاجموا العربات المصفحة قرب تل الحديد، وأصيب بنوبة جنون، جعلته يؤكد أنَّ كلَّ فلاح يلقاه، هو واحد من أولئك الشياطين، الذين اغتالوا اليوتنان بوكسان!

ولهذا فإن منظر كنج الشبيه بشجرة صبار «كما قال» حوله إلى حجر.

كنج، لم يكن يظن أن رجلاً يملك ذلك الجمال، وتلك الشقرة الناعمة كالعسل، والصوت البرونزي المنغم، يمكنه إلقاء الأوامر، بتلك الصياغة الحارقه:

«طريق المناره، بدو يبدأ خلال اسبوع!» أعاد الترجمان حسيب، بلهجة نحاسية صفراء، كلام الفرنسي، وهو يرفضُ، في اللحظة نفسها، قبول علبة الدخان التي قدمها له ضامن العسّال، هدية من كنج. كان كالكلب، ولم يتوقف عن النباح إلا في الدقائق التي تكلم فيها الكابورال الجميل، بتلك اللغة الزهرية المنقوعة في ا لملح.

لم يستطع منع نفسه من تأمل العسكري المزين بكل الألوان، والضحك من لهجة القرباط التي ينطق بها، وكان من الممكن أن يحب الشاب، ولكن طريقته المتعجرفة، لم تترك له فرصة للودّ. فما يزال كنج هو كنج، وما يزال حبر وثيقة الاستقلال طرياً، وواضحاً، يشيرُ الى مبادئ التعاون بين فرنسا والجبل، لا إلى أساليب السيادة.

في البداية، حين وصلت سرية الجنود، ظن أنهم رسلٌ يريدون التمهيد لزيارة الحاكم، كان موقناً، بأن مركزه، قد تعزز، بعد الرحلة الشامية العتيده وأن الحكومة المحلية، والحاكم نفسه، يهمهم أمر المنارة المشرفة على طريق الشام.

ولكن هذه الهواجس، لم تتجاوز تفكيره: فالكابورال الصغير تصرف بعقلية الجنرال، وأخذ يصدر أوامره، واحدة وراء الأخرى، مدمراً مساكن الطمأنينة التي ظن أنهم اعترفوا بها، وخلال عشرة أيام، كانت أنباء المناره تصل اليه ببطء، وتفصيل، جعل مفاصله ترتعد: فالسرية المؤلفة من مئة جندي، التهموا، في هذا الزمن القصير، ثلاث مئة وثلاثين ديكاً، هي العدد الكامل، الذي عرف بعد المذبحة، لديوك المنارة، وعشرين كبشاً، وستة عجول، وأحد عشر تيساً، وشربوا حليب جميع النعاج والماعز والأبقار في المحيط الصغير لبلدته.

وأول الضحايا، كانت تقاليده، فقد اعتاد الخروج في التباشير على ظهر حصانه، كي يستمتع بالضوضاء الاستثنائية التي تصنعها الديوك المتفاخرة في شوارع البلدة!

كان في الأمر شيءٌ من السحر، ومن الرأي الالهي اللطيف، ولم يستطع أن يرى في الطبيعة حوله، شيئاً يثيرُ انتباهه، أكثر من هذا الاجماع الرائع على قوة الذكورة،

أما آلامه، فقد نجمت من عدم قدرته على النفاذ إلى السؤال الذي عذبه، وعجز عن قوله: ما الذي قصده الكابورال من إعدام الديوك؟!

في المساء، حين كان في طريقه إلى دار سمره، أيقن بأنه لن يجد راحة نفسه بعد الآن، كان يريدُ أن ينسى، لكن المرأة الوحيدة، لاحظت آثار عراكه مع الأسى، والقلق، فسألته بصدق حقيقي لم تخفه عنه «ليش حزنان؟!»

لم يكن يأمل من بغي، أن تقاسمه الهموم، ولكن ما أثار استغرابه هو ذلك الألم الحقيقي الذي أبدته، والبغضَ الصريح الذي أعلنته ضد الفرنسيين، مستخدمة معجماً من الكلمات، والعبارات، التي لم يصدق أبداً، أن بإمكان امرأة من المنارة أن تعرفها، إلا إذا كانت جنيه!

لا بدَّ أنَّه أغفل مهنتها، وتحسَّر لأن امرأة قوية، وحكيمة مثلها، خانتها الأيام، وطمرت مواهبها في عمل رخيص عند رجال ليسوا جديرين بها. لم يعن نفسه بالطبع، ولكن فحوى كلامه كان واضحاً، وقد أدرجت سمره اسمه بين هؤلاء الرجال في سرها، دون أن يكون للائحة أي معنى تحقيري، أو نتائج عملية، تخطط لها.

رغبتها في مشاركته مصاعب أيامه، منحتها قوة ابتكار خاطفة، اقترحت فيها عليه، أن لا يذهب بنفسه إلى السهل، وأن لا يشرف على شق الطريق، وعلى الحاكم، قبل أن يصل إلى المنارة، أن يعلم أن رجلاً مثل كنج الحمدان، لن يصبح ناطوراً عند أي جيش، مهما كانت قوته.

كانت تتكلم، مقتنعة بأفكارها عن الرجل، وهي لم تنكر اعجابها به في أي يوم، وكان حماسها وحنقها اليوم حقيقين، وحصيفين أيضاً في نظر كنج. اقترب منها، وقبل خدها، وسأل محاولاً اضفاء قليل من الجدية على لهجته الساخرة:

«ومين بتفكري يروح بدل عني للسهل؟»

فقال بلا تفكير «طلال الراعي!»

كانت فكرة سخيفة، وقد ضحكت كالمجنونة، حين تصورت طلال برأس

البغليه، ورائحته النتنة، وشهوة التيس التي تقوده، على رأس هذا الجيش من الفلاحين المسخّرين.

لكن كنج كان أفضل حالاً، ومع أنه أدرك، في أعماقه، مجون الفكرة، وحقارتها، فإن قوة الرد فيها، كان بليغاً وقوياً، بلا ريب «طيب إذن كابورال جان! هذا رح يكون من وزنك!»

* * *

ضامن العسّال، أيقن أنه بعد هذا اليوم، لن يكون له قدرة على قول أي شيءلشيخه. لم يعنَ بالتفاصيل. ورفض التكيف مع الأمر المباغت بأي وسيلة. وعلى الرغم من أنه حاول صون نفسه، عن اقتراف اخطاء فاحشة بحق سيده، فإنَّ سلوكه الاحتقاري، تجاه طلال، ازداد بطريقة فجة، وتمادى في السخرية منه بحضور تسعة مرابعين مذهولين. عجزوا عن فهم التكليف الذي أمر به كنج، كي يصبح طلال الراعي، فجأة، وبلا مقدمات، سيداً لأكثر من ثلاثمئة فلاح، من رجال المنارة، وقراها.

المجنون الأكبر هو طلال! وقد شتم نفسه كالعادة، ثم زاد على ذلك بشتم أبيه، وأمه ألف مرة، وحين خرج من مضافة كنج، ورأى إلى الجموع البعيدة في السهل. تساءل من الشيطان الذي أوحى لكنج بهذه الفكرة. وكيف دبروا هذه المؤامرة ضده؟

اتجه نحو السهل، يقوده إحساس بأنه مغدور، وكان حقده يزداد مرارة، وقلبه يمتلئ بالوحل، والماء الآسن، وهو يفكر في حظوظ دهره القبيح: ألا يكفي أنه ولد يتيماً، وأنه امتهن الرعي رغم كونه غير بدوي، دون شكوى أو تذمر؟ ألايكفي أنهم يرفضون تزويجه من أي بنت؟ وأنه يسكن بُعيداً عنهم، يكفيهم خيره وشره، ماذا يريدون منه؟ ولمَ يزجُّونه كلَّ مرة في حربٍ مع الناس؟ لقد انقطع منذ زمن عن الجميع، رفض عشرة البدو الذين كان يبغضهم -بسبب عداوة الكار- ولم يعش مع الفلاحين الذين كان أبوه وأمه منهم، بسبب رائحة الطرش التي تفوح منه.

الغريب أنه صار ينسى، خطوة بعد خطوة، موضوع كنج، بينما ينصرف تفكيره إلى الناس. والمسافة التي تزيد على ألفي متر، بين المنارة والسهل، كانت كافية لحرق جميع الفضائل في نفسه، ولأنه لم يتعلم كراهية واحد من آل الحمدان، إذ كان يعتبرهم أربابه، فإنّ أفكاره، صارت تتحول كالديدان، إلى الرجال البعيدين، مشبعة بأطنان من الكراهية، والمقت.

وعند الجماعة الأولى التي مرَّ بها، تخرَّب مزاجه تماماً، فتحاشى النظر اليهم، ومرَّ خفيفاً، ومتصدعاً. ولم ينتبه أحد إليه، باستثناء بضعة فلاحين تشاءموا من رائحته.

كان هذا حسناً. سار نحو الرجوم العالية في الوسط، دون أن يخطر باله أي شيء، سوى تنبيه الحاضرين إلى وجوده، غير أن أعظم الأفكار التي شهدتها سهول المنارة الوعرية، كما قال كنج فيما بعد–ولدت تلك اللحظة.

أما الطريقة التي تمكن فيها راعي مواشٍ، اعتاد سوق الغنم والماعز طوال عمره، أن يقود قطيعاً من الناس، في هذا الخلاء، وحده، فقد انبثقت في عقله، بسيطة ولذيذة، ومُشبعة بالنجاح.

أخذ نفساً عميقاً من الهواء، ثم فتح فمه صارخاً:

«يا رجال!!»

صاح بصوت شعائري، ممتلئ بالشر.

كان الناس المرهقين، بسبب السخط والانتظار، قد افترشوا أرض السهل، وأشواكه، وحجارته، وصخوره، في شمس تموزية فارغة، منذ الفجر، أو منذ يوم أو يومين، حين جيء بهم عنوة، فرادى وجماعات إلى هنا، أو كانوا نائمين، أو كانوا يبحثون عن ملجأ من القيظ، تحت حطاتهم التي رفعوها كالخيام.

لا شك بأنَّ النداء الأول لطلال، كان في وقته، إذْ انقضى ثلث النهار دون أن يروا أيَّ واحد من اتباع كنج، والجنود الفرنسيون، توزعوا فقط حول المكان في

استعـراض للقـوة والزينـات، بعـد أن نصبـوا خيـامهـم، فـي الشرق والغرب والشمال والجنوب.

مع الانتباه المنفرد لبعض الناس اليه، توقف طلال. لم يعد يرى أحداً، عميً تماماً. وظنَّ، في اللحظة التالية، أنَّه سيقع. لكن الحقيقة كانت غير ذلك. فالعقل الذي بدا مستقيلاً، ومشلولاً منذ أن ولد صاحبه، تفتح فجأة مثل وردة.

بعد قليل تغيرت الصورة أمامه، واتضحت حافلة بالحكمة، والروح، عندما اكتشـف فخامـة، مـا هـو مـقـدم عليه، وأدرك أنَّ السـاعـات القـادمـه، قـد تبـدل مصيره، أو تدمره.

نظر إلى المتجمهرين نظرة كراهية، حتى إذا واصل كلامه، لم يستطع إخفاء رنين الغضب، من نبراته وهو يقول:

«سبوني!»

بعض الواقفين ضحكوا، فأحسَّ بالرعب، لأنه أيقن أنَّ الفرار، أو التراجع صارا مستحيلين، وللمرة الأولى في حياته يشعر بالضغينة تجاه الغنم، امتلأ الفضاء أمام عينيه بنسيج عنكبوت، ونسي كآبته، ثم شمخ مثل نسر، وصوب اليهم نظرة قاتل، وأعاد أمره، بصوتٍ خالٍ من أي ملمح إنساني:

«سبوني!»

بقية الناس، اقتربوا من الحلقة التي أحاطت به، بينما انسحب رجلان أو ثلاثة، فسارع طلال صارخاً بهم:

«لا حدا يروح من هون.. سبوني!!»

تشقق كالتراب، ولا بدَّ أنَّ بعضَ الحاضرين رغبوا في شتمه، فما كان في نظرهم أكثر من مخلاة بالية، لا قيمة لها. لكن وقفته هناك، وطير الشر المرفرف فوق رأسه، وأمرُه اليائس الذي لا علاج له، كل ذلك كان فاحشاً، وبدا اعتراضه مجازفة، لم يتحفز أي واحد فيهم حتى الآن، لاختبارها.

«سبوني!!!»

وقد شعر أنَّ حصافته ستضيع، وسوف يعلوه غبار الهزيمة، إذا استداروا الآن، ومضوا بعيداً إلى فيء خيامهم. وهو يرفضُ القفز فوق المراحل.

وفي أعماقه، انطفأ شيء ما، وثارت ضجة مباغتة، أخفت عنه ضياء ذلك الصمت الأصفر الذي سحق الناس وهم يتأملون قامته القصيرة. «يلعن أبوك!»

قال أحدهم فجأة، مخطماً حزن الصمت، ولم يستطع، بسبب الهواجس وأرجاس التوقعات والخراب، أن يرى من الذي نطق تلك الشتيمة، ولكنه لم يخفِ بهجته أيضاً. وتغيرت نبراتُ صوته، حين أجاب:

«لا!» وقد أسدل على روحه حجاباً من الضلال «ما بيكفيٍّ!».

اشتعل أحد الموجودين صارخاً: «ك... اختك!» كان الصوت أجش ومشبعاً بالقرف، ساد بعده السكون.

«سبوني بعد!» أمرهم من جديد، بعد أن ارتقى في مدارج انتصاره، وما كان يظن أنَّ للنصر هذه الحلاوة، وقد شعر بها تحت لسانه بالضبط وتذوقها مثل قطعة سكر، طرية، وفخمة. أحسَّ أن صدره انتفخ واتسع كدائرة، فمكنَّه هذا من مراقبة الحشد الذي ظهرت عليه علامات التصدع. وراحوا يتطلعون اليه، بانتباه النعاج! هكذا رآهم تماماً. حين عمد الى خبرة الراعي الوحيدة، التي يملكها. فهذا ما يحدثُ دائماً لها، حين يهتف ويبربر: تقف، وتتنبه، وتنتظر!

«كـ... أمك! يلعن أبوك! واطي! كلب! كـ. اختك! يا عبد! يا أخو الشر..! يا نذل! خسيس!»

أخذ سخطه يتناقص الآن في جوقة الشتائم، حتى تلاشى تقريباً، وحلت محله سكينة ملهمة، وصار إحساسه بأنه وحيد، وعارٍ، ينساب في أعطاف انسياب قوس قزح. هذا ما يحتاجه بالضبط. انتظر أكثر من ربع ساعة وهو يستمع الى الفلاحين الذين خاطبوه بفوضى من المسبات المقذعة، ونظرات الاحتقار، وإشارات التهديد. اندمجوا فيها مثل قبيلة من القرود المضلَّله، واستسلموا

لشريعته، واختراعه المخلوق. جعَل يستمتع بقوة السلطة التي تمنح له الآن، وقد أدرك عنف الكلمة، وعظمة التأثير الذي تتركه في الناس، فما النبل، والشجاعة، والعفة والفروسية، والصدق، والكبرياء، سوى أقنعة فظة، جوفاء، يخفي وراءها بنو البشر حقيقتهم التافهة. وها هم الآن أمامه، صغار، يشتمون راعي المواشي الممتلئ برائحة البعر. وبلا نذير، دون تمهل، رفع يده في وجوههم، يأمرهم بالسكوت. كان وجهه، ملتهباً، بحمّى المواجهة والحر، وكان إحساسه بنهاية الحملة قد اكتمل بعد الحريق الطويل الذي مهّد به لمصيره.

بطرف عينه رأى حمود الحسن واقفاً في رقة سعد، يراقب مجريات موقفه، «منذ متى كان هناك» سأل نفسه بخبث. وحسب تقديراته، فإنّ حمود وصل بعده فوراً، الى سهل الزرازير، رسولاً لكنج هزّ رأسه متوعداً، ثم رفع اصبعه في الوجوه المجهدة لثلاثمئة فلاح مذهولين من انحطاط اللحظة التي سيقوا اليها كالدمى، وقال: «اسمعوا يا كلاب المنارة!» يا أنذال، يا اخوة الشراميط، يا أولاد القحبات. هاي سبيتوني مثل ما بدكم، وما عاد حدا إلو عندي شي والله غير انتف شعر شواربكم، ولحاكم، وأدوس على رقابكم مثل الكلاب. والله يللي ما بيشتغل مليح غير شرشحوا، واجعله ممثلة لكل واحد. ك. . . امهاتهم، واحد واحد. الكبير فيكم قبل الصغير، شايفين اي. . . هذا!» وسحب شيئه الشهير الطويل الأسود: «غير اضعوا بـ تكم وتكم!»

اندفع حمود يقهقه هناك، فتوقف طلال عن شتائمه وصرخ: «يا حمود!»

فانتبه اليه متسائلاً

وباحتقار، وجه اليه أقوى طعنة قاتلة قابلته في الحياة:

«احمل كرباجك! وسد حلقك! وراقب الناس!»

ذلك النهار لن تنساه المنارة أبداً. فالآلات البشرية التي اقتيدت ببراعة الغريزة المتمثلة في طلال، وفوهات البنادق المشرعة من التلال، لم تتوقف بعد ذلك مطلقاً.

ومنذ أن أعطى طلال أَمْرَه ببدء العمل. لم يسمح لأحد، بمن فيهم حمود الحسن، ورجال كنج الآخرين، بلحظة راحة. كان اندفاعه كراعٍ، وجبروته كقائد، ينفلتان بين الجموع، بلا رحمة. ومنذ أن شتموه بتلك البذاءات، أحس أنه تحرر من أي قيود أخلاقية، تمنعه من إرغامهم على العمل، بكل وسيلة توفرت له.

جميع الاجتهادات أضحت مقبوله لديه، من أجل إنهاء الطريق. وقد نفذها كلها مستجيباً لإحساس عميق بالضرورة التي يقتضيها الوقت ومع أنه لا يفهم شيئاً في عمله، فإن المعيار الأخير لديه كان: الحركة. فالوقوف، والراحة، والتنقل، يعنيان أمراً واحداً هو: التقصير. وكان العلاج حاضراً: جَلَدَ في اليوم الأول سبعة وأربعين رجلاً، بينهم خمسة عشر من أهل المنارة، وفي اليوم الثامن، حين بدا أنَّ الطريق لن تنتهي أبداً، بسبب البازلت الضخم الذي برز أمامهم. مات أحد الفلاحين، حين تأوه آهة قصيرة، ثم سقط أرضاً. لم تظهر في جسده آثار السياط، ولا الضرب، ولكن معدته كانت خاوية، وكان جلده جافاً كجلد حرذون.

هذا الموت، أظهر مواهب خارقة لدى طلال، حين نظم مشاركة الفلاحين في العزاء، دون أن يسمح بتعطيل العمل دقيقة واحدة. كان مكرهاً أمام التقاليد، ولكن عقله، الذي تفتح، وجد حلاً جاهزاً لم يتردد في تنفيذه: فعلى كل من يرغب في المشاركة أن يوكل مهمته إلى رفيقه، الذي سيقوم بتنفيذ مهمتين بلا كلل. ولا حاجة ممن لا يجد من يثق به لمشاركة الناس عزاءهم.

كانت فكرة شيطان. طورها، حين رأى اندفاع الفلاحين للاتفاق، بشكل اخر، إذ اقتضى الآن تقييد آخرين بانتظار عودة اخوانهم.

نصف الناس شاركوا في مشاهد ذلك النهار، كان التوقف عن العمل وحده حافزاً لأغلبهم، وقد سوغوا ذلك بهذه الذريعة وحدها، رافضين أقوال علي الجزار الذي وصف كل ذلك بأنه مذلة، وراح كل عشرة فلاحين يذهبون الى المنارة، تاركين وراءهم عدداً مماثلاً، مقيدين كالخرفان. كانت الطريقة الطلالية، تقتضي أن تربط اليدين والرجلين من الخلف، بعد أن ينبطح الرجل على بطنه. وهو يعلم أن لا أحد سيرضى بهذه الفظاظة إلا إذا كان واثقاً من شريكه.

أصيب صايل بنوبة صمت مريع، أدرك أن المكان صار محكوماً بسلطان عجيب من الافكار الحيوانية، والغرائز، والرغبات المجنونة، التي لا يضبطها أي رادع، تحاشى حتى هذا اليوم، الاصطدام بالراعي، ومن أجل هذا سخّر خبرته كلها في اقتلاع الصخور، وكسرها، وإزاحتها، دون كلل. وخلافاً لجميع توقعاته، فإنّ طلال لم يقترب قط من الجهات التي كان يعمل فيها. تمادى في تجاهله، والمرة الوحيدة التي انتبه فيها الى نفسه. كان طلال يحملق فيه، وهو برفقة حسيب المترجم، والكابورال جان دوتي الذي زار المسخرة بغتة!

هذه الملاحظة جمّدت عروقه: ماذا سيفعل الآن إذا ما اقترب الراعي منه؟ هل يقامر بحياته، ويخنقه على مرأى من الجميع؟ هل يقتل الرجال الثلاثة: الفرنسي والمدني وطلال؟ هل يصمت وينتظر؟ وهذه الأفكار نفسها صارت لعنة على شخصيته التي لم تعرف الأسئلة من قبل! وما يحيره أنّ العقل الذي اعتاد التصرف بفوضى الحوافز، و المغريات، يقف الآن مرتداً بائساً، يترجح، بين ضفة الفاجعة، وشاطئ النجاة. ولا ينكر أن هذه الحالة الجديدة نفسها، فاجأته، ووضعته في ضوضاء الأسئلة، ولن يجد إجابة شافية لتلف أصاب أقواس القلب، نعم! لقد دمروه، وها هو عاجز، مصلوب، على صخرة تافهة، يكسرها، صامتُ أمام جبروت الراعي الفاحش المسوس. دون أن يجازف حتى بالكلمات! ولكن لمَ الكلمات حقاً إذا أضحت فخاخاً؟ ولم الاعتراض إذا لم تجد رجلاً واحداً من بين ثلاثمئة رجل يعارضُ راعيَ غنم، كانوا يحتقرونه طوال عمرهم! يستسلمون أمامه، ويطأطئون، ويرضخون، أو يكتفون بالتفرج!

كانت عمليات الجلد تحدث يومياً، وصارت جزءاً من البرنامج المعتاد، حتى أن بعض الفلاحين، راحوا يعدون كلّ ليلة، حين يأتي وقتُ النوم اسماء أولئك الذين لم يجلدوا بعد، وهذا ما أثار، في نفوس الآخرين شكوكاً قاتلة بالناجين، وحين وصل بعضها إلى الراعي، جازف في اليوم التالي، بالعفو عن خمسة منهم ارتكبوا حالة استراحة. وفي اليوم نفسه تهامس مع واحد منهم بضع كلمات، لم

يفهمها أحد أبداً، لكن الفلاحين في الليل لم يصدقوا أخاهم الذي أقسم ألف مرة بالله، أن طلال كان يشتمه، ويسب أمه!

بذرة الشكوك هذه، صارت حكماً آخر بالموت، أو العزلة، وجهها بعضهم، ضد بعضهم الآخر، أما سرعة انتشارها، وقوة الانقسام الذي خلقته، فقد حيَّرت طلال نفسه، وخربت عقله تماماً، حتى أنَّه حين عاقب الذين عفا عنهم، بعد ثلاثة أيام، لم يلاحظ التفاتة تعاطف واحدة بين الفلاحين. وبعضهم ظل يكسر الحجارة، كأنه لا يسمع شيئاً قربه، واستمر ايقاع العمل على حاله، فاعتبر الراعي ذلك نوعاً من الجنون، الذي لا يصدق، تخربت مشاعره كلها، ولم يعد يفهم شيئاً مما يحدثْ، وفي بعض الساعات، كان يعتقد أنَّ الأمور تفلتُ من يديه، وأن ما كان يبتغيه، لم يكن سوى انجاز مهمة ما كلفه بها كنج. فيندفع إلى معاقبة الفلاحين بحقد جمل. وهو يقتاتُ من تصوراته المبهمة الغامضة عن ضغائن الفلاحين، وقسوتهم، وانتظارهم العجيب الذي يخمرون فيه قوة الثأر. وكان حمود الحسن يتألق في كل مرَّة، يأمره فيها بمعاقبة بعض الجماعات التي تعجز عن انجاز سخرتها في أي يوم: الفلقة، والجلد بالسياط على الظهر، ودهن الأجساد بالدبس (وهي أكثر العقوبات متعة وبراعة في رأيه) ودفن المقصرين بالحجارة (وقد أقلعا عن هذه العقوبة، حين اكتشفا أنَّ الحجارة، تمنحُ جسد الفلاح برداً يسكن آلامه، ويطفىء عطشه المر).

تطورات الأحداث، بدلت طلال، فعوضاً عن رغبته في الوحدة، بدأ يتجول بين الفلاحين طوال النهار، وقد زخر بالنشاط لمعرفة أسرارهم، ومشاغلهم التي غاب عنها دائماً، ولسذاجته، ظنَّ بأن خيانة واحدة، من أي فلاح ضعيف كافية لنشر كل ما يتطلع إلى معرفته من خفايا عماله المقهورين.

لكن فشله المتواصل، بدا فاجعاً له، وفسّر صمت الفلاحين وانغلاقهم، وحلقات الأسرار الخاصة، التي كانوا يولمونها في ساعات الغداء، أو راحة الليل، على أنها مؤامرات، ودسائس قذرة تحاك ضده، وصار ينحتُ أوهامه من حجارة

الظنون، ويحشو رأسه بأطنان من الكراهية، التي تسخنها شمس تموزية ملعونة، وبسبب هذا ربما لم يستطع أن يتفهم، كيف استحال أن يجد جسراً ما، يربطه بحياة هؤلاء الذين أصبح الآن آمرهم.

ولولا ايمانه الوثني، بالقوة المطلقة التي يمتلكها، لانهزم حقاً، كان شبيهاً بحيوان بدائي لا يعرف الخطر، وقد باغتته المكاسب، فاعتبر أن هذا الانقلاب المفاجئ، من أسياده، تجاهه، هدية رسولية من الله نفسه، ولهذا فقد منح نفسه، حق الملكية الكاملة لجميع الكائنات التي تعمل هنا.

الأمر الوحيد الذي لم يستطع تجاوزه، هو خوفه من بضعة رجال يعملون هنا، بينهم صايل الفضل، وعلي الجزار، اللذين تحصن ضدهما بأسلحة التجاهل. بينما كان الرجلان، يحملقان، في نقمته، وضلاله وشهوة الموت لديه.

بدا أنَّ طريق المنارة، لن تنتهي أبداً. وقد امتلأ سهل الزرازير بأصوات المهدات، والمطارق، والمعاول والرفوش، والتنهدات، وخراب الأجساد.

كانت الأرض الصخرية، تتغير ببطء، رغم العمل الدؤوب، وكان الحاكم الأوحد للسهل، يضغط، كالقدر، بكل وسيلة استطاع عقله ابتكارها. كان كل ما يفعله جديداً، وصار يعذب، وقد بدا عليه نفاذ صبر، ويراقب بهمة نسر، ويكشف الضعفاء، الذين يحميهم رفاقهم بدهاء ضبع!

الفلاحون استسلموا لمصيرهم بضعف نادر. وتولاهم الذعر، حين لم يجدوا علاجاً، لانهيار طلال، ولدغه المسموم، وتربصه بهم مثل فزاعة جبَّاره، لاتعرف الرحمة.

* *

آل الفضل توجهوا الى مشارف المنارة في محاولة لانقاذ أخيهم، لكن منظر الجنود الفرنسيين، الذين خيموا في الجهات الأربع للبلد، مستأثرين بأفضل المواقع والطرق، ومشاهد المرابعين الذين كانوا يجرجرون فلاحي المنارة إلى السخرة، حطم آمالهم وبعث في قلوبهم الجريئة أنفاق رعب.

ربما كانوا سيعثرون على وسيلة ما، لو كان صايل بين يدي رجال كنج، ولكن وجود الفرنسيين وحده غير حساباتهم، أتلفت عقولهم، وحفزتهم تلك النوعية المنظمة الصارمة في الاصطفاف، والمشي، وامتطاء الخيول في المخيم الشمالي، أمام قلعة المنارة. هل نفذ رجال الحرس، تلك المراسم لترويعهم مثلاً؟ لاكامل ولا اخوته استطاعوا تدبير أية محاولة لرؤية صايل أو انقاذه. لقد أضحت المنارة موطناً محرماً إلى الأبد، وسوف يضيع صايل، في هذا الصخب المشوش، لقعقعة الأسلحة الغريبة، لخلط العساكر المنتشرين.

بعد ذلك، وطوال ذلك الصيف، واظبوا على مراقبة المسخرين من بعيد، وتتبعوا انجاز الطريق، برعب وذهول. وقد تناوبوا على المراقبة من وراء صخور وادي الذهب، بينما كانت تصلهم أنباء المقرن كله، الذي كان يُشرَّح على طاولة مهندسي كاربيه، الذين أطلوا من نافذة الحضارة المشيدة بهمة الدولة العظيمة المنتدبة.

لكنهم وجهوا جميع مهاراتهم، وشعائرهم، ومعارف الأجداد والعواطف البشرية في ملاحظة ما ظنوا أنه، من بعيد، هناك، في الطريق البغيضة، خيال صايل الحبيب.

صارت أم الجرابيع مقبرة، وقد امتلأت زواياها بالقذارة والتهمها الغبار، والقش. حين لم يعد واحدٌ يهتم بها، لقد رحلوا كلهم تقريباً إلى التلال المشرفة على سهل الزرازير:

الرجال كانوا يحرسون وجود صايل المهدد من بعيد، والنساء كنَّ يندبن صقيع حظهن اليابس. وفي بعض المرات، كانت إحداهن تذهب برفقة إخوتها، كي ترى، بين الصخور الزرقاء، والتراب المخرب، شبحَ أخيها.

أضاع اعتقال صايل حصافة أهله كلها أيضاً، تحولوا إلى عجزة، ذابلين يقتلهم الانتظار البائس، لأمل، بدا كأنه يفلت من قبضة زمنهم، وهم لا يقدرون على فعل شيء. وتحطمت ضفافُ افكارهم عن تخليص أخيهم حين

لاحظوا، ذلك المعنى الفظيع المرعب، وراء القوة العاتيه المقدمة لكنج الحمدان.

تلك الأيام حولت حياته إلى نار، وأضحى، كالملدوغ، لا يقرُّ، ولا يتوقف عن التفكير في مصير صايل، الذي جعله غيابُه، محاصراً بالوحدة. بإحساس بالضيق والقهر دفعه لحرب الجميع، وكاد يقتل فضل الله الشاعر، حين أبدى تذمره، ذات ليلة، في نوبة المراقبة الليلية. فاجأه الرفض في الوقت الذي انصرف فيه بكليته نحو فكرته الثابتة لحماية صايل:

قال بلهجة قاطعة: «إما بتصير واحد منا، وإما بتترك بيت الفضل!»

فرد الشاعر دون روية: «تارك.. بعد يوم باخذ مرتي. ما بدي خرابتك»

فقال كامل باحتقار لا مثيل له «ما لك نسوان عندنا»

لم يلاحظ فضل مدى قوة الكلمات، وحدق في عيني كامل برهة وجيزة، بدا مهتاجاً، ومباغتاً بالازدراء الذي عومل له. لكنه، ربما بسبب الإهانة، أو بسبب الثقة المُطْلَقة بنفسه، بعد الأمجاد العظيمه التي كسبها بشعره، قرر أن يواصل مبارزته حتى النهاية.

خلال ذلك، أخذ يبحث عن الكلمات بهمة عقله الخالق، غير أنَّ الموقف لم يكن يحتمل انتظار نول المبدع كي يخترع ما يروقه، ووجد نفسه مكرهاً على قول ما سيبغضه طول حياته، حين ردد من بين أسنانه: «وأنتو ما لكم كرامة عند..»

لم يكمل لأن بندقية كامل كانت قد توجهت نحوه، وسَمِعَ، أو رأى، صوت الرصاصة، وهي تنطلق من فوهة البندقية، في اللحظة التي أحسَّ فيها بأن قوة ثور صدمته، ورمته بعيداً في باحة الخربة.

لاحظ كامل الجلبة الهائلة التي حدثت، ولغط الأصوات الغريب، والهمهمة الموجية البهيه، ثم تلاشى كل شيء من ساحة الرؤية، والأسماع ليغيب في ضياء رجراج، ثم تعم الظلمة.

اندفعت ثنيه من غرفتها، وهي تحمل رَسَنَ بغل. كان دبيبها مسموعاً،

وكانت تهدر كغيمة، تحولت الى وحش، الآن فقط ميَّزَ براعتها، وقوتها، وقدرتها، وهي تلوح بالرسن من فوق رأسها، ثم تجلده، أصابته الضربة الأولى على كتفه، فالتفت نحوها بعينين مملوءتين بالدموع، أما الضربة الثانية، فكادت تحطم جمجمته بالزرد القاسي، لولا أنه أمسك الرسن، وقال بصوت عميق، قوي، بلا نبرات: «خلص يا ثنيه!».

فتركته، وهي تردد بما يشبه النشيج «روح! الله يلعنك» ثم بدأت تبكي.

كانت المرة الأولى في حياتها، التي توجه اليه هذه الكلمات، لقد قالتها بصدق، أذعرها، وهي تعرف أن هذا الانشقاق قد يهدم، بسخافته، وعنفه، حصنَ آل الفضل، وأي ابليس تدخل بين هذين الرجلين، كي يقوضا قلعتها الحبيبة، ويدمرا اقامتها في الكيان العظيم الذي صنعته، وخاضت لأجله حروب الحياة؟

وبسبب هذا الذعر المقلق، لم تستطع الاستمرار في سيمائها الجليلة، ولا مواصلة غضبها الماحق، انهارت، حين تذكرت عذاب صايل في سهل الزرازير، وتأكدت أن هذا الذي لعنته، كان رجلها الممتلئ بالحكمة والخير:

«سامحني!» قالت له وهي تعانقه، وتقبل عنقه المحمره من آثار الضربة:

وعندما أفاق فضل الله، كان شاهين قد ضمَّدَ كتفه المصابة بالطلقة البارعة، وعرف فيما بعد أن نايل، هو الذي أنقذه، من موت محقق، كادت توصله اليه العواطف المجنونة لرجل مأسور اعتاد طول عمره الفخر بعزته.

بعد ذلك عرف أيضاً تفاصيل الرعب الذي حل في الديار، حين شهدوا اصطدام الجبارين، اللذين كادت لحظة تفاهة ضالة، أن تذرو بهما آثار العائلة برمتها.

لم يكن ذاك ما أنساه آلام روحه، وجسده. بعد ذلك، وحسب وإنما ذلك الحنان الأبوي الشفوق الذي أبداه، تجاهه كامل. بدا نادماً حتى عظامه، وكان يبذل طاقة هائلة، ممزوجة بحس عميق بالفجيعه وهو يحاول تدريب الذراع المكسورة

للشاعر الضعيف كل مرة، وإرضاء أخته الصغرى، هنده، الراقدة قرب زوجها الجريح.

عند هذا أدرك فضل الله أن تسرَّعه، وأهواءه، هما اللذان أعميا بصيرته، كي لا يرى وراء القوة السامقة الماكرة لآل الفضل، هذا العطف الانثوي المحطم الذي حوله أسر صايل، وعجزهم عن إنقاذه، إلى جمر حافل بالعذاب.

حين وصل الى هنا قبل عام، لم يفكر بماهية التضحيات التي سيقدمها لآل الفضل، لقد اختار ابنتهم دون تقدير، وارتبط بها مثلما أرادوا: «لا رحيل، ولا ترك للديار، ولا غرباء هنا» بدا له أنَّ خوفهم أكبر من فرحهم، وظهروا قساة، خالين من الحس البشري بالوجود، ولولا بضع مسرات صغيرة عاشها، لظن أنه يعاشر كائنات من الحديد الصدئ.

أما الآن، فقد أدرك، أنه لم يرَ سوى اللحاء الهش لأحاسيسهم. وحتى بالنسبة لهنده الرائعة، التي تفوح سُمْرَةً. وَجَدَ أنه ما كان أكثر من شريك جديد للعائلة. خدعته براقع الجاذبية الخارجية، لامرأة طافحة بالأسرار، ففي الأيام الأولى التي أعقبت اصابته، ارتدت ثياب رجل وشاركت اخوتها في حراسة صايل، وسط الحشود المقهورة، في سهل الزرازير. وحين تنتهي نوبتها، كانت تعود اليه ملهوفة، مبتهلة إلى الله أن يعجل بشفائه. وحاول مرة واحدة أن يشكو اليها آلامه، فقالت بإصرار، وهي تجازف بكل شيء:

«كامل ما كنش غلطان!»

حدق فيها برعب، فتبدلت سحنتها، وقد رأت كم هو ضعيف، ومرهف، ونقرت أنفه، ثم رفعت اصبعها مهددة بلطف:

«إياك من بيت الفضل!»

وطوال ذلك الصيف، لم يتأخر عن رعاية صايل، إسوة بآله، وفي آب كتب قصيدة من ثلاثين بيتاً، بدأها بداية غريبة، لا يعرفها نمط الشروقي المحلي. لم يكن

التجديد الذي قدَّمه في المعاني، انما في الايقاع. فقد استطاع متابعة الحزن القبائلي البطيء المحمول في القصيدة الشعبية مضيفاً اليه جرساً حماسياً لاقى القبول فوراً، خاصة من ثنية التي كانت تدرك أهمية الوزن الجديد المخلوق!

من كـثـر هـمـي، يـردف الموج يمي   اشـرب بسـمـي وانْصَفْ الـدمع دمي
جـرحي مـزمّي بـالمـعـاليـق دمي   والشيب عمي مفرق النحر والراس

* * *

في المنارة، والسهل، لم يلاحظوا الأشباح الشاردة في وعر السالمين، وصخور وادي الذهب، فيما كانت الطريق تمشي قدماً نحو الجنوب. وطوال تلك الشهور لم يغادر طلال مقر قيادته، دقيقة واحده، وأصيب بأرق عجيب، منعه من النوم عشرة أيام، ثم استعاد صحته بعد الفراغ من إزالة الصخور في غدير السيد. وأعطى نفسه مكافأة كبيرة بأن نام طوال النهار، تراخى العمل خلاله، واستراح الفلاحون واسترخوا لساعات في الظلال الضئيلة للصخور المكسورة المحطمة، لكنه حين استيقظ، ورأى ضآلَة ما أنجزوا، كاد يجن، وراح يسوط المسخرين بلا رحمة، حتى إذا وصل، الى صخرة النجار، قدم له الرقيب دوتي (الذي أبدى اعجاباً صريحاً بقيادته) كل ما يحتاجه من الديناميت، وخبير متفجرات، دمَّر في لحظات، ما عجز عنه أربعون فلاحاً في نهار كامل.

انتقامه ازداد صخباً بعد ذلك، وقد حثه التقريظ الفرنسي، الذي نقل اليه بطريقة بشائرية، يعرفها الترجمان حسيب، مثلما حثه طبعه الكلبي المعتاد على الوفاء: زاد ساعات العمل، وانقص كمية الطعام والماء، وأرغم المسخرين على الغناء أثناء العمل، رغم القيظ القاتل في تموز وآب، لكنه حين لاحظ، أن انتقامه، أفسد الانجاز تراجع عنه بسهولة.

لم تكن الرحمة هي السبب، كما لاحظ حمود الحسن، وإنما هي البلادة التي بدت مسكونة بروح فاجرة رخيصة، يمكنها أن تحطم كل شيء، ورطانة راع قذر، بلا سمات، تستطيع محو الكائنات من الوجود.

هذا ما أوصله إلى ضامن العسّال، وسلمان الراضي، اللذين ظلا في قلعة المنارة: ضامن بدا مهزوماً. وفي المرات القليلة التي تأمل فيها الأحداث، صَدَّق مقولات حمود، لكن الساعات المملوءة بالشغل ومراقبة نشاط الجنود الفرنسيين، والرعاية التي يقدمها دوتي لطلال، قوضت كيانه تماماً: لم يصدق أن ذلك الراعي السقيم، يمكنه اقتراف كل هذه الخطايا الفظيعه، والابتكارات الرهيبه، أو أن يظهر هذا الدهاء الفظ الذي لم يخطر ببالِ أحد من قبل.

لم يتدخل، وخامره إحساس عميق بالفراغ، حين رأى الى كنج وهو يستقصي أعمال طلال بذلك التوهج الغريب: كان مذهولاً، مشرقاً بحصافة الراعي، وفضائل الطريقة التي استخدمها، وقال لضامن إن مكان ذلك الرجل، لم يعد في الصيرة، والحظائر. ورشحه لمكانة الخولي بعد ضامن.

عندها، لم يعد ينقل للبك أخبار طلال، إلا بعد أن يطبخها في قدور الخوف والذعر من الامكانات الحيوانية للراعي المجنون، ويسلقها بماء الكراهية لتصرفاته، ويقدمها على طبق الحماقات، وانفلات الغرائز، والجبن، والضغائن. في محاولة دؤوبة لتدمير ذلك العقل المخرِّب، المهدِّد، لكل لبنة بنيت في المنارة.

في نهاية تموز طلب جان دوتي من طلال اختيار مكان مناسب لبناء مخفر، فحدق الراعي في الآفاق حوله ثم قال: «هناك!» مشيراً إلى تلة صخرية مملوءة بأشجار البطم، وجذوع الزيتون البري المحطم. اسمها «رقة المطر».

أثار التشكيلُ الغريبُ للتراب، والصخر، والتوزيع المدهش لأبجدية الصخور، الكابورال، فراح يهز رأسه بسرور، وأمر بالبدء في بناء المخفر، كي ينتهي العمل في المشروعين معاً.

كلف الراعي صايل الفضل بالبناء. وفي أعماقه تمنى لو استطاع اعتقال آل الفضل جميعهم، وتسخيرهم في هذا العمل. كان يعلم نوع النتائج الوردية لاشتراكهم في اعلاء هذا الصرح الجديد في المنارة.

لكن امنيته لم تصل الى كنج، ولم يشرحها الترجمان للكابورال لأنه ببساطة ما كان يعرف شيئاً عن فضائل البنائين، فاعتقد طلال أن البك لا يرغبُ في تعقب العائلة المقاتلة في مسالك أم الجرابيع المخيفة. واكتفى بصايل، لم يواجهه، بل أرسل حمود الحسن، الذي نقل إليه رسالة ملغزه، مشحونة، بالتهديد، والتحذير في الوقت نفسه:

لم يكن اللغز صعباً، ولكن حمود كان ساذجاً، وحماراً، كما قال صايل. حين طلب اليه أن يبني عمارة هشة، كالشراك، لأن خطته هي أن يدفن الفرنسيين في برج المراقبه، الذي أرادوا إرهاب المنارة به. وقد آمن اللعين بأنهم لا يزيدون عن جماعة دوتي، الموجودين في السهل. والغائب الخطير الذي تنتظره القرى منذ شهور: حاكم الجبل.

رغم سذاجة الاقتراح، فإن صايل لم يخفِ رغبته في المجازفة بعمله، لكن فخامة المكان المختار، وعظمة التنفيذ، أشعلا أفكاره بطريقة أخرى: فقد بنى في ستة أشهر متواصلة صَرْحاً بارعاً حافلاً بالجنون: جعل قاعدة البناء، مصمتة، مغلقة بلا مداخل، باستثناء باب ضيق يفضي الى درج لولبي، صاعد في الظلام. سوف تصعد ثماني درجات حتى تصل الى أول نور يطل عليك من النوافذ العليا: أثناء ذلك لن يستطيع واحد اختراق المكان، ثم تبدأ بعد ذلك الغُرف: أولها مرابض الحرس، وجنود الدوريات، ثم المهاجع المستديرة المتلئة بالطلاقات. أما الطابق الثالث، وهو جزء مرتفع قليلاً عن الطابق الثاني، فترِكَ لمكاتب الرؤوساء والقادة.

معظم التصاميم، كانت بنتُ مواهبه، وقد ضارع، في بعضها أجزاء من أم الجرابيع، مثل نمط القاعات بوجه خاص. وشكل الصعود المغلق. وبعضُها الآخر، أمدته بها جهامة التل، وقوته، وارتفاعه، أو مخازن الذاكرة الخبيرة.

وحين انتهى العمل، وجاء جان دوتي لاستلام البناء، كانت غيمة كانونية خصيبة تمطر. وكانت أشعة الشمس تتسلل من الثنيات الرقيقة للغيمة، برقت آلاف البللورات في البازلت ا لأزرق الطازج. ومن النوافذ هبت ريحٌ شتائيةٌ هاربة،

وسطع سهل الزرازير تحت وطأة المياه المتدحرجة على صخوره، عندها، أطلق العريفُ المزلزل على المخفر اسماً سيظل يرافقه إلى الأبد: قصر المطر.

حيثما ذهب عقب ذلك، كان يلهج بمديح صايل الفضل، لكنه حين حاول بعد شهرين فقط من انتهاء الطريق، البحث عنه، وجَدَ رماداً، وأخباراً بائسة: اختفى صايل تماماً، وأضاعته المنارة، ولن يستطيع الكابورال (الذي صار سرجاناً) طوال السنين التي أمضاها هنا، اكتشاف أي شيء عن البنّاء المدهش الذي ظل يثير ضجة غريبة في دمه، كلما زار قصر المطر، أو سمع عنه شيئاً!

أما الفلاحون، الذين عملوا مع صايل، فقد أقسموا أنهم رأوا أجساداً شبحيه ملهوفة، صارت تزور القصر، كل ليله. يصححون أو يعيدون بناء بعض أجزائه، كانوا يهبطون من الشمال محملين بالحديد الذي كتموا صوته بأثوابهم يتهامسون مع صايل، ويهرعون بعد ذلك الى العمل، دون أن يعبأوا بأي خطر.

لم يذع أحد هذا الخبر إلا بعد انتهاء العمل، وكان وصول الأشباح الجوابين شيئاً سامياً، رفضوا أن يعرضوه لأي شبهة، أو تحامل. وقد بث في نفوسهم شغفاً كريماً، بطريقة العمارة الفذة، ورغبة عميقة في متابعة السر البلسمي الذي جنَّب أولئك العاملين مع صايل (الذين ما كانوا سوى آل الفضل) سخط الراعي القاتل.

وربما كان كنج الحمدان هو الوحيد الذي خانته أقدار طريق المنارة. لم يخبره أحد عن قصر المطر، لكنه حين رأى ذات يوم، من شرفة قلعته جدران القصر، وهي ترتفع فوق التلة، أصيب بالذعر، وسأل ضامن العسّال عما يحدث، ثم مسته رغبة خفيفة للذهاب إلى هناك، ورؤية هذه المفاجآة التي ما توقعها قط.

لقد ظنّ أنّ طريق المنارة، والطرق الأخرى التي شقت في الجبل، منةً، قدمتها الدولة المنتدبة، لكسر الصدوع الصعبة في تضاريس البلاد الوعرة، وتسهيل مرور مدنيتها، الى الاصقاع الميته منذ ألف عام، وماذا في ذلك؟ كان عقله المشغول، لا يقدم له سوى اليُمن، والأمجاد المقبله، مع انتهاء الطريق التي ستكسو المنارة بمشاعل الخير. ولهذا لم ينشغل كثيراً بما يجري، في سهل الزرازير ولم يندم

على اختيار طلال، الذي اعتبر شراسته، وعنفه، جزءاً من طبيعة الأشياء، وبدت له لوعات سلمان، وصمت ضامن المتواطئ، رثاثة حساد، وبؤس مرابعين، أخافتهما، شرائع الراعي الغاشمه.

لكنها لم تكن شيئاً خطيراً برأيه، لأن الرجل الذي أبدى هذه الضروب الفاتنه، من القسوة والشدة، شفعت له نتائجه الباهرة: «الطريق!!» قال لهما «مين منكم قادر يخرق السهل بمثل هالشهور القليله؟»

غيز أن المخفر الذي بدأوا ببنائه هناك، بدا له زائداً جداً على آماله، رغبة اجنبيه أسدلت على راحته، وطمأنينته الى الطريق، بساطاً من الخوف الغامض، فأفلت لسانه باللعنات، سب أبا الفرنسيين وأمهم، وأهلهم، وبلادهم. دون أن يفهم كنه غضبه، وماذا يمكن أن تجلب له الشتائم، وماذا يريد بعد الآن.

لا شيء! لأن إحساساً فاجعاً، عرّش فوق الغلاف المدمى لروحه، وخامره شعور بأنه يسرق، وأن حبالاً خفية تشده وتقيده من مكان ما، الى مسكنه، وتضغط على الرحابة العظيمه، والاتساع اللانهائي، لما ظن أنه قوة سلطته في المناره.

طغت رغبته في زيارة المخفر البعيد (بعض الساعات) على هواجسه وصدوعه. وفي كل المرّات التي وَصَفَ فيها ضامن العسال البناء السعيد الذي يبرز فوق التلة الصخرية. لم يذكر اسم صايل الفضل قط. ورغم أنه، كان مقتنعاً بصغر انتقامه، وتفاهته، فهو انتقام في كل حال. ونوع من الدهاء الممتع، راح فيه يحشو رأس كنج، باعجاب لا نظير له، بنمط البناء الصاعد، وشكل تنفيذه، وأفكار المعمرجي المدهشة، في الوقت الذي صار البك يحجم عن زيارة المكان الذي اعتبره فرنسياً صرفاً.

وراح ضامن يتخيل الصورة الغريبة امامه: ماذا سيفعل كنج حين يعلم عن بنّاء المخفر العجيب؟!

كان عليه أن ينتظر ستة أشهر، ريثما انتهت طريق المنارة، وقصر المطر، كي

يرى، صورة زعيمه، الذي خانه، كما اعتقد (حين مدح الراعي) في أول فوز يناله، وهو يلتوي مفجوعاً، من اسم صايل الفضل يُمدح، على لسان اليوتنان موريل، والسرجان دوتي، ويعظم، حين زارا قصر المطر، وأشرفا منه على المنارة البعيدة، وخربة البندق، وتلول الغربان وسهل الزرازير، والصخور العظيمة المحيطة بعين الزبدة، ووادي الذهب. ثم أغدقا على البنّاء الغائب، الذي تلاشى في أعماق اللجاة، صفات بهية، وتيجان اعجاب.

تلك اللحظة استدار كنج نحو ضامن، وحين التقت عيناهما، كان ضامن هو الذي استطاع أن يمثّل، وأن يقول لشيخه بحركة بسيطة من حاجبيه أنه لم يكن يعلم. ولكن كنج انطفأ، واختل ميزان عقله، وامتلأ جسده ببثور حكّاكة. كأن كل ما بناه، تهدم واختفى في الحلكة الجليدية الحاضرة. ففيمن يمكن أن يفرغ قهره؟! في طلال؟ أم في سلمان وحمود أم في ضامن أم في المنارة الحقيرة التي كتمت سرّ صايل؟ أم في نفسه الجبانة الخوافة، حين ارتأى الابتعاد عن مشاغل الفرنسيين الغريبة؟ «ولدنة وقلة عقل» كان يصف اجراءات السلطة الفرنسية، وضروب الخيلاء التي تظهرها، مجبراً المنارة على تجاهل الوجود المريب للجنود في السهل وأطراف البلدة، في حين كان آل الفضل يمدون أكفهم لمصالحة القوة، ويكسبون مدائح الدولة العظيمة.

وحين دخلت أمه إلى مضافته، مساء اليوم نفسه، رأت أنه كان وحيداً، معرّى، وأنه سيظل هكذا الى آخر حياته، شعرت بالرعب، فقال: «خانوني ولاد الكلب»، لم تسأله، وهي تعرف أنه كان دائماً يتحدث بهذه الألغاز الغريبة. يكفيها أن تعرف أن ولدها تعرض لأشنع ما يمكن أن يواجه أمير: الوحدة، وخيانة الأعوان!

حتى كنج نفسه، لم يستطع، حين استعاد هدوءه، أن يحدد من الذي قصده بتلك العبارة. ضامن؟ المرابعين؟ أم الفرنسيين؟ ولكن قناعة عميقه، تغلغلت في دمه تقول: بأن حياته كلها، ما كانت أكثر من سلسلة قذره، من خيانة الاصدقاء والأتباع.

في ذلك اليوم، دخّن نصف كيلو من الحسنبكي، حتى ظنّ أنّ فمع وبلعومه، صارا أسودين مثل مدفأة.

لكن طعم التبغ المر، ملأ صدره باليقين من أن البشر جميعاً، جبلوا على الغدر، لكنه للأسف، كان استنتاجاً متأخراً جداً بالنسبة لعمره «كما فكر»، ومع هذا، قال لنفسه، فإن الله كان يهديه وييسيره منذ أربع سنوات بالشعائر العظيمة لهذا اليقين.

طلب حنا، وسأله من الذي يحذي خيول آل الفضل، فقال البيطار متردداً «أنا!» عندها طلب اليه أن يحضر له بطحة عرق سراً، وألا يخبر أحداً بذلك، ثم دخل الدار، وبدأ يصرخ، ويشتم أم يعقوب التي راحت تنظر اليه بعينين كلبيتين من وراء الفوطة السميكة، حتى أذعرته، فصاح: «لاتطلعي! كملي شغلك!» ثم عاد ثانية للتدخين، ولم يأت أحد إلى المضافة، وبدت الساحة الرومانية تافهة في عينيه، ولاشك أن الرومان أنفسهم كانوا تافهين، وبلا شرف حتى يمضوا السنوات الطويلة التي قضوها هنا، ينحتون الحجارة، ويزينونها بأوراق الأشجار، والزهور، والتيجان، كي تبقى من بعدهم. لكنها ستزول رغم أنفهم، فكل ما فعلوه أنهم بدّلوا أشكالها مؤقتاً، فيأتي يوم وتعود فيه الى ما كانت عليه، حجارة زرقاء حزينة مشلولة في الوَعر، بلا بهجة. لكنه يعرف غاياتهم تماماً: الاعجاب: هذا ما أرادوا أن يوصلوه الينا! هل تستطيعون عمل أشياء مثل هذه؟! طبعاً! نستطيع! انظروا الى آل الفضل فقط، وسوف تعرفون. الله يلعن آل الفضل! لأن الفرنسيين لا يفهمون في الحجارة، هؤلاء أبناء طرق وأسلحة، أما قصر المطر، فهو لعنة من الفضاضلة ضد آل الحمدان. لعنة ستظل ألف سنة أخرى، حتى يستطيع الزمن تدميرها! تمنى لو يعيش إلى ذلك اليوم الذي يرى فيه هذا القصر مهدماً، منهاراً، لكن دخول ضامن قطع أمانيه وتأملاته، ومثلما اعتاد في السنوات الأخيرة فإن عقله هداه الى الصواب: لقد خطط لتحطيم الخولي المرائي الذي خدعه، لكنه لم يجد في نفسه رغبة في ذلك. كان مشتاقاً اليه، وابتسم له، ناسياً كلّ شيء مما مضى، وهو لا

يعرف ما الذي يجعل هذا الرجل محبباً، وأنيساً اليه: وجهه الاملس الراقص؟ أم حركاته المدنيه الخاليه من فظاظة الفلاحين، ومن تفاهتهم، ومن قلة حيائهم، وضغائنهم الصغيرة؟ لا يعرف، لكنه لا يستطيع الاستغناء عنه، فهو الجزء الضائع المختفي منه هو كنجه الليلي، الحافل بالشراك، والفخاخ، هو جانبه الضعيف الذي لا يقوى على مقاتلة ثعلب، ولا يجرؤ على طفل، ولا يتعرض لمخلوق. لكن الويل لمن يحقد عليه! تأمله: لا بدَّ أنَّ وراء هذه اللحية الحمراء، وهذا الوجه المغتبط الراضي، وهاتين العينين البراقتين بحراً كاملاً من المقت.

هزَّ رأسه راضياً، ناسياً كلَّ شبهة له ضد ضامن، ثم حين أعاد النظر إلى الخولي، ورآه كيف كان يحرك الجمر، تحت الدلة، تمنى أمنية وحيدة هي أن يعرف ما الذي يدور في هذا الرأس المثقل بالغموض، وصمت الجبال!

ضامن أيضاً أسرته الحفاوة التي استقبل بها، وهو الذي يعلم أنَّ ألاعيبه الصغيرة، لا تغيب عن عقل كنج المرصع بالفطنة والمعارف. كان نادماً بالفعل، ولكنه أخفى ندمه -بعناية- خلف ابتسامته الجريئة، المعبأة بماء المحبة والخضوع، وحين صبَّ القهوة، لشيخه، لاحظ امتنان كنج، ونزاهة شكره المتوج بسعادة صادقة، أحس ببعض الخوف، فكلما فكر بأنه فهم هذا الرجل، ابتعد ونأى عنه، وتحول إلى تمثال جليدي مضلل! لم يعرف إن كانت مهارة كنج هي التي تخفي خبثه ولغة الثأر التي يتقنها، أو إن كان دمه نفسه فسد وتعطل، وأضحى ميتاً لايحفل بشيء.

ولكي يختبر قوة كنج، وصلابة أعصابه، قرر أن يوصل اليه آخر أنباء المنارة التي عرفها، ودقق في تفاصيلها، نظر اليه مباشرة، نحو العينين المشعتين كالمصابيح، وقال مستخدماً صيغته الاستفهامية المحببة: «بتعرف يا بك؟!»، ثم، قبل أن يجيب كنج، تابع كلامه، وأخبره أنَّ سمره، تنام مع الجنود المغاربة في الجيش الفرنسي، فاستفسر منه عن عدد الذين ضاجعتهم، قال ضامن: «إذا حسبنا عدد المرات، والزمن، يمكن صاروا تسعميه» «العمى!!» صاح كنج: «صارت مغاره».

(٣٤)

رحـل صـايل عـن أم الجـرابيع مـرة ثانيـة، وقـد أخلى أخـوتـه سـبيلـه بلا اعتراضات، بعد أن أدركوا قوة العذاب الذي تعرض له في سهل الزرازير طوال الأشهر الثمانية التي سخّروه فيها هناك.

وبلا نصائح، أيقن كامل أن أخاه يعرف وجهته، ولا جدوى من أسره بدوافع الحب، والحنان، لهذا حارب ثنيه التي ما استطاعت اخفاء هلعها، على أخيها، من الأخطار، إلا حين أكد لها، أن صايل لن يخطو خطوة واحدة في اتجاه الجنوب، حيث يتجمع ثوار بهاء الدين.

هدأت، واستكانت، رغم أن عينيها ظلتا تتابعان قامة الفارس الراحل، الذي صرخ قبل أن يختفي، في الوعر: «وصايتك نواف!»

بعد ذلك، بدأوا تجديد حصون الخربة، فبنوا الأسوار الشمالية، والغربية، ورفعوا السورين، الشرقي والقبلي.

كانت قوة الفرنسيين، قد قوضتهم، وملأهم حديد الجيش الذي استطاع اقتحام بيوت المنارة، وهدمها، بالذعر، وقد جرّبت السرية المرابطة هناك، إحدى الدبابات، أمام الفلاحين المشدوهين، لأغراض الترهيب، والترغيب معاً. فأطلقوا ثلاث قذائف في اتجاه الوعر، وأصابوا أهدافهم بدقة محسوبة، أثارت الصدى في اللجاة كلها، لم يروا الرجال داخل المدرعة، وبالغ السرجان جان، في تمويه وجودهم، واخفاء أية أثار تدل عليهم، حتى أطلق الفلاحون عليها اسم: آلة ابليس!

وعلى الرغم من أن آل الفضل، لم يدركوا ماهية هذه الآلة المخيفة، فإنّ المعلومات التي وصلتهم من حنا، وشاهين الخليل، والشيخ شمس الدين، أكدت أنّ الآلة الابليسية، تستطيع أن تطال أم الجرابيع إذا وقفت في سفوح الجزارين، وأطلقت بمُباتِها نحوهم!

وفي أحد الصباحات، تسلل كامل، وشاهين، وهايل، إلى الأهداف التي أصابتها القذائف التدريبيه، وعاين خربة النسور حيث لم يبق منها سوى برج قديم، امتلأت حجارته بأشنيات حمراء كالشفق، كانت القذائف قد هدمته، ومزقت حجارته، وسحقت الحنوت الضخمة، وحطّمتها، فحص كامل الاصابات، وتلمس جنبات الحجارة المشرومه وقال «تفو! خربوا بساعة، ما ظل عايش ألف سنة!» لم يكن حزنه صادراً عن الرعب، بل عن الأسى، واستولت عليه ذلك النهار كآبة، وغمٌ دفعاه لارتكاب الحماقات. فمضى نحو المنارة، تحدوه رغبة في تفحّص أشكال الغزاة عن قريب: مضى مسلحاً، وممتلئاً بالجنادات، والفشك إلى حافته. سار حتى وصل إلى مشارف البلدة، وحين أطل من البيادر، على كوكبة الفرسان التي كانت تتسامر هناك، لطى، وراء صخرة، وراح يراقب: كان هناك خمسة من العبيد، جالسين، أذهله سواد وجوههم، الرطب، الشبيه بسواد حية، وتخيل أنهم مصنوعون من فحم، ورملٍ شيحاني هش، وقف أمامهم ساكناً، ينظر، ويستطلع قاماتهم الناحلة كالعيدان، وخيولهم السمينة، وأسرجتهم اللامعة المستريحة إلى الحجارة، وجذوع البطم، وبنادقهم الطويلة، ذات الحراب السيفيه، وزيهم الموحد الممتلئ بالأزرار، والجلد، والزينات، أدهشته هذه المناظر، ولم يستطع أن يجمع في مخيلته متناقضات المنظر المعشق. كان معتماً في الداخل، بلا أضواء ولهذا فقد بدت له تلك التفاصيل اللونية الغامقة، تفاهة اجنبية، مبتذلة، فوضى بلا معانٍ. وبدا الجنود الغازون، كالعفن في الواجهة الشهيرة لمنارته، نوع من البقع الغريبة، دخلوا فجأة إلى القلب وأثاروا السؤال القديم: «ماذا يريدون من الأشجار والصخور؟»

العساكر القاعدون، رأوا كامل! لقد أذهلهم هذا المارد، المدجج بالأسلحة والفشك والنظرة الباردة الطافحة بزرقة الحقد، أربكهم الوجود الصامت للتمثال الحي، بدا خرافياً، شيئاً يمتُ إلى اللقى والآثار. ومن جسده، من ثيابه، كانت تنبعث أضواء حرب.

تلك الجلبة التي أحدثوها لن ينساها: في الساحة الصغيرة المسيجة بالأحجار في بيادر بني سالم، اندفعوا إلى بنادقهم، لكنه حطَّمَ بطلقة واحدة خيمة البنادق الخمسة قربهم، فارتموا أرضاً، وهم يصيحون صيحات جزعة، مختبئين خلف الصخور والأشجار، تيبسوا وهم ينتظرون الحركة المقبلة التي سيقدم عليها.

لكنه كان قد امتطى جواده، واندفع به نحو أم الجرابيع. الجنود السنغال، استخدموا ثلاث بنادق، وراحوا يطلقون منها، ومن المنارة، وصلت النجدات: يوتنان شفاليه الجديد، وجان دوتي وأكثر من خمسين جندياً، وصل كنج وثلاثون مسلحاً، فلاحون، وشبان وأطفال ووقفت النساء يتفرجن من شرفات البيوت، والنوافذ العاليه المطلة على الوعر بينما راح الجنود يشرحون بالتفصيل، ملامح المارد البغيض، الذي أذعرهم بطلقاته، وقامته، والذخائر العجيبه التي تسلح بها.

راح السرجان دوتي يرتجف، وللمرة الاولى منذ وصوله إلى المنارة، التفت نحو كنج، وسأل بلغة عربية معوجة حانقة: «مين هذا يا كنج»

كان صعباً عليه أن يقدم المهاجم، الذي تعرف إلى طريقته، وشكل وجودة، بكلمتين: كامل الفضل مثلاً، لن يفهم السرجان ولا اليوتنان شيئاً من ذلك، ولكن هل من الضروري أن يفهما؟ كادت روحه تفلت منه، وهو يفحص تلك الطريق البعيدة الموغلة في اللجاة نحو الشمال، وأشار لحسيب كي يقترب، ثم شرح له، بجملة طويلة مفصلة، هوية المتسلل الذي جفَّل المنارة. وحين عرف جان دوتي، أنه شقيق صايل الفضل، سأل إن كان يفهم في البناء مثله؟، عندها أشار كنج إلى المنزل البعيد على يسار المنارة الذي خصص لسكن الملازم والسرجان وقال «أنتم تنامون بين حجارة يديه!»

أضـاف الفلاحـون، الذيـن عملـوا مـع السـرية، وصفـاً ايمائيـاً لآل الفضـل جـميعـاً. فأعلـن اليوتـنان أنــه لـن يهاجـم أم الجرابيـع، بعـد أن عـرف جغرافيـة المكـان المسموم القاتـل بالتفصيل.

* * *

أصاب الذعر بقية آل الفضل، حين رأوا كامل عائداً، ففي تلك الليلة عرف أن جميع مواجهاته القديمة، كانت تافهة، وبلا قيمة، إزاء قوة، وعنف الأعداء الجدد الذين قابلهم. وكان اكتشاف هذه الحقيقة هو الذي يملأ قلبه بالسواد، ويجعل وجهه بلون الطين، لقد ضاعت المنارة إلى الأبد، وأم الجرابيع لم تعد حصناً، وحين التف آله حوله، شرح لهم، وهو يردد: «يا حيف!» استيلاء العبيد على الجبل، كأنهم لايحاربون إلا بهم، عبيد وعبيد.

أعلن خوفه من أن يضربوا الخربة بالمدافع، ولكن شاهين قال بأنهم لن يصيبوها، وأنها بعيدة جداً عنهم، ولن يستطيعوا الوصول اليها قبل ثلاث سنوات اذا أرادوا فتح طريق. ثم ردد بعضاً من مدائح السرجان، بآل الفضل، الذين بنوا له قصر المطر «يمكن مش راح يحاربوا اللي بيحبوهم!»

لكنهم، في الصباح، قصفوا أم الجرابيع، سمعوا صوت الانفجار ثم ارتطمت كتلة حديد خارقة بالجدار الجنوبي للقاعة. تناثرت الحجارة، والشظايا، وثار غبار خفيف، ورائحة بارود، وصراخ نساء، وولولة أطفال، ثمَّ عمَّ الهدوء. وظلت بقايا الخوف متسمِّرة في وجوه النساء، ريثما ذهب الرجال إلى مكان الضربة: الغريب أنَّ القذيفه انتزعت حجراً واحداً فقط من الجدار، واقتطعت أجزاء من الحجارة المجاورة، وهذا كل شيء.

لن ينسَ ما حدث: كان ممتعاً بشكل خاص، وغريباً بعض الشيء حين تلاشى الرعب، وتسربت الى القاطنين في الخرائب، أشتات دهشة ورغبة في استكشاف المكان الذي تعرض للقصف: أمكنه أن يحصي ألف فكرة، انطبعت في الوجوه الخرساء، المتسائلة، والعيون التي راحت تتفحص في الحائط جزءاً بعد

جزء، أولَ أثرٍ سجَّله رجال الانتداب، في قلب المكان القديم. وتولع الأطفال بجمع الحديد الذي كان قنبلة: (يذكر بكاء محمد، حين لذعته السخونة المتبقية في الذيل المجنح) وارتباك النساء من المسافة التي قطعتها القذيفة.

وأجرى صالح الحراني حساباً نظرياً بحتاً للكتل، والأشكال، والمواقع الحالية أو المتبدله للمدافع الفرنسية في المنارة. ثم قدم فكرته عن الحماية الخاصة بهم. فإذا كانت المرابض التي توجد فيها المدافع عند سفوح آل الجزار، أو في أعلى قلعة كنج، فإن أقصى ما تصل إليه، هو القاعة الكبيرة، والساحة، لكنها، لن تصل إلى صخور الغربان، ولا الاجزاء الشرقيه والشمالية من أم الجرابيع.

كانت أفكاراً عسكرية محضة. وقد جربوا فوائدها في الليلة ذاتها، حين أخلوا القاعة، وهجروا الأمكنة التي حددها. نقلوا كلَّ شيء خلال النهار. ثم راحوا يراقبون بشغف القصف التالي. صارت تسلية رعب خاصة، وهي لم تتأخر على أي حال، فقد اهتز المكان بالإنفجار العنيف، في منتصف الليل، ورغم الهلع، الذي ما استطاعوا امساكه، أو منعه، فإنَّ الإصابة التي أكدت صحة أفكار صالح، خلطت في قلوبهم مشاعر الخوف، بالإعجاب، بالدهشة، بالذهول، بالغرابة بالأسئلة. صفقوا لصالح، وصنعوا من خليط مشاعرهم، طمأنينة خاصة، راحة الآمن في زمن الحرب. لكن الإحساس الوحيد الذي فشلوا في ضبطه، هو وحدتهم في هذا الكون الفظيع المترامي!

ذهبت محاولات كامل لتخفيف آلمهم سدى. كانت عقيمة، لأنها كانت كاذبة. فلن تستطيع الروح اليائسةُ اختراع الآمال. ولكن النجاة من الموت تكفي الآن: «لازم نبقى، ونعيش، ما دمنا شفنا حالنا مجبورين، ومقهورين نسكن بالخربة». وما سيأتي ظل طي المجهول، وقد يأتي بصورة «بم!!» كل ليلة، أو بصورة أخرى لا يعلمها إلا الله.

وفي هذا كان عذابه، لقد خانته الظروف، استقوت عليه وكبَّلته. وكسرت جناحه الرحيم الذي كان يطوي تحته آل الفضل، وكل الأشياء أضحت

غامضة، في الوقت الهمجي الذي يطحنهم، وما عاد لديه ما يقوله لهم، وهم مأسورون داخل أم الجرابيع إلا أن يردد: «استعينوا بالله! ما بتشتد حتى تفرج!» لكن الفرج بات ميتاً، وامتنع عن تقديم الذرائع لقلة حيلته: أين يذهب بهم بعد الآن، وهو لا يجد مكاناً يأوي إليه، سوى هذه المساحات من المخابئ البركانيه، وخرائب التاريخ.

فقدت ثنيه بوصلتها أيضاً، وخسرت نصف مهاراتها، من تواصل القصف المدفعي الذي لم يعد يتوقف، وصار عقلها عاجزاً عن اختراق كل هذا الركام من الصخور المهدمه، والحيطان الخربة إلى ما وراء الرؤية.

بينما ظل الفرنسيون، يواصلون كلّ ليلة قصف الخربة، مرة أو أكثر، كنوع من التسلية، أو التمرين الليلي للمدافع، والجنود الذين بدا عليهم التراخي، والكسل نتيجة التبطل وانقطاع الحروب.

في تلك الليالي العاصفة، زادت رغبته في المضاجعة، وربما لم يكن لخوفه الخفي، من الموت المفاجئ في هذه البقاع المجهوله، وفي هذه الأيام المغولية الغريبة، كما لم يعد لسخطه، وارتباكه، من منقذ، سوى القيام بالتعبير الاعظم عن قدسية الحياة، وجمالها. وقد أسعدته دلال، برضاها، وتقبلها: فقد شهدت الشهور الأخيرة جفافاً كئيباً في علاقتهما، حين سطا ظل كنج، الحانق، المتوعد، على حياتهما، وفكك علاقتهما، دون أن يذكر اسمه أكثر من مرة، أو مرتين في عشرة أشهر، مصادفة، أو ذكراً عابراً في ثنايا الأحاديث، ولكن قوة حضوره كانت كحضور الشيطان، فكلما تحاشيت تسميته، ازداد بقاؤه، ولم تستطع دلال التخلص من ذلك الرعب القرمزي الذي احتواها: إن كنج لن يتوقف عن حصار أم الجرابيع، وآل الفضل حتى يصل اليها في النهاية، فيما كان كامل مضنى، من إحساسه بالذل والهزيمة وانقطاع الدروب!

كان جسد دلال ليناً، وطيعاً وشديد السخونة، كل ليلة، واستجابت له بولع غريب، استحثه أكثر، وما ظن أنه نزوة طارئة، اعتقد أنها تلمُّ به، صار فردوساً

حقيقياً، صارت تزحف الى فراشه كل ليلة، بعد أن يغفو محمد، فتخلع ثيابها أولاً، ثم تنسل إلى الداخل تطوي ركبتيها، وتدفن نفسها في قامته الجبليه مثل طفله، وهي تقبل صدره وعنقه.

صار مقتنعاً بأنها تصير امرأة ناضجة يوماً بعد يوم، لكنه لم يصرح برأيه هذا لها، وهو يعلم، على كل حال، أن مزاجها، المتقلب الحار قد يسبب لها الأسى والكآبة، إذا ما علمت أنه ما يزال يراها خفيفة، وقليلة التجربة.

لكن جموحها العظيم في الفراش، صار يغدق على حياتيهما لوناً اقحوانياً من البهجة، والفرح. ومنذ أن اطمأنت إلى أن القذائف لن تصيب أي منزل من منازلهم، أخذت تزداد قوة وبسالة.

وفي الليالي التي يصادف أن تسقط إحدى القنابل، فيما هما يتضاجعان، لاتعبأ بها، وإذا ما استيقظ محمد تقربه اليها وهي تحشر جسدها داخل كامل بكل ما تستطيع.

صار مدهشاً له، أن الحدود بين الخوف والرغبة انعدمت تماماً، وهو لا يعلم إن كان لجؤوه إلى الفراش مجداً، أم هزيمة. ولكن ذلك الاتصال المستمر، تُوِّج بِحَبَلٍ سريع، ظهرت أعراضه على دلال بعد ذلك بشهرين، حين أعلنت فجأة، فيما هم ساهرون، أنها تشتهي الزعرور! طلبت ذلك بمزيج من اللهفة والحزن. فضحكت النساء، وتبسَّم الرجال، وترك كامل شغله في عود الحراثة، وقال «والله إن كان صبي رح ازرعلك عشر شجرات زعرور».

غير أنه في الليل، حين آوى إلى فراشه، لم يستطع النوم وقد راعه ذلك النحول الفظيع الذي أصاب دلال، وشعر بالأسى، حين رأى أنه يتدحرج نحو مستقبل فاجع لا رجاء فيه. وأين سيمضي باخوته وأخواته، وأطفاله وأطفالهم، إذا ما وصلوا إلى هنا؟!

كانت الفكرة تشغله لأول مرة، واستغرب أن يكون لهذا الجنين، الذي ما

يزال في رحم أمه، كل هذا الحضور الخطر، وحين جاء سماه: ذيب، تيمناً بحسن، ودرءاً للمصائب «فأين هو الآن؟ ماذا حدث له؟!»

أوصل الزائرون، من أمثال حنا البيطار، وأحمد الجزار، الذي أنشأ صلات مع آل الفضل، منذ مقتل ابنه، إليهم أنباء زيارة الحاكم المرتقبه، إلى الطريق وقصر المطر، فقال الرجال إنهم سيذهبون إلى هناك أيضاً، كان ذكر القصر وحده، كافياً للئهم بصخب الأشواق، والرغبة في معرفة رأي الحاكم الفرنسي فيما صنعته أيديهم. حاولت ثنيه منعهم، وانفجر خوفها المتراكم، وهلعها، حين فشلت، في نحيب طويل سكبت فيه نهراً من الدموع.

كان البقاء في أم الجرابيع من نصيب الشيخ شمس الدين، وصالح الحراني معا. الشيخ دحرته القرعة النظيفة التي أجروها، أما صالح فقد لانَ من وابل الدموع التي ذرفتها ثنيه، وظل هنا قهراً، وطوال الأيام الخمسة عشر التي سبقت موعد الزيارة، بذل كل ما لديه من ايمان، ويقينيات، ليقنعها بأن يوم الانسان مقدر، لكن دون جدوى. ورغم أنها، كانت في الأيام العادية توافق ببساطة على نظرية الدين البسيطة هذه، فإنَّ ايمانها كله، يهتز، ويصبح ُخفيفاً، حين يتعلق الأمر بأخطار تهدد اخوتها، رفضت مواعظه، وخاصة تلك التي لغمت بتلهفه المكشوف للذهاب مع الرجال الى سهل الزرازير.

لكن شمس الدين اكتفى بلعن كنج الحمدان فقط، وظل هنا، قرب مخطوطاته المقدسة، وألوان الحروف النبوية، قانعاً، دؤوباً في الكتابة، أكثر مما عرف عنه في الدأب طوال عمره.

كانت مشاغل غريبة ما تزال كما هي، وقد رضي كلاهما، بعد الزواج، هي وشمس الدين، بأن يظل كل منهما سائراً في دربه.

كان اتفاقاً صريحاً، بقيت فيه، بين نباتاتها الخضراء ممجدة بالروح الطيبة لها، تقاسم شاهين العناية بها، والأرباح المجتناة منها، بينما كانت النباتات تمنحها جمالاً، وعافية، وشعوراً متواصلاً بروعة المتع الحسية.

وفي ذات يوم، حاولت أن تتقرب منه طوال النهار، دون جدوى، فقد ظل ساهياً عنها، مدققاً في الخط النسخي الأسود الذي كان يهيم به، حتى إذا جاء الليل، اندس في فراشها عنوة، وراح يدغدغها، ويلاعبها ويستميلها بحرارة وحيوية أرغمتها في النهاية على الاستسلام.

فلسف لها الأمر بأن الطبايع تعيش داخل النفس البشرية في أضداد متقابلة، معبرة عن حالة الازدواج، في جوهر العقل، لم تفهم كثيراً مما قال، كانت أفكاره جديدة، ومستمدة من كتاب هامٍ، وصل إليه مطبوعاً في الريو دي جانيرو، بعنوان: «كتاب النقط والدواير» طبعة بليدة، ذات حروف صغيرة، وورق هش، وقد كلفه شيخ العقل نفسه، أن يعيد نسخ الكتاب، مرسلاً عشر مجيديات ذهباً مع التكليف.

ما كان يهمها هو الفعل نفسه. وما دام كتاب النقط والدواير منحها هذه السعادة الليلية، فإنه جدير بالتأمل، وهي لا تعرف القراءة على كل حال، ولكن الصفحات الحافلة بالدوائر الملونة، كانت تكفي لمتعة العين، ومع هذا فقد شرح لها شمس الدين طوال أيام معنى تلك التقسيمات العجيبه داخل دائرة الكون: هنا النفس الناطقة، وليونة الهيولي، وفي الدائرة الأكبر هنا قوة النور، وهناك سكون التواضع، هنا الجهل، وهنا المعصية. كانت تهز رأسها علامة الموافقة، والشيخ يتأملها مبتسماً سعيداً باقترافها الكذب، الى أن تقول: «وهنا؟!» فيمضيان إلى الفراش، ينسيان كلّ هذا، ليعودا إلى الطبيعة الأبدية الخالدة، حيث لا يذكر أي ابن آدم من يكون خارج الحافة اللينة.

وحين رحل إخوتها الى المناره، أقلقها تأخره في الحراسة الليليه، ولم تستطع أن تنام، ثم تكوَّن لديها شعور بأنَّ وجوده هناك حاملاً بندقيةَ، وراصداً الوعر المظلم الصامت، أمر مهين، لا يليق بمنزهٍ لا يتقن سوى نسخ كتب الحكمة.

ضحك لتعليقها، وعانقها، ليصون تلك السذاجة التي تتوجها، ولم يذكر لها أي شيء، عن شبابه الذي مضى، حين كان ظهوره، في أي مكان من وادي التيم، يبعث الرعب، وما كان يهمه أن تعرف قدرته على استخدام السيف. وقال لها إنه صار واحداً من آل الفضل، وسوف يفعل أيَّ شي من أجلهم، وغريبة، تنظر اليه مندهشة، تتأمل قوامه النحيل ممتلئة بالسحر!

* * *

(٣٥)

في ذلك الصباح، أفرغ الترجمان حسيب رصاصَ مسدسه في رأس أحمد النجم، حين اكتشف أنه ربّى ثلاثة ديوك سراً في حظيرته، وامتلك قداحة سكائر دون رخصة.

هاجت المنارة، وهي ترى إلى الجسد النحيل الضامر لأحمد مرمياً وسط الشارع، بثيابه البيضاء التي ارتداها لحضور الاحتفال.

وتجاسر أبناء عمومته، فلاحقوا الترجمان بالعصي، والحجارة إلى بوابة القلعة، حيث فوجئوا بمتراس من الجنود المستخدمين لحصدهم أمام الأبواب. خلفهم وقف كنج، يتقد مثل نار، غاضباً من تلك الضوضاء التي يصدرها فلاحوه الذين وصفهم أمام السرجان بأنّهم «حمير»: «لا يهمك!» قال له، ثم أمر عشرة من مرابعيه، يحملون الهراوات، والسياط، لينهالوا على الفلاحين المتجمهرين المطالبين بدم الترجمان.

هذا هو النغم الاول في افتتاح نهار الزيارة العظيمه، وكان من غير المسموح به، أن يتوقف أحد عند أي إشارة مهما كانت، تعيق الاستعداد لاستقبال الكابتن كاربيه. لقدمات أحمد النجم، وهو الذي تسبب في موته، بعد أن عرف مزاج حسيب، وحدة طباعه، وعواطفه الجامحة. فلمَ رفض أوامره، ،لم خالف قوانين الدولة؟ ولمَ؟! ولمَ؟!

تفرق الجنود في أنحاء المنارة، كانوا هذه المرة من الفرقة الأجنبيه، وقد أوكل أمر قيادتهم إلى جان دوتي نفسه، فراحوا يدفعون الناس دفعاً نحو سهل

الزرازير، ويرغمونهم بعد ذلك على الاصطفاف أنساقاً أنساقاً على جانبيه، حتى بدوا عند الضحى مثل جيش من الماضي: نساء متلفعات بسواد قاتل، رجال مهزومون. وشيوخ تالفون. وأطفال يشدهم مهرجان الاستقبال، بينما سمحوا لأربعة أشخاص فقط، أن يأخذوا جثمان أحمد لدفنه في الخشخاشة، وللنساء أن يبكينه في الدار فقط.

بدا كل شيء بلا معنى، وحين تأمل أولاد الفضل الحشود المساقة إلى السهل، أدركوا أن البلاد صارت ضيقة، وشعروا بأنهم أضحوا غرباء طارئين، وراح نايل يصفع جبينه، من وراء الصخور التي اختبأوا خلفها، قائلاً «نحنا السبب! نحنا السبب!» ظاناً أن جمال القصر، وبناءه البديع دفعا الحاكم لزيارة المكان، واقتراف هذه الجرائم والفواحش والإهانات ضد أهل المنارة.

أطرق كامل مفكراً، ولم يدر ماذا يقول، لأن فجيعته كانت أكبر، حين امتدت لتشمل، كل هؤلاء البشر العجيبين في سهل الزرازير.

كان الفرسان يحومون، حول الجماعات المندفعة، كالرعاة، وامتلأ الصباح بضجيج الرحيل الكلي إلى الطريق الجديده والقصر، وبلغط الخياله، وطلقات رصاص وصهيل خيل، والنداءات، وكلما ازداد ازدحام السهل بالناس. حيث بدأت تحضر حشود من القرى المجاورة، وبيارق وفرسان. صار أولاد الفضل يقتربون أكثر فأكثر، لاحظوا أن نصف الحاضرين ارتدوا ثياب عيد، وأتى بعض الشباب على صهوات خيولهم، وابتدأ آخرون يغنون.

في البداية أرغمهم حمود الحسن، وسلمان الراضي، وطلال على الأهازيج، ثم تجاوز التنفيذ ذلك ليصير اندفاعاً ذاتياً بحتاً، وابتكاراً شخصياً لهم، كأن الغناء أضحى بديلاً للإحساس بالمذلة والهوان، ولم يلبثوا أن نسوا وضعهم وقد عبّأهم غناؤهم بفرح خصيب، جعلهم يفرخون الأناشيد المكبوتة كلها.

نظر كامل إلى شاهين، نظرة مرتبكة، وقد راوده إحساس بأنه غاب عن هؤلاء الناس قرناً كاملاً من الزمان، لأن ما يفعلونه يشبه رقص القرود، لماذا يرقصون إذا كان عليهم أن يبكوا؟!

أحسّ بالندم بسبب مجيئه إلي هنا، وأيقن أنها حماقةُ الرغبة في التفرج والمشاهدة، وقد أفسدتها المناظرُ، والوقائع التي نفذها كنج بأهل المنارة.

قال فضل الله إنه الخوفُ، لا دهاء كنج ولا شطارة الفرنسيين، ثم أشار إلى التناقض العجيب، بين الجنود الصارخين بالعنف، والقوة والسكان المهشمين العزَّل، المرغمين على الاحتفال بأعراس غيرهم.

بعد ساعة، اقترب قطيعٌ من الغنم الى الخيمة الكبيرة، التي وقف أمامها اليوتنان موريل، وشفاليه، والسرجان دوتي، والترجمان حسيب، وكنج الحمدان، وأحمد الجزار نفسه، ملأت الاغنام الفضاء بثغائها الباكي، فقال هايل «كأن المنارة بره الكون»، فلم يجبه أحد وازداد شعور كامل بالخواء والعدم، وهو الذي توقع، أن يرى فلاحين متمردين، تنبئ وجوههم عن القهر والظلم، اللذين يلحقان بهم، منذ تولي كنج، واستقوائه بالفرنساويين. ارتفع حاجز من الوحل بين قلبه وبين فلاحي المنارة.

أما الدقائق التاليه فقد محت كل أفكاره: من الشرق برزت قافلة الحاكم، وقد جاء في مصفحة رملية مصمتة غريبة الشكل، ظلت تسير حتى وصلت بعيداً عن الخيمة الكبرى بعشرة أمتار. ساد الصمتُ أرجاء السهل، واستأثرت الآلية العسكرية بحدقات العيون. وبدلاً من أن يخرج منها عسكري فظ، ظهر رجل متوسط القامة، أسمر، يرتدي ثياب قيصر روماني، بدأ يتأمل حشود الناس، بعيني ثعلب، فأمطروه بآهات اعجاب لاحد لها، واستعادت المنارة الآن، في نظره ذكريات القادة الذين مضى على رحيلهم من هنا مئات السنين: جمهرات البشر، وطقوس الاحتفال والغناء، واستعراضات القوة، والبطش.

من ورائه، جاء ستة جنود سنغاليين، يحملون محفة مبطنة بالمخمل الليلكي، شبيهة بتلك التي رآها كاربيه ذات يوم في أحد كتب التاريخ، وحين وضعوها قربه، أحضر ضابط صغير، غصني زيتون، ضفرهما، وكلل بهما جبين القائد.

حَدَّق بعد ذلك، من عليائه، على اكتاف العبيد، في أولئك الذين راحوا يصفقون، ويَحْدُون، هناك على الأرض.

وأخذ الكابتن يشمخ بلحيته القصيرة، وقامته الممتلئة غيرمبال بأي شيء، اشتهى أن يصرخ مرة واحدة، في هذا الوعر العظيم الذي شهد، منذ الفي عام، انطلاق مواكب بطولية، قادها أجداده بين أجداده هؤلاء: «أنا قيصر!»

لقد قضى نصف عمره وهو يحلم بأن يصبح قائداً لخمسمئة رجل، أما أن يصبح شبه ملك لدولة، فهذا من قبيل الاسرار الالهية المستحيلة! أما الآن فإن المستحيلات صارت حقيقة واضحة، ملونة، بالرتب العسكرية وصفوف الجنود، والمصفحات، وحشود الناس القادمين من ألف ليلة.

أما شموخ القصر، فأتاح له أن يزداد قناعة بالمصير العظيم الذي يصعد اليه!

توقف الموكب في الأسفل، قرب الدرجات الحجرية المنحوتة بالمطارق والأزاميل، أحاط الزعماء بالحاكم، رجال بحطات بيضاء، وحمراء، وصفراء، وشيوخ بلحاهم الخصيبة، واندفع من داخل الطوق، طلال الراعي يسوق كبشاً بيديه القويتين وسار أمام القيصر، ثم توقف وقدم لأحمد الجزار سكيناً مسنونة لمعت في الشمس.

ذبحوا أربعين شاة، حتى اصطبغت الحجارة الزرقاء، بالدم القاني، وجنحت الذبائح ملطخة، وسط بركة من نبع دمائها، ندية بلا اعتراض، ولا نقمة. وتصاعدت في أعتاب القصر، صيحات الترحيب بالحاكم الذي استحوذت عليه روح فردوسية سامية (حين عاد الى السويداء، تساءل أمام معاونه يوتنان موريل الذي اقنعه باقتراحه الحصيف لزيارة قصر المطر، أن كان ما يقال عن روح التمرد وعنفوان المقاومه لدى السكان صحيحاً في أي وقت! لقد رأى عواطف اقحوانية رقيقة، تثير الدموع، وترحيباً نعناعياً منسوجاً من كلمات حريرية ناعمه، لا يجيدها مقاتلو وعور، وقطاع طرق!)

عندما فتحوا باب القصر، أطلق صريراً قوياً ناجماً عن ثقله. فتقدم إلى المدخل المعتم الممتلئ برائحة الحديد. كل شيء كان مجهزاً لراحة القائد الفخور المعبأ بذكرى المستعمرات. فراح يصعد الدرج اللولبي، وقد اعترت قلبه رجفة خوف خفية، وفكرة حمقاء سخيفة عن قبر ما، ولكنه يصعد بدل أن ينزل، وبدت الدرجات الأربعين مهلكة، وطويلة وبلا معنى «يوتنان» صرخ مرة واحدة، حين بدا له أن صعوده لا نهائي! سمع خطوات مرتبكة خلفه، وحفيف أقدام، ونور مصباح بترولي. لحقوا به، في اللحظة التي وقعت فيها عيناه على الطوابق العلوية، دفع الباب دفعاً، وخطا الى الداخل، حيث غمره، بكل سطوع، نور شمس باهر، ملأ قاعة مستديرة مفروشة بالسجاد، فيها أربعة جنود مسلحين واقفين قرب النوافذ فصاح مأخوذاً: «بيان! بيان!» وأغمض عينيه على فراديس الرؤية الرقيقه وانطوى على سعادته نصف ساعة قبل أن يسمح لمستقبليه بالدخول.

حالاً، أشار لحسيب كي يسألهم: هل تعرفون هادريان؟ ريمون الرابع؟ لويس التاسع؟ نابليون؟ كانوا يرددون: «لا» بحياء وقد تملكهم السخط على معارفهم الضحلة، كما بدا له. أشار لموريل كي يذهبوا.

في تلك اللحظة ظن كنج أن الأوامر لا تطاله، فظل واقفاً، لكن كاربيه كان قد أدار ظهره، وراح يتأمل السهل الوعري الممتلئ بتلال بركانيه، ظلت هكذا منذ ما قبل التاريخ.

* * *

(٣٦)

حين رأى تلك القطة اللذيذة المسماة «ماريا» تمتم وهو جاحظ العينين: «صباح!!». لقد كانت من سمرة وحركة وشهوة! لكن هذه سلمت نفسها حين أرادها. أخيراً! همس بمزيج من الاعجاب والدهشة، لعينيها العميقتين المشقوقتين، وحركة الدلال التي أظهرتها وهي تلتصق بجسده، أخيراً، ناسياً أين هو، حين ضمته المرأة إلى صدرها، ولأنه لم يلمس، بيديه هاتين، جسدَ امرأة قبل ذلك قط! لا، لقد فعل ذلك، مرة واحدة، حين اغرى صباح بالاقتراب منه، لكنه، لم يعد يذكر ما هو ذاك: ملمسُ ورد، أم حدُّ سيف..)

وعرفت المرأة، بخبرتها، معدن الرجل، فيداه بدتا غبيتين. وحركته مشحونة بالبؤس، واستجابته فاجرة فجور ثور، وهجومه الحيواني نحوها، أصابها بالذعر في البداية، لكنها عرفت كيف تروضه وتلغي بريَّته.

الأمر الوحيد الذي لم تفهمه هو: تلك النزاهة العجيبة في كلماته. وهمسه، «صباح!» كان يقول، ثم ينهار، بين يديها، كالنهر. وفي كل مكان ذهبت اليه، كانت تعرف هؤلاء الرجال الصدئين، فتمتلئ بواحد منهم «هذا هو» راحت تقول لنفسها، وهي تحاول ايقاف اندفاعه، وفتوته العجيبة، في ثنايا جسدها العالي، ودون أن تدري، أحست أنها بدأت تصعد معه. لقد شطرها كالسيف. وما عاد بإمكان أحشائها (التي ظنت أنَّها صارت حجراً) الثبات، عدت فيها جياد الزلزال، فتقطعت، واضطربت، وتأرجحت على حافة سفن الضباب، ثم أقلعت أخيراً معه.

حين انتهى، ورغب في أن ينزلق عنها، تمسكت به: «خليك!» همست له بلكنتها الاجنبية الطرية «بدك تصير إلي؟!» حَدَّق فيها كالهيمان، «شو؟!» عادت تسأله مرة ثانية، وتشرح له ما تريده منه، وهو يهز رأسه شارداً في رمال حياته اليباب، «من أين يأتي حنان المساء العجيب هذا؟!»

كان شامل حتى ذلك الوقت قد عمل عدة اعمال، ولكن مهنة أجداده أنقذته، فراح يعمل في البناء. في البداية اشتغل أجيراً ولكن مهاراته، وابداعات تنفيذه جعلاه سيد شغله.

لكنَّ ذلك كله ما كان ليكفيه طعامه، وأجرة سكنه في غرفته التافهة في قبو وراء المشنقه، وثمن شرابه عند بطرس. كان ذلك الريفي البارع في العمار، بارعاً أيضاً في تجرع الخمرة، مثل براعته في سرير ماريّا، وفكر طويلاً في حاله، في وحدته، وانفراط الناس من حوله، وفي بعده الطوعي عن أم الجرابيع الملعونة، فوجد أنْ لا شيء يمكنه ضبط ايقاع حياته، سوى هذه المخلوقة التي تستغيث به «ليكن ما يكون!» قال لنفسه «شحاذان على باب واحد» وقال لها: «موافق!» فتعربشت عليه، وراحت تقبل جسده قبلة وراء قبلة.

غنَّت له بالفرنسية، أغنية، قالت إنها تعلمتها، من ماخور بمرسيليا، كانت النغمات راقصة، ومشرقة، أما الكلمات التي لم يفهمها فقد أوضحت له أنها مليئة بالفحشاء عن بائعات الهوى اللواتي لا يشفيهن، سوى ذكر واحد، رغم أنهن يعرفن آلاف الذكور.

لياليه معها، في كرخانة المدينة، جددّت دماءه، وامتلأ كيانه برغبة قرمزية في البقاء، وفي كل مرة يخرج فيها من غرفتها، كان يشعر بالظمأ، والميل إلى الشرب، فيمضي إلى بطرس، ويظل هناك حتى الليل، ثم يزحف نحو قبوه، زحفاً.

كانت جيبه تفرغ دائماً، وكانت ماريا تقتسم معه مالها القليل الذي يأخذ نصفه روبير، وهي تقول خذ ما تريد! ولكن لا تذهب.

لكن حياته انعطفت فجأة، حين جاء محمد الناجي اليه ذات يوم مرتدياً ثياب الجيش. كان منظره بهياً، ملوناً، بعد الفقرْ الذي رزح فيه طوال عام، وهما يعملان معاً في البناء، وقال: «شوف! لبست!» كانت أرديته مزخرفة، ومزروعة بالأزرار، وكانوا سيدفعون له كل شهر عشر ليرات ذهبيه، «تكفيك لشهرين يا ولد» قال الناجي وهو يزين له أرباح التطوع في الجيش الفرنسي.

كان هذا كافياً، وحين استقبلهما اليوتنان مارتين بدا شديد البهاء في عيني شامل، وتكهن، بلطفه ورقته، من البياض الصلصالي الذي كون وجهه، توقف أمامه بالضبط، فقال الفرنسي بعربية معوجة وسريعة «شو اسمك؟». بدا السؤال غريباً وأجنبياً، فالتفت شامل نحو محمود الناجي، واستفسر عما يقول.

قهقه الضابط، ومرَّغ رأسه في مسند كرسيّه سعيداً، ولكن ماريا بكت، وقالت له «يلعن أبوك. مجنون!»، فلطمها بكفه لطمة رمتها بعيداً، مذهولة، هلعة، أنَّتْ أنَّةً خفيفةً، حين أرادت أن تنهض، ثم اندفعت نحوه، فأوقفها وقال: «ما حدا بحياتو سب محمد الفضل!»

هذه هي الدنيا، قال لنفسه، وهو يتأمل البيت الشديد البياض الرابض أسفل طريق القلعة، حيث تضطجع نساء شهيات مصنوعات من عزاء محض، هكذا رآهن دائماً، بل إن فكرته صارت أكثر عمقاً منذ تعلق بماريا، حيث اعتقد أنَّ الكرخانة مشروع عبقري للكابتن الأكثر مهارة: كاربيه، ففي هذه الدائرة الجهنمية المغلقة، التي يعجز فيها أمثاله عن الوصول إلى امرأة (لأن ذكرى صباح لا تبارحه أبداً) لا مناص من مثل هذا المكان الرحب، الذي تستجيب فيه النساء، لأي رجل يحمل نقوداً، وعضواً بكراً، لا آمال لديه.

هكذا ظل دائماً مخلصاً لماريا، وحتى عندما نقلوه الى حراسة منزل اليوتنان موريل، وقطن هناك، فإن كل ما قالته المرأة لم يتعد كلمتين «لا تخونني!»، فلم يفهم شيئاً من قولها، وظل يأتي اليها ويقول إنه في يوم ما سيستطيع أن يستأجر منزلاً لهما «وتتركين هذه القذارة، وأشرب ما شئت من العرق». وهي تدغدغ خديه وشفتيه وتضحك له.

(٣٧)

في الشتاء عاد شاهين من وساطته فاشلاً، وقد طردوه من البيت الأبيض، مثل حمار غريب داشر، بعد أن عرفوا أنه يريدُ استعادة شامل. والفتى المحكوم بعشقه، قابل وجوده في المبغى بالزعيق، والصراخ، بدا هلعاً، مذعوراً من سرٍ دفين كامن في هذا الرجل الداكن. الممتلئ برائحة غامضة، وصار يصرخ: «ليش جيت؟ شو جابك؟ مين؟» دون أن يقترب منه، أو يلمسه، فقد خاف حتى الموت، أن تأسره روائح أم الجرابيع، وكان يعرف أنَّ هذا الرجل وحده هو القادر على استعادته، ولهذا أرسلوه. «لوين؟!» كان سيهتف في وجهه وربما كان سيبكي، يستند الى كتف شاهين، ويقول انتظرني. ولكن الى أين؟ فات الأوان يا بو حمد، ولم تعد تنفع أعشابك، أو كان سيقول له أشياء أخرى كثيرة، ويسأله عن أخبار أم الجرابيع ولكنهم لم يمهلوه، بدت ماريا مثل لبوة، وانفجرت في وجه الرجل، وعاد روبير إلى أصله، كلب صيد شرس متمرد، وشارك السوقي اللعين علي البدوي، والعبد ساسي، كل هؤلاء دافعوا عن وجوده الجديد، وصانوا بقاءه هنا، حتى ارتقت ماريا مثل حمامة نفاشة، وفخورة، وصرخت: «طلعوه برّه»

هكذا وجد نفسه ملقى على الأرض، بانت أطراف القلعه في أعلى التلال، وبانت الثكنات الصفراء، وهطل وابل من المطر، نهض ثم قاد حصانه، خاملاً ممتلئاً بالازدراء لنفسه.

من الغرب راحت تهبُ رياح شديدة البرودة، وتساقطت ندفٌ من الثلج، وأغلقت واجهة السماء تماماً، ومن نهاية الشارع أقبلت دورية فرنسية.

كانوا يسيرون نحوه، مدججين بالأسلحة والمماطر السميكة، وشعر أن وقْع حوافر حصانه على الحجارة المغسولة، والوحشة الرهيبة التي أعقبت اختفاء الجنود، والروائح المنبعثه من أشجار الصنوبر الباقيه على الحافات، تزيد من كآبته وحزنه.

ازداد هطول الثلج، ومع هبّات الريح، أخذ الماء يتسرب إلى لحمه، وكاد الحصان يفلتُ، ولم يجرؤ على الذهاب إلى المضافات خشية غرف الفحم، وفي التلال الشماليه اعتلى صهوة حصانه، ثم اتخذ سمت المناره.

ومضى في المخاضات الغارقة، والحمأ اللعين للطين الأحمر، ومنذ أن وصل إلى خرائب اللبوة، أخذ يدمدم «العمى! العمى!» فالخرائب كانت ملأى بالذئاب، ولكنه اقترب من هناك بطيئاً ومتوارياً، ليأخذ بندقيته المخبأة في البيوت الجنوبيه. احتاج لأكثر من ساعة، للوصول الى هناك محاولاً الابتعاد عن العواء القاتل.

ذئبان، توقفا قرب الحصان، لكنهما كانا متأخرين، فقد أخذ بارودته الآن، وأطلق في المطر رصاصة واحدة، ففرا معاً.

لم يكن ثمة ما يرى، بعدُ، أي شيء، وسادت حلكة بلهاء خانقه، وصار يسمع حفيف خطو الذئاب، وهي تقفُ، وتعوي، ثم تسرعُ وراءه. أية قذاره رمى نفسه فيها! قوادون، وقحبات، ورائحة مني الرجال، وعرقهم، ومجرّة الذئاب الجوعى!

لكن، ألم يختر بنفسه المجيء الى هنا، لإعادة شامل من ولعه؟ نعم وهو يدفع الثمن، فإذا لم يحدِّث ذلك المأفون أحداً بما جرى، فسوف يبقى هذا سراً خافياً عن أهل ام الجرابيع الملوعين. هكذا قرر أن يبتلع اهانته وحده، لأنه جازف بتعقب الرجل الذي اختار أن يسلك طريق آل الخليل، وأيقن الآن أنه حاول أن يحطم ذلك الهوى الدفين في نفسه، وأن يكسره، كي لا يقوى على الوقوف، مرة ثانية.

هذا ما عرفه الآن، فلن يستطيع هجر أم الجرابيع، فهناك فضه وأولادها وأولاده الثلاثة، الذين قوسوا ظهره منذ الآن.

أمّا شامل، فاللعنة عليه، وعلي فاجرته الصخّابة، «إنما كيف وهبَ الملعون تلك البراعة لامتلاك قحبة؟» فكر وهو يسعل بسبب الهواء البارد الذي اندفع إلى رئتيه، أحس بالعطش، لكنه لم يقترب من القرى، وقد خاف من الجنود الذين أضحوا الآن موجودين في أي مكان، ولم يجرؤ أن يغني خشية أن يلقاه أي رجل ويقول «أنت خايف يا بو حمد؟» ولم يكن خائفاً، وسوف يحلف إنّه اشتاق للهجيني فقط، وان هذا المطر الضال الذي لم يتوقف منذ ساعات يصيبه بالضجر، وهو مرغم على السير ببطء، في الطريق الوعرية بين تلال الصخور.

لم يحدث له من قبل أن اضطر لخوض مثل هذه المغامرة، وفكر في ذكرى أهله الضائعين، فلاحظ أنه أضاع طريقه، حاول أن يراقب السماء ولكن الغيوم والمطر أطبقا على كل شيء، فلم يظهر سهيل، ولا بنات نعش، والشعرى اليمانيه، ليهتدي بأي منها، ويمضي نحو غربه، كره تلك الذكرى القديمه التي لا تجلب له سوى الحزن، والكمد. سار هوناً، معتمداً على ذاكرة الحصان، ومعرفته، وقد أسعفه ذلك، حتى إذا كاد الفجر ينبلج، رأى أنه صار قريباً من برك الدموع، فراح يتمتم: «شكراً للبكاء!» بعد ساعه، سمع نباح الكلاب. ودخل من الطريق الخلفية، وراء أشجار البطم، وأحسّ أن ثلاثة كلاب صارت قربه. أخذت تهرُّ وهي تتمسح بقوائم حصانه، فنزل، ودللها!

أول شيء تذكره هو عطشه، عبَّ من خوابي الحجر في الساحة الشرقية. عوى أحد الكلاب كالذئب، لكنه لم يرفع رأسه، رغم أنه شعر بأن شيئاً ما كالحديد المحمى، أو كحراشف الشلفين، يجرحُ بلعومه. وحين ارتوى، كان الكلب الأسود، ما يزال يعوي. فصرخ به «روح من هون!» غيرَ أنَّ صوته لم يخرج من فمه، فهمس «بسم الله!» ثم حاول أن يتكلم بأي شيء، لكنَّ حلقه، لم يصدر سوى الفحيح، وشعر أنه يكاد يختنق، ولم يعرف ماذا يفعل، سوى أن يركض نحو آله النائمين، وراح يدق على الأبواب، التي انفتحت في انقلاب عظيم، ثم بدأ يشكو لهم بحركات خرقاء كيف اختفى صوته.

هدّؤوه، وحاولوا أن يبثوا فيه طمأنينتهم، فيما ظل الكلب الأسود يعوي بالمقلوب، ناعياً اليهم سراً ما، لم يعلموه إلا في الصباح حين اكتشفوا خراء ثعلب، وبوله في الخوابي. فراحت أم سعيد تندب شاهين، وهي تقول إن بول الثعالب خرَّب حنجرة جدها قبل خمسين سنة.

لكن الرجل الذي تعلَّم أن يُشفى المصابين، والمرضى، لعن العجوز في سره، فيما اندفعت فضة، في نحيب رهيف لم تستطع كَبْحَ نفسها عنه.

بعد ذلك لم يشفَ، واختفى صوته الى الأبد، وبدل النبرات الخشنة القوية، واللفظ الصريح البارق، حلت بُحة قبيحة كالحطب، ولم يبقَ أمامه نافذه أمل واحدة، وقد جرَّب كلَّ ما في جعبته من أوراق، وصفات وأدوية بلا جدوى.

لا مفر، قال لهم، لا أحد يشفيه إلا واحد من آل الخليل في مكان ما. شهقت فضة، وهي تعرف مغزى الكلام الذي تفوّه به، فراحت ترجوه وتتذلل إليه أن يبقى هنا، وأن يجرِّب كل شيء، فرنا اليها بود، وقال «مثل ما بدك!» ثم شرب بعد ذلك برميلاً من منقوع الأعشاب، ومغلي الحشائش ودهن حنجرته بخمس كيلو غرامات من البلسم الشامي، وتنشق بخار الزبل، والجزل، والدحنون، والبابونج.

عبثاً، فقد هُزم اللون الأخضر الذي داوى به قبل ذلك مئات الجرحى.

هي لعنة اذن! هكذا استنتجت، من يأسه، ومن يقينه بأن شفاءه ربما كان في موطن آل الخليل، ولم تستطع تقبل المواعظ، والايمان والوعود، التي قدمها شاهين بأنه سيعود اليها، ولا نفعها تعاطف آل الفضل، ولا براعات البنات وهنَّ يحاولن تخفيف جزعها وخوفها من رحيله.

لقد أيقنت أنها صارت وحيدة، حتى قبل أن يسافر.

ذات يوم، كانت تطبخ في المساء أحست أن زيزاً ما، أصفر اللون، ضرب خدها الأيمن، كان بحجم حبة كرز: «أي!» قالت، واستدارت نحو شاهين بعينين فحميتين، وقلبٍ هالك. ثم تخشَّب ساعداها، وفخذاها وحنكها، وجحظت

عيناها، وسقطت أرضاً، ثم بدأت تضرب الأرض، والأشياء حولها، وهي تزبد، وترغي، وتشد على أسنانها، وتتقلب حتى كادت تسقط في نار الموقد المشتعل.

ركضوا اليها جميعاً، وصار شاهين يحلف لها، أنَّه لن يغادر الديار أبداً، ويرجوها أن تكف، وأن توقف تقلباتها.

صرف وقتاً طويلاً في علاجها بعد ذلك، وراح يحاول اقتلاع حزنها الأبيض الطويل، وكان يزداد تعلقاً بها، كلما أمعنت في المرض النبيل وهي لا تملك في ساعات الصحو التي تَعْقُبُ صرعَها، القيام من مكانها. كانت تستيقظ منهكة، وجوعى، فتأكل رطلاً من الطعام، ثم تستلقي على جنبها، وهي تراقبه، بعينيها فقط، مذعورة من احتمال رحيله.

لكنه لم يستطع انتزاع اللعنة التي حلت عليها، ولم تنفع الديوك التي ذبحتها أمها، عند مدخل المنازل القديمه، ولا التمائم التي خطها شمس الدين في شفائها.

وقعت في الأيام الأولى، مرة كل نهار، واضطروا للبقاء قربها لكي لا تمزق ثيابها، أو تحطم جسدها وهي تصطدم بالاثاث والجدران. كان حالُ النقطه، أقوى من الجميع، وما عادت وعود شاهين تنفع، وراح يضرب رأسه ويقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله!»

* * *

(٣٨)

يوم جاء ذلك المغربي، لم يصدق عينيه، فقد كان الكتاب الذي يحمله، مليئاً بخطط المنارة، والقرى، والخرائب والأبراج. سافر طوال أربعة أشهر قادماً من سبته ليعطي الرجلَ الموصوف في الصفحة الثالثة خفايا الكتاب الذي رحل عبر الأصقاع، والزمن. وتوارثه عشرون جيل حتى وصل الى يديه.

كان مخطوطاً في رقاع من الجلد الغامق، ممتلئاً بالحبر الأسود والأحمر والأخضر، يصفُ بتلوين آخاذ، مَخْبأ الكنز الذي أودعه امرؤ القيس هنا، عند أمير حرّان، أثناء رحلته المجنونة إلى بيزنطة لكسب التأييد من أجل الثأر لأبيه، ومُلكه.

ارتجفت يداه، حين لامستا تلك الذخيرة المدهشة، وراح ينظر الى المغربي، المعلق بين قبوله، وبين رفضه، وخسارة كنز الشاعر القتيل.

في المرة الأولى التي خرج فيها إلى خرائب عمرو، لم يجد أي شيء، سوى قنديل عتيق من الفخار، رسمت عليه بضعُ إشارات. لم يجرؤ أن يمسح الغبار عنه، خشية أن يخرج المارد إليه، ولكن الرجل الآخر، مسَح كل شيء عنه وقال له: «لا تخاف! هذا من أجل تشوف طريقك!» كان صوته هامساً، ومشجعاً، ومشبعاً باليقين!

بعد ثلاثة أيام، امتلأت المنارة، لأول مره، بالزائرين والضيوف، وعابري السبيل: تُجار، بائعو خضار على حمير، بغالون يحملون حلي نساء، وأقمشة. وقرباط من ثلاث عائلات، اثنتان منهم جاءتا للرقص والسهرات، وواحدة يعمل رجالها في تبييض النحاس.

واحد منهم سأل ابراهيم عن المغربي الذي ضيفوه هنا، فقال «أي مغربي؟!». كان كنج قد خبأ ضيفه، دون أن يُعلم أحداً بوجوده، فراح القرباطي يصف الرجل بدقة قاتله، وصفاً جعله حياً موجوداً هنا. وراح ابراهيم الحمدان، يراقب أخاه من تحت حاجبيه السميكين المقفلين، دون أن يتكلم، بينما ظل كنج، يتلهى بظفره، فيحكه، ويقشره، متحاشياً النظر الى أحد في المضافة الممتلئة بالناس.

بعد يوم واحد، وجدوا المغربي قتيلاً في براري الصقور، بعد أن رحل من الدار، حين عرف بأن القرباط أبلغوا ابراهيم الحمدان عن وجوده. قال إنَّه سيغيب بضعة أسابيع، ثم يعود بعدها، متخفياً، عن عيون الجميع.

تركه اذن وحيداً، مهجوراً في متاهة الصفحات الصفراء غير المفهومة، غابة من الحيوانات، والنباتات الزاخرة بأسرار الماضي، ثمة رسوم لعقارب، وأفاع، وسحالي، وعظايات، وذئاب، وثعالب، وأسود وضباع، وأشجار بطم، وزعرور، وصنوبر، وأعشاب مختلفه، وتحت كل واحدة من هذه الكائنات، تسمية غريبة من لغة الجن: البلاع! الخطم السرجد، البرماذ، الناقول!

أصابه ذلك الغموض بالعمى، ولم يجد عزاء قط في أي مكان، فصار يقضي نصف نهار، في المطحنة، وهو يفكر على حافة شلال الماء بكتابه، دون أن يكسب أيَّ التماعة.

وفي أشهر الربيع، بدأ يكسر الحجارة في الوادي، حطم ثلث ما فيه تحطيماً عشوائياً، ثم راح ينقلها إلى أعلى التلة، ليمنع عقله من الضياع، والتفتت.

أمّا في الليل، فأمسى حبيس غرفته، يحاول فك الرموز الغافيه داخل قبرها البارد، مثل قطيع من الأبالسة، على ضوء القنديل العلائي المتراقص.

هكذا اختفى من المنارة، ولم يعد أحد يعرف كنج الحمدان، ولم يعد يلاحق البنات بعينيه الأكولتين، ولم يقل لأي واحدة منهن ياوردة! أما الشباب الذين

اعتادوا مشاركته سباق الخيل، أو لعبة حاجوج وطالع، فقد قطع صلاته بهم، وراح يغضب، ويضحك، ويقاتل من في الدار، بلا سبب.

«يذكر حسّان أنهما صارا صديقين تلك الأيام، فقد جاء الى مقلع آل الفضل، وراح يراقب شغل كامل فيه، تفحّص عشرين، أو ثلاثين حجراً، دون أن يتكلم، لم يشعر بأية ضغينة تجاه الرجل الضخم الذي وقف هناك كالذئب، يراقبه، ويدخن بنهم.

حين انتهى، جاء نحوه، قال: «اشتري منك كل حجر بباره واحدة! مارأيك؟» قال كامل: «بعت!»، قال: «تعلمني تقصيب الحجارة». فضحك كامل، وقال: «تحسدني على شغلي يا بن حسن الحمدان؟» فقال «لا والله! ولكن روحي طقّت».

حين ابتدأ كامل، يضرب بمهدته، أحسّ كنج، أن الحجر، لا ينقسم بفعل الضربة، لأنه جرّب ذلك من قبل، وكانت ضرباته تضيع سدى، أو تحطم الحجر، وتفتته وتخرب شكله. وإنما بفضل قوة داخلية سريّة يعرفها هذا الرجل، ويحفظها نقلاً عن أبيه، وجدّه، وجدِّ جدّه. كان راغباً في عمل شيء، محاولاً أن يتلهى بذلك عن انشغاله بسر الكنز المخبوء الذي سوف يعيد اليه مجد الملوك الضائع منذ ألفي عام. لم يقل شيئاً له، بينما راح كامل مخلصاً، يحاول أن يعلمه طريقة رفع المهده، والضرب بها، والوجه المختار من الحجر، واحتمالات انقسامه.

وفي كل مساء، كانت نساء القرباط الذين لم يغادروا المنارة يأتين، ويتسولن، ويجلسن للثرثرة، وقراءة الكف، أو كشف البخت بأحجار الودع، وهن يراقبن البيوت، ويحاولن القيام، والتفرج على المنازل من الداخل.

صار يدفع لهن كل مرة، ليقرأن حظه، وليسمحن له بفحص عيونهن، لأنه كان، في كل لحظة مشاها قرب خرائب عمرو، يحسُّ بأن عيوناً متلهفة، تلاحقه، دهشاً، خائفاً، كان يمكثُ متصلباً وأكثر من مرة اندفع وراء النظرات راكضاً كالمجنون: مين أنت؟ مين أنت؟ وهو يصرخُ، أو يطلق النار، أو يجرد الخنجر، دون جدوى.

مرة واحدة عشر على قرباطي واهن هناك. كان قابعاً وراء أشجار اللوز، فأمسك به من عنقه، ورفعه، لم يقاوم الرجل، ولم ينطق بحرف، كان صغيراً، وقميئاً، وقد حال لونه بسبب البرد، والانتظار الطويل، لكنه حين تأمل عينيه. ورأى الى تفاهتهما قال: «روح!»

ما كانت عيون القرباطيات مختلفة، أما العينان اللتان تراقبان انتقاله وحركته وسط التلال الصخرية، شمال المنارة، فكانتا من نور. راحتا تناديانه كالعيوطة، حتى أنه كاد يمتنع عن الذهاب إلى الوعر، لولا لجوئه إلى كامل!

بدت مهنة الحجارين كريهة، حين فشل دائماً في اقتطاع حجر مكعب أو منظم واحد، وحين رمى المهدة، قال كامل «هذه تحتاج للصبر»، فغادر المقلع، ومضى باتجاه الخرائب.

في ذلك اليوم، رآها، كانت خارجة من بئر قديمة، تعقد طرف ثوبها إلى خاصرتها، وقد امتلأت سلّتُها بالحشائش البريّة.

أول ما رأت عيناه: ساقاها. هبَّ اللون الأسمر اليه مثل ريح صحراوية، مفترساً كالرمل نظراته، ولامست أنفه روائحُ الهندباء، والرشاد المنوم.

أنكرت أن تكون قد لاحقته، في ذلك الربيع، ولم تأبه لاسمه، وأخذت تشتمه، حين حاول أن يرغمها على التحديق به، فصار يزداد اقتناعاً بأنها «هي» ولكن رفضها، كان صادقاً، وعنيفاً. حتى أنه آمن بكلامها ولكن كيف حدث أن نظراتها استطاعت البقاء في الوعر طوال شهرين؟ «لا يهم! أنا وأنت سنكون معاً، لا تخافي! لأنني لن استطيع التخلص من فردوس عينيك! سأحملك بين ذراعي وآتي بك الى هنا، ليلة زواجنا، لا ترفضي! لا تخشى مني! أنا كنج الحمدان!»

سألها عن اسمها، فقالت: «صباح!» قال «عظيم، ليش جيتي لهون وحدك؟!» فضحكت وقالت: «مُش شايف البنات فوق؟»

كن جالسات بعيداً، بأعلى قمة الصخور، يتفرجن. ظلت صباح تضحك، فتركها، ومضى، ثم التفت اليها حين صار بعيداً:

«لازم شوفك! تعي بكره»

حين تجرأ وعاد إلى خرائب عمرو، كان الكتاب في يده، وراح ينقّب في المكان مبتدئاً من حيث وجد القنديل الفخاري، لكنه لم يلاحظ كيف هدم القرباط مضاربهم، وحملوا كل شيء ثم رحلوا في الاتجاه الذي سار فيه.

كان في اثره ثلاثة منهم، جعلوا يراقبونه بحذر كالقطط، لكن الخرائب لم تكشف له عن شيء. بدت ساكنة، موغلة، في صقيع رمادي عمره آلاف السنوات. مشبعة بهواء فاسد، أطفأ قنديله بضع مرات.

جالَ فيها كلّها، ثم خرج من باب صغيرٍ، يتبعه القرباط الثلاثة، الذين ارتكبوا غلطة قاتله، حين تعثر أحدهم بحجر، وسُمع في المكان صوت سقوطه، ودحرجة الحجر.

ظنوا أنه لم يعرف شيئاً، ولهذا فقد اعترضوا طريقه على مشارف المنارة، لم يكن قد رأى أيّ رجل منهم، ولكن الأسرة بكاملها، نسيت أن امرأتين منها عرضتا عينيهما على كنج، الحاذق، المقبل نحوهم.

كادوا يخدعونه فعلاً، فظن أنهم عائلة راقصين جدد، لولا أنه حين التفت، نحو المرأة الصغيرة الراكبة على الحمار، والتقت عيناه بعينيها، عرف قارئة الكف التي قرأت حظه قبل بضعة أيام فقط. كانت ملثمة، وحاولت، متأخرة، أن تلتفت يميناً، ولكنها فشلت، فقد أوقف القافلة، بطلقه من بندقيته، وقال وهو يرتجف «ارجعوا». قال ذلك مرة واحدة. لم يحتاجوا لغيرها، فقد عرفوا أن الرجلَ صار مستعداً لارتكاب جريمة قتل، إذا ما قاوموا، استداروا، ومضوا، واعدين أنفسهم بالعودة إلى المنارة، بعد سنة أو بعد سنين، أو إرسال غيرهم لمراقبة الرجل المنذور لكنز الشاعر الراحل القديم.

بعد ترك كنج مهنة الحجارة مع كامل، كان راغباً في إفشاء سره للرجل الذي صار صديقه، ولكن غصةً منيعةً، كانت تلجمه، كل لحظة أراد فيها أن يبوح لكامل، فرحل عنه، واختار أن يظل شارداً في الوعر، يرعى قطيع الخيول الذي يملكه آل الحمدان.

لم يعرف من أين واتته الشجاعة، ولكنه لم يبال باعتراضات ابراهيم، ولا بثورة أمه. كان يحب الخيول من صغره، وكان لديهم ثلاثون حصاناً، وخمس أفراس، وصار يخرج بها كل صباح، أمام أعين أهل المنارة، الذين يحدقون بالرجل الذي سيصبح زعيماً لهم بعد زمن، وهو يشتغل في الرعي، موقنين أنها نزوةُ متبطلٍ، حريةُ سيد يصرخ كل لحظة: أنا حر! أعملُ ما أشاء!

لكنه لم يفضِ بسره لأحد، وصار يقول لنفسه: عندي سرّان صباح والكنز، لكن سهول المنارة، ووعورها ما قدمت له سوى القليل. حتى صباح نفسها، همست له ذات يوم: بأنها لن تستطيع الخروج أكثر من ذلك. عندها صاح «أنت إلي!» فابتسمت وقالت:

«كم قيراط اشتريت مني؟!» مشبهة نفسها بفرس.

أما الكنز، فقد استمر يوغلُ في الضياع، والاختفاء، وهو عاجز عن قراءة خفايا الكتاب العظيم، لهذا ظل يرعى الخيول أكثر من سنتين، وما عاد أهل المنارة، يعرفونه، صار ذكرى خفيفة كالبطيخ، وهذا ما تمناه: فقد كفوا عن مطاردته، وخلت البلدة من القرباط، وكل ما تبقى له، هو كوكب آمال تحتضر، بأن يأتي يوم ما، يستطيعُ فيه فكَّ رموز البراقع الغريبة في كتاب الأسرار. راح بدأب جمل، وصبر حمار وحيد، يفتش ويبحث في الوعر، والخرائب، عن حلمه المفقود وفردوسه الضائع، وهو يقول لصباح، كلما التقيا: «خلص، قرّبنا!»

* * *

(٣٩)

في الطريق إلى أم الجرابيع، استعاد هايل ماضيه كله، حين اخترقت مسامعه، جوقة الزيزان، والحشرات، والعصافير التي كانت تشغل المنعطفات الظليله، وذؤابات المرتفعات المشمسه الحارة.

تمنى لو استطاع أن يقفز، لأن الدروب الملأى بصوت الماضي كانت ترسل اليه، مع كل هبة، رائحة بابونج يابس شبيه برائحة أخته غريبه.

على مشارف صخور الغربان، لاحظ شبح رجل، يبرز وراء التل كان ثمة أجراس كُباشٍ، ودبيب قطعان، وشاهد حميراً ترعى، ولما اقترب من الرجل لم يعرفه، كان متلفعاً بعباءة، بوجومٍ وثنيٍ غامضٍ، يراقب القطيع، ويتطلع اليه، مستغرباً شكله الأجنبي وسط ذلك المدى الوعري.

تقدم عبر الطريق: هذه مقالع آل الفضل! هذه حواف البرك الزمردية التي كان يشرب منها! ممر الريح! كأنما يسمعُ الآن وقع الحوافر القديم لخيل الفرسان المندفعين الى وادي الذهب. من هنا، عبْرَ المضائق القمرية، وأغصان البطم، المليئة بأم علي سيري. ابتدأ رحلته الى شمس الدين. هذا هو مستنقع الضفادع! وبجانبه أكوام نبات الخرفيش المتكاثف على حواف الماء. هذه ساحات صايل، حيث كان يدربُ نُواف على امتطاء الخيل. هذا صمت صباح ورغبات نايل، سلام يا نايل. وبعد قليل سيسمع من الغيب طرائف شامل. ثم سكون صايل الزجاجي المشحوذ كحواف الصخور. والآن سأرى لدى الشيخ العتيق حفنات من المُغرة الملونة بخضرة

الطحالب، أو لون الرمان أو زعفران قشوره لكن لماذا لا تأتي الكلاب؟ لمَ لا تنبحُ، ولا تلاحقه؟ هل ربطها صالح الحراني واستراحَ منها؟

في خربة الماضي، كان كل شيء ساكناً، وكانت همهمة الصمت نفسه تملأ الرسوم بهروب الحشرات، والعناكب والحراذين. وضعَ أذنه على حجارة البوابات، وأنصت. لاأحد! «هي ي ي يْ!!» صاح بفم ناشف ممتلئ بالغم «هي ي ي يْ!!» صاح مرة أخرى، بينما بدأ صمت المنازل المقدسة يرعبُه: الابواب المشرعة، والنوافذ المغطاة بسيقان الاشواك الدهرية. كأنما لم يقطن هذه الديار كائن منذ ألف عام! الى أين جاء؟! وما هذا المكان العجيب، المسكون بدهر من الخواء والخوف؟!

* * *

(٤٠)

بعد ثمانية أشهرٍ من اختفاء صوته، ذهب شاهين الخليل إلى السويداء، في سفر عادي، كتبوا جميع مطالبهم في لائحة، وأودعوها لديه واحداً بعد آخر.

كان الوقت سحراً، فتلفف بعباءته، في برد كانون الثاني، ثم غادر أم الجرابيع، لكنه لم يصل إلى المدينة، حتى كانت حبال حنجرته، قد تلَفت تماماً. وهناك قبضوا عليه بعد ساعة من وصوله فقط، بسبب لهجته التي ظنوا أنها نحنحة ممنوعة. كانت الشوارع خالية من الناس تقريباً، وفي التلال، كانت تدوي انفجارات مكتومة، تتناوب القربَ والابتعاد، وكان تل القليب شديد البياض، ساطعاً، ومنيراً، بفضل الثلوج الكثيفة التي هطلت عليه.

اقتادوه عبر الأزقة إلى غرف الفحم، وهناك، لم يرَ أحداً في اللحظات الأولى، لأن الغرفة كانت تعبق برائحة المخازن، وفساد غاز الفحم، فمشى قليلاً، فوق أرضٍ رطبة، خطوات، قبل أن تلامس أصابعه لحماً لدناً، تأكد أنه لحم آدمي.

بعد دقائق، راح يلاحظ العيون البللورية، التي كانت غارقة في الهباب الأسود، تنظر اليه، وتدقق فيه.

ظن أن ما حدث خرافة، أو أنَّ هذا العالم يمشي بالمقلوب، وقد كانت التفاصيل سريعة، قاصمة، كأنَّها مقررة في لوح القدر الخاص به. لم يستطع فهم الأسباب التي تدفع دولة جبارة، مثل فرنسا، لمعاداة صوت مبحوح، وحبالٍ مقطعة مثل حبال حنجرته! فالعرف أن تفتح الأصوات العالية، شهية السلاطين! اذن ماذا حدث هناك، في السماء، حتى تتبدل أحوال الساسة؟!

كل ما هنالك أنهم حين خاطبوه، لم يستطع أن يجيبهم، لقد لاحظ اكتظاظ المدينة بالجنود: في الشوارع، أمام المخازن والحوانيت على أطراف الساحات. واستنكر ذلك في البداية، ثم ظن أنها حالة استنفار عادية، ينفذها الجيش، فمشى متعمداً وسط الطريق، دون أن يجد راحة، يسأل نفسه: أين ذهب الناس؟ كيف اختفوا؟

وكلما تقدم نحو القلب، كانت مظاهر الحرب تتضح أكثر: قعقعة أسلحة، وصهيل خيول، وأصوات العرفاء الغاضبة دائماً، وقرعُ طبول ايقاعيه، وتبلبل عقله فالأخبار التي كانت تصل الى أم الجرابيع والمنارة لم تحمل أي ملاحظة عن حرب وشيكة، وأنباء الثوار الذين كانوا يتجمعون في الجنوب عند دير النصراني، وسهل الامباشي، كانت نادرة وضحلة، وقد رأى بسليقته أن الجيش بكامله كان مستفزاً، مكدراً، ممتلئاً بالبغضاء تجاه الشوارع، والبيوت، والناس. وصار يراهم وهم يصادرون أشياء من المنازل: يدخلون ويخرجون، حاملين ممتلكات، وأرزاقاً، دون أن يخفَ غضبهم. عمَ يبحثون اذن؟ كان يسأل، حين ناداه عريف عربي. لم تواته الفطنه، كي يذهب اليهم بنفسه، توقف، وراح يستفسر بحركات من يده، عن مطالبهم. عندها أرسلوا اليه، جنديين، قاداه بقسوه نحو رئيسهم، وفي دقائق، اعتُبر عدواً للدولة، وللوطن بسبب النحنحة التي خالف بها مراسيم الحاكم، أمام ممثلي السلطة العسكرية أنفسهم، ورفض الإجابة عن أسئلة القادة المفوضين باستجواب المواطنين، عن كل شيء.

المعتقلون في سراديب الفحم، الذين اقتربوا منه قليلاً، قليلاً بانفاسهم الثقيله المشبعة بالغاز القاتل، حاولوا أن يتعرفوا اليه.

لكنه أوضح لهم، أنَّ صوته، لا وجود له، ذكر ذلك بلاتردد شارحاً معنى النسيج المتقطع، رغم إحساسه بالاختناق، وانقطاع شهيقه، محاولاً تبرئة ذمته من كل شيء. لم تعد له قدرة على تحمل الخسائر، ولم يدرِ لماذا شعر بالنفور من رفاق سجنه، ومن لا معنى وجودهم هنا كلهم، وكيف خامره الخوف، من أن يكونوا مجرد مجرمين، ومحكومين. بلا رأفة.

اقترب واحد، والتصق به، وقال وهو يحاول أن يجد مطرحاً مريحاً لنفسه فوق الفحم المبلول: «أني ذوقان سلام!» كان صوته كبريتياً سبب الذعر لشاهين، ماذا يريدُ مني؟ ولماذا يعرفني بنفسه؟ كان مناخ الحذر، والشك بالناس أحد فضائل حكم الكابتن المتحمس، وقد ملأ القرى، البلدات، والمدارس بالجواسيس والمخبرين، ولا بدَّ أنه ملأ السجن بهم أيضاً. فإذا كانوا قد اعتقلوه بسبب صوته المخالف لقوانين الدولة، فإنَّ من المؤكد، أنهم سينفونه، إذا ما نقلوا عن لسانه كلمات هجاء صريحة، أو عداء.

رفض أي كلام مع الآخرين. وازداد يقينه بأنَّ تقرب الرجل كان مدبراً. ولم يستطع إبعاده، لأن وزنه كان يعادل وزن ثور. فاكتفى بالصمت في ظلام الفحم، بينما بدأت تمطر في الخارج، وراحت الغرف تدلف في كل مكان، مطلقة ايقاعات عجيبة متقاطعة، مع وقع المطر في الخارج، وكلما ازداد الوابل، أو تباطأ، تغير هنا ثقل الدلف، أو خفته.

هبت ريحٌ هوجاء، فاخترق البرد لحمه وعظامه، وشعر بالنعاس والرغبة في النوم، ولكن خبرة الطبيب أيقظته، لن ينام، وحاول أن ينهض، ويمشي عندما اعتادت عيناه الظلمة، صار يرى الآن، أجسام المعتقلين الممددين، أو المقرفصين، في أطراف الغرف وزواياها. اكتفى بالوقوف، والتحرك العشوائي في المكان، وابتداع منشطات خفيفة للرئتين. سمع من يقول له أن يتوقف، لا حاجة لكل ذلك، فالفرنسيون أحسنوا الاختيار. قربه ذوقان نفسه، من الركن، حيث كان يتسربُ صقيع البلاد، إلى سجنها! «ومن هنا أيضاً» رأى شقاً، يومض لضوء الخارج الباهت، فجلس حيث كان، مستسلماً، مهزوماً.

ولولا البرد، لقتله اليأسُ الذي أثخن دمه، لكن حركة عجيبة، لا يدري كيف جاءت أعادت له الروح. أحسَّ بيد ذوقان الضخمة وهي تحضنه من الخلف، حاملة شيئاً ما ثقيلاً، دافئاً، تفوح منه روائح خرفان «خوذ!» سمع همسة «هذه فروتي!» قال وهو يحشوه، دون تكلف، في دثار الصوف «عندي واحدة تكفيني!»

أكمل، بعد أن أتمَّ تغطيته. بينما راح عقل شاهين يشيع في أغصان الصفاء التي امتدت من الأصابع السمينه، «وأنا الذي كنت أظن أنه واش يريدُ ايذائي».

تمنى لو استطاع أن ينطق جملة كاملة من الشكر، لكنه حين عجز عن فعل ذلك بالكلام، نفذه بعينيه، وبهزاتٍ من رأسه والتصاقٍ بالرفيق، وابتسامات، اخترقت حجاب الصحراء الفحميه، لتصنع منذ تلك الدقيقة صداقة قلبين، دون بلاغة الكلمات.

صار الوقت أكثر ألفة، وقد أمضاه شاهين منصتاً إلى الجار، الذي لم يتوقف، طوال ثمان وأربعين ساعة، عن الكلام. بدا مثل عنبر من الأحاديث، والروايات، وعشق اللغة. «لا تواخذني» كان يردد كل مرة، معلناً عجزه عن السكوت، دون رياء أو منافقة:

هكذا، روى له بتفصيل حكائي مدهش، أسباب هيجان الدولة الفرنسية، وغضبها على الشعب الهمجي الذي جاءت لتمدينه:

لقد ضاعت هرَّةُ موريل منذ بضعة أيام. في البداية ظنوا أنَّ الحيوان الطيب، سها، ونام، في أحد أركان المنزل، الذي امتلأ بصراخ كائن آخر منذ أشهر، وابتهلوا الى الله أن يكون موجوداً هنا.

مضى اليوتنان يبحث عن صديقه بنفسه، جائساً في المكان، قطعة بعد قطعة. فتش جميع الغرف والسقيفتين، والقبو، وشجيرات الورد، صعد إلى السطح، ثم تجول حول السور ووراء البيت، قبل أن يُعلِنَ في الساعة الثامنة، الخبر المشؤوم.

وحين التقى بثلة من حراس البيت، وهو ينزل إلى مقر عمله، بدأ يصرخ فيهم، مفرغاً غضبه وسخطه «يا سفلة! اللعنة! ماذا كنتم تفعلون؟ لماذا جئنا بكم؟» ثم غادر المنزل، مخلفاً بكاء زوجته، وناقلاً حزنه إلى قائده، عن غياب الهرة.

هناك استعاد كاربيه، بكثير من اللطف، شيئاً من ذكرياته، عن رهافة الحيوان

الذي استلقى في حضنه أكثر من مرة، وتمسح بجسده، ورنا اليه بعينيه الفرنسيتين الخضراوين، أبدى دهشته من رحيل كائن مخلص بهذه السهولة. ثم استنتج: «يوتنان! هذه جريمة!» قائلاً بحماس، بأنَّ شعباً من الرعاة لن يتفهم أبداً، معنى حضارة وهبت لجميع المخلوقات، الحرية، والحق في الحياة. ضرب الطاولة بقبضته. فيما كان حذاؤه يصرُّ، من الجدة، والانشداد: «منذ قرون تسعى أمنا فرنسا لنشر فلسفتها الانسانية بين شعوب الأرض، من جزر الانتيل، حتى جليد سيبريا، ومع هذا فنحن لا نلقى سوى الجحود، والكراهية. انظر الآن يوتنان! أنت تعمل هنا منذ سنتين، وتحاول أن تشق الطرقات وتبنى المدارس، وتعلم هؤلاء الناس، وتسقيهم الماء، وتقدم لهم أعظم الأفكار التي بذل شعب فرنسا آلافاً من الضحايا، من أجل خلقها، وابقائها. فبمَ يكافئونك؟!» تطلع إلى موريل الحزين «بسرقة هر بريء مسكين».

كان يتكلم بثقة العارف الخبير، فالانثى الأليفة، التي جاءت مع حكومة الانتداب. لن تفرِّط بنفسها، بسهولة، وتترك المنزل مهما كانت المغريات، ولا بدَّ أنَّ يداً آثمة، قد اختطفتها: «كم الساعة يا عزيزي؟» سأل فجأة «العاشرة» قال اليوتنان وهو يختطف نظرة الى ساعة جيبه: «أعلن حالة الحرب» قال الكابتن «وفتش هذه القذارة (وكان يشير الى عاصمته) بيتاً بيتاً» وحين استدار الملازم على عقبيه، ومضى، تمتم كاربيه، وهو يتطلع من شرفة قيادته، إلى المباني الحجرية الكئيبة: «اللعنة، ليست سوى بصل!» مستعيداً كلمات شاعره المفضل جيرار دي نرڤال، في وصف الشرق.

في يومين كاملين، قلبوا المدينة بكاملها، ولم يجدوا أي أثر للهرة، وكانت الأنباء تصلُ إلى الكابتن، كلَّ ساعة.

وفي السويداء، انتشرت، كالنار في الهشيم، طرفة تقول إن قط موريل قد فر. فلم يفهم الكابتن سرَّ الكلمات التي كانت تضحك سامعيها حتى أحضروا إليه ذلك الجندي الطويل القامة الذي رآه في القلعة.

ولم يخفِ ابتسامته، حين شرح له شامل الفضل، معنى الطرفة، «ولكن ما وجه الشبه؟» راح يسأل نفسه بمرح، «ومن أين استمدوا هذا الخيال كي يطلقوا على عضو المرأة، والهر، اسماً واحداً؟! «هم يرددون أن زوجة موريل قد فرت اذن؟ ويمكن أن تكون هرَّته!»

نادى مترجمه انطوان ملحمة. وسأل إن كان موريل قد سمع بما يتندرون به، فقال «لا» قال: «لا تقولوا له شيئاً!» ولكنه كان مسروراً، على غير عادته، هكذا رآه انطوان، وحين ذهب المترجم، قهقه الكابتن بكل قوته، وكتب إلى صديقه هنري يقول: «أرأيت يا عزيزي فضائل أن يكون المرء لوطياً؟»

لم يتوقف تفتيش المدينة المحاصرة ساعة واحدة، وفي اليوم الثالث اتخذ منحى ثأرياً، فراحوا يتعمدون كسر الأواني المنزلية، وتحطيم الأثاث، وضرب الشبان الذين يظهرون مواقف سلبيه، وخلع الغرف المقفلة، وخلط المؤن بعضها ببعض، وإرغام سكان الأحياء على التجمع للاستماع إلى بيان الحكومة، التي تريد الافراجَ عن الهرة المخطوفة بأي شكل. صار التخريب طقساً من السلوك الطبيعي الذي تباهى به جنود سمر وسود وحمر وبيض. عقاباً لشعب على تخلفه، وانحطاطه، وفساد طبعه، وقسوته التي تجعله يستخفُ بمصير حيوانٍ، لا ذنب له، سوى رقته وضعفه!

اكتظت غرف الفحم بالمسجونين أيضاً، جمعوهم من كل مكان، غرباء، وسكان المدينة، شيوخ وشبان، وخرجوا بهم بعد أربعة أيام لإصلاح الشوارع. وهكذا امتد شريط طويل من الرجال المسخمين، ملتحين ومرداً، كباراً وصغاراً، يضربون بالمعاول، والمطارق، والمهدات ويسوون الشارع الجديد الممتد، من منزل الكابتن، الى السراى التي بنيت على التلال.

«إنَّ ما نفعله هنا، يا عزيزي هنري، سيجده هؤلاء التعساء فوق ما يحلمون، إنَّه المستقبل ملتبساً بعقوبات الحاضر، وعذابه!»

استمرت أعمال السخرة، طوال أيام البحث عن الهرة، وفي كل يوم كانت

آمال موريل تتضاءل، وكان يأسه يزداد، وبعد خمسة عشر يوماً قال لزوجته إنَّ ما نفعله ليس بحثاً عن هرتنا، وإنما حرب شوارع!

في اليوم العشرين، عرضَ وفدٌ من وجهاء المدينة على كاربيه وقف الحملة، فوافق بشروط صريحة يوقع عليها الجميع: ١) إعدام السارق إذا وجد ٢) دفع غرامة مالية من قبل سكان المدينة، قدرها ألف وثلاثمئة وأربع وثلاثون ليرة ذهبية.

وافقوا على طلباته، وتقدم الشيخ أنيس صالح، راجياً أن يغلق الحاكم الكرخانة الجديدة التي افتتحت قبل سنة في المدينة!

حدق الكابتن فيهم بعينيه الضيقتين، وقام عن كرسيه، ثم تمشى وراء طاولته قليلاً، بينما راحوا ينصتون إلى وقع خطاه، راح يتأجج بغضب وحشي، وأشار أخيراً إلى مترجمه وقال «مسيو انطوان: ترجم بسرعة لهؤلاء الحثالات» استقام، ثم وقف قرب خزانة، فتحها وصب لنفسه كأساً من الشمبانيا، دون أن يزيح بصره عن الوفد. وقال: «هذا البيت الصحي، هو لمصلحة فرنسا، ومادام كذلك فهو لمصلحتكم أيضاً ماذا سيحدث لجنودي إذا ما حرمتهم من هذه المتع الصغيرة؟! اعتقد يا سادة: أن الجواب عندكم؟ هل تستطيعون منعهم من الاعتداء على نسائكم؟». . «اصمت!» أشار لأحد رجال الوفد، الذي همَّ بالكلام «يجب أن تشكروا حكومتنا لأنها تمنع الفساد عن جنودها، وتحميكم من الغرائز القاتله التي لا نريد أن تفلت منا!» «لكن الكرخانة تفسد شبابنا نحن!»

قال أحدهم بلا استئذان

«شبانكم فاسدون أصلاً، هذا ما أراه، أتعرفون عدد الذين ينسلون الى الكوخ الصحي كل ليلة؟ هل نذهب نحن لإحضارهم!». . . «انتهى!» رفع كفه بوجه الجميع، واستدار نحو النافذة.

بعد أربع ساعات أفرجوا عن معتقلي غرف الفحم، ودفع كل واحد منهم

خمس ليرات ذهبية، حسبت من الضريبة على المدينة» لكن هذه الدفعه كانت كلّ ما لدى شاهين الخليل من مال، وقد اكتشف أن حصانه صار من ممتلكات الجيش، وأبلغه جندي في قيادة الدرك أنّ ثمنه سيدفع بعد عشرة أيام من خزينة الدولة، ثم قدّم له إيصالاً به.

تجول في الشوارع بلا هدف، بعد أن باع سرج الحصان، وعلّق خرج أدويته وأعشابه على كتفه.

قعد أمام الفندق الجديد، الذي بنوه مقابل دار الحكومة، يتأمل النقائض الفظيعه التي تحكم الأشياء حوله: فالمحتل الغريب يتربع على عرشه هناك، في القصر الفخم، ويدير دفة الحياة بإشارة وأمر من يده، بينما يجدُ نفسه مكللاً بالسخام والعار! هناك في المناره، صار كنج خطيباً وراعي احتفالات، بينما يحرمُ رجال أم الجرابيع، لذة النوم الليلي منذ سنين! هنا تقيم فرنسا مهرجانات التمجيد لأساطير العظمة والرهبة، وهناك جنوباً يقبع مئات الرجال، في بوادي الحصى، بعيداً عن أسرهم وبيوتهم مع بهاء الدين.

هكذا رأى أن خاتمة الممالك التي كان يتشوق اليها قد أزفت، لقد كانت أملاً كاذباً، عزّى به نفسه، وخدع الآخرين.

جاء ذوقان بعد ساعة من اختفائه، وتوسل اليه ان يختفي عن أعين راصدي الشوارع، الذين بدأوا يعملون بنشاط، كان من المستحيل معرفة أحدهم، بعد أن استطاع كاربيه، تجنيد بعض السكان!

أختارا مكاناً للّقاء مساء، لكن شاهين ما كان يعلم أن الرجل الذي لازمه في المعتقل، وأثناء السخرة، انّما كان يماطله في الوقت، حتى المغيب. حين جاء ذوقان راكضاً بايقاع المجانين، وقبض على معصمه بقوة القيد، وجَرَّه جراً، وراءه في الحارات. ركضا ربع ساعة تقريباً، قبل أن يجدا، وراء جدارِ خربةٍ قديمةٍ، حصانين مسرجين بانتظارهما.

وبلا مقدمات، قال ذوقان، وهو يدفع اليه لجام أحدهما «إما رح نموت بعد شوي أو منهرب» واعتلى صهوة الحصان، ولكزه، ثم عدا به في اتجاه الجنوب.

حاول أن يستكشف هذه الأشياء العجائبية التي تحدث، فلم يستطع. أخذ وقعُ حوافر حصان ذوقان، يقرع مسامعه، مصدراً وقعاً مختلفاً، عن تلك الضجة الغريبة في الشوارع.

تخلَّص من رهبة الموقف، بوحي سماوي. وبلا تردد اندفع وراء ذوقان، في الطريق الذي رسمته له المصادفات، في حين أخذت تُسمع وراءه، في القلعه، وفي التلال الشمالية، والشوارع طلقات الرصاص، وصيحات الرجال المستنفرين.

بعد ساعه، هدآا حصانيهما، وعبّا من هواء الليلة البارد ثم تلفعا، وقادا حصانيهما في وعر جبال الدم، وهما يحاولان تَجنُّبَ الطرق المعتادة، والجنبات المشبوهة في الملاذ الشهير.

لم يطمئنّا، ولم يتحدثا بأية كلمة، إلا عند الفجر، حين بانت من بعيد، عن يمينهما، قلعة صلخد، جانحة في خضم من الغيم الواهن.

عند ذلك توقفا، نزلا عن حصانيهما، وراحا يجمعان حطباً لإشعال النار، كان شاهين منحنياً حين شعر ببوز الحصان الآخر وهو يدفعه، من الخلف، فالتفت نحوه. جحظت عيناه في الحيوان الجليل الذي لم يكن سوى حصانه نفسه، أليفاً، ممتلئاً بارتباك عجيب، ورغبة في التقرب، والاعتذار!

قال ذوقان وهو يدفىء كفيه بالنار «قتلت حارسين!» فتطلع اليه مندهشاً. قال تسللت للاسطبلات، وأسرجت الحصانين على مهلي وبعدين قلت: يا ستَّار!!، ما كنت ناوي عَ القتل، لكن العبد اللعين دارْ الباروده صوبي! طفشتو بالحصان، وشلَّحتو الباروده، وقوَّستو طِلع لي واحد ثاني. قوستو كمان!»

مكث شاهين برهة يحدق في الصاحب العجيب الذي يروي قصة مغامرته، ببساطة ذئب صياد. لكنه لاحظ ارتعاشة خديه، وضيق عينيه المفاجىء، فاقترب منه وقال جزعاً «صابوك؟!»

لم يعد بإمكان ذوقان الصمود. فاتكأ إلى صخره، معلناً ضعفه وانهيار قواه، كانت الطلقة قد اخترقت الكتف الأيسر، واستقرت فيه، واحتاج شاهين الى ذلك الصباح كله، كي يستطيع انتزاعها من اللحم القاسي لرفيقه «عض على عقالك!» راح يقول له. فيما كان الرجل يكتفي بالعبوس، وهو يهمس، ويتمتم أشياء شبيهة بالاستغفار، ودعاء العجائز، غارقاً في بحرين من العرق، والتعب وآلام الجرح النازف.

نام طوال تلك الظهيرة، بينما ظل شاهين يوقدُ النار، بعد أن حشر الرجل حشراً، أسفل صخرة ناتئة ضخمة تشرف من هناك على التلال. كان خائفاً خوفَ مبتدئ وجد نفسه، فجأة، يخوض حرباً ضد دولة. بدأت الريح تشتد، منذرة بعاصفة، لكنها لم تمطر بينما ظل ذوقان نائماً يشخر، ويئن أنيناً متواصلاً، حتى غياب الشمس.

حين استيقظ، بدا سليماً معافى، تلّمس كتفه، والرباط المتقن الذي شُدَّ اليه، وأبدى (بهزات من رأسه) اعجاباً جهيراً، بمهارة شاهين. وبإجلال انحنى له، معبراً عن امتنانه، وشكره بالكلمات المليئة بالضياء الأزرق وأبدية العرفان، ولطف الإحساس الانساني المستريح للمسة التعاطف المفاجئة. كان شاهين يعرفُ هذا المديح جيداً، فتلك هي مهنته، لكنه اليوم ممتلئ بكنز، متوج بنشيد من الرفقه الحقيقيه، في ساعات شائكة صعبة.

تلك العبارات الصنوبرية لطّفت كيانهما معاً، وقال شاهين وهو يتأمل شكل الصاحب البري، المتفجر بقوة حجر، البازغ من مجاهل القرى الجبليه، وهو يحزم سرج حصانه، «بتعرف هايل الفضل؟» خرج الصوت مبحوحاً، واهناً، ولكن صافياً، «مين؟!» سأل ذوقان، قال «هذا اشتغل صورة لأبر زيد الهلالي، بتشبهك كثير!» فهمهم الرجل، وهو لا يفهم. فكر شاهين كثيراً في من هو العبقري، الله، أم هايل الفضل! كان كل ما في ذوقان ينطق بالشبه، ولا أحد يفعل ما فعله اليوم سوى أبي زيد!

تابعا سيرهما جنوباً، جنوب شرق. بينما راح شاهين يروي ببطء، وبصوته المدمر، سيرة بطل الملحمة العربية العظيم، مستعيداً ذكرى معارك قديمة، وحروب، وأحقاد، وترهات، ومذابح مجَّدها مغنون وعازفو ربابات، طوال دهر.

أذهلت تفاصيل السيرة ذوقان، وأعادته إلى حالة طفولة. وراحت تنبجس الأسئلة من رأسه، وتتشابك عن شرارات الموت والحرب وأغصان الحكايات المتشابكة: شبيب التبعي مع من؟ والزيناتي خليفة؟ وجليلة؟ وكان الليل ينطوي ويضمحل رويداً رويداً. حتى إذا وصلا حافة الصحراء، عند الفجر، دمدم شاهين الخليل كالمأخوذ: «يا الله! . . . مدافن الزرقا؟!»

* * *

(٤١)

تعاظمت خسائر فضه، وكانت تفقد أملها بعودة شاهين، يوماً بعد يوم، وقد أرعبت أخبار السويداء، هنا، جميعَ سكان أم الجرابيع: بعضهم ظن أن شاهين راح ضحية الحرب المجنونة وبعضهم مال الى إعذار الغائب، وفضة وحدها ظلت تقول إنه رحل ولن يعود.

ثمَّ ماتت إحدى نعاجها أثناء ذلك، ومرض ابنها الكبير حمد، وراح يهذي طالباً رؤية أبيه، وهي قاعدة تبكي، وتتحسر على حياتها.

ذات صباح، اصطدم رأسها، بسقف الخابية الواقي، وسمعوا صوت الانثقاب العنيف داخل جمجمتها، ورأوها وهي تمسك بجبينها، كأنها تحمل طاسة مكسورة، وتتقى اندلاق النخاع.

نظرت اليهم، حيث كان الرجال أمام القاعه، والنساء في الباحة، وقالت شيئاً ما مثل: «نحاس الدين!». وهي عبارةٌ لم تكن مفهومة قط، كما أنَّ فضة نفسها، لم تدرك في البدء (وقبل أن تفقد عقلها بنصف ساعة) مغزى الكلمة أو مصدرها، وطفت بعد لحظات فوق مستنقع بعوض خفي، أخذ يقرص لحمها في مكان ما. ولم تستطع تبينه، فقفزت بضع قفزات، وأجفلت من يدٍ دفعتها دفعاً، إلى ساحة مضاءة، تعج بأشباح عجيبة، بعضها صور لبشر تعرفهم وآخرين لم ترَ وجوههم قبل هذه اللحظة، لكنها أخيراً وجدته، لأنه كانت هناك، في قمة رأسها، حيث تلفظت بالكلمة المعدنية الغريبة مرة ثانية.

ولحقت به دلال، وأمها بعد ذلك، ولولاهما، كادت تسقط في البئر وقد

استسلمت لهما، دون مقاومه، حين استيقظت للحظة واحدة، واستطاعت أن ترنو الى المرأتين، وتضرع لهما، وهي تتشبث بهما «دخلكن» حين رأت في تلك البرهة الالهية الرحيمة، أنها ترتحلُ الى عالم آخر، لعين أحمق، وأن قوتها تنسلُ من لحمها وعظامها، وأنها تذهب ضحية ظلم فظيع قاتل لا تدري مصدره. وشعرت أنها ضعيفة، وأن عقلها يوشك على الان فجار، وأنها تحتاج لشاهين ولكل واحد من قاطني أم الجرابيع.

لكن من ينقذها؟! من يقدر على تخليصها من أسر الرصد الذي كان يتربص بها طوال الأشهر الماضية؟ لقد تغلغلت جرثومة انشغالها الى دمها، الى الشعيرات الرهيفة التي غذّت خيالها الجانح المريض، المشبع بالاقاويل، والممتلئ بخوف قاتل لا شفاء منه. منذ حكايات شاهين القديمة، ورعب أم الجرابيع، وانهيار آمالها، وفقدان راحة البال، والطمأنينة، واختفاء زوجها، إلى لحظة الخواء الكبير التي تحسُّها الآن. بدا لها أنَّ جناً من الخرائب، حظوا بها، وانخرطوا في سبائك عقلها الواهنة.

أول الأمر، قذفت دلال بعيداً عنها، فندّت عنها آهة ألم فظيع، حين انغرز رأس ُحنت مدببٍ في خاصرتها، ثم رمَتْ أمها أرضاً، وقعدت عليها، وهي تردد، بعينَين حمراوين كعيني بقرة: «حراذين مرازين! كدادين تبابين!»..

«حراذين مرازين! كدادين تبابين!».

صرخت دلال بجنون، وصارت أم سعيد تبكي، وهي منبطحة مستسلمة تحت اقدام ابنتها، وحين خرج آل الفضل إلى هنا، واجهتهم فضة، بلغة العفاريت المسمومة: «صَعْصَعْ بَعْبَعْ، وَعْ وَعْ لَهْ!»

«مَجْ مَجْ دا مَجْ مَجْ دا»

«حراذين مرازين! كدادين تبابين!»

صار كامل يرتعش، ويلوك أطراف شاربه، بينما أخذ شمس الدين وصالح والنساء يرددون: بسم الله الرحمن الرحيم!.. بسم الله! بسم الله!

حاولوا امساكها، غير أنها تملصت من أيديهم كالأفعى، وواصلت تعزيمها «مطر بطر قَنْطَر بَنْطَر، مج مج دا! مج مج دا!»

طغى عليهم ذهول ودهشة، ذلك أن فضة ذاتها، كانت قد أبدت في الأيام الأخيرة كثيراً من الصبر والجلد، انقطع عنها حال النقطه، وظنوا أن انشغالها بغياب شاهين خفف جرثومة اللعنة عنها: أقامت بينهم كعادتها، تطبخ، وترعى الغنم، وتستمع الى الحكايات، وتعنى بصغارها. وباستثناء ثنيه التي كانت تراقبها، وترى إلى اضمحلالها المتواصل فقد ارتاحوا جميعهم إلى حالتها، لكنها، ما كانت سوى خديعة شياطين ماكرين، اختاروا توقيتهم بأنفسهم!

أخيراً استطاع رجال أم الجرابيع التغلب عليها، فأخذت تعول كالثعلب، وقد منحت لمرة واحدة قوة حصان، فاستطاعت دفع شمس الدين وصالح، وهايل وأمها عنها، حتى وجدت نفسها، أمام كامل ذاته، فارتمت أرضاً وهي تعود إلى اللغة المظلمة مَجْ مَجْ دا

لفّوها، ببلاسٍ من الشَعر، وكان ذلك هو رأي الشيخ الذي قال إنّ رائحة الماعز المتخفيه في البلاس، وخشونة ملمسه، يجعلانها في حالة خدر يعجز فيها عفاريتها عن تحريكها، وإثارة عنفها وقوتها.

لكن اولئك، لم يعبأوا كما بدا فيما بعد، لا بالبسملة المتواصلة، ولا بآيات الرُقى، ولا بالتمائم، ولا بعزم البلاس.

ظلت مقيدة، طوال الأيام التي تلت ذلك، ولم يفكُّوها، الا كي يطعموها، وقد بدأت مؤونتهم تنفد، ولم يأت أبو معروف طوال ذلك الفصل، ولم تنفع زيارات حنا البيطار، فالرجل لا يعرفُ سوى لغة الحديد، والمسامير، والحذوات، وحوافر الخيل، وكرع العرق اللعين، الذي دفع الشيخ شمس الدين، بضع مرات، للتهديد بطرده. لكنهم ما كانوا يستطيعون الاستغناء عن حنا، لا بسبب البيطرة، وحسب وإنما لأنه يحمل رائحة الحبيب شامل، كما قالت ثنيه.

أما المنارة، فما عادت تفكر بأحد، لأن تلك القطعة البليدة من وعر اللجاة، كانت مشغولة بتطبيق أعظم انجازات الحضارة الغربية: الانتخابات! صارت فخاً، تعجُّ بالعبيد، والجنود من كل لون، والاستعدادات العسكرية، والإرهاب وتخويف الناس، بحيث لم يجرؤ واحد من أم الجرابيع على الذهاب إلى هناك.

رشح الفرنسيون أربعة رجال إلى برلمان دولة الكابتن العظيمه، وقد جاء في اليوم الخامس والعشرين لبدء حرب الهرة ضد السويداء، كاربيه نفسه إلى المنارة، بعد أن انتهى من تأديب همج المدينة الذين اغتالوا قط موريل، كما كان يردد ضاحكاً. كانت النتائج الأخيرة لتلك الحرب، مرضية فعلى الرغم من أن الهر لم يعد، فإن خزينة الدولة -كتب في مذاكرته- أضحت مدينة له بأكثر من ألف ليرة ذهبيه، وهي منة عظيمة، يمنحها هرٌّ طيب للدولة الناشئة.

خرجت المنارة بأسرها لاستقباله، وقد رأوا هذه المرة، ضابطاً مزيناً بالنياشين، بدلاً من رؤية قيصر، وشاهدوا مشية عسكرية بارعة، تصاحبها موسيقى حماسية، وقرع طبول قدسية، وحملة أعلام، وخيالة، ومشاة ببزات فخمة.

العجيب أن البرد القارس، لم يمنع الحاكم المبجل عن استعراض حرسه، أخذت ريح الغرب تجلد وجوه سكان المنارة الواقفين بثبات، صامتين، مزخرفين بثياب العيد التي أُمروا بارتدائها. لكنه لم يغفل المراقبة بطرف عينه، لأن رغبة خفية، كانت تشغل باله، ليعرف، ولو بطريق المصادفة، أو بالحدس المحض، ما الذي يفكر فيه هؤلاء البشر، ذووا الوجوه الكبيرة والعيون الواسعة، وهم يحدقون فيه!!

احتاج إلى بلاغته الفرنسية، كلها، بعد ساعة، ليشرح طبيعة النشاط الديموقراطي الجديد، وأهمية الرسالة التمدينية، التي تطلقها فرنسا في أصقاع البلاد المتخلفة، ناقلة اياهم من جزر البؤس (لم يعرف أحد من معاونيه، سببَ استخدامه لهذه العبارة، في بلاد لا تعرفُ البحر، وعزوا ذلك إلى تأثير خدمته السابقه في المستعمرات البحرية!) إلى حدائق التقدم.

لكن الاحصاء المدقق الذي قدمه السرجان جوبريه، جعل الكابتن مذهولاً: فبين ألفي شخص يقطنون البلدة، وثلاثة آلاف آخرين في قراها. لم يجدوا سوى مئة متعلم، يعرفون القراءة والكتابة، «لماذا يعارضون حكومة الانتداب اذن؟!» خاطب الناس حوله «هذا وحده يجعل ضميري طاهراً!» كما كتب.

طأطأ كنج رأسه، ولم يجب، وهو يشعر بالضغينة لأن عليه أن يتحمل عار أمية فلاحيه، وكرههم للحكومة.

وبهذا صار الاقتراع صعباً أمام الكابتن. لكن لا شيء يمكن أن يضعف ايمانه بضرورة الديموقراطية، وأهميتها، وقد تفتق عقله عن فكرة مذهلة، باشر تنفيذها فوراً. وهي تُسهِّل -كما بدا له- على نحو عبقري رسالة الحضارة بين الشعوب البدائية مستخدمة لغتهم نفسها: فبدل الاسماء التي لن يستطيعوا كتابتها لاختيار المرشحين رمز لكل واحد فيهم بإشارة (ألم تبدأ اللغة هكذا؟)، فكنج الحمدان رمزه الدائرة [ ] وعلي البطّاح رمزه الصليب [ ] ونواف ساري رمزه المثلث [ ] وتوفيق الغامد رمزه المربع المشطور[ ].

ازداد احتقاره للغباء الأمي الذي يجد نفسه متعالياً، متعجرفاً رافضاً مُثُلَ الحرية العظيمة، وأهداف التمدين. وحين انتهت الانتخابات التي شارك الرجال فيها فقط، نجحت الدائرة، والمثلث، والصليب، وأعلنت الطبيعة عن سرورها العميق، بوابل من مطر كانون المشبع بذرات ثلج. كانت تتبدد، وتفنى، حال وصولها إلى أي جزء من الأرض.

وقبل أن يترك المنارة في المساء، هنّأ الرجال الثلاثة، قائلاً: «جئنا لنعلمكم الحرية، وقد أحسنتم استخدامها. ومن الآن وصاعداً ستعيشون بسعادة «هذه الأرض هي أرض المعجزات» تابع مستشهداً هذه المرة بلا مارتين، ثم قدم لكنج، هدية، هي رمز الجمهورية الثالثة الأعظم.

* * *

«صار فرعون يعني؟!» علقت ثنيه على أخبار المنارة التي نقلها حنا، قائلة إن علي البطاح ونواف ليسا سوى كلبين من كلاب كنج، فقال حنا: «عينك تشوفهم يا أم قاسم!» شارحاً كيف طلب نواف ساري بعد نجاحه بساعتين فقط، تبديل حذوة حصانه، قال: «ابن الحرام يريد حذوات مثل حذوات خيل فرنسا» ولما حذا حنا الحصان، أَمَرَهُ باقتلاعها لأنَّه يريدها مثل حذوة حصان الحاكم ذاته!».

أما كنج، فقد أظهر مرة ثانية، جنون كرمه الشامخ الذي عُرِفَ به. ذبح عشرين شاةً، وثلاثة جمال، وحمارين قدمهما لضباع الفلا كي تذكر اسمه، حتى إذا سمع الحاكم بمآثره، ابتسم وقال:

«اللعين، لقد تفوق علينا!»

* * *

لكن جنون فضة خفّ في أوائل شباط، كانت قد ذوت ونحلت حتى اضمَحلَّت، وطوال ذلك الوقت، منعوا أولادها من رؤيتها في ساعات المس التي يضطرون فيها لإعادتها إلى حظيرة البلاس المشدود أو حين تنفجر فيهم بلغتها الشيطانيه!

ماذا حدث لفضة؟ ومتى استطاع الجن امتلاك عقلها؟! لن يعرف أبداً، ولكن قلبه في تلك الأيام، شفَّ، وانكشف، بسبب العذاب الدنيوي الذي استأثر بها وحدها.

كان كلما قعد أمام غرفتها، ورأى إلى نحاس وجهها الذي التهمته عفاريت الهواء، أسرف فيه الغم، والاكتئاب، وهو يمنع عن نفسه البكاء، والنحيب، حين تقوله له: «مج مج دا! مج مج دا!»

أخيراً جاءت نتف من أخبار شاهين، استطاعوا تجميع بضع تفاصيل من حنا البيطار الذي استمع الى شامل، وهو يشرح أوصاف الرجلين اللذين اتهما بقتل حراس الاسطبلات.

لقد ابتهل إلى الله أن يكون أحدهما هو شاهين، خاصة حين سمع عن طبيب الأعشاب الذي شفى جراح معتقلي مستودعات الفحم، وشاربي ماء الملح، في محنة الهرة.

بعد أيام، أمضت دلال عشرٍ ساعات في المخاض، وفجأة، لمع تحت ضوء المصباح، أمام أعين النسوة في أم الجرابيع، جسد ناصع البياض، لمولود مغطى بغشاء رقيق لامع. صرخن كلهن، حتى ظنّ الرجال القابعون في المضافة حول موقدهم، وقهوتهم، أن المرأة ماتت. لم يجرؤوا على الحركة. ظلوا يحدقون إلى كامل الذي ما أبدى شيئاً. امتلأت المضافة بطقات مسبحته وصقيع صمتهم. ولكن النساء لم يكررن صراخهن، هكذا فكر في نفسه، وقال لاخوته وأصهاره.

«إما الولد عجيبة، أو ميت!»

لكنه لم يكن هذا، ولا ذاك لأن ثنيه خرجت بعد دقائق تطلب اليه أن يأتي. شيء ما في وجهها غريب، دمها يصرخ، كيانها كله يشي بأمر عظيم يشبه رسالة النبوة. وحين مسَّ يدها كانت ترتعش. وتأكد أن ذراعها كلها، لحمها، وعظامها ترتعش. وقالت بصوت ملائكي، وهي تقبله: «إجاك الفرج» ورمت اليه الغشاء الفضي الرقيق الشبيه بجسد طفل، فصاح: «برقع؟!».

كان الطفل في الداخل يبكي، وراح كامل يفكر في بشارة اليوم التي تناقلتها العائلة، منذ الجد الأول، قبل قرنين: «سيولد طفل يحمل برقعاً، هو التميمة التي ستحمي آل الفضل».

أخذت النساء يزغردن، حين حمل الكتلة الهلامية التي لفت بالبياض، وفاحت منها رائحةُ رحم.

كانت ليلة غبطة، وقد الهمهم البرقعُ فرحاً افتقدوه منذ زمن بعيد، وقالت ثنيه: «منسميه حمزه» فقال كامل: «لا أني وعدت وسميته: ذيب!» فقالت: «رح ناديه حمزه» ثم خاطت حول الغشاء جلد حمل، وجعلت منه تعويذة.

كان صباح أضحيات، ذبحوا نعجة لوجه الله، ثمّ جمعوا وعودهم القديمة كلها، للأنبياء والأولياء، وذبحوا نعجه ثانية، وسجلوا بعد ذلك بقية النذور: شمعه بطول الصبي للنبي يحيى (وسوف يدفعون ثمنها لأبي معروف) الصعود إلى عبد مار حفاة (وهذا نذر النساء اللواتي تضرعن اليه كي يخلصهم من هذه المحنة) ثم ارتحل صالح الحراني، وفضل الله إلى الجبال الشرقيه وعادوا بعد ثلاثة أيام حاملين وعدَ كامل: عشر شجيرات من الزعرور. زرعوها في الباحة الخلفيةلصوان الملوك القدامى.

وضعوا البرقع تحت وسادة فضة، وانتظروا معجزة الرسالة الالهية. وصار بوسع كل واحد منهم، أن يرى كيف راحت أشباح فضائية واهية. تنفضُّ عن المرأة الناحلة التي أمتص العفاريت دمها.

في منتصف الليل سمعوا صراخاً نحاسياً عجيباً، تلاه انقلاب أوان، ودبيب أجساد مذعورة. ورأوا إلى جسد فضة، وهو ينتفض بهبات عنف، وجلدها ينضحُ عرقاً غزيراً، وهي تلهثُ، وتصرخ بلغتها الجديدة الطازجة. أطلقت سيلاً من لهيب كلمات سوداء، جملاً لا أول لها ولا آخر، بلا حروف عطف، ولا نبرات، بايقاع واحد سري، ثم راحت تهدأ شيئاً، فشيئاً، كانت جن سُليمان تنسلُ من جلدها راحلة عن ذلك الجسد الناحل كقشة. واستعاد صوتها جزءاً من حروف العربية الضائعة. وهمست: «مي!»

نظروا بعضهم إلى وجوه بعضٍ، وحنوا هاماتهم أمام القدرة الالهية، وتعانقوا، وقبلوا الوجنات الدامعة، وصاحوا كلهم معاً: «مي! هاتوا مي!!».

لكن فضة لم تتحسن كثيراً. ظلت عاجزة عن القيام، وظلت تبول ليلاً في فراشها، ولم تعرف أولادها الصغار، رغم أنها رددت أسماءهم في معجم اللغة الذي عادت اليه. كانوا يقدمون لها الولد حين تذكر اسمه، فتشمه، وتبعده، وتقول: «لا! بدي حمد!» يقولون: «هذا حمد!» فتقول: «لا، حمد ثاني!» فيظنون أنّ أحد الجن، تلبس صورة ابنها، وترك في دمها، وجسدها رائحته الأخرى.

ثم انها استمرت في صيامها، وكانت لا تقبل الطعام إلا بعد منتصف الليل. وتتناول وجبة واحدة. حتى أن النساء اللواتي تناوبن العناية بها، كِدْنَ، يعتدن هنَّ أيضاً، هذا السحور الوحيد المتأخر.

ثنيه، سمعت، ذات يوم، طرقاً خفيفاً على نافذتها. وحين فتحت الضلفة وجدت «صباح» تطلب الإذن بالدخول. دارت إلى الباب، ثم قعدت وأوضحت بسرعة أنها ترغب في أخذ أختها إلى المنارة كي تعرضها على حكيم الفرنسيين الذي يأتي إلى هناك.

ارتجفت ثنيه، واقشعر بدنها، ثم حاولت أن توضح لها، بروح الامومة التي اصطنعتها طوال السنوات، خطورة رغبتها، لكن صباح بدت مقتنعة بقرارها. وتشبثت بفكرة العلاج الطبي الذي سمعت أشياء كثيرة عنه من حنا البيطار.

خشيت ثنيه أن يكون السبب الذي تحاول اقناعها به، ثمرة تفكير أرعن خبيث يخبئ المصائب وراءه. وأن البنت تريدُ الفرار من لعنة المكان الذي كرهته أكثر من أي شيء في العالم.

عندها أدركت سرَّ الرجفة التي ظلت تشكو منها في اللحظات التي سبقت ذلك. وقالت لصباح: «أنت ما بدك فضة» وهي تظن أنها ستنذرها بسبب رغبتها الحقيقيه. لكن صباح مطت شفتها وقالت: «ما عاد يهمني حدا!»

بدت وحيدة وحدة ضبع، مستعجلة، لا تأبه بالكائنات

ورأت ثنيه، مذهولة، لأول مرة ظلَّ الأحقاد الدفينة وهي تستعد للانفجار. وتذكرت أنها حلمت بحية في الأمس فقط: «تفسر منامي». «شو منامك؟» سألت صباح.

قالت: «حلمت إن الدنيا صارت تشتي مسامير»

في المقعد، رفض جميع الرجال اقتراح صباح، وبدت أم سعيد كالمجنونة من فكرة أنَّ يرى رجل غريب وأجنبي لحم ابنتها. وصفعت صباح التي كانت

تصرخ في وجه كامل: «الله يلعنكم! ما جبتو لنا غير المصايب!» ثم جذبتها من شعرها، وهو يقول: «معليش يا مرت عمي!» ، رمتها وسط غرفة الجنون حيث راحت فضة تنظر اليهما، وهي تلحس حجر الملح الذي اعتادته.

كان عنف العجوز هو آخر قطرة بقيت لها من ستين سنة عاشتها. ومنذ اليوم التالي مرضت، وشعرت عند منتصف الليل بأنها ستموت. فطلبت من الصغار أن ينادوا أيَّ واحد من أهل الخربة. لكنهم خافوا، ودفنوا وجوههم تحت الأغطية، وهم يرتجفون. راحت تئن بصوت عالٍ لعل أحداً يسمعها. لكنهم لم يسمعوها، ولم ينتبهوا لها، حتى جاءت هنده بعشاء فضة المعتاد. عندها ما كان قد بقي أمام أم سعيد أكثر من دقائق، استطاعت فيها أن تودع الدنيا الرخيصة التي ما عرفت منها يوم سعادة، كما قالت. وكل شيء كان يهربُ منها، دون أن يكون لها ذنب. تأففت مرة واحدة من العقاب الدنيوي الذي تعرضت له، وصمتت تماماً منذ أن دخل الشيخ شمس الدين، وجلس قبالتها، وراح يطمئنها، ثم شهقت شهقة قصيرة أخيرة، وماتت.

كانت مناسبة لهم ليبنوا خشخاشة، وقد عمروها خلال نصف نهار، وسقفوها بالربد الكثير المتوفر. ثم دفنوا العجوز فيها. لاحظت ثنيه أنَّ صباح لم تكن في الدار حين عادوا، فزعقت، وهي تلطم رأسها: «راحت عَ المنارة»

لكنهم وجدوها في القبو، ورفضت الخروج من هناك رغم جميع التوسلات. فتركوها، رأفة بها، في يوم حزنها، ولكنَّ صراخ ثنيه، حَرَّك ضغائن الرجال، وشكوكهم. ومع أن أختهم أوضحت أن لسانها أفلت باسم المنارة، فإنَّ وجوههم ظلت مليئة بظنون خبيثة، لم يكشفوا عنها. وراحت هي تلوم نفسها، لأنها كادت تشي بالسر القديم الذي أقسمت أن تبقيه خفياً لا يعلم به أحد.

بعد ذلك تجرأت على محاولة التفكير في الحال الذي وصلوا اليه، ومن بين جميع الأحداث. وجدت أن الفجائع كانت تتصدر القائمة ولكن القدر اختار فرائسه بنفسه من أسرة النساء فقط.

لماذا؟ هل كان علي ما حصل أن يحصل؟ لم يكن سؤالاً للتمعن وإنما لتأنيب الذات. فقد أدركت الآن، في عتمة الليل، أنهم تركوا آل عثمان تابعين، مساقين إلى أقدارهم بلا معونة. ولهذا أطل القدر الأسود عليهم وحدهم. ولكن الثمن يدفعه الجميع.

قامت من فراشها، وتأملت فضة، من الباب الموارب، ثم استرقت النظر إلى القبو الذي كان يفوح برائحة الزمان القديم، والرطوبة وعذاب صباح. وبدا لها أن هذا العالم المتعفن من صنع يديها وحدها، حين قَصَّرَت، في خضم الحياة التي عاشوها، أمومتها على آل محمد الفضل وحدهم، وتركت هاتين المرأتين المدحورتين، في شباك الحزن القاتله.

أصابها اليأس، من اليقين بذنوبها. وبكت حتى مطلع الفجر بدأب ثكلى. ثم زاد، في قوة دموعها، تجوالها المستمر بين البيوت القصية وسط العالم الفظيع الذي بدا كأنما لم تره حتى الآن. أصابتها الحمى أيضاً. وهمست: «يا رب! شو ساوينا حتى تبعثنا عَ هالخرايب الملعونة؟!»

ولكن ها هي تكتشف، أنه ليس القدر وحده الذي كتب عليهم هذه اللعنة. وإنما هو استسلامهم البارد للمصير الذي دفعهم اليه وغدٌ وابن حرام.

وهذه القراءة الجديدة، ملأت روحها بالحقد على كنج. لأن قناعتها بأنه شيطان حياتهم، صارت جزءاً من كيانها كله. لقد بدا لها كابليس تماماً. يلاحقهم كل ثانية، وكل دقيقة، وساعة، ويوم، وشهر وسنة. بلا كلل ولا ملل. ظهر ظله مديداً، شاسعاً، مخيماً كخيمة من هباب نار فحميه هائلة. تذكرت كلَّ ما قالته دلال ذات يوم وهي تهز رأسها علامة على التحذيرات والظنون التي اعتقدوا أنها كانت هلعاً من الموت فقط.

هذه اليقينيات أوضحت لها كيف تلاشت نبوءاتها، واندثرت. فمن المستحيل أن تستطيع الرؤيا، تحت حجاب ابليس. لكنها منذ تلك الليلة عرفت طريق النجاة.

وفي الصباح أخرجت البرقع الذي كانوا قد خبؤوه في لعبة من التنك كانت البنات والأولاد يجعلنها ربة منزل في ألعابهن. ثم شدته، وسوت أطرافه، وتأملته معجبة مشدوهة من البياض الشفاف، والكينونة السجيه الشبيهة بقوام إنسان، وهتفت: «يا رب تكون معنا» ثم نادت هايل، وقبلته، وقالت: «شلح ثيابك» فنظر اليها متسائلاً، قالت: «شلح أني مثل امك! بعرف جسمك كله!» بدت جليلة مثل قديسة، وقد عرف هايل أن ما تقوله كان أمراً لا معنى لرفضه، لأنه سينفذ، فسأل: «منين؟» قالت: «قميصك!» فخلعه وظل عارياً امامها، وهي تنظر اليه مندهشة من الكمال الجسماني الذي بلغه أخوها الأصغر، في غفلة عنها، كان منساباً كتمثال، وقد خزَّنَ بمهارة خاصة، ضخامة كامل، وخفة شامل، وعنف صايل، باقتصاد لا يتقنه أحد سواه: «تقبرني!» قالت له: «خذ! البس!» وناولته البرقع. فتأمله متحيراً: كيف سيرتدي الغشاء الذي لم يتجاوز حجم طفل؟ قالت: «البس!» بطمأنينة. وفوجئ بعد ذلك أنَّ الجسد دخل في الرداء بيسر كأنما فصِّل له. ازدادت دهشة ثنيه، وعجبها، رغم قناعتها، حين رأت اليه كيف بدا مثل ملاك في الحلم. وبدأت تشد البرقع على جسده حيث تجعد، أو تراخى، ومسدته حتى التصق بلحم أخيها، وأضحى بعد قليل من الحركات البهلوانية صورة عنه، نسيجاً اضافياً على الخلق الأول. وقبل أن ينطق بأي كلمة، التقطت جمراً من الموقد، وقربته إلى بطنه، حتى الصقته بالجلد، بحركة كاهن متمرس.

لم يرَ هايل سوى الذبول البطيء للظى الجمر، لكن يدَ ثنيه كانت ترتعش. وابيضَّ وجهها كالملاءة، وصارت تتمتم بكلام مجنح، عرفه هايل كله، لأنه كان محفوظاً في خاتمة النسخة الأخيرة التي كتبها للشيخ.

انطفأت بقية الجمر دون أن تمسّه النار، وقالت له: «البس ثيابك!» وأضافت بعد قليل: «روح هيِّ حالك! عندك سفر طويل!» ثم أوضحت له، أنه سيعرف كلَّ شيء في أوانه. ودفعته خارج الغرفه، متوجة بالأمل الجديد الذي أشرف على حياتها.

عند الضحى طلبت أن تجتمع بكامل، ومنحت خوفه الذي أعلنه أمان البرقع الذي ألبسته لهايل، عندها قال: «مثل ما بتريدي» فابتدأت بلا ابطاء تنفيذ الخطة التي تدلت اليها من كهوف الحلم. كانت تعرف كل التفاصيل ولهذا لم ترتبك حين كشفتها أمام أخيها. لكنها لخصت كلّ شيء بالطلب الأول المنوط بهايل تنفيذه: «السفر إلى المعاصر وجلب صايل فوراً» كانت تعرف أنه هناك، وقالت: «بكفي!» وهي تظن أنَّ على أخيها أن يقبل المصير الذي ارتضته له، لأنه يعني بقاء آل الفضل.

أما بالنسبة لهايل، فقد قالت للجميع أن عليه أن يصبح رجلاً، بأية طريقة يختارها. ثم شرحت له كل شيء، أي شيء، بحيث لم تترك للمصادفات نافذة واحدة تنسلُّ منها، كي تشكل خطراً عليه. ذهب بعد ذلك إلى الرجال فشرح له الشيخ شمس الدين الطريق الصاعدة إلى جبل لبنان، ووصف القرية على خارطة من التراب والحجارة، وقمم الصخور التي جعلت جبالاً، ثم زوده بنسختين من كتاب الحكمة، هدية لشيخ العقل في الشوف.

زوادته، تألفت من طعام ناشف، وخبز، وقربة ماء. أعدت من قبل غريبة التي حشت الخرج بضمات من الخضار ذات الأوراق. ثم اختار الحصان بنفسه، وتلا ذلك سجل حافل باسماء قطاع الطرق، وكبار اللصوص وكلمات التعارف التي يمكن أن تنقذه، وعند الفجر، عانقه كامل، ثم رحل نحو الغرب. بينما كان الجميع تائهين في سراب عدم الفهم لما تفعله سيدة الخرائب. ومن بين الجميع، ظلت فضة تنظر اليه وهي تتأمله، وتراقب كلمات الوداع التي يخاطبها بها، بينما رفضت صباح الخروج من قبوها. فدمدمت ثنيه: «اتركوها!». وحين انطلق هايل، تماسكت، قبضت على ذعرها، وهمست: «يا رب!»

* * *

ومنذ رحيله حرصت على حَضَانة فضة وصباح معاً، أكثر من حرصها على أولادها الذين أوكلت مهام العناية بهم إلى صالح، بعد أن شرحت له نصف السر الذي أرسلت هايل من أجله، وهي تأمل أن يتفهم مقاصدها، وخوفها على صباح

التي أضحت بلا آمال بزواجٍ قريب. وقد رشحت صايل لذلك. كانت تحكي بثقة مستبد. ولم يبد الرجل أيّ اعتراض، ربما لأن الأمر بدا مفهوماً له، وقد رغبت في أن تضحك، حين فكرت بطيبة زوجها، وميله الطفلي للتصديق.

وهذا سهل عملها في دار عثمان. ومنحها القوة على البقاء هناك. لرصد تحركات المرأة العاشقة، وهي تبتهل إلى الله كل ليلة، لكي يعجل بعودة هايل وصايل. لأنها قد لاتستطيع، إذا ما تأخر حتى الصيف، استقصاء كل حركة تجري هنا، ولا كل خطة. يعذبها ذلك الايمان بقدرة العشاق على تقويض أبراج الحراسة، وتحطيم الأسوار.

لم يدم انتظارها طويلاً، فبعد شهر جاءا معاً، وصلا في الهزيع الأول من ليلة نيسانية، كانت ليلة بيضاء، بعد نهار الثلوج التي ظلت تهطل منذ الفجر السابق. فلم يشعروا بقدومهما، إلا عندما ولجا الساحة، وراحت حوافر حصانيهما تقرعُ البلاط هناك. أخذت الكلاب تجري حولهما، بجنون خاص، ما كانت تمنحه إلا لصايل. واندفع أهل الدار كلهم، يعانقون العملاق الأسود الذي حمل أختين من أخواته معاً، وقبل جبين ثنيه وهو يقول: «كيفك يا أم قاسم؟» فبكت، ثم نهضت مشيرة إلى النساء الأخريات اللواتي لحقن بها. انتخبت أحسن الثياب له، وسخنت ماء، وأرغمته على الاستحمام، ثم أعدت العشاء، فسأل عن شاهين الذي لم يره، وشامل اللين، فقالت: «كل عشاءك!» حتى إذا انتهى وقال: «الحمد لله!» التفت نحوها وطلب منها: «هاتي لنشوف!» فتطلعت اليه، نظرت في وجهه حتى يوقن أن ما ستقوله لن تستطيع قوة الأرض منع تحقيقه: «شبعت؟» قال: «نعم» قالت: «بهالساعة، قوم واخطب صباح العثمان من خيّك كامل!»

* * *

(٤٢)

في المنارة، فوجئ كنج بأنَّ رجلاً ملثماً، مربوع القامة اغتال الجندي المرافق للدكتور غارو الأرمني، مبعوث العناية الفرنسية، ضد حمى الملاريا، فصرخ بلاوعي: «مرة ثانية».

مضافته امتلأت بالوشاة وصار الهواء يهب نُميمة، وقد عمد الرجل الذي كان قد أضاف إلى سلطته المشيخية القديمة قوة نائب البرلمان، إلى فتح سجن جديد (عندما لم يعد السجن القديم الذي افتتح يوم الاستقلال صالحاً) لم يكن سوى الباكية القديمة الممتلئة بالروث. فعلق السرجان بوانكاريه قائلاً إن من الجميل أن يبتكر النائب أساليب تأديبيه جديدة، ولكن غرف الفحم أعظم من اختراعه!

لم يكن الوقتُ مناسباً للسخرية منه، وقد هزمته المنارة، وقوضت كيانه. تذكر الكلمات التي خاطب بها فضل الله حماد الكابتن كاربيه ولم يجد في جعبته سواها. فأوضح للسرجان المتباهي مغزى أن ينتمي كل منهما إلى بلد مختلف. قهقه الفرنسي، وصفق بيديه طرباً، وهو يتأمل الرجل الفارغ الذي يرطن بالفلسفة «يعني نحن بلد فحم، وأنتم بلاد روث مسيو كنج!» فابتهل إلى الله أن يلهمه الصبر: «نعم سرجان» قال بقسوة «لكن من يستطيع أن يثبت أن الفحم أفضل من الروث؟»

«أنا!» قال السرجان بسخرية: «هذه» وأشار إلى العربة المصفحة في الساحة «من ثمار الفحم»

«وهذه» قال كنج بحقد، وهو يشير إلى ورقة الخسِّ الخضراء كالزمرد في يد ضابط الصف «من ثمار الروث»

رمى بوانكاريه الخسَّ من يده، ورفس الطبق الذي اصطفت حوله سبع نبتات مغسولة، ثم خرج من المضافة.

هكذا وجد الرجلان نفسيهما في حديد البغضاء، وكأن الحوار القصير ما كان إلا ذريعة محضة لاغتيال معرفتهما القليلة واحدهما بالآخر. وحين أمعن كنج في التفكير، اكتشف أن كراهيته للرجل كانت تنمو في تراب القلب منذ أيام دوتي نفسه. وقال لضامن إنّه صار متأكداً بأن هؤلاء الفرنسيين يضاجعون نساءهم من الخلف، ما دمنا نضاجع نساءنا من الأمام. وربما كانت أعضاؤهم الجنسية أكبر أو أصغر من أعضائنا. وهذه الفروق العرقية تجعل من المستحيل على الشعبين أن يتحدا. ورغم أنه لم يصرِّح بأفكاره أمام أي واحد من زواره الفرنسيين، فإن ضامن خشي أن يصبح الخلاف بين كنج والسرجان مادة تهدد استقلال الدولة كله فيما بعد.

ولكن بوانكاريه لم يبدِ أكثر من تلك الملاحظة التي اعتبرها بريئة تماماً. أما النائب الأول عن المنارة، فقد ضحك في حضرة سمرة وهو يذكر أقوال الخولي ضامن «ابن الكلب يحكي عن الاستقلال كأننا في بلاد الموسكوب!»

امتلأت السجون بالمعتقلين من مربوعي القامات، ولكن أياً منهم لم يعترف بقتل الجندي الحارس. بينما رفض الطبيب الطاشناقي التنازل عن حقوقه في أشيائه الصغيرة التي ادعى سرقتها: ساعة يد، ونظارة، وخاتم فضة. بدا مفجوعاً، وامتنع عن معاينة المصابين الذين كانت تفتك بهم حالات حمى، وبرد، تجعلهم أسرى ساعات طويلة من الارتجاف، والتعرق.

سخط السرجان بوانكاريه على الدكتور، وقال: «مسيو كنج، لن ينجو رجالك هؤلاء من الموت الآن، ولكن عليك أن تنقذ الباقين منهم». صار كنج ينظر اليه «نعم! سنزرع المنارة كلها بأشجار الكينا»، ثم شرح له أن علاج الطبيب كله ما كان سوى خلاصة الكينا.

للمرة الأولى لاحظ كنج أن ابتسامة السرجان كانت جميلة، وأن الرجل

لا يقلُّ بهاءً عن جان دوتي نفسه. ولم يدر إن كان يسخر منه، أم يمحضه النصيحة. ولكن بوانكاريه لم ينتظر قرارات كنج كثيراً. فبعد عشرة أيام فقط، وصلت إلى المنارة، دفعة من غراس الكينا، وأرغمت عشرة بيوت على زراعة شجرة واحدة وسط حوشها، والتعهد بالعناية بها، وسقايتها.

كانت الغراس صغيرة، ولكن المنارة بدت بعد ذلك، حين مرَّ بها حسّان أبو غانم شبيهة بالمعرض. فقد تقاسمت عرائش العنب، وزيتون الحواكير، والبطم المعمر، فضاء البلدة بكل رضا مع شجرة الاوكالبتوس الشاهقة، وستدهشه تلك القامات ذات الجذوع الرطبة الضخمة.

لقد نجت المنارة من حمى الملاريا التي كانت تجتاح عشرات الأرواح كلَّ عام، حاملة اليهم الموت، وعذاب البرد والسخونة. أما الأشجار التي امتصت بقواها العملاقة أذى الجرثومة الفاتكة، فقد صارت مواطنات أصيلات بعد أن اختفى كل أثر لذكرى الرقيب الفرنسي الذي جلبها!»

كنج الحمدان لم يبدِ حماساً لذلك العمل الغريب الذي يقوم به الفرنسي، بعد أن رأى فيه شكلاً آخر من أشكال التدخل الاجنبي في المصير المقدر. فضلاً عن السخافة المحضة الكامنة في النشاط غير المتحفظ الذي نهض به الرجل. لكنه لم يظهر اعتراضه العلني للعسكري الذي صار مزارعاً. لأن شؤون مشيخته نفسها كانت تنهار وتتهاوى بسبب الملاريا ذاتها. فقد اختطف الموت طحانه الأشهر الموروث من الجد الحمداني، مع الأرض والأثاث وقطع الآلة المائيه، أبا يحيى حسن المانع! وأمام الجثمان الغريب للرجل الثمانيني، وقف كنج حزيناً لا يجد ما يفعله لذلك الرجل الذي خدم آل بيته، طوال العمر، سوى البكاء.

ذاك اليوم لم تنفع عظات الشيوخ الذين رددوا الأقوال القديمة عن زوال الكائنات: فإحساسه الأعمق هو أنَّ تقاعسه وحده، ولعبة الحرب التي أعلنها ضد المنارة، هما اللذان قتلا الرجل المصاب بالبرديّه. لعن نفسه سراً، لأنه تواطأ مع الحكيم. ولأول مرة وجد مرافقوه، وتابعوه أنه يفرضُ مناخاً فاجعاً على الموت الذي اعتبروه عادياً.

حسن المانع، كان الوحيد بين سكان المنارة الذي يعرفُ تشغيل المطحنة المائية، ودقائق صنعها. لقد زعم دائماً أنَّه تعلم ذلك في لبنان، واليونان وتركيا، وجبال ارمينيا، دون أن يستطيع واحد اثبات كذبه. فالقطع التي يعيد اصلاحها، وتركيبها، وتزييتها، وتفريغ محتوياتها، كانت عالماً مغلقاً غير مفهوم في أنظارهم. وهم لا ينشغلون عادة بالأسرار الخفية التي تحرك الأشياء، قدر انشغالهم بها. ولهذا فقد سلموا للمانع مفاتيح شغله، دون أن يروا فيه أية بطولة.

كنج وحده، تعلم في صغره، على يد الآلاتي الساحر، وأقلع اكثر من مرة بالفراشات الضخمة التي يشغلها الماء، مندهشاً من انتقال الحركة العجيب في الحديد المشحم. بينما يشرح المانع أصول ذلك، مضيفاً إلى معارف كنج حديثاً خرافياً هائلاً، عن آلات ضخمة تشتغل بالفحم وأخرى بالزيت، وثالثة بالبخار وحده. والفتى يتأمل معاني العبارات الخفيه، منتقلاً بأفكاره، جرياً، خلف الدورات المتغيرة العظيمة، لابتكارات الناس.

ولأن وصف حسن كان نافراً، وواضحاً، فقد تمكن دائماً من تخيل المكائن الخاضعة لنظم عمل مختلفة، ومواهب أبي يحيى ما كانت تخفى على آل الحمدان جميعاً. لكنها اتخذت لدى كنج شكل الملهم. وهو الوحيد الذي أدرك أهمية الرجل المتشبع بعلوم الحاضر. وكان ينوي اكتساب هندساته، وحساباته كلها عندما طرد من مدرسة الشيخ شمس الدين، وجعل ولياً لعهد ابراهيم العاقر. عندها اكتفى بالرحلة اليومية إلى المطحنة، ومراقبة عمل البراك الملعون الذي كان يصرخ بالرجال والنساء والبنات والأولاد على حد سواء برذائل لسانه الفلتان، دون حياء من أحد.

وعندما صار كنج زعيم المنارة، وجد أنَّه لم يعد بوسع الرجل المتعلم فعل شيء سوى الاستمرار في تزييت الآلة، وتشحيمها، ورعاية دخل المطحنة وتسجيل الديون فقط. لم يعد يزوره إلا قليلاً، ثم انقطع عنه فيما بعد، مكتفياً بأخذ الرسوم الماليه، وتاركاً الرسوم العينيه لضامن وسلمان وحمود كي يقوموا بخزنها، وبيعها.

اختفت مغامرات أبي يحيى. وتلاشت، بينما استمرت علومه ومعارفه في خدمة المشيخة.

حين أمسك دفتر الطحّان، أدرك بعين المجرب، أن الرجل الثمانيني الميت، قد حوّل نصف أرزاقه إلى فلاحي المنارة! فالصفحات المدونة المملوءة بالديون، قد شطبت جميعها، بلا استثناء، بقلم كوبيا بنفسجي غامق مبلول باللعاب إلى حافته، بحيث اختفى منها اسم الفلاح المدين تماماً، وصار من المستحيل معرفة أحد، بدت مثل خطوط الحراثة، طويلة وجديدة، ومتعرجة.

احتار كنج، وهو الذي ظن أن حسن كان دائماً يعزل نفسه عن الفلاحين لإيمانه بفكرة كنج الثابتة التي كونها منذ الصبا عنهم، فهم مراؤون، لا وجه لهم، ولا إرادة، ولا يمكن الثقة بواحد منهم، ومهما قدمت لهم من معروف، قابلوك بالشر، كلاب باختصار، ولكن الحيوان لا يعرف التفريط، ولاالخيانة.

صار يتساءل: متى فعل ذلك؟ ولم يدر إن كان قد شطب الحساب في مرضه أم أنهاه (بشكل متواصل) منذ زمن!

العجيب أنه حين أعاد حساب كل شيء، وجد أن أمواله ظلت كامله، ولا بدّ أن الطحان، قد سدد حساب الفلاحين، من أجره. اللعنة عليه، قال في نفسه. ولكن سبب موتك، كان «هم» فلولا ذلك القاتل الذي اغتال حارس الحكيم، ولولا الأشياء التي سرقت، لما متّ يا حسن!

موت الطحّان، دمّر الجسور بينه وبين الطبيب الذي ذهب إلى السماقيات، وقد علم كنج من جواسيسه أن الرجل ينوي الزواج من إحدى بنات سمعان الجر، فأمر بترحيله، لكن الطبيب قال: «أنا في خدمة فرنسا!». كان يركض داخل المضافة التي خصصت لإقامته هناك، بلباس الرياضة القصير ولم يخجل من دخول الرجلين عليه (ضامن وسلمان). وأراد كنج طرده بنفسه فقال العسّال: «لا تجرب يابك! الطبيب مش لنا»

كان لكلمات الخولي، التي يعرفها جيداً، تأثير الضربة القاتله، فخرج من منزله إلى المطحنة، وظل طوال النهار بين الحجارة التاريخية العظيمة، والماء الأبدي، والآلات العابقه برائحة القدم. محاولاً أن يحقق حلمه الطفولي القديم بتشغيل الآلات، وهو يدرك، أن توقف العمل سوف يحطم كيان مشيخته، التي كانت تتزود بربع دخلها من نتاج المطحنة.

حتى ذلك اليوم، كان قد مضى على موت الطحّان، أسبوع كامل، فبدت الآلات يتيمة، وقد امتدت أكياس القمح صفوفاً طويلة إلى الباب الخشبي الضخم، وفاحت في المكان رائحة الذرات الناعمة، بينما كانت آثار خطى أبي يحيى ماتزال ماثلة على الأرض.

احتاج إلى فطنة حصان، كي يتذكر المفتاح القديم الذي حركه قبل خمسة عشر عاماً. وسمع بعدها صوت اندفاع الماء، والنقلة الأولى: «طك». وقد عوضه الاكتشاف السريع حالاً، حزن الأيام الماضية. من أجل التسلية فقط، أدار عجلة الحركة بنجاح، وانصت إلى الطك طك، ببطء، ثم أخذت تتسارع، وتمضي قدماً. ولكي لا يزعجه أحد، أغلق الباب الخارجي والنوافذ وجلس هناك، يراقب الاندفاع الهائج للآلات الحجرية التي أرغمت على عمل خاوٍ، وجرى إلى كيس قمح، وأفرغ نصفه في الآلة، منتشياً بالايقاع الرتيب، المتعدد الأصوات، لحجري الطحين العبقريين.

ولكن الكآبة عاودته! أجل! وما اعتقد أنه سعادة، كان مجرد مصادرة مؤقتة للعقل. وقد فات أوان الطفولة البلهاء، وحل الطوفان الأشعث، ولا شيء، لأحد يعبأ بعد اليوم بالعواطف الوردية، والذكريات. ومع هذا قد يمكنك دائماً انتشال روحك من طين الحاضر المتقلب. اليك مثلاً يا كنج: حركة اصطفاق الفراش الحديدي، وشلال الماء، ووشوشة الحبات المهروسة بين حجري الرحى، وانهمار الطحين الأسمر المتجدد، ولون الحيطان المبلبل بين السواد والبياض، والكتل المشوهة لبقايا البرغل والطحين والكشك، وفتات العناكب الميتة، والأعشاش الحية

للعصافير. كل ذلك يبدو عالماً ممتازاً، منغماً، عن معاني الوجود الخالدة، كل هذه الأشياء رآها ابراهيم الحمدان، ويحيى من قبله، وها أنت تراها، دون أن تبدلها التغيرات والانقلابات.

تلاشى اضطرابه، فأوقف المطحنة، وراح يتأمل من موقعه قرب الشلال، صورة المنارة العامرة التي بدأت منذ سنة فقط نصف خطوة إلى حضارة الفرنساويين. وتخيل كيف ستكون بعد عشر سنوات أو بعد عشرين: ربما اختفت مطحنة الماء هذه من هنا، وحلّت محلها آلة من تلك التي صورها خيال حسن! تلك يمكنها الاستغناء عن الماء وسوف يصل صوتها إلى ما وراء الأفق، وسوف يستطيع عند ذلك شراء أوتومبيل خاص به، ويجدد القلعه، ويشتري بواريد جديدة، وبقليل من الدهاء والتساهل يستطيع التعامل مع هؤلاء الدخلاء الذين ما زالوا يحيرونه: هل يأتون برسالة التمدين فعلاً؟ أم ماذا؟ ولكننا لا نعرف، وقد لا نعرف أبداً. طيب اذن سنأخذهم ونقبلهم كما هم: غزاة أو معمرين!

اشتهى الشراب، وانتابته حالة من الوجد والفرح، وفي القلعة طلب أن يعدوا له العشاء، وجلس يشرب العرق سراً، وقد انقلب كيانه، وأضحى رقيقاً ناعماً، حتى أنه التهم خمس بيضات، وخستين كاملتين، ورغيفين، وفجلاً، وبصلاً، وهندباء بقدر ما استطاع، وهو يقول لضامن إن أفضل الأطعمة لبني الإنسان هي الأعشاب، لأنها ببساطة شديدة، تقرب طباعهم وأخلاقهم من طباع الحيوانات الراضية.

لكنه ما لبث في المساء، أن تعكرّ، وسخط على نفسه، لأنَّه أكثر من الشرب الذي سبب له اعياء، وغثياناً، لم يستطع التخلص منهما، وشعر أن جسده الذي شهد تقلبات روحه المتواصلة خلال نهار واحد، صار مشدوداً، متوتراً. هجرته الراحةُ، وهو يتقلب ويوقد المدفأة، وينقم على نفسه، وعلى الناس، وعلى المرابعين الذين لا يستجيبون لنداءاته المستمره. وفي الساعة التي أطبق فيها أجفانه، سمع طرقاً خفيفاً على الباب. وبسبب اليأس، والشح العجيب في عواطفه. انتابه

حنين مفاجئ إلى صباح. فصاح: «مين؟» ثم نهض، ودفع باب غرفته: «أنت!» قال لأمه التي كانت واقفة هناك، في البرد، كانت الشمس مشرقة، ولم يصدق أنه نام كلّ الليل.

ورغم أنه أحب دائماً التماعات العطف والحنان التي تظهرها في أوقات الحاجة، فقد أحسّ الآن أنّها تحمل أسوأ نبأ. كانت تشيله في وجهها كلّه، ولايحتاج المرء، خاصة إذا كان ابنها نفسه، إلى الخبرة، كي يعرف ذلك.

هي بدورها، قعدت هناك، قرب الموقد، تاركة ابنها يتحسبُ ويتساءل، وظلت تراقب حركاته، ومسلكه المرتبك. قبل أن تبدأ كلامها. لكن، كعادتها، ما كانت سيدة الدار تعرف البدايات، وأول ما تفعله هو المجازفة بقول الأشياء مباشرة.

هذه المرة بدلت الطريقة، وقالت إنها وجدت أخيراً، عروساً تليقُ به، فقال: «لا!»

هو، أيضاً، أراد أن ينتحل اسلوبها، وما دام الموضوع معروفاً من قبل فلا مناص من رفضه دفعة واحدة. ولكنّ المرأة التي ما اعتادت الهزيمة قط، أوضحت له، وهي ثائرة قليلاً، وناقمة، أنها صارت تعرف كل شيء عن سُكْرِه، وتدخينه، وطيشه، وزيارته المتكررة إلى بيت الداشرة سمره، وتناول الخشخاش اللعين (هنا قال لها إنها هي التي عوّدته على المخدر حين كانت تسقيه إياه في طفولته كي ينام) «ما كنت بعرف إني خلفت كلب» ردت بعنف، ثم قالت إنّ تفريطه بوقاره، جعل سُمعةَ آل الحمدان في المزابل، ولن تَعَجَبَ كثيراً إذا أصبح لديها بعد سنة حفيداً من سمرة الفياض!» «اسكتي!» «وإذا أراد المزيد فهي مستعده أن تخبره أن آل الفضل زوجوا ابنتهم، وانتهى الأمر!»

«وقفي!» دمدم كالقتيل «عيدي الكلام!»

«أنت صاحي؟» سألت.

«إي!» فراحت تردد الكلمات، كالطلقات، بفظاظة، وبلا رحمة.

«صباح تجوزت صايل الفضل من عشرة أيام»

«بكفي هذا» قال لأمه، فنفذت أمره، ورأت من النافذه، حين نهضت، إلى سرايا الفرنسيين، جنوب البلدة، وهم يتأهبون، ويطوقون البلدة. طلبت اليه أنْ ينظرَ بنفسه! فراقب المنارة، ثم قال: «العمى!» ونادى ضامن، وسأله أن يحاول معرفة ما يجري، فقال الخولي إنهم يفتشون البيوت، ويصادرون الأسلحة والمؤن للجيش. فقالت أم ابراهيم: «وانت! وين رحت؟» بدت كالغائبة، ونظر اليها نظرة بلهاء وهو يعلم، قبل جميع البشر أن ارادته صارت مغلولة ميتة. ولكنه لن يستطيع أن يوضح أفكاره. وأعفى نفسه من الإجابة، ولكنَّ أم ابراهيم، لم تُخفِ ذعرها، وهي ترى، في ضياء الصباح البارد، تلك الكائنات الأنيقة ذات النياشين، والأزرار النحاسية، والعمرات الدائرية وهي تحاصر منازل البلدة منزلاً منزلاً. وواحداً بعد آخر، راحوا يخرجون رجال المنارة.

المرأة التي أمضت ثلاثة أرباع حياتها في القلعة، مقطوعة الصلات مع البشر، لم تعرف أحداً من أولئك الرجال الملتحين المقيدين بالأمراس. ولا الشبان ذوي الجدائل الطويلة، الشوارب المعقوفة الذين كانوا يدفعون دفعاً بأعقاب البنادق. وسألت كنج عن ذلك الرجل الطويل الشائب اللحية الواقف في الوسط، فقال: «هذا سليمان النجيب!» فشهقت، وقالت: «هذا رفيق يحيى!» فصار يضحك، وسخر من عطفها وشفقتها على فلاحين عصاة. وأفهمها أن الجنود يفعلون الآن كلَّ ما تقاعس عن فعله هو. وأنه يفضل أن يظل بطلاً في نظر الدولة يعرف الجميع، ويعرفونه، ويجلونه، ويزوره الحاكم نفسه. وأن أهل المنارة جبناء خبثاء، ويستأهلون ما يجري لهم. لم تفهم من لغته شيئاً، وبدت مدائحه لنفسه عجائب. وراحت تراقبُ البلدة، حيث امتلأت الشوارع، والبيوت، بتلك الأعداد الهائلة من العبيد الذين ألبسوا ثياب الجيش، وبدوا من بعيد شبيهين بالثيران الملفعة في صقيع الشتاء. فارتدت إلى كنج فجأة، وصرخت: «يا كافر!» عملت المنارة مثل

الكلبة!» وقالت إنها هي التي ستخلص القرية من شقائها. وسوف تذهب إلى حيث يحتجز شعب آل الحمدان الذي لم يعد شعبهم، لتخليصهم وحمايتهم من جور الفرنسيين، فعاد يقهقه مرة أخرى، ولكنه، حين رآها تندفع فعلاً، ذاهبة نحو بوابة القلعة، جري خلفها، وتخطاها، ووقف قبالتها ممسكاً مقبض سيفه، وقال: «والله إذا خطيت خطوة واحدة غير اقطع راسك» ضارباً الحائط بكل التقاليد، والأعراف، وتعاليم الديانات.

«ارجعي!» لأنه لم يكن يحفل لا بالمنارة، ولا بأهلها، ولا بأمه وسلطان آل الحمدان المندثر. وهي لم ترضعه على كل حال سوى حليب الاوهام الكاذبة. فكل ما صنعه أولئك ما كان إلا أعمدة ضخمة من رخام الأكاذيب. هوى، وانهار، منذ أن اخترقت أول دبابة سهل الزرازير.

وحين عاد إلى غرفته رأى نفسه هناك، في مرآة الخزانة الشامية المطعمة بالأصداف. فكشر، ومط شفتيه، وهزّ رأسه مهدداً ذلك الخيال الرخو المذعن لتقلبات قدر أرعن مجنون. ورفع قبضة يده: «رايح عيدها حتى لو كانت ورا السبع بحور!» ولكن أين تلك البحار؟ وهل وجدت حقاً؟ ومع أن صباح، موجودة هناك، وراء تلال الغربان فإن إحساسه كان بأنها أضحت وراء العالم. فكيف يمكن أن يبرّ بقسمه هذا؟! ومن هو على كل حال، وقد غدا حبيس داره، وإحساسه بالغرق!

استسلم لحالة المرارة التي افترسته، وخلال الأيام التي تلت، بدا احتجاجه وسُخطه نوعاً من الاحتقار العلني للناس، والمرابعين، ولأمه، وأم يعقوب. لكنه سرعان ما هدأ، وتراخى، ولجأ إلى فراش، وقد أثخنته جراح قلبه، وروحه.

وكنوع من المساخر العظيمة، رأت أم ابراهيم إلى نفسها ذات يوم وهي ترسل أم يعقوب إلى الزقاق الضيق في القرية العتيقة، نحو دار سمره عارضة على المرأة العاهرة، نصف ما تملك من المال، إن استطاعت أن تشفي كنج، وتنقذه من ضلال الهوى الذي ابتلي به.

ذهلت سمره التي ما كانت تعرف شيئاً عن حب كنج، من الخبر. لأنها كانت تعتقد أن ذلك الرجل ليس أكثر من كيس بيض هائج. أما أن تحيره أشواق قلب، فهذا يحطُّ من قدره، ويجعله أقرب إلى النساء وحدهن. وقالت إن الجنون وحده، كافٍ لتفسير حالة الرجل الذي ظنته فحلاً وحسب!

ومع هذا فقد وعدت أن تقدم خدماتها اختياراً، وبلاأجر، وقالت لأم ابراهيم، موجهة اليها طعنة انتقام: «ما بدي منك غير المي السخنة» واتبعت طلبها، بضحكة خليعة، كانت وحدها تكفي لغسل المرأة الكبيرة بعار المذلة.

ومنذ ذلك اليوم، لم تخرج من غرفتها أبداً، إلا للمشي، بلا جدوى، على السطوح المحجوبة بحيطان عالية، في الأيام المشمسه، مكتفية من قدرها، بما وصل اليها. مضت إلى وحدة اختيارية، كنوع من الكفارة عن انكسار آل الحمدان، وهزائمهم الحاضرة، والمقبلة.

ووجد كنج نفسه، مضطراً لمواجهة البؤس المحتم، والعقاب الدنيوي الذي فرضته أمه على نفسها، وحيداً، كان إحساسه أنه خسر كل شيء: الحاضر والأبدية. فكرة شبيهة بقناعات شيخ طاعن. ووجد بعد هذا أيضاً أنه شغل نفسه بالآخرين. أكثر مما انشغل بحاله، وقال إنَّ عليه أن يتخفف من أعبائه الأرضية هذه. وفي جلسة تفكير، واستقصاء، قرر أن يوكل كل أشغاله إلى رجاله. ولهذا فقد ندب سلمان الراضي للعمل في المطحنة بدل حسن المانع. وسلم شؤون المرابعين لضامن العسّال وحده. أما المهمة الثالثة، فقد تركها لطلال وحمود، وهي المهمة الأكثر سرية: أن يمنع شبان المنارة من التطوع في الجيش الفرنسي الذي قدم نفسه ممهوراً بالمال والبذلة المزركشة، والبندقية، وقوة السلطة.

سلمان لم يُخفِ ذعره من استلام المطحنة، فمنذ أيام الطريق، وقصر المطر. وهو لا يني يرجو سيده أن يمنحه شيئاً من مهام الخولي، وقد راجت أكثر من مرة رواياتٌ سرب بعضها بنفسه، عن جولات الثأر التي يتربص فيها صايل الفضل بسلمان، ولا بدَّ أن كنج سمع بعضها. ولكنه بدل أن يريح قلبه، ويهدئ مشاغله،

سممه بعمل تافه يليق بعجوز متهتك، مثل أبي يحيى، لا بحصان كريم مثله! «بره!» صاح به كنج الذي لن يتحمل بعد الآن اعتراضات المرابعين، وهو على كل حال، كان يمنح الراضي أفضل عمل ممكن «امسك دفاتر حسن مليح هه!» دمدم حانقاً محاولاً إطفاء غضبه في التفاصيل. ثم رفض بعد ذلك لقاء سلمان حتى ينتهي الشتاء، ويجف الوادي!

لكنه، بعد ثلاثة أيام، لحق به إلى هناك، فوجده قاعداً أمام بوابة المطحنة، متكئاً على بارودته، وقد امتلأت عيناه بالدموع. فقال: تعال! ثم سار أمامه، وأوضح له في الداخل، أنه سيبني له غرفة في الأعلى، ويبدل الاثاث الهزلي التافه لحسن، وله هدية مجانية من عند كنج هي التخت الذي كان ينام عليه ابراهيم باشا هنا، وشراشف وأغطية كافية لتمضية شتاء جميل، ومدفأه، وخزانة صغيرة «ها! هل رضيت؟»

الأمر الوحيد الذي لم يذكره، هو صايل الفضل، ورغم أن الرجل كان عدوهما معاً، فإنَّ ذكره فقط، كان كافياً لتخريب أبهة الروح التي وجدت ألقاً في اتفاق الرجلين العتيدين.

وحين غادر كنج المطحنة، في أول السهرة، ما كان يعلم أنه منذ تلك اللحظة، سوف تبدأ ساعة سلمان بالعد التنازلي الذي لن يتوقف إلا بعد سنة حين أصيب بطلقة رصاص قاتله. حتى أنه لن يجد ما يقوله لمن حوله سوى كلمتين: «هذا يومه»

الآن، منح نفسه امتياز التفكير في غرامه المقوض، وهناك في الأخدود العميق لروحه العاشقة، أيقن أن صباح بريئة «أنا أعرف!» صار يردد وهو يرد على الأوهام، والتهم التي كانت تهيئها له أمه، أو أي عدو مفترض يمكن ابتكاره دائماً. وصار يقول لنفسه كل يوم، وفي كل ليلة تقريباً سوف تأتي، حتى أن وجوده، وهيامه، صورا له شبحها القادم عبر الطريق الشمالية، على عربة خرافية مفروشة بقش، لكن دون ضوضاء رسمية، بلا ضغائن، ولا أحقاد.

الخيال نفسه صار يغتني كلّ مرة، وقد صاحبته الشهوة والرؤى المذهلة. وتعذر عليه بعد ذلك فهم السبب الذي يجعل صباح تقف هناك بين ألف عمود حجري، تستغيث به، وتطلب حماه.

وفي كل مرة، يخفي عن نفسه حقائق الواقع بلعبة الأمكنة المتخيله: أسطحة، بيوت، أزقة، خرائب، ورسوم!

* * *

ومفعول الأوهام، بدا ناجعاً، وقد كفاه لفترة زادت على الشهر، كان يتزود بها ويقوي عزيمته، ويحاول ألا ينهار معزياً نفسه باليقين السابق الذي لن يحيد عنه طوال حياته، وهو أن صباح مغلوبة، مبرأة من تهمة الخيانة.

هكذا احتفظ بها لنفسه مرة ثانية، لقد أحرج حنقه، وخطأ أحقاده، وتفهم هزيمتها الصعبة، قدام ذلك الإرهاب الفظيع الذي مثله أولاد الفضل. وصدق أنها لا يمكن أن ترتكب رذيلة، وهي التي لا يمكن أن تنسى، مثله تماماً، لقاء الضباب الخيِّر.

* * *

صباح هناك، لم تبذل أي اعتراض لتتملص من حكم آلها القاطع، لقد آمنت، منذ أن تلقت قرار الزواج، بأنه القدر، لا مفر! والشيء الوحيد الذي استطاعت فعله، هو عتاب حارق، وجهته بالعينين نحو ثنيه. «حتى أنت؟!» كانت تقول، ولكن ثنيه بدت كالوثن، ودون أن تخفي مكرها، وارتياحها، لقبول صايل، وقدرتها على انقاذ اخوتها من الوضاعة والذل اللذين رأتهما متجسدين، في إهاب عشق مجنون، بدا لها سماً. ودون أن يكون في قلبها ذرة من الكراهية لصباح، رمت حجرها الذي أصاب سرباً من العصافير.

وفيما بعد، رغم كل شيء، ورغم أنها كانت ترى تلك التعاسة التي سببتها للعروسين. فإنّ رضاها، لم يتناقص ذرة واحدة. لأنها استخدمتهما قرباناً للحماية والستر.

في البداية بدا لها صايل مُهاجماً بكل ما في العالم من العار فالضربة قضت عليه، وهوت به إلى التيه الفظيع الذي ما تخيله قط، هل عرف اخوته شيئاً من السر؟! شكٌ بهايل، ولكن الفتى لم يرَ ما حدث، ولا يمكن لفتي في سنه، كشف أسرار كلامية خرقاء تبادلها رجلٌ وامرأة أمامه. لم يبق اذن سوى صباح، حتى يظن بأنها وشت بما بينهما لثنيه.

لجأ إلى الصمت، والنظرات الوحشية التي لم يخفها، ومع هذا فإنَّه لم يستطع تجاهل اعجابه بالجمال المذهل الذي لصباح، فالقهر الذي عانت منه، جعل ملامحها شفافة، ورطبة، مثل صورة قديمة. وقد جلست قربه، وهي شبه نائمة، متآكله، وصامتة، كبركة فارغة، هيكل عظمي باذخ النقاوة. حتى إذا أشَّرت بيدها، بدت مثل شبح غابي ذي ضفائر.

كل ذلك اخترق أنظاره، ورسخ في جمجمته كزخات مطرية. أحس أنَّه يُتْلَعُ منذ الآن، ويتوه في ا لوديان الحارة المطبقة على عنقه، من الفتنة الآسرة لهذه المرأة، المكتشفة ببطء، وتروٍ، وإعجاب ليلي مكتنف بضوء قناديل، وسراجين، ونار حطب.

أدرك أنه متعطش لحبها، وأن قلبه المتقلب، ومزاجه الشيطاني، يستسلمان للكيان المشرب بالغموض، والمتاهات، الجالس قربه، الملتصق بجسده، وسط أهازيج وأغانٍ متألقة، لحظة بعد لحظة، استسلاماً محفوفاً برقة، ولين، لم يعرفهما من قبل تجاه أحَد، سوى تجاه نواف وحده.

استعاد القليل من توازنه، وقد أحرقته ثنيه فعلاً، لكنها فعلت ذلك بلطفها المعهود، وقوتها الخفية، مقدمة اليه رفيقة عمر فتية ملتهبة وحارة. تجري في عروقها دماء آل الفضل، لا عيوب اذن، ولا بد أنها ستستجيب لنداء الحب الذي سيبذله لها، فقدراته لا تحد، وقوته اسطورية. ممتلئ بالنار، والصخر.

أما حين أرادت ثنيه أن تقدم له أسباباً مخترعة للبكارة المفضوضة، فقد أقنعتها صباح بأنها قادرة على فعل ذلك وحدها، فلفقت له، قصة مبتكرة، تافهة، لم يهتم بها كثيراً، ولكنها أقنعته.

لذلك بذل كل جهد ممكن لإسعادها، كانت قناعته تقول بأن أهم ما في حياة المرأة، هو رضاها في الفراش مع زوجها، ولهذا قدم في الليلة الأولى كلّ ما في جعبته من قوى رجولية ومداعبات ولطف، محاولاً أن يبعث فيها صرخات الحياة.

ظن بأن لعبة الخفاء هذه، ومحاولة الولوج إلى اللقاء الزوجي من بابه المقدس، يشرعان أمامه رضى صباح، وكان موقناً بأنها ستشعل تحته، وتضيع تماماً، وسط نشوة قزحية، وشرارات فرح صاعق، وهو يلفها بذراعيه، وجسده الكبير، ويولج هناك في الخميلة المنتفخة المبللة، كائنة الهائم، ويدفق في الكهف المظلم بملايين الأنساغ الحية.

لكنها ما استطاعت التفكير به، وقد وارت قهرها في فراشه ورفضت أن تنبسط معه، رغم أنه أعطاها كل ما استطاع من حمى الجسد والأهواء. وظلت مستلقية بلاحراك، باردة، مستسلمة، بلا إرادة لا تفعل شيئاً، ولا تقول شيئاً.

وفي الصباح، حين سمعت قعقعة الأسلحة، ورأت من النافذة إلى صايل وهو يدربُ نواف، أحست بالخزي، والأسى، وأحرقتها فكرة الخيانة.

وسوف تستمر على ذلك إلى ما شاء الله: تستلقي قرب صايل مثل زوجة في الليل، ثم تعود في نهارها إلى ذنوبها، تلعن جسدها، وفتنتها، وحبها، ثم تمنح أجمل أشواقها لكنج. ولأنها رغبت في تحدي ثنيه، فقد بدت شديدة الحيوية دائماً في النهار، طافحة بالنشاط، محمرة وسعيدة.

وقتذاك، لاحظ صايل هذا اللغز المغلق، ولم يتوقف عن التساؤل حول حالتها: كيف تتشيطن نهاراً، ثم تصيرُ حطباً في الليل! ثم تجرأ وسأل أخته: «شو في يا أم قاسم؟!» فقالت: «ماشي!» ثم انفردت بها، وانهالت عليها ضرباً، وعضاً مثل ذئبه، وهي تصرخ وتشدها من شعرها: «حبِّيه! حبِّيه!»

لكنّها في الليل، جاءت واعتذرت منها، قبّلتها، وقالت: «سامحيني!» وآلت على نفسها، أن لا تتدخل بينهما أبداً.

صباح لم تتفهم الاعتذار، وتساءلت: كيف يمكن لامرأة خارقة مثل ثنيه، أن تتصرف كالأطفال!! فدمدمت «ما تغير شي يا ثنيه!» كأنت الجملة ملغزة، معبأة بالاسئلة: ماذا تقصد: حبها لصايل؟ أم احساسها بالظلم؟ أم عشقها لكنج؟ أم . . . !

ومع هذا فإنَّ حوارهما قد انقطع، لم يعد بينهما ما يمكن الحديث عنه، ودون تفكير، وجدت كل منهما نفسها خارج مدى رؤية الأخرى، لا تراها، ولاتسمعها، ولا تفهم ما تقوله. بينما نبت سؤال غريب لدى كل منهما:

«لماذا خلق الله هذه المرأة في حياتي؟!»

* * *

(٤٣)

خلال بضعة شهور، جربوا هنا، في جمهورية الكابتن جميع الوسائل لتسكين التمردات، واعتراضات السكان على ممارسات الجيش وقد ارتقت تلك الوسائل درجة درجة، وفق التعليمات والأوامر المناسبة للحاكم الذي لم يتأخر في أي يوم عن معاقبة المسيئين، دون أن يخفي قرفه، واشمئزازه من هؤلاء السكان العديمي الوفاء.

لقد اعتبر التزام بلاده تجاه التخلف «التزاماً شخصياً له» وقال: «إن اولئك الذين اختاروا المعارضة، ما كانوا سوى قراصنة، اعتادوا منذ زمن الدولة العثمانية الميتة، شريعة الغاب اللائقة بشعب بربري أشبه بالوثنيين» كان يكتب ذلك، وهو متجه نحو الجنوب، هناك حيث بدأت تتجمع قوات المتمردين.

كان طبعه العسكري يلهمه دائماً. ولهذا فقد رفض المسكنات الكلاميه، ورياء مريديه الذي اجتهدوا في تصوير بهاء الدين، قائد العصابات بصورة أفّاق وقاتل.

ازدادت بعد ذلك جرأته في تحطيم المقاومة، وعظم حقده ضد متمردي الصحراء الأشقياء (كما سماهم، في أول منشور وزعه) تغذيه احتمالات لا تنتهي من الوسائل، والطرق المجربة، في جميع الممتلكات الاستعمارية التي تديرها فرنسا.

معرفته هذه، لم تكن قاصرة على تربية السكان، وحسن ادارة الحكومة ووقف العصيان، وإنما على رد فعل القيادة العليا التي لم تتأخر في منحه سلطات

مطلقة، جعلته يُعلِنُ أمام الجميع، في إحدى نوبات الغبطه أن الجبل صار وطنه الثاني، وبقدر تعلقه بهذا الوطن الجديد، تعاظم كرهه، وضغينته ضد العصاة. فمنح رجاله بدوره، حرية التصرف وفق مصالح الوطن، معتبراً المعارضة، من أي شكل، جريمة جديرة بأقسى العقوبات.

هكذا، لم يترك بعد ذلك وسيلة واحدة دون أن يجربها، وقد ظهرت النتائج السريعة، خلال بضعة شهور فقط:

فحين اطلّع على مالية دولته، فوجىء بكمية الذهب التي استطاع تخزينها في زمن قياسي، من الغرامات المالية التي فرضت على جميع المخالفين.

نجاحه هذا، حفزه لكسر الحدود، والارتفاع بمستوى نصح الأهالي، ومعاونتهم، وارشادهم في ادارة حياتهم، الى تشريع جديد نفى بموجبه كل من استطاع القبض عليه، ممن اتهم بأنه يعمل على تخريب، وإفساد شؤون الدولة.

مرة واحدة، راقب، من وراء ستارة، وجوه أربعة منفيين، ينتظرون الترحيل، اندهش من صفاء نظراتهم، وقوة القناعة الخفية التي تجعلهم يتقبلون مصيرهم، بتسليم قُدسي شبيهٍ برقةِ المسيح.

قال في رسالته لصديقه هنري، إن كل أحقاده تلاشت فجأة، وأحسَّ بالحزن، بسبب اضطراره لاتخاذ اجراءات قاسيه، ضد سكان الدولة.

لكن ذلك التفتح الضميري المفاجىء، لم يدم أكثر من الدقائق التي استغرقت تسجيل الرسالة، فقد اخترقت نافذة صالون بيته، بضعُ رصاصات في اليوم ذاته، وقدر الخبراء أنَّ الرصاصات انطلقت من الأشجار المجاورة، لكنها لم تصب أحداً، وربما تسبب الانتظار الطويل بهياج القاتل وتقويض تماسكه! لكن الأمر، بالنسبة لكاربيه، كان مختلفاً، وفسرهَّ على أنه إعلان حرب من قبل بهاء الدين، فتحولت السويداء إلى مدينة مُنكوبة، حينما سرت شائعات عن اقتراب المتمردين والعصابات من الأحراش الشرقيه والشماليه والتلال المطلة على المدينة.

موجة بعد أخرى، تتابعت المداهمات ضد الأحياء، وقتل الجنود الغاضبون الذين اقتحموا الحي الغربي من المدينة، جميع الشبان الذين وجدوهم هناك، لقد لجأ هؤلاء إلى الجنود في البداية، حين سمعوا في إحدى اللحظات الربانية كلمةً، وأوامر عربية يلقيها ضابط ذو قلبق، فمنحهم هذا إحساساً بالأمان، وفروا اليهم هرباً من رصاص الجنود السود القادمين من الجهات الأخرى. لكن الجنود الذين لم يخفوا لغتهم وراء ثيابهم المزركشه، قابلوا اللجوء بصليات من ا لرشاش والبنادق، وفق أوامر قاطعة: «سدد! نار!»

لم يصل إلى تخوم تحصيناتهم سوى ثلاثة شبان، قُطِّعوا بالحراب والسكاكين، وهم ينظرون مذهولين، إلى الصرخات العربية الصريحة التي تُعلِنُ موتهم.

«ما الذي حدث» كتب الكابتن «إن اختلاط الدم العربي، والشركسي بالعسكرية الفرنسية الصارمة أنجب أولئك المقاتلين الشجعان الذين انتزعوا الإعجاب بفرنسا! لقد قلت لك: «إن دم بوكسان سينمو إلى أن يصير حرشا!»

لكن اليوم التالي حمل أنباء القتل الفرنسي، في الاحياء الأخرى، وكان القاتلون هذه المرة من قوميات أخرى، وقد عدل الكابتن نظريته مضيفاً دماء أخرى من جنود شعوب وأمم أخرى أسرفوا في اغتيال الرجال من السكان المحليين هكذا: فرنسيون وسنغال وفيتناميون وغويانيون.

حسناً، طوال حياته لم يبدُ لجوجاً في مطالبه، وقد صنعت المصادفات أقداره ودائماً كانت الاشياء تخلق نفسها، حتى لتبدو كأنما صنعت لصلواته!

بعد عشرة أيام، زاره وفد مشيخي عارضاً عليه المصالحة، لقد أنهكتهم هجماته المغولية، وإسراف جنوده في القتل، والتذبيح. رددوا أمامه، فيما بدا مذهولاً، وقائع المجازر التي ارتكبت في القرى الغربيه، والجنوبيه، وأحياء المدينة واحدة واحدة.

هكذا تمخضت اجراءاته الشديدة عن نزوعٍ حماسي للسلم عند السكان، وكشفت عورة هؤلاء الذين سبقتهم دائماً رواياتُ رعب مهلكه، وراودته الرغبة القديمة في الصراخ أمام المستسلمين «أنا قيصر!» بينما تضاءل ظلُ بهاء الدين، وقامته الجبارة حين رأى بعينيه كيف تتهاوى حصونهُ البشرية، وقلاع حمايته واحدة وراء أخرى.

أفضل شيء استطاعوا عمله، هو اصدار مرسوم الحرم ضد بهاء الدين والمتعاونين معه، وإعلان الدعاء، والصلوات لمجد الدولة المنتدبة ورغم أن هذا بدا تافهاً جداً في نظره، فإن رينو معاونه، اعتبره أقصى ما يمكن أن تبذله هيئة دينية، ضد متمرد جموح مثل بهاء الدين «يكفي سيدي الحاكم» قال رينو «يجب أن لانراهن كثيراً على استسلامهم؟» «ولم؟!» سأل كاربيه «لقد رأيت بنفسك كيف كانوا كالخراف!» «هذا صحيح، سيدي، ولكنهم إذا صمتوا اليوم، فإنَّ ذاكرتهم هي مشكلتنا»

«لقد خسرت عزيزي رينو، سوف أعمل على خلق شيء جديد كل يوم» ثم «فووو» نفخ على كفه المفتوحة «ستذهب الذاكرة إلى النسيان، غداً ترى!»

مراهناته انصبت على هذا فيما بعد، فقد أراد، في الأيام القليلة التي أعقبت الاستسلام طَمْسَ الأحداث البشعه التي أساءت إلى شعبه!

لكن شبحاً غامضاً، بدأ ينهب البيوت في أطراف المدينة الغربيه، حيث الخرائب القديمة، التي أمكنها اخفاءه ببساطة. فتخربطت حسابات الحاكم، الذي بذل جهداً هائلاً للقبض عليه، دون جدوى. وبعد شهر، حين امتلأت تلك الأحياء بالدوريات، اغتال ذلك اللص جنديين فرنسيين في رصيف بعيد خال، كانا يمران منه ليلاً.

وبعد يوم فقط، أثخن بالجراح، رجلاً استضاف الجنود وسقاهم قهوة، ثم نهب بيته، ومضى. ،ما استطاع الرجل أن يقدم سوى وصفٍ ظلّيٍ للقاتل المتعطش، لا تفاصيل معروفة فيه.

وحتى الآن كان كل شيء عادياً: ثمة لص قاتل يجول في المدينة ناشراً رعباً مؤقتاً، ويمكن اصطياده، وقتله حتماً.

كانت أوامر الكابتن حازمه جداً: اقتلوه! لأن شكوكه اتجهت نحو بهاء الدين نفسه، ظاناً أن المتمرد قرر أخيراً اختبار قوة الكابتن، وصبره، وقدرته على إدارة شؤون الدولة في زمن السلم. وطوال أربعة أيام من الكمائن، والحراسة، والبحث في المدينة وأطرافها لم يظهر أحد. لم يكن اذن سوى لص مواشٍ صادف جنديين فاغتالهما، وجرح مواطناً!

اقتات كاربيه من هذا التفسير، وخفف تدابيره الأمنية، معيداً غالبية الجنود إلى الثكنات، وغفا في التأويل السوسني اللذيذ الذي توصل اليه، وظلت بعض الدوريات تجوب المدينة ليلاً، وهي تقعقع بأسلحتها وحوافر خيلها، وسط تذمر الناس وهلعهم من ظهور الشبح الذي تضخمت قامته سريعاً، واختلطت الروايات عنه، محولة إياه إلى غول ليال مرعب مخلوق من رغبات انتقامية سرية.

شكوك أخرى خامرت بعض السكان: لم لا يكون مجرد متآمر بدوي ينفذ رغبات الحاكم في إرهاب الناس، واخضاعهم؟!

هذا كله تلاشى ليلة الأربعاء، حين نشبت في أرجاء المدينة حياً بعد حي حرائق هائلة ضخمة، اتخذت هيئة جن، مبددة الأمان الهش الذي حاول الكابتن نشره.

بدأت النار في تبابين آل النواس شمال التل، وملأ ضياء اللهب الخارق الأفق الجنوبي مفسِّخاً السماء الشتوية العاتمة إلى قطع من غيوم سود حائرة، ولم يستغرق الوقت أكثر من مسافة يقطعها مذنبُ، حتى نشبت نار أخرى، في المربّعات المطلة على خرائب نجمة، ثم فاجأت الجنود أخيراً في القلعة:

كانوا قد ناموا كالقتلى، في المهاجع الغربيه، بإرهاقهم، وثيابهم ونصف العشاء الذي تناولوه، ولهذا، ربما، لم توقظهم نفثات الدخان التي أخذت تتسربُ

إلى مقرهم، بعد أن لفهم نومُ الأمان الوقور، لكن الأجراس المتتابعة التي اندفعت تقرع، أفزغت الجميع، هبوا كالمجانين، بعيونهم الجاحظة المثقلة بنعاس قديم ولغطهم، وصعوبة المفاجأة التي لم يعرفوا سرها، حتى خرجوا إلى الباحة، لتدهشهم كتل نار هائلة، بأشكال، وفروع، تلتهم المخازن الشرقيه الممتدة نحو الجبال عبر سهل مليء بالخنادق خلف القلعه، ومن بين جميع الجهات، سمعوا قرقعة المطافئ اليدوية، وصراخ الضباط، والسرجانات، والكابورالات، والجنود الذين اختلطوا، كالأطياف، وسط اللهب، والدخان الضبابي المتصاعد!

بدأت تُسمع في المدينة طلقات نار، وصراخ، ونداءات نجده. وشوهد آلاف الرجال، والنساء، والأطفال، يندفعون نحو النيران حاملين، من البرك والمطوخ، أسطال الماء لاطفاءِ الحرائق التي كانت تزداد خصوبة مع كل دلو ماء يصب فيها.

وفي الظلال الوثنيه الصاعدة للنار المتدفقة، بدا الجميع أشباحاً غريبة مملوءة باللعنة، وفي كل مرة يعلو فيها الزعيق، معلناً اكتشاف اللص، كانت الحقيقة تنجلي عن أحد الفازعين، أو الهاربين المذعورين من مباغتات النار الأكولة التي راحت تلتهم البيوت المتلاحقة، جهراً، تحت الأبصار المذهولة المتضرعة للطف الالهي الأعظم، من الناس المستسلمين لسر النار!

وحده المطر السخي الذي هطل عند انبلاج الفجر، كان المنقذ. وقد انصب وابل من المطر الآذاري الضاج، اقتحم النيران المتمادية موجة بعد موجة، حتى اطفأها جميعها، ولم يتوقف طوال النهار الذي أعقب الحريق.

ظلت تمطر. ووسط الماء، وبقايا الهلاك المتفحم، اضطروا للعمل كي ينقذوا ما أبقته النار، بين الجدران المهدمه، والبيوت المكشوفة، من الغرق في سيول الماء التي تدفقت، بلاحساب.

لكنْ عبثاً، كانوا يسابقون الزمن، فعناصر الطبيعة الهائجة بدت أقوى منهم جيمعاً، وعند المساء بدأت الثلوج تنهمر داخل عاصفة من الرياح المتقلبة، ولا بدَّ أنَّ غضباً الهياً فقط هو الذي يطبق عليهم، ولكن الأطفال، والنساء، والرجال

المشردين الذين آووا إلى منازل اقربائهم ومواطنيهم ما كانوا يتفهمون كلام العظات، والحكم الدينيه،

ولأن الثلج لم يمنع جرائم الشبح الليلي، الذي استطاعوا الآن فحص خطواته، وهو يعبر الشوارع والأزقة بعد ليلة واحده، فقد وجهوا التهمة إلى كاربيه نفسه.

كانت قدم اللص اليمين راسخة ثابتة، بينما بدت آثار اليسرى خفيفة، تتدحرج ببطء على الثلج.

لكن الآثار في ا لحي الغربي، كانت مختلفة، إذ تباعدت الخطوات، وانغرزت القدمان في الثلج عميقاً، كأنما كان صاحبهما يحملُ أثقالاً.

لم يعرفوا فريسته هذه المرة حتى الصباح، حين علموا أنه وزع في دار اليوتنان موريل مشطاً من الطلقات!

معظم الأقاويل انصرفت إلى القول بوجود عصابة باستثناء عبد الغفار الراوي، الذي أقسم أن الآثار لواحد. كانت خبرته كقصاص أثر تجعله سيد استقصاءات اللصوص، ولم يروه يُقسم مرة واحدة قبل ذلك، غير أنَّه الآن بدا مضطرباً، وخائفاً إلى حدود الموت من معرفته.

لكنه لم ينطق باسم اللص بعد انتشار نبأ الهجوم على موريل، بدا الأمر شبيهاً بالمعجزة في نظره: فالضابط الرهيب الذي اقترف منذ مجيئه، مئة جريمة، بات وسط الرعب، والذعر، من شبح الليالي المتجول.

هذا الجنون، أمعن في صنع حلزونات خوف حول الناس، وراح ظلُ الطيف الغريب يتحول تحولاً هيولياً، ويعيدُ في كل ليلة، رسم ذاته عبر خطوات غير متوقعة، ومسحات غرابة، وهجمات. ينهب فيها بضع أشياء، أو يقوم باعتداءات، وتعرضٍ، لا يني يتزايد، للجنود الذين تقطعوا، وهلكوا في حمى البحث عن الخطوات الليليه الزرقاء، دون جدوى.

وبين القتل، والسرقات، وذلك الجولان الليلي المدقق طوال الليل، ظلت المدينة تشهد ذلك الظهور الخاطف لشبحها، بينما كان تتبع خطاه، يوقعُ الناس في حيرة مبهمة: لمن عمل؟! وقد نفوا تهمة تواطئه مع كاربيه منذ أن أخذ رقم ضحاياه من الجنود يتزايد، لكنهم لم ينسوا حرائقه، وسرقاته، وغرابة أفعاله في أحيائهم. وسوف يسمونه: «الأزرق» و«أبو بلطه»، بينما راح عبد الغفار، يبتسم ابتسامة عارف، عابث، وصَمَتَ طوال تلك المدة عن التصريح باسم اللص، الذي لم يكن متأكداً من جرأته على إشعال حرائق، وقتل أبرياء، مثلما لم يكن واثقاً، من ميول وطنية لدى رجل عرف طوال عمره، باحتقار البيت.

وعندما شاعَ اسم «الذيب الاعرج» خيم ذعرٌ غذّاه الاسم الفاحش الممتلئ بعدوانيةٍ مبطنةٍ، ونهج افتراسي.

كاربيه، أعلن، بعد تسرب الاسم اليه، أنه الآن صار يرى، كأنما كان جهله بالاسم، ظلاماً محضاً أمام عينيه.

ولكن الأمور لم تتبدل، فالاسم، لم تكن له أية قيمة، لأن تحركات الذيب، ازدادت غموضاً، وصلافة، وظهوره كان مرتبطاً في كل ساعة باللاتوقع فقط، أما حيث ينتظرونه، أو يكمنون له، فقد غاب تماماً كأنما نشر في السويداء، ألف شخص يزودونه بالأخبار.

وعلى الرغم من أن أحداً لم يره قط، وأن أثاره الاقوى كانت موجودة في أطراف الثكنات، وسفوح القلعة، فإنّ السرقات تواصلت، بلا توقف، في أطراف المدينة.

ما هو غريب، أن جميع الأشباح التي رأوها، كانت عرجاء، ولكن كيف أمكن للذيب أن يكون مرة طويلاً، ناحلاً، وأخرى قصيراً، أو سميناً مدكوكاً؟! لاجواب. وحالات التلبس، هذه، ملأت خيال الناس الهلع المثخن بثقل الاحتلال وسطوة النَّهابين، حتى آمنوا بأنّ الذيب، لم يكن سوى حليفٍ متجسدٍ للشيطان ذاته.

تلك الأيام، انضم شخص واحد في السويداء إلى تكهنات عبد الغفار الراوي عن الشبح، ذلك كان شامل الفضل نفسه، فحين رأى في الفرجة السماوية الضئيلة الطارئة، وجه المقتحم الجرئ، عرفه حالاً. كانت تلك نوبته في الحراسة، تمتم لنفسه: «الذيب!» وهو يظن نفسه حالماً، راقب اللعبة، بلا ارتباك، وراح يحدق في النافذة العليا، حيث كان المتسلق الصامت يصعد ويصعد، كان حاسر الرأس، وقد ظهرت خصل الشعر الكثيفة التي تغطي كتفيه، وبان جسده الملفوف بجلد نعاج طويل الصوف، وساقاه المحشورتان في سروال خفيف من الموسلين الأسود، «ما بتغير زيك؟!» همس شامل، وراح يقضم بقية خبز طالته يداه، كان الذيب وسط الشرفة، الآن يتدحرج نحو غرفة موريل، بيقين رسولي، ففتح شامل بطحة العرق وكَرَعَ رشفةً عميقةً، وهو يشير إلى الذيب: «كاسك؟!» فيما حطم اللص النافذة، بضربة واحدة من أخمص بندقيته، ثم، أطلق ثلاث طلقات فقط، وأنسلّ كالثعبان، نحو الغرب، واختفى.

تلك الليلة، توجت شامل ملكاً للفرح، دون أن يعرف سبب ذلك، ولم يبح بسره لأحد، إلا لحنا البيطار وحده، متمنياً، وهو يتذكر أم الجرابيع بمرارة، أنْ يصل النبأ إلى آل الفضل. ومنذ تلك الساعة، لم يعد يصدق أنَّ مُشعِلَ الحرائق وسط المدينة، هو نفسه زائر الليل الرقيق، كان يعرف الذيب جيداً، فذلكَ اللص، اكتفى طوال عمره بأبسط الأشياء: حصان، أو بغل، أو نعجة، أو بساط، يبيعها، ويلهو بثمنها بأية طريقة، دون أن يرتكب، طوال حياته، أية حقارات.

ولهذا فقد احتملَ، توبيخ موريل، وعقوبة السجن التي جاءته بعد ذلك براحة ضمير، مع أن عذابه لم ينته: كيف يوضح مقاصد الذيب للناس؟!

سمعة الرجل راح تهوي مرة، نحو الوضاعة والخسة، وترتفع مرة أخرى إلى ذرا البطولة، والمغامرة الفذة. وطوال الوقت كان شامل معذباً، حين يرى أن لصوصاً تافهين، أو مجرمين حرضهم الكابتن نفسه، ربما، يحملون الذيب وزر جرائم بغيضة، لا بد أنه يربأ بنفسه عنها، ويغرقونه في حمأة طين أحمق من اللعنات، والتهديد بالثأر، والضغائن.

لكنَّ كل هذه الاحداث المشعثة، أصابت الحاكم بالكآبة، وفي نيسان بدا خاملاً، ومريضاً، وهو يتشمس في باحة منزله، بعد أن اختطف الموت صديقه الوحيد في السويداء، فرحان السعيد، الذي كان يسميه فرهاد اسمين:

فالرجل الذي شاركه، طوال السنتين اللتين امضاهما هنا سعادات لياليه، أصيب بنوبة قلبية مفاجئة، وارتمى ميتاً، بعد أن غادر منزل الكابتن بساعة، ولم يعرف كاربيه كيف يعالج ولعه الأخرق، بالشاب الفقيد «الذي تفهَّم لوطيتي المقدسة، وسط شعب بغيض، لا شأن له باللذة!»

فكرته النهائية، كانت موجزة جداً، فهو لن يستطيع أبداً معرفة أي شيء عن هؤلاء الناس المتقلبين كالافاعي «وقد بدا لي أن علي أن اختار: فآمالي بتأسيس الدولة، تكاد تتحطم تماماً، ورغم الطاعة الظاهرية، والخنوع المتبدي في ولاء الكثيرين، فإنَّ قناعاتي كانت هشة، ورخوة، بذلك، ليسوا سوى ذئاب! وقد اقتنعت اخيراً بأنَّ الذيب الاعرج، لا وجود له، وأنَّه فكرة محضة، دبرها جواسيس بهاء الدين، لإثارة قلاقل في عاصمة الدولة».

استنتاجه هذا لم يذهب سدى، فأثناء تناول طعام الافطار، وفيما كان يبتلع أول لقمة، صاح «يوريكا!»، طلب القهوة، والمترجم، وموريل وثلاثة أسماءٍ من رجالٍ معروفين في السويداء، كان يخطط لضمهم إلى المحافل الماسونية!

«سنحاول يا عزيزي موريل، أن نكسب بالسلم، ما عجزنا عن نيله بالحرب» ثم أملى على انطوان ملحمه نصَ رسالة قصيرة موجهة إلى بهاء الدين!

«حين انتهيت من كتابتها، أدركت أن هذه الطريقة الجديدة، في مخاطبة أعداء فرنسا، كانت استجابة مني، لأفكار الجمهورية الثالثة الأصيله. ولقد أقالتها التغيرات السريعة، والانشغالات، أما الآن فإن المثال الحضاري، هو الذي ينتصر، وسوف نرى ما الذي يريده هذا البهاء الدين أخيراً؟ الحرب، أم الطاعة؟!»

بعد أسبوع فقط، وصل رَدُّ بهاد الدين الموجز: «يوم الاثنين، في ميدان

السويداء» ورغم أنَّ الكابتن، كان صاحب المبادرة، فإنَّ المفاجأة كادت تصعقه، وضحك بخشونة، وهو يقول: «اللعنة! حتى نثره سيء جداً!» مشيراً إلى اللغة الفلاحية التي لا تُعنى بالزمن.

لكنَّ ما عجز عن اخفائه، انما كانت تلك المشاعر العنيفة التي اجتاحت كيانه، وهو يتخيل كيف سيلتقي أخيراً مع عدوه الأ كبر!!

* * *

بنود السلام التي صاغها، كانت مقتضبة جداً: تسليم السلاح، مقابل العفو عن المتمردين العصاة، الولاء لفرنسا الأم، ولدولة الجبل!

وبانتظار اللقاء، ظل ساخطاً، ومقهوراً بلا سبب، وفي الاثنين المحدد، بدأت تمطر في الصباح، ثم توقفت عند الضحى، وشمَّست. عندهاسمع أصوات الأبواق التي بدأت تعلن وصول عصاة الجنوب: «اللعنة!» دمدم بغضب، دون أن يفلح في ضبط ارتباكه، وأمام الحاكمية، اصطفت سرية من فرسان المراسم، أدت له التحية، وهو يعتلي صهوة جواده، ثم تقدم باتجاه الميدان، بينما كان رينو، يهمس قربه، عن موكب بهاء الدين المُقبل من طريق الجبال.

كل الاجراءات التي اتخذت هنا، كانت احتفالية، وجازف الحاكم قليلاً، حين أمر بإخراج الناس لحضور اللقاء، كان يفكر بجيشه وقواته التي قُسمت إلى كتائب، وسرايا، حسب أسلحتها، على طول الميدان الرئيسي، وحين سطعت الشمس من وراء غيمة «لمعت عشرات الآلاف من الأزرار النحاسية، والشارات، والحراب، بسطوع خاص لائق بجيشٍ أمنا فرنسا وحدها!»

استأثر المشهد بارتياحه: «لا مناص من الخبث أحياناً، فعلى الرغم من نهج اللقاء السلامي، فإنَّ مظاهر القوة، والعنف الخالص كانت دهاء جديراً بعقلٍ بارع كعقل كاربيه! وإزاء تمرد بهاء الدين، وتنقله، وارتحاله الدائمين، وسط الجبال، والبراكين، في شتاء السنة القارس ثمة استقرار بهي لا يخفى على أحد، لفرقة المتطوعة العرب، الذين وضعناهم في مقدمة الأرتال».

انطلقت الأبواق مرة ثانية، معلنة وصول المتمردين، وفي اللحظة التي استقامت فيها قامة كاربيه، فوق جواده، برز بهاء الدين، في المدخل الجنوبي وهو يندفع خبباً باتجاهه.

«كل شيء، نفذ وفق تصوراتي باستثناء هذه اللعنة المكتسية ثوب بشر!»

وراء بهاء الدين اندفع مئة خيال، مدججين بالأسلحة حتى أنوفهم، وكلاهما، حدق في وجه الآخر. ولكن بهاء الدين بدا أكثر هدوءاً، وقد اعتنى بشاربيه، وراح ينظر، من خلف الصفاء العجيب في عسل عينيه إلى غريمه الاجنبي ذي الانف الحاد، والوجه الأبيض.

لكن كاربيه، الذي عرض كلّ ما لديه من القوات البرية، كان يخبئ مفاجأة سماوية: ست طائرات اخترقت السماء فجأة، على ارتفاع منخفض جداً، مثيرة زوابع غبار، وذعراً، وضجيجاً، وهلعاً، وصيحات نسوة وبكاء أطفال، وبلبلة رجال وخيل. ثم اندفعت ببراعة، وخفة، نحو وسط السماء.

حين انقشع الغبار، لم تدم ابتسامة الشماته على وجه الكابتن أكثر من ثانية واحدة. لأن بهاء الدين كان هناك عابساً مقطباً، فيما كان حصانه يدق الارضَ بحافره الأيسر، ويحمحم: «جئنا لتقرير مصير بلادنا يا كابتن، لا لنتفرج على الألعاب الفرنسوية!» قال لانطوان ملحمه، بكبرياء، وحزم. وقبل أن يفتح المترجم فمه، أو قفه بإشارة من يده: «اسمع! سوف تترجم كلامي كله، أما كلام الكابتن فلا يهمني».

ارتعش انطوان، وهو يتأتئ بفرنسية ركيكة ترجمةَ الجملة الطويلة المشبعة، المتعبة جداً. أما الكابتن، فقد ترجل عن حصانه، ثمّ تقدم نحو بهاء الدين الذي لم يتردد في الترجل أيضاً: بينما ساد الصمت أرجاء الميدان الرئيسي، وعبر كل واحد منهما، نحو الآخر، برزخاً من البغض، والكراهية الشخصيه، ثم توقفا، قريبين. مدّ كاربيه يده لمصافحة غريمه «مرة أخيرة لن تستعاد بعد ذلك أبداً، كان يرتعد، وقد سرت كهرباء جسده إلى دمي، فأدركت أنّ هذا الرجل، صاحب عيني العقاب

وحذر الدوري، ذا الاصابع السمينة كالكلابات، فيه من القوة، والعنف ما يعجز السلامُ عن استيعابهما!»

«شرفُ فرنسا، وحده، هو الذي منعني من القبض عليه، وزجه في السجن. وها أنذا أعلن لك وحدك، أنني، كدت أفعل ذلك. ولكني ابتهلت إلى الله أن يمنحني ساعة واحدة من الحلم، لكي استطيع إقناع هذا الفوضوي المتخفي في ثياب الثائرين، أن يجنب هذه البلاد المسكينه الدماء، والخراب».

بهاء الدين، الذي تلقى مواعظ الحاكم الأميريه بصمت، التفت مرة واحدة إلى أحد أركان حربه، الذين كانوا خلفه تماماً، وقال، حين سمع الكابتن يردِّد أنَّه لايسمح لأي بشري أن يدمِّر بلده:

«سامع يا مقداد! صار يقول إنها بلده!»

«لقد ظننت أنه كان دبلوماسياً ماهراً، حين لم يقاطعني سوى تلك المرة، ولكنني، صرتُ مقتنعاً أنَّ ذلك الرجل، لم يكن ذا نثر سيء فقط، وإنما هو جلفٌ بدائي، لا يعرف الكلام أيضاً!»

بعد نصف ساعة، انتهى ذلك اللقاء الذي ظن أنه اكتشاف أرخميدس. وبدت جميعُ المظاهر الاحتفالية، والزينات، واستعدادات القوة الباطشة، سخافة محضة.

وقبل أن يتحرك بهاء الدين عائداً، قال للحاكم المتقع المشدوه: «اعتقدنا أنكم تريدون الجلاء عن بلادنا، لكننا اليوم اقتنعنا بأن طريقنا كان صحيحاً منذ البداية».

«اللعنة! من أي كتاب حفظ تلك العبارات المشينة» كتب الكابتن.

استدار، يتبعه رجاله، ثم اعتلى صهوة حصانه الأسحم، وغادر.

امرأةٌ، بين تلك الجموع المرعبة التي هاجت وماجت له، زَغْرَدتْ فأدار بهاء الدين عنان الجواد نحوها، ثم توقف، ريثما أنهت نشيداً قصيراً ممتلئاً بالآهات

«حين ترجم لي انطوان كلماتها، هلعت من نتيجة مذهلة خامرتني: إنَّ بين فرنسا، وبين هؤلاء المتوحشين، مسافة عصر كامل لا يمكن أبداً عبوره». .

لم ينتظر لسماع أحد بعد ذلك، سار بين الحشود، ووراءه مرافقوه المئة، جميعهم خيالة، باستثناء واحد فقط، مشى في المقدمة، ضئيلاً، وزائداً عن الحاجة، وكان في مشيته عيب خطير لم يستطع الكابتن تبينه.

وفي المساء، شرب كاربيه، حتى الثمالة في منزل اليوتنان موريل، بعد أن أصيب بنوبة جنون حطم فيها جميع الأواني الزجاجية في منزله، لأن ذلك الرجل الأغبر، في طليعة بهاء الدين، لم يكن سوى الذيب الأعرج ذاته!

«احكم بنفسك يا عزيزي هنري، من يكون هذا الذي يريد تحدي امبراطوريتنا!»

بعد ذلك طلب من انطوان، أن يدله على شخص واحد فقط يعرف الذيب، لكن المترجم لم ينجح في ذلك. رغم أنه جمع مادة روائيه ضخمة عن الرجل: «لقد بهرني تماماً، ورغبتُ أن أشتريه، ليكون أحد أدلائي في الحرب المقبله، ضد بهاء الدين، فهو يعرف المنطقة حجراً حجراً، من شمالها إلى جنوبها، ويحفظ اسماء الزعماء، وتسلسل عشائرهم، وأقوامهم، أما قدراته القتالية، فتثير الاعجاب، فالرجل لايعرف المنازلة بالسيف، وإنما يستخدم مدىً صغيرة جداً، تسبب غالب الأحيان جروحاً، خدوشاً في اعدائه. وربما لهذا السبب سموه الذئب. ولم يركب حصاناً، لكنه يستطيع الجري كغزال، وقد سبق جميع الخيول التي بارته. أخلاقه فاسدة تماماً، حسب معايير السكان أنفسهم. لكنني أرى أنَّه نفعي، عملي، يصلح لنا: لقد سرق كل شيء، أي شيء، وكل بيت، بما في ذلك منزل والده!»

«ولكن إذا كان بهاء الدين يستخدمه لإلحاق الضرر بمصالح فرنسا، فإن بلدنا يأبى أن ينحط إلى مستوى قاطع طريق عادي لا شرف له»

«ومع هذا فقد رأيت طريقي في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، حين فوجئت بأنه كان اليوم السابع لوفاة صديقي فرهاد هناك، دهشت من الطريقة التي تبادلوا فيها العزاء: تقاليد وثنيه تماماً، احتفالية، وشعائرية».

«وطوال ذلك الليل الطويل. استأثر المشهد بتفكيري، لقد أضاع بهاء الدين، بضراوته، وحبه للحرب، مفتاحاً مصيرياً من مفاتيح المستقبل والخلاصة الأخيرة هي أن المدنية والحضارة عاجزتان عن محاورة العصر البربري، وهكذا فإن ذلك الثعلب الماكر، لم يكن سوى متعلم بائس، لا يعرفُ أكثر من بضع آيات قرآنية، ونصف كتاب من الحكمة المقدسة، ولعنة مماثلة من حكايات العرب. لهذا لا مفر من خوض التجربة، إلى نهايتها.

«أما الحل فكان موجوداً في محفظتي، إنها تجربة فرنسا. في المستعمرات. فجميع تلك الشعوب البدائية، لم تتوقف عن تمردها، وعصيانها، واشعال حروبها، إلا عندما نالت وفرة من التعليم الفرنسي الحر، وسوف يرى بهاء الدين بعد سنة واحدة فقط، أن أي طفل في السابعة من عمره يعرف من العلوم، أكثر مما يعرف هو، ويحبُ فرنسا فوق ذلك. عندها، من سيقف إلى جانبه؟!

لكن كل تلك الكلمات، لم تستطع أن تزيل من قلبه ذلك الاسى الثقيل الذي أهلكه. وبدت نوعاً من الحوار الناقص. لأنه رغم كل شيء، لم يستطع إنكار دهشته تجاه بهاء الدين، الذي تجسد أمامه، ذلك اليوم، مثل نبي شرقي معبأ بالشر والقوة. وطوال ذلك الشهر ظل شيطان خفي، اسمه الذيب الأعرج، يقلقُ طمأنينة جنوده في القلعة، وفي الثكنات الشمالية أعلى التلال، دون أن يقدر واحد على رؤيته.

حتى الكابتن نفسه، زاد عدد حراس منزله إلى الضعف، وراقب الجنود العرب، من سرية الحراسة، بعد أن فشلت جميع محاولاته لاكتشاف متآمر واحد فيهم، مما أفزعه إلى حدود الموت، إذ أن هذا، عنى له، في النهاية، أنهم كانوا جميعهم قتلة مأجورين «حشاشين من طراز همجي لا منطق لديهم سوى استخدام الخناجر المسمومة القاتلة»

وطوال تلك الليالي ظل يفكر، ويدخن، وينتظر.

* * *

(٤٤)

«هذا أنت!» هتف كنج الحمدان، صارخاً بالتاجر الشامي القديم، أبي معروف! حين رآه في باب المضافة، بدا له مثل هدية ربانية خالصة. تكريماً للصبر الأيوبي الذي أظهره حتى اليوم.

لكن التاجر الذي لاحظ أن المضافة كان عامرة بزائري كنج، تعمَّد أن يظل مقطباً وهو ينزل جسده، ثم يجلس بطيئاً ملولاً، ويرد التحيات بلطف، ويبقى بعيداً عن كنج، رغم الحاح الرجل.

لم يخفِ زهده، ولا مزاجه المختل، أو قعدته السوقية الغريبة وسط الحضور. لم يكن هذا أبو معروف الذي يحبه كنج، بل شخص كئيب فظ، وصل للتو من القبور، كأنما دفن أهله!.

ومع هذا فإن صبره طويل جداً، فتابع الاستماع الى الحوار حول المدرسة الجديدة التي افتتحت في المنارة، وقرى اللجاة.

نصف الحاضرين. كان راضياً، والنصف الآخر يسأل بفضول وهوى خاصين، عن التفاصيل: أين ستكون؟ وهل تصلح دار الفضل لذلك؟ وأين يذهب حامد؟ وماذا نفعل؟ وبعد كل جملة، أو تعليق، كان كنج يسرق نظرة خاطفة إلى أبي معروف، مجازفاً بإرباكه. وبإشغاله تماماً بما يريدُ منه.

وبهذا الصمت، عرف كيف يخلق لدى التاجر إحساساً بأبوته وشعوراً بوجوده القوي الصارم.

الحوار حول المدارس، كان تافهاً في نظره، والرجال هنا، يتحدثون بلغة فظيعة، ووقحة عن قضية لا رأي لهم فيها، راح يضحك في أعماقه من سخافة هذا الكائن المسمى إنساناً: دائماً يظن كل فرد أنه مركز الكون، ويبدأ في التخطيط للحاضر، وللمستقبل، ويشيلُ، ويحطُّ كأنه يملك خاتم سليمان! هذا ما يفعله فلاحوه الآن. حتى المرابعون أنفسهم قدموا نصائح في هذا الشأن. لكن ما هم سوى جوقة بلاهاتٍ «شو دخلكم؟» أراد أن يصرخ في وجوههم.

لكن صمته، وتجاهله لهم، كانا أبلغ، فسرعان ما أدرك أولئك الساهرون لغة إشاراته، فقاموا إلى بيوتهم.

وهكذا ظل وحيداً، ينظر من ركنه إلى ضيفه الذي نبذ نفسه جانحاً في همومه، واحتراقاته. طابت له تسليات الليلة، فاختبار الفلاحين بالصمت، توِّج بالراحة من ثرثراتهم، أما الآن، فالآية مقلوبة، إذ أن على أبي معروف أن ينجح في الاختبار بالكلام!

«ها! هات يا بو معروف!»

التاجر الحصيف، الذي حظي بالوحدة مع كنج بعد خروج الجميع، راح يلف سيجارة ببطء شديد، ورعشة خاصة، لأن قلبه كان ممتلئاً بالقهر قبل أن يحكي للشيخ كلَّ شيء: لقد نهب بكل وقاحه، صباح هذا اليوم، وسط معابر الغزلان، دون أن يستطيع معرفة الكسّار الملثم الذي سرقه، كانت يده ترتجف، بينما أخذ كنج يتمشى وسط المضافة، دون أن ينظر إلى الرجل: «وصفو!»

وصف أبو معروف الكسار: طوله، وعرضه، ولون عينيه، وثيابه فنادى كنج ضامن العسّال، وقال له إنه عرف الكسار، ولكنه يريد أن يعرفه هو أيضاً «عيدْ يا بو معروف!». فوصف التاجر اللص مرة أخرى، وبدا في الوصف الثاني، أكثر اهتماماً بالتفاصيل، وصار حيوياً ونشيطاً، فضحك كنج وقال: «عرفتو يا عسّال، قال «أي نعم!»

سأل كنج أبا معروف: «ظل معك شي؟»

قال: «شوية حلاوة، الملعون قال ثقيله، وما أخذ غير كرتونة!»

«نعتبرها حلاوة رجوع بضاعتك؟!»

قال: «كل شي على حسابك»

«طيب» قال كنج، ثم قام إلى غرفته، وعاد بعد قليل معطراً، مرتدياً أجمل ثيابه، داهناً شاربيه، مزين الرأس بكوفية صفراء، وعقال جديد، ارتدى عباءة سوداء. ثم همس في اذن الخولي بضع كلمات، والتفت إلى التاجر وقال: «وين الحلاوة؟!». جحظ هذا فيه «أبو معروف!» ردد بصوت لائم، فركض الرجل وأحضر علبة بيضاء وضعها أمامه. فقال: «لاتنام هه!» وبعد نصف ساعة كانت كرتونة الحلاوة أمام سمرة، وهي تصرخ: آ. . . ه، أمام الإغراء الذي يستجيب لأغلى شهوة لديها، أكلت بشراهة، وراحت تتلمظ بالحلويات الطرية، وتشرب الماء.

ثم دللت الرجل جيداً، ورقصت حوله، وحاولت اغراءه، ولم تلاحظ بروده، وتنبلته، وانتظاره اللحظة المناسبة كي يسألها عن محمد العابد، لقد شك فيه في البداية، ولكن الوصف الدقيق للتاجر، لم يترك في رأسه شكاً، ثم أيد العسّال ظنونه «ملعون الوالدين! يخونني وهو يعرف أني حميت الرجل!!» كان حكم الإعدام بحق العابد، قد صدر قبل سنين حين استضاف كنج أبا معروف يوم موت سعيد، ولم يبق الآن سوى التنفيذ.

المرأة المسكينة التي أكلت الحلاوة، ما كانت تعرف أنها التهمت دية العابد، وقد صرحت بمكانه، بكل بساطة، لأنها تعرف أن كنج كان يحتاج الرجل دائماً، ويقدم له التسهيلات، «مغارة سعد» قالت: «نادوا: يا عابد! ثلاث مرات، بيطلع، إذا ما قلتوا ثلاث مرات، يمكن يختفي ما حدا في يشوفو بالمغاره».

فهزّ كنج رأسه، وقال: «ابن الحرام» ثم نهض ومضى إلى الخارج. سمعت

همساً هناك، وعاد بعدها، عابساً مقطباً، «جيبي الضامه!» قال لها، فمضت إلى الخزانة، وأحضرت اللعبة التي تعشقها، وصفَّت الحصي الملوَّن لها وله، وقالت: «مش راح تغلبني» فقال: «غلبتك خلص!»

لن تفهم هذه العبارة، إلا بعد ثلاث ساعات، حين عاد رجال كنج، وهمس العسّال، أمام عينيها، في اذن كنج، الذي تغيرت ملامحه حالاً، وبدا عليه الفرح، وقال للمرأة إنه صار قادراً الآن على مشاركتها الفراش، «ليش؟!» سألته، وقد اهتز كيانها، فروى لها أنهم قتلوا محمد العابد اليوم، لأنه خان عهد آل الحمدان.

أحست أنَّ أحشاءها قد انقلبت، وسرت قشعريرة في دمها، وغمرها بردٌ، وإحساس بأنها صارت خفيفة، ودائخة، فقعدت على الارض، وحدقت في القاتل المارد المنتصب أمامها، وغمغمت بحقد: «طعميتني دم؟!»

فقال: «هذي حال الدنيا!»

فأجهشت، وهي تقول: «حق! بس ان شاء الله تكون ملعون ليوم القيامه».

ثمن رأس العابد، كان أكثر من ذلك، فكنج الذي أيقن بأن الأحداث، والناس، تسخر له، لم يخفِ مطامحه عن أبي معروف. «واحدة، بواحدة» قال له، وهو يكلفه، بإيصال رسالة شفوية إلى صباح الفضل في أم الجرابيع، دون أن يعبأ به.

اندهش التاجر، واعتقد أنهم أوقعوه في شرك، وصار يرتجف، مصفراً، خائفاً، يتحسس صدره، ولا يستطيع السيطرة على جسده: فخذيه، لحمه، شرايين دمه، رأسه، منطق تفكيره. «أي رجل هو هذا؟! وحش لا رحمة في قلبه! أم عاشق تافه أضحى بلا ضمير بعد حرمانه الطويل؟» «السلام علي، قال لنفسه، وعلى روحي وأهلي!»

هلعه، لم يكن مصدره، عذابُ ضميري، أو افتراضات نظرية، وإنما معرفة تفصيليه بالعالم الجهنمي لأم الجرابيع، بالعنف الفظيع الذي يتوقعه من ساكنيها، إذا

ما عرفوا شيئاً عن مهمته، بعدها أو قبلها! ليس هذا هو المهم، لأنهم سيطالونه أينما كان، وفي الوقت الذي يشاؤون.

في الصباح، لم يراءِ كنج، وأعلن أنَّه مستعد لتقديم بضائعه كلها هدية له، لقاء مساندته، على أن يعفيه من دور القواد. «ودم محمد العابد» سأل كنج بفظاظة

«شو؟!»

«سمعت إنو تاجر اسمه أبو معروف، قتلو!»

فانتفض هذا، وتنهد، وقال: «أنا سلمت!»

حدجه كنج بطرف عينه، وقال وهو يخرج من المضافة: «متى صرت جاهز خبرني!»

في أم الجرابيع، احتفت النساء به، بتظاهراتهن القديمة، وأولادهن الذين ازدادوا عدداً، «كلهم صبيان ما شاء الله!» قال بود ومحبة، لثنيه ودلال وصباح وغريبة وهنده. وقد هدأت مخاوفه حين اكتشف أن الدار خالية من الرجال، باستثناء شمس الدين، وهايل، وبنوع من الدهاء الذي خلقه الرعب، قبلَ أن يتناولَ طعام الإفطار عندهم، وهو مصمم على تنفيذ اتفاقه بشرف.

ومن أجل ذلك لم يترك ثوباً مبرقشاً، أو مطرزاً، أو موشى أو خالصاً، إلا وعرضه أمامهن، تاركاً لهن حرية التفرج ومتعته، وجنونه الذي بان في لغطهن، وآهات اعجابهن.

فلش أيضاً عقوده، وأساوره المزيفة، والليرات الذهبية المقلده، والرباعي الخدّاعه، حتى استطاع أن يطير عقلهن، يضيعهن في سراديب الجمال الملون، قدم لهن الحنّاء، بلا ثمن، وأصباغاً أخرى على البيعه التي تجاوزت أربعين ليرة، وهو لا يتوقف عن التفكير في اللحظة المناسبة، التي سيوصل فيها رسالة كنج، إلى صباح، ورغم أن الوقت، أسعفه كثيراً، حين اندفعت النساء، للف الأقمشة حول أجسادهن، وتفحصن أنواعها، وثرثرن حول أفضل شكل لتفْصيلها، فإنَّ الخوف

والرعب لجما لسانه، ولكنه كان يدرك أن لا مفرّ له، فدمُ العابد سيطارده، وكنج يتربص به، ودور العرصِ التصق به مثل جلده، اشتهى أن يبكي، أو أن يضرب رأسه بالحائط، أو أن يفرّ من هنا، ويرحل إلى الشام، ولا يعود إلى كنج أبداً!

أخيراً، انفضّت النساء من حوله، وظلت صباح فقط، دارت حول البضائع قليلاً ثم قالت: «أني شايفه انو في بعيونك حكي!»، فتمتم: «الحمدلله» لقد سهلت المرأة البارعة مهمته، فأوصل اليها رسالة كنج، الموجزة جداً، الممتلئة بالغرام، والحب، والرغبة فيها، «بدو ياني؟» سألت بغنج، فقال: «أي ستي» وهو يبحث بعينيه، ويرتعش، قالت: «موافقة!» فأدخل رقبته في جسده، وقال: «كون معي يا رب!» «لكن فيدي غالي» أضافت وهي ترمقه.

«قولي! من شان الله!» رجاها، فتبدلت سحنتها، واكتسى وجهها بالسواد، وصارت شفتها السفلى ترتجف ببطء، وقالت، وهي تكاد تختنق، بصوت ملأته الدموع، فيما برقت عيناها كعيني بومة: «إذا فيه يرجع سعيد حي»، فلم ينطق بكلمة، وهمس لها بعد قليل قائلاً: «ثمن القماش مدفوع!» فمطت شفتيها بلااهتمام.

ودّع الخرائب، ومضى، ينوء بحمله الثقيل من حديد الكلمات الذي ارتدى أرجوان الحب حائراً في تفهم حالة العاشقين اللذين حولهما البعد إلى شيطانين: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ضرب كفاً بكف، لاعناً البضاعة التي لم تفد إلا ملك الموت.

عجل بالرحيل. ولأنه صار يعرف كنج جيداً، فقد قرر أن يذهب شمالاً بدلاً من التوجه إلى الغرب، مغامراً بالوقوع مرة ثانية في يد الكسّارة. لكنه لم يستطع المشي أكثر من نصف ساعة، جلس بعدها في ظلال الصخور، وبدأ يبكي، وقد غلبه الضعف الذي كبله في لعبة لم يعد يدري إن كانت من تدبير القدر، أم من صنع كنج، وشيطانه الاكبر، ضامن العسّال.

منظر اللجاة الرهيب، والطرق الخفية المحجوبة، والقامات العالية لأنصاب

الطبيعة الخارقة، من الصخور الخضراء المعبأة بالطحلب، خلخل تفكيره تماماً. وفي الساعة التي أمضاها داخل حيرته وتساؤلاته، كان عقله يصارع الاثم، ورغبته في الحياة، تقاتل تبكيت الضمير «من الذي يعلم أسرار ما حدث؟» «لا أحد» ولا أحد خطر عليه، وهو لم يكن على أية حال أكثر من حامل رسائل، ومسدّد ثمن رأس رجل، ضيعته رغبات عاهرة «لولا جراده ما علق عصفور» تذكر الحكاية القديمة التي رواها أمامه ذات يوم، كرم الطويل. راح يضحك.

هذا الضحك خفف حدة آلامه حالاً، ثم بخرها. فراح يلعن الجميع بلا حساب أيضاً، قائلاً لنفسه: «بطيخ يكسّر بعضه» وابتهل إلى الله أن ينجيه من الساعات المقبله (بينما استدار عائداً إلى المنارة) وبعد ذلك سينذر ذبيحة لأول ولي يصادفه.

لكن الرسالة التي أوصلها إلى كنج الحمدان، كانت مزورة تماماً قال إن صباح صارت مجرد كتلة من الخوف والذعر بسبب وحيد اسمه: صايل الفضل، هذا كاف كما فكر

«الآن بدأت أطراف حسّان ترتعش، سرت نوبة الذكرى في دمه، عابرة إلى رأسه حيث انتفخت الشرايين، وشعر بالحمى لأنه لم يعرف في ذلك اليوم بالضبط ما السبب الذي دعا ثنيه لمعاقبة صباح. فقد راحت تضربها بكل قوتها حتى أدمت وجهها، ورضت جسدها، بينما كانت المرأة صامتة تتلقى العقاب بصبر جعل جميع الموجودين في صفها. لكنها لم تطلب النجدة، ورفضت تدخل أي واحد فيهم قائلة إن ثنيه وحدها تعرف ماذا تفعل.

فعلى الرغم من أن الضرب بدا لغزاً من الغاز أم الجرابيع، فإنَّ ثنيه كانت قد رأت، وسمعت نتفاً من حديث أبي معروف، وصباح، كافية لتفهم كل شيء.

لم تسمح لأي منهم أن يبدي احتجاجاً، وكانت قسوتها تزداد كلما أبدت صباح عجزاً أكثر، وضعفاً واستسلاماً وقبولاً أشد.

وفي النهاية بدا كأن الضحية هي التي انتصرت، سقطت كلتاهما، ثنيه مثخنة بيقينها المسموم القاتل، وصباح القوية الصامدة تجاه الجروح التي لم تصب سوى قشرة جلدها.

لقد نما في أعماقها محيط من التحديات، والايمان بقرب نهاية أحزانها. ولكن كيف؟ أين؟ متى؟»

وصار ذلك اليوم نذير شؤم في حياة ثنيه، فقد أصيبت بعدهُ بداء الشك، وبدت مستنفره طوال الوقت. تستيقظ فجراً. أو ترفض النوم في المساء، قبل أن تتأكد من نوم الجميع، أعادت مناوبة الخرابة إلى ما كانت عليه قبل خمس سنوات، وأرغمت صايل أن يقسم أمام اخوته بأنه لن يهجر أم الجرابيع مثلما كان يفعل من قبل، وأن ينجب من صباح! فحلف بلا تردد، مستجيباً لرغبة الأخت الكبيرة التي بدت هالكة مذعورة من مجهول، مخيف، ترفض أن تعلن عنه.

وقد وفى بقسمه، فلم يغادر أم الجرابيع بعد ذلك، إلا لبضعة أيام للغزو، أو الذهاب إلى الشام للشراء. ولكن بطن صباح ظل مشدوداً فارغاً، وصايل يقول بأنه يفعل ذلك الشيء كلَّ يوم.

ولكن وساوس ثنيه لم تنته، فبعد أيام من رحيل أبي معروف، أعلنت أنها لن تنام في الليل بعد ذلك. ولم يستطع اخوتها اقناعها بغير ذلك. رغم التوسلات، والتطوع بالقيام بحراسة المكان، نفذت قرارها بالكامل، بحماس غامض لم يتبدل.

العجيب أن مزاجها كله تبدل عندما استطاعت النجاح في مشروعها المجنون: «الحمدلله» صارت تعلق على اسئلة اخوتها عن حالها، وبدا كأنَّ اليقظة المستمرة، خففت كآبتها، وأساها.

طوال الليل، كانت تجوس أرجاء المنازل الراقدة، وهي تغني في البداية، لم تكن تفعل شيئاً سوى المراقبة، ورصد التحركات الغريبة، والاستفسار ممن تراه

مستيقظاً، أو قلقاً، عن السبب، ثم أخذت تملأ لياليها بأشغال تخترعها كل يوم: هكذا قلبت ليلها نهاراً، وصارت تنجز في السهرات جميع الأعمال التي يتطلب القيام بها البقاء في الخارج.

أعادت إصلاح الجزء الجنوبي من سور الخرائب الذي هدمته قنابل الفرنسيين، يساعدها صالح الذي اضطرته للسهر، رغم أتعاب النهار، ثم غربلت ثلاثين مداً من القمح، وسلقتها، وفحصت مداخل الخرائب واحدة واحدة، ثم بدأت تراقب الحراس المناوبين، وتأمرهم بتفتيش المكان كل فترة. وفي النهار كانت تنام، بعد أن تطلب من إحدى اخواتها مراقبة المنازل دون أن تشرح لأي واحدة منهن سبب كل هذا.

«أنت ما كنت تشوف!» قالت لحسان. لكن الحقيقة أن ما لم يره كامل إنما كان الوجه الحقيقي للأحداث المخبوله حوله. ومن مكانه هنا، من زمانه الجديد، يحاول أن يمسك شيئاً من معاني الحياة التي عاشتها.

لقد خدعه استسلام ثنيه للطمأنينة والأمان، بعد اكتشافها النهج المبتكر الذي ضمن لها السيطرة على الخرائب. وزادت مصاعب صايل مع صباح. وشجارهما العلني المتكرر بعد ذلك، في إخفاء الاسباب السرية لما تقوم به، حين ظنوا أن عذاب ثنيه، كان سببه أنها حملت نفسها وزر زواج فاشل.

وقد تواطأت معهم حين وثقت بنفسها، وبقدرتها على الاحساس بالأخطار المقبلة قبل وقوعها، وتلافيها، واقتفاء آثار المتآمرين حتى في الأوكار الملعونة الكهفية لرؤوسهم. فلِمَ تشغل اخوتها بنزوات امرأة داعرة؟ ولم تعذبهم بأفكار ومؤامرات لم تُنفَّذ؟!

هذه هي ثقتها! ولم تتوان أبداً في تنفيذ النظام الذي ألزمت نفسها به، بانضباط كامل لا تهاون فيه.

تلك الأيام رسم هايل صورة لها، رسمها بالرصاص وحده وفيها بدت ثنيه

مثل ملاك حارس، فيما ظهرت خرائب اللجاة برمتها في المساحات الشاسعة لقاع اللوحة، هادئة، نحت الجناح الباذخ للمرأة المعظمة «تقبرني!» قالت وهي تقبله في عنقه، مثل عادتها الأبدية. فرسمها مرة ثانية، واقفة وراء أطفال أم الجرابيع، وقد انبثق من الأفق البعيد ضوء خفي.

فيما بعد صار خيال ثُنيه يدخل جميع رسومه. أضحت مثل شعيرة أسطورية حارسة، وقد اكتشف أن ما فعله في غربته، ما كان سوى تخريب فظ لروح وطنية ممجدة، حين ألغى، كالحمار، هذا الخيال المهيمن الجبار!

كامل، الذي أوكل اليها شؤون الخربة، وارتاح إلى تلك الخصائص السحرية التي ظهرت بها دائماً، كامرأة فداء، وأم حارسة، وقائدة أحسنت اختيار الدروب الآمنة لآله الهاربين، لم يخلُ من الشك الذي دوَّم كالطير في فضاء حياته.

لكن حساباته ذهبت في اتجاه آخر. ما خطر كنج بباله قط، وافترض أن غضباً بمستوى غضب ثنيه على صباح، لايمكن أن يتسبب به سوى ظنون خبيثة بعلاقة محرمة، تحدث أو قد تحدث في الدار بين أحد الرجال، وبين صباح.

ولكن، حتى هذه الفكرة، سرعان ما تبخرت، وانمحت حين ظهرت صباح عصر ذات يوم، تمشي في الشمس، شديدة الرقة، ناعمة، تتهادى بلطف، وتحدٍ، وشموخ، أمام جميع آل الفضل، كأنما هي قادمة من بلاد أخرى! لام نفسه بسببِ الظنون التي اعتبرها خبثاً خلقته العزلة والحصار. وراح يتأمل مشيتها الرهوانية، وضمورها، وانسياب اجزاء جسدها وانسجامها. حسد صايل قليلاً، حسداً أبوياً محضاً، وهو يتخيل سعاداته الليلية ببراءة.

عند ذلك نسي كل شيء، وربما أعفى نفسه من التفكير في كارثة محتملة، ملقياً همَّ ذلك على كتف ثنيه وحدها، خاصة أن تفاصيل زيارة أبي معروف لم يعلم بها جيداً.

«ما الذي كان سيحدث لهذا الكون، لو أثارت تلك المشاجرات انتباهه؟ لماذا

لم يكن خبيثاً كي يفسر الشكوك والظنون في زمن داعر مليء بالضغائن، تفسيراً صحيحاً؟ هل كان سيعيش أكثر، أم أن الاقدار الربانية رسمت مصيره، ونهايته، في ألواحها السرمديه، كما حدث؟!

شعر بلهيب يحرق حلقه، وراح يتأمل من خلف دموع الحنق، ثنيه وهي تعضُ طرف فوطتها السميكة، واجمة، مكروبة، ممتلئة بأسى السنين الطويلة التي أمضتها وحيده، معزولة، في خرائب أم الجرابيع تنتظر مجيء الذين لم يأتوا!»

تلك الايام لم تجسر على البوح بأسرارها لاخوتها، وظلت حقيقة ما حدث سراً، وكلما تباعدت الايام ازدادت إحساساً بوحدتها وعجزها. وصارت تهمس لصالح بأن ما تحمله يهدُّ الجبال، وقد كفت عن سهراتها الليلية بعد سنة، حين لم تبد صباح أي تصرفات غريبة، ولم تبدل من مسلكها تجاه صايل، وبقيت حرونة، صعبة، غامضة كصخرة.

قبلت ثنيه لعبة الانتظار، لكن تفكيرها كان يمضي في طريق أخرى غير الطريق التي رسمتها صباح. فبينما انتظرت هذه رد كنج، آمنت ثنيه بأن الرقابة الصارمة، والقسوة، وحدهما، القادران على كبح جماح المرأة الشرسة.

لهذا لم تتوقف طوال الوقت عن الشجار مع صباح. وفي كل مرة كانت تضربها، فتكف صباح حالاً عن الاستمرار في المناكفة خشية أن تدفعها المشاعر العنيفة إلى الكشف عن أسرار المعاهدة المرسلة عبر بغّالِ أقمشة جوّال.

وبسبب هذا، فإن صايل، ما لبث أن انضم إلى صف صباح، لقد انهكه ذلك الاقتتال الظالم. ولم يجد له تفسيراً، حين حاول ترجمة مجرياته. فلا معنى لخضوع صباح مطلقاً، إذ أن امرأة جبارة مثلها (وقد اختبرها منذ اللقاء الأول) لا يمكن تطويعها بكل هذا اليسر. فلماذا ترضخ لعقاب ثنيه الحاقد؟ وماذا تريدُ الأخت الكبيرة منها؟!

بعض المرات فسر الامر على أنه نوع من التعاطف معه، ولكنه استغرب أن

تظل أخته طافحة بالكراهية هكذا، بينما تأقلم هو مع وضعه، وارتاح اليه.

ومع ذلك فإن اسئلته كانت خالية من كل ظنٍ آثم، ولم يكن من المؤمنين بأنَّ النساء قادرات على الدفاع عن الأخلاق المهانة، أو الشرف المثلوم، وقد حاول التدخل مرة واحدة، ولكن الكلمات التي سمعها، جعلته، يحرِّم إلى الأبد الدخول في معركة بين امرأتين:

«بطلت تروح عَ الغزو يا بو نواف، وصرت تناكد النسوان!» قالت له ثنيه.

«تمنيت الموت هذاك اليوم» رددت فيما بعد، لأنها هزمت صايل الذي صفع نفسه على الوجه، بكفه الثقيله، حين سمع ما قالت، ونظر إلى صباح التي طيرت نحوه ظل ابتسامة غريبة، وقامت من مكانها، نحو قهوته، صبت له فنجانين، ثمَّ قدمت لثنيه فنجاناً شربته، وقالت: «دايمه» بلهجة خفيفة مشوبة برضى مصطنع، اضطرت اليه، بعد الطعنة التي وجهتها إلى أخيها: «إن شاالله بموت!» ظلت تقول، أمام إخوتها، وزوجها طوال ذلك النهار الفظيع، وهي تبحث عن علاجٍ لحروق الكلمات، ولكن، دون فائدة:

لقد كوَتْ دمَّ صايل، كياً لن يشفى منه أبداً، وحين يفكر أنها هي التي اقتفت آثاره في جبل لبنان، وأعادته إلى هنا كي تُسمعِهُ مرارة كلماتها، يصاب بالجنون، ما الذي أرادته منه؟ وهل تنتقم منه، ومن صباحٍ، بسبب اللحظة الآثمة التي سرقتهما ذات يوم؟ كيف يمكن لامرأة أن تصمت كلَّ هذا الصمت، وتثور كل هذه الثوره، بسبب فاحشة نسجتها الرغبة المجنونة ذات مساء؟! هل انقلبت موازين الكون؟ حتى يسكت الرجل، وتنهض المرأة كالجنيه؟

تساؤلاته الممسوسة، لم تفده بشيء، فقد ازدادت اخته تكتماً وغموضاً، وكلما أمعنت في عدائها لصباح، كانت هذه تزداد شموخاً، ورفعة، حتى انحاز معظم قاطني الخراب إلى صفها، ولكن مؤازرتهم ظلت في حدود القلب، وايمانهم بالرحمة، والعدالة، وقسوة الحكم الغاشم الذي ينفذ في المرأة المسكينة، ما تجاوز حافة الشفتين أبداً.

وفي احدى الليالي، بينما كانت تجوس الديار الراقده، تناهى إلى سمعها الرهيف، وقع حوافر خيل، وسط الممرات الجنوبيه، فعادت ركضاً، ثم حملت بندقيتين، وانطلقت نحو الطريق القادمة إلى أم الجرابيع.

كان وجود الخياله في الوعر عادياً، وقد اعتادوا دائماً ملاحظة المارين من بين تيجان الصخور.

لم تعرف ثنيه ماذا حدث ولكنها فوجئت قبل أن تجهز نفسها، وتنبئ اخوتها، بأن الرجال قد حاصروها من جميع الجهات، كانوا ملثمين، صامتين، مشاة. خرجوا فجأة من قلب الصخور الغامضة، بلا صوت «كامل!» كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي استطاعت نطقها، قبل أن يخرطش أحدهم بندقيته. ولأن صوتها اختلط بطقطقة الرصاص، فلم يعرفوا أنها أنثى، إلا عندما وصلت من الممرات ثلة من الفرسان الذين بدوا مهتمين بمعرفة المسلح الذي يتربص بهم داخل الوعر يقودهم ربان جهم، ممتلئ باللحم، والقوة. سمعته يسأل بصوت جهوري من خلف لثامه: «عرفتوه؟»

«لا!» أجاب أحد المسلحين الخمسة.

«أسألوه!» عندها نهضت ثنيه من مكانها، وقالت بغضب:

«هذه بيوتنا، ما حدا بيسألنا مين نحنا!»

لا بدَّ أن الرجل فكر قليلاً، كأنما سمع جوابها متأخراً، فالتفت نحو رجاله، ثم نظر اليها في جنح الظلمة القمرية، سمعت همهمات لطيفة، وسط الحشد الواقف، وضحكاً خفيفاً. ولاحظت أن الرجال المسلحين الذين كانوا يحيطون بها، تراجعوا نحو الوعر، واختفت أشباحهم بإشارة ناعمة من يد الرجل، ثم عادوا للظهور مرة ثانية، وقد اعتلوا صهوات جيادهم، يقتادون ثلاثة كلاب مرسونة كالحمير، راحت حين اقتربت من ثنيه تصدر هريراً اعتذارياً، وتتمسح بها.

فربتت على اكتافها وقالت: «معليش!». سمعت في اللحظة ذاتها تقريباً، الصوت الجهوري وهو يردد: «سامحينا يا بنت الأوادم!»

فالتفتت نحوه مشدوهة.

«ما عرفنا ان الخربة فيها ناس» أضاف، وقد بدت لهجته التفسيريه شديدة الرقة، ونغمات صوته عذبه، كفارية، بدون توسلات ولا رياء، هي، ثنيه، لم تسمع مثل هذه اللغة من قبل.

«فيما بعد قالت إن الله أوعز لهذا الرجل أن يمرّ قرب أم الجرابيع، في تلك الليلة المقمرة، كي يرفع عن أبصار آل الفضل الظلمة التي كانت تعمي عيونهم»

أما في لحظات اللقاء، فقد حيرها اختلاط الموقف، بين رؤيتها للجماعة المسلحة الشبيهة بالكسارة. وبين لهجة قائدهم المشبعة بكرب خفي، وأسى (لن تعرف سببهما أبداً) وقوة!

وحين استداروا بخيولهم خارج الممرات، متابعين طريقهم نحو المجهول، صرخت بحماس: «جيرة الله بتعشوا عندنا!»

ذهلوا، وأدركت ثنيه أنها أيقظت شيئاً ما، غامضاً فيهم كي يتوقفوا لاختبار سر امرأة تدعو للعشاء، وتحرس الخرائب، وتحملُ بندقية.

واقترب الرجل الكبير منها ببطء، بدا مضاء حين سطع نور القمر على وجهه ذا ملامح قوية، صارمة، تشوبها مسحة من الشحوب، لم تدر إن كانت بسبب الضوء، أم بسبب المرض، شعرت بارتجافة مربكة، وما عرفت كيف تتصرف: هل تتراجع؟ أم تبقى في مكانها بانتظار ما سيقول.

أخيراً خطت خطوة واحدة إلى الوراء، اصطدمت بصخرة، فأمسكت بها، وضغطت على أصابعها بقوة، حين لاحظت أنها صارت ترتعش.

وقف أمامها، واتكأ على سرج حصانه، وقال (لن تنسي نغمة صوته) «مبارك بيتك يا أخت الرجال! هذا شرف لنا. لكن اسمحي لنا، وقتنا قصير»

توقفت قليلاً عن الكلام، ثم هز رأسه وأكمل «لكن إن شاء الله، أيامنا طويلة» ثم استدار ومضى.

بعد نصف ساعة، أقسم كامل أنه إن كان هناك شخص في العالم اسمه بهاء الدين، فسوف يكون هذا هو.

سوى أنها لم تصدق، وعند الفجر تمشت في ممرات الغزلان. حاولت عبثاً، اقتفاء آثار الفرسان الذين عبروا في ليلها العظيم، لكنَّ أمطاراً ربيعية غزيرة، محت كلَّ شيء، لم ترَ سوى التراب الموحل، والصخور البهية المتوجة بالطحالب الخضراء. فظنت أن ما رأته كان أوهاماً وتخيلات. ولكن إذا ما بحثت قليلاً في زوايا الصخور فإنها ستجد أن الممرات كانت تعبق برائحة الفرسان، والخيل المتعبة.

أجل، ما كان الرجال الليليون أشباحاً، ولا عفاريت، وما يزال عقلها سليماً. وما ظنته خيالاً كان حقيقة. ولكن أين مضوا يا رب؟! وقعدت في مكانها، وراحت تستعيد لحظة اللقاء ثانية، لحظة بعد لحظة: انبثاق الرجال. طقطقة الأسلحة المدربة، والصوت الجبلي الممجد.

ارتعشت على هامش الكلمات البارعة، وقالت: «يا رب!» ماذا حدث لها كي يكتسحها هذا السيلُ الجارف من الحنين إلى غريب عابر نطق بضع جمل لطيفة؟!

حتى أنها لا تذكر ملامحه، ولم تعرف لون بشرته الحقيقي، أو شكل وجهه، وكل مابقي منه، هو لهفة، وطريقة عجيبة في نطق الكلمات، المعدة لتكون رسالة تواسي الناس.

«الأيام طويلة!!» رددت كلماته «يلعن الأيام الطويلة يا غريب!» قالت لنفسها، فحياتها لا تشتكي سوى ذلك المرض الرهيب.

الآن، وقد زادت على الثلاثين من العمر، تجد نفسها ذاهلة كبنت، ملهوفة وضعيفة، وقد تخلت عن جبروتها، وشموخها حين اكتشفت، أنهما، ما كانا

سوى قشرة حمقاء لجأت اليهما كي تراوغ الآخرين عن حقيقتها الواهنة، وروحها الضعيفة المشبعة بالرقة!

ما الذي جاء يفعله؟! فضل الله قال إنه ربما كان يريد كسبَ الرجال إلى جانبه، في حربه ضد الفرنسين! ولكنَّ خطواته كانت تتجه إلى المنارة. إلى معقل الشر المسمى: كنج الحمدان! فهل أضاع الاتجاه؟!

واذا كان الرجال قد رغبوا في اللحاق به في الليل، فإنَّ خوف النساء اللعين منعهم. لم صرختن هكذا؟ كادت تزعق بأخواتها اللواتي رفضن السماح بمغامرة الرجال ضد مسلحين مجهولين يجوبون الوعر، دون أن يعلمن أنهن تركنها سجينة تفكيرها في الحضور النبوي للرجل الليلي!

الغريب، بعد ذلك، أنها نسيت أمر صباح! هل غفرت لها غرامها؟ أم أن ذلك ما خطر ببالها قط؟ لأنها أهملتها في لجة الحياة التي انكشفت الآن عن شطآن شاسعة، وأعماق لاحدَّ لها. حتى أن صباح نفسها فقدت حماسها، واندفاعها لمراقبة الطرق القادمة إلى أم الجرابيع، وراحت ترصد ثنيه وهي تتساءل: ماذا حدث؟ لماذا تخلت عن دور الجلاد بكل هذا اليسر، وهذه السهولة، إذا لم تكن تخبىء مكيدة؟!

لا أحد استطاع أن يقدم لأية واحدة فيهما، دليلاً للطمأنينة. وكل منهما تعلمُ أن مصيرها كله، صار معلقاً كخيط العنكبوت، في لعنة قاتلة اسمها الغامض هو: الهوى!

آل الفضل الذين اعتادوا، في الخرائب، جولات ثنيه، وطبعها الموسوس، وفحشها في شتمهم، وشغفها المسرف بهم. لم يكتموا تساؤلاتهم حول صمتها. وذهولها المفاجئين. وسوف تكثر التكهنات وتزداد الظنون المعذِّبة. ولكن بلاجدوى، فثنيه التي اعتادت الجهر بانشغالاتها أمام أهلها طوال العمر، كتمت بالقدرة نفسها جواها الأخرق الجديد، وأخذت تتبعُ عبر الاحاديث الملتوية أو الصريحة مسار التحركات البعيدة لبهاء الدين الغامض.

بعد شهر أو أكثر صار اندفاع الحملات المتجهة نحو الشرق، يرعبها، وقد رأت بنفسها، في فترات متقاربة، كتيبة أو اثنتين تتحركان عبر الطريق الجديدة التي شقت خرائط الوعر.

وفي تلك الليلة، أقلقها حلم امتلأ بالكتل والسطوح والأشكال الهندسية، والدوائر، دون أن تفهم منه شيئاً. كان ثمة مربعات ومثلثات وسطوح تنتهي فجأة، تاركة إياها تهوي إلى خواء.

تلك الايام أخذ صالح يبدي حنقاً تجاه اهمالها له، وبرودها، وضعف شخصيتها. ورغم أن صراحته احتاجت زمناً كي تُعْلَن. فإنَّ ثنيه لم تستطع رغم حماسها الضميري الصادق، أن تعيد لنفسها حرارة الأيام السالفة. وهي تعرف أن صالح على حق. ولكن ماذا حدث لها؟ وأين يمكن أن تجد جواباً لاسئلة العذاب التي تثقل عقلها؟!

حين اكتشفت المكان، احتاجت إلى دهاء الثعالب كي تقنع اخوتها بضرورة ذهابها إلى المنارة، لتسمع بنفسها ما يقوله نجمها في كتاب «كشف الظنون». ولأن صالح لم يكن قادراً على الاعتراض، وربما وافقه ذلك، فقد قبل الآخرون بفكرتها، بعد أن عرض الشيخ شمس الدين عليهم مرافقتها.

* * *

هناك، بدأت تنتحب، حين طفحت في أنفها رائحة المنارة، كانا يسيران راكبين على حمارين، وسط الشارع الشمالي، بعد العشاء في الساعة التي تعجز العيون فيها عن رؤية الناس، ومعرفتهم، في الظلام. اجتازا الساحة، ثم مرا قرب دار الفضل، فقالت له: «استنى!» وقفا ساكنين، كانت هناك صرخات أطفال، وشتائم امرأة، ورائحة مجدرة طازجة، تأتي من الغرف الداخلية، وحين بدرت من ثنيه حركة تنم عن الرغبة في النزول، هزَّ الشيخ عصاه، وقال:

«إن نزلت عن الحمار، كسرت رجلك!»

فهمست: «طيب!» ثم هتفت برجاء «بحياة الله، امشي معي!»

هكذا قادت الرجل، عبر الطرق، شارعاً شارعاً، لتلتف حول الدار القديمة، وأزقة الحارة التي لم ترها منذ سنين، وهي صامتة، عابسة لا تتكلم، ثم قالت، بعد أن تنهدت، وعبت من هواء المنارة ملء رئتيها «نعود؟!»، فحدق فيها وقال: «وكشف الظنون!»

فشهقت، وقالت: «العمى!» آسفةً، آسيانةً، لأن رائحة المكان كادت تفسد ذاكرتها، وهدف رحلتها، واعتقدت لوهلة أن نسيانها السريع هذا، نذير شؤم، وتطيرت من السكون العجيب الذي يلفُ البلدة، والكون، لم يلتقيا بأي ابن آدم في الشارع وعندما وصلا إلى بيت الشيخ، لم يجدا أحداً عنده، على غير عادته، فتساءلت عما حدث كي يصبح الناس أقل بحثاً عن تحقق الأحلام، وسؤالاً عن الأسرار، فقال الشيخ، إن الأسرار نفسها أضحت بعيدة، وأن كتاب الشيخ ابراهيم غدا مغلقاً بسبب الفساد الذي عمَّ الناسَ «شوفي!» قال لها وهو يتباطأ قليلاً في المشي قربها، «كل واحد هون صار يسابق الثاني في كسب رضا كنج، وكل واحد بدو يخدم الفرنساويه، وحتى أبو معروف صار يمون الجيش، والجزار صديق السرجان، بتعرفي ليش؟!»

ارتجفت من رأسها إلى قدميها، وكادت تهوي على الأرض، حين غامت دنياها، وتلاشت في المعرفة البغيضة، للجواب عن سؤال الشيخ «أعرف» كادت تصرخ فيه، شارحة له، تفاصيل تلك المؤامرة الدنيئة التي كانت تعدو وراء ظهورهم في الخرائب.

«هذا هو الثمن يا شيخنا!» كانت ترغبُ في أن تقول له، لكن نباح الكلب منعها، توقفت، وقالت للشيخ شمس الدين راجية «منشان الله يا بو جميل، لا تدخل معي»

بثقته المجيدة بنفسه، التي كانت تعرفها ثنيه قال: «مثل ما بدكْ» كان يعلم أن لدى النساء دوماً، قلباً راغباً في إخفاء أسرارهن عمن لا يرين فيه رباناً، وهي الحقيقة التي يؤمن بها. رغم خبرته الضئيلة بهن (وربما بسببها) وقلة عشرته لهن.

كان منزل الشيخ في الطرف الغربي من المنارة، وقد وسَّعه بضع مرات، لاستيعاب الزائرين، والحجاج الذين ازداد عددهم، مع وصول كتاب الكشف اليه.

ورغم أنَّ الشيخ ابراهيم كان جزءاً من المنارة، فإنه لم يكن جزءاً من تاريخها. ففي الليلة التي قرأ فيها لثنيه فصلاً من كشف الظنون. وبضع صفحات من الجفر، كان كنج الحمدان يجتمع بوجوه المنارة، وكبار رجالها ليخبرهم أنَّ بهاء الدين، يحوم في أطراف اللجاة الشرقيه، وأنه اخترق الوعر مرة واحدة، وزار أم الجرابيع، وأن صديقه الكابيتان، يريدُ أن يري المنارة، نظيفة، لا وجود فيها لواحد ممن يتعاونون مع بهاء الدين الذي يريدُ خراب الدولة.

هذا هو السبب الذي جعل ثنيه تجفل، حين سمعت، درزه قصيرة من رصاص بندقيه شمالَ المنارة. لقد عرفوا بوجودهما، وأطلقوا الرصاص على رجلين كانا يمران هناك. هذا ما عرفته، أما في تلك اللحظة، فقد بدا أنَّ الكتاب العظيم القادر على اختراق حواجز العقول، صار عاجزاً عن معرفة أحداث الحاضر، وأخذت يدا الشيخ ترتعشان وامتلأت لحيته الشائبة، بارتعاش شفتيه، وراح يردد:

«لا حول ولا قوة إلا بالله» ظاناً أن مرابعي كنج، يأتون إلى بيته.

لن تلتقي ثنيه بالشيخ ابراهيم بعد ذلك أبداً، وهي لذلك لن تستطيع ملامته، بسبب طلبه اليهما أن يرحلا حالاً، وقبل أن ينطق أحدهما، كان قد ترك الغرفة، واختفى وسط داره الشاسعه، ولم يعد يصدر من المكان أي صوت، أو أي ضوء، فقالت ثنيه:

«يا الله! قديش في شر بالدنيا!»

فأوضح شمس الدين قائلاً: «لا، هذا الخوف بس» عاندت حجته بعزم، إذ كانت مذهولة لا تصدق أنه صار بوسع إنسان في الجبل أن يقول لضيفه: «روح من هون!» وأين يحدثُ ذلك؟ في منزل الشيخ ابراهيم نفسه! وراء كتاب الكشف الذي

صارت تحس أنه صار بحوزة رجل لا يجدر به أن يحمله. فراح شمس الدين يوضح لها أن الرجلَ كان خائفاً، وأنها تركت المنارة من زمن بعيد حتى صارت لا تعرف ماذا حدث هنا.

ماذا يمكن أن يحدث فعلاً؟ قيامة جديدة؟ وهل يعفي الله أم الجرابيع من اليوم الآخر؟.

غَضِبَ شمس الدين وقال: «استغفري الله يا حرمة!» فطأطأت رأسها وتمتمت: «استغفر الله!.. ما قصدت يا بو جميل»

لكن دهشة ثنيه تلاشت، وحل محلها رعبٌ مهلك حين داهمهما في زقاق حسن الضيق الذي اضطرا لعبوره، شبحُ رجل مسلح يسدُّ الطريق، غمغم الشيخ بغيظ: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ذلك الرجل الشمعي الضئيل الذي وجد نفسه محاصراً، تحتمي به امرأة، لم يتردد هذه المرة، لحظة واحدة.

نزل عن الأتان، وخلع عباءته، فبانت تحتها في الليل عدة حرب غريبة، طارئة. وبدل الآيات، والكتب، استل سيفاً قصيراً شبيهاً بأوتاد الخيام، وتقدم نحو الرجل.

فاجأت الحركة الخفيفة المهاجم، وحار في الظلمة، وراح ينظر إلى ذلك الرجل الشبحي الذي يتقدم نحوه. توقفا، قريبين، وقال الرجل الغريب: «هات سكينك يا شيخ أحسن ما يجرحك!» فابتلع شمس الدين الاهانة، وظل واقفاً بلاحراك، إلى أن اقتربَ ذاك منه، وصار بمواجهته. عندها سمعت ثنيه طلقة رصاص، صرخت وركضت في الزقاق نحو الشيخ، لترى هناك المشهد العجيب الذي لن تنساه: شمس الدين يحتمي بالجدار، وقد ألقى سيفه فوق عنق الرجل الكبير الذي كان ينظر اليه، مذهولاً من فكرة الموت المحدق الذي داهمه دون تفكير، فالحركة الخفيفة الشبيهة بحركة قط، سلبت منه عقله، ولكن السلاح الجارح

الذي حزَّ لحم رقبته، أعاد اليه ذلك الجزء المذعور الخائف الذي حوله إلى أرنب «دخيلك!» قال بلهجة المرابع الذليل.

أعاد الشيخ سيفه إلى غمده، وقال: «قوم!» فنهض الرجلُ، وراح ينظر إلى قاهره. حتى إذا دقق في ملامحه، ولاحظ تفاهته. راح يضربُ رأسه بالحجارة، حتى أدماه، وهو يخور كالثور، ثم مضى هارباً. فصاح شمس الدين: «قول لكنج إني وراه مثل القضا!»

لكنه ما إن اختفى، حتى قال لثنيه بخرع: «استعجلي ياأم قاسم!» كانت تبتهل إلى الله، فالتفتت نحوه، وسارت وراءه من بعد، مستغربة من هذا الذي يظهر كلَّ هذا الخوف، بينما كان قبل دقائق فقط شبيهاً بذئب.

* * *

وفي الدار أقسمت ثنيه أن ابراهيم هو الذي وشى بهما، فقد اختفى أكثر من مرة، ولا بدَّ أنه بعث إلى كنج من يخبره، فيما أخذ شمس الدين يقول وهي تلعنه: «إن بعضَ الظن إثم»

ولكن آلها استجابوا لكلامها. لقد حقدوا على الشيخ الذي يدعى الايمان. ويتلاشى أمام عبيد الله. صرخ نايل: «رايح اقتله ولو في آخر يوم من عمري» وقال صالح، وهو شبه ساه، لا مفكر، إنَّ كنج هو أصل الشرور. وأنه وحده ملأ المناره، بظلمه، وفجوره وفسق رجاله، وسمح لسمره أن تشتغل ما تريد، وأعطى دار آل الفضل لحامد الحمار، من أجل زوجته. فصرخ نايل: «خلص يا بو قاسم»

قال: «بس كلامي صحيح»

فرد نايل: «لا! أنت كذاب»

كلاهما هاجم الآخر، لولا أنَّ صايل كان في وسطهما كالقدر، وراح كل منهما يحدق في الآخر بكراهية، كأنما هو يحملها معه منذ مولده.

في غرفتهما، كشفت ثنيه لصالح سبب هياج أخيها، ولكن الرجل رفض

تفهم الدافع الداعر الذي يحرض ُرجلاً مثل نايل عليه، فقامت ثنيه إلى كيس قديم، وأخرجت خرقة ملفوفة منه، ثم فلشتها، وقدمت له فرداً طويلاً، وقالت: «خوذ! هذا فرد محمد الفضل!» بيكفي بدل لَهوَجة نايل؟!». فأحاطها بذراعيه، وراح يعزيها، ويواسيها ويقول «معش زعلان يا أم قاسم» وهي تبكي إلى أن استطاعت أن تنادي نايل، قالت: «تصالحوا!»

فقال صالح «ما كنت عارف يا بو علي!»

ربت على كتفه، وأجاب «صبرك عَ المجانين يا بو قاسم!»

* * *

(٤٥)

بعد يومين وصل فضل الله حاملاً رسالة تحريم كتبها أحد المشايخ الكبار ضد بهاء الدين، كانت ملآى باللعنات لكل من يلحق به، أو يؤويه، أو يتعاون معه، في أي مكان، وزمان. وبدا الشاعر مصاباً بمس وراح يغني بأعلى صوته، قصائد مجنونة.

وفي الليل، حلمت ثنيه أنها صارت تطرش المنزل بالكلس، محاولة طرد لعنة التحريم، ثم جاء فارس أخضر، وراح يراقب قوافل فلاحين، كانوا يسيرون في صحراء فارغة، نحو سراب مشتعل، داخل الافق، قالت إن الفارس بدا مثل حارس، وأن الناس لم يروه، ولكن ثمة طيور ضخمة، حومت هناك، ودارت حول الجميع، في واد مملوء بالماء، قالت: «كان يشبه بهاء الدين».

لكن التحريم، ظل غير مفهوم، وبقي كامل، بضع ساعات يفكر في غرابة الأحداث: رجلٌ يتنقل عبر القفار، والوعر، والجبال، باحثاً عن أنصار يساعدونه ضد المحتل، وشيخٌ، ينطق بلسان الله، والرسل ويلعن وجوده، وثالثٌ، هنا، في المنارة، يرتكب أعظم الفواحش، كي يبدو بطلاً، ورابعٌ يختفي، لا أعرف أين، تاركاً وراءه جنوناً وحزناً، وخامسٌ يلجأ إلى قحبة هارباً من الوحدة، وسادسٌ وسابعٌ وعاشرٌ، يضيعون، كالفئران، في الخرائب، وبلادٌ صامتة، في حاضر غامض عجيب!

عند من يمكنه أن يلتمس فضائل الفهم والمعرفة؟! لاأحد، ولا حتى ثنيه التي لم تستطع في تلك الليلة أن تنام. بينما سألها صالح: «شو بك؟» قالت: «لا تشغل بالك، هذا تعب النهار بس»

لكن رأسها، كانت مخرقة بنصال الذكرى الشغوفة، بخيال ذلك الرجل الذي مرَّ من هنا قبل بضعة أسابيع، واختفى!

كادت الهزيمة، تهرعُ إلى دمهم، لقد أحسوا أنهم صاروا مكشوفين بعد الحرم الذي أُلقي على بهاء الدين، وأيقنوا أن طمأنينتهم كانت كذباً، لولا أن وصل إلى الخرائب، ثلاثة رجال مسلحين يرتدون لباساً كاكياً، ويعتمرون قبعات مدورة. قالوا إنهم من الدرك، ثم جالوا في أم الجرابيع، دون استئذان، سألوا عن شاهين الخليل، فشهق جميع من في الخربة. قالوا إنه متهم باغتيال جنديين، وإن على أهله تسليمه لهم، فأنكروا معرفة مكانة، قال الدرك إنهم لن يغادروا أم الجرابيع بدونه، ثم شتموا سكان أم الجرابيع، مستخدمين قاموساً جديداً مستمداً من قوة السلطة.

بدت صلافة الدرك، لآل الفضل الذين ما اعتادوا بعد تقديس آلة السلطة الناشئة، جرأة حمقاء، لا يقوى عليها سوى اثنين: مجنون أو جبار، وقال لهم كامل، وهو يحدق في وجوههم بعينيه اللتين صارتا كعيني جمل:

«بتروحوا بحد السيف!»

وقبل أن يحاول أحدهم، تلقيم بندقيته، كان كامل، قد أمسك به ورفعه، وطواه تحت ابطه، مثلما يطوي عباءه، شاهراً فرده في صدره، بينما أحاط الباقون من إخوته بالدركيين الآخرين، صار الثلاثة أشباحاً بلا زينات، تماثيل من الجص، وجحظوا في العمالقة المظلمين المخيمين فوقهم، بعيون ضارعة، فيما أفسح الوقت القصير لكامل، فرصة، كي يتأمل لعبة القوة الأبدية لبني البشر. أوجزها، فيا بعد، أمام إخوته قائلاً: «لا تتركوا فرعون يتفرعن» وصار يهزأ اينما كان، من سواد الذل، ولعنة الضعف، التي تلقي بالناس مغمضين، وحيدين، كئيبين، على باب العظمة المتجبرة.

رجال الدرك، الذين بدوا أسوداً قبل ساعات، صاروا في الجزيرة الضائعة وسط اللجاة، شرائط حريرية. وطوال الدقائق التي أُنذروا فيها بمغادرة المكان، بذلوا صفحة من الاعتذار الاحتفالي، والأسف، والتعلق المحموم بجهلهم لسكان المكان.

«تفو!» قال كامل «لو كنا ضعافاً، كانوا يدوسون على رؤوسنا» ولهذا لم يغفر لهم. ولم يتردد في طردهم، وهو شبه أعمى، متجاهلاً قوة الدولة العظمى التي أرسلتهم، جاعلاً من نفسه خصماً لجبروتها، ومجدها العظيم الذي راحت تتباهى به أمام أهله. حتى أنَّ جميع سكان الخربة بدوا مذهولين بالمفاتن الكلامية التي استخدمها، بعنفه، وتعاليه، وهو يدفع الدرك، في ظهورهم، بلا رحمة، خارج دياره.

حين عاد، لم يستطع كتم انفعاله، وعنَّف إخوته الذين أبدوا تراخياً تجاه التهديدات الدركيه، فقال صايل: «رايحين يرجعوا يا بو محمد» فلم يلتفت نحوه، وواصل تحذيره لهم، لكنَّ أخاه لم يكتف، وقال: «إذا ما كنت خايف على نفسك، تذكر الأولاد والنسوان»، ومثلما كان دائماً، وبلا تفكير، رماه بقراب خنجر (حين يتذكر تلك اللحظة، يرتعش، ويضرع إلى الله كي يسامحه، ويمحو خطاياه التي سببها الغضب) ولكن صايل لم يتزحزح، شُجَّ جبينه فوق الحاجب، ونزف دمه دون أن يرف جفنه، وظل يحدق إلى أخيه من كهف محجرية العميقين، حتى هرعت صباح اليه، وراحت تمسح بمحرمتها دمه النازف، وهي تنتحب.

نهض، وغادر المضافة، مثل حمار هرم.

مُذ ذاك لم يكلم أخاه، وكلاهما، كالبغلين، كابرا، وما عاد يأبه كلٌ منهما للآخر، تشاركا البقاء في أم الجرابيع، والمقلع، والحقول بصمت، وسرية، خالقين في الأمكنة فريقين غامضين، منحازين من الموجودين، إلى أحدهما، لكن كامل لم يحد عن موقفه تجاه أعدائه الجدد، وراح يحصِّن قلعته الصغيرة، وهو يعلم أنهم سيأتون، منتظراً كل يوم، سلاماً من صايل، لكي يعدو اليه، ويعانقه، ويقبل شاربيه، وضفائره.

غير أن ذلك لم يحدث، وقد حنث صايل بقسمه القديم وترك الديار مرة اخرى، ذهب إلى الذيب في جبل المسيح، وأوصل نواف لزيارة أخواله. لكنه لم يجد صديقه هناك، فمضى وحيداً في السهل الشاسع المطل على بادية الأمباشي،

هناك رأى فرساً ترعى. بدا له في تلك اللحظة أن نصف عمره ذهب بلا طعم، وأن النصف الآخر منذور لهذه الساعة المجيدة!

كانت الفرس مديده، وقوية كالحجر، عالية وممشوقة وقد علا جسدها لمعان طفيف، أضفى على لونها الارجواني شموخاً قدسياً، بدت نظراتها ممتلئة بالدهاء، وهي ترنو اليه، وبينما كان يحدق فيها، همس لنفسه: «بدفع نص عمري منشان آخذك» كان مستحيلاً أن يسرقها، فإذا كان قد اعتاد الغزو، منذ شبابه، فإن أول ما تعلمه، هو ألا يدوس على قوانينه، فقد كان كل شيء مباحاً سوى سرقة فرس. هكذا سرق خيلاً، وبغالاً، ومالاً، وسجاجيد فارسية ونعاجاً، وبقراً، لكنه لن يستطيع أخذ هذه الانثى الشامخة.

دلوه، في القرية على صاحبها، وهناك تملقه وأبدى اعجابه بها، فراح الرجل النحيف يتأمل قامة محدثه بوجل. فأسرع صايل إلى موضوعه، وقال بلا تردد:

«أني جاي اشتري»

فأجفل الرجل، وارتعد قليلاً، ولم يجب إلا بعد لحظات من التفكير.

«أنت من الفضل؟»

قال صايل «نعم»

«مين منهم؟!»

«صايل!»

«إذا قلت بديش بيعك، بدك تجيب غزو وتاخذ الفرس»

قال صايل «عيب! أني صايل»

فلم يجب الرجل، وقال إنه لا يملك سوى عشرة قراريط من الفرس، والباقي يملكه أربعة رجال آخرين، عدّ أسماءهم.

قال صايل «أشتري حصتك، وإذا بتريد بجبلك جاهه!»

ظل صاحب الفرس يفكر في غائب، هذه اللحظة لم يكن يريدها أبداً وإن كان يخشاها منذ أن اقتنى فرسه تلك، كان يأتي دائماً من يقول: «اشتري!» ولكن صايل الفضل يضيف إلى ذلك تهديده الضمني الذي لن يتراجع عنه «سآخذها» وهو يعلم أن الفرس لم تعد ملكه، إذ لم يكن في كلام صايل أي ظلٍ للتردد أو التراجع. وهو يعرف قوانين اللعبة، وتفاصيلها، وفي التفاصيل، فإنَّ صايل يقول: آخذ، امتلك، ثم يأخذ، وهنا لا يمكنك المناورة، إما أن تبيع، أو إما أن ترفض. وفي كلا الحالين تؤلمك الوقائع، ورغم أن صايل لم يكن تاجراً ولا يريدُ التلاعب بالفرس، في سوق الخيل، كما أيقن الرجل، فإنه ما فتئ يردد، بينه وبين نفسه، ما الذي جاء بهذا الشيطان اليوم؟.

راح يتأمل فرسه المتفتحه في ذلك الصيف، وتمنى في أعماقه لو كان صايل الفضل مجرد تاجر خيول، إذ كان الحوار بينهما سيبدو أكثر مرحاً وبهجة، أما الآن، فلا مفر، وكل ما يستطيع أن يكسبه هو أن يقنع صايل بشراء نصف حصته!

لكن هذا رفض، وقال: «ادفع لك كل ما تطلب!» بدا يائساً، يأس عاشق، فغمغم الرجل، من بين أسنانه: «بعتك!»

صاح صايل: «هات الحجة!»

اسمها «فرحه» وقد ولدت قبل ثلاث سنوات من أم صغيرة السن تنتمي إلى المعنقيات المشهورة ببراعتها في العدو لمسافات هائلة. وبعد ولادتها ببضعة شهور، مات أبوها قهراً، حين امتطاه شاب ضعيف أراد أن يتعلم ركوب الخيل، لم يجرؤ على الامساك بلجامه، بل تشبث بمقدمة السرج، ومؤخرته، ثم راح يزعق، حين عدا الحصانُ به، ويرفس بطنه بمهماز مسنن قاتل. وينادي مدربه. كانت الخيل الاخرى تعدو كالريح من حوله. بينما أخذ الرسن الجلدي الطويل، يشلُ قدرة الحصان على العدو، أو يصفع قدميه، والشاب يستغيث، كلما أحسَّ بتلك الارتجافة الغريبة التي تجتاحُ جلد الجواد الغاضب، وكلما ازداد هلعه، زادت حركاته الهوجاء، وصار يزيد في وخزه بمهمازه، حتى جنَّ الحصان، وراح يحاول

رمي الرجل، لكن الرغبة في الحياة، منحت هذا قوة بقاء عجيبة: أغمض عينيه، والتصق بصهوته مطلقاً شلال صراخ، منتظراً لحظة النجاة، التي أقبلت، حين كبا الحصان وسقط أرضاً، ميتاً، بلا حراك!

أما أم أمها فمن سلالة المعنقيات أيضاً، وقال صاحب الفرس. إنها معنقايه سبيلي، ونسوا أن يكتبوا ذلك في الحجة، وأسمها جوخة. وأبوها من المعنقيات، وأمها غزاله، معنقية من نجد.

لم يصدق صايل نفسه، وهو يستمع إلى الحجة المملوءة بسيرة الاصالة، ولم يخف ذهوله، ولا فرحه، رغم أنه كان بحضرة أكثر من سبعة رجال حضروا البيع، دفع خمس ليرات ذهبيه، ثمناً لكل قيراط من القراريط السبعه. ثم ظل قرب الفرس أربعة أيام يطعمها بيديه، ويكلمها ويمسح عرقها، ويعتني بنومها ليلاً، فيستيقظ، كي يدثرها إذا ما برد الليل والفرس ترنو اليه، وتتابع بعينيها السوداوين حركاته الحبقية، وجولاته الكريمة، ومهارة يديه، ودأبه.

مساء اليوم الخامس، قادها خلف حصانه، فيما كان نواف يتقدمه ومضى غرباً نحو أم الجرابيع، بدا له ذلك كالسحر، لا يصدق، وراح يعدو سريعاً، كأنما يحس أن خطراً ما يتهدده.

عند الضحى، دخل حدود اللجاة الشرقية، وسار أكثر من نصف ساعة، سيراً وئيداً، قبل أن يشعر بالوجود الخفي لرجال يلاحقونه. لم يرَ أحداً، ولكن إحساسه لا يكذبه أبداً، صار يراهم في مخيلته واحداً واحداً، رجال يتحركون كالثعابين، ويطبقون عليه من جميع الجهات توقف قليلاً، وهو يقول لنفسه، بأنهم لن يأخذوه حياً هذه المرة، تذكر طريق المنارة، وقصر اللعنات، اختار طريقاً للنجاة، وقال لنواف «لا توقف إلا في أم الجرابيع روح للغرب، وبعدين روح للجنوب بتشوف الخربة قدامك، لا تطلع وراك أبداً» ثم أعطاه الفرس، وقال: «اتكل على الله!».

ترك ابنه يعدو أمامه، ثم جرى بالخيل خبباً وراءه، لكنه لم يعد يسمع شيئاً،

وخامرته الشكوك فجأة، ذلك أن مطارديه لم يظهروا، فظن أن الحصن البركاني العظيم ضيعهم. وشكر اللجاة في قلبه. إنّه يسير في منزله، بينما يمشون هم في متاهة!

لقد اختفوا، راح يحدث نفسه، وهذا لا تفسير له، صار في ممر الغزلان، قريباً من الديار، فنزل وتسمَّع بأذنه إلى الارض، لم يكن فيها أي أثر لدبيب فرسان، ولا لوقع حوافر الفرس. اقشعر بدنه، وعدا كالمجنون باتجاه الطريق التي وصفها لابنه، هناك رآه محاطاً بخمسة مسلحين، مدججين إلى نخاعهم: «وقف!» صرخ به أحدهم، وهو يصوب اليه بندقيته، لكن صايل الذي اختلّ عقله اخترق الرجل كالعاصفة، واختطفه من فوق حصانه، وحمله بضع خطوات قبل أن يرميه، ويختفي وراء الصخور، مشيعاً بسلسلة صاخبة من طلقات الرصاص، وأزيزه، واصداء اصطدامه بالصخور.

لقد سمعوا كلّ ذلك في الخرائب، وجرى محمد ابن كامل، الذي كان ينصب الفخاخ، وراء الممرات، ليرى ما حدث، ثم راح يصرخ: «وين راحوا!».

وفي الدقائق التي مضت بين انطلاقة، ووصوله، أخذ الرجال الفرس، وتراجعوا خلف الصخور، نحو الشرق.

بعد ربع ساعة أضاعوا سمت اتجاههم، وفي تراجعهم، كانوا ينحرفون يميناً نحو أسوار الخربة التي راح يتأملهم منها، خمسة رجال، مترقبين، تراجعوا وانسحبوا أمامهم، حين رأوا دورانهم المضيِّع.

صايل التقى بكامل عند غدير الصوف، ضحك كل منهما للآخر، وتعانقا، وقال كامل «حي بو نواف!» متيمناً بالبشرى التي نقلها اليه أخوه عن الفرس، ومن هناك لاحقا المطاردين، بينما تسلل صالح وشمس الدين. بلحيتهما الوقرتين، ماشيين، لينبثقا، أمام الفرسان الخمسة، كملاكين، أجفلوا، وخرطشوا بنادقهم، ولكن شمس الدين أشار بيده علامة الأمان، واقترب منهم، ثم توقف، وأخذ نفساً عميقاً وقال:

«إذا طلعتوا حواليكم، بتشوفوا ثمان بواريد مصوبه لصدوركم، والله ما بتلحقوا، ترمشوا».

بدا أنَّ الرجال الخمسة، لم يصدِّقوه، وتبادلوا نظرات حيرة، واستفهام ثمَّ تأملوا الشيخ المعمم المكتسي بلحية رسول

لكنهم ما كانوا لصوصاً، ولا قطاع طرق، فنزلوا عن خيولهم وقالوا: «السلام عليكم!»

كانوا أصحاب الفرس الآخرين، لقد أهدر صايل، حقوقهم حين أخذها دون أن يترك لهم وثيقة شرف، تؤمن لهم نصيبهم منها ومن نسلها، ولهذا اعتذر لهم، واعتذروا هم عن سلوكهم فقال صايل: «أني جاهز لكل طلب»

المعاهدة الجديدة التي عقدوها، نصت أن يأخذ كل واحد فيهم من نسل الفرس ضعف القراريط التي يملكها، كتبوا ذلك في ورقة شرف، ووقعوها جميعاً، أو ختموها. ثم غادروا أم الجرابيع، فجر اليوم التالي.

بعد شهر، بدا عليها أنها تطلب السفاد، فراح كامل يضحك، ويقول لصايل، تحمل! أخذوها إلى البيدر الشمالي، ثم جاؤوا بـ«كحيل» وهو حصان كامل الأسحم، الذي راح يصهل ويحمحم، منذ أن شمَّ رائحة السائل الانثوي الناضج، اندفع جاراً صاحبه خلفه، داخل الحوش بينما استعدت فرحة بطريقة لم يروها قط، استدارت جاعلة وجهها نحو الغرب، ونقلت قدميها قليلاً بحيث أضحت المسافة التي تملكها من الارض، أعظم، ثم سكنت رافعة ذيلها بطهارة، وهي تصدر بقبقة خفية من بطنها، وحين اعتلاها كحيل، استقامت بدل أن تتقوس وصهلت، ساخطة، حين عضها في نهاية الرقبة، وقامت بحركة خرقاء، مكروبة، وهي تتألم، ثم قذفته عن ظهرها، فارتمى قربها ثانية واحدة ونهض بلا إرادة وهو لا يرى.

صاح الرجال جميعاً، وربما فهم الحصان شيئاً ما مختلفاً، لأنه تطلع نحو فرحة بعينين ضارعتين، بينما راحت هي تتطلع نحوه بأسى ولهفة، حتى يتقدم منها رويداً رويداً. نهض بكل قوته، وثبت نفسه هناك، في الأعالي عملاقاً، فاحشاً داعراً، منتظراً يدَ كامل التي أولجت شيئه العظيم في عضو الفرس. انقلب هياج الحصان، وحنقه، حناناً وقوة جنسية خارقة أفرغها في الرحم، فيما كانت عضلاته تتشنج، عضها مرة واحدة فقط، حين انتهى، ثم نزل فخوراً، متلألئاً بالعرق الذكوري المتوهج.

أما فرحة، فقد غامرت بالصهيل، فيما انخرط آل الفضل في قهقة بهية، ثم سجلوا أحداث هذا اليوم في حجتها: «اليوم الثلاثاء ١٣ شوال قمري، شبينا فرحه، وكان شباها من قبل الحصان كحيل!»

في المساء، قال صايل إن المهر الذي ستنجبه فرحه سيكون لنواف إن جاء ذكراً، وسيكون لآل الفضل جميعاً إن كان أنثى، بحيث ينال كل واحد فيهم قيراطاً منها.

شهقت ثنيه جذلى: لقد صاروا في تلك السنة أربعاً وعشرين رجلاً وامرأة وفتى وفتاة!

* * *

(٤٦)

في حزيران، خرج نايل الفضل من دار حامد الحمار في الهزيع الأخير من الليل، صعد إلى سطح الدار، عبر الدرجات الحجرية ثم وقف هناك حيث كان قاسم الفضل يقف قبل سنين، وراح يراقب المدى المظلم المبقع بعشرات القناديل التي تضيء درب حصادي المنارة، الموكلين بأراضي كنج الحمدان.

وفي مكان ما، كانوا يغنون، وحين أرهف سمعه استطاع أن يميز في جزيرة علي، صوت حامد ذاته، رهيفاً وحاداً وهو يغني شروقي سوسنية ناعمة.

في البداية سخر من دهاء المفارقات، فإذا كان هو مبسوطاً فما الذي يُسعدُ حامد؟ لم يجد مغزى لغناء المرابع، ولكنه راح، كلما اشتد الصوت، أو تغيَر النغم، ينقلبُ مزاجه، ويلفه أسى بدأ شفيفاً، ثم تصاعد، وبدد النشوة الفضية التي خرج بها من سرير هيلا. ازداد احساسه باللاجدوى، ها هم عشرات الرجال، يفترشون حقول المنارة، زاحفين، موخوزين بالأشواك، مدقوقين بالحجارة، في فسيفساء العتمة التي تمنح فاسقاً مثله حرية ارتكاب الفحشاء بجميلة المنارة المسماة: هيلا!

أحس بغصة تحرق بلعومه، فلولا كنج اللئيم، لكانت هذه الدار ما تزال لهم، وتلك المرأة المضطجعه هناك هي امرأته، كان عليه اذن أن يبكي، بدل هذا السرور الفاجر، لمن تسعد يا لعين؟!

تدهورت روحه سريعاً، وشعر أن ثقلاً يهبطُ على صدره، ويخنقه، فلعن ذلك المزاج الأرعن الممسوس الذي يحول كل فرح لديه إلى تعاسة. كأنما هو حارس جحيم تقلقه السعادات! انتصب على رأس الجدار، وصرخ في الليل:

«كنج!!» طويلة ومتحدية، بينما هرعت هيلا اليه، وراحت تتوسل «منشان الله! فضحتنا!»، وصارت تهزه، وتحاول كمّ فمه، ومنعه من الصراخ. صمتَ، وراح يتلفت حوله مثل حيوان أسير، وقد امتلأت نظراته اليها بحزن عميق، ثم تمالك نفسه، وراح يضحك ضحكة يائس: «خفت؟» «لا تخافي!» طمأنها «كنت عَ بتذكر بيت الفضل، العمى! كأنهم رحلوا من ألف سَنة وصار لازم نبكي عليهم»

فشهقت خائفة مذعورة.

قال «لا تصرخي مثلي، بيت الفضل بخير، بس أني كنت عَ ببكي عليهم بعد خمسين سنة مثلاً، وين بدهم يصيروا؟»

وأراد أن يحدثها عن صالح، الذي اتهمها، ذات يوم، بأنها تضاجع كنج الحمدان وأن يقول لها أنها امرأة طاهرة، وإن الدنس الذي يلحقه بها حامد، يمكنُ إزالته بالماء وحده، ولكن أكثر الأشياء التي تعذبه هو قناعتها، وإجلالها لما هي فيه، «ولم لا تأتين معي؟!» كم مرة قدَّم لها هذا العرض، وهي ترفضه! لماذا لا تريدين أن أقدِّمك إلى آل الفضل بوصفك امرأتي التي تعشق وتحب رجلاً واحداً فقط؟

أمام الدرجات الحجرية، شعر أنه لن يعود إلى هنا بعد الآن أبداً، إنه غريب، ولكن لا، هم الغرباء هنا، «فكر» وساوره إحساس بأن ما يفعله بهم هو التعبير الحر عن نفسه، وحين قالت هيلا مستسلمة: «ما لنا أمل يا نايل» تقبل أجابتها دون أي شعور بالألم أو المرارة، بروح نُسُكيّة خالصة، خطا نازلاً: «طيب، لكنها لا تتذلل ولا تريق دموعها». غير أنّه حين صار في باحة الدار، تبدل كلياً، فكر في ذلك الرجل الذي يتربع على عرش المنارة، يفعل ما يشاء، يرحِّل من يشاء، ويوطن من يشاء في أي مكان. شعر بالقهر، حين أيقن أن كنج ربما أراد أن يحول دار الفضل إلى وكر دعارة. كيف لم يفكر بهذا من قبل؟ كيف لم يخطر له أن «كنج» أراد أن يقوده إلى العهر، داخل بيته نفسه؟ بينما كان يعتقد أنَّه يسير في طريق الروح! معتبراً نفسه طوال خمسة أعوام عاشقاً أتعبه الهوى وهو ما كان سوى قرد، يتفرجون عليه!

تمنى أن يدفن نفسه في مزبلة، لكنه قبل ذلك سوف يدفن حصافة كنج،

وآلاعيبه كلها. رأى، فجأةً، القمر محمولاً على القمم، في أطراف الجبال الشرقيه، فركض بكل قواه إلى مطبخ هيلا، وحمل تنكة كاز كانت هناك، ثم وقف في الباحة، وقال لهيلا التي كانت تنظر اليه برعب: «طلعي ولادك، وغراضك!»

«شو بدك تساوي يا مجنون!» قالت مذعورة.

فغمغم بلا عاطفة: «بدي احرق الدار»

أرادت أن تصرخ، وتولول، لكنها أدركت أن ذلك لن يزيد إلا في خسارتها، وقفت قربه، وتضرعت اليه، فجذبها نحوه، وعانقها، كانت باردة، رغم العطر الذي يفوح منها، ترتجف كريشة. وأخذ القمر يضيء الآن وجهها وهي تنظر اليه كالغريبة.

رَحَّلا معاً أثاث بيتها القليل، إلى الزقاق، ثم حمل احدى بنتيها بينما حملت هي الأخرى، وحين تأمل تلك الأشياء الرثه، وذلك العمل المجنون سألها: «بدك شي؟»

قالت: «لا» ثم انهارت على الأرض، بينما مضى إلى مهمته الخرافية، غاصاً بحرقة، خنقت مجرى النفس في صدره.

من البناء الشمالي بدأ الحريق، كانت النار في البداية شاحبة مصفرَّة، ثمَّ صارت زمردية، خضراء، مملوءة بألسنة قوسية، واندفاعات وحشية صارخة، فيما انطلقت في المنارة صيحات استغاثة، ونداءات واندفعت جموع رجال راكضة تجري، نحو الحريق.

ومن بين أولئك الفازعين، تسلل نايل راحلاً نحو أم الجرابيع ومن بعيد، بعد نصف ساعة، صار يرى نيران ثأره، وهي تعلو فوق منازل المناره، وترسل إلى السماء لهبها، ودخانها، ولكن صورة النار، أخذت تخف كلما ابتعد، صارت تصفر، تاركة في المدى الليلي ثقباً مضيئاً، هو آخر ما استطاع نايل الفضل أن يذكره من ليلة حبه الأخيرة.

* * *

بعد يومين، جاء حنا البيطار، وقال إن الشيخ ابراهيم قُتل برصاصة في رأسه، في الليلة التي أحرق فيها نايل الفضل، دار جدِّه وقد نهب القاتلُ، كتب الشيخ، وفرَّ دون أثر.

حمَّلوا نايل وزر موته، وطلب كنج من مفرزه الدرك، وسرية الأجانب في قصر المطر أن يقبضوا عليه!

موت ابراهيم، بدا مزيجاً من المفاجأة، والشماتة، فالرجل الذي لم تعرف أسراره أبداً، ترك أسئلة محيرة، وتكهنات، ولعنة من بعض رجال الدين ساءهم دائماً شعوذاته وكتبه السرية.

شاعت أخبار عن علاقات مشبوهة له، مع نساء يأتين للنبوءة، أو كتابة التمائم، وعمالة شائنة، لكنج الحمدان.

في كل منعطف من تاريخ المنارة، وجدوا أن الشيخ كان حاضراً فيه، لقد دخل حياة البلدة بعد موته، علناً، بينما كان متغلغلاً فيها قبل ذلك. كان كتاب الشيخ مليئاً بالذكريات، عن اولئك الذين رحلوا، ولم يعودوا، عن الضائعين في السفر برلك، والموتى في حرب الشريف حسين، عن تينك اللواتي سألن عن أحبابهن أو أيامهن وأولئك الذين استفسروا عن غيابهم، أو مرضهم، أو حظوظهم كان الشيخ يضفي على كل سؤال، بهاء خاصاً من وجوده، ومن كتابه يعين الناس على مواصلة مشوار الحياة.

لهذا حزنوا عليه في أم الجرابيع، وبكت ثنيه حين أقسم نايل أنَّه لم يرَ الرجل، ولم يذكره، ولا شأن له به أبداً.

لكن الوزرَ، كان باهظاً على سكان أم الجرابيع، لأن الدرك الفرنسي وجدوا الفرصة مناسبة، لغزو الخربة بعد ثلاثة أيام فقط، تؤازرهم وحدة من الجيش هي فصيلة من الفرقة الاجنبية بقيادة جان دوتي نفسه.

لم يكن أحد يعرف شيئاً عن المكان، سوى الدرك الثلاثة الذين داهموا الخربة

من قبل. ولكن بعد نصف ساعة من المسير، أدركوا أن ما سوف يواجهونه ليس البشر المتمردين على سلطة امبراطوريتهم، وإنما عناصر الطبيعة الرهيبة، التي بدت لهم عدوة، منذ اللحظة التي أرغم فيها الفرسان على الترجل، والسير هوناً أمام خيولهم ثم اضطرارهم لتركها كلها قرب مطوخ الزعاتر.

بدت الصخور ضخمة وخارقة بطريقة لا علاج لها، وقد شمخت نحو السماء، أو امتدت في الأرض مغطية كلّ شيء. والنباتات الوحيدة التي رأوها كانت من الطينة ذاتها: أزهار برية، نبتت في الشقوق الصخرية، وحشائش باهتة، وأعشاب نجيليه استأثرت بالمساحات القليلة الباقية للتربة، لكن أكثر المناظر ادهاشاً هي مجموعات اللوز البري، والبطم، التي لن يعرفوا أبداً كيف أمكنها أن تنبت وتنمو وسط الكتل الشاهقة، أو على سفوح اللافات البركانية. كائنات جبارة، هرمة، أضفت على المكان جلال الشيخوخة، وتركت في نفوس الجنود، حالة هياج.

كانت هذه، أولُ مواجهة بين اللجاة، والجيش المحتل، وقد كانت اللحظات الأولى من صباح آخرِ حزيران. ممتلئة بالشكوك والحذر، عدائية لا سلام فيها، ولم يستطع أي واحد من الجنود السائرين في رتل أحادي متعرج طويل، تليين عواطفه، أو الاحساس بأي أمان وسط هذا التيه الكريه، الشبيه بالسجن، رغم مظهر القوة العسكرية، ومهمة التأديب المكلفين بها.

أخذت صورة الحفنةِ من البشر الخارجين على القانون، التي تقطن وسط هذا الشحوب الكوني، تتلبس بصفات وحشية تماماً، افتراسية محضة. ولا بدَّ أنَّ بعضهم ظن، أنهم ربما كانوا من جنس الجن، أو من سلالة بدائية منسية. إذ لم تعد تُسمع طوال الرحلة، أية أصوات. سكتوا جميعاً، وصمتت الطبيعة أيضاً، وصارت ثقيلة، صعبة، وعلى الرغم من أنهم سحقوا في طريقهم بضعَ حشرات، فإنَّ شعورهم بخواء المكان من الكائنات، صار يقيناً. بعد أن غابت عنهم، كل آثار الوجود الانساني.

عند الضحى وصلوا إلى ممر الغزلان، وبدل أن تمنحهم الطريقُ الواضحة، الطمأنينة، أصابهم الاضطراب، والخوف. شيء ما غير معروف يجعلك تطلق آهة استسلام، ترتعش، وأنت تشم رائحة عفونة قادمه من العمق المعتم المسيج بكل تلك المساحات الشاسعة من الأسوار.

تفحص السرجان جان دوتي، الممرات، ثم عاد مسرعاً، لم يخف انشغاله، وبدا هشاً ومتعباً، وقال لفرقته: إنها مهمه تأديبية فقط «لا أريد موت أحد، سوف نأخذ واحداً أو اثنين منهم، ونعود»، ثم نبههم محذراً «لاحظوا أنهم لا يُرونَ!».

كلماته بدت سلسلة من الالغاز، وهو لم يعتد أبداً في أي وقت مخاطبة جنود الفرقة الاجنبيه، بمثل هذه التحذيرات المسبقة، والجنود الذين اشتهروا بخفة حركتهم، وعنفهم، وقوة الضربات التي أنزلوها بأعداء فرنسا، أصيبوا باحباط خفي، سببه هذه الكلمات الرخوة التي لا تناسبهم.

فسروا الأوامر على أنها نوع من الحذر، والخشية من سكان المنطقة، التي يخترقونها لأول مرة. وهذا ما زاد في غيظهم، وحذرهم من كل خشخشة تُسببها تحركات حرذون مشبوه، أو سارة مذعورة، أو من حركة ثعبان خفي، يهرب عبر الشقوق.

صار كلُّ شيء ضدهم، ، فاتخذوا سيماء الحقد، كارهين هؤلاء الأشباح، الذين يختفون، في جغرافية سوداء خالية من المعنى، والجمال، زائدة عن الحاجة تماماً، فما جدوى خلق كل هذه المساحات الشاسعة، التي لا تصلح لشيء.

ورغم أنَّ مشيهم، صار أكثر سهولة، فإنَّ شدة الحذر، جعلته ثقيلاً، وكئيباً، وقد استسلموا بعد مرحلة، لمرارة التقدم القسري، منذ أن صارت الطريق محاطة بأسوار شاهقة من الصخور ا لتي لا تشي بسر.

بعد عشرين دقيقة، اقتحم جنود الفرقة، ورجال الدرك، منازل آل الفضل،

وهم يطلقون النار في جميع الاتجاهات من المدافع الرشاشة، والبنادق، محاولين إثارة رعب لا حدود له في نطاق الساحة الحجرية التي واجهتهم. جان دوتي في المقدمة، جنود الفرقة الألمان، والايطاليون، والأسبان، والروس، ثم الدرك.

وفي خمس دقائق امتلأ المكان بأكثر من مئة جندي، مبهورين، مصابين بنوبة انتصار سريع، شرس منتشين بالوصول السريع، الساحر، السهل، إلى وكر الأعداء الذين كانوا منذ ساعة فقط شبه اسطورة، عفاريتاً، وجناً!

لكن حملة التفتيش التي قاموا بها بعد ذلك، لم تسفر عن شيء. لقد اختفى كل أثر للحياة من الخرائب، ولم يجدو سوى بضع دجاجات في الأحواش الخلفية، رفرفت مذعورة، وطارت في مكانها بلا جدوى، حين اقتحم الجنود مسكنها، أما بقية الكائنات فقد تبخرت، وتلاشت في التفاصيل العجيبه، للمسكن الجليل المخرب.

كان ضرورياً، بعد ذلك ما فعلوه، لأن السرجان لم يرَ مانعاً له، لقد احتاج الجنود، إلى لحظة الراحة النفسية، بعد التوتر المخيف، الذي عانوا منه، لحظة التبريد، كما كان يسميها طوال حرويه، وقد جربها بنفسه، أكثر من مرة. ووجد أنها نوع من الخربشة، والتسلية البريئة، بعد جولات مكثفة من الحرب.

ابتدأت الحفلة بحركة عفوية قام بها أحد الجنود حين رمى مصباح الكاز إلى الساحة فجأة، فأثار صوت الزجاج المحطم، وانفجار الخزان المملوء زيتاً، هلعاً قصيراً، تبعته ضجة، وضحك وتصفيق.

بعد ثوان انفجرت في الساحة كل المصابيح التي وجدوها، ثم راحوا، في ابتكارات مدهشة للفرح، يحطمون كل شيء: دلات القهوة. الفناجين، الصحون، والطناجر الفخاريه، وبعد قليل استولت عليهم هستيريا «التبريد» فكسروا أعواد الفلاحه، والمدافىء، والخزائن، والرفوف الخشبية، والصناديق المطعمة بالصدف، ثم أشعل أحدهم النار في فراشٍ صوفي، بعد أن دلق عليه نصف تنكة من الزيت، وهي لعبة أخرى كما رأوا!

أطعموا النار، ما تبقى من السجاد، والبسط، والوسائد، والمساند، حتى صاح السرجان فجأة: عساكر!.. استعد! ثم غادروا المكان.

* * *

أول من وصل، كان كامل، وفي اللحظة الأولى هبت عليه ريحٌ ساخنة، لفحت وجهه، وعينيه، وشمَّ رائحة شياط وعفن كريهة. ولم يرَ شيئاً، بسبب الدخان الأبيض الكثيف الذي ملأ الساحة، ما كان بحاجة، على أي حال، للتفكير فيما حدث، أمام اللهب الازرق، والنار القرمزيه المتصاعدة إلى السماء، من وسط المكان. اندفع خلفه أهله كلهم، وراحت النساء يصرخن وهن يحاولن اطفاء الحريق، كأنما كانت ذبذبات الصوت الزاعق قادرة على كبح الجماح المجنون لهذا الجني الفالت، المسمى: ناراً.

وصار كامل يرى اخوته في الضباب، الرطب، المتناوح، الذي أخذ يزداد كثافة، كلما صبوا عليه مزيداً من الماء.

يذكر أن أم الجرابيع صارت كومة نفايات، ويذكر كيف أنه حين خرج من معمعة الحريق، اكتشف أن البيوت عادت إلى ديانتها: خرائب هلكى، مقفرة، تنبعث منها روائح انتصار أحمق، وشواء طيور، ونتن ثياب، وزجاج، وخشب وزيوت ومؤن، ودهون، وأطعمة.

رأى غريبة، وهي تجر شعرها القمحي الطويل المسترسل وقد تلوثت بالهباب، وراءه وقفت ثنية محروقة الاصابع، وهنده ترتعش، ودلال تنوح وتبكي، وصباح تلطم خديها، وفضة تردد حراذين مراذين، وأدار الرجال ظهورهم، معفرين بسخام النار، بالماء، وبقايا الأشياء، فيما تكوم الأطفال هناك بعيداً مثل جرذان هاذية!

قعد بلا حراك، يتأمّلُ مشهد الخسارة، لم يكن حزيناً تماماً، ولا آسفاً، وكان شبحٌ فظيعٌ داخل جمجمته، يغلقُ عقله، «ليش؟» قال لنفسه.

عبثاً، سوف يبحث عن موعظة الجواب، فالمنتصر عديم الحياء، لا يعرفُ الاجوبة، ولدية على الدوام قوانينه الخاصة، التي تُنفذ، ولا تشرح «ليش؟!» لأنَّ الجوابَ حاضرٌ فيما يُفعل فقط.

التفت نحو الشيخ شمس الدين، التقت عيناهما كانتا مملوءتين بلطخات صدأ، تأمل بقية اخوته وأصهاره، كان الانتصار الجمهوري، قد خرَّب سلام حياتهم تماماً، عاد اليه ذلك الاحساس القديم بعبث الحياة، وتفاهتها، وفي دمه تغلغل العويل النسائي، القادم من ألف عام مضت، خطر له أن ينهرهن، وبدل ذلك، انشغل بحساب سريع للزمن الذي يفصله عن الجيش المهاجم، فعرف أن جيش الامبراطورية لم يقطع سوى بضع مئات من الأمتار داخل وعر اللجاة. وأن تلك الأروقة العظيمة التي لا تمنح نفسها إلا لمن يعرفها، ستكون قد أخرت سيرهم.

هكذا قال لإخوته، لأول مرة: «احملوا سلاحكم!» وبلا تذمر أو احتجاج ساروا وراءه، وتسللوا عبر طريق الثعالب. ليصلوا بعد دقائق إلى «سُكرة ملوح» التي تشرف على الممرات من الشرق كان الجنود يغنون، ولم يستطع آل الفضل أن يميزوا أيَّ كلمة، وقد اختلطت لغات العالم، بظهيرة اللجاة المشمسه، في الاحتفال المنغم وما بين تلك اللغات، كان صوت جهوري حاضر وقوي، يضج كل بضع ثوان، باعثاً في غابة الذاكرة رنيناً ذهبياً مليئاً بالفرح.

ركضوا قليلاً قرب الممرات، قبل أن يشرفوا من وراء سلسلة صخور الغربان على الفصيل المنتصر الموشح بالغناء، ومن هناك بدأوا هجومهم:

بعد سنين سوف يصفهم جان دوتي في كتابه: «الفرقة الجهنميه» (الذي أشاد فيه بأمجاد جنوده) هكذا: «كانوا جميعاً في ملابس الحرب الخفيفة، بستر قصيرة. وبلا عباءات، وكوفياتهم الملونه تتماوج في الهواء، كانوا يطلقون من بنادقهم، وهم يصرخون في عزيف كعزيف الجن، مرددين: ياالله! يا الله! يا الله! ثم يختفون كالبرق، عبر الطرق الصخرية المبلطة، وفي أحشاء الصخور المجنونة، مخلفين في صفوفنا بضعة قتلى، ورحنا نطلق عليهم بغضب عشوائي، مطراً من الطلقات الرشاشة. ولكن أين ذهبوا؟!»

مرة واحدة غامر نايل فيها بالخروج من مكمنه إلى العراء، فصرخ دوتي: اقتلوه! انطلقت نحوه ثلاثون بندقية معاً، فأصابوه بصليات متواصلة من الرصاص. راح يرقص في مكانه كالطير، وهو يصرخ فيهم ويستغيث بإخوته، معتقداً لثانية، أنهم أمسكوا به، حدث ذلك في أجزاء من الثانية، وقد خفت نشاطه واندفاعه حالاً، وراحت صدمة الطلقات، تقذفه إلى الوراء، وهناك تلقفه اخوته من وراء الصخور «ما حدا يبقى هون!» صاح كامل، قبل أن يندفع هارباً بأخيه.

ولكنهم اكتشفوا بعد خمسين خطوة، أن الشيخ لم يأتِ، وهو لا يعرف هل يتابع أم يعود اليه ليرغمه على المجيء، كان دمه متسمماً وأخذ رأسه يصخب، وهو يرى إلى أنّ نايل قد مات، فدمدم «يا مجنون!»

«صار يبكي الآن، وهو يحاول استعادة وجه نايل، المتلفع بقناع الموت وذلك الجسد المثقب، المغبر، الثقيل الذي حملوه وسط مملكة الصخور إلى قبره»

كان بقاء شمس الدين هناك صمام آمان، وقد جرى أمام الفرقة من عدة مواقع، ومن اتجاه معاكس للطريق التي مضى فيها آل الفضل بجثمان نايل، ثم فرّ إلى الامام محاولاً إغراء الجنود للحاق به، لكن أوامر دوتي كانت قاطعة! لن يلحق به أحد!

اختفى الشيخ بعد دقائق، وساد المكان صمت مريب، جعل الجنود في وضع الاستعداد أكثر من ربع ساعة، قبل أن يأمر جان دوتي، باستطلاع المكان، ثم انطلقوا مسرعين، وقد حملوا معهم جثث ستة قتلى!

هذه المرة، لم ينشدوا المارسلييز، وكان أقصى اهتمام للسرجان أن يجد طريق العودة، بعيداً عن بيت الأموات اللعين هذا!

* * *

(٤٧)

ناحت النساء على نايل ليلاً ونهاراً، طوال أسبوع، ولم تنشف لهن دموع، وهنَّ يرين الرجال قاعدين، وسط المتاهات اللانهائية لأم الجرابيع، بانتظار من يأتي اليهم لتعزيتهم، بلا جدوى. فلا أحد يريدُ أن يجازف بالمجيء، كأنما يخشون من شبح سيقتلهم على مفارق الطرق. توقف الزمن تماماً. فلا حركة، ولا تغير كأنما لايوجد في هذه البلاد رجلٌ، أو امرأة، يسمع أنَّ هناك في الخربة كائناً مات.

راح كامل طوال الوقت يعضُّ شاربيه، جانحٌ إلى صمت الانتظار الوبيل، كالتمثال، بين إخوته الذين فتحوا عيونهم وراحوا يراقبون الأمكنة كالغربان.

غياب الناس عن أجر نايل، كان سابقة لم تحدث من قبل. وقد حطم قلوب سكان أم الجرابيع تماماً. ولم يعرفوا ماذا يفعلون أو ماذا يقولون تجاه العزلة الوحشية التي وجدوا أنفسهم فيها. وهم ينصتون إلى العويل المديد القادم من جناح النساء.

وراح صايل يزمجر كلما سنحت له الفرصة: «هم معنا أم مع فرنسا!» وفي أعماقه كان يدبُ ثور بغضاء هائج. ثمَّ أنه حرَّمَ على نفسه في اليوم الثالث حضور أجر أي رجل، في الجبل، طوال عمره. «حرام علي أحضر أعراسهم كمان» قال للشيخ شمس الدين الذي حاول أن يمسك لسانه من الغرق في لغة التحريم. غير أن صايل جُنَّ تماماً «ليش ما يجوا؟ قول!» ثم نبش قاموس البذاءه كله، وراح يشتم جميع سكان المنارة، والقرى المحيطة بها، حتى أنَّ أهله تعجبوا من حضور ذاكرته الغريب، واستنتجوا أنَّ الحزن المكبوت الذي اعتادوا اطفاءه في طقوس العزاء

الجماعية، صار بذاءة وعبراً. «خلص يا صايل!» كان كامل يحاول اسكاته. لأنه شعر بأنّ الاخ الثاني يكاد يخربُ أجر الميت بحماقاته وخراقة أقواله.

لكنّ صايل لم يتوقف ازداد غضباً يوم الاسبوع. ولم يعرف ماذا يفعل. فصار يلكم الجدران بقبضة يده، وينطح الصخور، ويزمجر، ويزبدُ كجمل هائج.

بعد تسعة أيام جاء خمسة رجال من السماقيات، لكن كامل رفضَ قبول العزاء منهم. قال: «الاسبوع خلص» ثم دعاهم إلى المضافة وذبح خروفاً، حتى إذا نضج الغذاء، وأدخلوا المنسف، جاءت ثنيه حاملة كبشة نحاسية ووراءها هايل يحمل تنكة سمن، فقدمت كل ذلك إلى صايل المتكلس وقالت:

«خذ! صب! يا كريم اليمنى!»

ارتعش جسده، واكتسحته سيول حجارة، وقام، وصب التنكة كلها، حتى أغرق الطبيخ والمنسف وقال:

«تفضلوا!»

كانت لهجته قاتلة، فقام الضيوف بلا تردد، أكلوا سمناً فقط، والذين حاولا الوصول إلى البرغل، أحرقوا أصابعهم، بينما ظل آلُ الفضل جميعاً، أمام الباب المفتوح، وقوفاً، سوى شمس الدين الذي قعد قبالتهم، حيثُ أضاء النور الشمسي الساطع بياضَ لحيته، ووجهه الحجري المتشقق.

لكن أحداً لم ينتبه قبل ذلك إلى ذينك الرجلين اللذين وقفا بعيداً، يراقبان أم الجرابيع، من أسوار المعبد القديم: كنج الحمدان، وضامن العسال.

كان كنج حين أخبروه بمقتل نايل قد لعن جميع مرابعيه، واحداً واحداً، تماماً مثلما فعل قبل سنوات، حين مات سعيد عثمان. لقد نأت صباح الآن، حتى وصلت إلى حدود المستحيل، لعن الحرب، ولعن فرنسا، وآل الفضل، ولعن نفسه، وهو يفكر: ما الذي اقترفه من خطايا، حتى يعاقبه الله، في حياته، بمثل هذا العذاب.

وهكذا، في احدى لحظات الجنون، أسرج حصانه سراً وزحف به خارج الدار. ثمَّ مضى شمالاً سالكاً طريق أم الجرابيع. كان الليل قد انتصف، ولم يره أحد سوى ضامن الذي لحق به. وقبل الممرات أحسَّ به كنج، فالتفت نحوه وقال: «ضامن!».

أجاب: «خدامك يا بك!»

تركا الحصانين وراء صخرة، ثم راحا يراقبان ديار آل الفضل، لم يكن يريدُ شيئاً سوى رؤية صباح، وقد ظلا هناك حتى الضحى. حين رأيا وفد السماقيات. ثم أقبلت صباح من غرفتها، كانت امرأة عادية، تلف رأسها بعصابة عجوز، وترتدي ثياب حداد كالحة. ضرب وجهه بكفه المفتوحة، ثم أغمض عينيه، ورحل.

وفي عصر اليوم ذاته. ذهب إلى أسرة الشيخ ابراهيم، ودفع دية القتيل من حسابه.

* * *

(٤٨)

بعد الاسبوع، رحل حنا البيطار، والشيخ شمس الدين إلى السويداء، ليوصلا إلى شامل خبر مقتل أخيه.

ظل الشيخ عند العطار نور الدين، في السوق القديمة، ريثما مضى حنا إلى الكرخانة. كانت الساحة مقفرة، فتوقف، وأغمض عينيه ثمَّ رسم اشارة الصليب، منتظراً الهام الله، ورضاه، كي يستطيع قول رسالة النعي التي حَمَّلوه إياها. وحين خطا إلى الداخل أفعمت أنفه رائحة العرق البشري الجاف. سار في الممر الطويل المعتم، بطيئاً ملولاً. قبل أن تفاجئه كلماتٌ داعرةٌ من امرأة وقفت خلفه في شلحه نوم المساء الزرقاء. وما ان استدار نحوها، حتى جحظت عيناها خوفاً منه: «العمى!» قالت «طالع من القبر!». أغلقت بابها وهي تشتمه، فقال لنفسه: «هذا أحسن» مغالباً الشعور بالخيبة، والنفور من القحبة الزرقاء، دقَّ باب ماريا، دقتين خفيفتين. وحين فتحت، بدت نعسانة وقد غلف وجهها قناع من التجاعيد والدهشة. وسَّعت الطريق، فدخل باحثاً عن شامل. لكنها قالت إنه لم يأتِ، وإن زياراته صارت قليلة. ولم يُبدِ البيطار أيَّ تعليق. ولكن المرأة، بدأت تنتحبُ، وقالت إنه مجنون، وهي ما تزال تحبه، ثم قدمت الزهورات لحنا، وهمست «مع السلامة!.. ما راح يجي!». كانت متأكدة من ذلك، وأوعزت لروبير كي يرسل مالاً لشامل. فسلَّم البيطارَ ثلاث ليرات. لكن حنا قال إنه لا يحمل مالاً حراماً لأحد. فسخر القواد منه، وقال إنَّه من تعب اليمين. وعرق الجبين! بصق البيطار على الارض، وغمغم: «الله يلعنك يا روبير!»

لم يجدوا شامل طوال المساء، وقال بطرس الارمني إنه لم يره في الخمارة ذلك النهار، ولا قبله. وفي دار أبي علي، قالوا إنَّه لا يأتي لزيارتهم، وطلبت عذبة أن يسلموا عليه، كان أبوها قد التحق ببهاء الدين منذ شهرين.

لم يجرؤا على الذهاب إلى دار موريل، حيث عرفا أن شامل صار من حراسه، منعهما الخوف من لقاء الجنود الذين ملأت السويداء سيرة عنفهم، وفظاظتهم، ومع أن الناس هنا، كانوا يحملون الذيب الأعرج مسؤولية القسوة التي راح جنود الاحتلال يعاملون بها سكان السويداء، فإن عذبة، لم تخف اعجابها بالذيب، وهي تروي أساطير اختراقه لتجمعات الجيش، والثكنات، ومراكز الحراسة بدت كالزنبق، وهي تكشف للقرويين أسرار هجمات الذيب الذي لم تره أبداً، ولم يشعر به إنسان هنا، ولا ذكر أحد مكان وجوده. لكنه أطال الغياب هذه المرة، قالت، ولا بدَّ أنه رأى كيف امتلأت المدينة بالعسكر، الذين صاروا يرون في كل رجل غريب ذيباً أعرج.

أخجلهما حماسها، وردد أخوها الأصغر، وأمها روايات أُخرى عن الذيب. فراحا يحدثانهم عن الرجل الذي يعرفانه جيداً، وهما حائران لا يصدقان كيف أمكن لذلك اللص أن يرتدي ثياب بطل، ومن أين استمدَّ ذلك الطموح العجيب كي يقاوم سلطة فرنسا.

«الذيب» قال حنا مؤكداً معارفه «قصير مدكوك مثل التيس، ووجهه وجه بغل، خشمو كبير، وراسوا شقفة واحدة» سكت قليلاً وقد لاحظ امتعاض البنت من الصفات الحيوانية التي أطلقها على مثالها الجميل، واكتشف أن قلبه، كان ممتلئاً برغبة في تشويه صورة الرجل بلا مبرر، لكن اللعين لم يدفع له نكله واحده ثمن الحذوات التي حذا بها حصانه، ولا دفع ثمن اللجام النحاسي، ولا المرشحة، «ماذا يريدون مني أن أقول؟» همس لنفسه، كانت عذبة تقدم لهما القهوة، وحين تأملها لاحظ فعلاً ذلك الشبه الشيطاني بينها وبين صباح، لكن تلك تفوح منها رائحة شيح، ولأول مرة خطر بباله السؤال عن ا لسبب الذي جعل آل الفضل يرفضون

زواج صباح وشامل. وأحس بالشفقة تجاه صديقه القديم الذي غاب عن حرية البراري العظيمة، موقناً أن رقة عواطفه، وحنينه هما اللذان جرفاه إلى هذا الأَسْرِ البغيض داخل الجيش!

عند العشاء جاء شامل، كان عرف بسؤالهما عنه، وما أن رآهما حتى بدأ يبكي، لقد فشلت جميع خططه، حين فكر أنه سينجح بتمثيل دور العسكري المتحجر القلب، ويصافح الرجلين بلا بكاء.

كان هذا قبل أن ينعيا اليه مقتل نايل، لكنه توقف عن التنفس، حين فعلا ذلك، رأيا كيف ارتعش جسده، وحدّق فيهما بينما طغى سكونٌ عكرٌ وحشيٌ، قبل أن تند عن شامل آنة قصيرة غامضة شبيهة بالنهاية.

كان ردُّ فعله بعد ذلك مشوشاً، ولم ينطق بكلمة واحدة على عبارات التعزية التي خاطبه بها رفيقاه، وخفض رأسه مثل محكوم بالاعدام، ولم يتحرك طوال ساعه، ثم رفع يده فجأة، وهوى بكفه على جسم مجهول طاف حول وجهه لحظة، ثم فتح عينيه، وتنهد تنهيدة طويلة، سحب فيها نصف هواء الغرفة.

بلا استئذان، خرج من المضافة، ،لم يعد بعد ذلك، وعند منتصف الليل رحل الرجلان إلى أم الجرابيع، وهناك في الخربة انتظروه أياماً، دون أن يأتي، فراح الشيخ يبتهل إلى الله كي يسامحه، قال كامل حاقداً:

«ليش عَ بتدعيلو يا شيخ؟!»

قال «عَ بجرب، إن كان بيسمع مني!»

* * *

(٤٩)

كان الصباح عابقاً برائحة الخبز حين رأى شامل آخر مرة، بدا أجمل مما رآه طوال عمره، إذ أنهم كانوا يصعدون التلال الشرقيه كالذباب، خلف البلدة، ظانين أن أحداً لا يراهم.

في البداية راقبهم من مرصده بهدوء، وهم يتسللون، فارساً وراء الآخر، عبر أدغال السنديان، أُعجبَ بمنظر الرجال الملونين، على خلفية الدغل ذي الخضرة الباهتة، يتقدمون خبباً، بالخيل المزركشة التي بدا أنها أدركت أهمية فرسانها، على الطريق الترابية السهلة الدائرة حول التل الكبير.

ولكن إحساسه بالخطر غلب بعد ذلك على رغبته في التأمل فقد تقدمت كوكبة الفرسان سريعاً، في حركة التفاف طويلة نحو الجنوب، ولم يستطع تقدير الموقف، إلا في اللحظة التي أطل فيها على الوادي! هناك، كان أكثر من خمسمئة جندي ينتظرون، مستعدين، عودة الاستطلاع الامامي.

قطع الغابة ركضاً، ثمَّ لم يتوقف إلا حين، بانت مشارف البيوت، لكنه في اللحظة التي توقف فيها ومشى هوناً، وأشعل سيكاره ليدخن، رأى وجه شامل، كان يراقبه، وهو على ظهر حصانه، بعينين جاحظتين.

كانت لحظات عصيبة، جمد فيها كلاهما، وهو يذكر أنَّ عقله توقف عن الشغل، ولم يستطع تحمل دقات قلبه التي صعدت مثل نجم مذنب، مخترقة مركز الصدر.

غمغم بضع كلمات غير مفهومة، بينما بدا شامل عاجزاً عن قول أي شيء، بدا جميلاً، رائعاً في هندامه العسكري، وامتطائه الحر لحصانه.

بإجلال، استدار عائداً نحو الغابة، هناك حيث تسلل ببطء إلى الخُضرة الكلية، وراح يختفي قليلاً، قليلاً في الهدوء الشامل وراءه لم يبق سوى صرير الزيزان الصيفيه.

ولكن ألوان شامل، وحركاته، ونظراته المحطمة، التي من ليل وحماقته في الاقتراب ظلت تحفر طوال عمرين في رأسه»

* * *

طوال خمسة عشر يوماً ظلت ثنيه تقول إنها لن تسمح لأحد من آل الفضل، بمغادرة أم الجرابيع، لقد خسرت ما يكفي، ولن تقوى بعدُ على الخسارات.

لكنهم لم يستمعوا لها، سرعان ما رحل كامل، وصايل، وهايل، عن الخرائب، لم ترهم إلا عندما صاروا قرب الممرات، وقد تأخرت عنهم بضع دقائق فقط، فراحت تصرخ، وهي تجري وراءهم «يا كاااامل! يا كاااامل!». لقد سمعوها هناك، لكنه زمجر في أخويه قائلاً «ما حدا يطلع لَوَرا!». ومضوا في أروقة الصخور، إلى هدفهم الذي سهروا الليلة الماضية في تتبعه.

كان المساء شفافاً، وبدت اللجاة غابة، وقد أحسّ بالخوف على أخويه معاً، فقال: «تلثموا!» فضحكا معاً، وقال صايل: «هذي عاشر مرة يا بو محمد!» فلم يجب، ونظر إلى وجه هايل، كان مخططاً بشعر الشباب الناعم، مشرباً بسمرة ترابية غامقة، وقد أضفى الحاجبان المقفولان عليه سمات قوة داخلية رهيبة، وأسرار ذئب. وابتسم في أعماقه للطريقة الغريبة التي امتطى بها حصانه. «طريقة صايل» قال، حيث يرتفع الركاب إلى أعلى بطن الحصان، فيستوي ظهر الفارس، ويشمخ الرأس.

لم يخف قلقه على هايل، ولا استطاع ايقاف حماسه للمغامرة التي يدفعُ

اليها الثأر، موقناً أن الخطر هو الذي يجذبهم اليه، ولأول مرة لاحظ أنه يفكر في مصيره، وأن الاشياء كلها تدفعهم نحو غايتها، بلا رجوع. «أتلى القمة أم إلى الهاوية!» لن يعرف. لأن تلك الاوقات كانت كاللجاة: سلسلة من الوقائع الناتئة، والأحداث المتعرجة، والكلام المترمد، والانعكاسات!»

كما أن الفكرة نفسها لم تدم طويلاً، فمن الصعب أن يجتمع شرف التأمل، والدم العاثر معاً.

عند المساء، أطلوا على المنارة «احفظ هذا يا هايل!» غمغم صايل بكرب، فسأل هايل: «أي واحد؟»: كان هناك دخان، ولغط رعيان، ودبيب خيل في البيادر الشرقيه. وسمعوا أبواق اجتماع غريبة تنفخ وراء البيوت التي بدت، في الغبش، أسيانة، واجمة، تتخبط وسط الفراغ الكوني. لم يكن ثمة شيء واحد يمكن أن يلطف وجودهم ذلك المساء. فالظلمة أخذت تخيم سريعاً، شائهة وثقيلة، والمنارة كانت مثل طائر مشتت، وقد اختفى من جزئها الشمالي منظر الفتيان المسائيين الذين كانوا يوشّحون صيفها كل يوم. وبدل ذلك كانت تقبع أكواخ استعمارية مسقوفة بالقرميد، تنتشر منها رائحة بارود، وزيوت وأوامر، وخروج جنود في طلعات استكشافيه، وشريط شائك يضبط الوجود الغريب للجيش!

من ينسى ذلك؟ كان طلب صايل شبيهاً برغبة حيوان غريزية في اقتحام الوكر المضيع. أما هايل فقد صار مثل نحلة!

في أجمة الصخور التي احتموا بها، ركزوا بنادقهم، سوف يطلقون معاً من هنا نحو الاكواخ، وقد عم الجنون هناك، لان الجنود الذين سمعوا انطلاق الرصاصات، اندفعوا نحو استحكاماتهم، مشعثين، محمولين على راحة الذعر، والأهبة العسكرية معاً.

ذلك ما استطاعوا رؤيته، بعد ذلك هطلت عليهم الرصاصات من المعسكر الفرنسي بضوضاء أضاعت أصواتهم وحركاتهم، فنهضوا من مخبئهم، وبدل أن ينسحبوا إلى الوراء، تقدموا، كالمجانين، نحو المنارة بينما تأهبت فصيلة من الفرقة

الاجنبية، واندفعت على صهوات خيولها نحو الشمال، في التفاف طويلٍ ومحكم. ومباشر، من بساتين الجزارين. صوب صايل إلى جندي أبيض، ثم أرداه، وبدت له حركة الألم التي صدرت فجأة، عن الرجل، بسيطة جداً وعادية، إذ تلوى مرة واحدة، وسقط ميتاً.

وقبل أن ينتبه أحد لحركة القتل الخلفية، كانوا قد أصابوا ثلاثة آخرين. ثم انسحبوا نحو الشرق، باتجاه السماقيات نفسها. مغامرين بالمرور قرب طاحونة الماء، التي كانت مضاءة بسراج واهن وقد اتكأ هناك في الداخل، سلمان الراضي، غير عابئ بشيء.

بدا على الرجل، أنه لم يشعر بهم، كان نائماً، ولكن عين صايل التي رأته، حملت صاحبها على الوقوف ثوانٍ، في غفلة من أخويه اللذين سبقاه قليلاً، عدواً، ليتأكد من شخصية الطحّان. وراح يهزُّ رأسه، ثم مضى وراء إخوته، في الطريق التي سلكوها.

* *

عند مطلع الفجر، حطمت القطط جرتين فخاريتين فرغتا بالامس فقط من الزيتون، وسقطت دلال أرضاً، وهي تستغيث برعب، وقد حطَّ نحوها، من الأعالي، كائنٌ معدني خارق، ولن يعرف أحد أين يفر، وأهمية الفرار، إلا عندما رأوا كيف رمت الطائرة، من سمائها، قنبلتها الضخمة نحوهم.

هزَّ الانفجار أركان اللجاة، وتهدمت خلف الغيمة الدخانية وكتل الغبار المجنون، أقسام من جدران التبابين القديمة في الجهة الغربية، فيما ابتعدت الطائرة السماوية، مندفعة نحو الافق، وهي تئز، في خط دائري جنوبي غربي طويل، لتختفي تاركة وراءها صدى هديرها.

«هذي حرب السما» قالت دلال، وحين خرجوا من مخابئهم، فاجأتهم رائحة البارود الملحية، وخراب الجدار المجاور لمزارع غريبة التي راحت تبكي، وهي

ترى إلى ياسميناتها، وحبقها، وورودها الجوري مذعورة، متوارية خلف سحابات الغبار.

لم يصدقوا، أنَّ بمقدور ذلك الكائن دحر ملجئهم بكل هذا اليسر، والسهولة، ولكنهم، في الدقائق التاليه، حين ابتدأوا في رفع الحجارة، عن المستنبت الاخضر، سمعوا، مرة ثانية الهدير المائج المتعرج، في السماء الصيفية.

هذه المرة، اختبأت النساء والأطفال، في المغارة، أما الرجال فقد توزعوا، ولطوا وراء الصخور.

ومنذ أن برزت الطائرة، خلف التلال، راح يطلقون نحوها من بنادقهم.

ولا بدَّ أن الطيار المجهول، قد فوجئ بالرجال الذين رآهم يصوبون نحوه، لأن طائرته، ارتبكت قليلاً في طيرانها، ثم اندفعت إلى الاعالي بعد ان رمت عشوائياً قنبلة اخرى، سطع انعكاس ضوء الشمس على الجسم الساقط، ثم انفجرت وراء أم الجرابيع، فوق اللافات البركانيه، دون أن تسبب أية خسائر، فهللوا هنا.

لم تعد الطائرات ذلك اليوم، ولكن حرب السماء، كما سمتها دلال، لن تتوقف، وسوف يصير حضور الكائنات الصاخب شبه يومي. وحين وصلت أنباء الهجوم، إلى بهاء الدين، قال: «اليوم بدأت الحرب». فكتب فضل الله قصيدة ابتدأت هكذا:

حرايباً ودَّها تصير ... ما هي على جال الخفا

العام في بطن الشعيب ... واليوم بِروس الشفا

* *

شاهين الخليل الذي كان عائداً لتوه من وادي التيم، بعد أن أوصل رسائل من بهاء الدين إلى هناك. أصيب بالحمى في الليل حين وردت اليهم أخبار أم الجرابيع، وقد رجَّح أن السبب، كما قال لذوقان هو الذعر. ظل طوال الليل ساهراً، وعند

الفجر طلب من بهاء الدين أن يسمح له بزيارة أهله في الخرائب، قال له: «البلاد اشتاقت لأهلها».

لكن شاهين لم يصل إلى أم الجرابيع أبداً، إذ أنَّه في ذلك اليوم، سوف يرحل بعيداً إلى جزر النسيان في أقاصي الأرض. لا يعرف كيف نسي حذره! كانت الطريق آمنة، وقد وصل إلى عين موسى عند الضحى. ولم يرَ أحداً هناك، راقب المكان، ثم تفحص الدروب البعيدة، قبل أن يقترب من العين.

ارتوى، وسقى حصانه، ثم قعد يتناول شيئاً من زاده، كان الضحى ملحياً وحاداً، فراح يقضم الخبز والزيتون، ببطء، فيما سرح خياله في حاضره الذي صار له طعم السم. فقد خاب طوال الشهور التي مضت في معرفة مكان أهله، وظل يروح، ويجيء إلى وادي التيم، ومنه، بلا فائدة، وحطمه شعور بالضياع، والعفونة، وفي كل مرة أراد أن يؤوب فيها إلى أم الجرابيع كان يأتي من يذكر شيئاً ما عن أمه، أو أخيه، ومن جديد تصيب الكلمات قلبه، فيؤجل عودته، وشوقه، إلى أن استنفد غابة من الصبر، أما حين رجع هذه المرة، وسمع حكاية ما جرى، فقد انفجر فيه شلال فزع، أحسَّ بشوق قاتل حمّى فيه دم آل الخليل، اشتاق لفضه، ولأولاده، ولآل الفضل، وللخربة العظيمة!

برز من الدغل، خلفه، جنديٌّ، وبلا تفكير، انتزع شاهين بندقيته عن الغصن، حاول أن يطلق، لكن ضربة قاتلة أصابته من جهة اليمين، حيث ظهر جندي آخر. وقع في قعر فارغ لا نهاية له. راح يسقط على رأسه، مبلبلاً، نعسان، وسط أرض حريرية سوداء، أحسَّ بأن رأسه خوت من كل الهموم، تلاشت ذكرياته، ومصاعبُ البحث التي خلقها لنفسه. ووجد أنه ما من شيئ في العالم بقادر على مضاهاة هذا الأمان الذي تغلغل داخل روحه ودمه، سوف يصل سريعاً إلى أم الجرابيع، محمولاً على صهوة براق. وبلا مراسيم سيقتحم المكان «ها أنذا قد عدت» وسوف ينهض نحوه الاولاد، وتنهضُ فضة، ويفاجأ الرجال العائدون من المقلع، أو من قرى اللجاة، ويحملونه بين أيديهم. لكن لماذا؟ أين فضة؟ إنه

لايراها! كيف يمكن أن يصل إلى هناك ويلتقي بهم جميعاً، دون أن تراه أو يراها؟

أخ! إنه يتألم، شيء ما أسفل الكتف يخزه، وقيدٌ غريب يمنع يديه عن الحركة. أوقفوا هذا يا أولاد قاسم الفضل! انزلوني! انكم تؤذون رأسي، وتخنقون أنفاسي!

تململ قليلاً، وشعر بالبرودة، من كان يقول أنه سيصل إلى الخرائب بهذه السرعة؟ وقد تعجب لأن بهاء المكان المقسم بالنور والظلال، بأعشاب القدم، بالطحالب، والمياه المسكوبة، والأبراج، والاحجار المخدره، والأزهار الوانية وصورة النساء المتأملات اللواتي رحن ينظرن اليه، وقد تآكلت محاجرهن، وعيون الاطفال التي حدقت فيه عبر الغبش المسائي، كل ذلك سحره، لكنه تلاشى في لحظات. وراح يتأوه مرة أخرى: «آآ. . . ه» شعر أنَّ جسده مخدر، وأنَّ رائحة قديمة خانقة بدأت تفعم أنفه. إلى ظهره تسربت رطوبة رقيقة أدركها بطريقة صوفية، حين انتهى هذيانه: لقد عاد إلى مستودع الفحم مرفقاً بقيود من الحديد، وضرب مبرح!

حين صار يرى، لاحظ أن المكان قد تغير خلال الشهور الماضية. وبدا أكثر تماسكاً وقوة. ولا بدَّ أنَّ يدَ الحضارة طالته. فقد أغلقوا مداخله بشبكٍ حديدي. وضيقوا نافذته، وزادوا من كمية الفحم الرطب الذي أصابه بخمول غريب، جعل عقله يتراخى سريعاً، بعد اليقظة المريعة.

قبل الفجر جاء حارسان، اقتاداه إلى سيارة مُكمماً، معصوب العينين. وحين تحركت أزالوا العصابة، وقال جندي: «شوف!» كان في جدار العربة المصفحة، فرجاتٌ ضئيلة، ومن الاشياء التي لمحها، عرف أنهم ينطلقون في الطريق الذاهبة غرباً. وبحساب بسيط وسريع، راح يعد اللحظات واحدة واحدة:

حين مرت العربة قرب المنارة، ارتجفت أوصاله. فهناك بعد المنارة بمسير ساعتين، سوف يصل الى خرائب القلب، ياالله! لو استطاع أن يندم الآن على تلك الساعات الجميلة التي قضاها في الجوار الحبيب. ولن يقوى أحد أن ينقذه، فأيام تل الحديد مضت ولن تستعاد. وبهاء الدين بعيد عنه، هناك في الجنوب على

تخوم الصحراء، يُعِد جيشه، وقواه للحرب القادمه. هل يراها؟ هل يعلم أحد أنه صار في يد الجيش الذي يطلبه؟

توقفوا قرب قصر المطر، ومن هناك نزل ضابط طويل فتش العربة، وزم شفتيه حين رأى المعتقل، ثمَّ رافقهم بعد وداع بسيط، وتلويحة بعيدة لشخص أطل من النافذة العليا للقصر.

ومن النافذة بدا البناء شاهقاً، ممتداً نحو الاعالي، حيث كان يخترق بدايات النور الضئيل الذي جاء به النهار. لعن آل الفضل في سره، بسبب البذخ الخارق الذي منحوه لفرنسا. ولكن المصفحة تحركت بعد ذلك، ولم يعد يستطيع رؤية الرُّقة، ولا القصر.

تلك اللحظة فقط، أحسَّ بالرعب، وزالت عنه حُمى التأملات الحالمة، والمشاعر المعادية لمعتقليه، لتجتاحه الحقيقةُ العارية وحدها. وسوف يتعينُ عليه أن يواجه مستقبلاً غامضاً وغريباً وحده. استغرب في لحظة تكاد تشبه الجنون لعبة قدره، فقبل بضعة أيام فقط، عبر شاهين هذا المكان، على ظهر حصانه حاملاً الاخبار إلى بهاء الدين، ولولا مهمته السرية تلك التي خلطها برغبته في تتبع أنباء الأهل، لكان الان في أم الجرابيع. ولكن الاحداث كانت تُصنع وفق محفوظة قديمة جاهزة، كي تتم على نحو ما تمت عليه، وما كان يفعلُ سوى أن يتقدم بخطى حثيثة نحو مصيره.

ظلت السيارة تتجه شمالاً، وقد استعر الحرُّ فيها وراحت تتراقصُ في الافق شياطينُ سراب فضية، حتى إذا وصلوا إلى الشام لم يتوقفوا اكثر من نصف ساعة. جاؤوا بسجينين آخرين. كان أحدهما طويل الذقن، وسخاً، أما الآخر فكان شاباً نحيلاً شاحباً، بدا بلا قوة.

مات عند مفترق الطرق الذاهبة إلى وادي اليتم، ولم يستطع شاهين عمل

شيء، كأنما كان هو الذي مات بدل ذلك الشاب الضامر الذي لم يعرف اسمه، ولاموطنه، ولا سبب اعتقاله. لقد توفى قربه دون أن يستطيع قول كلمة. بينما راح شاهين يحسبُ بسرعة حساب الحياة التي انقطعت الان، ربما إلى الابد.

لن يخرج من هنا، ولن يعود إلى أم الجرابيع، وقد صار وجوده كله بلاقيمة.

«تذكر شاهيناً الآن، كانت السماء مغلقة، ومنذرة، حين غادر آخر مرة. كان حزيناً، وممتلئاً بشرور المسافرين. لكن كامل لم يحاول سؤاله، ولا استفسر منه عن السبب الذي جعله ذاهلاً، شارداً.

ربما بسبب شفقته عليه، ويقينه بأن الرجل صاحب خسارات يليق به الحزن. لكن ما يحيره الان، هو تلك الكلمات النبوئية التي قالها له: «إذا تأخرت لا ينشغل بالكم» كان صوته قد اختلط بشخير الحصان المستعد، حين تلفظ بها. وها هو الآن يجيبه: «تأخرت كثير يا بو حمد!»

(٥٠)

«سمع حسّان طرقاً على بابه، وقالت أخته أن محاسن في الدار، وأنها تريدُ الاستماع إلى الراديو الذي اشتروه منذ بضعة أيام. سمع صوتها في الداخل. ذلك الصوت الموسوس الذي يسرع في لفظ الكلمات، فحمل الراديو بين يديه، وقال لأخته «هاتي البطارية!»

كانت تستند إلى النافذة، وقد لفت رجلاً على رجل وهي واقفة. فتذكر صباح في ذلك الصيف الحزيراني القديم الذي دخل فيه إلى بيت صايل ليعرف ماذا يحدث بينهما، استغرب كيف يمكن أن تتجدد الذكرى، وتعاد!

شغل الراديو، وأدار ابرته ببطء، بينما اقتربت محاسن حتى صارت قربه، الآن، صار بوسعه أن يشمَّ رائحتها التي كانت تشبه رائحة الخشب (رائحة صباح كانت كالجذع المنخور، وقد بدت محطمة ذلك النهار، وأربكت قلعة آل الفضل بشجارها العنيف مع صايل، كانت تلك هي أول مرة يرى فيها امرأة تحمل كلَّ ذلك الهياج الطائش، والسخط، وهي تصرخ في وجه صايل الذي بدا، أمامها، مثل جبل غبي، يحملقُ بفم مفتوح، وعينين جاحظتين).

راح الردايو يغني لحضيري أبو عزيز، غير أن محاسن لم يعجبها، وقالت: «خليه يغني غيرها!» ولكن أمه قالت: «هذه أحسن شي» فمطت البنت شفتها، وتركت الدار لا مبالية. كان كاحلها بارزاً وشديد البياض، بضاً ورطباً إلى درجة أنَّه بالامكان اذا ما عصر أن يرشح ماء، وأخذ فستانها يتأرجح يميناً ويساراً حين مشت، لأنها أخذت تخطر في مشيتها، وتتبختر، وأراد أن يقول لها شيئاً ما عن كامل

الفضل. ولكن البنت ابتعدت وصار من الصعب أن تعود الآن. إلا إذا وافقت أمه أن تغير أغنية حضيري.

أغمض عينيه، وهو يحسُّ بالقهر، وساوره شعور بأنها ما كانت تريدُ الراديو، وقد ارتدت ثياباً جديدة، لم ينتبه لها أحد، أمه فقط، كانت تحدجها بنظرات غاضبة: «لماذا؟! مَم تخاف؟ أمن فستانها الذي رفعت طرفه إلى ما فوق الكاحل، أم من كرهها للمغني العراقي الحزين؟!»

* *

في ذلك النهار، قالت صباح كلَّ شيء، صار وجه صايل وجه ميت. وقد شاهده وهو يمسك ذقنه كأنما يحاول حمايتها من السقوط، كان يستمعُ اليها «بكرْهك!» قالت. فاخترقت جسد كامل موجاتٌ مباغتة من الرعشة، والبرد.

كانت الغرفة معتمة جداً، وممتلئة بالذباب، وكان الأثاث مبعثراً، وثمة بعضُ الوسائد المرمية، وقد بقرت، وانتشرت حشوتها من ريش القمح. وكان البخار يتصاعدُ من ابريق يغلي ويطقطق، وقد غطّى صوت غضبها على كل شيء، وحين أخذ الآخرون يتوافدون، راحت تفقد عقلها، لحظة بعد لحظة. ولم تعد تكتفي بالكلام وبدأت تكسر الأشياء القليلة الباقية من مجزرة الفرنسيين. لم يتحرك أحد لمنعها، وصارت عرضة لعشرة أزواج من العيون المحدقة، كعيون البوم، وسط غابة الحقد البارد.

انهارت بعد قليل، وطفقت تبكي بحرقة، وتنوح على نفسها، وهي تتوسل اليهم، وتوجه بصرها نحو كامل ضارعة، راجية «خليه يتركني!»، رجتهم، ثم حاولت الخروج راكضة، لكنهم منعوها أمسكت بها النساء بقوة، وكانت ثنيه قد وصلت، وضربتها بعصا كانت معها، فلم تحاول الرد، ولم تنظر اليها، واستكانت فجأة وصمتت، ثم رقدت في فراشها، وخرجوا.

في اللحظة نفسها جاءت طائرة، وحلقت فوق المكان بضوضائها، فهربوا

إلى المغارة، باستثناء ثنيه التي ظلت جالسة وحدها، تراقب غرفة صايل، حيث كانت صباح هي الأخرى تنظر من المصراع المفتوح نحوها.

لكن الطائرة لم ترمِ أيّ قنبلة، وحلقت مرة واحدة، ثم تركت المكان واختفت في السماء الصيفية الحارة.

بعد ساعة دخل الخرائب أربعة فرسان، مسلحين حتى العظام، ولم يتسنَ لأي رجل من رجال أمّ الجرابيع، أن يفزع إلى سلاحه، وقد رفع أحد المسلحين كفّه، صارخاً: «صاحب! صاحب!» حين رأى، كيف اندفع الرجال في جميع الاتجاهات، وطقطقت الأسلحة والسيوف.

كانت لهم رائحة سنديان، وحينما ترجلوا، بدت عليهم سيماء القرابة، وقد سلموا، وجلسوا بين الانقاض، شربوا القهوة، ثم تكلم ذلك الذي قال صاحب قبل قليل، كان حديثه عائلياً وربت على ظهر صايل، متحسساً قوة عضلاته في الوقت نفسه:

«قالوا إنك قادر ترفع جمل» فقال صايل وهو يلف سيجارة:

«لكن ما بساوي قشرة بصل!»

فحدق الرجل فيه مقوضاً، وبلَعَ ريقه، محملاً نفسه في السر، دون سبب مفهوم، وزر الاجابة الصفراء. وقال:

«لَهْ! ما عاش مين يذلّك»

فضيق صايل ما بين عينيه وقال بلا روح:

«ماني ذليل، بس صار بني آدم رخيص»

كانت عبارته تلك مفتاحاً حراً للرجل كي يعلن سبب مجيئه إلى الخربة، وقال: «نحنا من عند بهاء الدين»، مبتدئاً لكلامه. وقد تركت العبارة، في وجوه آل الفضل، زنابق وجودها القوي، ركض الاولاد إلى الداخل، وصرخوا امام النساء، بالنبأ القوي، كانت لبهاء الدين هنا، سمعة الملائكة، وخلف اسمه منازل فرح، فزحفوا من جميع البيوت إلى الساحة، حيث كان الرجال قاعدين. وبدا

للنساء كأن الله استجاب لدعائهن الذي ظللن طوال السنة الماضية، يجأرن به، كي يستطعن الطمأنينة على منازلهن من غطرسة الفرنسيين ووحشية كنج.

حين وصلت، بدأت ثنيه تنتحب، وبكت النساء معها، وقد عجز قائد الجماعة عن الكلام، ولم يعرف كيف يعزيهن، وظل جامداً يتطلع اليهن، بينما أطرق رجاله إلى الأرض «بكفيٍّ» دمدم الشيخ شمس الدين بلطف، لأن بكاءهن كان ملِحاً للعزلة السوداء، والخوف الطويل، فصمتن، وتلثمن، ونظرن قلقات إلى وجوه الضيوف هائمات لمرأى الرجال الآتين من الحدود البعيدة، حيث يقطن بهاء الدين.

مرَّ وقت قبل أن يبدأ الرجل كلامه، مسدَّدَ شاربيه وراح ينظر، في ضوء المساء الشاحب، إلى الجمهور البهي الذي يلتمس كلماته: «بهاء الدين بيسلم عليكم» هكذا ابتدأ حديثه الذي استمر أكثر من ساعة، جمع فيه كلَّ ما استطاع من ذهب الكلمات، كي يزرع في الارض القاحلة، لأم الجرابيع، رسائل بهاء الدين الاخيرة. فالباشا البعيد الذي يجوس في الحدود، كان يعرفُ كل شيء عن المكان الطيب الذي التجأوا اليه، ذكر ما تعرضوا له، بحزن، ومدح رجولة كامل، واخوته، وأصهاره، وقال إنَّ وهج حربهم، وصل إلى أقصى الجنوب، والشرق!

هنا تبادلوا نظرات ريانة، وقد ملأتهم راحة الاخبار التي اشعرتهم بأنهم لم يكونوا وحيدين أبداً.

كان الرجل يود قول شيء عن شاهين الخليل، وعن ترحيله إلى بيروت ولكنه أجل ذلك قليلاً، ريثما يستطيع المرور جيداً إلى قلوبهم، ثم ما لبث أن ألغى كل فكرته، حين وجد أنه لا ضرورة لقول أي شيء عن رجلهم الغائب الذي ضاع الآن، كانت قسوة منه، كما ظن، أن يسحق التباشير التي قدمها لآل الفضل، بالنبأ القاتل، وعلى كل حال يمكن تأجيله [وقد أسر به في اذن كامل، حين طلب أن يختلي به، فشكره هذا وقال «كثر خيرك!»] لأنه كان يعلم أن مرارة الخبر سوف تحطم إلى الأبد، مصابيح الامل التي زرعها مجيء الفرسان البهائيين الاربعة.

«رايحين ندبر كل شيء» قال كامل «ما عليك» راجياً أن يعلموه هو وحده بكل شيء يعرفونه عن شاهين.

كان الرجل الذي سمى نفسه: «المقداد» مربوع القامه قوي الملامح، وقد قام بدعاية بارعة، كي يستطيع اقناع آل الفضل بالانضمام إلى جيش بهاء الدين، وقال إنَّه يحمل رسائل إلى جميع القرى، ولهذا سوف يرحل، عند منتصف الليل كي يتحاشى مراقبة الطائرات التي ظلت تلاحقهم طوال النهار الفائت. كان صوته ممتلئاً بالثقة، وقال لكامل شيئاً ما، عن حرية الوطن، والاستقلال، مصوراً ذلك بالكلمات البهية المقدسة المصنوعة من الاحلام الكبيرة، والرغبات، والمشاعر، وظنون الأمان، حتى أن ا لناس هنا، صدقوا أن كلَّ طلقة سوف يطلقونها، سوف تعجل برحيل المستعمرين الذين أسرفوا في الهمجية! «طلّع هون!» قالت ثنيه «ما تركوا لنا صحن واحد ناكل منه، ليش جايين؟». وفي الحال تذكرت أنها لم تطعم ضيوفها بعد، فلطمت خدها وقالت: «يا باري! نسينا العشا!»

ولأن الضيوف قرروا الرحيل، بعد منتصف الليل، فإنَّ أم الجرابيع لم تنم، وقد ذبحوا جدياً صغيراً. وطبخوا البرغل في الدست الكبير الباقي الذي انبعج في الحملة الاخيرة. وملأت رائحةُ الطبخ وثرثرةُ النساء، وصياحُ الاطفال اللاهين الفراغ الحجري الذي كان منصتاً، ساكناً قبل ساعة، وتوزعت في المكان أحاديث الحضور، وأخذ فضل الله ينشد على ربابته، حين ظهر القمر، فوق الساحة تماماً، كان صوته قوياً، حاداً، وشبيهاً في بعض الالحان بالنداء. أما غناؤه، فكان عميقاً جداً. وقد أسرف في ذكر الحروب، والنزاعات. كان لديه كمٌ هائل منها، منذ حرب البسوس إلى التغريبه، ومن عنتره إلى الظاهر بيبرس إلى أيام سامي باشا ودحام. وأخذت ذكريات المعارك تترى، وتنشِّط حماس الرجال، فأبدى المقداد اعجابه بالشاعر، وقال حين انتهى «يسلموا ملافظك!» في اللحظة نفسها التي جاء فيها هايل، وصالح، يحملان منسف الطبيخ الذي كان يتصاعد منه بخار عاجيٌ متلألئ.

* * *

(٥١)

في اللحظة التي اتكأ فيها كنج الحمدان على الوسائد قرب أحمد الجزار، رأوا جميعاً، في العتمة الحالكة التي خلفها ضوء المصباح الألماني الشحيح، شبحَ رجل قصير مطوق بالحديد، والذخائر ينبجس فجأة، مثل وحش، من الظلمات، وهو يعرج وينظرُ شزراً إلى الجمع الساهر على المصاطب الخارجية لمضافة آل الحمدان. وقد أحدث وصوله، بلبلةً، جعلت شفتي ابراهيم الصحن، الذي كان قبالته يتمتم بلسان مرتجف مذعور «الذيب!!»

احتار الرجال، فيمن يحدقون، في ابراهيم الذي ازداد سواد محجريه العميقين المحاطين بحاجبين مقرونين، أم في الرجل السريع المتفخ، القادم كالموج الزاخر: كان له وجه نهّاب، وجسد مسخ لعين مولود من الشيطان، تفوح منه رائحة صدأ، وشراسه. ووقف هادئاً، بعيداً عن الرجال الذين حملهم الهواء الخفيف، والحضور الثقيل، على محفة الذهول:

بدت نظراته مليئة بالفتنة، وهو يراقبُ الرجال السبعة الذين بحلقوا فيه، وقد فغروا أفواههم، وارتبكوا وتقوضوا في غبار الهلع، ولم يقوَ واحد منهم على التفوّه بحرف، بعد الكلمة المحذرة التي نطقها ابراهيم.

وفي البرهة القصيرة التي امتدت فيها يدُ كنج إلى بارودته لاحظوا ابتسامة، آسيانة، وصافية على وجه الذيب الذي اختفى تاركاً بلبلة، وضوضاء، في ليلة الساهرين: أخذ أحمد الجزار يدبُّ على يديه، وركبتيه، بدل أن ينهض، وفرك سليمان الشبل عينيه كأنما يريدُ انتزاع صورة الرجل منهما، وقربه، وضع طلال

الراعي الذي لم يعد راعياً، ذقنه على مسند عصاه، عاجزاً عن السمع أو الرؤية، فيما راح ضامن العسّال، يمسحُ عرق جبينه، وقد شحب كالقش.

متى أفاقوا؟ لا أحد يعلم، لأن الذعر، لاشى الزمن، وكل ما استطاعوا فعله، هو أنهم ركضوا خلف الشبح، في الاتجاه الذي فرَّ منه، لكنهم لم يجدوا أي شيء، سوى الفراغ المهلك.

نادى كنج جميعَ المرابعين، وأمرهم بتفتيش بيوتهم، وفُرش نسائهم، وألبسة الأطفال، والمعالف، والتبابين، ومقابي الجلة، والأشجار، وأسرجة الخيل، والمزابل، وكل زاوية وركن وعتمة في قلعة الحمدان، لكن الرجال، عادوا خائبين، بعد نصف ساعة من الركض، والبحث المتواصلين، فهز كنج رأسه، وقال «معلش!» بلهجة تهديد حاقدة: «الصباح رباح!»

حين رجع، كان مثل سمكة، يتخبط في شبكة التساؤل المرير المرعب: «ما الذي يريده منه سفاح قاتل مثل الذيب الأعرج؟»

كانت أخبار الذيب الجديدة، كلها، عنده، وقد صار معروفاً لدى كل شخص، أنَّ ذلك اللص، استهدف دائماً الفرنسيين، أو الرجال المتعاونين معهم، وأنه سلب، أكثر من ثلاثين منزلاً من منازل المتطوعين في فرق البارتيزان، أما التعليقات التي كان ينشرها أنصار الذيب ورفاقه، فكانت نكتة محضة، حين رددوا أن حسن يريدُ أن يثبت لاولئك الذين ارتضوا أن يحملوا اسم الفدائي، من هو الأجدر أن يفخر بذلك الوصف الجهادي العظيم!

صار خدا كنج كأوراق الفجيلة، طريين وشائكين، بسبب العرق الغزير الذي رشح منهما، والشعر القصير الذي صلبه الغضب والخوف.

شبت ثلاث حرائق في أطراف المنارة. حيث كانت تعسكر سرية الفرقة الاجنبية. وفصيلة من الفرسان الشراكس، سادت الفوضى، والاضطراب، حين بوغت الجنود الذين كانوا يتهيؤون للنوم، بأصوات الاستغاثة، وفرقعة النار.

وبطريقة عجيبه، لم يروها من قبل قط، واضحة جداً، جهيرة موغلة في التمسرح، رأوا الشبحَ القصيرَ المتوحش ذاته، واقفاً فوق سطوح البيوت التي جعلها السرجان جان دوتي، والكابورال أحمد سليم الدين، مقراً لقيادة عسكرهما، كان وجهه كلسياً، أو من الخشب العتيق المشقق، وجه مسرحي ساخر، وهو يعرض على الثلة التي رأته من جنود أوروبا، عضوه الكبير، في احتفال ايمائي ممعن في الهزل، والكوميديا.

لكن كلّ المفاجآت، عند الذيب، كانت تحدث في اللحظات الميتة، في نقطة الجذب القصوى، حيث يكون كل شخص. ممن أذهلهم فاقداً، لأية قدرة على التفكير الصائب، والاتجاه المضبوط، كانت حركاته مثل الرقى السحرية، شدهت المتفرجين الذين ترمدوا، وهم يشاهدون الشبحَ المجلل بالبياض، وهو يؤدي أمامهم، بمهارة، رقصة الموت، والحرائق، والشبق.

بعد ذلك، قفز في الهواء، وراء البيوت، وركض نحو المنارة مقوس الظهر، حيث ابتلعه المدى، وسمع الجنود، صوت السرجان الممطوط، وهو يلقي الأوامر، بثبات، ويقين.

كانت الحرائق تنطفئ، وقد استيقظ المعسكر بكامله، وبدأ خلائط من جميع لغات الأرض تُسمع غربي المنارة، غاضبة منادية مستجيبة، ومستعده، بينما كان كنج، في الأعالي، يقف مأخوذ العقل، يتأمل لعنة النار، التي ابتلاه بها الذيب الأعرج، أقسم أن يقتله بنفسه «والله!» صرخ، أمام رجاله «والله! والله!»دون أن يعرف ماذا يقول، بعد هذا.

حاصر الفرسان البلدة، من جميع الجهات، واحكموا الطوق خلال نصف ساعة فقط، أما المشاة، فقد وزعوا حسب انتماءاتهم: دخل الالمان من جهة الشرق، والانكليز والايطاليون من الجنوب، أما الاسبان وهم قلة، والهولنديون، فاخترقوا الساحة الرئيسية عند قلعة آل الحمدان، وراحوا يصعدون، بحماية الفرسان، نحو بيوت الجزارين.

كانت هذه الخطة من ابتكار جان وحده، وقد شرحها في كتابه بعد ذلك قائلاً: «إن سبب الفصل، كان الليلُ، والرغبة في معرفة ردود الفعل القومية، تجاه الاعتداءات التي تستهدف حياة الجندي!»

من القلعة، اندفع أحمد الجزار، نحو البيوت فجأة، بعد أن اختطف بارودة كنج، لحق به ابراهيم الصحن الذي رمى ضامن العسّال، وهو يحاول اغتيال الجزار، ثم أخذ بندقيته أيضاً، بينما استغل سليمان الشبل، الجلبة، واختفى كالثعبان.

لكن الفرسان الشراكس، داسوا أحمد الجزار، بسنابك خيولهم، بعد أن رمى واحداً منهم، بطلقة في الرأس، أما ابراهيم فقد أصيب في كتفه، وسقط، في كثيب جلة هائل، يئن، ويتوجع.

هذه البداية العاصفة، زادت في غضب الجنود، وحماسهم فسدوا جميع المسالك، والمخارج، وراحوا يقتحمون المنازل واحداً، واحداً، وهم يطلقون صيحات رعب وحشية، وصراخاً شبيهاً بالعواء، ويكسرون الأبواب، ويندفعون داخل البيوت، ثم يقلبون كل شيء، باحثين عن الشبح الابيض.

بقروا الكواير الطينيه، وأكياس المؤونة، والجرار البريئة وظروف السمن، واللبن، التي سالت كالينابيع، وغذت ثمار الاعوام وتعب الليالي الطويل.

وفي الحارات الجنوبيه، راح مزيد الحكيم، يقذف الجنود بالمقلاع فأصابت الحجارة بعضهم، قبل أن يكتشفوا مكمنه، حين برزت قامته، في ضوء الحريق الذي شب، وراءه. فأطلقوا نحوه جميع بنادقهم، قاوم الموت وهو يصرخ، ويبعد الضربات الثقيله التي صدمت صدره، وبطنه، وفخذيه، ثمّ هوى نحو باحة داره، التي اقتحمها الجنود، في الوقت نفسه.

كان أولاده يعانقونه، وهم يبكون، وينوحون، فرمى أحد الجنود مشعله إلى الداخل، ثم فرّ وراء رفاقه الذين سلكوا الطريق المجاورة.

ووراء كل جماعة، كانت تنشب حرائق مجنونة، وقد شطرت النار سقوف البيوت وهي تحشرج، وتلتهم القصب، والأخشاب وتصعد، مثل بهلوانات متنمرة!

وبعيداً عن المنارة، وقف السرجان جان، يشرح لليوتنان زهران، الذي خف من قصر المطر، ما حدث، وراحا يراقبان معاً الهجوم وهما يكظمان غيظاً، وضغينة. «النار للنار» كان يردد، ويتمنى في أعماق قلبه أن يقبض على ذلك المهرج البدائي، لكي يسلخ جلدة رأسه، ويقطع عضوه، ويرميه للكلاب، وكلما اتقدت النار في أحد أطراف البلدة، كان يقرع كفل حصانه، بسوط قصير وهو يرجف كتفيه.

المفاجأة حولت أهالي المنارة إلى أرانب، حشرات مدوره مداسة تحت نعال الجنود، وهم يركضون مذعورين، في كل الجهات، وقد عميت أبصارهم، وعلومهم، وما عادوا يعرفون بلدتهم، فأينما فرَّت النساءُ، كنَّ يرين حشود الجنود المهاجمين، أو خبب الفرسان. يرتددن إلى الوراء، وهن يصحن، ويولولن، ليواجهن، في الجهات الاخرى حشوداً أخرى، وجماعات حرائق، وصيحات أجنبية غريبة، وطلقات رصاص، لحق الفزع بالرجال أنفسهم، حين رأوا كيف أخذ الفرسان الشراكس يتمتعون بلعبة دوس الصدور الآدمية، وطقطقة العظام تحت الحوافر الحديدية الرنانة، فابتدأوا يفرون خارج البلدة، في رجاء أخيرٍ لبقاء الارواح، متخلين عن المنارة التي صارت لها رائحة مزبلة، وأنقاضُ خربة.

وفي الشمال، انقض أربعة رجال كالعقبان، (هم علي الشبل، وسليم الجردي، وحمد ومحمود الحسن) بالخناجر نحو أربعة جنود، كانوا يخربون بيوت آل الحسن، فمزقوهم، ونهبوا أسلحتهم وذخائرهم، ثم تسللوا تحت سور القلعه، خارجين من الطريق الشمالية، حيث كادوا يقتلون سليمان الشبل الذي راح يصيح «صاحب! صاحب!» عندما رآهم قادمين.

لكن نصف سكان المنارة، ظلوا محبوسين وسط الليل المشتعل ودخان

الحرائق، وأمواج الجنود، والفرسان الذين ملأتهم النار، والصرخات والبلبله، وفزع النساء، ورعب الأطفال.

صارت المنارة خليطاً من هياج الجنود الاحمر، والانهيارات الحجرية الضخمة، وزعيق الحيوانات الاعمى وهي تحترق، وأنين الجرحى الذين تهدمت عليهم الحيطان، أو رقص البشر الذين طالتهم النيران وحولت لحمهم إلى قش أرجواني منتفخ، وهم يتدحرجون ويرتطمون بالحجارة، وجذوع الأشجار، حتى يرقدوا، أخيراً، بسلام في المكان الالهي الآمن.

ومن الأعالي، راح كنج، يحدّق في اللهيب بعينين حانقتين مليئتين بالدموع، كانت البلدة تبدو، مثل نجوم مشتعله، جواهرظلام. وداخل عقله، كان صوت ندابة، يدمدم، وينوح، ماذا بقي له من ملكه العظيم سوى هذه الأضرحة التي امتلأت بالموتى، والمحترقين؟ هذا الصخب الذي سيظل يهدر إلى الأبد، وسط ساحات المنارة، وابنيتها العاثرة، وجلدها، وأغصان أشجارها؟ ماذا بقي له في نشيد المذابح، ورعب الشعب الخارج إلى البراري، فاراً مذهولاً من عنف الامبراطورية الموسومة بالقوة، والمهارة الحربية؟! «تفوووووا» بصق على لحيته التي لم تستطع حماية بلده من الدخان، أخيراً، اكتشف ذلك الوحش الذي ظل يداريه منذ اصطدامه بآل الفضل: الخوف! إحساسه الغامض بتفاهة وجوده! وكيانه المهزوز، ومشيخته المنخورة إلى العظام! أي معنى لكل ما بناه آل الحمدان، إذا استطاع سرجان مجنون، أن يحرقه في ساعات؟! جندي يبول على مئة عام! وها هو سليلهم، أخرس، صامتاً يزن الموت بعينيه، دون أن يفعل شيئاً، ماذا سيبقى لك سوى الهشيم؟ الصباح رباح!! خطر له أن يساوم جان، ليتوقف ذلك المجرم اللعين عن حرائقه! ماذا يريد؟ لماذا يفعل كل ذلك؟

لكن صوتاً عميقاً، وقاتلاً، خاطبه من داخل عقله: ألم تفعل مثله يا كنج؟! نعم! لكن مبادئه كانت نزيهة تماماً! ورغم شرور أهل المنارة، فقد عاملهم حسب قوانين الرجولة: أن لا يموت الذئب ولا يفنى الغنم! اللعنة على الذيب! عاش

الذيب! الموت للغنم، راح يصرخ طالباً ضامن: «يا عسّال! يا كلب! يا خولي! يا ابن الحرام!» كان يريدُ إرساله إلى السرجان: «قل له كس أمك!» ثم توسَّلْ اليه أن يوقف هذه المذبحة» لكن الخولي صار يبكي «دخيلك» همس أمامه بضراعة «لاتجبرني يا بك!» فيبتسم كالميت، ويربت على كتف خادمه، ويقول «اقعد! لاتروح!» عندها يعبُّ العسّال رطلاً من الهواء المشبع بالهواء الساخن والدخان ويمسك يدَ كنج بحنان، ويقول «تعال يا بك! ادخل للمضافة بكفي، تعال!» فيمشي معه، مبتعداً عن مشاهد الخراب الفاجعة فيما كان أفق المنارة مطموراً بوهج قرمزي وشآبيب نار وضباب أسود حجب النجوم، وما تزال تتعإلى، من هناك استغاثات النساء، وضراعات الأطفال، وجئير الرجال المخذولين، المتروكين، عرضة لاغتيال الجنود.

«بتتعشى يا بك؟!»

شعر كَنج أنه جائع فعلاً، ولكنه ودَّ قبل ذلك أن يسأل الخولي إن كانا سيستطيعان رد الموتى إلى الحياة، أو جبر كسور الأحياء، أو بناء البلدة من جديد، أو تعويض الخسائر التي حطمت أرواح البشر هنا، نستطيع تجبير أضلاع الجزار؟! أو معرفة لحم النساء المحروق من الأولاد من الحمير.

سمع الخولي يسأل مرة ثانية «بتتعشى يا بك»

قال «أي»

قال ضامن «شو مشتهي؟ قول! خروف مشوي! سمن مع العسل! بيض وجبن ولبن؟!»

فضحك كنج، وقال بلا مزاح:

«اخلط شويه شعير مع التبن وهات طعميني! هذا عشاي!»

* * *

(٥٢)

وصلوا الى أم الجرابيع، قبل الفجر، ونبحتهم الكلاب منذ أن ولجوا الممرات، وحاصرتهم، كانت سبعة منها فلتانة منذ أن فوجئوا قبل فترة بدخول فرسان بهاء الدين.

كانوا يبكون، فراح كامل، والشيخ شمس الدين، اللذان راقباهم يسرعان، لكي يعرفا وجهة الرجال، كانت خطاهم تتجه نحو الخرائب فصاحا معاً: «وش الزول» فتوقفوا هناك، ودمدم واحد منهم «صاحب يا بو محمد!»

«سليمان الشبل؟» همس كامل لنفسه، مستغرباً مجيء الرجل الذي لم يتخلَ في أي يوم عن آل الحمدان:

«حط سلاحك وقدم يا بو حسن!»

فأطاع الرجال الخمسة بلا تردد، كانت خطوة سلام جريئة، حيرت الرجلين، أكثر من سماع النحيب الرجولي.

في الخرائب، أعادوا رواية الحرائق كلها، بينما راح آل الفضل ينصتون إلى الحديث الذي عرفوا مرارته من قبل، لقد رأوا مثل ذلك، فبدا حديث الشبل، وأولاد الحسن إعادة حزينة، وآسيانة، للعذاب الذي لا قوة. ثمة نير ينيخ على الكواهل، ويدفع الناس نحو المقابر، وأعراس الذل، فقال كامل للرجال الخمسة «الله لا يسمع من ساكت». قالوا إنهم حاولوا منعَ الجنود، ومقاومتهم، لكن القوة جبارة، ما كانوا سوى أفراد عزل بلا حول.

ودمدم سليم الجردي: «الله يلعن الذيب الأعرج»، وفي يقينه أن الرجل المارق هو الذي سبب للمنارة، كل تلك المصائب، طارت شرارة من عيني صايل، كان ينتظر تلك النار من قرن، وقد امتلأ دمه بالتراب، والملح، ونهض قبالة سليم هاتفاً: «والله، لو ما كنت في بيتي لقتلتك!» كان وجهه من حجر، وكانت بندقيته في يده، واصبعه على الزناد، بوغت الرجال بتهديده الحديدي الصدئ، ولم يدركوا معنى كلماته الا عندما انفجر بالصراخ، بعد ذلك: أراد كامل أن يسكته، وراح يضغط بكفه المفتوحة على فخذه، دون جدوى. تجاهل حركته، وسألهم، وهو يشزرهم بنظراته الحاقدة:

«وين كنتو، لما الذيب قوس عَ بيت كاربيه؟! وين كنتو يوم مات نايل؟! ليش ما جيت عَ الاجر يا بو حسن؟ وانت يا محمود؟ خفتوا من فرنسا؟ ولا من كنج؟» سكت قليلاً، متأملاً وقع كلماته، فأسرع كامل يقول محاولاً استرداد لحظة الامان التي منحها للرجال الهاربين من النار، منزلهم الحصين «أهلاً وسهلاً!»

لكن صايل كان قد أفلت رماد قلبه، وراح يذروه في فضاء المضافة، لم يبالِ بأي شيء، وبدت لديه تقاليد ألف عام، مجرد فقاعة، يمكن أن يدوسها ويلغيها، إذا كانت المنافع تريد ذلك، هذه المره وجه الكلام لأخيه: «كيف تركوا دم نايل يروح هدر؟ اليوم جايين يشتكو من الضبع يللي موتوا» ثم بدّل لهجته وقال لهم:

«تأخرت يا بو حسن، وأنت يا محمود، وأنت يا حمد، لو ما حرق السرجان بيوتكم، كنتو حاملين البواريد مع كنج، قوستوا عَ أم الجرابيع، ويمكن جيتو معو لتقتلونا. صار الذيب ملعون ها؟ لأنو حرق بيوت العسكر» صاح كامل «سكت! عاد! سكت!» لكنه لم يتوقف، وسأل «ليش ما لعنتو فرانسا؟ طيب العنوا الكابورال سليم الدين!»

لم يستطع الرجال الفارون قول شيء، لقد شلتهم حقائق صايل الدخانية، وامتقعت وجوههم، وأراد كامل أن ينطق فأشار له الشبل الكبير قائلاً «ابن عمنا على حق يا بو محمد، ونحنا ما في عندنا كلام ثاني نقولوا أو. . . » فنهض صايل، وغادر المضافة.

سلك طريق الممرات وحيداً، يصحبه كلبا عنيزه اللذان كانا يجوبان الوعر هناك، ووجد نفسه متوجهاً نحو المنارة، كانت قدماه تسوقانه بعناد، وتخطى تلال الغربان بعد ساعة، حيث بدأت تتسرب إلى أنفه رائحة الحريق السوداء. أخذت تظهر في دوائر الافق كتل الدخان الزرقاء، والصفراء، والحمراء، وتوقف لحظات، هل يتابع؟ ما الذي يريده من المنارة؟ ماذا يعني أن يأتي كل هذه المسافات؟ ليرى؟! شعر بالعطش، وبالجوع، فجلس ولف سيكارة وأشعلها، فيما كانت الشمس تبزغ، طار رَفٌ من عصافير أبو زريق وهو يسأل: ماذا سيرى، مم لم يخسره بعد؟ هل خسر حقاً أم كسب؟ قام، وواصل سيره باتجاه القرية، بينما امتلأ المكان بنقيق الضفادع في برك الزعاتر التي مرَّ قربها، بانت المنارة فجأة، آ. . ها. همس بفرح بدت رماديه، طافحة بظلمة كثيفة، من الدخان، خرساء، ملونة بألوان الموت. «أخيراً يا عاهرة!» قال لها. وفي اللحظات التي كان يفترض فيها أن يبكي بسبب هذا المسخ، هذه الخربة التي كانت ذات يوم بلداً، صار يضحك. لقد انتقم الله لهم. وعجل في اختبار أولئك الذين تخلوا عنهم ساعة الشدة. «موتوا يا كلاب!» دمدم بحقد لأهل البلدة، «يا مرابعين!». ثم راح يقهقه متوجاً بأبهة الشامت، بألق المنتقم، تعجب من أسرار الخالق العظيم الذي يمهل ولا يهمل، متمنياً أن يرى وجه كنج، مرة واحدة، ماذا يقول ذلك الخنزير عن نفسه؟!

دار دورة واسعة حتى يستطيع رؤية البلدة المسحوقة من جهات الارض الاربع. كانت المعسكرات خاوية، تتصاعد منها أمواج دخان ضئيل. وفي الناحية القبلية، فوجئ بالهاربين الذين باتوا ليلتهم في العراء. كانت حشود من النساء والاطفال، والرجال محشورين بين أرض الصفا، وسكرة ملُّوح، يحدقون في المنارة بذهول، وكانت قطعان غنم وحمير داشرة، وخيل تصهل في السهل، بينما ظلت قلعة آل الحمدان ساكنة، وصافية، ووراء بوابتها العثمانية الضخمة، ولأول مرة منذ سنوات تجرأ صايل على الاقتراب، في وضح الشمس المشرقة، رآه نصف اللاجئين الفارين، لكنه لم يكلم أحداً، كأن الكارثة خلقت جبلاً من الرمل الأسود والبغض، بينه وبينهم، ولم يستطع اخفاء شماتته، ولا إحساسه الباطني بقدرية ما

حدث، وربما وشت عيناه، وحركاته المتعجرفة (بسلاحه الكامل، وبذلته الفاحمة، وشاربيه المتوهجين، وتحديقه الفاجر في ضعفهم وهزيمتهم) بكل ما حفظه قلبه طوال السنين المرة التي غاب فيها عن المنارة، كان ناشزاً ضمن تلك الجوقة الرثة من الفقراء المشردين، المنتشرين في أصقاع السهول والوعر، بلا شعائر، ولا قرابين، ولا حماية. وكلما تمشى حولهم زاد إحساسه بالحقد، وراح دمه يتغطى بأشنيات خضراء، وطحالب. وشمله يقين بنذورية ما يحدث. لا بدَّ أنَّ هذا هو القربان الالهي لتلك الدعوات، والضراعات، والتوسلات اللا نهائية التي بذرتها في وعور اللجاة، وخفايا أم الجرابيع، والممرات، والتلال الصعبة، بناتُ آل الفضل.

وعند الضحى رأى فرساناً يخرجون من القلعة، تبعهم أكثر من عشرين يحملون مناسف، وخبزاً، وصارت السماء زرقاء فجأة، حين هبت رياح جنوبية حارة، وتمايلت بقية الاشجار، لكن طائرة اخترقت الشمال، وقصفت البلدة، فَخَلَتْ الارض من كل حركة، جمدت الكائنات، وشغل الانفجار صايل عن سماع الصراخ والنحيب اللذين تعاليا في أرض الصفا. قصفت الطائرة السهل أيضاً، وقتلت خمسة خيول، روعها الأزيز السماوي الغريب، ثم اختفت، باتجاه قصر المطر.

هذه المرة، لم يفكر صايل حتى بنزع بندقيته عن كتفه، اكتفى بالفرجة، واللا مبالاة. وظل قاعداً عند الصخرات المطلة على أطراف المنارة والسهول، ضحك قليلاً، ضحكة ثأر، ثم وقف، وأدار ظهره للمنارة وأهلها، ومضى نحو أم الجرابيع.

* *

وصل إلى هناك مساءً، فأدهشه المنظر الغريب الذي رآه، حيث فوجئ بأخيه مرتدياً ملابس الحرب، يستعدُّ للرحيل بصحبة رجال المنارة، قال كامل «هلا بو نواف» حين دخل إلى الخرائب، لكنه مط شفتيه وحدق في وجه أخيه بعيني محتضر، لم يكن محتاجاً للكلمات، فاستدار وصاح «جاهز يا بو حسن».

ما كانت المفاجأة، أنَّ أصهاره، خرجوا من هناك، انما تلك الرؤيا الغريبة التي لم يصدقها في اللحظات الاولى، حين برزت من بيت الجمل، ثنيه نفسها، وهي مجندة بالذخائر والسلاح، مشدودة بنطاق خرزي مزخرف، منتعلة حذاء معمرجي، ومتلفعه بحطة حمراء بلا عقال.

لم ينطق بحرف، لأنه يعرفُ جيداً، ذلك الوقت الملائم للصمت، وابتلاع المرارة والخضوع لنزوات آله المجانين، يعرفُ أنه سيهزم إذا ما عارض، أو أبدى احتجاجاً، أو حاول أن يقدم المواعظ، ثمة شيء ما متعفن، ومقوض، يهتز داخل كيانه، غرقت أعماقه في طين بري، وصارت رأسه فاسدة، مخربة، وتعبأت بالضلالات والفوضى. ماذا يقول؟! إذا كانوا يرغبون في قتل أنفسهم دفاعاً عن مملكة كنج اللعين؟ ماذا يقول لهم إذا كانت الدنيا هكذا فاسقة وبلا شرف، منذ قال لها كوني فكانت؟

ودعهم صامتاً، لم يقل مع السلامة، فلامتهُ ثنيه بعينيها السوداوين المليئتين، كانت تريدُ أن ترجوه، كي يذهب مع إخوته ولكنها لم تفعل، ليبقَ إذا شاء، فالخرائب تحتاج لرجل دائماً هكذا فكرت، وهي تغادر أمَّ الجرابيع آخر الفرسان.

* *

عند مغرب الشمس، سمعت السرية المرابطة، أسفل قصر المطر، زغردة امرأة في مكامن الصخور البعيدة، لم يفهموا معنى الصوت النسوي المعبأ بالفرح.

أراد الكابورال أحمد سليم الدين، أن يشتم صاحبة الصوت، لكنه ترك فمه مفتوحاً إلى الابد، بعد تكة واحدة، حين اخترقت خده رصاصة نفذت من قفا الرأس، سقط عن الطور العالي الذي كان يجلس عليه، ومات.

الذين حوله من الفرسان، لم يصدقوا، لأن أحمد سليم الدين، بدا دائماً، عصياً على الموت، فجثمانه الضخم، وقوته الجاموسية الخارقة، ودمه الحار، وشهوته للطعام، وحب النساء، كل ذلك جعل من حوله من جنوده، يعتقدون،

بنجاته من قدر البشر المطلق. بسبب هذا، ذهلوا حين رأوه يسقط، مثل ثور، قتيلاً مدمى. «جبناء! خونه!» راح اليوتنان شارل دورو يصرخ بهم، حين رآهم متجمهرين حول جثة قائدهم، كان وجه الكابورال ممتلئاً بالدم، فيما راح الجنود يحاولون، حمل جثمانه، ونقله إلى القصر.

كانت فصائل من الفرقة الاجنبية، وبضعة متطوعين من البارتيزان قد اندفعوا وراء الرجل الوحيد الذي صار بعيداً جداً، بعد مقتل أحمد سليم الدين، يعدو على صهوة جواد أبيض كالغيم.

راقب الجميع تلك اللحظات الحاسمة: فحين اختفى وراء الصخور، انهالت رشقات من الطلقات، نحو الجنود المهاجمين الذين ارتدوا، فجأة، هرباً من معركة مكشوفة، ضد شياطين لا مرئية. «جبناء! جبناء!» ظل اليوتنان، يصرخ قرب القصر، وبجانبه وقف جان دوتي، وقد اخضرَّ وجهه كالنحاس، وغمغم قرب الضابط الذي لم يحبه في أي يوم، «سيدي اليوتنان، هل عندك منظار؟» فالتفتْ دورو نحوه، قال دوتي «تفضل! هذا لي. انظر إلى أرض المعركة» فاختطف اليوتنان المنظار من يده، وحدق في المرتفعات البعيدة، فيما كان السرجان يواصل كلامه «هل ترى شيئاً؟ أين العدو؟!» كان درس الممرات وأم الجرابيع، ما يزال ماثلاً أمامه، وقد فهم قائد القصر الرسالة، فاستدار راجعاً، وقال: «اللعنة على التلال!»

تلك الليلة لم ينَمْ أحد، وفي كل ساعه، كان واحد من الرجال المختبئين وراء الصخور، يزحفُ نحو المعسكر، ويطلق رصاصة أو اثنتين ثم يفر عائداً، حاول الشراكس أن ينفذّوا التفافاً واسعاً، فأخفقوا، لأن الليل، والشعاب، والوعور الصعبة، حمت الرجال، وبعد منتصف الليل، لم يبق أحد سوى كامل الفضل، مضى الآخرون إلى الخربة مرة ثانية، بينما كانت المنارة في سرير حرائقها، وكان قصر المطر أرقاً يقظان ينتظر مردة الظلمات.

وبدل أن يناوش الجنود مرة أخيرة، لوى عنان حصانه وذهب إلى البلدة. لقد قاوم تلك الرغبة طوال الهزيع الأول من الليل، لكنه، عندما رأى إلى نفسه وحيداً،

في ذلك العتم القاتم. والمنارة قريبة اليه، لم يتردد في كسر قاعدة الحماية التي وعد بها رجاله.

لكنه كان مطمئناً إلى القاعدة العسكرية التي صار يعرفها، وهي أن السرجان لن يغامر بدخول اللجاة بعدمعركة الممرات مرة ثانية، إلا إذا احتمى بالطائرات، وآلاف الجنود.

أفعمت روائح الحرائق البائتة أنفه، كان لها ذعر، وارتباك المنارة، تجاه روح القدر. وكانت طافحة بخليط من شواء اللحوم الحيوانية. وعبق الشجر الاخضر، وانتظار المجهول. اقترب أكثر، دخل إلى الحي الجنوبي، دون أن يرى أيَّ بشر، لم يسمع صوت حياة أيضاً، والضجة الوحيدة التي جفَّلته، كان مصدرها معركة سريعة، بين هرتين، ثم تلاشت الاصوات، واختفت وظل هو، والحصان، وحفيف الاشياء الغامض، تمنى لو خرج أي واحد كي يهدده، أو يخيفه، أو يرغمه على الرحيل. لكن البلدة خوت تماماً، وهنا أو هناك كانت النار ما تزال تلتهم بقايا المنازل بهدوء، بلا ضغينة، كأنها مجرد أشياء وحَّدت بينها الطبيعة، حتى بدت لعينيه، ضرورة من الضرورات، يجب أن لا يكترث بها.

ولكن، لا! إن كل ما يراه، ويشمه، لم يكن سوى صورة الهزيمة الماحقة، والسكوت المريب، والخنوع، والجبن الأعمى. أمام سطوة كنج الحمدان، ووحشية السرجان اللئيم. انعطف نحو الغرب، وصار الآن أمام بيوت آل شهاب، لم يحس بوجوده أحد هناك، كانت البيوت سليمة، لم تصلها النار، وسمعَ حركة ما، فنادى: «يا عباس! يا ذياب!». سمع أزيزاً غريباً اخترق الهواء متجهاً نحوه، وفي اللحظة التي التصق فيها ببطن الحصان، مَرَقَ حجرٌ ضخمٌ من فوقه، واصطدم بالجدار الذي رماه، فسمعَ نحيباً على السطوح المقابله، واستطاع أن يرى الرجل المقرفص هناك، فاقترب منه، وراح يردد: «عباس!» ويهمس له بحب، ولوعة، وبينما ترجل عن حصانه، قفز الرجل من هناك وسارع اليه، تعانقا، وقال كامل: «اشتقت لحجارتك يا ولد!» فصار عباس يضحك، ويبكي ويقول:

«لو صابتك كنت ميت!» كان سعيداً بصديقه القديم الذي كاد ينساه وسط الخرائب. كانت الدار خاوية إلا منه، وقد رحلت الأسرة إلى مغاور الحطط.

«كم فرنساوي رميت بحجارتك»

فقال عباس: «ولا واحد!»

«ليش يا عباس؟!»

قال: «كنت خايف، وفكرت إنهم بدهم يحرقوا بيوت الجزارين بس، لأنو أحمد الجزار قوّس عليهم»

«اسكت!» قال كامل حانقاً، نهض من مكانه، فيما حملق الرجل فيه جزعاً «بخاطرك» قال له بلا أسف، ثم قفز على صهوة حصانه، وأكمل طريقه دون أن يستمع للنداءات التي انطلقت خلفه.

كانت المنارة بلدة من الصمت الأزرق الباهت، بلدة فوضى، وخراب. شعر بالاختنتاق، من الدخان والروائح النتنة التي تنفسها. ولكن قوة الهوى وحدها، كانت تدفعه نحو المنعطفات القديمة التي لم يرها منذ سنين، ترحم على مرابع آل الفضل، التي انهارت، وتهدمت سطوحها، وانكشفت. كانت حيطان المضافة، والغرف، مسودة من هباب الحريق، وقد تشقق طينها، وبانت الحجارة في عدة مواضع، شبيهة بالدمامل، وبالجروح الكبيرة، وانخرق السقف في الوسط، فتدلت منه عيدان القصب، وكسور الحور كالعظام أما في باحة الدار، فقد نما العشب حتى صار يلامس ركبتيه.

«حين رآها حسّان أبو غانم، كانت ظل دار، عدت عليها السنون، فاندثرت، وانطمست معالمها، وجار عليها الناس، فلم يبق منها سوى الحجارة الغشيمة، والدبش، والحصى، والتراب المعشب، وفي باحة الدار، كان شخص ما قد رمى، ذات عام، بذوراً من نبات المكانس، فامتلأت الباحة بها، وأحاطت بشجرة البطم العتيقه التي نخرها الدود، وحولّ أحد وجوهها إلى ذرات بنية ناعمة، بدت مثل هيكل رمادي قديم، حزينة، وحيدة كضبع!»

قعد، وصار يبكي، وراء شجيرات الورد، ظهر القمر في السماء، وانسلت أفعى خلف الخضرة الزرقاء، وقفز ضفدع فجأة، وهو يزعق كطفل، وسقط قريباً منه، بينما كانت الدماء تنزف منه، أحسّ كامل أن عينين متوقدتين، كانتا تحدقان فيه، من شقوق الحجارة المكشوفة فنهض، ومضى تاركاً الفريسة الضعيفة، وهي تلهث، بينما سمع وراءه مرة ثانية، خشيش الاندفاع الصاعق، والاستغاثات المذهولة. .

كان يأمل أن يجدّ شيئاً ما يعرفه، لكن الأمكنة صارت فناء، لماذا، ومن الذي يفنى، أنت أم نحن؟ توقف هناك، نادماً، لأنه ترك هكذا «مثلما قال لها كوني فكانت» على طريقة صايل» وما عليه إلا أن يترك مرابع طفولته، وشبابه، لأهلها، لقد انسلخ عنها، مثل جلد الثور، بل هي التي لفظته، وتخلت عنه، ولن يجديه التباكي، ولا الحنين.

قطع المسافة الباقية من المنارة، استعاد عافيته، وأدرك أنّ فساد مشاعره، سببه نتن الحرائق، وصور الخراب، بانت البراري في ضوء الشفق، شاسعة ورحبة، واحتفالية، فانعطف دائراً حول البلدة من جديد، ورأى أن المنازل الشرقيه لم تصب بأذى، لكن أنفاسه صارت قصيرة، وروحه ضيقة، وقدرته على المناورة لا تكفي لعصفور، أحس أنه غدا نزقاً، سريع الغضب، لأن قلبه امتلأ بالحقد، وخيل اليه أن رجالاً يتربصون به، وراء الجسر الشمالي، وظن أنهم من مرابعي كنج، أو من المتطوعين البارتيزان، فغيَّر طريقه، وعدا بالحصان قافزاً فوق حيطان البيادر، حتى صار خارج المنارة، لكنهم راحوا ينادونه، وعرف صوت هايل بينهم، فاستدار، وعاد، وهو يخبُّ بالحصان، وهناك فوجئ باخوته، وبخمسة آخرين من المنارة، كانوا موجودين، كان اثنان منهم يحملون بارودة موزر، أما الاخرون، فقد تمنطقوا بالخناجر فقط.

لم يخفِ فرحه، قال: «طلع الضو، يلله نرجع» واتجهوا جميعاً، نحو أم الجرابيع.

في الطريق انفصل عنهم سليمان الشبل، ورجاله: ذهبوا إلى خربة جمول، ولم يبق سوى الرجال الثلاثة الذين وعدهم كامل أن يعطيهم البواريد القديمة التي كانت عنده، وفي الخرائب، وجدوا صايل يجلد صباح بالسوط. كان كالاعمى، وسمع الشيخ شمس الدين يغمغم من ورائه «يا ملعون!» كانت النساء يبكين، متربعات، تحت الشمس، في الباحة، محطمات، بوجوههن الزرقاء، وعجزهن أمام القوة الغابية الفالتة، وكان الاطفال متجمعين معاً، وقد دفن الصغار منهم رؤوسهم في أحضان أكبرهم، يرتعشون تحت ظلال اللوز.

لم تكن تصرخ، ولا تتأوه، كانت كائناً من الصبر، مثل شهيد. ولكن قامتها التوت قليلاً، كشجرة، بسبب الالم الذي كان يرشح إلى دمها وعظامها. الصوت الوحيد الذي سمعوه، حين ولجوه إلى الباحة الكبيرة هو جمجمة صايل وكريره الوحشي.

هتف الجميع صارخين، مستغيثين، حين انتبهوا إلى الفرسان الذين خيبهم العنف، وجمدوا في بلاهة المفاجأة، كالاشباح، يحدقون إلى خرافة القسوة، وشراسة الروح وهي تفرّخ حقدها. بدا المكان مثل ساحة من الآخره، نزلت ثنيه عن حصانها، واندفعت من بين الرجال نحو أخيها، وراحت تلكمه بيديها، وتدفعه بجسدها، بعيداً عن الضحية المسكينة، عانقت صباح، وبدأت تبكي، وتقبلها، فخيم ضباب من الصمت الكثيف، وقعد صايل مطأطئاً رأسه، فيما كان جميعُ الأطفال يفرون، كالعصافير، نحو الرجال الذين صارت تُسمع الآن قرقعة أسلحتهم، وخليط حمحمة خيولهم، ولغطهم، وجرس التشابك اللطيف لمهاميزهم، وأسرجة خيولهم، بحجارة الارض، وهمس الكلمات الغامضة والقبلات، والترحيب بالضيوف الثلاثة الذين انقادوا بلا تفكير، وراء المهرجان القرباني الغريب الذي أعقب لحظات المفاجأة.

ووقف كامل قبالة أخيه، بعد دقائق فقط، وقال: «والله لو ما كان عندي ضيوف، لخليتك تذوق طعم السوط»، بينما كانت ثنيه تداوي جراح صباح، وهي

تبكي، وتقول: «سامحيني يا يختي، أني علمتو هيك» دون أن تسأل عن السبب، لأن مشاعر الذنب، صارت أقوى من فضول المعرفة، كان مزاجها بهيجاً، بسبب الانتصار السريع الذي حققه الفرسان، لكن آمالها ضاعت، حين رأت ما فعله أخوها، وما قدمه من أبراج الوحشيه، وما أبدته صباح من الاستسلام الحيواني المتوتر الخفي، تجاه العذاب الذي يسومونها اياه.

ما لن تنساه حتى القبر، هو ذلك السؤال القاطع المفرط في الحقد، والجنون، الذي دمدمت به صباح، حين استطاعت أن تتنفس بعد كمادات الماء البارد:

«ليش عَ بتعملوا فيّ هيك؟» كانت عيناها ممتلئتين بالغضب، وكان صوتها لاهثاً، مطعماً بعكر داخلي، ومرارة، وهي تسأل لتظهر لأولئك الذين يريدون طمس ذاكرتها، وسحل قلبها، بغضاءها فقط، حتى تزيل عن روحها طبقات النسيان التي يصنعونها من دم وجلد مجرَّح: كان صايل قد استيقظ فجأة مهتاجاً، بعد أن قضي ليلة مسهده، وهو يعلك ُغضبه، منذ أن خذله أخواه، ونسوا دمَ نايل، وذهبوا لنجدة أهل المنارة الذين حملهم وزر موته. راح يحملق في أعماقه، فلا يجد سوى طحلب الهزيمة المروعة، فتكتسحه أمواج غيظ، ويفر نومه ويطفح جلده بحمى الثأر، وحين أغفى، لفحه كابوس من الهواجس المبعثره التي جعلت نومه متقطعاً، كنوم القرود.

وحين فتح عينيه، لاحظ أنها كانت تحدق فيه، ماذا في تلك النظرات سوى الازدراء والبغض؟ هناك حيث ضاقت الحدقتان، وصارت العينان مثل بلوطتين، وتغضن الجبين، وماذا لدى امرأة كي تفكر تجاه رجل عاجز، يجفوه النوم، وتخونه الحياة، وفصاحة الحب، وهدوء الروح، سوى الاحتقار؟

«ليش عَ بتطلعي فيّ؟» سألها بحقد.

«ولا شي» قالت.

«يعني بتظني إني جبان؟ خايف؟»

«قلت ولا شي، فقت من الفجر، وما قدرت نام»

«ولا مفكري إني بعرفش حارب؟!»

حاولت أن تزوغ، وتطلعت حولها مستنجدة بالاشياء بينما أشعل صايل سيكارة، وراح يدخنها غاضباً، «إنت بتفكري إني راح اتركك! والله! كل ما قلت لي: بكرهك! بتمسَّك فيكي اكثر، أني شبعان من النسوان، ورح خليكِ كل عمرك ناشفة ما تعرفي لحم الرجال»

غضت بصرها، ثمَّ أغمضت عينيها، واختلجت وجنتاها من القهر، وقالت: «أنت لعنة علي من الله». كانت ترغب في مناكدته، وكيده، وكادت تفضح سرها أكثر من مرة، وتهتف في وجهه باسم كنج، باسم ذاك الذي صارت له هالة ملائكية سامقة «وأنت لعنة عَ البشر كلهم» قالت بعد أن نفخت هواء «والله لو ما كنت نذل، ما كنت تجوزتني، وانت بتعرف إني ما بحبك»

صفعها على خدها أولاً، فبصقت في وجهه، عندها حملها تحت ابطه ومضى بها إلى عمود الشيطان، وراح يجلدها هناك.

كانت تحدق في وجه ثنيه، وهي تداوي جراحها، تهددها في سرها، سوف يأتي من يخلصها من قبرها ذات يوم، ليأت الفرنسيون ليأت العبيد، ليأت الجن، وليجعلوا هذه الديار اللعينة خراباً، عندها سوف تنسلُ من هنا حاملة كفنها، وتُبعث إلى كنج، محمولة على بساط الريح، وتقول له: «ليش ما جيت أخذتني ياخنزير!»

* *

عند الضحى جاء حنا البيطار هارباً مع أسرته، رافقته الكلاب وهي تهرُّ، وتزعق، فيما كانت صلصلة حدواته الشهيرة، تملأ فضاء المكان، خرج الاولاد يتفرجون على العائلة الجديدة التي ضمت امرأته، وأربعة صبيان، ترجلوا عن بغالهم، واندمجوا سريعاً مع أولاد الفضل.

هيئوا له غرفة في الخرائب الجنوبيه، كانت الطريق اليها مسدودة، ولكنهم رفعوا الحجارة من هناك، وسووا الدرب، وقال كامل «تنام تحت السما اليوم يابيطار، وبكره ان شاء الله بتنام تحت السقف» فقال حنا: «اللي بِنام بحماك يا بو محمد ما بخاف من شر»

حين نزل رحل البيطار، كلتاهما تنهدت! لا تعرف ثنيه لماذا فعلت ذلك، ربما لأنها تنسّمت في هذا الرجل ذي العينين الغائرتين، والوجه الترابي المخدد الناحل، ذي العضلات الصلبة وجه وملامح شامل، ربما بسبب صداقتهما القديمة التي قطعها ذلك الولد الطائش.

لكن صباح أحست أن العالم يصبحُ أفضل، وأحسن، كلما اخترق إنسان ما، كائناً من يكون، عزلة أم الجرابيع، كأنما يعيدها ذلك إلى سلك البشر، بعد دهور من الخواء، والوحدة، كانت متأكدة أن هؤلاء الناس نسوا هنا بين الحجارة القديمة، والطين المتشقق، والطحالب، واشنيات المستنقعات، الكلام، أو الحب أو الضحك.

في اللحظة نفسها سمعوا صراخ صايل، وصخبه، كان شعره منفوشاً، وقد سقطت حطته على كتفه، وأحاط العقال برقبته كالمشنقه وهو يزعق كالمجنون، في وجه كامل.

هذه المرة، بدا الرجلان، كأبطال الحكايات فعلاً! طويلين كالأعمدة، وقويين كبغلين، وقد أمسك كل واحد منهما بياقة الآخر «حاول حسّان أن يهرِّب الصورة» لكن وجه صايل ظل يلاحقه كانت تلك أول مرة، يخرق فيها، الاخوان تقاليد الارحام، بدا شكلهما مشوّهاً، أحمق، عبر الباحة الطويلة حيث وقفا، خرج اليهما جميع الرجال، والاولاد، والنساء، تشابكت الاصوات، ولم تستطع ثنيه الوصول إلى هناك. أحست أن جبلاً من المغاليق، والحديد، يُعيقُ سيرها، وسقطت مرة أو مرتين، وهي تحاول الاسراع اليهما، لتفك اقتتالهما الدموي، لكن صايل، لم يتزحزح عن موقفه، وكان يقسم بالله، بأنه لن يسمح لأحد بأخذ بارودة من مال

آل الفضل، وكان صوت حقده، يتصاعد في وجه أخيه، وهو يرتعش بسبب ذلك اليقين الباهر، بأن الله يجازي المنارة وأهلها، وأن رسالته هي، أن يقدم العون، لمشيئة الله، على أهل تلك القرية الملعونة.

ورغم أنَّ البنادق لم تكن صالحة تماماً، وقد غطاها صدأ بني خفيف، وهي تبرز من القماش الذي لُفت به وربطت بحزام جلدي عتيق، وكانت كالعصي، سوى أن صايل رآها مثل لقية، ورفض التنازل عنها، بينما شعر كامل بالخزي، بدا له أنه يتعرى، وأن تمردَ أخيه، طافح بالنذالة والجبن، وصارت تلك الخلال المتمردة، لدى صايل، تعصف برأسه الان، وتنهي آخر ما لديه من قدرة على الثبات، والتحمل تجاه أسرار البشر الذين حوله.

وقف هايل مشدوها، وقفت ثنيه، وراحت تنظر عبر المسيل الذي اقتلعت أعشابه، إلى معركة الاخوين، ولمرة واحدة فكرت بغريبة ورمقتها بحزن، بماذا تفكر المسكينة، وهي ترى كيف يدمر أخواها، أعشابها الشافيه، وحشائشها الرطبة اللينة؟! وها هي الالوان الصاخبة والبيوض، وشرائط الاوراق، ونسيج الاغصان مدقوقة، مداسة بلا رحمة، وسط الوطيس الأخرق.

راحت تحدقُ فيهما مأخوذه، وهي لا تصدق، عاجزة عن التدخل أو منع الحرب القاتله، شعرت أنها مشلولة، بلا عقل، ولم يحاول أحد من الضيوف أن يتقدم لفك الرجلين المتصارعين اللذين كانا يجوبان الساحه وهما يدوران، بلاهدف.

كان من الممكن أن يظلا يتقاتلان إلى الأبد، لولا دلال التي فاجأها عنف كامل الجديد تجاه إخوته، مثلما فاجأها حماسه الغامض لخوض المعارك، والحرب ضد الفرنسيين. لقد اعتادت دائماً أن تراه ذاهباً إلى غزواته، عائداً منها، لكنها لم تعتد أن تراه محارباً، لم يكن محارباً في أي يوم. لانها كانت ترى في تلك القوة الخارقة، في ذلك الجسد الحصين، أشياء شبيهة بالسنديان، خارقة ولطيفه ومقدسة!

أما الآن، فقد تجاوز غضبه كلَّ حد، بينما بدت لها مطالب صايل عادية، وما

كان هؤلاء الرجال الذين لا تعرفهم، يهمونها، وهم يتسببون على كل حال في خراب أسرتها كلها. لقد طردوهم من قبل، ولم يقدم لهم أحد أي معونة، فلم يصاب كامل بهذا الجنون، كلما أراد صايل أن يحمي أم الجرابيع؟!

كانت ثنيه على حافة الموت، وصار هايل كالمجنون جحظت عيناه، وتلاشى، ولم تعد له قوة للبقاء، وبكت النساء جميعهن ولعنّ يوم النحس هذا، ولكن الرجلين ظلا صامدين كليهما، وطوال ذلك الدهر من التعارك العنيف. لم يستطع أي واحد فيهما زحزحة الآخر أكثر من خطوة، لم يرم أي منهما الآخر، ولا استطاع الافلات من قبضته وحين اخترقت دلال ذلك الفراغ الضئيل الذي لمحته بينهما، تحاشى كلاهما الارتطام بها، سمعت صوت تمزق غريب، وأنّةً طويلة معذبة، لم تعرف من الذي آذته حركة الابتعاد المنقذه، ولكنها أحست بالأسى، وصاحت «بعرض ثنيه اتركوا بعضكم!»

أفلت كل واحد الآخر، كانا يلهثان كوحشين، وزمجر صايل للمرة الاخيرة، وهو يتأبط البنادق «يا الله!» لم تدر إن كان نداءً يائساً مقهوراً، أم تحدياً وقحاً جباراً، لقد اتخذ لنفسه سمت الاسرار، ومنح رفضه بعداً مطلقاً لن يتنازل عنه أبداً. بينما كظم كامل غيظه وهزيمته وحين استدار نحو الرجال كي يعتذر منهم، عن تلكما الخساسة واللؤم اللتين أظهرهما أخوه، بادروه بطلب الرحيل «لا تواخذنا يا بو محمد» قال محمود النايف، وهو شيخ حذر له لحية خفيفة، فطأطأ كامل وقال: «خذو بارودتي!»

كانت جملته سريعة وقاطعة، ولم يقلها بنوع من السؤال، وإنما كأمر، كانت ثمينة جداً، من النوع الالماني، وقد اشتراها بخمس مجيديات من بدوي في اللجاة، أعطاهم معها أربعين طلقة، وقال معتذراً «ما معي فشك غير هالجناد!»

حاول الرجال أن يعتذروا، فدمدم بغضب، مقهوراً: «والله إذا ما اخذتوها غير كسرها قدامكم»، فتناولها منه محمود ورمى الجناد على كتفه، ثم رحلوا كلهم.

جاءت ثنيه، وعانقته، وبكت هنده مرَّ البكاء على كتفه، وقالت: «منشان الله صالح بو نواف!» فربت على كتفها، ثم قال لغريبة: «لا تزعلي يا أم خليل!» وهو يشير إلى نبتاتها المحطمة، «رح اشتغل يوم من أجلك» فضحكت وراء دموعها.

لكن ذلك كان زيفاً محضاً، كان يكذب ويراوغ لكي يرضي أخواته اللواتي ذعرن من معركته مع صايل، أكثر بمئات المرات مَ ذُعرن من قذائف الطائرات أو هجوم الجيش أو تهديدات كنج! ولهذا فهو مضطر للكذب، ولإخفاء حقيقة مشاعره الحاقده، وذهوله، وازدرائه لصايل، وما يقوله، وارتداء قناع التفاهه والرخاوة البهيميه الراضيه بسفالات رجل مجنون كأخيه.

لكنه صالحه «مثلما تريدُ، أم الجرابيع لك، وتصرف فيها كيف ما بدك» كان جاداً، وقد أحس بالتخاذل، والعجز عن البقاء هنا، في مواجهة أخيه، «لكن بوصيك بالبنات، إياك تظلمهن»

راح صايل يحدق فيه لا يفهم كلامه، وحاول أن يعتذر منه فقال كامل: «ما عليك، أني رايد اترك البيوت وروح عَ الجبل، مكاني هناك، مع بهاء الدين» كان مقتنعاً بأن وجوده هنا صار زائداً فعلاً فقد كسر صايل منذ الامس استقرار شواطئه الرائع، فامتلأت روحه بجزر القهر والشكوك، أحس بالضجر من كل شيء، بعفونة العالم، وتفاهة الاوقات، استدار ومضى إلى غرفته، بينما ترامى اليه نحيب النساء، مثل رفيف أجنحة أصم!

* *

تدفقت حشود الهاربين، في الأيام التاليه، ومن المرَاقب البعيدة، والأبراج، كان حراس الخرائب يرصدون تلك القوافل التي لا تنتهي، من النساء، والاطفال، والشيوخ، المندفعين شمالاً وشرقاً.

كان الحرُّ شديداً، وأخذ الفارون يبدون كالسابحين في بحر من السراب

الفضي، والصخور البيضاء المرتعشة، كالفراشات بلا وزن، وهم ينطلقون، متشحين بالسواد، وبالصمت.

وكانت البراري ساكنة، رغم امتلائها بالبشر، والحيوانات لكن صمتها أضحى ماكراً حين توسطت الشمس السماء، مرهفة وقاطعة وراح هواء ساخن يهبُ من الغرب، ناثراً ذرات التراب الناعم.

دمعت عينا الشيخ شمس الدين، وفضل الله، وأولاد شاهين وابنا كامل الاكبران، ونواف، وفواز ابن حنا، وراحوا يحكُّون شعورهم الطويلة بسبب البرغش الضئيل الذي اخترقها، وجاء البيطار وأحضر قطراناً، ودهنوا به وجوههم، وهم يتقززون من الرائحة الفظة المليئة بالنتانة.

بيد أن الفضول كان أقوى، لأن أهلهم رددوا أمامهم آلاف المرات قصة رحيلهم القديمة، فقد تجسد المشهد الان، حقيقياً خارقاً، مثيراً، فجازفوا بالوقوف في القيظ، ولعنة الحشرات الصغيرة.

قطع الصمت صوت غناء، كان رجل يهزجُ بشروقي طويلة غير مفهومة، فتنهد الشيخ، وقال: «مليح! والله فكرت حالي بيوم الحشر»

عند الظهر، رجع صايل من السماقيات، كان قد باع البنادق القديمة الزائدة، واشترى بثمنها مؤونة، وفشكاً، وجاء إلى البرج بعد ساعة، بدا سعيداً، أحمر الوجه، وقال إن الاسعار مرتفعة وإذا ما استمر الوضعُ هكذا، فإنَّه سوف يغتني بعد سنة، فقال فضل الله «لمين بعت البواريد؟»

قال: «لأولاد رزق العندري»

قال: «هذول اشتغلوا زلم عند كنج الحمدان»

فحدجه صايل بطرف عينه، وأكد له «ما بهمني، أحسن من أهل المنارة» علق شمس الدين قائلاً: «إذا ظل الناس هيك، ما راح يبقى عند كنج غير امه» فضحكوا، وقال صايل: «والله دم نايل برقبته» وقفز أحد الاولاد، وراح يصيح

«حيه! حيه!» بينما أخذ بقية الصبيان يرجمونها بالحجارة، والشيخ يناديهم «اتركوها!»

كانت الطريق البعيدة قد خوت الآن، ولم يعد يظهر أحد، وجاءت طيارة فرنسية، وحومّت في السماء، دون أن تطلق قذائف، أو رصاصاً. ثم استدارت، واتجهت نحو الغرب.

خيَّم الصمت مرة أخرى، ولم يجدوا ما يملؤون به ذلك الخواء الغريب الذي حل فجأة، كأن استطلاع الطائره، كان اختباراً للروح، حيث شرد كل واحد من الرجال الثلاثه في مسالك الفكر المحير دون أن يفصح عن شيء، تبدلت سحنة صايل وتكور وجهه، وبدا قلقاً، ومتعباً، وهمس بلهجة يائسة: «أني رايح عَ البيت» ونادى ابنه نواف كي يذهب معه، فقال: «لا!»

أكان يمثل هو الآخر؟ أو يزيف مشاعره، لم يستطع أحد معرفة ذلك. فقد أغلق نوافذ قلبه، منذ يوم البواريد، ولم يعد يكلم أحداً، إلا حول تلك الترهات الفارغة التي يقوم بها كل بضعة أيام: بيع بنادق، وفشك، وجنادات، وخيول، ثم العودة ببضعة سحاحير وكراتين حلويات، وفي كل مرة كانت ثنيه تشتهي ضربه واهانته، ولكنها لم تعد تجرؤ على ذلك، لقد حطم أمومتها تماماً، منذ أن تعرض لكامل، اهتز ايمانها به، وصارت تتحاشاه، وتحاول أن تبتعد عن طريقه، كلما رأته في أحد أزقة الخرائب، وهو لا يعبأ بها، مثلما لم يعبأ بالرجلين اللذين وقفا يتأملانه الآن، وهو يغادر البرج نازلاً من التلة، كالثور، مدحرجاً الحصى والدبش، أمام جثمانه الضخم صار سراً، وكلما تقدمت الايام، أخذ يمتلئ بالخفايا، والغوامض وفي البيت راح يتأمل صباح، وشعر بالقهر لأنها كانت تزداد جمالاً كلّ يوم. لمن تخبئ هذا البهاء؟ هذه النضارة القمرية؟ وهذه المشية الراقصة كالسفينة، المتمايلة يمنة ويسرة، برغبة مرعبة في الغواية والجذب، ونشر الأوجاع في الاجساد الخشنة المشتاقة إلى ملامسة كل هذه النعومة الظالمة. تمنى لو يعرف، مرة واحدة مَنْ الرجل الذي يمكن أن تهواه هذه الجنية! ربما كان يحشوه بمدفع، أو سيضرم فيه النار، ولكن

لا، إنها امرأته وحده، ولا بدَّ أن قسوته وفظاظته جعلاها تكرهه. ولكنني مليء بالعناقيد يا صباح! ولدي قوة جمل، وقدرة ثور على الاحتمال، جربيني مرة واحدة، وسوف ترين! تشجعي! تعالي!

كاد يصرخ الآنَ بها، حين تذكر أنه هو الذي أقسم أن يجعل شوقها إلى الرجال، وغلمتها، حلماً صامتاً معذباً، كحلم عذراء، كان طوال الشهر الفائت يتباهى أمامها مرات كثيرة بجسده، يتعرى، ثم يتبختر في عمق الغرفة المغلقة، ويدرب عضلات الجسد الأسمر القوي المشحم، يثب، يحني ظهره، ركبتيه، يرفع أثقالاً، وتبرز العضلات المستديرة، يرقِّص ثدييه، وكتفيه يطفح العرق منه، ثم يغتسل بعد ذلك في العتبة، وهي تنظر اليه.

لن يعرف أبداً معنى تلك النظرات التي يراها خلف البُخار الندي الذي يتصاعد من ماء حمّامه، وهكذا: تحديات! كراهيه! اعجاب! محبة! لا شيء، لن يقدر أبداً على امتلاك هذا الجسد، وكلما ازداد يقينه بعجزه، ازداد اصراره على امتلاكها، وهو يسأل: هل المحرمات وحدها هي المرغوبة، أم هي الرجولة الخاسرة؟ لن يعترف بأي شيء، رغم أن الحقائق كانت مثل قلعة، ولن يقبل أبداً اتهام نفسه بالقسوة، مثلما تفعل هي به، إنها شيطانة تافهة، لا اكثر. امرأة من ثلج، بلاعقل، ولا غوايات، ولا حس بالحياة، وحين يتذكر مساء المضاجعة الأول، لا يصدق أن تلك المرأة التي أظهرت طوفان الشهوة، هي نفسها التي تقابله بجمود الحجر، «تفو!» تناول طعامه ساخطاً، منتظراً منها حركة واحدة، أو كلمة كي يفجر كدره، لكن صباح ظلت بلا أخطاء، كانت تقدم له طلباته بنزاهة، بطاعة غريبة باعثة على الازدراء، بحساب سري غريزي لمزاجه، لقد تحطمت يقينياتها، يوم رأت ذلك الانفلات الحيواني العنيف لدى أبناء الفضل، انطفأت أحلامها، وتحورت شعلة الحنين، صارت جذوة، ستظل توريها بصمت، وصبر، حتى لو كان ذلك سيستمر، إلى آخر العمر.

* * *

(٥٣)

كانت قنينة العرق ما تزال ملآى، وراح يعبُّ منها قبالة الشمس الغاربة، حين سمع شامل زمجرة اليوتنان موريل وصراخه، ورأى الرجل وهو يندفع نحو مكتبه.

رشف رشفة طويلة، ثم مصمص شفتيه، وراقب اللون القرمزي الحار، بعيداً، وراء جبل الشيخ، وتلال الجولان.

كان موريل، ذو القامة الفارعة، المستعجل، والصاخب كعادته دائماً، يبدو كالوحش هذه المرة، كالمجنون، وهو يسرع من غرفة الى أخرى، متبوعاً بالسرجان ميشيل دوبو الهزيل الفكه صاحب الأنف الرفيع، والشفتين الصفراوين، والوجه الهيكلي.

فكر شامل أنَّ اليوتنان ربما أضاع قطة أخرى ايضاً، وقال لنفسه، وهو يشرب «الله يعين الناس» مشفقاً على الرجل التافه الذي ينشغل بالقطط، كل هذا الانشغال. لكنه حين تذكر قلق موريل وانحراف مزاجه، وحذره الثعلبي، وارتباكه العجيب، والخوف الذي ملأ حركاته، ورنة صوته، احتار في أمره، لابدَّ أن أمراً خطيراً يحدثُ في مكان ما.

هيؤوا حصان اليوتنان، فمضى نحوه، وهو يشتم، صارت الآن كلماته واضحة تماماً. كان يسبُّ هذه البلاد، وينعتها بألفاظ بذيئة مقذعه، ثم راح يسبُّ أهلها جميعاً، وهو يمتطي ظهر حصانه ويمضي به إلى سراي الحكومة.

جاء الكبورال سعيد النجم، وأخبر شامل عن معارك المنارة، وسهل

الزرازير، ثم تسربت أخبار أخرى عبر الجنود العرب عن تقدم الثوار من الجنوب، وجاء آخرون وقالوا إنهم صاروا عند جبل الدم.

انقطعت الأنباء بعد ذلك، وصارت تأتي محايدة، غامضة زادت في بلبلة أفكاره، فاستراح في غرفته، نصف مغمض، يحدق في العتمة المسائية، دون أن يتوقف عن الشرب، ومضغ بقية الخبز اليابس، واللحم المجفف، خوى المنزل حين حلَّ الظلام، كانت نوبة حراسته قد انتهت، وأحس برغبة في الخروج، فاستأذن من رئيسه السرجان ثم ارتدى ثيابه، وهو يغني، ومضى باتجاه خمارة بطرس، هناك رأى شرطة الجيش مستنفرة، كانوا يملؤون الشوارع، فتحاشى المرور ضمن الأسواق، واتجه جنوباً، في دائرة واسعة، حتى وصل بعد الضحى إلى الخمارة، اشتري بطحة وذهب إلى ماريا.

كان روبير جالساً على كرسيه الخيزران أمام الدار، وكانت الغرف خاوية من الزوار، حيته النساء اللواتي كنَّ على أسرتهن كالميتات، وابتسمت له تينك اللواتي كنَّ قاعدات أمام غرفهن كالغربان، كانت جميع الأبواب والنوافذ مشرعة، وقد التهب النهار بالحر، وأصوات الطيران اللجوج في السماء.

سأله روبير عما حدث للعسكر ليلة أمس، واليوم، فشتمه في سره، ودخل إلى ماريا، كان يرغب في قول أي شيء، لأي انسان ورأى أنَّ تلك المرأة، ذات العينين الكامدتين، قد تستمع إلى أوجاعه الآن «مرة واحدة اظهري صلابتك أمامي» همس لها في سره «وقدمي لي المساعدة!»

لكن الغرفة الشاحبة التي تقشر جدارها، وامتلأ سقفها بالعفن الاسود، ملأت قلبه بالاثم «ماريا! يا وحيده!» قال لها «تعرفين من السبب في فراغكن من العمل؟ موريل نفسه فمنذ اليوم استنفر قواته للحرب، تعرفين؟ قال إنه ذاهب «لينيد..» هذه البلاد، رجل كلب، لا يستحي من نفسه! وعليك أن تكرهيه، هو قطع رزقك، ورزق السيد روبير المحترم جداً!»

راح يتأمل النساء من باب الغرفة، كانت احداهن تعلك كأنها في سبات،

والاخرى تشرع فخذيها لقيظ حزيران. فأشار نحوها وقال «هذا أحسن انتظار للجيش، خاصة إذا عاد منتصراً!» ثم التفت نحوها «قوادك زعلان؟!» نظرت اليه غاضبة، لان لهجته كانت مسمومة، فحرك يده بحنق، وقال: «ابعدي عينيك عني!» ثم ضحك وهمس: «لا تشلحي ثيابك، اليوم شبعان» وقهقه بسخافة «بدي خاويكِ» تجشأ وهو يرتعد، كان القهر يأكل لحمه، ويقضم عظامه نفسها، «إذا كان قوادك بدو يعمل شاي، فأنا ممكن اشرب» همست: «تكرم» وقامت مسرعة، ثم عادت، كانت ترتعش، فعانقته وهي واقفة: «لا يهمك، موريل مش قادر على مرتو!»

«آ..» صات بقوة، «صرتِ من العقّال يا بنت جورج!» فمطت شفتها، وهي لا تفهم شيئاً من كلماته، وحاولتَ أن تغويه مرة ثانية، تأرجحت وهي جالسة، في حضنه، ممسكة برقبته وبللت شفتيها برضابها، شمت اذنه، لكنه ظل كالنعش، ذاهباً في تأملاته، مربوطاً إلى شروده، بسلاسل الكآبة، أخضر كالضفدع، كريهاً وفظاً، فقالت ساخرة:

«رح نخصص يوم من أيام الكرخانة منشان التفكير بالحياة» فرنا اليها بنظرة كالحة. وقال:

«الكرخانة لهذا بس!» وهو يعرض عليها شيئه التافه، فزمت شفتيها باحتقار، واشتهت أن تركله، وأن تقبض عليه، وتقصه، وترميه إلى سلة زبالة مجنونة، أو تركض به، وترميه نحو القلعة وهي تصرخ: «لعنة الله عليكم!»

شربا الشاي بصمت، لكن طعمها كان مخرباً، نفشت شفته بسبب سوادها، وثقلها الوحشي، فأدرك أنه رجل ميؤوس منه، لأنَّ ذلك اليوتنان سوف يدمر غداً، أو بعد غد، آخر معاقل روحه المخبأة هناك وراء الفاصل الصخري، بعيداً حيث قلعة الامنيات والأحبة. ستقصف المدافع، وتنقض الطائرات على الرحم الدافئ، تثقبه وتمحو تفاصيله، وتشعل فيه النار، وتتركه معولاً في ليله. ومضت ماريا وجاءت بقحبة أخرى، فاستلقت قبالته، على فراش ماريا التي جلست مقهورة على

كرسي هزاز عتيق، بدأت تعرض مفاتنها بلا حياء، وقدمت له سيجارة فدخنها، وظل يحدقُ في ثنيات لحمها، في أشيائها الخفية تحت الشلحة الخفيفة، شعر بالرغبة ولكنه لم يجرؤ على مضاجعتها، بسبب خوفه من ماريا، وظل يتنشق عبير صورتها الدافئة، وتبغ سيجارته، ويحوم بعينيه حول الضفاف الشهية التي تناديه بلا طائل: «يلعن أبوك يابنت» غمغم في السر شاتماً امرأته التي كانت تدوم جيئة وذهاباً، مثل البندول، وهو يتمنى أن يدفن رأسه الآن هناك في الهوة العظيمة، في المفارق المخرمشة، في هضاب النار، وأن يبكي وهو يقبل تلك الشعيرات القاسية النابتة على الأطراف، لكن القحبة ملّت من وجومه، ونهضت، وتمسحت بجسده، وقبلت شفتيه، ثم خرجت من الغرفة، دون أن تقول شيئاً. همست ماريا: «إذا كنت بتريد روح لعندها!» فقال: «ما عدت مشتهي» قالت: «بخليها ترجع!»

قال: «لا! الشاي البارد أطيب»

رشف كأسه كاملة دفعة واحدة، ثمّ نهض، وغادر الكرخانة، استدار مرة أخرى، حول المدينة، عبر الأطراف الجنوبية، ثم الحي القديم، صعوداً إلى منزل موريل.

* *

مساء وصلت سيارة مدنية صغيرة. نزلت منها زوجة موريل وهي تحمل سلة خفيفة، ترافقها امرأة سوداء، قادت الطفل من يده، صعدت المرأتان أمام جنديين حملا حقائب جلديه، وأطعمه وزجاجات.

كان شامل قانطاً تماماً، وشعر بالوحشة، وهو يسمع سيدة المنزل الغائبة، وهي تصرخ، وتنهر الحرس، بدت خائفة جداً وقد وقعت في فخ الحرب المقبلة، دون ارادتها، وراحت توبخ المرأة الاخرى، «ما السبب؟!» سأل نفسه، ثم استنتج، أنه لا سبب وربما كان كلامها، نوع من التدرب الغاشم، على ممارسة السلطة. تمارين اعتداء، خرجت بعدها السوداء، وبدأت تنظف المدخل بمكنسة. رآها تدخل الغرف، وتعلق ثياباً على المشاجب، ثم علقت قطعاً أخرى على حبال غسيل،

وأخذت بعد ذلك تزيح الأثاث، وهي تهلوس، وتتخيل بصوت مرتفع. صباح اليوم التالي، جاءت المرأة السوداء إلى مدخل البيت، وقالت إن المدام تريد إرسال بطاقة إلى السراي، فقال السرجان «اذهب كابورال فضل معها!»

أحسَّ أنه غير آمن، أو أنه مجرد حيوان زمني موقوت، مجهز للركض، والاستجابات، تجلّد قليلاً، واعتنى بهندامه العسكري، ثمَّ صعد الدرجات الصباحية مكرهاً. «من هنا» راحت المرأة تقول، وهي تدله على الطريق «من هنا!»، استدار، ودخل إلى صالون صغير، معتم قليلاً، بسبب انسدال الستائر الحمراء السميكة وطغيان اللون الكحلي على السجادة، وفي الزاوية كانت مدام موريل تكتب آخر كلمة في بطاقة صغيرة ملونة، وضعتها داخل مظروف، ثم رفعت رأسها، ونظرت اليه مباشرة. انبعث في المكان فجأة، نور شاسع. زلزله هذا الوجه المضاء، ذو الشعر القصير المجزوز، فقال بلهجة ايقاعيه مسلوبة: «صباح!» باذلاً قوة عظيمة، كي لا يقع. هيمن الهدوء لحظة، واندهشت المرأة من الرجل الطويل القلق الشبيه بيسوع، وفتر حماسها. واعتقدت أن لامعنى لهذه البطاقة التافهة المليئة بالكلمات الخاطفة السريعة، «لقد وصلت.. أتمنى لقاءك! عزيزي» وهي تحاول وزن الكلمة الصائتة التي نطق بها الكابورال، دون أن تفهم ما الذي تعنيه، في اللغة الأخرى، حدست أن ثمة أملاً ما هناك، أو رغبة، أو حنيناً من النوع الشرقي الغامض، لكنها أخيراً قررت ايقاف هذا الصمت المتبادل، وقالت «بونجور!» قال: «بونجور مدام موريل»

«ماذا قلت قبل قليل؟»

قال: «كنت أردد كلمةً للراحة فقط»

قالت: «أعدها»

قال: «لا معنى لها عندك»

قالت: «مع هذا فأنا أريد أن أسمع طريقة النطق بها» فتنهد، كان يعرف أن

ذلك صار مستحيلاً، فقد تلاشت لحظة الدهشة، واختفت قال: «صباح!»

قالت: «لا»

فقال: «إنها لا تتكرر بالطريقة نفسها أبداً»

سألت: «هل هي ابتهال؟ ايمان؟ كلمة قرآنية؟»

فقال: «إنها اسم امرأة»

تضرَّج وجهها، ولم تعرف بماذا تجيب، وفكر هو أن السبب كامن في المفاجأة فقط، فأوضح لها، بلا داعٍ، «لكن لا وجود لها على الاطلاق» محاولاً تبديد الحياء الذي شملها.

زادت ملاحظته في ارتباكها، فناولته البطاقة قائلة: «من فضلك» استدار، وخرج من غرفتها، كالاعمى. كانت تشبه صباح إلى حد الجنون: السمرة المشربة ببياض حليبي شاحب وحزين، والعينان العسليتان، والفم الصغير المدور، والشعر الخرنوبي، الذي يختلف هنا بسبب قصره، وتسريحته الغريبة، الصوت فقط، هو الذي بدا غريباً، وشاذاً، تمنى الآن لو استطاع أن ينطق المرأة بالعربية، لكي يستطيع أن يجزم بالتشابه، لكنَّ هذا كان مستحيلاً، وربما كفاه أن يعلِّمها النطق بالكلمة نفسها، رغم أن صعوبة الحاء، كانت معروفة لديه! عندها قد يتأكد من أنَّ الله خلق صباحين لأمتين، بل، لِمَ لا يكون قد خلق صباحاً أخرى، أو صباحاتٍ لكل شعب.

حيَّرته هذه الاستنتاجات، فبدأ يشرب العرق، منذ أن عاد من السراي، ليسيطر على انفعاله، وارتباكه، مدركاً أن الزمن يلاحقه وأنَّ الماضي هو الشاهد الوحيد في تذكارات حياته. أما السنوات الهروبيه التي أدار فيها أهله، ظهورهم للوجود البشري كله. واستقلوا بأم الجرابيع، فهي الحقيقة الملكية الوحيدة التي ستظل تنتصب كالجسر، بين حاضره الذي يحاول الاختباء في ضبابه، وأيامه الشمسيه المعبأة بظل صباح.

عند العصر تمشت مدام موريل أمام غرفتها، عابرة إلى الحديقة الصغيرة المزروعة بأشجار لوز، وعرائش عنب، وخضراوات، لحقها دون تردد، كان العرق قد خدَّر أطراف أصابعه، وانتفخت عيناه قليلاً. بينما حاول أن يلين قسماته، قال، من الباب الموارب بما يشبه الفحيح. لأنه لم يستطع التحكم بمخارج الحروف الاجنبية التي يكسرها: «بماذا أخدمك سيدتي؟». التفت نحوه ببطء، كانت تتوقع ذلك، وتمتمت لنفسها، بأن هذا يشبه الروايات، مستغربة من انطباق الحوادث. ثم ضحكت من المقارنة السريعة وشعرت بالازدراء تجاه الرتبة الصغيرة الواقفة أمامها. لكنها لم تستطع اخفاء اعجابها بالرجل العالي الذي ينطق بالكلمات، كما في الحلم: «لا شيء كابورال، مع السلامة!»

فاستدار بطريقة عسكرية، وذهب إلى غرفته. «لا شيء كابورال!!» كل النساء يقلن هذا لي، عدا ماريا، هي الوحيدة التي تعطيني ذلك «الشيء» الذي لا أريده منها، «طيب! سوف ترين!»

كان طيفها ما يزال يظهر بين الشجيرات، اشتهى أن يذهب اليها، ويصفعها على خدها الصغير الناعم، ثم يقول، لا أريد منك أي شيء؟ أنت ماذا تريدين؟ هل تعتقدين نفسك ضابطاً آخر، حتى تعاملينني بهذا الازدراء؟!

كان الجنود يقيلون على أسرتهم، ومن النافذة رأى المدينة باهتة، وهاجعه، لماذا تتمشى زوجة اليوتنان، في ساعة العصر، بدل أن تذهب إلى النوم، هذه ساعة القيلولة ياسيدتي! ماذا ستقول؟!

«أنا لم أعتد النوم بعد الظهر»

«لا تنامي لماذا تنامين، النوم بعد الظهر، يجعل العينين متورمتين، ويؤذي البشرة، اسأليني أنا لا أنام، ولكن عينيكَ جاحظتان وجفنيك مغضنان كجفني حمار»

«أنت جميلة مدام. لهذا السبب يجب أن لا تنامي بعد الظهر، أفضل شيء

هو أن تظلي هناك جالسة في الظل، خاملة، ومضيئة مثل حوريات الجنة، حدقي في الفراغ! انظري نحو الغرب حيث تتكفن القرى والسهول والتلال بالضباب، لك مقلتان عميقتان، ما الذي يعجبك في تلالنا ياسيدتي؟ هذا اليباس مثلاً؟ هذه التربة المشعثة؟ انظري! لاشيء أخضر، الازرق والبني فقط، وهناك بعض الصفار الشاحب الرخيص الذي لا يساوي شيئاً، اللون البني لا يصلح للحب، هذا يورث الشهوة، والرغبة في النساء، وما رأيك مدام أن آخذك إلى أم الجرابيع؟ لأن زوجك يحارب هناك الان! ماذا تتوقعين أن تشاهدي؟ جنة؟ ينابيع ماء؟ وديان سحيقة وغيوم واطئة وأسراب عصافير! لا مدام! لن تري سوى كتلة ربانية من الصخور التي لا تنتهي أبداً ستمشين وتمشين وتمشين دون أن تصلي إلى آخر الخراب! فمن يطمع بأم الجرابيع، حتى يأتي من وراء البحار، ليقاتل سكانها الذين نفتهم الحروب إلى هنا؟! لكن يا مدام موريل، هناك يمكننا أن نختبئ، بعد بضع خطوات، مشوار قصير واحد، ثم نتلاشى وسط أحد الصدوع، أو في مغارة، أو بئر قديمة، ونمارس الحب، ستتخيلين يا سيدتي، أننا في أول الخلق، فهل يعجبك هذا الطقس؟!»

صار متعتعاً، ورفض استلام رئاسة الحرس، امتقع وجهه وازداد نحافة عند المساء، وبدا كالأبله، وهو يحاول الانتصاب في كرسيه بلا طائل. لقد خانَ نفسه أخيراً، وقادها إلى حافة الأسى القديم، ورواق الحزن. لا تعويض، ولا آمال، ولا قلب يحملك على دقاته وأنت تشعر بالحر الشديد، وتعرق، وجسمك ينشف بسرعة منتناً، تالفاً، وقد ضللته النساء، ماذا تفعل؟

آخر الليل وجد نفسه وحيداً. كانت غرفته الصغيرة ما تزال معتمة، ولم تكن لديه القوة، كي يشعل المصباح، وتجاسر قليلاً فمدَّ رجليه، ثم تمطّى كالهر، وماءَ بصوت ممطوط طويل، حين سمع قرعاً قوياً على الباب. كانت المرأة السوداء هناك، وقالت: «كابورال فضل فتشت عنك في كل مكان، أنت خنزير!»

تحمَّم، ولبس بذلة جديدة، ثم صعد الدرجات. هناك قالت السيدة بجفاء: «كابورال، لقد أرسلت منذ الصباح بطاقة إلى زوجي ولكنه لم يأتِ، هل تعرف أين هو؟»

جلس على أول كرسي رآه، فحدقت فيه بعينين جذلتين، رغم أن وجهها ظل محتفظاً بسيماء التغطرس، لم يتكلم، ووضع رجلاً فوق رجل، وقال «هل جئت بي بعد منتصف الليل كي تسأليني عن زوجك؟» فارتعشت، وصار صدرها يخفق، ثم همست بصوت متحشرج «نعم!» لاحظ الآن أنَّ نمشاً خفيفاً جداً طغى على خديها من الجهة القريبة إلى العينين، هزَّ رأسه، كما لو كان يريدُ افشاء سر، وقال بنبرة عميقة ملآى بالحقد، والنقمة: «زوجك مدام قال إنه ذاهب لـ. . . بلادي» فضحكت، ضحكة خليعة لا تلائمها: «زوجك، مدام رجل شجاع، إنه يخوض الان معركة بالمدافع، والطائرات مع رجال مسلحين بالسيوف، هل يعجبك هذا اكثر» قالت:

«لا» ثم نهضت فوراً، أمسكت بيده، وقادته، رأى الطريق إلى غرفة النوم، شبيهاً بطريق فردوس. قالت كلاماً غير مفهوم، ولاحظ أنَّ المرأة السوداء، كانت تسدُّ الطريقَ، فتركته، وعادت، وسمع همهمة متبادلة. فتخشَّب أمام السرير، ارتفع الصوت قليلاً في الممشى، ولم يعرف ماذا يفعل، «ربما صرخت العبدة، وقادت اليه الجنود، بتهمة السرقة أو الاقتحام، ولكن المدام عادت. كانت تبتسم ابتسامة حمقاء، وبدأت تخلع ثيابها ما أن اغلقت الباب وهو لا يصدق، راحت تتعرى، بلا فسق ولا فجور. هل هذا حلم؟ لكن الأشياء كانت دائماً هكذا، تأتي من حيث لا يدري ولايعلم. «أنت بردان» سألت بعذوبه، ثم أحاطت خصره بذراعيها، فحملها مثل عصفورة، وأحس أنها صارت بلا وزن. قال لها كلمة حب، ثم نسي اللغة، وراح يهمس بالعربية، وهي بالفرنسية وجسده الطويل الضخم يحيط بجسدها النحيل المقوس، شدت هي واتكأت على السرير بكوعيها «عانقني» قالت بالفرنسية، وهي تغمغم وتمسك الشرشف والشعر المحمص، وتمررُ يدها على ظهره، صار وجهها كالارجوان، وردة نمشاء مشتعلة: «تعالي» قال لها وهو يحضنها بذراعيه «خذني!» قالت، فضمها، حملها كالطائر، ثم مضى في الجدول النقي المرَّصع.

حين خرج من الغرفة عند الفجر، برزت المرأة السوداء من الظلمة فجأة، بُهت، وكاد يهرب إلى الغرفة المجاورة في حركة فرار غريزية، لولا أنّ المرأة قالت بصوتها العميق القديم ذاته: «من هنا كابورال»

بدت العبارة صلواتيه، رتيبة ومكررة، كأنما قيلت آلاف المرات وحين صار في الباب، سمعها، تلهث وراءه، وأمسكت بردائه وقالت «كابورال!» التفت نحوها متسائلاً، فأضافت بلهجة موريليه خالصة: «عليك اللعنة!»

* *

بعد يومين أخبره اسماعيل العلي أنه رأى شخصاً يشبهه في سوق الثلاثاء. كان اسماعيل يخبُّ بحصانه هناك حين رأى قامة الرجل. ظن أنه شامل، لكن جميع العلامات الاخرى بددت ظنه، كان يعتمر ُحطة حمراء، طواها فوق رأسه من الجانبين، مظهراً جدائله الطويلة الشديدة السواد، وكانت سحنته أشد سواداً، وشارباه يبرزان فوق شفتيه، كبيرين، ثقيلين، ممتلئين بعنف داخلي غامض، قال إنه رغب في تحيته، والسلام عليه، كأنه يعرفه منذ زمن، لقد طمأنَّه امتلاء الرجل، وضخامته، وجسارة نظراته الذئبيه، لكنه قال: «إن كان لشامل في خي، فهذا هو»، ارتجف خدا شامل، وقال: «هذا صايل وحق النبي!»

جزع قليلاً، وصارت جفنه ترف، فقال اسماعيل:

«شو بك مثل الخايف!»

قال شامل لنفسه: «مِنْ صايل؟!... إي!»

لم يستطع حلاقة ذقنه، ازداد شحوبه، وشعر أنَّه مريض. فتوسل إلى محمود الناجي، كي يوصله إلى الكرخانة وفي الطريق صار يحدثه عن صايل، قال إنه مرةً يكون من الحديد، حديد صدئ لا تعرف ما الذي يخفيه، ومرةً يكون من القش يحرقه عود ثقاب، ومرة يكون صخرة، أو ضبعاً لا تعرف من أين سيسبعك، هذا الرجل قال لرفيقه «ما حدا طوَّعَهُ غير صباح»

في الكرخانة، لبس ثيابه المدنية، تلفع بالحطة وأخفى ملامح وجهه كي لايتعرف إليه أحد، قلدته ماريا جبته، مثلما يقلد ماريشال، وقد أشفقت عليه، حين لاحظت ذلك التغير الماسخ الذي أهلكه، وقالت «ليش وجهك أسود، زعلان من شي» فغمغم «لا!»

«لكن شوفي، كأنك رايح تلاقي الموت؟» دفشها في صدرها، فترنحت وسقطت على حافة السرير، وهي تطلق آهة بطيئة، عندها قعد قربها، وهمس لها «لا تواخذيني!» لكن لهجته كانت بلا عاطفة، بلا أسف، «خذي!» ناولها ليرتين «اشتري عشا وعرق» فهمست بلهجة تأبينية محضة:

«مع السلامة!»

طوال الطريق، لم يستطع التخلص من بلاهة سؤالها، أحرقته الكلمات التكهنية المرعبة، كان يائساً تماماً، ولكن فحولته ورغبته العارمة في الحياة، كانا يتفوقان على انعدام الأمل.

أما الآن، فصار محموماً، وقد دب فيه دم الفزع، يسرع إلى السوق محاولاً كسر الزمن، باتجاه المكان المجهول. كانت المدينة خائرة تماماً في الظهيرة، تحت عبء الحر الرصاصي المقيم، كانت بضع دكاكين مفتوحه، بلا من يشتري، وكان فرسان من الشركس، والمغاربة، يتجولون في المنعطفات، عرف أنهم يحاولون امتصاص ذلك الغضب الغامض الذي يدمدم، خلف الحجارة العظيمة الصامتة.

هناك سمع صفيراً حاداً، كانت الحطّة الحمراء المتموجة أول ما رأى. وراح أخوه يرفع ساعده، مثل المنادي، ويصرخ بصوته الخشبي العريض: «يا شامل!!» بدا كالعيوطة، بهتافه الموجي، عبر الشوارع الخالية: «يا شامل!! يا شامل!!»، كان مشتاقاً اليه، وصاريقول له وهو يقبل نحوه، من أمام خمارة بطرس: «تعال! تعال!» مثلما ينادي مهراً، استغرب بياض شامل، وشفافيته وثلج يديه، وهو يحضنه، حمله بين ذراعيه، وقبّله «يا ولد! يا ولد!» دون أن يعبأ بفتوره، وانكساره الموشّح بالاسى الازرق، هكذا حدس بأن مثل هذا الرجل، لا بدَّ أنه ميت، لم تكن

لديه أية خبرة في الموت، غمره بجبل حنان، وكيفما سارا معاً، كان يحاول تحريض طرائفه، ونكاته العتيقة «حكيلي!» يقول، لكن شامل ظل واقفاً على حجر السكوت، «ما عندي شي!» أو «مليح» جواباً على سؤال عن حاله «عايش مع قحبة، وعَ باكل من عند فرنسا» فيمسح صايل طين الكلمات عن سمعه: «أنت أنت كيف حالك؟» «قلت لك شبعان من النسوان والأكل»

عند المساء ازدادت المدينة قفراً، خلت من البشر، أغلقت الحوانيت، ولم يضئ أي مصباح، ثم صارت تسمع في الاحياء الجنوبية وراء الابنية الحجرية العالية، طلقاتٌ، ونداءاتٌ عميقة قادمة من أحشاء الحارات، سأل صايل:

«قل لي يا ولد! ما بدك تتجوز؟»

فابتسم شامل، وحركّ يده تلك الحركة الخرقاء الغريبة التي يطرد فيها، بلا وعي، كائنات خفية، وقال:

«حتى يجي النصيب»

«من جهة المال أنا كفيل بالفيد»

كاد من فرط الرهافة، يفشي سرَّ عشقه، وجرجر ذلك الصندوق الفارط المسمى جسداً، قرب الحيطان، وقال لصايل «معي شوية هالمصاري، بتاخذهم لثنيه»

كانت رائحة فمه حامضة، ممزوجة بأنفاس خمرٍ دفين، وأضاف، بيقين: «الحرب جايه يا صايل!»

قطع كلماته، تاركاً الجملة في المدار الفارغ، تكتمل كيفما شاءت، صايل لم يشأ أن يستحثه، لقد وصلت رسالته «يكفي!» وقد راوغ الحقيقة كثيراً، «يكفي» هذا رجل ميت من آل الفضل.

وحين رجع إلى أم الجرابيع، قال لاخته «خذي المصاري يا بنت محمد الفضل». «واشتري كفن لخيك» أضاف بلارحمة. فوقع بيطس الفخار من يدها

وتحطم. ولم تستطع في الايام التالية تحمل نفسها ،لم تعرف ماذا تفعل، فلعنت صايل ألف مرة، وقالت: «متى كان اللعين يبصرٌ» ورغم أن شيئاً لم يحدث، وكذبت الايام كلام صايل، فإن ثنيه لم تتوقف لحظة واحدة عن التفكير في أخيها شامل.

* *

مضت عشرة أيام، قبل أن يأتي موريل، وصلت منه رسالتان خلال ذلك، وقد تسلمتها السيدة، وقرأتها بحيوية، ولكنها غضبت في المرة الثانية، حين لاحظت أن شامل يراقبها، وقالت: «لا أحب من ينظر الي وأنا أقرأ». غير أنّها ما لبثت أن أرسلت تستدعيه في الليل، (جاءت «اللعنة السوداء» (هكذا سمّى الخادمة الهايتيه المكفهرة) وهمست «أنا مجنونة!» فأمسك بمعصمها، وقبل خدها، فاعترتها رعشة، وشمخت برأسها نحوه، وقالت «لكني أحذرك، لا تأتِ الي وحدك يجب أن استدعيك أنا، لا تنظر الي!» أحسَّ أنه يهان، وكاد يحطّم جمجمتها بقبضته، لكنه غفر لها في ا لصباح، حين أخذ يراقب خطواتها على الشرفة، وجلوسها الصيفي المشغول بشرب القهوة، بدت له لبلابة عارشة ضعيفة، من خلال زخرفات الدرابزين، فابتهل إلى الله أن يطيل أمد الحرب، وصار انتظار الليل يملأ نهاره بقلق المسافر وبانشغال المستقبلين على أرصفة الموانىء، لكنه لم يجرؤ في أي ليلة على تجاوز المحرَّم، قبل أن تأتيه دعوتها، لم يكن راغباً في المغامرة، أو في اختبار طباعها لكنها قبل يوم من مجيء اليوتنان، طردته.

على الشرفة ذاتها، وفي الضوء الشمسي الساطع لآخر حزيران رأى قائده، كانت مدام موريل بجانبه، وقد نظر إلى غرفة شامل بضع مرات، ورأى أن السيدة كانت متشنجة. وقد خبط موريل حديد الطاولة بقبضته، سكب القهوة، ثم راح يمسح فستان زوجته الذي تلوث، و اختفى في الداخل.

أثناء ذلك كان شامل، قد ارتدى ثيابه العسكرية الكاملة تأنّق كطاووس، دون أن يفكر بأي شيء، كان قلبه مملوءاً بالفزع وبدأت أذنه تطن، فقال: «خير! خير!.. ثم بدل رأيه وقال: «إلى جهنم بكل ما يقال»

لذلك لم يفاجأ حين شاهد اليوتنان خارجاً من بيته بلباسه العسكري أيضاً، حانت الساعة اذن، لقد غذاها بنفسه، أبصرها آتية فنشط جسمه ببعض التمرينات السريعة، ثم تنفس بعمق، وفتح الباب، قبل أن يصل زائره:

«كابورال فضل، أنت خنزير!»

حياه شامل باحترام شديد، «ماذا تفعل؟ ماذا تفعل؟» قال موريل بعصبية، وقد باغته الرد الانضباطي المتقن، وبدت عليه علامات الفجيعه، ، لم يعرف ماذا يقول لهذا العريف الوقح الذي وطأ سريره في غيابه: «سأحاكمك بتهمة الخيانة كابورال» «لماذا سيدي؟» سأل شامل، وهو يقف باستعداد، لاحظ أنَّ الشمسَ لونت وجهه، فبدا أسمر بلون البلاد التي جاء لحربها، وشعر أن لهجته كانت طافحة بالسخرية، لكنه، لم يكن يقصدها، ولا تعمدها كان جاداً كعسكري، ولكن دمه بدأ يغلي، وتلهف لمعرفة الخطوة التاليه التي سيقدم اليوتنان عليها، لكن ذاك بدا متردداً، وقد انكشف ضعفه، واكتسى وجهه بزعفران الغضب والانفعال، كان مشرفاً على الهاوية، وأمسك شامل من ربطة عنقه، وراح يصرخ: «ألا تعتذر! اعتذر! اعتذر! عليك اللعنة!»

فقال شامل وهو يحدجه، بنظرة حقد:

«سيدي اليوتنان، لقد قلت أنك ذاهب لتضع عضوك في مؤخرة بلادي. أنا هنا، سيدي وضعت عضوي في فرج زوجتك»

صفعه على خده، لكنَّ شامل لم يتزحزح، وحين حاول موريل أن يرفع يده ليصفعه مرة ثانية، أمسك بها، وقال باحتقار: «تلك كانت آخر مرة ليوتنان!»

* *

حين طرده بعد دقائق، قال موريل، وهو يراقب العريف الذي يغادر المنزل، متوجهاً إلى القلعة: «لا مناص من حربكم أبداً»

(٥٤)

كانت ثنيه قد غزلت جبلاً من الصوف، الذي اعتادت على القيام به، منذ أن سمعت أخبار شامل، حين جاء الشيخ شمس الدين يحجلُ، ويرتعش، جلس قربها، بدا مزدحماً بسرٍ نحاسي صدئ، وقد اخضرَّ وجهه، وغارت عيناه، جلس قربها، ورانَ صمت القيلولة على النتوءات الحجرية، فيما ظلت ثنيه تغزل، وتنتظر كلامه.

الشيخ الذي اعتاد أن يقول كلامه عبر المواعظ والامثال لم يجد في جعبته الآن، ما يبدأ به، ولهذا فقد بحث طويلاً داخل جمجمته، دون جدوى، قبل أن يفصح لثنيه عن خواطره:

«اني، بدي ولد يا أم قاسم»

حَدَجتْه من الجانب، راقبت أطراف الخربة البعيدة، حيث كانت عصابات الاطفال. بدت كلماته سيئة النية. وكان هو نفسه رجلاً آخر لا تعرفه، كان شبيهاً بالشيطان، رثاً وخالياً من رحمة الآيات. فقالت محاولة الامساك بروحها: «يا ربي يطعمك يا بو خليل»

«بس اختك يمكن.. ما بتخلف» قال بقسوة.

الآن رأت إلى وجهه، لم تبق به ملامح، انطفأت قسماته، وتوارى لونه، واكتسى صبغة برشاء:

«أنت خرفان يا شيخ؟!» سألته بلا احترام

فقال: «لا.. انت لسانك طويل يا أم قاسم»

كان منافساً صعباً، وبدا كأنما استعد لهذه المعركة منذ أيام، منذ شهور بينما كانت هي عزلاء، بلا خطط، لم تعتن بكلماتها كثيراً، لكنها، اعتمدت على الله، وعلى القوة الأمومية التي كانت كافية لدحر جيش، رغم هذا، فقد مزق الرد البهيمي جدار حماياتها.

تلك الساعة فقط، رأت بعيني النبوءات القديمتين عروق الخراب وهي تتسلل إلى فضة بيتها الشامخ، لم تنكر أن الصدمة صدعت تماسكها، وبلبل رجس الكلمات الفاجرة تفكيرها: صارت قائداً أعمى، مدحوراً، خالياً من المعنى، خانتها الروح، انشرخت وبدأت تتهاوى أمام وجه الشيخ المتحفز المشتعل بحمى البقاء. ذاك حقه، كما قالت لنفسها فيما بعد «يريدُ الضنى، ولكن الله نفسه لا يريدُ!» لكنها الآن، صارت محمومة، وتراكمت أحقادها دفعة واحدة، حين تذكرت أن شمس الدين، غاب بضعة أيام من قبل، ذهبت بها الظنون إلى وكر الشيطان، وهب ذئبُ ذعرها على آل الفضل، فقالت: «كل رجّال من بيت الفضل حصان يا بو خليل، وكل بنت منهم فرس»

فاستفسر بضعف عجيب، لم تدرك كيف انخرط فيه:

«يعني أني شو يا ثنيه؟»

قالت: «أنت بغل يا شمس الدين»

قال: «لكن اختك شجرة ما بتثمر، قطعها حلال»

اشتهت أن تعضه، وتنهش لحمه، حين رأت إلى دماء عينيه، هلعت حتى الموت، من الحرب التي نشبت بينهما، سوى أن شمس الدين، كان قدرمى آخر طلقة لديه، وقد انكشف فجأة في معركة البقاء القصيرة، رأى أنه خاسر هالك بلا ذُخر، وفي أعماقه ندم بسبب الطريقة التي سارت بها المعركة، فوجد لديه جسارة أخيرة كي يقول لها: «حلِتْ الله عليك».

لكنَّها قبل أن تجيبه، سمعت دوي طائرة، ثم انفجرت قنبلة قربهما، غمرتها

كتلُ التراب التي تناثرت من الانفجار، ورأت، مثلما يرى النائم، لحية الشيخ شمس الدين، مدماة، وقامته مرمية على القاع، وهو يختلج بضلال غريب.

بدأت المدافع تقصف الخربة أيضاً، لكنها تجاسرت وراحت تهيل التراب، والدبش عن الرجل المصاب، أخرجته أخيراً من الردم، ففوجئت أنَّه كان كالغبار، خفيفاً وخاوياً بلا أحشاء، أحست بالشفقة نحوه، بجبل من المحبة، وروح الأمومة، راحت تركض وهي تصرخ: «يا بيطار! يا بيطار!» مغامرة في سبيل انقاذه، بالمرور عبر القصف المتواصل.

كان حنا مختبئاً، وخرج من مكمنه، إلى حيث كان شمس الدين يحشرج، بسبب الشظايا التي اخترقت جانبه الأيمن، بدا الرجل محيراً، هل ينفع طب الخيول؟!

استطاع أن ينتزع شظيتين كبيرتين من جسد الشيخ التالف وكوى بالنار جراحه، وداواها بالدواء ا لازرق. بينما راحت ثنيه ترجو فضة الغارقة في نعيم صمتها أن تحاول تذكر علوم زوجها الغائب «قولي! من شان الله!». . تذكري شو بتعرفي!».

لا طائل، فقد عجزت المرأة التي أظهرت فجأة عطفاً حقيقاً على الشيخ، عن المعرفة، بدت تواقة، وحاولت أن تستجيب للرجاء بصدق، لكنَّها، أخيراً، قالت: «مش قادرة، ما بعرف شي»

وقفت ثنيه كالمخنوقة، وتضرعت إلى الله، وهي تفتح صدرها وتقول «يا رب!» فسمعت فجأة، حمحمة خيل، وصليل مهاميز، دبيباً أصم، يملأ الوعر، ثم امتلأت باحة أم الجرابيع، بأكثر من ثلاثين فارساً، مدججين بالسلاح، هاربين عدواً نحو الخرائب، اخترق صوت كامل رأسها، داعياً الخيالة إلى حصنه، فغمغمت: «دخلك يا الله!».

بدا رجلاً آخر، بثياب الحرب الخفيفة: الكوفية الملفوفة والجزمة الجلدية،

وكثافة الرصاص، في الجنادين المتصالبين، والموزر المنسابة بلطف على الكتف، أدهشها جماله، فشردت في ساعات بعد الظهر، ولعنت حماقات القعود، وقالت، بعد أن رحبت بالفرسان البهائيين: «يا كامل!» التفت نحوها متسائلاً «شمس الدين ع َبموت» حدَّقَ فيها غير مصدق، فقالت: «اي! الطيارة يللي لحقتكم صابت الشيخ»، جرى اليه حيث كان مسجى، وتفحصه بهدوء، فلاحظ أنفاسه الطرية الهينة، بينما راحت غريبة، تستغيث به، وترجوه، فجعل يدمدم: «هيوا لي الجمل».

وضعوا الشيخ على الشاغر، ثم اتجهوا فوراً نحو السويداء. ذهب صالح برفقته، بينما بقي الفرسان الاخرون في الخربة، والمغاور المحيطة بها.

مع الشروق، كانوا على مشارف المدينة، بدت نعسانه في لفاع الصباح الشفاف، ومن بعيد، كانت بضع مرايا تسطع فوق أسوار القلعة مرسلة جوقة من الرسائل السرية، إلى قطعات الجيش المنتشرة في المدينة، وضواحيها.

عندما وصلوا إلى الأحياء الغربية، بدت مدينة أشباح، بلا لون: شرفات مغلقه، وابواب، ونوافذ موصدة، شوارع بلا ناس ومنعطفات فاترة خاوية، مرة أو مرتين رأوا فرق السباهيين المراكشيين والتوانسة، وسرايا من السنغال، يتحركون عدواً، نحو القلعة.

خبأوا الشيخ جيداً، رغم أنَّ علوه على شاغر الجمل، كان فاضحاً، ساروا مسافةً واسعةً، بسبب الدوران الحذر، قرب أطراف الأحياء الجنوبية، حتى وصلوا إلى منزل الدكتور سليم النابلسي بدأت تُسمع طلقات رصاص، كانت اصداؤها محيرة، وقد عرف كامل أخيراً أنها لم تكن صادرة، هذه المرة، عن ثكنات الجيش، وإنما من التلال المشرفة على القلعة، أحسَّ بالطمأنينة، بالأمان.

لقد ظن قبل شهر، حين أراد الانضمام إلى بهاء الدين، أن رجاله، لا يتجاوزون العشرة، كان يائساً تماماً من نفسه، وبدت شكوكه أقوى من إيمانه، أما الان، ومثلما حدث بعد ذهابه إلى مدافن الزرقا حيث يتجمع الثوار، فإن رؤية

السويداء المتحفزة وسماع ترقبها، كانا كافيين لامتلاء قلبه وعقله ودمه بالحماس فقال لرفيقه «شفت يا صالح!»

بدا الدكتور مرتاحاً، حين تفحَّصَ جروح شمس الدين. وعالج ببرود، وبلاملاحظات إصاباته، وقال لكامل، بعد ثلاث ساعات، إنهم يستطيعون نقله، إذا ما أحسنوا ربطه إلى الجمل، بحيث ينفصل عن حركته الانقلابية الهوجاء.

كان ذلك صعباً، لكنهما استطاعا، صنع سرير متماسك من الاخشاب، والحبال، وضعا فيه الشيخ، وربطوه إلى بطن الجمل، من جانبه الايمن، بعيداً عن سنامه الراقص، رضي الطبيب بفكرتهما، حين تابع وضع المصاب، بعد مشي الحيوان، وقال: «مع السلامة»

عادا من حيث جاءا، كانت المدينة غارقة في فضة الضحى، ومن السهل الجنوبي، رأيا معاً، كيف تأهب عالمان الواحد تجاه الآخر.

ولاول مرة لاحظا، كم كانت القلعة التركية المنتصبة فوق تلال المرج، معادية، وحقوده، وراغبة في التدمير، رأيا إلى فوهات المدافع، وظلال الجنود المستعدين، وفي المواجهة هناك، في الغرب، ربضت توائم المنازل، وقد أضفى الوهج الشمسي على كسائها الحجري، لوناً بارقاً، صارخاً، زاخراً بالبشارات.

عالمان متعاديان: أحدهما مسكون بالقوة، وهاجس الحرب والموت، والآخر مسكون بالنساء، والأطفال، والأزواج، والبهائم والقبور!

داهمته رؤى الموت، وأذهلته الفكرة الخارقة التي عبرت عقله، فهناك حيث تنتصب المدافعُ، ويتهيأ جيش امبراطوري لسحق مدينة ثمة قطعة من آل الفضل، حية، مليئة بالحياة، ممسكة بالبندقية أو بشعلة المدفع، كم سيحمله هذا من الدم؟!. كان هذا هو أول سؤال خطر بباله، حين فطن إلى أنّ شامل يقف مع جنود فرنسا، ويطلق النار نحو ناسه، وأهله، من سيقتل يا ترى؟!.

وقال لصالح، حين اطمأن إلى أنه سلك درب العودة الآمنة «روح وحدك! بكره جاي»

التهبت رغبته في رؤية أخيه، وصمم أن يجازف هذه المرة، كي يرغمه على مرافقته، لقد خاف عليه، وشعر أن ظل أمّه يلاحقه، كل لحظة: لو كانت حية، لصفعته بالحذاء بسبب تخاذله، وضعفه، وتخليه عن شقيقه.

سار هوناً باتجاه قلب المدينة، دون أن تكون لديه أية فكرة عما سيفعل، هناك بدت الاشياء مختلفة، وقد بدأت الاشتباكات بين الجنود، وجماعات من الشبان الحاسري الرؤوس، الصارخين وسط الساحات والشوارع، كان فوج من الفرسان والمشاة المسلحين يقف في مواجهة وفد أعزل من المشايخ، كانوا يتجهون نحو السرايا.

هجم ثلاثة شبان نحو كامل، في أحد الشوارع الجانبيه وأرادوا انتزاع بارودته، فنزل عن حصانه، وخرطشها، وقال «والله غير يطلع الرصاص من قلوبكم»، فانسحبوا، واختفوا في الزقاق المجاور. ندم عند ذلك، وتمنى لو أعارهم إياها فقط

حاول أن يصعد نحو القلعه، لكنه لم يستطع بسبب كثافة التواجد العسكري المحيط بها، فمضى إلى دار أبي علي، وترك سلاحه، وحصانه هناك، ثم راح يبحث في الشوارع، يراقب وجوه الجنود، لعله يرى شامل مرة واحدة، صارت أمنيته الوحيدة في ذلك النهار. الآن يفكر أنها ربما كانت امنيته الوحيدة كل عمره الذي تبقى له، ولكن هيهات، لن يرى شامل أبداً *«غريبة كانت الوحيدة التي رأته، حين نشبت معارك اللجاة. لقد جاء إلى الخربة وحيداً، بينما كانت البنت هناك، تسلل وجاء كالثعلب، سلم عليها، وقال «شفت يابنت بي وأمي!»، قالت إنها لا تعرف ماذا سأل، عمَّ يستفسر، كانت البلاد متاهة، وكان كل شيء على شفا صحراء من الخراب، فماذا شافت؟! لقد بكت فقط، وكان هذا جوابها، تلمست وجهه، وعينيه، وأنفه، حضنته، وقالت: «شو بدي ساوي ياخي؟!»*

قالت: إنه نقر أنفها، وصار يضحك، ثم قال لها: «ماتغيرت يا غريري» مستعيداً تسمياته القديمة، حين كان يطلق على كل واحد من اخوته وأخواته اسم حيوان محبب».

سمع صوت رصاص، وظن أنهم كانوا يطلقون نحوه، فانسحب عائداً عبر الوديان متحاشياً مناظر الجنود. لم يجد أحداً في بيت أبي علي، ولا عذبة كذلك، فذهب إلى فندق سمَّوه: (السعادة) صعد الدرج الخشبي، ولاحظ عيني رجل كهل تراقبانه من النوافذ، كان يتتبع خطاه، لكن الباب كان موصداً، ورفض الرجل الذي وقف وراء الزجاج أن يفتح له، قال إنهم اغلقوا الفندق، وباعوا الاسرة، فقال كامل: «أنام على الارض»

لكن الرجل ظل يعاندُ، وقال إن الدرك سوف يسجنونه، لانه استقبل غريباً هذا اليوم دون أن يقدم لهم اسمه، فقال كامل: «سأقول لك اسمي» قال: «لا يكفي» فهدده عندئذ صارخاً، «اذا ما فتحت الباب، رح اكسره» ولطم القفل بقبضته، فاهتز الطابق العلوي المبني من الخشب والبلور بكامله، وراح الرجل يصرخ: «خلص! خلص!» ثم فتح الباب، وشد كامل من كم قميصه إلى الداخل.

كان ضئيلاً جداً، وناحلاً، وطلب خمس ليرات لقاء النوم والحماية، استغرب كامل الكلمة: «انت بتحميني؟!» ابتسم الرجل، وذكر له، إن المكان للفرنسيين، ولن يأتي أحد اليه الآن منهم.

كان الفندق مؤلفاً من ثلاث غرف، تفوح منه رائحة خواء وبيض مسلوق، وبدا أنَّه لم يرَ نزلاء منذ سنين، كان الغبار يغطي الاسرة ذات الشراشف، والكومودينات، والمصابيح، والحيطان التي شاخت، وذبلت، وحين دخل إلى المطبخ، قال الكهل: «مين أنت؟» قال: «اسمي كامل الفضل!»، بدا المطبخ المكان الوحيد الذي يعبق بالحياة. وقد امتلأ بالبصل، والثوم، والخبز، والبطاطا، والبرغل، كأنما هو غرفة طوارئ، ورنا اليه صاحب الفندق، محاولاً أن يفسر: «مالي حدا هون»، كانت غرفة النوم في الداخل، معتمة جداً، ولم يستطع كامل تبين أي شيء فيها سوى سرير صغير، وكرسي من القش: «اسمي عادل، وينادوني أبو الليل»

كانت الشمس في أطراف السماء، وقد شحب لونها قليلاً، فأوضح أبو الليل بأنه لن يضيء المصابيح، وراح يعد طعام العشاء.

سمعا درزة طويلة من الرصاص، وضجيج ناس يتراكضون في الشارع القريب. فنزل درجات الفندق قفزاً، رأى جمعاً من الشبان والفتيان يندفعون نحو مقر القيادة الفرنسي، هذه المرة أحسّ أنه واحد من الجموع الحاشدة «هل كان السبب عدم وجود البندقية معه» وجدوا أن المقرّ كان خاوياً، فقاموا باحتلاله، وتحطيم أثاثه، ومن هناك اندفعوا نحو منزل اليوتنان موريل، كان ضابط المخابرات الشهير وحيداً أعزل في ذلك المساء، فقائده لم يعد من اجازته التي ذهب بها إلى فرنسا، والأرجح أنه لن يعود أبداً. وبدا أن الناس، والضابط كانوا على علم بالمصير النهائي لحاكم الجمهورية. لقد انتهى كاربيه، وانفجرت فجأة حمى الاحقاد المخبوءة كأحقاد الجمال، ظهرت حشود الناس كالمجانين بلا بصيرة، كالسكرانين، وكانوا يهزجون، ويغنون وسط الشوارع، والازقة، وهم يأتون إلى منزل موريل، لكنه اختفى تماماً، ولم يظهر أي جندي خلف الجدار الحجري المشجر باللبلاب، فتعاظمت بهجة المهاجمين بين الناس، حاول بعضُ الشبان تسلق الجدار، لكنهم تراجعوا سريعاً، وقد تمزقت أكفهم بسبب شظايا الزجاج التي زرع بها السور، بينما أخذ آخرون يحطمون البوابة.

حاول رجل ايقاف الجموع، لم يعرف أحد ما الذي دعاه للوقوف في وجه بحر التمرد، لكن الناس دهموه، وكاد يختنق تحت الاقدام التي داسته، لو لم ينقذه رجلان، ويفرا به

بدأت القلعة تقصفُ المدينة بالقنابل، انهمرت القذائف وراء الجموع، ورأى كامل كيف انشق الحشد كالبحر، وتبعثر الناس في كل الاتجاهات، وهم يزعقون، كان زعيقاً وحشياً، طافحاً بالهلع خوت تلك الأزقة التي كانت تعج بالبشر، ولكن منزل موريل ظل ساكناً، هادئاً لا يتحرك. بينما راحت تهدر، في الشرق عشرات المصفحات التي انحدرت من القلعة، نحو المدينة.

تقهقهر إلى فندقه، كان أبو الليل يأكل بهدوء، وسأل ببرود ثعلب «مين غلب؟!»، فرمقه كامل بطرف عينه، كأنهم كانوا يلعبون حاجوج وطالع: «العمى!

مـش شايف الناس عَ بتموت؟!» «شايف!» قال العجوز، وهو يلتهم طعامه. رغب في ضربه، لكنه رأى أن ذلك ليس مهماً، وظل يراقبُ الشارع من النافذة.

فجأة رآه، كان يخب وسط خمسة فرسان من المتطوعين بكوفياتهم البيضاء، صرخ بلا حذر: «شـاااامل!» لكن الرجال ظلوا سـائرين لا يسـمعونه، صارت احشاؤه ساخنة، ملتهبة *«امامه في الفضاء الشاحب كانت صورته معلقة، صورة أحلام، خليط مشوش من السكر، والاسى، والانوار الخفية: لقد رغب دائماً في الاعتذار له، في حياته الماضية، الآن يرغب بفعل ذلك اذا ما رآه»*

نزل درجات الفندق مرة ثانية ركضاً وراء أخيه، فأطلق الفرسان الشركس نحوه الرصاص. تدحرج إلى الاسفل، ولطى خلف الدرج الخشبي، فيما سمع صوت انصفاق باب الفندق في الاعلى.

ظل هناك حتى أظلمت تماماً، يراقب تجول سرايا الجيش من السنغال، والمغاربه، والجنود الاجانب، والفرنساوية، ثم صعد إلى الأعلى، وراح يخبط الباب، حتى فتح أبو الليل، فدخل وقال: «أوتيلك عظيم يا بو الليل، والله لو كنا بأم الجرابيع، ما كنا تخبينا هيك» فراح الرجل يتطلع اليه مستغرباً.

* *

ظلت محاسن تتطلع اليه أيضاً، وقالت إنها لا توافق على الخطبة اذا لم يكن في جهاز العرس راديو بني، أكبر من الراديو الموجود عندهم، فقال إنه غالي الثمن، قالت: إنها أغلى من كل شيء، ولن نقدر على العيش في غرفة مغلقة، بدون راديو، كان يريدُ أن يقول لها إن والدها نفسه لا يملك واحداً، وإنها لا تستمع اليه إلا عندما تأتي لزيارة أهله، وإنَّ القرية كلها ليس فيها سوى راديو واحد، ولكنه لم يستطع، لان طعجة ركبتها في ذلك المكان المظلم الفاصل بين الساق والفخذ، انكشفت الآن، وآثر أن يستمتع بلون لحمها الترابي المائل إلى السواد قليلاً، بدا شهياً جداً، ومغرياً، فواتته الرغبة في لمسها، في المكان ذاته أو الامساك بربلة ساقها، وهزها بلطف ثمَّ التسلق عبر اللحم إلى الاعماق.

بدلت جلوسها فجأة، ورنت اليه بنظرة فضولية: «هل كانت تعلم أن لحمها مكشوف؟!»

قالت: «إذا ما بدك تشتري لي راديو، خلي أهلك يعطونا الراديو يللي عندهم» قال «بحاول، أنا الكبير في البيت ومن حقي أخذه» ارتاحت لكلامه، وأسندت رأسها إلى كتفه، وهي تتنهد، فحدثها كيف ذهب قبل شهر بصحبة والده إلى الشام، وهناك رأى في منزل اولاد أبي معروف راديو ذا واجهة قماشية ذهبية، وأن البيت كان مملوءاً بكل شيء، من الاثاث. وأن بعض الاثاث كان فرنسياً، فاندهشت. قال: «لا تتعجبي، لأنهم بنوا في اللجاة بيوتاً أخرى على الطراز الفرنسي، تصوري! بدوي يسكن قصراً شبيهاً بقصر بونابرت مثلاً، وكل ذلك لان الرجل ساعدهم ضد الثوار، وصار مدير ناحية، مَن بونابرت؟! لا أعرف!

ذهبت محاسن، وتركته وحيداً، قالت إن كل هذا الكلام لا يهمها فقال «خليك! ما عاد احكي أبداً» لكنه كان آسفاً، فقد بدت له الذكريات حقيقة الحياة الوحيدة. لكنَّ جزءاً مكشوفاً من لحم امرأة محجبة، جزءاً يظهر خلف حاجز الثياب الثقيله، يساوي ألف تفاهة من الذكريات، مع هذا فإن للذاكرة لذة خاصة، لا تقل عن الوقائع، بل إن بعضها يغدو هو اللذة نفسها، فسوف تظل سخونة ثدي محاسن تشعل جسده كل لحظة، مع أن ذلك مضى منذ زمن، فماذا إذا تذكر حسّان أصابع يديها، وهذه الثنيه اللطيفة تحت الركبة؟!

حتى جسد دلال، الذي لم يعرف في حياته سواه، يبدو الآن، بلونه الوردي، في جنح الظلام (لأنها كانت لا تتعرى أبداً الا في الليل) نابضاً تحت وطأة حبه، برائحة الزيتون التي تظل تفوح منه.

كان يهوى ذلك، وقد فكر أكثر من مرة، كيف تكون رائحة الجسد بلازيتون، لكنه لم يغامر في التجربة، لان الصدمة توجعه، ولأنَّ تلك الرائحة التصقت بلحظة مجيء دلال العجائبية، كل شيء يمكن نسيانه، سوى تسلل امرأة إلى حضنك في الليل.

لكن الليالي الاخرى سوف تتلاشى، وتغوص بعيداً (وقد غاصت) وتنقسم دلال إلى امرأتين، واحدة في الحلم، وأخرى تقف هناك أمام باب غرفتهما، لتقول له إن مؤونة البيت قد انتهت لم يبق قمح، ولا طحين، ولا زيت، ولا زيتون، لقد التهموا كل شيء خلال عشرين يوماً، أكل ثلاثون رجلاً مؤونة نصف عام في أم الجرابيع «صارت خربة يابو محمد»

فقال وهو يتنهد «لا تقولي قدام حدا هالشي!»

ذهبت دون أن تتكلم، تلك كانت امرأة أخرى، كان يظن أنها تنكرت في زي دلال، وراحت تناكده، امرأة خالية من دوافعه العظيمة وغاياته، ومُثله. لم يصدق نفسه، وراح يتلفت حوله، محاولاً أن يتأكد من أن أحداً لم يسمعها، من ضيوفه، لكن الحقائق ظلت واحدة، وكتمانها لا يفيد أحداً، رغم أن ذلك كان الحل الوحيد لديه.

صار قلبه يرتجف مثل شمعه، حين تصور أنهم سيغادرون منزله بسبب هذا الجنون الغريزي الذي أصاب نساء داره، حين رأين كيف يتناقص طعام أطفالهن، باستثناء ثنيه التي اكتفت بالصمت لكنه كان يخشى صمتها أكثر من كلام الاخريات، صمت مدفع، تربص ذئب. هل يستسلم؟! لمن؟ لمعنى وجوده، الذي لا يمكن المساومة عليه أبداً أم لمزاج النساء؟ لو كان وحيداً، لترك كل شيء، وقدَّم طعامه لأول سائل فكيف يستطيع البقاء تجاه ضغينة ضيف، أو التخلي عن رجال الثورة.

قبل العشاء، أضيئت قمم الجبال الشرقيه، ارتفعت النار فوق تل القليب أولاً، بدا لونها برتقالياً صافياً، وسط المساء، لم تكن نار رعاة، فهم لا يصعدون إلى هناك، ولا نار كرّامين، وقد حيرتهم قليلاً، لكنها حين شبت أعلى جبل المسيح، وتل القينة، أدركوا أنها رسالة حرب، اشتدت الريح فجأة، وفرغ الكون من كل الكائنات، وبدأت النيران تتقطع، ثم تُذكى، وتشتد.

كان عليهم التحرك فوراً، هذا ما أوضحته رموز النار وقد قرأها الجميع،

الذين صاروا يعرفون لغتها السرية، ومعنى حرائقها وقد ترجموا ذلك إلى استعداد سريع، وراحوا يودعون سكان أم الجرابيع بكت النساء، وراح الرجال يعانقونهن بحماس، ودسَّت ثنيه البرقع الحارس في ثياب كامل، ثم ذهبوا جميعهم لتشييع الفصيل الثائر الذي بدأ يغادر الخرائب، حتى الممرات.

سمعوا وراءهم نداء امرأة «استنوا» كانت دلال تعدو، حاملة صرة طعام كبيرة، تقدمت من كامل وقالت: خذوا ماتعشيتوا بعد! فزغردت ثنية، وبكت النسوة الاخريات مرة ثانية.

كلما صعدوا الجبال، كان البرد يزداد، وقد اضطروا للسير قرب السفوح، في رتل طويل، قبالة الرياح الغربية المشبعة بالرطوبة، لكي لا يضلوا وسط الاحراش، تلَفَّع كامل بكوفيته، وتدثر بالعباءة، مقاوماً الرغبة المباغتة في النوم، مع أن تلك كانت عادته: يغفو على صهوة جواده، دون أن يتوقف عن السير، لكنَّ صمت المفرزة، وتراخي سيرها شغل باله قليلاً، راح يفكر بأهله، بدلال التي أبدت كل ذلك الكرم، في لحظة الوداع، ماذا سيفعلون الآن بدونه؟!

لم يخطر الموت بباله قط، تلك الليلة، يا للغرابة! بين اولئك الرجال الثلاثين، لن يعود حياً بعد ساعات سوى ثمانية!

وصلوا بعد منتصف الليل، كان رجال بهاء الدين، منتشرين بفوضى وسط الادغال، والوديان، وأعالي الجبال، وجاء المقداد، وقال: «تركوا الخيول مسرجة، وطعموّها قليل!»

كان هو نفسه، بحماسه القديم، ونحوله، ورغبته الفائضة في قول أشياء سريعة قاطعة، ثم مغادرة المكان، لايمكنك إلا ان تقبل أوامره، بلا سبب، فلهجة حازمة دوماً، وروحه روح جد.

كان وحيداً على صهوة الجواد، ثم جاء حمزة، وقال بحماس: «اليوم يوم الحرايب!»

فجراً عاد، كان الضياء وراءه تماماً، وقد اختفت ملامحه، بينما برز شخصه كله، وجثمانه الشبيه بسفينة، وانحدر بحصانه من وراء تلة صغيرة وقال «يلله شباب!» فتراكضوا إلى خيولهم.

عند انبلاج الضوء بانَ معسكر الجيش وسط الكروم. كان ثمة خيام منصوبة، وخيول، ومدافع، وعربات، ومصفحات، أشار المقداد بكفه، وقال: «شوفوا!»، ثم شرح لهم خط الهجوم، واحتمال التراجع، وطرق اختراق المعسكر، وضرورة الانتصار والفوز.

وفي اللحظة التي استعدوا فيها، انثال فجأة في تلك الجبال، والوديان، صوت مجوز ممجد، بدأ اللحن طويلاً ممدوداً، في البداية، ثم صار راقصاً، مشبعاً بايقاع صباحي سريع وحماسي. كانت تلك أعجب موسيقى حربيه، اندفعت بعدها، من جميع الجهات، جموع صارخة من الفرسان، والمشاة كالابالسة، سمع المقداد يصرخ «يا الله! يا الله!» ثم لم يعد يسمعُ، أو يرى، شيئاً، بدأت الارض نفسها تتحرك وطار قليلاً في الهواء، ليحط، كالنسر وسط أرض المعركة، بينما كان جنود الكابتن نورمان، قائد الحملة على الجبل الشرقي، يستيقظون من سباتهم المتعب، لكي يودعوا هذا العالم الوداع الاخير!.

بدأ رشاش مجنون يطلق النار من الخيام الشمالية، ورأى كيف حصد خمسة فرسان أمامه، واحداً بعد آخر، شعر أن زمن الرشقات طال كثيراً، وتساءل وهو مندفع بحصانه، «كيف ينبعُ الرصاص من ذلك الوحش الحديدي؟!» لكنّ فرساناً آخرين، ومشاة تهاووا من جديد على يمينه، استدار، وحولَ عنان حصانه، نحو الغرب، وأصاب برصاصه جندياً كان يخرج من احدى الخيام، وهو يطلق الرصاص، ثم قطع بسيفه أطناب ثلاث خيام، ودار على نفسه، دورة مجنون، حين شاهد علي، وسليمان الشبل، يسقطان معاً، بعيداً عنه، وسط دالية عنب!

لا يعرف إن كانت المصادفات هي التي قادته إلى هناك، أم الحماسة. لكنه حين اكتشف، أنه صار خلف راميي الرشاش، داسهما بحوافر حصانه بلا تفكير. استدار، وأفرغ رصاص بندقيته في جسديهما، ثم اندفع نحو أولاد الشبل.

كانا ميتين، مبتعدين الواحد منهما عن الآخر، بين عناقيد الحصرم، وقد نقَّط دمهما الأوراق الخضراء، ومن ورائه سمع ركضاً. كان جندي أسود يندفع نحوه، وهو يصرخ، لكنه حين رأى هياج كامل، توقف، وقذف بندقيته، ورفع ذراعيه إلى السماء، وصار يستغيث «الله! اسلام!» فدمدم كامل، وهو يواصل هجومه: «لو قتلتني كنت ناسيهم يالئيم» ثم ان سيفه حزَّ رقبة الجندي، فهوى إلى الأسفل، وظل يتدحرج بضعة امتار، وهو يحكي كلاماً غريباً، غير مفهوم.

انخرط عائداً إلى وسط حشود المقاتلين، الذين كانوا مايزالون يتدفقون من التلال، والممرات الوعرية، والاحراش.

استمرت المعركة حتى الظهر، ثم راحت أصوات الحرب تخفت وتتلاشى، رأى حمزه هناك، وقد اصطبغت ثيابه بحمرة لامعة، وراح يقهقه بقسوة، بينما تهدل المقداد بضعف، بدا عجوزاً متعباً خالياً من البهجة، تمشى قليلاً، باحثاً عن أبناء المنارة الذين جاؤوا معه، وراح يعدُكل بضع امتار قتيلاً، وهناك وسط القتلى واجه بهاء الدين، كان قاعداً على الأرض يبكي، وقد تكوَّم قربه قتيل خرقت صدره، وبطنه الطلقات. لم يستطع التقدم منه، وظل يراقب من بعيد الربان الشهير في وحدته، على شاطئ الموت، يندب الأخ الميت بصمت.

* *

في السويداء، كانت الحامية التي وصلتها أنباء المعركة التي مات فيها أكثر من ثلاثمئة جندي، قد التجأت إلى القلعة بكاملها، يصحبها اربعون متطوعاً من بارتيزان الجبل، وعشرة قحبات من الكرخانة، وقواد واحد هو روبير!

* * *

(٥٥)

استيقظ عند الضحى، وجاء العسّال متمهلاً، حاملاً دلّةَ القهوة، أخبره عن معركة الكفر فقال: «وفرنسا!» قال: «ما حدا عارف عنهم شي!» ثم طأطأ رأسه، وغمغم قائلاً «بس في خبر أسوأ كمان» سأل كنج بفضول: «شو»

أجاب، كأنما يرتكب جرماً: «كامل الفضل صار مع بهاء الدين!»

لم يكن ينقصه سوى هذا النبأ، كي ييأس من وضعه، لقد ملّ من كل ما يحدث حوله تقريباً، ولعن ساعات حياته واحدة واحدة، وهو يرى الى نفسه عاجزاً عن القيام بعمل واحد ناجح، يكسب به انتصاراً دائماً. بينما يرى اعداءه قادرين على البقاء، والاستمرار!

لقد أدرك الآن أنّهم كانوا أسرع منه، وانهم مثل الحرباوات يتلونون بألوان الحاضر، كالثعابين، يبدلون جلودهم، فواحد مع بهاء الدين والثاني مع فرنسا، والثالث مع الذيب الاعرج، والرابع مع النسوان. صار ممتلئاً بالبغضاء، ولم يستطع تفهم تلك العائلة التي جنحت بعيداً عن بحاره، في خلجان العمى:

«رح اليهم يا عسّال، وقل تعالوا نتصالح! تريدون بهاء الدين؟ أنا مع بهاء الدين! تريدون الذيب؟ أنا مع الذيب! تريدون فرنسا؟ لكن فرنسا رحلت من قصر المطر، «بَه!» في يوم واحد فرنسا، ما عادت فرنسا»

كان يريدُ أن يقول لضامن أشياء أخرى كثيرة، أخذت ترن داخل العلبة الفارغة، تحت قفصه الصدري، ولكنه اكتفى بالخروج إلى الشرفة، وراح يعبُّ الهواء، ويراقب منارته القديمه التي خنقتها الحرائق، وتركتها رماداً.

راح بضعة صبيان يلعبون، أخذ يدخن برفق، وينفث الدخان في الهواء، شعر بالسخط، لأنَّ السيكارة تلاشت واحترقت بسرعة، فلفَّ واحدة أخرى، وابتلع دخانها بالكامل.

كانت أنباء المعركة قد أهلكته، وأحسَّ أنه صار مُجَلّلاً بالخزي، لا إباء له، وأنَّ جميع اعدائه، تغلبوا عليه، وبطحوه، فأينما ذهب، كان يصلُ متأخراً، يلاحقه النحس، وحمم الخيبات. منذ ليلة صباح، التي امتصها الضباب، وضيَّعها. وحتى هذا النهار الذي وجد نفسه فيه، برفقة الخولي المخنث، وبضعة مرابعين لا مرئيين!

مع هذا، فإن كنج الحمدان، لا ينهزم، لم تنته الدنيا حتى يرفع البيرق الابيض، ويقول: «على راسي!»

قام، وارتدى ثيابه، ثم نزل من القلعة نحو المنارة. كانت البلدة الخاوية، الان، مطأطئة، مستسلمة تماماً، لماذا لم ينزل اليها قبل اليوم؟ صار يسمعُ وقعَ خطواته، لاول مرة، ولم يفكر بتلك العيون المتلصصة التي كانت تتبعه من النوافذ المواربة، وشقوق الابواب، دائماً. لقد اختفت الآن، رحلوا إلى خطط اللجاة، فبدت المنارة، معراة، خاوية، لكن جميلة، وطيبة. هكذا هي كما فكر، حتى القرى تفكر بشكل آخر حين تخلع عن نفسها أرديتها. فتح البوابات التي لم يرَ ما بداخلها قط، تسلل إلى دار من تلك الدور ليشاهد بنفسه أسرار الفلاحين الذين ظلوا على الدوام، بعيدين عنه، كانت الابواب مشرعة، أو قد يدفعها باليد فقط، فتهتز وتصر صريراً جافاً، ثم تنفتحُ عن العتمة الملآى بأكداس من أثاثهم. شعر بطعم الظلمة المُر: «ما قيمة هذه الاشياء التي كانت ذات يوم، فراشاً ملكياً لرجل وامرأة؟! الستائر، والوسائد، والفرش والبسط المزركشه، وزخارف الجدران، والرفوف، والربابات. ودفوف الغناء المبخشه، تركوا كل شيء لفناء الوحدة، حتى هم أنفسهم، لا أحد يعرف أين صاروا، فمتى تعود المناره؟! لن يعرف ولن يفهم، فهو لم يتركها، ولن يتركها أبداً! قهقه وسط الخراب العظيم، وخرج مترباً مغبراً،

كانت هناك خابية ملآى بماء آسن، غسل أطراف أصابعه، ثمَّ اقتلع قليلاً من حشيشة الفي، وفركها.

بدت المنازلُ الأخرى أكثر امتلاء، وغموضاً. وشعر أنه لا يعرف هؤلاء الناس، فجميع الاشياء هنا كانت معادية، مصنوعة لبشر آخرين، لهم قلوب أخرى، وأجساد، وعواطف، واختيارات ملتوية لا يعرفها، ومع هذا فإنَّ كل تلك العوالم المترهبة، المزخرفة صارت ملكه، خامره إحساس رب حقيقي، كان من قبل مجرد شيخ يأمر وينهي، أما الآن، منذ الآن، فهو يملك ويأمر وينهي، إنها قيامتهم وحدهم. فليذهبوا إلى جهنم اذن.

زار دار سمره، وسأل إن كانت بحاجة لشيء، فقالت إنها لا تعرف ماذا تريد، وإن الحرب لن تنتهي بعد اليوم أبداً، صار بيننا، وبينهم دم يا كنج!» «من تقصدين؟!» سألها بعنف، فلم تجب، وقالت «ما حدا!» بعد قليل من التفكير.

كانت هذه الاسئلة المُرّة له، ولكن العاهرة سرقت منه أسئلته، تعجب من نفسه، حين فهم، أنه يشبه سمره في كل شيء: لقد صار عاجزاً، لا يتحمل ثقل الاحداث، يكرر أوقاته ولا يخدم أحداً، سوى احشائه، ومثل الحمار، يديرُ ظهره لكل من أراد الركوب، حتى الكبورال الشبيه بامرأة، جاء اليه، وقال: «هيش!» فوقف، واستدار، وسار برضى، وطواعية، اينما أراد. «لكن لا!: «أنا رب هذه الاراضي، ولاحدود أمام وعر الله!» إنما ماذا ينفعك اذا كنت تضعف، وتهمد، أمام القوة الباطشة، كان يجب أن تتحدى ذلك الكابتن الذي قلّد قياصرة روما «هذه البلاد ليست لك»، لكنه لم يستطع، وقد جعله الخوف، رقيقاً، خافقاً كراية، وبدل اعتراض الحاكم، طأطأ كالابله، وسلم اليه مفاتيح قصر المطر، وارتاح إلى لعبة الخنوع، ليصبح كراكوزاً عند الكابتن، يتلقى الاوامر من سرجان، كان عريفاً، ما الفرق بينه وبين سمره اذن؟ «لازم تخجلي من نفسك» قال لها، حين اشتكت اليه الحاجة: «بيتك مليان مونة، وغيرك نايم تحت الشمس»

فقالت: «ليش أنا السبب؟»

لم يفهم عبارتها، وآثر أن يتجاهل هذا الرمل، وخرج من بيتها غضبان، دون أن يعود إلى سؤاله الأبوي السابق، لكنها لم تلحق به، كما كان يتمنى، ظلت في الداخل، تراقبُ خروجه الخامل، وابتذال شخصه، بعيداً عن أضواء القوة، عن زخارف القدرة الكلية، كان أشعث، ومهشماً، ولم تستطع أن تميز فيه سوى رأسه التي انكشفت، وتعرت في زاوية الشارع القريبة.

أحسَّ بتعبٍ، وهمٍ، ورغب في النوم. كان عقله عاجزاً مبعثراً، يخلط الاشياء، والاحداث، والافكار، وتساءل وهو ينظر حوله: هل المنارة هي التي فعلت به ذلك، أم فرنسا؟ أبناء الفضل أم آل الحمدان؟ أسمرة نفسها؟ ربما كانت هي، نعم! لكنه انتقم منها، حطم قليلاً من العنفوان المتعجرف الذي تنتحله تجاهه «لازم تخجلي»! ها! ها!، يا مسخ! تقول هذا لعاهرة؟ ومن أين تريدها أن تحضر رداء الاخلاق الرفيعة؟ من تسلّلك الليلي إلى فراشها، أم من سرقات محمد العابد؟ أم من جيوب الرجال الذين ضاجعتهم، وكيف يكون خجل العاهرات؟ أحمر، أصفر، أم أخضر؟!

ندم لأنَّه زارها، وأدرك أنها كسرت غبطته، وحطمت تلك الرؤى الجميلة، المشبعة بالآمال، بحلم السفن الذاهبة إلى البحار المزهرة، ومنذ خراب المنارة، كان يقول لنفسه، أنَّ سعادته صارت أقرب، سوف يجعل هذه القفار التي هجرها أهلها (في اول اختبار) جنة لنفسه، هو الوحيد الجدير بأرض لا يهجرها، أين يذهبون؟ لعنهم، كيف يعيشون خارج هذه البلدة الشبيهة بالشمس؟ تخيل اولئك الفلاحين، وهم محشورون في تلك المغاور المحفورة، خارج الزمن، بلانهارات، ولا ليالٍ، يبكون على دفتر الذكريات العتيق.

حين مر من حارة الجزارين، فوجئ أن جميع بيوتهم سوداء، مسوخ من المنازل المحشرجة، المتصدعة بإعصار النار. شيء ما شبيه بآخر الخلق، أو بالنهاية. شعر أنَّ الضغينة تجاه أحمد الجزار، الذي تسبب لآله بكل هذا الدمار، كانت في محلها. ذاك الرجل اللئيم كغراب. طوال عمره، كان يرى في صورته، شراسة

الفساد، رغبة الخراب. ولكن الله الذي استجاب لضراعات الناس، بالتخلص منه، شاء أن يوشى ذاك، بدرسٍ جبَلَهُ من لحم أهله، ومن ديارهم! ماذا يقول له هناك في الآخرة؟ «كيف تقاوم البحر يا لعين، وأنت لا تساوي قطرة ماء؟!». لكن لا، لا والله لقد كان الرجل جريئاً إلى حد الغباء، وفي الساعة التي كنت تحدق فيها إلى حرائق مملكتك، من شق الجدار، كان يطلقُ النار كالشمس، كليلٍ شتائي راعد.

اخترقت طائرتان، أفق المنارة، من الشمال إلى الجنوب، ثم استدارتا، وانقضتا نحو البلدة، وهما تزأران، «اهربوا! اهربوا!» سمح لنفسه بأن يصرخ في فراغ البلدة، سقطت القنبلتان فوق قلعته مباشرة، ولم يدرك ذلك في البدء، بسبب السحائب العجاجيه العظيمة، التي هبت. ومن بعيد ظهرت الجدران الشرقية المهدمة واضحة لعينيه، وكانت غمامات طفيفة من التراب ما تزال تغطى سور القلعة، وراء حي الجزارين. «لقد انتهيت» دمدم لنفسه شبه مجنون، مروع، مأخوذ بالخيانة الفرنسية الواضحة. بدأت تصله صرخات النساء النادبات في أعلى البيوت، واصطدم بصفائح متطايرة ورجال ملتحين لم يعرفهم، بسبب الغبار، يفرُّون خارج النيران التي شبت وسط التبابين، تعجب كيف استجابوا لندائه، بهذه السرعة! هل سمعوه؟ أم أن الهرب سمة الانسان؟ لماذا يهربون اذا كانت الطائرات لن تعود، وقف، راح يصرخ بهم: «يا ولاد الحرام! يا كلاب!» وأمسك ياقة أحدهم، ورماه أرضاً، فلم ينطق المرابع، وظلت عيناه تتوسلان، فتركه، «لقد حدثني، قال لضامن، عن نفسه، بنظرة واحدة، تعرف؟ لا أحد يحبني أبداً»

وحين حاول الخولي، استنكار ذلك، قال: «اسكت!» كانت عيناه تبرقان كالجمر، وهو يحدق في منزله المشتعل، ويتفحص بقايا الأشياء التي خلفها الحريق. شعر بالحقد تجاه الطيارين اللذين خرّبا عشَّه النسري، فوق القمة. «ليش؟» خاطب الخيال الغامض، الذي كان يراه في الأفق، هذه المره جازف بشتم فرنسا نفسها. لم يترك كلمة بذيئة، من قاموسه الحاقد، دون أن يستخدمها.

لكنه، بعد الظهر، استقبل في مضافته، التي بُقرت في الوسط رسالة من اليوتنان زهران، قائد قصر المطر، التي كتب فيها: «إن الحكومة، تقدم لجنابكم اعتذارها الصريح بسبب الخطأ الذي وقع فيه طياراها..»

أحسَّ بالسعادة، ولم تعد لتلك الاشياء المسماة حجارة، وحيطاناً، وأسقف ترابيه، ومرابعين قتلى، أية قيمة، كان مستعداً لتقديم قرابين الصداقة لليد الممدودة بكل ذلك الكرم الرجولي البارع اليه.

بيد أن سعادته لم تكتمل، فبعد يومين فقط، أخلى الفرنسيون قصر المطر، كانت جميع القوات، تتراجع، وتتجمع في قلعة المرج غرب غرب المنارة، فسأل خوليه المترقب العتيد «أسَّ يا عسّال منين بدنا نجيب لحاف؟»

انزوى في قلعته، أغلق الابواب على نفسه، وابتهل إلى الله أن يبعد شبح ذلك المحارب البعيد، الهاوي للحرب والقتال، عن بيته. لقد رآه في حلمه، كان قادماً على صهوة جواده، مكسواً بالبيارق والرايات، ولم يرَ وجهه، لأنَّه ظلَّ في منتصف الحلم، محاطاً بحلقات ضباب، وخيل، وفرسان، ورماح. «سوف يأتي» -قال لضامن- وهو يعض طرف شاربه، مدركاً لا جدوى كل شيء. كان عليه اذن أن ينصت لمواعظ العاهرة، فالنساء، كالقدر، يعرفن خميرة الايام القادمه!

في الليل ذهب إلى المطحنة، تشده الرغبة في رؤية الراضي الذي لم يأت إلى المنارة، منذ سكنه هناك، فقال سلمان «إن دفتره فارغ، وإن ايراد المطحنة كان صفراً، لأن جميع الناس لم يدفعوا بارةً واحدة، فقال كنج «تكذب علي يا سلمان؟! تريد المال لنفسك» قال «ما أخذت شي، الناس هجَّت، ما شفت يا بك؟!» بدا السؤال مسموماً، مخرمشاً كالحجر. «اي شفت» رد كنج، وهو يحاول اختراق الجسد الحرشفي الضخم للرجل المزعفر الواقف، في ضوء الفانوس، وجد أنّه كان مغلقاً، بلا نوافذ ولا أروقة، كأنما هو سلمان آخر، آتٍ من قفار، من سراب بعيد، «شبعت يا ولد؟ يا ثور؟ وصرت تتمرد في أرضي؟»

رغب في قتله، وشعر أنَّ الهواء صار ثقيلاً، وأنه أصبح مثل امرأة، يخونها

الرجال، لقد هزم في معركة كفرٍ أخرى، هو نورمان آخر، وهذا بهاء الدين، وكلاهما كمّا فكر ساخراً من نفسه، آتٍ من كتاب الحكمة، هكذا هي الحياة، ضحك في نفسه وهو يفكر في اسمي سلمان، وبهاء الدين.

قال الراضي معتذراً: «سامحني يا بك، أنا خزقت الدفاتر، حرام» فنظر اليه بحقد، لو أن واحداً آخر غير سلمان قال تلك الجملة لتقبّل الموعظة بلا غيظ، لكن تخيل أن الشيطان نفسه يعظ! ويلقي إلى بني البشر تلالاً من الاخلاق؟ هل العزلة المبكرة التي رماه فيها هي السبب؟ أم أن الرجل مجرد ملحد تافه، يتخذ لنفسه صورة قديس؟ على من تزايد ياسلمان؟!

لم يطق رهافته الشبيهة بالطعنات، لأن هذا الفحل القوي، المنفي إلى مطحنة الماء، منذ أشهر، يثأر منه، لقد فهم اللعبة المشيخية القديمة، ولم تغوه الحسابات الناقصة، في دفتر الطحين، وربما كان مجرد ثور خصي كبير بلا فحولة، ولهذا لن يغفر أبداً، طرده من جنة آل الحمدان، إلى حضيض الفلاحين!

سمع حفيف أعواد الذرة في الخارج، وطقطقة تنك فالت. مزيج غريب من الهمس، والضجيج. أصوات ليلٍ خاليةٌ من المعنى تقريباً.. فامتلأ قلبه بالغم، ولم تعد به رغبة في مناكفة المرابع الوضيع، وأحسّ أنه أسمى من الدخول في الطرح، والضرب والقسمة. ناسياً غايته التي زحف من أجلها وسط هذه الليلة السوداء. كان الراضي يقضم قطعة خبز بلذة أثارت حسده، ويلتهم حبة بطاطا مسلوقة بحجم قبضته. اتحدت شفتاه الغليظتان بأطراف الحبة، وقال وهو يمصمص شفتيه، ويمسح طرف ذقنه بمحرمة: «سمعت يا بك ان بهاء الدين جاي؟» كان صوته مبحوحاً، وسعل بعد ذلك، فتمتم كنج في نفسه: «يا لئيم!» ثم قال: «إي؟!»

قال سلمان: «أني رايح لعندو»

كيف استطاع ذلك الوحش أن يردّد تلك الكلمات بلا صعوبة؟ لا يعرف. لقد أمسك يده، وقاده إلى المكيدة: أطفأ مصابيح دربه، ثم سحق آماله، وناح على الضائعين، وأخيراً ها هو يقول: إنه ماضٍ إلى هناك، حيث يصوب مئات الرجال

المجانين فوهات بنادقهم إلى مستقبل البلاد، صانعين من الدماء، انتصارات، ومن رماد الاجساد المحروقة مجداً لرجل. وعلى صوت حوافر الخيل القاتلة ترتفع رايات حياة. كذب! بهتان! «رايح لعند بهاء الدين؟!» سأل المرابع بكراهية.

أجاب: «نعم!»

فقال كنج «شايف هذا؟» وأشهر مسدسه بوجه سلمان، «بدي فرغو براسك» فلم يتزحزح من مكانه، ومَدَّ فراشه بهدوء، ولفَّ صرة الطعام، ثم علقها في سلة، واغتسل، ولبس ثياب نوم، ثم قعد قبالة كنج، لم يقل أي كلمة، لاحاضر! ولا أمرك. وحين ملأ السبيل بالتتن، قال:

«الصبح اني تارك المطحنة، شوف واحد غيري!»

فصاح كنج: «بدي شوف، بس والله ما بترجع للمنارة بحياتك»

غمغم سلمان بصوت ضعيف: «هذي إرادة الله»

قال: «لا، هذا أمري!»

لم يؤثر التجديف في سلمان، ولم يرَ أن عليه تحدي شيخه أكثر من ذلك، لكن هذه المطحنة القديمة، ذات التاريخ القذر، صارت تشبه قبرا، بخوائها الصيفي القاتل، وجفافها، وثقل حجارتها الضخمة، مثل ضخامة جهنم، ودفترها المثقل بالرجس لم يصدق نفسه، حين تابع تلك البقية الضئيلة، في حسابات الطحّان. وأدرك أنه كان أضحوكة، ككلب أمراء شرس، تعلم القتل، والتعذيب، دون أن يُمنح شيئاً سوى العظام. لكن لا ضير، بقيت بضع ساعات فقط، إغماضة عين قصيرة، ثم ينبلج الصبح، ويترك هذا البياض التافه الناعم إلى غير رجعة.

كل ما يريده، هو أن يدعه كنج لينام، وأن لا يصرخ في وجهه مرة أخرى، كَبَح حقده بالصبر، وصم الاذان، حتى صارت روحه تقفز وتنط كالسعدان، داخل لحمه، ربما جاء دوره ليصرخ، في وجه كنج: «أنا مش عبدك، وما بخفض راسي قدام أي ابن آدم» وماذا عند كنج كي يخيفه؟ لا شيء، لم يعد عنده ما يخشاه، وما

كان يصنع أمجاد آل الحمدان، ولّى إلى غير رجعة، منذ أن رأى هذا البك يبكي، مثل النساء، أمام جثمان سعيد العثمان، بدا لعينيه مجرد نار مطفأة، هذا رماد (قال لنفسه) ومات الجمر من زمان»

نهض كنج، وغادر المطحنة، بلا وداع، كان عليه أن يترك تأثير الكلمات الغاضبة حياً، نشيطاً، لكي يمنع مرابعه من اختياره الاسود.

كانت السماء معتمة. مظللة بغيوم ندى، لفحته نسمات هواء باردة فأحسَّ أنَّه عاجز عن المشي، وأن دواراً خفيفاً أصاب رأسه، فقرفص قرب الوادي الجاف، حيث لمعت أثار مياه آسنة، وقفزت بضع ضفادع، تقيأ حتى الموت، ولا يدري، لماذا شعر براحة عميقة؟ ونسي في طريق عودته، محادثته المرة، مع سلمان، صفا عقله تماماً وشعر بالجوع، فقال إنَّه سيأكل الليلة خروفاً، ويرسل المرابعين قبل الفجر ليمنعوا سلمان من الانضمام إلى بهاء الدين، فكنج لا يخضع لنزوة مرابع، كنج هو كنج، لم يشخ بعد «أنا حصان اللجاة ياجبان» صرخ في وجه المرابع الغائب الذي تجسد أمامه. ثم ظل يصرخ وحده وسط البيوت المهجورة: «أنا حصان..» ويسمع صدى صوته يرنُ في الازقة، ويتردد، ويعود اليه.

ندم لأنه لم يدفنه في المطحنة، كان عليه أن يديرها قليلاً بيديه، ثم يقذف به بين حجري الرحى، لينطحن هناك، ويتبدد ويختفي في موت غامض فظيع، بلاهدهدات.

خسارة، لقد سلَّم، لم يعد كما كان من قبل، ولا بد أن هذا العبد الآبق، كان ينصت لطقطقة عظامه، داخل خرقة جسده البالية. استند إلى جدار، وأشعل سيكارة، ودخنها بلاحراك ثم سار نحو منزله، هناك رأى العسّال، كان ما يزال ساهراً، وبدت عيناه الصغيرتان، قلقتين، وقال:

«انشغلت عليك يا بك!» فلم ينطق كنج، لكنه هدأ، وارتاح، فهذا الرجل يتكلمُ لغة نظيفة وخالية من غش المرابعين الخونة!

بدا الخولي أصفر اللون، وكان وجهه ممتلئاً بالحكي، لكنه لم يتكلم، وظل يراقب سيده الذي مضى إلى الباكه، وتقيأ مرة ثانية، نظر إلى وجهه، حين عاد، وقال له: «شو شايف يا عسّال؟!»، كان يريدُ منه أن يقول له، إنه يرى وجه تيس.

لكن ضامن سأل باهتمام: «شو أكلت اليوم»

قال كنج بلا اهتمام: «يعني رأيك انو سمره سممتني! بس أني ماأكلتش عندها»

«يمكن هذا برد!»

تمنى أن يقول لضامن «لا». هذا القيء من القهر يا عسّال، نعم حين لا تستطيع أن تقصف عمر ذاك الذي يغيظك عمداً، حين ترى ضعفك وهزائمك، فإن أحشاءك تنكشف، ويخترقها دود الحقد، وتنظف نفسها من ترهات ذاك المرابع الخسيس. فهمت؟!»

لكنه، في أول محاولة للكلام، خضه غثيان جديد، فاستلقى على فراشه، وقد فقد كل رغبة، فقد حماسه لأي شيء «العمى! ما في طبيب يبدل معدتي يا ضامن؟» تأوّه كجمل: «يظهر إنها خربت» «آخ» قال حين انتقل مركز الالم إلى امعائه.

تناول الشاي، والزهورات، وقاءَ مرة ثالثة، وشعر بالراحة أخيراً، وقال: «هذا برد يا ولد! ما في غير هيك» ثم اضطجع وهمس: «بعد ساعة أيقظني يا عسّال!» هذه المرة كان موقناً أن هذه الارض لم تعد تتسع له، ولسلمان!

*   *

في تلك الساعة، كان صايل الفضل واقفاً أمام نافذة المطحنة. تسلّى قليلاً بمراقبة المرابع الشهير، كانت النافذة مشرعة، وكان سلمان يفرم تبغاً حسنبكياً ذا رائحة بائسة، لم يعرف لماذا رغب في منحه وقتاً، اتكأ على بوز بندقيته، ظل

يراقبه، كانت بين يديه حزمة ضخمة من التبغ، وكان نصل سكينه يلمع أحياناً بين الأوراق، ويصدر حشرجة ناعمة، كلما قطع قبضة منها، بدا لاهياً، واتخذ شغله ايقاعاً ثابتاً متكرراً بلا تغيير، ولا بدَّ أنَّ صايل تساءل بحرج، عما يفكر به سلمان، وتمنى لو استطاع رؤية الأفكار، عبر هذه الرأس الضخمة الناعسة.

شمَّ الراضي قليلاً من الحسنبكي، وأبدى اعجاباً راسخاً بتبغه، وحين فركه، عبقت الرائحة في أنف صايل، فابتسم لضحيته.

رآه يقف، ويتمطى، ويغسل يديه، ثم تمشى قليلاً، وصايل يهمس له: «خذ وقتك!» متذكراً تلك الساعات التي أسره فيها سلمان «متى حدث ذلك! متى أفاق! كيف اكتشف أولاً عيون آسريه، تلك النظرات المفترسة، حين يتأكد أعداؤك من شللك، واستسلامك، وخضوعك النهائي، أنت مقيد مرمي، عاجز عن الحركة، يبتسمون لك، لماذا يبتسمون؟

خطر له فجأة، أن يقدِّم لسلمان مواجهة صريحة، أن يقاتل بشرف، ويقول له: «هذا أنا يا سلمان!» تأمل المطحنة من الداخل: كانت الباحة المستديرة التي تقابل حجري الرحى، واسعة ومغطاة بذرات طحين، وبرغل أسمر، بدت كابية، في ظلال المصباح ومناسبة للموت تماماً.

راح خصمه يستعد للنوم، كان شبه عار، بقميص وحيد وشروال أبيض قصير، يغطي نصف الساقين، وجعلت شهوة الصراع جسد صايل محموماً، أحسَّ أن القتال وجهاً لوجه، كان أكثر شرفاً، ولكن الوفاء للوعد القديم الذي قطعه أمام سلمان، كان أقوى، وأشد امتلاء بالمعاني، ولهذا حينما حانت ساعة سلمان، وجد أمامه، تلك الكلمة الوحيدة التي انتظرها طوال سنوات عاره التي لم يغفرها لنفسه، ولا لسلمان قط. كلمة واحدة، طفحت برائحة الموت: «يا سلمان!»

فالتفت الراضي بضلال المقتول نحو النافذة، حيث قعد صايل، لم يعرف أحد إن كان قد رآه، أم لا، ولكن صايل أقسم بعد ذلك أنه منح الرجل تلك الفرصة العظيمة «كي يعرف أنني أبرُّ بقسمي مهما طال الزمن» أطلق طلقة واحدة اخترقت جبينه، بين العينين، فأطفأت إلى الابد، ضوءهما.

سقط كله إلى الوراء، بلا تأوهات، وسمع صايل صوت ارتطام جسده بالحجارة، ثم هدأ كل شيء.

* *

تفحص كنج وجه سلمان ببطء، ارتعشت يده وهو يقلب الرأس التي أصابها السقوط بكدمات بنفسجية، وكان الجسد بارداً متصلباً كالخشب، طويلاً وفخماً، حين نقلوه.

خرجت رجلاه، ونصف ساقه من الفراش، فبدا الراضي على حقيقته: فقيراً، معدماً، وسط عالمٍ صاخبٍ. كأنما كانت قوته كلها، وعنفه، طابة ملح.

قال: «ادفنوه» شعر أنَّه مخنوق، لا يقوى على التنفس، فكَّ أزرار قميصه، وخرج إلى السطح، وعبَّ الهواء الصباحي بقوة. وحين رجع حاول حمود الحسن أن يتكلم، فأسكته بإشارة من يده، كانت هذه هي عادته في مواجهة الموت، لايتكلم أبداً، ولا يلقي مواعظ لأحد، ويكره أولئك الذين يأتون لفلسفة النهاية الاكيدة، أعرف، صار يقول لهم في نفسه، تاركاً إياهم، أينما كانوا، يجرحون بؤس البشرية على بساط آياتهم، ظن أنَّ المرابع أراد أن يعزيه أو أن يشهد بماضي الميت، فأسكته، لا ضرورة لهذا، ولا يريدُ أن يعرف أيَّ شيء أكثر مما عرف، وهو يحسُّ أن رأسه صارت فارغة مثل قربة، هشة وضعيفة.

سار خلف النعش المحمول على أكتاف المرابعين، تأمل المنارة في ضوء الفجر. فبدت كلّها قبراً، خشخاشة مغلقة على الموت فقط. ووجد نفسه، راغباً عن العودة اليها، حزيناً، رغم أنه كان قبل ساعات فقط، يريدُ التخلص من هذا الرجل الطويل الذي أخذ سرَّ موته معه، ثم تأكد، حين جابَ أعماقه، أنه غاضب، ممتلئ بالنقمة على القاتل الجبان الذي أعدم الراضي! هل كان ذلك الرجل يقرأ أفكاره؟ أين هو؟ ومن هو؟

وفي المضافة راقب العسّال جيداً، ماذا يخبئ هذا الرجل؟ لم يصدق أنَّ

رفقته، الطويلة لضامن، جعلت أفكاره مكشوفة، وصريحة إلى هذه الحدود، هل تكلم في نومه، وإذا فعل ذلك، فهل ينصب الخولي نفسه قاضياً، وجلاداً، ويذهب إلى المطحنة، ليغتال الطحّان اللاهي؟

لكن العسّال، كان راعداً، مخيفاً، وهو يصب لعناته على خساسة القاتل، كان حنقه مجيداً، وحماسه بريئاً طفولياً خالياً من لؤم المقاصد المبيته، بدا شاعرياً جداً، مثل شجرة باكية. وزاد في حزن كنج، على مرابعه القتيل، وقال لنفسه، بأنه لو ظل حياً لما تعرّض له، وربما منعه من الذهاب إلى بهاء الدين فقط، أما الموت، فلا.

واعترف لنفسه، بأنَّه لا يحبُ سلمان، ولكنه ورثه عن أخيه وبدا له جزءاً مهماً من أملاكه، لكنه غير ضروري، فَعَنْفُهُ، وقسوته كانا يظهران بوقاحة، في حين أنهما، القسمتان الارجوانيتان الغامقتان فيه، اللتان لم يرغب باظهارهما إلا في وقت الشدّة. سلمان كان فالتاً، ثور رعب لا يحتمل، جملاً هائجاً، يعدو نحو موته.

ها قد مات!

* * *

(٥٦)

في المنازل، أكل بلا شهية، ونام حتى المساء، وحين استيقظ وجد أن يده كانت خدره لا دمَ فيها. عجز عن تحريكها، فصار يمسدها بقوة، مذعوراً، حتى أحسَّ بدبيب النمل فيها، وصارت تستعيد نشاطها قليلاً قليلاً، فنهض، واغتسل، ومضى الى المضافة، ومن هناك نادى ثنيه، فجاءت سريعاً، خفق قلبها لنداء الاخ المارق الذي راح يبتعد عنها، ويضيع في المتاهات. كانت نضرة، وطافحة بالرحمة، حين وصلت: كان شعرها ممشطاً، ومضفوراً، وكانت تتلفع بفوطة نظيفة بيضاء كالسكر، مثل امرأة مغوية، فابتسم لمرآها، وقال: «تعالي! اقعدي!»

رأت مكره حالاً، ورغم أنه حاول أن يخفي قلق روحه، وضلاله، وسط الانشغالات التي تنهشه، وتغله، فإنَّ ثنيه عرفت تدابيره كلّها حالاً، وسألته إن كان يريدُ أن يتعشى، فقال «لا» وطلب اليها أن تصب له قهوة، ثم سألها عن شمس الدين، وعن هايل الذي لم يره منذ أيام، وأخيراً قال إنه يريدُ معرفة أخبار كامل، فتبسمت، وطمأنته بقليل من الكلمات، ثم أطرقت قليلاً، وطردت الكلب الذي قعد أمام باب المضافة يلهثُ، والتفتت، نحو صايل وسألت، بغتة «هه! هات! شو بدك تقول؟!»

هذه هي طريقتها بلا شك، قال لنفسه، تفاجئهم في الذروة. وتحول ادعاءاتهم الجوفاء بالحكمة، إلى لعب أطفال، قال بلا تردد: «قتلت أمس سلمان ا لراضي»

ظن صايل أن أخته الكبيرة، لن تتجاوز دهشتها التي أظهرتها بعد جملته

بالضبط، وخطر بباله، حين رأى إلى وجهها الذي اصطبغ بالحمرة، أنها ستسعد، وكان مستعداً، لقتل عشرين رجلاً آخر من رجال كنج، إذا ما أقرت فعله. لكن ثنيه كانت في مكان آخر، لقد صعدت بروحها إلى أعطاف رأفة نبتت في قلبها تلك اللحظة، ورنت إلى أخيها، وشعرت بالضغينة على الحرب، على الحق المهضوم الذي يحوِّل القلوب إلى حجر، إنها تعيسة، ولا تريدُ شيئاً من هذا، وتمنت لو أن نداء ما تخلقه، وترسله إلى الله ليريح عبيده من هذا الحماس الجنوني لتعظيم الموت.

لا فائدة، إنها تخسر، وتنهزم، وقالت لصايل بصوت خاشع حزين «بدك تنتقم من الظلم» فحدّق فيها وقال: «اي!»

قالت: «صرت ظالم أنت كمان!»

برم شفتيه بفظاظة، وتركها دون تعليق، صارت رخاوة أهله تُكَدِّره، وأشاح بوجهه عنها قليلاً، محاولاً أن يستجمع قوة رد يفحمها بها، عاد إلى قربها، وراح يذكرها بموتاها، وبالحصار القاتل الذي يخنق آلها، وبمظالم آل الحمدان، ويسرد أمامها سلسلة قتلى المنارة، وقتلى القرى المحيطة بها، ذكرها بحادثة الكلب السلوقي، بخطف بنت فرحان الصلاحي، وتشليح حمد، وقتل ابنه، واغراق الصبايا الثلاث في بير الملايح، حتى أنَّ رائحتهن ملأت وعر اللجاة يا ثنيه! فقالت: «كل المشايخ يفعلون هذا!» وكأنها تبحث عن عذر لكنج، فجحظت عيناه كعيني ثور، وساد صمت خفيف، فرك صايل خلاله عينيه كمن يريد أن ينتزع منهما آخر ضوء من أضواء الرحمة. وبدأ يسرد أمام أخته، صفحة أخرى من كتاب أهوائه: فهو لم يحب هذه الخرائب المنسية قط، هذا القحل الموروث منذ ألف عام، ماذا تركوا لنا هنا، ما لنا؟ ومنذ أن تركوا المنارة، لم يعد لشيء قيمة أنا من هناك يا ثنيه، ولكن كنج يقول لي لا، كيف؟! أنا ولدت هناك، بيتي في المنارة، بعدين تعالي لتشوفي. ذهب إلى خرجه، وأحضر من هناك، ردْنَ نايل القديم الملطخ بدم ذراعه المقطوعه، «بتعرفي إنو ذراعه ظلت بالمنارة؟ وبعدين بتقولي لي إني ظالم، وإذا ظلينا هون، شو بدك تتذكري يا ثنيه؟!»

استدار، وقعد، وصار يحدث نفسه، بانه سيملأ هذه المعمورة خوفاً، وموتى، ولن تحمله قوة على الرضوخ. وسيلعن نفسه، إن كان لن يرد على الظلم بظلم أشد.

أخذت تراقبه بعيني ثكلى، تلك المرأة التي تجاوزت الثلاثين بقليل، كانت ملآى بأحزان العجائز، ولم تستطع أن ترى وراء رعد العواصف، سوى زلازل الخيبات، والمصائب. وهي لا تريد على كل حال، سوى منع ذلك عن اخوتها، قالت له بجفاء: «لاعاد ترفع صوتك بوجهي! لأن عظامي نشفّت، وصارت توجعني» فاقترب منها، وقال:

«بس نحنا ما خلقنا للموت وحدنا!»

قالت «إي»

قال «بتذكري يوم أخذوا محمد الفضل عَ السفر برلك؟» قالت: «إي» قال «وتركوا ابراهيم الحمدان؟» قالت: «إي» قال: «وبعدين؟!» قالت: «الله سبحانه وتعالي بيحاسب الناس بالآخره» قال: «وإذا ما في آخره؟» فشهقت، وأمسكت بيده خائفة، وقالت: «دخلك يا خي، لا تكفر».

كان ذلك كله، بنهايته الصوفية، يشبه لعبة، وقد صار يعرف أن ثنيه لا تريدُ أن تقتنع بأفكاره، ولا بأفعاله، لا لأنها لاتراها صحيحة، وإنما لأنها لا تراها مناسبة، فنهض وذهب إلى شمس الدين، حيث كان الرجل ما يزال مضمداً، وغائباً، في خذلانه وضعفه. وهمست غريبة، وهي تبكي، بأن الشيخ لم يكن يفعل أيَّ شيء سوى النظر اليها، «صرت اكره وجهي» وقالت إنها لم تعد تعرف إن كان هذا الوجه الذي تحمله لحماً، ودماً، أم مرآة، فقال «يمكن بدو شي» قالت «ما تركت غرض أو ثوب أو طعام أو خضره، لكنو كان بكل مره يرفع حواجبو ويقول، لا، يرجع يطّلع فيّ»

ما كانت تفهم الشيخ بالطبع، وهو لم يستطع أن يقدم لها سوى تلك

النظرات الاعتذارية الصماء. ولقد ظن، كما قال لغريبة بعد ذلك، أن ثنيه حكت لها ما حدث، وحين جاء صايل كانت قد مضت عشرة أيام، على ذلك التطلع الحزين المفعم بالرجاء هل كان قناع الموت؟ سألت صايل، فقال: «يمكن، لأنو الانسان يوم بيقبل على الموت، بيصير وجهو مثل وجه. . سكت، تذكر أخاه شامل فجأة، ثم واصل كلامه فقال بيصير وجهو بلا لون، هيك مثل الخشب القديم يللي اهترى من الشمس والريح» غير أن التشبيه بدا له ضحلاً، فقال: «اسمعي الحقيقة انو وجهو بيصير مثل وجه السمكة» فحدقت غريبة فيه بيأس، لم تكن قد رأت سمكة بعد، وخافت على شمس الدين، فتساءل صايل حاقداً، لماذا لم يخف عليه أحد، لماذا تبكي اخواته كلما نطق أمامهن بهمومه، من هو عندهن؟ وهن يبكين وصباح تحدق فيه، تخترق لحمه القاسي، كلحم الجمل، بعينيها الدامعتين كعيني حمار. هل يبكين عليه؟ أم يحببنه؟ لو يستطيع فقط، أن يعرف ماذا يحدث حوله، ماذا تعرف اخواته من أشياء لا يعرفها، لكن غريبة كانت منخرطة في نحيبها السخيف الذي لا ينتهي، قال «إذا ظليت قبالك يمكن اغرق»

ذهب إلى بيت هنده، وطلب طعاماً، فقالت «تقبرني ما في حدا عشاك!» وحضَّرت بيضاً مقلياً، وحبات بندوره، ولبناً وبصلاً وعندما بزغ القمر، جاء فضل الله، كانت ثيابه مغبرة، ووجهه شديد السواد، وكان العرق يغطي رقبته، وتحت ابطيه، وبدا كالممسوس لكنه حين رأى صايل لم يقل شيئاً، وقال إنه سيظل ساهراً، ثم تناول طعاماً، فيما راقبه صايل بطرف عينه، دون أن يسأله، لقد بنى الرجل حاجزاً وحشياً بارداً بينهما منذ اللحظة الاولى، شعر بالحقد عليه، كرهه، وظلت هنّده بعيده عن الرجلين، ولم تجرؤ على الاقتراب من زوجها الذي مضى على غيابه، أكثر من أسبوع.

ظل صايل قاعداً هناك لا يتزحزح كالصنم، امتلأ رأسه بالفسق، بوحشة الحمار المبعد، ولمعت عيناه بالخسارة، ماذا فعل لكل هؤلاء حتى يصير متروكاً، تقفل الابواب تجاهه، وتغلق القلوب؟!

صار كل ما حوله، حقل سواد، خسر أمطار حياته، وها هو الآن أضحى وحيداً في دار النساء، مُعرّى، راضخاً تحت حطام النظرات البالية لشاعر منُفّر يقطر جفافاً.

وبنوعٍ من التحدي، لفضل الله الضئيل الذي ظل يحوم حوله، داخل الغرفة، سأله عما إذا كان قد رأى كامل، كانت حواسه كلها متنبهة، وتمتم الشاعر بكلمات غامضة، كأنَّه يسحبُ اللغة، من حجر. بدا حاقداً، بلا سبب، أهذا هو طبع الثوّار؟

مرة أخرى يمتلئ صايل بالبغضاء تجاه هذه الأرواح التي لا تعرف كيف تستقر، ماذا يريدون؟ الحرية؟! طيب إذا كانت الحريةُ من عبوس، وغضب، وعثار فكيف سأحبها؟! وإذا كان استقلال الوطن يعني أن يأتي ثلاثون رجلاً، ويلتهموا كلَّ ما في أم الجرابيع من البرغل والعدس، فهل سآكل العشب بعد ذلك؟ ولماذا لا تكلمني يا شاعر؟ قوّست على فرنسا؟ وما ذنبي أنا؟ أنت قوست ضد اعدائك، وأنا قوست على أعدائي، أعدائي وأعداؤك كانوا معاً أول أمس، هل سمعت كيف شرب كنج نبيذ جان دوتي؟ أطردوا مرابعي كنج من بينكم، ورحّلوا أهل المنارة إلى جهنم، وسوف أقف معكم وأقول لكل كابتن: ماذا تفعل هنا؟!

مضت لحظات اللقاء مثل دهر، كلاهما: فضل الله، الذي لم يجد في رأسه كلمة يقولها لنسيبه العاق المارق الذي يقعد هنا كذكر النحل، يأكل، ويشرب ثمار التعب الطويل، ويجرب صنوف الراحة، وأشجار الطمأنينة الخالصة التي يقدمها اليه رجال صاروا سياجاً، خشبات مرفوعة في وجه اولئك الذين يستدرجون هذه الجبال إلى الخنوع «كثر البلا وتبدل الزين بالشين» خطر بباله مطلع قصيدة، تبدأ بهذا الشطر، وصايل المأخوذ تحت وقع التجاهل العنيد لرجل لايصلُ إلى بزه، يستطيع إذا ما أراد أن يمسك ذقنه ويقول له: «تكلم!» فينطق حتى الصباح، ولكنه مجرد غنيمة كالريش، لاقيمة لها يجب أن يكون هذا العالم، قد أخطأ في مكان ما، حتى يقابل صايل الفضل الساعي وراء البراءة، والأمان، والايات الرصينة بكل هذا التجاهل الكافر.

كلاهما اذن ظل صامتاً، إلى أقصى الدقائق الباقية، وكان يجب على أحدهما أن يعلن هزيمته، وهكذا خمنت هنده، وهي تحسب لحظات الاسى اللاهبة، تجاويف الحضور الشائه لرجلين وضعتهما الاحداث بعيدين، متنافرين، وكل منهما يرفع بيرق خلاصٍ ملون بأمنياته، وأفكاره.

من منهما تختار؟ الزوج أم الأخ؟ لم يفعلان هذا؟ وهي التي لا تقوى على تحمل قشة؟ شعرت بالحصار، بهوة من الفراغ البارد تكوي جلدها هنا، وهنا على طول أطراف الجسم الشاكي المتألم الذي اختلطت فيه السعادة (برجوع الزوج المحارب) باليأس من اللقاء الثلجي المجدب. صارت تتمنى في أعماقها أن ينهض واحد منهما، ويرحل، لأن ذلك الصمت المخيب بدا، بمبة، على شفا الانفجار، عندها، نهضت، وحملت وليدها، كي تحطم بجسده اللين كما قالت) كثافة هذه السخافة المسماة: رجالاً

بكى الصغير حين أيقظته يدها المرتعشة، وقد سرت رعدة جسدها إلى لحمه الطري، وحين صمت، ظلت عيناه تنظران دهشتين إلى وجه أبيه الخاوي، الذي أطل عليه قريباً من وجه أمه المنحنية نحوه، المشيرة اليه، بابتسامة يابسةٍ عمياء مكسورة.

* *

سمعوا صفيراً في الجوار، نَبَحَ كلبٌ، وقال فضل الله وهو يعانق هنده، بلا حياء من صايل: «أني رايح!»

جزعت بلا مواربة، وهي تحسُّ أن شيئاً ما ثقيلاً ومبهظاً ينيخُ على صدرها، وفي جسدها الذي لامست قشرته الساخنة، أصابع فضل الله البيضاء، نبضت مياه فواره، انتفضت حين فرك كفه في ثنايا ثوبها من الخلف، حركة غصن شفاف. لقد خسرت دون أن يكون لها ذنب في معركة التحدي المدنسة، التي خاضها رجلان. صارت تشعر بالبغضاء تجاههما معاً، لعنتهما في سرها ولعنت جنسَ حواء الرث الضعيف المجرجر في بؤس الرجال وشعائرهم، وقرابينهم، وأحقادهم، وفسقهم، وأرجاسهم.

عاد الصفير مرة أخرى، ونبحت الكلاب معاً وهاجت، وضجّت الخربة بنقيق ضفادع، وصرير زيزان، ونهق حماران في الباكة، خائفين. ثم صهل حصان، وصارت أنفاس صايل مسموعة في هواء الغرفة الحار كلهاث ذئب. لكن فضل الله ظل مكانه بطيئاً، وملولاً، وفاتراً. تقلد جنادَهُ، وبندقيته، وصحح وَضْعَ كوفيته، ثم تَلَفَعَ بها، شدَّ النطاق الجلدي العريض على خاصرته، لبس جزمته، ثم قبل ابنه وتطلع إلى هنده التي بدأت تبكي.

عندما خرج، قالت لصايل، الذي غادر الغرفة وراءه، متصدعاً: «ليش هيك؟!» لكن الليل ابتلعه فوراً.

ركض نحو مصدر الصوت، عبر طريق العين، متسلقاً بضع أسطحة، وحيطان، ثم دار دورة قصيرة، من وراء كرم الزيتون، وأشجار اللوز إلى أن رآهم متجمعين هناك، كانوا أكثر من عشرين فارساً ولم يسمع شيئاً من حديثهم، بسبب الكلاب التي كانت ما تزال تنبحهم وفي كل مرة، كان ينجح في التقاط كلمة ما، كانت بقية الجملة تختلط، بالنباح الصاخب المجنون.

رأى فضل الله يعود، وابتسم بمكر، ثم رقّ قلبه قليلاً، وراح يصيخُ سمعه أكثر إلى الحديث الذي اتضح الان، منذ أن نهر صهره قطيع الكلاب الهائج:

كانوا سيبيتون في تلال الغربان، هذه الليلة، وعند الفجر يرحلون نحو الشمال، إلى وادي الذهب، ليراقبوا تقدم الحملة العسكرية الجديدة التي تسربت أنباء تحركها منذ أيام.

سيان لديهم، انتظارهم هنا، أو ذهابهم إلى التلال. تأكد إن كانوا يلفظون اسم أحد أخويه وشعر بالشوق إلى هايل. وتساءل: ما الذي يفعله الآن ذلك الولد المشتعل؟ ماذا يرسم؟ حرب؟ كيف ترسم الحرب يا هايل؟ أضاعت عقله، فجأة، فكرة أن إخوته في الداخل، وأنَّ مناكدته الثأرية لفضل الله، حرمته من رؤيتهم. أغمض عينيه حين نهض بعجلة، لأن غيمات صفراء رمادية، أسدلت عليهما، ولم يعد يرى شيئاً، ظن أنه سيموت، ثمَّ اتضحت الرؤية الليلية قليلاً قليلاً تراجع نحو

دياره، عائداً من حيث أتى، ولكن عزيمته وهنت حين تسللت إلى مسامعه وشوشات آمنة من جميع الغرف، هذا وقت أحلام، ساعات طمأنينة، لماذا يحطمها بسعيه الخاسر بين الخرائب.

عدل عن أفكاره، ومضى إلى بيته صاغراً، مستسلماً لقحل أزرق طغى على روحه كالصحراء، هذه اللحظة قال بأنه لم تعد له قوة لمناكفة أحد، ولا صباح أيضاً، وألغى رغبته برؤية أخوته، رغم أنه لاحظ أن أنوار الغرف كانت ما تزال مضاءه. لقد قنط، ولا جدوي من أي شيء، ولا حتى من عناق الاخوة!

* * *

(٥٧)

«في تلك الظهيرة، هي التي دبرت كل شيء، أرسلت أُختها الصغيرة اليه، وقالت: «إذا كنت بدك تقطف ورد، روح عَ وادي الذهب!»

أذهلته براعة الموعد الغرامي الرقيق، المشبع بالرمز، وكانت محاسن ترتدي ثياباً سميكة بسبب برد الربيع، وتنورة طويله تغطي كاحليها، وحزمة، كانت تشبه راعية، وهي تسوق ثلاث بقرات جولانيات عجفاء، ولا تني تصرخ بكل قوتها، على تلك التي تتعدى حدود الشعِب.

إحدى البقرات شاغبت كثيراً، ولم تجدِ معها الاوامر الشفهية عندها ارتكبت محاسن غلطتها الفظيعة التي كادت تضيعُ سعادَتها «كما قالت» فقد لحقت بالبقرة، وأمسكت رقبتها بقوة، لتعيدها، لكن الحيوانة الطويلة، ارتَدّتْ بعنف، فزلقت محاسن، محبوسة في روثها اللزج الذي كان ما يزال ساخناً، يتصاعد منه بخار.

وقفت، وتطلعت إلى ثيابها، ثم تطلعت اليه، وصارت تضحك لكنَّ ضحكتها، كانت حزينة جداً، وبائسة، وذهبت إلى الغدير الآسن، وبدأت تغسل ثيابها، وهي تبكي، وتُتمتم كلاماً ممزقاً لا معنى له. أحَسّت أنها تهشمت، وتناثرت في هواء الضحى البارد، وكان الماء الجليدي، يلسَعُ كفيها، والروثُ الطري يزداد التصاقاً بثوبها، وهي تدمدم قائلة: «دير وجهك، لا تطلع فيِّ حتى قول لك» انصاع للامر، وسمع حفيف خراطتها وهي تُخْلَع، وارتجاف اسنانها وهي تصطك، وبقبقة الماء حين غطّستْ الثوب فيه: «ما الذي تلبسه تحت الخراطة؟» سأل نفسه، وشعر بالنشوة، حين أدرك أنه الوحيد الذي استطاع ترويض الغولة الشهيرة:

محاسن، لن تقوى على تحديه الان، أو اغوائه. لكنها كانت ما تزال تبكي، وقد انتظر قرناً، دون أن تسمح له بالاستدارة نحوها، وبدا له أنها نسيت، ولكنها كانت كالعجوز، قاعدة على حافة الماء، فوق صخرة، لائذة بشجرة بطم عتيقة، وهي عاجزة عن ايجاد عذر، وقالت له: «كل عمري منحوسة، ولا أحد يحبني» فقال: «أنا!»، رغم أن رائحتها كانت كرائحة بقرة ملطخة بالماء الوسخ، والطحالب الرخوة. قربها اليه، واحتضنها، وبلا معرفة، قبل جبينها أولاً، لكنه لم يدرك متى وجد شفتيه ملتصقتين بشفتيها.

أفلتها لحظة، وراح يقول، رغم الروث والأشنيات والطين: «بحبك» فصارت تبتسم، واتكأت برأسها على كتفه وسألت: «بحياة الله؟!» فانحنى، وراقب وجهها الذي كان يقطر دموعاً، شعر بالشفقة نحوها، وسيطرت عليه رغبة في عناق هذا الجسد المبلل المذعور.

لكن فتورها أذهله، وحيَّرتْهُ رطوبةُ جفنيها اللذين ظلا ثابتين في دقائق التأمل الطويلة التي تبادلاها. هل هذه هي محاسن؟ أحس بأن ذلك الوجه كان غريباً عليه، فلم يرَ من قبل ذلك الزغب الفضي العريض، الممتلىء، وذقنها المستديرة، وشعرها الخرنوبي الشبيه بالعسل، وطعم القبلة الممزوج بالرائحة الحيوانية الساخنة، والثديين الضخمين المتهدلين باكراً.

وجد نفسه، يحب هذه الغرابة بالذات، هذه الخفة التافهة التي تميز محاسن. حتى جنونها بالراديو كان مدهشاً، وربما كانت هي الوحيدة التي أعلنت جهاراً أنها تريدُ الراديو في جهازها، بين بنات القرية. هي الوحيدة التي قدمت عشقاً جسوراً، وحباً فخماً، وجسداً ساخناً ناضجاً، رغم الرائحة الحامضيه».

لكن من الذي يحب؟ الجسد أم الروح؟ (سمع همساً، وكلمات مبهمة، وأسراراً) فدلال كانت من طينة أخرى، ما يزال يذكر نضارة عضلاتها، وصدرها، وجسدها القوي، وعاداتها الأميرية التي لم تتخل عنها أبداً، وكان يهواها بسبب ذلك، نعم أحب حرصها الشعائري على الاغتسال، وعنايتها بالنظافة، ورقة يديها

ونعومتها، واهتمامها المفرط بأناقته، وفي ذلك الصباح، لم ترضَ أن يخرج من أم الجرابيع، إلا بعد أن لبس ثياب عيد، جدلت ضفائره بنفسها وألبسته الحطة الحمراء، والعقال، والشروال الأسود، والجبة، والحذاء الأحمر باحتفال طقوسي منذر، بدت مثل ساحرة، وهو ملجوم أمامها لا يقوى على قول شيء. رغم أنه كان ذاهباً إلى الموت، ولم يستطع فهم تصرفاتها الحمقاء، وسعيها الديني حوله كأنه مزار، إلا بعين الشكاك المشفق الذي امتلأ بروح الفجيعة: «عَ بتودعيني؟» سألها بذعر، فقالت: لا، عَ برقيك» كانت مقتنعة أن الموت يخشى التفاؤل والشهوات، وحين اعتلى صهوة جواده، وودَّعها لم تبكِ، بل قالت: «إنه سيعود وسوف تحتفل بعودته مثلما يليق به» لكنها لم تتكهن باختفاء هايل!

كان يوماً قائظاً من تموز، وكان الليل مؤرقاً، وظل يحدق في السماء الحليبيه المكتنزة بالنجوم، وفي الغرب، كان هدير ثقيلٌ يطحن الصمت، ويتحرك عبر هشاشة الظلام الخامل.

قال لمن حوله: «جاؤوا» متلجلجاً بسبب العجز عن تخيل الصدام المقبل، أين ومتىَ سيحدث؟ لا يعرف، ولكن حتى الصباح لم يأتِ أي خبر من بهاء الدين، وهم لا يعرفون ماذا سيفعلون، تجاه الحملة التي كانت تقبل من الشام، مدججة، متوعدة، من خوذ وقنابل وسيرة حرب، وحصار.

بدا شبه أعمى، متعباً ومعروقاً، وممتلئاً برعب المصير الغامض والأسئلة المتذمرة. وعندما أشرقت الشمس اعتقد أنها توقفت عند الأفق.

انقطع الهدير تماماً، وتلاشت الأصوات القادمه من السهول وحين نهض من رقاده، فوجئ بأن الوعر كان ممتلئاً بفرسان، ومشاة تخترقهم بيارق حمراء، وخضراء، وزرقاء، وبيضاء، وصفراء.

وعلى السطوح المقابله، حيث الأعمدة والتيجان المزخرفة جلس هايل يرسم الصباح، والرجال بحبر الديانة.

لوح لأخيه، فهز كامل رأسه دون أن يتحرك، هايل كان شعلة في تلك الساعة، وقد بدا له أنّ أولئك المحاربين الذين سروا منذ السحر، كانوا ملائكة مؤازرة، راح يرسم بلهفة، (كانت طبقات طحينية من الغبار تغطي سطوح تلك الورقات الصفراء. وحين نفخها بانت الرسوم مرتعشة وباهتة أولاً، مسحها بطرف كمه، وابتهل إلى الله) (تذكر أنّه رأى مرة تلك الرسوم في جبل المقداد؟) كانت معلقة على جدار ذي زخارف، فوق رف طويل محمول على روافع خشبية بلا أشكال، وكان واضحاً أن الرسوم لم تستطع أن تتلاءم مع الرف العجائزي، ولكن من الذي أعادها إلى هنا؟ ومن أخذها؟

بسرعة، كأنما كان يخشى خسارة المشهد، خط على الورق تلك البقع السوداء والبيضاء.

اتخذ الوعر الكتيم شكل إطار أولاً، ثم دخل في أعماق الصورة وأول واحدة كانت هكذا: خيول مستعدة، ومسرجة ترقب أفقاً ما لا يدري أحد اتجاهه، لن نعرف أبداً، هل هو الغرب أم الشرق أم الشمال أم الجنوب، لكن الراجح أنها كانت ترصد كائنات ما، أو أصواتاً، وهناك دخان، ورجال عديدون، لن يميز ملامحهم. بعضهم كانوا طوالاً، وآخرون قصاراً، ومربوعين، وضامرين. . . الخ.

الثانية: حصان يعدو في الريح، بلا فارس.

الثالثة: أعشاب تموزية يابسة، وساقا رجل مقطوعتين.

الرابعة: قاعدة خاوية ذات أشكال نحتيه، وتمثال أسود بلا وجه، تتدلى من رأسه خصلٌ من شعر أبيض مشعث شبيه بشعر ساحرة (أكانت ساحرة أم هي الرصد المتخيل الذي ظلوا طوال تلك السنوات يعثرون به، في خبايا الخرائب البائدة؟).

ظل يرسم معظم الصباح، متربعاً على طوارِ القصر المربع، بمظهره الطفولي، وهو يأمل كل لحظة، أن يستمر المحاربون في تغيير مراكزهم، وكانوا ينفذون ذلك

بقوةٍ وَحْيه. خالجه إحساس عميق بذلك، وهكذا كان يدفعهم للتحرك في المساحة المبعثرة من الصخور، وفق نظام مشاعره. ثم عدل عن ذلك بعد سابع صورة وترك لاشخاصه حرية العمل. راح يغمض عينيه كل بضع دقائق لكي يوقف سيل الخواطر الجاذبة، وشدة السيطرة. وكان لا بد أن يقع في سوء حسابات: أضحى من الصعب على الرجال الذين خضعوا لإلهامه، أن يخرجوا من الإطار، «العمى!» قال لنفسه وهو يراقبهم «لقد داسوا بحوافر خيلهم حلمي!»

لكنه استطاع في أكثر من مرة، التقاط تلك الشطحات التي كان يسميها «الجزيرة» وهي، تلك اليابسة البعيدة التي يحلم بها البحار التائه وسط محيطات العالم!

هكذا كان ذلك الصباح، خليطاً من الفظاظات، والرؤى الجميلة، والخلق، والشرود.

بعدئذٍ، لم يعبأ كثيراً برحيل الفرسان الاستطلاعي الأول إلى الجنوب، ذهبوا جميعاً في استكشاف مدقق للمنطقة، يدرسون معالمها واحداً واحداً: الممرات، والخبايا، وزوايا المعاقل الميته، والأبراج المهدمة، والفوالق (وهي انكسارات ربانية، أخفت بعد شهور، سريةً كاملة من الفارين)

جاء صايل، وقال: «شفت؟!» كان يشير إلى المقاتلين الذين تركوا خيولهم في الحوش الخلفي (هيك! بتاكل خيولهم تبن حلالنا، وخيلنا، وبقراتنا من غير حياء!»

هايل خفق قلبه لمنظر الخيول وهي تلتهم التبن من المعالف المتآكله. وماذا بوسعه أن يفعل غير ذلك؟ «حَمَل غراضوا وتركني!» اشتكى صايل، لثنيه، «شايفي!»

كان قد عدا إلى حيث وقفت الخيول، وهو يكاد يبكي، لقد خدعوه. ذهبوا مشياً إلى الممرات، وسهل الزرازير، لم يفكر بمصير الرجال الآن، وهذا ما أعجبه،

وانما بتوزع الخيول، كان مشبعاً بها، كما حدَّث كامل، حتى أنَّه، حين أطل على الزرائب لم يتمالك نفسه، من شدة الخبل الذي أصابه. أصدر آهة دهشة (لم تكن آهة، وإنما نوع من التمجيد اللهوف الذي لا يمنحه الإنسان إلا لولادة زهرة، أو رائحة امرأة) وفي كل حال، فإنَّه كان ينوء تحت وطأة الذهول الميمون بالخيول!

وقف هناك، على السطوح المقابلة، سمع صوت تقصف هزيلٍ تحت رجليه، لكنه لم يتأثر، اعتاد على ذلك، منذ سنوات كانت مجرد انهدامات بسيطة، يحدثها الزمن، منذراً بالانهيار العظيم الآتي، لكنها ما كانت خطراً بعد، وقد علمته دقة الانذار، متى يكون حذراً، ومتى يفر، ويهرب، انصت بخشوع لذلك القضم اللطيف، والهرس، والطحن، ولوكَ العلف العبثي اليابس، المستمر عبر مئات الأضراس الصفراء الجائعة، متى يصبح بإمكان الإنسان أن يرسم هذه اللحظات.

حتى أنَّه بعد ذلك، بعشر سنوات، حين كان يخطو ضائعاً وسط شموخ العمارات، والشوارع، والسيارات، كانت هذه الحمحمة تخترق طبلة أذنية، وتمضي إلى رأسه بمثل هذا الوضوح البهي ذاته.

طوال ساعات الضحى، لم يستطع رسم خط واحد، ولم يقم بذلك في النهار أيضاً. كانت الخيول قد التهمت التبن كلّه، وظلت في الشمس واقفة، عرقانة، بانتظار عودة رجالها من رحلتهم.

وحين عادوا، كان هناك رجلان يراقبانهم: صايل، واقفاً يترصدُ، كالثعبان، قرب أطلال البرج الشرقي، بلاحراك، ويحدق في حشد الرجال المتسللين إلى أم الجرابيع، وهو يعاني عذاب ضحية، ويكظم قهر نبي محارب. وهايل متربعاً مرة ثانية قبالة المرج الخارجي، كالناسك.

لكنه كان نائماً حين وصل اليه كامل، سَرَّهُ ذلك فالولد ابن أبيه، ألم يغفُ محمد الفضل، على ظهور مطاياه طوال عمره؟ «هذا قدر الغزو» كان يقول، فالكسّار لا يحق له النوم إلا في مكان واحد، لا ثاني له: فراشه، ودون ذلك يأتي

الموت. كان يسمع صوته كالصدى، وحين وصل إلى ذكر الموت، أغمض عينيه، بلا تفكير، ووجد، حين فتحهما، أباه، يبتسم، ويواصل حديثه، وهو يختلس النظرات اليه، «الحصان -كان يقول- رفيق الخطر، يقف، حين يسمع من بعيد، تحرك أي قاطع طريق أو همس لص، وينصت مُرهِفاً أذنيه، فتستيقظ لأنك تختفي وراء أكمه، أو صخرة، أو رجم، وتصرخ «وش الزول؟»

مع ذلك أدهشه نوم هايل وسط هذا العالم الصاخب، الممتلئ بالترقب، كل الاشياء كان لها وجود حقيقي، واستعداد كتائب الحرس، وجنود الفرق الاجنبية ذوي القمصان الملونة، والمدافع والعربات المستعده في المحطة بعيداً عن أم الجرابيع، والخيول والبغال التي ستحمَّلُ في قوافل بلا نهاية. لقد رأى هواء أزرق يهبُ من هناك، حيث الشعاب الغربية، وحيث كان ضوء الشمس ينير صفحة الصخور الفضية المنحدرة التي تطل على وادي الذهب.

(قهقه حسّان بفرح): حتى أنه استطاع أن يحلم! فقد أقسم هايل لأخيه، أنه رأى قفاراً ملآى بموتى الجيش المهاجم، وقال إنَّه يستطيع نقل ما رآه إلى الصفحات البيضاء، بوضوح، لكنه لن يفعل ذلك، فهي لا تشبه جزر خياله في أي شيء.

فقال كامل: «يعني شو؟»

قال: «بدنا نغلبهم»

قال: «أنت مجنون!»

فحدق فيه هايل، ثم اشتكى: «يعني كل ما قال واحد شي ما بيعجبك، بتظن انو مجنون»

لكن حسّان أقسم لمحاسن أن الكلمة، خرجت من فمه دون قصد وهي تنظر اليه ببلاهة، ودَّ لو يسألها لماذا تصبح بلهاء حين تنظر هكذا؟ فالكلمات تخرج أحياناً من الصدر، ومرات من العقل ومرات من اللسان وحده، ترتمي، وتسقط مثل ورقة خريف، تحت أغصان الرأس الفارغة، نعم! يذكر أن رأسه فرغت تماماً وهم

ينتظرون ساعة بعد ساعة، يوماً بعد يوم وصول الحملة، لم يذهبوا لملاقاتها بالطبع، لماذا يندفعون إلى السهول التي لا تحمي أحداً، لماذا يفعلون ذلك، ما داموا سيأتون بأنفسهم إلى قلاع الهلاك؟ لكن من منهم كان يعرف ما الذي يعنيه الانتظار؟!

لا حي! ولا ميت!

تركض التوقعات في عظامه، كالحجارة.

اعتذر لهايل بنظرة من عينيه، وسأله إن كان يحمل البرقع معه، فابتسم وقال «إي» لكن من يدري لماذا أرادوا جميعاً أن يتأكدوا من أنَّ ذلك الفتى، كان يحمل حجاب المنعة؟ كلهم سألوه، وهو يجيب: «نعم! إي!» ويراقب عودة الرجال من انتشارهم، ومرة ثانية، تنتصب في المسالك بيارق القادمين. الآن صار قادراً على تمييز الرسومات الحربية الصارخة على الصفحات البيرقية الملونة، أحدها كان سيفاً، والآخر رمحاً، وكانت هناك خناجر من صنوف عديدة، مطرزة بقصب فضي، ومؤطرة بسجق ذي شراشيب، شعر أنها تفقد البيرق، شاعريته، ثمة ما هو زخرفي فارغ، خال من الجمال. ومع هذا، فإنَّ الفراغ الكوني المعشق بألوان البيارق، والمساء، بدا فردوسياً.

خرج فارس نحيل طويل جداً، من الخرائب، ظل يراه وهو يخبُّ مبتعداً عن أم الجرابيع، اختفى، ثم ظهر أخيراً على قمة السُكرة البعيدة، وفي الدقائق القليلة التي ظل فيها ثابتاً هناك، رسمه هايل. الآن صار مثل نسر، أدرك أنه أحد المكلفين برصد الطريق البعيدة عند سهل الزرازير، وقصر المطر، حين رآه يمثل حركة حامل منظار.

لكن المنظر كله، ظهر حزيناً، وغابت الشمس دون أن يلاحظها، راقب أطراف الجبال البعيدة، حيث أخذ يبزغ قمر أحمر اللون، اشتعلت النيران فوق القمم، ثم انطفأت بسرعة وقال «إنها رسالة» حين شبت نيرانٌ قصيرة أخرى، فوق الجبال الشمالية.

ومن خارج الخرائب، حيث ربض المحاربون قرب المواقد الصغيرة، التي اخترعوها. عبقت رائحة طبيخ، وسمع من يناديه من الداخل، لكنه لم يجب، ثم رأى ثنيه وهي مقبلة نحوه. كانت تحمل سلة فيها خبز وطعام، وقعدا هناك حيث كان، وفلشت الأخت الكبيرة صرة، وضعت الزاد هناك، فاكتشف أنها كانت تحمل اليه تفاحة، في مؤامرة من تلك الحماقات القديمة التي كانت ما تني تقوم بها: تقدم لأخيها الصغير أشياء طيبة، وثمينة تكون عادة قليلة، ومقننة إلى حد الحرمان. سأل هذه المرة: «أكلوا الصغار؟»

فقالت: «كلهم»

«وأنت؟»

«أني شبعت، انتفخت، بعدين بدي آكل معك»

لكنها لم تأكل سوى قضمة واحدة، ثم تمتمت: «مابشتهي!» وتنهدت ونظرت إلى الافق، ثوان، قبل أن تلتفت اليه، وتهمس: «إجا بهاء الدين؟»

«ايمتى إجا؟» سأل بلهفة.

فقالت آسفة: «أني عَ بسأل»

«ما بعرف» أجاب: «شفت نار فوق القينه»

فأطرقت إلى الارض، ونكشت التراب بعود، ثم رفعت حاجبيها اليه وقالت: «أني رايحة معكم بكره!»

كان يعرف أنَّ هذا الكلام، لا يخصه، إنَّها تحاول أن تضفي على قرار سابق لها، شعاعاً من موافقة الاخرين، «مثل ما بدك» قال لها، وكان جزعاً، يفكر في شعث اللحظة الحاضرة، لماذا تندفع امرأة مثل ثنيه إلى الحرب؟ ما الذي يستهويها في الموت؟ عرف أنه لن يثنيها عن عزمها، إذا ما حاول، ولن يلوك المواعظ، ولن يعرض عنها، ولكن صدره سيخفق مثلما تفعل جوقة، سيحتفي بها ومثلما يرقص في عرس قالت إنها ترجو أن تبدأ المعركة غداً وإن على الرجال أن يكرروا، مرة

ثانية، ما حدث هناك (كانت تبرق برأسها نحو الشرق، حيث وقعت معركة الامس القريب، متوجة، وطافحة بأمجاد المحاربين).

خطر له، أنها تشبه الجليلة، ولكن بلا أحزانها، ولاتوسلاتها الصارخة الموروثة عن الاب القتيل، وراحت «لاتصالح!» ترن في أذنيه ولكن كيف تنصت الملائكة إلى مراثي النساء، وأناشيدهن، حين يهلك ذووهن، ويختفون، وتلتهمهم حروب الضغائن، أو الطمع، أو الاستبداد، أو التمدن؟! حروب وراء حروب، يضيع فيها آلاف القتلى، ويهلك الرجال، ومع ذلك فها أنت ترى امرأة تقول: «أنا رايحه معكم عَ الحرب!»، كان يود أن يقول لها: «ظلي هنا يا ثنيه مثل شجرة»

قالت: «اسمع! بعد ساعه، لما بيضوي القمر، جيب خمس جمال!»

«ليش؟» سألها مستغرباً

«لأني بكره رح اسقيكم مي» سكتت قليلاً، وهي تفكر «جيب الجمال لعندي» أضافت «ومنروح أنا وأنت لعين الزبده، الفجر منكون بأول السهل!»

لقد دبرت كل شيء: الماء، والجمال، والجمّال، ولا بدّ أنها فكرت أن تطبخ، لأننا ذاهبون إلى نوبة فرح، ولكن كيف يشرح لها هذا، وهو يعرف أن ما تقوله بقالب الاسئلة، هو قرارات منجزه ومنتهيه! راح يراقب أخته الكبيرة، وهي تجدل ضفائرها، تعضها، وتعقصها برباط أسود، ثم تقذفها إلى الخلف «يا ثنيه!» خاطبها في نفسه «من ستسقين غداً؟! كامل! هايل! أم صالح وفضل الله! أم بهاء الدين أم المقداد وحمزه؟ وأين ستكونين في الفجر، وعند الضحى، وبعد الظهر؟ ياربي! من ينقذك من الرصاص المتطاير، وقذائف القنابل؟ ترعبينني، إذا جئتُ إلى هنا، ولم أرك. كيف أستطيع أن أعيش دونك؟!»

في ضوء الفجر، رسمها (إحدى مسوداته ما تزال مطوية في صندوق عرسها المطعّم بالأصداف) «شوف! قالت له، هايل فكر إني بدي موت ثاني يوم، وهاي الحجارة السودا كانت حجارة قبري!»

هايل رسمها ملثمة، وقاعده على مصطبة، بينما كانت متربعة، وسافرة، وهي تأكل بقية طعامه. اللثام -كان يردد- يثير ُخيالي، «هذا سر يا ثنيه» صارت تضحك له، وهي تستمع إلى لهجته، وطريقة نطقه للكلمات، كأنها لا تعرفه وبكت. ارتجفت أولاً حين اخترقت رأسها تلك الفكرة القديمة، عن الموت، أبعدتها بيدها، لكنها ظلت تحوم هناك، مصوبة بصرها نحوها، في الفراغ الفضائي القاتم.

لكن تلك الأفكار، ما كانت تأتيها إلا عندما تتأمله، تقعد معه ويحادثها، كان يبدو لها بلا عزاء، مثخناً بجرائر آل الفضل، وذنوبهم ومعاصيهم، حتى لهفته للرسم، بدت لها دائماً اختياراً حزيناً ومسلك رجل ضعيف يريد ُتوديع العالم ببضع خطوط وألوان، ولا تعرف لمَ َلم تستجب لتوسلاته، وهو يقول لها، إنَّه لا يحبُ بكاء النساء في الليل، قال إنَّ ذلك يذكره بـ «أمه» كانت تبكي وحدها، بينما يغمر رأسه باللحاف، يختبئ وراء السماكة الصوفية، وحين يتسرب النحيب إلى مسامعه، عبر شقوق الأقمشة، والصوف يسدُ ُأذنيه، وكلما سمع نهنهاتها، كانت تنتصب أمامه صحراء جرداء، وقفر صلصالي، تجثم فيه كلاب لاهثة، وبطون، ورؤوس حليقة ميته، لكنه لم يجرؤ قط، على سؤالها: «لم تبكين يا أمي؟» الآن، بعد أن رحلت بعيداً، ظل نشيجها يجذبه اليها، واستقر داخل رأسه ذلك الايقاع الجنائزي الرتيب، ثقيلاً، ورطباً كحزمة قصب.

«بس انت كنت تحب النوم بغرفتها»

فقال إنه كان يخاف عليها من ذلك الهوس العجيب، ويظن أنها إذا ما استمرت بالبكاء لوحدها، فربما أفضى بها ذلك إلى الموت.

من الظلمة الحليبية انبثقت فضة، كانت تحمل ابنها الصغير بين ذراعيها، وقد تقوس رخواً، عرقان، ومحموماً، «دخيلك يا ثنيه!»قالت متضرعة، فأخذت الطفل منها، بدا كأن حريقاً في جوفه، وكان يئن، ويمد ُنفَسَه بطيئاً وطويلاً، «يا ويلي!» هتفت ثنيه خائفة، وراحو جميعاً إلى الدار. غطسوه في الماء، فصار يرتعد ويهذي، ثم هدأ فجأة، وبرد جلده، وراح يبكي بصوت مرتفع، أعول قليلاً، ثم

خفَّ صوته، وظل ينشج بلا توقف، قالت فضة شيئاً ما، جعل ثنيه تلتفت نحوها بعينين جاحظتين كعيني بقره. ربما أرادت أن تحبط، بالتفاتة الغضب، صرعَ المرأة التي ابتدأت بقول (حراذين) الشهير: «خلص!» نبرت فيها، بلا رفق، أحست أن فضة تلاشت، وتوقفت عن التنفس تقريباً، وأغمضت عينيها قبل أن تتهاوى إلى الوراء، وتسقط في «حال النقطة» نوبة سريعة ومشدودة، وطافحة بقهر مكتوم، وهلع لم تستطع ردهما عن نفسها أبداً، راحت ثنيه تصرخ: «يا كامل! ياكامل!» بينما سعى هايل لوقف اندفاعات فضة الهوجاء، واضطرابها الذي تسبب في كسر أصابع يدها: «وقفي! خلص! من شان الله» بدأ يهمس لها، لعل كلماته توقف المدار المجنون لصخب المرض، بينما ظلت تنتفض، وتهوي متقلبة، وهي تزبد كالجمل. وقع بجانبها، وكاد يتحطم لولا أنَّ فخذها، وساقيها تصلبا وجمدا، وهجعت كلها معاً.

كان وجهها مزعفراً، مقبلاً على الموت، ملقى في انهدام صخري عميق، وهي تزفر زفيراً رطباً، مصنوعاً من الضلالات وحدها «يا رب العالمين!» لقد اعتقد أن الزمن الذي مضى، ريثما جاء كامل للنجدة، كان طويلاً معتماً، كنفق. أحسَّ أن صدره كان يختلج بالرغبة في فعل شيء مماثل: أن يسقط هكذا، بين الناس ويتخبط، ويجمح كيفما شاء، دون أن يردعه أحد، أو يرده، أو يمنعه من تمثيل كابوس الجنون المظلم. تمنى أن يحدث ذلك كي يرى ذلك الطريق الوعر الذي تسلكه فضة كل مرة، ويعرفَ سرَّ شعاب روحها، أين تمضي؟ في خدر الدماء! في الميتات الغامضة، في اللهاث الذي يحول الجسد إلى حديد، إلى معدن رنان قاسٍ، ينفث قوة، وعنفاً، ورفضاً.

أحسَّ أن تلك المرأة، كانت روحاً محضة، تجتاز جسر آلام، فيفاجئها السيلُ، والانهيارات.

حملوها إلى غرفتها، وكان الصبي يبكي خوفاً عليها الآن، وقد أحضروا طبيباً كان يعرف شيئاً قليلاً عن الأعشاب. ولكن الولد زالت سخونته، واكتسى وجههُ سمرته، كأنما شفاه خوفه وتعلقه بأمه.

وفي الداخل استعادت وعيها ببطء، وحين استيقظت، طلبت ماء، وفتشت عن ولدها، وعانقته، وظلت راقدة، تتطلع إلى آلها بعينين ملتهبتين، صيرهما المرضُ، وضوء الصباح، بلون النبيذ.

عند الضحى جاء رجل ضخم، وقال إنه يعرف شاهين الخليل، فانتحوا به بعيداً عن فضة، ولكن الرجل قال بضع كلمات جافه وناقصة، وردد عبارات شوق، ثم توقف ولم يعد يعرف شيئاً. انسدل ستار من العتمة على ذاكرته التي امتلأت برجع حزين عن رجل اختفى ذات يوم من جميع الاصقاع.

كان هذا هو ذوقان، وبدا جسده الضخم، غريباً عن لغته المحسوبة، وعن اضطرابه الأمومي، ووحشة اشواقه الرملية إلى الصديق. تطلع إلى الاطفال المحيطين، وقال هذا ابنه، وكان حمد، فقالوا: نعم قال: «لك عندي حصان يا ولد، وثلاث ذهبيات». فقال صايل: «خلي مالك بجيبك يا ضيف، الولد مش محتاج» فحدجه ذوقان بطرف عينه وأجاب: «الهدية مش للمحتاجين يا خي» ثم نهض، غادر المضافة، بدا مثل مركب، مثل جواد جريح يخبُ وسط قفر شائك مُحَطَماً، وحزيناً، وقد تبخرت حساباته الخفية في التعرف إلى آل شاهين، لقد منعوه من رؤية فضة، ولم يقل له أحد أسباب ذلك الحَجْر الغريب الذي فرضوه على المنازل الشرقيه. كانوا متأهبين، مكشرين، كأنما انطبقت السماء، حين طلب رؤية امرأة صديقه، كان محملاً برسائل، وحكايات، سيرويها لها عما قاله ذلك الرجل المهاجر، المنمنم المملوء بنداء الرحيل، والهجرات: «ما عدت أريد من أهلي إلا أخبارهم، لكن فضة هي بيتي» هذا ما ذكره له حين تركه آخر مرة، لكي يبقي تلك المرأة المقصودة، مشغولة، يدغدغها حلم الانتظار الحميم، غايات العودة، لكنه، لا ينكر، كان يريدُ رؤيتها أيضاً، نعم، فقد صنع شاهين في ليالي التجوال على تخوم الجبل، هرباً من الحملات العسكرية، من ذكراها، موجةً، رغبة ضارية، تمثالاً من العطاء والحب، هل كانت كذلك؟! لقد تخيلها: امرأة طويلة، ونافرة، وحافلة بالسمرة كالتراب القديم ترنو، إذا ما حدثتها بعينين كعيني

غزال، وشفتين مفتوحتين في سلام، ثم تبتسم، وتحدثك عن زوجها، وعن آل الفضل الذين صنعوا من الخرائب ومن عنفهم، وقوة أحقادهم، قلاعاً، خبّأوا فيها انتظارهم وترقبهم، ربما كانت كذلك، وربما كانت كائناً آخر، لكنها كيفما كانت، وكيفما تكون تظل نغمة طويلة من التشوف، والعذوبة الدفينة، والعرفان.

لن يعرف السبب، إلا بعد أكثر من خمسة أشهر، ففي صباح اليوم التالي، بدأوا بمناوشة طلائع الحملة الفرنسية، التي بدأت تتسلق الهضاب، نحو الجبل، كانت أول رصاصة تطلق على الجيش من بارودة ذوقان سلام نفسه، أهداها لشاهين، قائلاً بصوت كالرعد: «هذي لك يا بو حمد!» كان بصحبة خمسة فرسان استطلاع غرب وادي الذهب، وقد فروا شمالاً بعد ذلك.

في الوقت نفسه كان كامل ما يزال في الخربة، وقد قعد قبالة فضة مشغولاً بها، وهو يردد بخوف: «اوعى تجني من شان الله» ولا يعرف لم يصيبها هذا المس المهلك، ويقول كفى!، وهو عاجز، حائر لا يدري كيف يعالج هذه المرأة التي كانت قبل سنة واحدة فقط، مثل فيل، أما نوبة اليوم فقد أوصله إلى حافة اللامبالاة والملل، ماذا تفعل بنا، أكلما غاب زوج، أو مرض صبي، أو صرخت امرأة تهاجمنا بجنونها، وهوسها، وزبد صدرها؟ ماذا فعلنا يا ربنا؟ كان لا يصدق، أن الله خصهم وحدهم بهذا العذاب الغريب، بلا سبب

لكن فضة، صارت عند الضحى، هادئة وطيبة، لولا ذلك الظل الغائم المزروع، في تراب عينيها.

سمعها تردد لأول مرة منذ أشهر كلمات شكر، خجولة ومترفقة «خير إن شاء الله» تمتم مرتبكاً، وهم أن يذكر لها بنفسه شيئاً ما عن ذوقان، ثم تراجع وغمغم، سألها إن كانت تريدُ أن تأكل، فقالت «إي!» وهي تلتفت نحوه، وتبتسم ابتسامة غريبة، ظن أنها انتحلت تلك البسمة المترقرقة، لترضي انشغاله، وروح الأبوة التي منحها إياها، والتهمت طعامها وقد غلّلها عرقٌ غزير، انداح عبر مجاري بشرتها، وطيات رقبتها، ترصعت بالحبات اللامعه، وتلكأت قليلاً، ريثما

مسحت صباح وجهها بمنشفة. ثم أغضت، فخرج كامل من الغرفة، وتنفس هناك في ضوء الشمس ثم طمأن اخوته الجالسين أمام المضافة، في الظل المشرشر المشروخ رأى ثنية تمشط شعر هايل، وتجدله في ضفائر صغيرة، متناوبة واحدة من الاعلى والثانية تحتها، كانت تغني وصايل ينظف بارودته ودلال تغطس الاولاد في الجابية الحجرية التي نظفتها، وملأتها بماء ساخن كان يغلي في قدر كبيرة، كانت هنده ترفو ثوباً لفضل الله، وغريبة تجهز فطوراً، وحنا يعد المسامير، والحذوات، ثم يَسِنُ مقشط الحوافر القوسي برتابةِ البيطار، وهدوئه.

ذلك الجزء من العائلة، كان راسخاً مثل تل، فريداً وخاصاً، ولا شبيه له، وكلما استعاده، بدا مناراً بضياء، بارقاً ومسرجاً كحصان، (فماذا يفعلون في هذا الزمن؟ أين صاروا؟) لأنهم في ذلك الوقت كانوا يتصرفون كأن العالم لايعنيهم، وكأن اولئك الفرسان، في الخارج، كانوا مجرد قشرة تحدق بأسوار متاهتهم، عش عابر لا يعني شيئاً لأم الجرابيع، وباستثناء صايل الذي بدا مستعداً، ومزدحماً بغيظ مكتوم، شارداً باحثاً كالقدر عن ضحية، بدا الجميع بلا شكوك، ولا نقمات.

كثيراً ما سأل نفسه: هل هي حماقة؟ هل هو الانتصار السريع الذي تحقق قبل أسابيع؟ وهل يبعث الانتصار مشاعر طمأنينة، أم ترقباً؟ تساؤلات أم أماناً؟» ما وجده كان مختلفاً عن ذلك كله: بشر يمشطون شعورهم أمام صخب الحرب! فمن منهما الأحمق؟!.

«فجأة، صاحت محاسن: يا مقداد!

كانت البقرة، قد انزلقت وهي تقفز الساقية، ووقعت على قفاها! انفجرت سيرة الرجل، في رأسه كالبارود. تعرفين المقداد يا محاسن؟ سألها بلا تفكير، خالطاً ذاكرته، باسم الولي المقدس، وبلا حيطة، قال لها: «لا أحد يستطيع معرفته، لأن الشهاب لا يُعرَف، يظهر وسط السماء، ثم يندفع نحو موته في الافق، لكنه سيعرفها اليه: كان أبيض وأحمر بلون الدراق، من اولئك الذين يلبسون البدلة، والعقدة الغريبة حول العنق، لكنه حين يغضب، يهجم مثلنا،

تعرفين يا محاسن أنهم حاولوا منعه من ركوب الخيل! ومن المشاركة في الحرب، قالوا، إن الثورة تحتاج إلى رجل قارئ كاتب، لكنه ترك مجد الكتابة وجاء إلى الحرب) قال لهم سترون ماذا أكتب، أنا رأيته جحظت عيناها وهي تظن أنه ممسوس «بسم الله الرحمن الرحيم» تمتمت، وشخصت اليه مروعة خائفة) كان يعدو على حصانه في وادي الذهب، أمامنا جميعاً، تقولين أنه محمول على بساط الريح، أو أن الجن يشيلونه ويندفعون به، ملايين من الجن، حتى أنَّ قامته لم تعد تظهر، غطاه الغبار، وصوت الرصاص، والصيحات، حتى قلنا «راح» لكنه ظهر مرة ثانية وسط الجنود، في النار نفسها، وبعد ذلك قال: «يا أولاد! أنا لا أموت اليوم، وكيف تريدون أن أخسر رهاني مع الجنرال؟!» (كان جنرال فرنسي اسمه اندريا يقول إنَّ المقداد أجنبي، ومشعوذ فاشل، صار من الثوار) وهذا ما فعل، لكنه مات أخيراً، يوم كان اندريا نفسه يلاحقنا، وراء الجبال الشرقية هناك، على حدود الصحراء يا محاسن، آلمه ضرسه، فقال هاتوا كَلَّبَه، فأحضروا واحدة، لكن الضرس. انكسر، وتحطم، وصار فم الرجل يغلي. وفي المساء بدأ الجنرال يقصفنا بكل مدافعه، ظل يقصفنا خمسين ساعة، والمقداد يقول، وجع الضرس أصعب إلى أن مات، في ذلك اليوم، رأيت بهاء الدين يبكي مرة ثانية، بكى مثل النساء يامحاسن!»

صارت تصرخ، وتسد أذنيها. ثم هربت، مذعورة، وتشبثت برسن البقرة، وجرتها جراً، وهي تزعق: «الله يلعنك يا مجنون!»

كان يريدُ أن يقول لها، إنهم دفنوا المقداد في ذلك السهل الرهيب الطافح بالاشواك. وأنه سيبقى هناك إلى الأبد، عجوزاً، متعباً، وحيداً.

لكنها ابتعدت الآن، ركض وراءها، وكان يريدُ أن يقول لها إن المقداد صار منسياً، وأن هذ الذي تضرع اليه نكرة، لا وجود لها»

عصراً، وصل إلى أم الجرابيع، كان وجهه رمادياً بلون الفضة، وحيداً جاء، ترجل عن صهوة جواده، ثم انسل إلى حشد الرجال القابعين منذ أيام في ضواحي الخربة، طلب طعاماً، وأكل ثم تلفع بعباءته ونام، وحين استيقظ بعد فترة، قال:

«بكره الصبح بدنا نمشي». بلا مقدمات، ولكن كلماته تركت في ا لجشد، موجاً من الهمهمات، والعبارات، واللغط. ارتفع بيرق في الغبش، وانغرس فوق رابيه صغيرة، وظل هناك يرفرف، لحظات، قبل أن ترتفع قربه جميع البيارق، اهتز شاربا المقداد، تبسم، وقال لكامل: «كيف عيالك يا بو محمد؟!»

«بخير»

«والشيخ؟!»

«غلب الموت»

فأبدى اعجابه بالاجابة، لكنه بعد قليل، حين قلب العبارة بين جانحيه، غمغم مخاطباً كائناً مجهولاً، بصوت ضعيف: «ماحدا قدر، يمكن تأجل بس!» ثم سأل كامل إن كان يستطيع رؤية أم قاسم، فقاما معاً، ونادى كامل ثنيه فجاءت الي المضافة وهي تحمل مغزلاً، قال المقداد:

«مسيك بالخير»

قالت: «وأنت صبحك بالخير»

فتبسم وساد صمت قصير، قطعه رشف القهوة المرة، وتلمظ الشفاه التي تذوقت مرارة السائل الاسود الثقيل، ونكهة الهيل، نهض المقداد بعد ذلك، وقدم لثنيه فرداً ذا سبطانة طويلة، قال: «هذا هدية من بهاء الدين!» وأضاف إنه يعتذر عن فظاظة تلك الليلة، لأنهم كانوا جائعين، وأكلوا نعجة من الصيرة الجنوبية، فصارت تضحك، قهقهت، وأقسمت أنها لم تلاحظ حتى اليوم فقدان النعجة، ثم

همست: «يمكن أكلتوها من عند جيراننا» فحدّق المقداد فيها: «مين جيرانكم؟».

قالت: «ما بتعرف؟ الجن طبعاً»

واصلت ضحكها، وضحك المقداد وكامل والحاضرون الآخرون، قالت ثنيه وهي تتأمل المسدس الغريب: «بعمرك سمعت عن رجال بيهدي سلاح لمره؟» ونظرت في وجه المقداد، فالتفت هذا إلى كامل. تصفّح غرابة الكلمات التي كشفت بلا تردد، وجهَ حقيقة بسيطة ناعمه، جازفت امرأة جريئة بالسخرية منها. لكن ثنيه لم تتركهما في بادية حيرتهما، فقالت للمقداد، وهي ترفع المسدس، وتعلقه في صدر المضافة: «كثر خيركم يا مقداد! واشكر بهاء الدين عني، وبكره إن شاء الله برد له دينه».

* * *

(٥٨)

لم يبق سوى نباح الكلاب، وشخص الخولي الأصفر قربه يراقبه، ويحاول أن يرضي وحدته.

خوت المنارة من جميع البشر، خرجوا من فتحة غفلته بعضهم مضى جنوباً، إلى الحرب، والآخرون رحلوا شمالاً نحو اللجاة. بينما ظل هو في تلته، حاقداً على السماء الفاغرة، على اليوم الجحيمي وعلى مفاصله، وأطرافه التي بدأت تؤلمه منذ منتصف الليل، وقف، تمشى قليلاً، وتطلع من النافذة نحو الغرب: إنّ خواء السهول يرعبه وهو الذي اعتاد أن يرى كلّ شيء ممتلئاً؛ من بطون نساء مرابعيه إلى الخوابي، والكواير، وكروش البقر. لكنه ترك وحيداً، ليواجه اختياره، وسوف يهزمه هذا الصمت حتماً، ولن يجد من يلجأ اليه فرائحة الخيانة. تزكم صدره، وقلبه، تغشي عينيه. الى أين يذهب؟!

لن يغادر إلى أي مكان: «يا منارة!» وقفَ على حافة أسوار قلعته يصرخ: «والله لأدعس عليك كل عمري!». لاأحد يسمعه، ولن يتمكن من ترويع السكان، إذ أنَّ زمن الهلع ولى، وتبعثر في دوامة الحاضر بلا حساب، وإلى أن يأتي زمن آخر، لا يعرف ماذا يحدث! ربما خصوه أو شلحوه هذا المجد الوارف العالي المرفوع على أسوار حصنه، وسوف يحلم بأيامه الماضية مثلما يحلم حصان: لقد حولوه إلى كديش، وحين تنتهي هذه المعمعة، سيأتون إلى هنا، يحملون نيراً، وكدّانة وعود فلاحة، وينخسونه ويقولون: «دي! دي! سايب!» عندها سوف يدرك أن العالم لا تسيره قوانين آل الحمدان، ولا شرائع سمره أو أم ابراهيم،

ولا منطق العسّال الميمون الضعيف الذي ينظر اليه الآن من خصاص النافذة، مذعوراً.

«طيب، ما أنت؟!» ساءل نفسه: هو الذي ظل يرى إلى حمود الحسن وطلال الراعي، وسلمان، وسمره، وعشرات المرابعين الاخرين، بوصفهم حشرات، نمل مطيع يستجيب لإشاراته. صار الآن لا شيء بدونهم «حقاً ما أنت بدون طلال!» تمنى في هذه اللحظة لو استطاع منع ذلك التيس من مغادرة حصن الحمدان، ولكنه لم يره، لم يرَ أحداً حين هاجروا، كان سيمنعهم بقوة السلاح. «أنا أنتم» لكن لا جدوى، لقد تسللوا محتمين بالليل إلى بهاء الدين. ماذا يحمل لكم هذا الرجل سوى النعوش، ستأكلكم الضباع. وأنتم مقتولون، مرميون في القفار مثل الفطايس، يعني كل واحد فيكم سيصير عفناً، انظروا الي: ماذا تكسبون من هذه الحرب؟!

لم يستطع أن يصدق أن مرابعيه جميعاً، رحلوا هذه الليلة. حتى طلال؟! لكن كيف استطاع هذا الابله أن يفضل ركوبه المفضي إلى الموت، على بقائه الحي البارق! على راحته هنا؟!

تخيل الراعي فوق حصانه، قلقاً ثقيلاً، يلتوي، ويلوح كخيشه «طلال ما أخذ أي حصان يا بك!» قال ضامن.

«وكيف راح؟»

«راح ماشي» ، أم يعقوب قالت: إنو راح ماشي، قال: المشي بالحرب أحسن وين ما بدك بتتخبا، ويمكن يساوي حالو راعي من جديد» «تفو!» بصق «الحق علي». ثم صار يضحك ساخراً من تمرد بهاء الدين الذي رفع طلال إلى مصاف الثائر، فهل يعني أن هذه السهول المرعبة ستصير حرة، بفضل بندقية ذلك القذر الموسَّخ؟ تمنى لو يقابل بهاء الدين، ويسأله «ما طعم الحرية التي سيمنحنا اياها راعي مواشٍ حقير، بدا له أن الحياة نفسها لا تستأهل هذا العناء ولكن ما يريده ذلك الزعيم لنفسه، يجعل الآخرين يدفعون ثمنه!

نقم على الجميع، حين لاحظ تلك البراري الصفراء الشاسعة حيث حقول قمحه التي ما تزال بلا حصاد، بيادره، مواشيه الفلتانه خطر له أن يذهب إلى هناك، ويشعل في تلك السنابل ناراً. فليأكلوا الخراء! ولكن رجليه لا تحملانه، فقال لضامن: «تروح أنت وتحرق الزرع» رد العسّال «لا يا بك! تأكل الحلو، وتطعميني المر؟» «لا تروح!» همهم مستسلماً، ونظر إلى الافق: هناك كانت سحابة غبار، وفي سهل الزرازير، وتلال الهندم، رأى بضعة كوفيات تظهر مرة واحدة، ثم تختفي وراء أكمات الصخور، لكنه لم يستطع ملاحظة أحد في وادي الذهب، كان بعيداً، تغطيه غابة ذرةٍ، واشجار زيتون، لا شك أنهم مختبئون هناك، وبعد ساعة سوف يقتحمون الموت، سيحصدهم مثل القطا، اشتهى أن يكون هناك، لكي يلوم اولئك الذين سيخرجون من المجزرة «أما قلت لكم» هل تظنون أني كنت جباناً؟» «هل عرفتم أن كنج يخاف؟!» «أنا أبولُ على الخوف، ولكن هذه الجثث المرمية وسط الصخور تخبركم، شوفوا!»

*　　*

تقدمت الحملة مثل أفعى رقطاء طويلة، ومتعرجة. وامتلأ الفضاء بسراب ابيض، وتراقص في الأفق، لكن الطريق اختفت وسط زوبعة غبار صماء.

رغب في الصراخ، أراد أن يهتف لقائدها: «قف! هذه الصخور لاأمان لها!»

صار الحرُّ خشناً في الضحى، فدمعت عيناه، وأحسَّ أنَّ الشمس تخدش وجهه، وكان شيء ما، يفور في دمه. واكتفى برشق حفنات من الماء على وجهه، وتأمل الفضاء: كانت الوعور زرقاء تلمعُ في الوهج المرتج كبزّاقات: «وين راحوا؟». في حين واصلت المصفحات والعربات والمدافع والخيول تقدمها صعوداً نحو الشرق. صار يسمع دبيب الجنازير، والعجلات، وهرجَ اصوات مبهمة غامضة من نوع النداءات، والاوامر، ففكر أن يمتحن هذا المهرجان الجنائزي لمرة واحدة: يرفع بندقيته، ويطلق في الفضاء رصاصته؟ طيب. عندها لا شيء سيوقف

شراع الخراب. سيجعلون من المنارة، مغارة، مقبرة، خربة مجهولة تصير ذكرى، يرويها شعراء الربابات في المضافات ا لشاحبة.

تشعثت روحه الآن، ولم يعد يقوى على مقاومة الرغبة في فعل شيء: أينتحر! أيقاتل؟ أيمارس الحب مع امرأة؟ ربما كانت هذه الحمحمة الباطنية هي رغبات جسده، ولكن أين سمره؟ كيف يمكن أن يطال تلك ا لعاهرة اللعينة التي خملت سريعاً؟

ظلت العربات تعبر السهل، واحدة إثر أخرى، أبنوسية متربة، مغللة بالقيظ، والذخائر، وتلكؤ الحذرين، وظل صخب تقدمها يموج في ممرات التلال، والوديان الجافة بلا توقف، حمل منظاره وتطلع نحو قصر المطر: هناك توقفت احدى العربات، راقب الباب بتؤده ومنها خرج رجل مربوع أبيض، حمل منظاره ثم أداره في حركة قوسية طويلة، التقيا معاً، كلا الرجلين ثبتا رصدهما، حَدَّقا أحدهما بالآخر وكلاهما وضع غريمه في سلة اختبار: (سوف يضحكان فيما بعد كثيراً بسبب روح المرح التي تعقب بها كل واحد الاخر): «ولكنك انهزمت أولاً مسيو كنج، قال له الكابيتان زهران، «إنه منظاركم» رد كنج.

لكنه حين أنزل المنظار، دُهِشَ من المشهد الذي رآه: كان ثلاثة فرسان مدججين بالجعب، يحملون بواريدهم في أيديهم، وهم يخبون صعداً باتجاه مقره، امتقع وجهه، وتصلب مثل دبور ميت. انتظرهم حيث كان، قرفص فوق اضطرابه، يتفصد منه عرق الرعب، لم يبتسم، كان يجب أن يبتسم، كان يجب أن يفعل ذلك حين يقبل إلى عليائه زُوَّار متربون، يهرولون مثنى مثنى، أما الآن فلم يعد يجد هواء لرئتيه، «هاتوا الهواء!» لم يعرفهم، ولم يستطع أن يستخدم فراسته، فالمسافة كانت قصيرة، وقد تهدم جسر الزمن، صار وقع الحوافر يقرص رجولته، رغب في الصراخ، في قول الفاحش من الكلام، لعل المفردات وحدها تستطيع أن تدفع عنه نكبة هذا اليوم الذي يُمطر مصائب.

حين ترجلوا لاحظ أنهم (رغم عدة الحرب) ينزلون مديرين ظهورهم

بطمأنينة ضيوف. حاول أن يتفهم حمل البنادق وقف مرحباً، وهو يدحرج قواه. ولاحظ ظلالهم العملاقة في أشعة شمس الضحى، وهم يتقدمون صوبه، واثقين، حريصين على إظهار حماسهم الداخلي، وكان وقع خطاهم في سمعه وهو يحاول أن يخفي ارتباكه (كان هذا يحدثُ لأول مرة) وحساباته المخربطة، وفيما كان ينشغل باستقبالهم، كان عقله الآخر، عقل القط الجاثم في صدره، يحاول التقاط الحركات الخفية، والكلمات والابتسامات. وفيما أخذ العسّال أعنة الخيول منهم، بدا له المكان شديد الخواء، وصار الوقت سخيفاً، وما كان هؤلاء ضيوفاً، بل رسل حرب، يأتون أخيراً إلى قلاع الرعب التي استحالت هشيماً. بمن يستنجد؟ بالله؟ بالانبياء؟ بأرواح الاجداد العتاة الذين كان اسمهم وحده، يثير عاصفة غبار!

ظلوا يصعدون الدرجات نحوه، وهم يطلقون نظراتهم الشجاعة وحين خطا أول واحد فيهم خطوته الأخيرة، خارجاً من الدرج الحجري زعق بصوت راعد «السلام عليكم!» كأنه يرض عظامه، ونقل بندقيته من يمناه إلى يسراه. فيما استقرت اصبعه على زنادها بمهارة نمر أرقط. في اللحظة التي انصعق فيها كنج، رشح مثل قربه، وقال بصوت مرتجف: «وعليكم السلام!»، مستعيناً بما بقي لديه من أنفاس، كي يتماسك، ويبقى واقفاً.

ترفق الآخران به، فأفأا، وظلا بعيدين، يراقبانه بعيون هُدهُدية جارحة. لا شك أنهم يتأملون رجلاً أعلن بصوت جهير أنه ضد بحارهم كلها. هل يظنون بأني سأموت بعد لحظة واحدة من فجور نظراتهم؟ صار يضحك في أعماقه لانقلاب الاشياء. هل هذه هي الثورة؟! أن تصير عينا الفلاح، شبيهتين بعيني غراب مثلاً! وأن تظل اصبعه ممسكة بالزناد! ثم يأتي أخيراً إلى قلعة آل الحمدان، بكل هذه الثياب الرثه، والضلالات، ليقول كلاماً تافهاً لا يفهم معناه!

قائد الرسل لم يقل شيئاً، وقدَّم رسالة إلى كنج، وقال: «إنهامن عين الزمان» ثم قال: «إنه يعرفك!» «طبعاً! أي نعم» علق كنج وهو يشعر بقليل من الاسى. كان طموحه أكبر من ذلك، وقال للرجل: «تشربون القهوة؟» فقال: «لا! الجواب فقط»

صار واضحاً أنهم يلعبون، وقد كتبوا له رسالة بخط عين الزمان، وبعثوها برفقة ثلاثة مسلحين تافهين، ربما كانوا قبل أيام مرابعين لم يشبعوا لقمة العيش!

خطر له موريل، ودي كيه النبيل العجيب الذي لايتوقف عن المشي. هناك بدا له اللعب أكثر متعة، لذيذاً، لايعرف ما السبب، ربما بسبب سريّته، وخفائه!

أما هذا فهو لعب فلاحي مكشوف أبله، وغبي أيضاً «لعب فلاحي؟!» ذاك ما توقع أن يقرأه في الرسالة، متجاهلاً هوية كاتبها المدينية. إنهم يريدون إخضاعه، وهذا ما سوف تقوله داخل متنها، لأنه يرى لألاءَ الكلمات، وبصيصها، رفيف المسار الناعم الذي ترقاه. إنها تغرقه، وسوف يعميه سطوعها، وتألق النعم التي تسبغها عليه. «ولكن لا! لا ثم لا! متى صرتم قادة وحكماء؟ أصحاب المصائر الذين يصدع لصراخكم رجل المنارة؟! سلوا هذه الحيطان، والحجارة والاشجار المحروقة عمن يصوغ الانفاق والمعاني ومسالك الروح فيها. من أنتم؟ تأتون عبر القفار من أي جحر لتقولوا: «يا كنج لولا سلامك ما سبق كلامك!»

كاد في إحدى لحظات الصخب أن يرمي الرسالة في وجه الفارس المدجج الواقف أمامه مثل رسول عزرائيل، ولكن العسّال كان في تلك اللحظة قد اختطفها، فتحها، ثم قدمها أمام عينيه وهو يقوس حاجبيه، ويحني رقبته، إحناءة الناصح المقتنع بمعرفة الاسرار، وألعاب الاقدار الحمقاء: «اقرأ يا بك!»

قرأ، لم يكن فيها سوى بضع جمل بلهاء، من نوع تلك الخطابات، والرسائل، وعبارات الحماس عن الحرب، والشهادة، والموت في سبيل البلاد. فقال للرسول: «ما عندي جواب، لكن قول لعين الزمان، إنو كان يكتب من قبل أحسن من هيك!» فحدجه الرجل بعينين فاحمتين، ودمدم: «وأني بعرف يا كنج إنك كنت تحكي أحسن من هيك»

تقدم خطوة نحو غريمه، فسمع كالنائم حركة استعداد باسلة قام بها الرجل، والفارسان الاخران اللذان كانا مستعدين وراءه. راعه أنّهم طوقوه في لحظة، وأن الثلاثة صوبوا بنادقهم نحوه، وقد عرف قلبه في تلك الثواني فقط معنى الخوف.

لالم يكن خوفاً، إنما رعب وحشي مرير، تحدوه رغبة عارمة في النجاة. لقد كان موتاً تافهاً، ورخيصاً كقشرة البصل، كفجلة، وأي موت يمكن لكنج أن يسمح به، على يد ثلاثة أفاقين نكرات!

ببقية عقله فقط، استطاع أن يستجمع ثمالة جأشه، تبسَّم معلناً عجزه، وتعظيمه للمقاتلين، مد ذراعه نحو الداخل: «تفضلو!»

فقال حامل الرسالة: «لا.. وصلنا حقنا!» ثم التفت نحو مساعديه، وقال: «خذوا البواريد من المضافة!»، وحين أحضرا بندقيتين، قال: «هاتوا فردوا!» فانتزعا النطاق الجلدي، وتراجعا معاً.

حين وصل الثلاثة إلى بوابة القلعة، توقفوا، استدار الرسول وصاح: «كنج! روح خوذ بواريد من فرنسا!» ثار غبار قليل، واختفى الفرسان عن ناظريه وراء الأسوار العالية. ولكنّ وقع حوافر خيولهم سيظل يجرح ريقه، وينكّل بعقله إلى اخر العمر.

في فمه، كان طعم زجاج، وصار يسمع كركرة مصارينه، وهي تهيض وتتقلص، خشي أن يخرًّ الان، ويتقيأ، ويخرأ، بسبب شعوره بأنهم عبثوا به، وجروه، مثل جذع ميت، نحو خلجان الرماد، إلى بطون المزابل.

وفي البعيد، هناك، حيث شرَّقت العربات، بدأ سراب يبتلع الاشياء بحرية وحشية. مخرباً هندسة الاجسام المصنعه، وكتل الفرسان، والخيول، والمدافع، خالطاً إياها مثل الطحالب بالوعر، والتراب.

للمرة الاخيرة، تمنى أن يأتي أحد ما من جهة الحملة، فهم القادرون علي منحه الاحساس بأنه لم يعد وحيداً، لكن شيئاً، لم يحدث. وواصلت الحملة صعودها، وهديرها، وسط عاصفة الحر، وبركان الترقب. وفي المضافة، بدت القهوة تافهة جداً، وبدا الظل باهتاً، رخواً في صهد الضحى الفالت. ماذا يفعل؟ أين يمكن أن يذهب، وينسى؟ دحرج أسئلته في فراغ عقله، واستقصى قدرات الروح، فألفى نفسه في قفر يباب، لا أثر لبني آدم فيه.

كان مجيء رسل بهاء الدين، آخر ثقالة، صلصال لعنة أراد ذلك الرجل بها، امتحان قوته، وجلده على المسير! طيب! أراد أن يهتف له: «ها أنذا واقف هنا على أسوار حصني! أنظر اليك عبر السهل، والتلال، وقفار الصخور! ماذا تفعل؟ كيف تودي بهؤلاء الرجال المتحمسين، إلى فجائع نسائهم وأولادهم.

قرر أن يتحدى تمادي بهاء الدين، ويحيل الرغبة في الموت لديه إلى مسخرة. وقال لضامن: «هات أكل وتعال» اشتهى الطعام امام الاستعدادات الحربية الممعنة في الصعود نحو الاقتتال، والمذابح، تساءل إن لم يكن بإمكان بهاء ايجاد طريق أخرى حتى يرغم نفسه على تجرع المرارات والدماء، في المواجهة المقبلة مع جيش الامبراطورية الضاج بآلات الحرب. تلذذ بماء البندورة الحامض الذي سال بين شفتيه، ولثته، وأسنانه، وقال: «يا محترم، الدنيا لعبة، ونحنا بدنا نلعب مع فريق، نلعب مثل ما بيلعب، أما مين اللي بيخسر ما حدا بيعرف غير رب العالمين، مع مين بدك تلعب يا عسّال؟».

رمقه ضامن بعينين مسحوقتين، لم يستطع اخفاء ارتباكه ومباغتته، حيال السؤال المصيري الشبيه بزيت الخروع، ولأول مرة، منذ وصوله إلى بلد الخراب اللعين هذا، أحسّ أنه يتنفس الفجيعه، ويقضم خبز الهزيمة المرة المحمصة على صاج الضغينة المثقوبه. فقد تسربت توقعاته، وحساباته من خرومها كالتراب، وقال أخيراً، وهو يبتلع لقمة، نشفت، وتوقفت في زوره: «أنا معك يا بك!»، فصار كنج يتمرجح وهو قاعدٌ قرب الزاد، ويفلت ضحكات قدسية، معجباً بوفاء الخولي العتيق ومهارته، ولكنّ حيرة الروح ظلت، وعبس في وجه ضامن محذراً، وتنهد نافخاً هواء رئتيه في الرمضاء الحارقة، ودمدم غاضباً: «بتتركني شي يا عسّال؟» فقال هذا: «حاشا لله يا بك، لكن الخولي ما له شغل يوم بتصير الدنيا تتغير، شغلو وقت الصحو بس!»

مرة أخرى يدرك أنه لن يجاريه في لغته. بينما كان العسّال يراقب رد فعله، وهو يدرك أن هذه اللغة وحدها، هي التي تُقَوِّتُه، وتطعمه، كان مستعداً أن

يخوضُ من أجلها أعظم المعارك ضد الجميع. فيها وحدها يأخذ وجوده معنى، يندرج وسط الجموع وينصتون اليه، ويسمعونه، وينتظرون كلماته، وهو الذي يجيد حبك وهج الحروف، وضجيجها، وهمسها، حسب المقتضى، لقد أدرك الآن أنه لن يكون بوسعه تقديم العون لكنج، فعليه وحده أن يخترع ما يشاء من الكلمات، والرسائل، والردود على اولئك الذين أتوا واولئك الذين سيأتون، وضامن يترقب كالذئب، لكي لا يباغته الآتي في ضوضاء الحاضر، لهذا وضع كلماته في المهب نفسه، لأنه لم يكن راغباً في المقامرة، فاللعبة التي انكشفت امام عيني كنج، كان يعرف أنها موجودة منذ ا لازل، لكنها الان تبدو مريعة، أكبر من قواه، ومعارفه، حتى أن كل تلك المعارك التي خاضوها ضد الفلاحين، والمرابعين، وأولاد الفضل، لم تكن أكثر من بلابل، وكعاب واجاك ياجوز، إنه يعلم أن كنج الان موضوع بين فكي حوت، كقدر مصائر جبار. فكيف يريده أن يسمي فريقه وهو يرى إلى هذه الحشود المغولية المسرفة في الرعب؟ إلى صخب الجنازير، والمدرعات. إلى فوهات المدافع، إلى خلائط الشعوب التي تجمعت تحت راية فرنسا لكي تركع بهاء الدين!

حتى هذا الرجل نفسه يبعث في نفسه قشعريرة الموت كلما تذكره، شيء ما آتٍ من الحجارة نفسها. كان يُقسمُ لنفسه أنَّ أمه حبلت به من صخرة حين رآه أول مرة ينداح في المشي مثل فاجعة، ويفاجئ محدثه الجاد بنكتة، والضاحك بالجد، محدداً في كل لحظة مسالك الحديث، فكيف لا يُهلع منه وهو يراه، يحدّد مسارات الأحداث؟!

«هي لعبتك» قال لسيده في نفسه «والخولي بات صغيراً على المشاركة فيها، أينما توجهت سوف يضعُ قدمه على آثار اقدامكِ» خطر له أن يجرب حظيهما فقال لكنج: «ارم يا بك مجيدية، ورَحْ نشوف على اي وجه بتجي، واحد لميشو والثاني لبهاء الدين. ما لنا غير هيك» فتأمله كنج، وهو يزدردُ لقمته الاخيرة، وقال: «هات مي!» ثم كرع من الطاسة حتى ارتوى، سمع ضامن كركرة الماء وهو يسحُ داخل

بلعومه، ورأى اليه، وهو يفيض بين شفتيه، وأطراف شاربيه، بدا مثل رجل بريء طيب، مكروب وسط تيه، فتمنى لو استطاع أن يساعده.

لكن كنج، رفع رأسه متطلعاً إلى ضامن، لا يخفي مكر ابتسامته، ودهشة عينيه اللتين جحظتا، حين تسللت اليهما فكرة ظلت مخبوءة وسط مس الفواحش، وخراقة أحداث اليوم: «ما تقول يا عسّال في أم الجرابيع؟» مين بقي هناك غير النسا، إذا كان أولاد الفضل راحوا عَ الحرب؟» فارتجف ضامن كعصفور، والتفت بعيداً، ناظراً إلى سهل الزرازير، الذي سورته المصفحات والجيوش، تحفز لقول ما، فسبقه كنج، مشيراً بسبباته: «كنت امزح ياولد» قال بمرارة، رائياً حاله الشبيهة بضريح، ثم تابع: «بيجوز ظَلَّتْ في الخربة، بيجوز رحلَتْ عَ مغارات اللجاة، بس وين ما كانت مش قادر انساها»

ثم هجعت أفكاره بعد قليل، وتلاشت حرارة الذكرى، ونشفت واختفت في الصيحات المستغيثة لضامن الذي كان يصرخ: « طلع يا بك! شوف!» كانت فصائل صغيرة من الثوار تخترق الوعر، متجهة جنوباً، أو شرقاً من خلف الصخور. بدوا في الإطار الوعري مثل حشرات، دواب هائجة في تيه الصخور الصماء: «وين رايحين؟» سأل نفسه وهو يفكر في هذا النزوع العجيب لمئات الرجال لملاقاة الموت، أسف لانه صار خارج شرائع اليوم، ولأن جميع الاشياء داهمته، ملّصت صلاحياته، وقواه، دفعه الفضول وحده لمعرفة وجهة الفرسان المبعثرين: كانوا ينطلقون مثنى مثنى أو ثلاثة أو أربعة، وقد غرَّبوا بعيداً عن المنارة وراء الدائرة الجنوبية حيث قافلة الجيش التي لا تنتهي.

وفي لحظة شبيهة بسطوع صفحة سيف، رآه، كان هو بالضبط، ناهضاً فوق صهوة جواده كالحجر، فجحظت عيناه، وارتعش جسده، وهو يتمتم ببغض: «كامل الفضل!!»

* *

وفي وعر السالمين كان كامل، يتسلل برفقة فرحان الشامي، وسليمان النايف، وعلي حمد، وفضل الله.

يذكر أنه حين التفت نحو المناره، رأى في سراب الافق فوق أسوار قلعة الحمدان، ظل كنج الاسود الواقف هناك مثل غراب، لم يكن محتاجاً لبراهين كي يعرف قامته، وعجب كيف سهى عنه طوال الايام التي انقضت، وهو الذي تسيره منذ سنوات مشاعر حقده التي صارت كالهواء، نحو ذلك الرجل، بدا له في تلك اللحظة يتيماً، وهو يقف كشاهد قاحل، وسط أمطار الأحداث التي تبرق في الجبل. هل يكفيه ذلك؟ «لا!» قال لنفسه، فثأره من كنج كان شيئاً يخصُ روحه فقط. وحتى نبأ اليوم الذي نشره رسل بهاء الدين، لم يجد في قلبه رضى، رغم أنه أبدى استغرابه من غريمه الذي خانه مكره، كما فكر، كيف ظل بعيداً عن الثورة، ألم يكن ما فعله رجال دوتي بالمنارة، كافياً لصنع غضب رجل؟!

سار وسط رفاقه نحو وادي الذهب، ومن بعيد بان تل الخروف، وحيداً بقامته القصيرة، وفضوله العجيب وسط السهول المترامية، أمامه كان عجاج العربات، وصخبها يهزان الظهيرة، سمع فرحان يقول بأن أفضل وقت للهجوم هو عند الظهر.

كان كامل مقهوراً، إذ أنَّ بهاء الدين لم يظهر في المنطقة طوال النهار، وقد ذهب نصف المقاتلين نحو الشرق إلى المجهول حين داهمتهم ضخامة الحملة، لم يعرفوا كيف تتم المعارك، وفي مواجهة خبرة الحروب المتجمعة لدى الجيش المحتل، ما كانت لديهم سوى جرأة الشجعان، ولكن إحساس كامل بالخذلان هو الذي أحنقه. لقد تلاشت كتلة الجماعة التي ظلت طوال الاسابيع الماضية بعيدة عن الشبهات، أين اختفوا كلهم، لماذا ساروا كل هذه المسافات الى ما وراء العتبة، ثم اختفوا؟

حين قاسَ بعينيه مكان منازله، أيقن أنهم صاروا خلف الجيش.

هل يصدق مكر كنج؟ أيرى ذلك الرجل من ذرى قلعته ما لا نراه فيصون وحدته، ومشيخته من الهزيمة؟ كيف يعرف ذلك؟ حتى يجلس هناك متربعاً فوق عرش منارته، مزدرياً حروبهم كلها.

توقفوا وراء اللافات، ثم راحوا يراقبون تقدم الجيش، لا يعرف متى ظهر المقداد أمامهم، نعم، من خلف الطريق الماضية إلى عين الزبده، جاء برفقة عشرين فارساً مدججين، كان متربا مسمراً، كجذع شجرة، وأخذت عينه اليمنى تطرف حين التفت نحو كامل، كأنه يود أن يعتذر عن سرٍ ما. بدا صوته كالزجاج وهو يرد السلام، وحين سأله عن بقية الرجال، أشار له بأصابع يده، لكي يقترب، ثم همس قرب اذنه تماماً أنهم سيلاقون الحملة بعد قليل، قال «خايف يا بو محمد؟!» فقال كامل «ليش عَ بتسألني يا مقداد» قال «لأني أني مش عارف الجواب» قال كامل «وليش عَ بتحكي همس» قال «لانهم اليوم قالوا لي إنو صوتي صار قوي أكثر من اللازم».

فيما بعد شرح له وجهة نظره التي تلخصت بالهجوم على الحملة من هنا، حيث تشكل الصخور واللافات ستاراً، ومراكز ينطلق منها الفرسان نحو الحملة، ثم يرتدون سريعاً إلى مخابئهم. وقد فهم منه شيئاً عن خلافاته مع قادةٍ آخرين، ولهذا فقد جاء إلى هنا ليقاتل، إلى جانب من يريد أن يقاتل.

كان يتحدث بلسان عجيب، لم يدرك كامل أشياء كثيرة منه وبدا له أن المخبوء من كلماته كان أكبر من الظاهر المعروف، ظل يحدق بقامته القصيرة، وبشعره الأشعث الظاهر تحت حطته السوداء الملفوفة حول العنق، وبوجهه المحروق المضاء، وجرس نطقة الطيب. كل ذلك بعث في روحه، قوة عظيمة مكنته من الثبات وعدم التفكير في تفاصيل الكلام.

كان المقاتلون هناك كالغرقى، محبوسين داخل اللحظة المصيرية الغامضة، وكان الوقت جامداً، لا يتحرك.

وقال المقداد: «تعرف أن واحد من الكولونيلات يقول عني أني أجنبي!» قال كامل: «أنت؟!» هز رأسه، ومسد المقداد شاربيه، وأخذ يتذكر ذلك الفرنسي الاشقر الذي التقى به ذات يوم «ما علاقتك بسوريا مسيو مقداد؟» فلم يجبه، لأنك يا كامل لا تقدر أن تحدث أي إنسان عما يربطك بأمك إنها بلادي مثلاً، ماذا سيفهم

من ذلك؟ وكيف سيجيبك؟ طيب يا كولونيل اليوم نرى!» تمنى أن يواجهه هناك، وأن يقول له كل هذا.

لكنهم هناك في طليعة الحملة، كانوا قد أيقنوا أن الطريق إلى عاصمة الدولة صارت مفتوحة، وقد تطلع ضباط الطليعة الى المدينة البعيدة الهاجعة تحت التلال بمناظيرهم وهم مشدوهون.

فيما بعد، وصفها أحدهم بأنها مثل تعاليق وامضة، بذاك الجبل الفضي، وقد توَجَّها سرابٌ ضبابي غريب، فراحت التلال المحدقة بها، ترتعش كريح الصبا قربها.

عند الظهر، كان اليوتنان شارل دورو وسط الحملة التي استطالت مغطية خمسة عشر كيلو متراً، وسط تيه الصخور، حين سمع فجأة، صوت موسيقى، لقد تذكر ما رووه له عن معركة الكفر، كان صوت مجوز رنان، يترامى إلى مسامع القافلة آت من الشقوق الزلزالية القريبة، كما خيل اليه في البدء لكنه، امعاناً في المراوغة، كان يتلاشى، ويبتعد في بعض المرات كأنَّه آت من السماء، أو من باطن الأرض، فصرخ: «اللعنة على هذه الموسيقى»

كانت خليطاً من موسيقى شرقية عجيبة، لم يسمع أحد مثلها من قبل، وقد انتفض الرجال خلف الصخور، حين ملأت الوعر.

ومن مكان ما مجهول تماماً، انطلقت بضع رصاصات دحرجت الصمت والوجوم والتردد، وهمهمات الرجال، وبلا اتفاق سرت في الحشد المنتظر حركة استعداد، اندفع الرجال نحو خيولهم، أسرجوها، وشدوا أحزمة ثيابهم، وجناداتهم وتفقدوا الجعب، والخراطيش، ثم صاح واحد: «الرصاص بوادي الذهب يا شباب!»

لن يصدق بعد ذلك أن تلك المعركة المدوخة التي استمرت ثلاثة أيام، انما كان هايل هو الذي ابتدأها، كانت الخيل تعدو وسط سهل الزرازير، واكمام رجوم

الهندم، ومن وراء تل الخروف برز عشرات الخيالة، اندفعوا نحو الحملة، مثيرين غباراً كثيفاً أخذ يعلو، ويتلوى في سماء التلال.

لن يصدق أنهم لم يروا عربات، ولا مصفحات، وإنما قوافل طويلة من البغال، والخيل، والسيارات، والرجال السود، والسمر.

رشق أحمد الشامي جندياً توقف ليطلق النار نحوهم، فأرداه. سقطت بضعة بغال ميتة. وتبعثرت حمولتها حولها. فصاح علي: «هذا برغلي يا كامل!»

أفلتت خيل أخرى، وبغال، وفرَّت، وهي تصهل أو تشح. وبدا الصدام مفاجئاً لكلا الطرفين. حاول جنود المؤخرة المكلفين بحماية القافلة أن يردوا على هجوم الثوار بلاجدوى. لقد اعتادوا حروباً نظامية مريحة يكونون فيها عادة بمأمن من الهجمات، أما الآن، فإن الخيل والرصاص أحدقا بهم من كل صوب فراحوا يتساقطون قتلى قرب بغالهم، وخيلهم وعربات النقل. كانت خطة خارقة، وقد عرف كامل أن المقاتلين كانوا منتشرين على طول عشرة كيلومترات، وبدا أن اللجاة نفسها هي التي قدمت لهم الحل؟ إن فوضاها فقط، هي القانون المسموح به! ففي تلك المتاهة الراعشة في صهد تموز، لم يكن بالامكان تشكيل جيش لمواجهة قوات الامبراطورية الهائلة.

وهكذا فإنَّ الهجوم على قوافل المؤخرة، بدا حلاً سماوياً كاشفاً، لكل القلق الفظيع، الذي استبد بالرجال، وكاد يثنيهم عن الحركة والقتال. أول من أطلق الرصاص، كان ذوقان من التل وهايل الذي وقف عند أطراف الوادي ممتطياً صهوة شهلان الذي تركه صايل له، صباح اليوم بالضبط! «نعم، بضع طلقات يا بن الفضل قادت أعنة الخيل، إلى وعورة القرار الصعب!»

بدأ الجنود يهربون أمام جرأة المهاجمين، وبدا كل شيء شديد الخرافة: جنون رجال غريبي المظهر، يرتدون الحطات الملونة، ويرفعون البيارق الحمراء، بمساحاتها الشاسعة من قماش ثمين، ويطلقون بإحكامٍ، كملائكة الموت، ويقفزون بخيولهم الجوعى، نحو اعدائهم بمزاج أسود. كل شيء أخرق، بغيض، جعل أولئك

السنغال المساكين شبه مشلولين، لا يملكون سوى صراخ الاستغاثة المنمشة وسط المعمعة الهوجاء، بلا جدوى.

سقط بضعة رجال أمام عينيه، وكان أولهم هو حمد البدري الذي انشق من تل الخروف، خارجاً من إحدى المغاور، ومتجهاً نحو الجيش من الميمنة، خلفه عدا صف من الفرسان الذين كانوا يهللون، ويصرخون. واخترق الجميع رتل الجيش، كالسيل.

انشق الرتل الطويل، واشتعلت النار في احدى العربات. سُمِعَ صراخ نساء، ورآهن وهن يهربن باتجاه الصخور، لكنهن رُشقن من مكان ما، لم يستطع تحديده، بصليات من النار، سقطن بعدها جميعهن قتيلات.

استدار البدري بحصانه، ثم ارتد مرةً أخرى نحو كوكبة فرسان فرنسيين أتوا من اليسار نحوهم. لكنهم لم يهملوه. ومثل فصيل إعدام وقفوا صفاً واحداً، ووجهوا نحوه بنادقهم، بأمرة ضابط نحيل طويل ثم رشقوه معاً بحفنة من الرصاص.

الشجاع الشهير وصل اليهم، وقد تضرَّج بالدماء، لكنه كان قد بذل آخر قواه كي يظل على صهوة حصانه، ممسكاً بسيفه، ليهوى به وسط الجنود الذين تشتتوا هاربين من وجهه.

مات أحمد الشامي أيضاً حين صرخ قائلاً لكامل: «شفت قديش حاملين أكل!». رماه جندي ذو بشرة سمراء داكنة، اعتقد كامل أنه مغربي، فهاجمه بالسيف وحده، قبل أن يلقم بارودته ويستعد للإطلاق مرة ثانية، ورأى فيما هو يستدير، ويندفع نحو الكتائب التي صارت تقاتل قرب قصر المطر، إحداها ترفع علماً أبيض، لكن الثوار كانوا قد أطبقوا عليها، وعندما وصل إلى هنا رأى أكثر من ثلاثين جندياً أسود يرفعون أيديهم إلى الاعلى، وقد أحاط بهم المقاتلون، حائرين، لا يعرفون ماذا يفعلون بهم وقال رجل ملثم إن عليهم قتلهم: «إذا تركناهم بيرجعوا بيقوسوا علينا» «منساويهم عبيد مثل ما ساوتهم فرنسا» فضحكوا.

بعد قليل جاء المقداد، وقال: «كتفوهم! واتركوهم!» ثم أمرهم بالانطلاق إلى المعركة، فاندفع نسق من المقاتلين إلى الشرق، معاً. راح يسمع حمحمة الخيول العرقى التي تثاقل سيرها من التعب، كان معظم الثوار مكشوفي الرؤوس الآن، وقد تشعثت ثيابهم، وأغبرت جدائل الذين أطالوا شعورهم. أصيب شابٌ طويل أمامه بالرصاص، فهوى عن الحصان، وتدحرج على ا لتراب مثيراً الغبار حوله، فيما ظل جواده يعدو مع الفرسان بلا توقف. أحسَّ كامل بالجنون، وصار يصرخ وهو يطلق النار، مسدداً إلى رؤوس الرجال الذين برزوا من خلف السيارات، وعربات الخيل، بإحكام من على سرج حصانه. لعلع الرصاص، واحتشد الجنود محاولين الهرب حين لاحظوا سيل الفرسان الذين أطبقوا عليهم من جميع الجهات.

حصدوهم كلَّهم، حاول أحد الضباط الصعود إلى سيارته، لكن واحداً من المقاتلين نزل عن حصانه، وركض اليه، وأنزله منها، ثم ذبحه ذبح النعاج على صخرة رمادية مسطحة الوجه، اختلطت الآن المؤن والاطعمة، وجثث الخيول والبغال، بالاجساد الأدمية والدماء البشرية بلا تمييز.

كانت الشمس قد غربت، وبدأ الظلام يمنع عن الفرسان رؤية اعدائهم المختبئين وراء متاريس العربات، زاد عدد القتلى بينهم، وصار أحد مساعدي المقداد يصرخ: «ارجعوا ياشباب!».

انسحبوا في الاتجاهات المختلفة، وكان رأي المقداد أن يظل كل فريق في جهاته، فالذين في الميمنه يحافظون على حصار الجيش من هناك، والذين في الميسره أو المؤخره يمنعون الجنود من الفرار، أو يصدُّون النجدات التي يحتمل أن تأتي من محطات الجيش في ازرع.

بالقرب من القصر، كان أكثر من عشرة مقاتلين يتجادلون حول مصير الأسرى السود، وارتأى واحد منهم أن يأخذ كل مقاتل عبداً منهم، ويجعله فلاحاً عنده، لكن شاباً متحمساً راح يزعق «اقتلوهم! جايين من آخر الدنيا ليذبحوا

اولادنا!» قال آخر مشفقاً على الرجال الذين اختفت ملامحهم في جنح الليلة الظلماء: «حرام يا جماعة!»

بعد ذلك استقر رأيهم على ترك الاسرى، كانت مشكلة الاحتفاظ بهم قد شغلتهم طويلاً، أين يضعونهم، وماذا يريدون منهم!

أوكلوا أمر حراستهم لخمسة مقاتلين، ثم مضوا باتجاه السهل وراح كامل يسمع وراءه، صوت رشقات، واستنجاد جنود، وتأوهات الالم التي يصدرونها. استمر ذلك طوال الليل، وبعد قليل، نُسيت في وهدة التعب، والاجهاد التي أحسوا بها، في اللحظة التي نزلوا فيها عن خيولهم، كل آثار المعركة. وقال المقداد: «ناموا! بكره عندكم شغل كتير»

* *

عند شروق الشمس رأى كامل بيارق تهتز في عمق السهل عرف أنها فزعة جديدة، وشعر بالرهبة وهو واقف هناك يرى إلى المقاتلين الجدد الذين ينضمون اليهم. لقد ساقه الحماس وحده حتى الآن، ولكن قدوم البيارق الجديدة، أشعل كيانه، وصار يهلل ويصيح بكلمات غامضة، وهو واقف وسط غابة الصخور.

لكن لمن يُهلل؟ لو كان شخص آخر هو الذي يروي له الحكاية لما صدق، ولكنه الآن، أمامه، من الشمال يأتي كنج الحمدان نفسه، بعدة حربه الكامله، منخرطاً في القتال. راح بيرقه يرفرف وسط فضاء التراب، ولم يعد لكامل ما يفهمه، فليس الامر متعلقاً بمعنى معركة، أو حرب، انما بالتباسات الحياة نفسها.

توهج كنج خلف البيرق الذي حمله جميل الخزاعي، واحتفى المقاتلون به، وقد حيا اولئك الذين لا قوه، واندفع أمامهم متجاوزاً المقداد، وكامل الفضل، يتبعه قسم من فرسان المنارة انشقوا عن الكتيبة، وهم يهللون، ويكبرون، ويحتفون بزعيمهم الذي أثار صخباً، وعنفاً بقدومه الاستعراضي الباذخ.

كان أول ما فعله، هو اعدام الجنود الاسرى الثلاثين وراء قصر المطر «عبيد!

مجرمين!» صار يصرخ، وهو يطلق النار عليهم ويحمس رجاله للقيام بذلك.

لكن ابتداء المعركة أخفى شخصه عن كامل في تلك اللحظة، ركبوا خيولهم جميعاً عندما سمعوا اطلاق الرصاص في الشرق، واندفعوا نحو مصدر الصوت.

جاء أحد المقاتلين وقال إنّ الفرنسيين قطعوا ثلاثة ثوار بالسيوف قبل دقائق، كان يمتطي فرساً بيضاء رقطها الدم، فقال المقداد: «لا عاد تاخدوا أسرى!»

صعدوا جميعاً باتجاه رقة الصقر، وتلال الهندم، وقد لاحقوا فلول الهاربين الذي توغلوا داخل الوعر، رأى كنج وهو يقود أكثر من مئة فارس الآن. كان قد انفجر داخله حديد موت صدئ، ولم يتوقف عن القتل، أدرك أنه يثأر من كل ساعات التردد التي أمضاها في قلعته، مثل جمل، راح يكسر عظام الجنود والضباط والخيل بجسمه الضخم، وصوته الراعد كصوت ثور صار حصانه يعثر في عدوه، ويزفر عرقان تعبان تحت وطأة الجسد الثقيل والرغبة الطافحة بالشر.

ضاع شخص كامل فجأة بين الجموع التي أذهلتها جسارة كنج، لم يعد شيئاً، حتى المقداد نفسه، ما تمالك عقله وهو يرى اليه: ماذا يحدث؟ لأن نصف المقاتلين انضووا وراء الرجل العملاق، داخل المعركة، بين مئات البغال الميته، والخيل والرجال القتلى الذين افترشوا الوعر، كالاشنيات الجافة بيض وسود، وسمر وحمر، لكن كنج لم يعد يتوقف، صار يزمجر وسط أكوام القتلى، مسكوناً بروح شيطان، بينما كان كامل لا يني يلحق به، مشدوهاً بالانقلاب المحير الذي جعل من نذلٍ متردد، بطلاً.

لكن الوقت لم يكن كافياً للتأملات، ولن يأتي بعد ذلك وقت كي يستقصي تغير الرجل، وتبدله، وفي المساء، حين استقبل بهاء الدين نفسه، كنج الحمدان، بألق خاص، ذهبت جميع تأملات كامل إلى المزابل، وقد اختفت ضغائنه أيضاً، وضوضاء الماضي القريب التي رفض فيها كنج الانضمام اليهم، اختفت كلها في حكايات جرأته وإقدامه، واغتيالاته اللامتناهية للجنود والضباط والخيل، لكن سؤالاً واحداً ظلّ حياً: ألا يفزع هذا الرجل إلا للقتل؟!

ثمَ بدا أن الذاكرة نفسها، صارت تميل ُعند كامل، وفضل الله، وصالح، إلى خلود النسيان. ولم يعد أحد يسأل بعد ذلك، خشية أن يثير وقائع جارحة، أو يستفز عواطف مكبوتة، لقد صار وجود الرجل وحده حقيقة رفرفت في سماء استراحة المقاتلين.

اندفاع كنج اذن، ملأ المعركة بحماس جديد، وقد أباد الثوار كتيبة من الحرس بكاملها، كان الجنود يفرون نحو التلال المجاورة وتغطت الطريق الصاعدة، التي شهدت الهجوم المباغت بجثث الحيوانات النافقة، وآلاف الاطنان من الاطعمة والالبسة والبنادق، والبواريد، والذخائر. اندفع الثوار خلف الفارين، الذين كان معظمهم من السود، وقد انفجر في القلوب شلال حقد ناري لا مثيل له، حين صرخ أحد المقاتلين: «هذول ربع العبد ساسي» عندها لم يبقَ من الجنود أحدٌ حياً، وراح طلال الراعي يسوق سبعة منهم وراءه بحبل وهو يصيح قائلاً لكنج: «كلهم ملكك يا بك!» فأخذ كنج يصوب اليهم رصاص بندقيته واحداً واحداً.

أحد الجنود هرب باتجاه رجوم الحصى، فلحق به ثلاثة فرسان على خيولهم. حينها، توقف، وقعد على الارض، وراح يصلي الى الله صلاته الوداعية الاخيرة. ترجل الفرسان خائفين مذعورين من الاحساس بالحضور الالهي المفاجئ. وظنوا أنه كان يتنزل اللعنات عليهم. ولكن الجندي ما لبث أن استلقى على الارض، واستسلم لهم كالنعجة، فتركوه، ورحلوا نحو الشرق وراء أفواج الفرسان المندفعين وراء الحملة.

وورغم أن كامل كان محيراً فيما سيفعلون بالجنود المستسلمين وماذا سيقول واحدهم للآخر، فإنه لم يستطع احتمال مناظر القتل المجاني التي يقوم بها كنج ورجاله، وها هو يجد نفسه وحيداً، مثل غريب، وسط هذه الجوقة المتحمسة التي أثارها غريمه بضوضائه، بشهوة القتل التي نقلها إلى الرجال من حوله، ووقف يسأل إن كانت هذه الرغبات هاجعة، في الايدي؟ أم في الرؤوس؟ أم في فوهات البنادق؟ في أسرجة الخيل؟ حتى يستطيع متحمس أخرق أن يحيلها، في لحظة، إلى جنون سعيد.

وحين تقابلا، وراء رقّة الصقر، كانت تفوح منه رائحة دم، وصار يقهقه بقوة، وهو يعرف أن كامل أعزل أمامه في ساعات الجحيم والنار هذه.

ظل هادئاً متماسكاً في مواجهته، ثم أدار عنان الجواد باتجاه الشرق. كانت البيارق تلوح في الافق، وقد حملها الفرسان نحو قلب المعركة، لكن شيئاً ما فيها بدا له قاسياً، وعنيفاً وخالياً من المعنى، حقاً لم يستطع أن يحدس بمآلها، أو مصائرها ولكن سهولة انخراط أصحابها وراء بيرق كنج، ملأ قلبه باليأس، وأدهشه، وأحزنه.

فكر: هل السبب هو كراهيته للرجل، وضغينته؟ لايعرف، ولكن ما يعرفه هو أن قوانين اللعبة صارت ملك كنج، وأن الرجل يعرف معادن الناس أكثر منه. وهو لا يفعل شيئاً سوى التحرك في اللحظة المناسبة، كي يلحقوا به. والمشكلة أنَّ اللعبة ليست مجيدة، ولا تحتاج لخيوط حائك نساج ماهر. يكفي أن يرمي كنج، سليل النبالة، طلقة واحدة حتى يمتلئ الوعر بالمؤيدين له.

كان قد لحق به، وصار يعدو بمحاذاته، وقال بتحد ظاهر: «شفت، كل عمرك تركض ورا غيرك! أمس كانوا يسبو بيت الحمدان، طلع!.. بدك خليهم يقوسوا بيت الفضل؟!»

«ارتعد حسّان، وأراد أن يدير عنان ذكرياته، لكن عبثاً، سوف يظل يركض، ويركضُ فراراً من تلك اللحظات التي شهدت تحطم روحه، وسيظل عاجزاً عن لملمة أي شيء، سوى القشور الخاوية، وكسرات الذاكرة متسائلاً: «هل قوسوا آله فعلاً من بعده» لا يذكر شيئاً الآن، وكلمات كنج تعذبه، وهو يريدُ أن يصرخ، وأن يدمر هذا الحاجز السميك الخانق الذي يمنع عنه الماضي مااا.. ذا.. حصل؟، وقال لمحاسن إنهم قتلوا أمام عينيه ثلاثة من الثوار، وأن ضابطاً صغيراً جديداً رفع رؤوسهم على حراب البنادق، فقام الرجال بقتل سبع ممرضات جميلات كالملائكة، وتركوهن وراء الرجوم، ترين تلك الصخور البعيدة؟ هناك كان القتلى

يفترشون الارض كالنمل! صارت تصرخ ثانية «يا مجنون!» لكن لماذا صار كنج غالياً، وثميناً الى هذا الحد، وهو الذي جاء الى الحرب مكرهاً؟»

مضى تاركاً الرجل الضخم دون إجابة، فصار كنج يصرخ: «أني ما بنسى هه! ما بنسى!»

صار يرتعد الان، ولم يعد قادراً على الوقوف، أو التذكر ومن أذنيه بدأ طنين نحاسي مكرب، يقرع جانب رأسه الايسر حاول التخلص منه، لكنَّ الطنين غدا صفيراً، نوعاً من صرير حشرة ضائعة في مجاهل الحشائش الميته «خلص! خلص!»

«أحس أنه يمرض، وأن وجهه أصفرَّ، وراح العرق يرشحُ من مسام جسده، فانزلق في الفراش بلا قوة، دون أن يستطيع شرح حالته لأحد، شعر أنَّ أمه كانت تبدل ثيابه، ثم سمع شجاراً ما، وعرف أنها كانت تحاول منْعَ محاسن من الدخول، ولكن البنت ظلت، وأخذت تقول شيئاً ما عن حكايات، وقتلى. وهو يصرخ «لا! لا!» يريدُ أن تكتم أسراره»

«سكتت، وربما أرغمت على مغادرة الغرفة، ولكنها حين رأته بعد أيام بدأت تضحك، وقالت إنها رأت الشامة على فخذه، وأن ساقيه مشعرتان كساقي ذئب، وانتزعت حزامه فجأة، وقالت: «ظل هذا ما شفتو!»

«ثار غبار مشبع برائحة روث، ومُخاط بقر، فصاح: «اتركي!» حين رأى راعي عجّال وراءه، ورغم براعته، لم ينجح في رفع سرواله ورأى الراعي وهو يصفر صفرة اعجاب، وشماتة طويلة معاً، فقال بلا وعي «فضحتيني!» ووجد نفسه يطلق آهة ذهول، مشدوهاً وممعناً في الحيرة، لأن الراعي كان نواف ابن طلال نفسه، ذلك الذي مات في ا الجانب أمام عين المزرعة. فقالت محاسن «ليش مين أنت؟» قال: «حسّان، ما بتعرفيني؟» ثم راح يتذكر كيف سارا معاً لأول مرة مجبرين وسط الدرب الصخرية، حين صاروا مرغمين على التحرك في صفين، مختبئين من طائرة راحت تجوب المنطقة مخلفة وراءها في السماء ضجيجها الرعوي، وبريق معدنها الابيض، وكانت الحملة تتلوى من بعيد، بعد دمار

مؤخرتها. وفي الفيافي كانت تسمع طلقات رصاص متفرقة، ولكن الجيش لم يتوقف تسارعت حركة الآليات وخب الفرسان من كل الأجناس مسرعين إلى الامام، وصار الموت سيد الأعنة: هكذا في خطين متوازيين اندفع كلا الفريقين نحو المكان الخالد، وبينما كانت حركة الثوار شبيهة بفك حوت، اندفع الجيش مثل سهم، وكلما تقدم المقاتلون بانت السويداء في السفوح، واضحة، راقصة داخل نسيج السراب المتدحرج. ولم يلتفت طلال نحوه، حافظ على مسار واحد لم يتزحزح عنه، بدا رأسه يابساً، تحت الحطة السوداء، وكانت سحنته أشد سواداً من كل ساعات حياته. ورغم أنَّ كامل ما كان يحسُّ نحوه، في تلك اللحظة، بأي حقد، فإنَّ جداراً قد نما بينهما، ولم يستطع نطق كلمة، خانته قواه، وأفلت بضع شتائم، ثم انطفأ في خبب الخيل، وهمهمة الفرسان المندفعين، وكان طلال يحاول أن يتملَّص من الرفقة التي أُكْرِهَ عليها، ولكن التضاريس منعته، ضاقت حتى ما عادت تتسع إلا لاثنين: كامل وطلال، وكلاهما، ربما، كان يفكر في الخفاء بلعبة الايام.. فقبل بضع سنوات فقط، كان أحدهما يقيد الآخر بعنف نسر، وكان الآخر يخزِّن حقداً، وبغضاء، ظنَّ أنها ستظل متأججة حارة، إلى آخر العمر.

كامل، اكتشف أن روحه كانت هامدة، لا وحي فيها، وأنه لم يعد راغباً في اغتيال أحد، لكن ما استطاع أبداً ايجاد لغة حديث، راح ينظر إلى الراعي، وهو يرى شخصاً غريباً لم يكن في أي يوم، ذلك الجلاد الأعمى، ذا الرائحة الحيوانية النتنة.

في الطريق إلى نبع المزرعة، صادفوا بضعة فلاحين يجمعون حصيدهم مسرعين، فنهرهم أحد المقاتلين بقسوة، فقال طلال: «شو رأيكم نقودهم عَ المزرعة بالمرس؟» نظروا اليه كلهم كان وجهه يظهر من الجانب محروثاً بخطوط عرجاء، وقد نبتت شعرات قصيرة شوكية في جميع أطرافه، جعلها الشيب، الذي نمشها، شبيهة بحقل منخور، وفي تلك اللحظة فقط، عرف كامل أن قلبه يخدعه، وأن التراصيع التي غلف بها آماله، ما كانت سوى كذب محض! كيف فاته أن يدرك بأن

الراعي لن يتغير، وأن الشيلم يظل شيلماً، حتى لو اكتسى بلون القمح، «يا الله!» سأل تعالى: «لماذا تعمى بصيرتي؟!»

تحسس مسدسه، وأخفى الحركة الحذرة جيداً، متصنعاً البلاهة، ورأى أنه كان مهيئاً. أخذت موسيقى المجوز تعزف قريباً منهم، كان الوقت بعد الظهر، وعرف أن فضل الله هناك فحث حصانه بلا تردد، وفيما كان يمرُّ قرب طلال، حدق اليه تحديقته الاخيرة: هناك، رأي وجهاً من الخشب، ثقيلاً كالحديد، ومكعباً مثل حجر منحوتٍ مهملٍ.

لحق به بقية الفرسان، خبباً في البداية، ثم اندفعت الخيول تعدو، حين رأوا قامة عازف المجوز الذي كان واقفاً فوق رجم حجارة، تترجع أصداء موسيقاه في وعر الظهيره الصهداء، بدا كأن الخيل انطلقت في سباق مسافات، فيما انتظمت الحملة أكثر وتابعت سيرها الوئيد في الشريط القسري الذي لم تستطع حكمة القادة العظام تبديله «لقد هزمتني البراكين» علق الجنرال ميشو فيما بعد، ورغم أن الطريق، اتسعت قليلاً أمامهم، لكن الحقول المحصودة، كانت كالفخاخ، فالجفاف، والشمس الحارة شققت التربة الحمراء، وملأتها بأخاديد متعرجة عميقة، أربكت الخيل، التي تعثرت بها، وسقطت فيها أكثر من مرة، حين حاولت كتائب الخياله العبور من هناك.

وخامر الجنرال احساس جديد بالعبث والرعب، حين رأى إلى فراغ البلدة التي دخـ ل مشارفها، كانت خاوية تماماً، رغم حجمها الهائل، حتى من رائحة البشر.

أرسل إلى البلدة، رجال استطلاعه، بنوع من التحدي، تجولوا هنا وهناك في الشوارع، والأزقة، دون أن يلمحوا أي ظل آدمي، بدت بلدة أشباح، خاوية، وعريانة حتى العظام، رحل عنها جميع سكانها، وقال أحدُ الجنود بأنهم لم يروا سوى هرة واحدة، أخذت تموء هناك، وهي تحرس جراءها، حين أحست بخطر القادمين الغرباء. فقاموا بقتلها.

بدأ اطلاق النار عند الظهر أيضاً، بعد أن توقف عزف المجوز ذي النغمات العالية، برزت رؤوس الفرسان أولاً من جهة الشمال، كانوا يندفعون كالذئاب، في أنساق طويلة بلانهاية، وهم يهزجون بأصوات ظنها الجيش مجرد صيحات جوفاء يملأ بها المحاربون فراغ هجومهم. لكنها كانت أغاني حرب. سمعوا الأوامر الأولى للجنرال، وهي تنتقل اليهم عبر المراسلين، ثم انقطعت بعد ذلك كل صلات الجيش بعضه ببعض، حين خرق الثوار رتله الطويل المنسق، بفرسانهم المجانين، فخربطوا، في فوضاهم البدائية، قوة النظام العسكري العظيم للامبراطورية الواثقة.

لم تكن تلك الفوضى داخلة في حسابات الجنرال الذي اعتقد أنه سيحارب جيشاً من الجنود المحترفين، لا شعباً من المحاربين النابتين من الحجارة والتراب، وأشجار التين.

انشق الجيش حالاً، وقد تعطّل عمل الرشاشات، ومدافع الدبابات، والمصفحات، وتبعثر الجنود، والضباط في السهل الشاسع الذي انفرج الان أمامهم فاغراً فاه كتنين، وصار القتال، مثلما أراده أولئك المهاجمون الصارخون في الظهيرة، فالتاً من كل التعاليم والدروس القتالية، وخاضعاً للشجاعة، وقوة البدن، وحماس الروح.

وبدا للجنرال بعد ذلك، أن المعركة قد انتهت، قبل أن تبدأ. وصارت فرنسا بعيدة، بُعد الزُّهرة، غابة أحلام فحسب، وقد هزمه لابسو العباءات الملتحون، وذووا الشوارب المنتصبه، وكيفما نظر من برج دبابته إلى الوعر، والسهل، والطريق الصاعدة كان يرى هجومهم المجلل بذلك اللون القاتل، المصنوع من ليل ودخان «يا إلهي!» غامت عيناه، حين لم يعد يرى إلا السواد العظيم الخارج من أمواج الحجارة البركانية الزرقاء، من كتل الغبار الصاخب المتناثر في الفضاء، في المكان المختار بعناية ربانية حارسة. «من الذي درس ذلك كلّه؟» مراراً سأل نفسه هذا السؤال، وهو يعيد تأمُّل تلك الساعات المريعة، فلو تأخر هجوم الثوار نصف

ساعة لعجزوا بعد ذلك عن مناوشة جيشه، ولو تقدم نصف ساعة لما استطاعوا فعل شيء.

هنا، في هذا المكان المخلوق من سهل ووعور! هذا المكان الذي يملك شكل معركة، وقّتوا كل شيء كي ينهزم جيشه، وتتحطم سمعته، وتاريخه القديم كله، بعد ساعة واحدة من الاشتباك.

أول المقتولين كان طلال الراعي. اندفع في مقدمة المقاتلين على متن ذلك الحصان العجيب الذي جُنَّ فجأة، بدا راغباً في الموت وحده، أمام تلك السرية التي اصطفت، ووجهت إلى الفارس الضخم المنطلق نحوها، رصاصات بنادقها، تراقص كفراشه، ثم هوى برفقة حصانه بلا حراك.

وراءه بدأت أعداد الميتين الذين لن يذكرهم، تزداد، وهم يسقطون مثل القطا، بنيران الهوشكيس الرشاش ذي التكتكات والبنادق الطويلة التي تحس كأنها تطلق وحدها، لفرط طولها، وتقدم حربتها المسنونة، ولمعانها في الضوء الشمسي الثقيل. تساقطوا دون أن يصلوا إلى القلب! لكنَّ الموجات الاخرى كانت آتية، وهذه المرة، بدا مستحيلاً ردها، فقد راحت أنساق المهاجمين تظهر وتندفع من جميع الجهات، وصار صعباً، بعد الآن، تنفيذ استراتيجية الحصار التي فرح بها ضباط الحملة، حين استطاعوا فناء الدفعة الاولى.

كامل وجد نفسه مرة أخرى بجوار كنج، ودحرا معاً ثلاثة جنود، واندفعا نحو دبابة كانت تطلق رشاشاتها بلاتوقف وهناك قفزا عن حصانيهما معاً، في سباق مجنون، ثم أطلقا النار على راميها وسائقها، وعلى الجندي الآخر الذي برز متأخراً من فتحتها وهو يصرخ مستغيثاً، لم يفهم شيئاً مما يقول، ولكن كنج صرخ «لا!» للرجاء الغريب الذي أطلقه الرجل، أُتيح لكامل أن يفكر وهو ينزل مرشوشاً بالدم، ويعتلي صهوة جواده بهذا الكنج الذي صار يعرف الفرنسية، ويصادق أصحابها، ويعاديهم متى شاء، لا يدري لماذا رأى في أفعاله جبناً ونذاله. وبدا له أن الرجل ما كان سوى قط مناسبات، مشرع قتلٍ ومذابح، صاحب ثارات غطريس،

لكنه حين لاحظ مرة أخرى اندفاعه المجنون وسط المعركة، اعتقد أنه يظلمه، وأحس بنوع من الحنين الطيب إلى تلك الايام القديمة التي تعقبا بها آثار الذئاب، والثعالب، والحجل وبحثا مسعورين عن سر كتاب المغربي.

اختلطت القامات، والاصوات وسط معمعمة الموت والقتل والدماء. الجنرال ميشو نفسه، قال إنه لم يعد يعرف جنوده، إذ لم يرَ منهم سوى ميتين، مرميين على السهول الترابية الحمراء، بين الصخور التي هزمته، راح يتطلع إلى هنا، وهناك، بمنظاره البائس الذي ما عاد يقدم له سوى الجثث، والحرائق التي أضرمت في العربات، كان على الجنرال أن يبكي في تلك اللحظات، نعم لأن كامل سوف يرى بهاء الدين يفعل ذلك بعد سنتين، حين سيودعهم على تخوم الصحراء، ثم يمضي إلى منفاه البعيد.

تذكره الآن، لم يلتفت إلى الوراء قط، إلا في اللحظة التي حانت فيها معانقات الوداع، عندها، توقف، ثم ترجل عن حصانه، وراح، مثخناً، مدمى، يحدق في المدى الشاسع الذي طُرد منه، بكى قليلاً، ثم مسح دموعه، ورحل.

تلك الساعة قال لنفسه. إنَّ الإنسان يبكي لأنه لم يعد يجد سبباً واحداً في هذه الحياة، يدفعه للضحك.

لم يعرف إن كان جنرال المزرعة، قد بكى، لكنه رأى مرة واحدة شبحه الذي انسحب بسرعة نحو الجنوب، إلى السهب الأجرد، الذي كان مغموراً بالشمس التموزية، مطفأ بسنابك الخيل المشتتة، والجنود الفارين نحو المجهول الذي بدا لهم، كائناً ما كان، برَّ الخلاص من المذبحة، هناك حيث كانت تحوم طائرة، كالطريدة الخائفة، فوق رائحة البارود، والدم، لتحمل رجل الشارات العظيم إلى نجاته!

لم يأبه له أحد، وبدا المشهد غريباً، حين انفلتت عفاريت القتل وراء صراخ الاستغاثة المجاني الذي أخذ يطلقه آلاف الجنود وسط يقينهم القاطع باقتراب النهاية.

وبعد ساعة، اختفى من أمامه. أو أنَّ ذاكرته ما عادت تحفظ شيئاً. اصطبغت إلى الابد بشرائع ذلك النهار. بمسالكه الغريبة التي كان شاهداً فيها، ومشاركاً في صنعها، وقد غاصوا في بهجة النصر السريع الحافل، بلا تردد، نعم، إثر ذلك صار الجميع في عجلة، فراحوا يبدون مقاومة هشة، لاأمل فيها، بنوع من استبسال مقاتلٍ موقنٍ أن الموت وحده، صار سيد وجوده.

مرة أو مرتين، فتش بعينيه عن فضل الله، وصالح، وهايل مدركاً أن الصراخ العظيم والغبار، يخفيان وجودهم تماماً، ولكنه كان يجيل بصره، باحثاً عن قامة أخيه، وعن صهريه اللذين شعر الآن بأنهما أخوان، لكن الجميع اختفوا، وبدل أن يراهم، كانت عيناه تصطدمان، أينما تحولتا بجثث الموتي، من الرجال، والخيل والبغال. وبالحرائق، والدبابات المحطمة، والعربات المقلوبة.

ومن السهل، جاء مقاتلون وصاروا يقولون أن خمسة فرسان بألوان صافية، بدأووا يحاربون في مقدمة الثوار منذ أول المعركة، راكبين خيولاً مُطهمه، مسرجة مبهرجة، بذات الالوان.

فزاد حماس جميع الرجال، ولكن كتيبة من الجيش بدأت تطلق القنابل باتجاه المهاجمين من جميع الجهات، كان فرسانُ الثوار يأتون من جهات الشرق، ولم يعرف سبب مجيئهم في تلك الساعة، ولكن القنابل انهالت عليهم، فتشتتوا، وسقطوا قتلى! كان مجال تحركهم مكشوفاً، ولا بدَّ أنَّ ضابط الكتيبة وجَدَهم هدفاً سهلاً لمدافعه التي نصبت قرب عين الماء، بعد أن أعياه الاطلاق نحو الشمال، أو الغرب، حيث اشتبك الجنود، والثوار معاً.

تذكر أنَّه اندفع نحو النبع، ورأى عشرات الفرسان يعدون قربه على صهوات خيولهم، ويقفزون من فوق المتاريس المبنية على عجل، نحو رجال المدفعية، وهم يطلقون نار البنادق، أو يلوحون بالسيوف المثخنة، المذهولة، ووراء آلات الدمار، والموت، سمع فجأة صوت مجوز، فتساءل أين يقف ذلك الرجل لكي يطلق معزوفات الموت الحمقاء؟! بدا له مرة أنه يحلم، وربما كان مصاباً، أو ساقطاً وراء

جدار، أو أن الصوت كان يتردد بين الاشجار، كنداء جنيات، مثل عيوطة حربٍ خفية، تهزج لأقواس الموت، لصخب الدماء التي تسيلُ، صار يرى كيف نسي بعد لحظة نفسه، ولم تعد يده تفعل شيئاً سوى أن تقاتل، وتضرب في الحشد المهجن بلغات العالم كُلِّه، من أين أتوا بكل تلك الالسِن والوجوه، والألوان لحربنا؟ تعجَّب من لعبة الحرب العجيبة، من طموح الامبراطوريات القاطنة وراء البحار؟ فما الذي يطمع فيه كل هذا الجيش الطافح بالاسلحة حتى العظام، من هذه الوعور والبراكين وأشجار البطم العتيقة، والزيتون المسكين؟!

كانت كتيبةُ المدفعية الفرنسية قد استدارت الآن بمدافعها نحو المهاجمين الذين فاجأوها من الخلف، سقطت كوكبة من الثوار مع خيولها ممزقة، دامية، مبعثرة، في التراب، ومئات الحجارة.

وأحدث القتل السريعُ، ارتداداً مفاجئاً، قامت به الخيل نفسها شعر أن يده صارت ثقيلة، وأن الاشياء تغرق في ضباب برتقالي، ظن أنه أصيب، لكن الحصان كان يعدو، كالمجنون، مندفعاً في هجوم انتحاري، نحو الكتيبة التي اصطف عشرة من رجالها معاً، وراحو يطلقون نحوه وحده.

هكذا خُيل اليه، كأنما انفتحت صوب جسده فوهات جميع البنادق، والمدافع. حمله الحصان، وطار به، متجاوزاً نسق الجنود العشرة، وبحكمة منقذ جبار، استدار، ليضعه كالقدر، أمام قائد مزين بالشارات والرتب، لقد تذكره: كان أسمر قصيراً. تراكم الغبار على رموش عينيه، وجبينه. بدا عابساً وحزيناً، ونظر اليه تلك النظرة الاخيرة، لمستغيث بينما كان سيفه ينغرز عميقاً في صدره، شاقاً ثوبه المزركش المتخم بجسده المليء، وخارجاً من حافة الظهر، أحمر مدمى. أرتد إلى الخلف، فانسلت آلة الموت من لحمه بيسر، كأنما صار لحمه ماء، وتهاوى متكئاً إلى حائط، ثم ظل هناك ميتاً، بلا حراك.

«كل شيء صار حاضراً الان: الشمس والضراوة والموتى الضائعين، وآهات الألم، والحجارة، والخيول والثيران. بريق من الصور الباهرة، يتصبب نحو بؤرة

الذاكرة، واضحاً كالملح، مكتوباً، يقوده عبر الانفاق إلى ضياء الوقائع»: لقد استسلموا بعد لحظة، تركوا أسلحتهم، ورفعوا أيديهم عالياً صارخين، ما كانوا يعرفون شيئاً، بعدُ عن مبادئ تلك الحرب، ولن يعرفوا، لأن أياً منهم لم يبق حياً، وكامل نفسه لم يعرف سبب ذلك الاستسلام الضال المريع، إلا عندما هنّأه رفاقه! لقد قتل قبل لحظات الكابتن كزافييه!

لم يكن يعرف شيئاً عنه، لكنهم حدّثوه فيما بعد، عن الرجل الذي روع سوريا بمدافعه، في السنوات الخمس الأخيرة. فمنذ ميسلون، وهو يفجر أجساد السوريين، بقنابله المحكمة، ورجاله الكبار، الذين كان يتباهى بهم أمام جنرالات الامبراطورية في جميع المستعمرات. حتى أن اسمه ارتبط دائماً، بذاك اللقب الاعظم الذي كان يعتبره شرف عصره: المدفعي!

وحسب نظرياته، فإنَّ معظم المعارك التي خاضها قد حُسمت بفضل رشقاته المتلاحقة التي يخرق بها قانون أي انتصار. وما كان يتدخل إلا مرتين: قبل المعركة، أو في لحظاتها الأخيرة.

وهذه المرة، ظلَّ في الجيش مَنْ سمعه يدمدم لاعناً جنراله، ضُحى الهزيمة التي أحسَّ بها منذ وطئت حوافر جواده مدخل وادي الذهب: أذهله المكان الجاثم المسور بصخور اللعنات، وهو الذي خاض ألف حرب مفتوحة على جبال وسهول غريبة مفزعة. غير أنَ وحشة الأرض هنا، وكآبة الغطاء الحجري الرث، وقحل التراب، وحمرته الدموية، وخفاء الجبال البعيدة، والقرى، والناس، جعلت صدره ضيقاً، كالجليد!

وحين قطع الثوار طريق الحملة، عند نبع المزرعة، كانت آخر كلمة قالها هي: «أنقذنا يا رب!» ثم اقتصرت أوامره فقط على المحاولة اليائسة، لتنظيم رجاله، ضد هجوم قريب مباغت، لا بداية له، ولا نهاية.

لم يُخفِ شعوره بالفخر، ولقد طرب للمصادفة البارعة التي قادته إلى متاريس المدفعي، وعاد مرة واحدة إلى حيث كان، ليرى، عن كثب وجه ذلك

الرجل سوف يظل، بعد هذا اليوم، ستة أشهر، متكئاً إلى حائط موته، عارياً، مكشوفاً للشمس والرياح، والمطر، قبل أن يستطيع أحد الكولونيلات الفرنسيين، اختراق مصاعب البلاد، ليدفنه.

كان ما يزال حزيناً، وبدا كأنما فقد كل وزنه، ما بقي منه هناك سوى الجلد، واللحم، والعظام، وكان يتطلع إلى شقوق الحجارة المبنيه، لائماً أو متحيِّراً.

لم يجرؤ كامل على الاقتراب منه أكثر، واستدار، وتركه مذهولاً بالاسئلة التي لن يجد جواباً لها عند أحد، لقد ظن أنّ ضيقه كان السبب طوال ذلك النهار، ولكن الأشياء كانت أكثر غموضاً، شبيهة باللامعنى الفظيع الذي رآه وراء موت ذلك الرجل الغريب الآتي من وراء البحار، والمحيطات لكي يموت هنا، بلا ثمن. ماذا يريد؟ سأل نفسه ألف مرة هذا السؤال دون جدوى. ولم يستطع أن يتفهم فكرة رغبة الرجل بالقتل، ولا كونه مأمورا ينفذ أطماع آخرين، متذكراً أن اندفاعه الذي صار شهيراً، وحماسه، وافتخاره بتدمير القرى والحارات. لم تدع له فرصة للغفران. ليمت اذن! مادامت هذه الأرض لا تتسع إلا لنا!

زال عنه، تلك اللحظة، الاحساس بالشفقة، والرأفة تجاه ميِّته. وأخذ يسمع من خلفه صوت المجوز مرة أخرى، كان مشبعاً بالطمأنينة، والراحة. ورأى فضل الله قاعداً، بينما كانت قطعان من الخيول المسرجة خاوية الصهوات تُصغي إليه كانت مشدوهة باللحن، تجرجر براءتها، ودماء قتلاها، متحدية لعبة البشر العجيبة، ومتجاورة بلا أحقاد. تستمعُ إلى اشتباك نغمات المجوز القصبي، في عصر يوم المقاتلين.

لم يعد ذلك الصوت يفارقه أبداً، وقد مضى معه أينما ذهب، ففي البراري، والجبال البعيدة، في قفار الزباير وفي صحراء الصفا، كانت أنفاس ذلك الشاعر الضئيل المتخفي وراء صمته، وأشعاره المستعده، تعبئ وجوده بالرغبة في البقاء، والحياة، وعشق الأمكنة المهددة.

أخذ الشاعر معه، وراحا يبحثان عن هايل. في البداية سألا عنه من يعرفه،

ولـم يدلـهـما أي واحـد ممن ظلوا يحومون في الارض الخاوية مسـاء، على مكان وجوده، ولم يقل أحد أنَّه رآه، وعند المغيب فقط انتابته حالة رعب، فالفتى اختفى تماماً، خشي أن يكون قد تسبب مرة أخرى بفقدان واحد من اخوته، وراح يلوم نفسه حالاً لأنَّه تركه عند تل الخروف. كيف نسي أمره كل هذه الساعات؟ حاول أن يوهم نفسه بأن هايل، ربما، عاد إلى أم الجرابيع، ولكنَّ معرفته بأخيه جعلته ينقض وهمه، ثم زاده رعباً منظر القتلى الممددين على الطريق الطويلة الراجعة إلى التل الدخاني الشهير.

هل سيبحث بين جميع الاجساد القتيلة عن أخيه؟ أدرك أنـه لا يقوى على فعل ذلك. لـن تستطيع يداه الكليلتان أن ترفع وجهـاً واحداً مـن وجوه مـن ماتـوا، ليرى إن كـان هايـل، أم غيره.

لكن شوقه إلى الصغير، وخوفه عليه، أحالا جسده إلى النار، وما عاد يستطيع الصبر دون رؤيته، فراح كالمجنون يعيث في جثث القتلى، وهو يضرع إلى الله أن يخذله.

لكن الليل، كان يعدو نحوه، عَدْوَ ذئب، وما عاد يستطيع في العتمة معرفة أحد، فينام هناك، في ظل شجرة، مغامراً بالبقاء وسط العالم الاخر.

حاول فضل الله ثَنْيَهُ، وجاء صالح الحراني بعد ذلك، وحنا البيطار الذي قال إنّه رأى الفتى قبل الظهر عند وادي الذهب، وأنه يمكن أن يكون قد عاد إلى أهله. حاولوا أخذ كامل معهم، ولكنه أبى، فقالوا إنَّهم سيظلون كلهم قربه اذن.

وعند الفجر، رأى أكثر من أربعين رجلاً آتين، يقودهم المقداد نفسه، جاؤوا يمشون، وطلب بعضهـم أن يصف لهم الفتى فصار ينتحب، ما عاد يذكر كيف يعدد أوصافه، لكنه يعرف مثلاً شكل شاربيه النابتين، وخديه الاسمرين اللذين امتلأا تقريباً بزغب الصبا، وشامتيه الغامقتين الممسوحتين على صفحة الخد الايمن، لكنه لم يستطع وصفه، أما الآن، فكم هو واضح لديه كل ذلك الوجه الذي ما ملَّ من تأمله قط: إن عينيه عسليتان وأنفه عريض، وذقنه متسديره، وحاجبيه مقفلان

أسودان مملوءان كحاجبي الصقر، تمنى لو تذكر إن كان قد احتضنه مرة واحدة لماذا لم يفعل؟ وكيف ترك الفتى ليدي أخته فقط، ولتعاليم صايل الذي أرعب كامل، حينها، أن يعود إلى البيت وحيداً بجثمان هايل ماذا سيقول له؟ : «خذ ادفن أخاك؟!»

بعد ذلك افترشوا السهل الشاسع بحثاً عن القتلى، وعن أخيه. كانت هناك نساء، وفتيات يبكين، وكان رجال آخرون يحملون موتاهم، أو جرحاهم، ويذهبون بهم شمالاً.

طفح المكان برائحة الموت الحريفة، وبأنين خيل راح بعض الفرسان يطلقون النار عليها، وبدا له أنَّ الزمن يتوقف أو يتقوس كقنطرة، تاركاً في رأسه فراغاً عتيقاً خاوياً من أي شيء. بدأ بعد قليل يجن. كانت الوجوه التي يقلبها تنظر نحوه راجية، أو تحدق فيه معكرة، محتاجة، بجليد فناء عارٍ لا نهاية له.

أحدها بدا راضياً رضى رسول، وآخر كان ممتلئاً بندم شامل، وثالث شحب لونه حتى صار بلون الصحراء. لن يستطيع أن يخرج كل تلك الصور المتشابكة الصعبة التي رسخت في ذاكرته دون أن يرى هايل، ومرة واحدة ناداه فرحان سلام حين رأى صبياً مقتولاً بجانب بغل، فعدا اليه، لكنه كان طفلاً آخر، احتضن بندقية، وقد مزقته قنبلة. ارتعش جسده، وغمره إحساس واضح حار جداً: ثمة آلاف الاشياء، ما كان بوسعه ردها، وخطر بباله صايل، وصار يدرك أنه لم يعد يخافه مهما حدث، وسوف يروي له كيف تجاسرت القنابل على فتى، ودحرت البيوت والقرى، طالباً اليه أن يقول له: لماذا؟!

بحثه راح سدى! ومن المزرعة إلى رقة الصقر، كانت أجساد القتلى منثورة كالعصافير. وقد جاس بينها، بقلب واجف مذعور، متمنياً في أعماقه ألا يجد أخاه. تخلى عنه أولئك الذين تطوعوا للبحث، حين واجهتهم كل تلك الجثث.

بعضهم ركب حصانه، وفرَّ شمالاً، أو جنوباً. وبعضهم وجد صديقاً، أو

قريباً ميتاً، فمضى ليخبر آله. وآخرون راحوا يهشون الضباع، والكلاب، والقطط، التي ملأت الارض. وظل كامل شبه وحيد، برفقة اصهاره، والبيطار الذي كان يجول وهو يتساءل إن كان قدره، يقوده لرؤية أولاد الفضل مقتولين واحداً بعد آخر! بينما كان فضل الله يمشي في ظل كامل، خائفاً متردداً، تجاه كل ماسيحدث، صالح صار يسأل بصوت عالٍ: لماذا لم يمنعوا الصبي من المجيء إلى هنا؟ ولامَ ثنية في قلبه، لأنها وافقت على مشاركته، لقد ظن أكثر من مرة، أن أسرته أسرة مجانين، بلا عقل، أما الان، فإن ظنونه صارت يقيناً.

حين صاروا في التلال الصخرية، لرقة الصقر، بدا المشهد أكثر فظاعة، هنا لم تعد تظهر الحجارة. اختلطت أجساد البشر، بجثث الحيوانات، بالبضائع، والمؤن، والذخائر، والعربات فراحوا يبحثون مسرعين، قبل أن يبرد الموت، ويرسل دبيب رائحته ولكن هايل اختفى.

صار الوقت عصراً، حين بدأت الافاعي تتحرك في البقاع الترابية خارج ركام الصخور والقتلى. وراح كامل ينادي اخاه: «هاااا. . يل! هااا. . يل!» لعل الفتى مصاب في مكان ما، ينتظر نجدتهم، فهل ابتلعته الارض؟ أم التهمته الذئاب منذ المساء؟ وأخيراً طلب إلى فضل الله أن يذهب ليرى إن كان الولد في أم الجرابيع، مغامراً بالذعر والرعب اللذين سيمطرا هناك، إن لم يجده.

لكنه أيقن أن الشاعر لن يقوى على مواجهة غضب النساء، فمضى برفيقيه وراءه، وهناك، سمع، منذ أن خطا فيها من تلال الغربان إلى الممرات، نواح اخواته كلهن. فصار يهز رأسه لاعناً نفسه، وأجداده، وفرنسا.

لم يجرؤ على الدخول، إلى حيث كانت اخواته يبكين، فماذا سيقول لهن؟ لهذا فضَّل أن يعود من حيث أتى، تاركاً صالح، وحنّا اللذين لم ينطقا، رغم أنهما في الاعماق، كانا حائرين من ضعف الرجل الذي رأياه على الدوام قوياً، جباراً.

مضى عائداً إلى وادي الذهب، يشك بأن أخاه ميت، لقد أقلقه اختفاء جثته،

ولن يستطيع الراحة أبداً ما لم يرها، أو يعرف شيئاً ما عنها، فمن غير المعقول أن يجدوا معظم القتلى بينما تختفي جثة هايل!

نام في العراء، قرب وعر السالمين، متحملاً رائحة الموت البطيئة التي بدأت تتسرب من الجثث، مالئة الهواء بذرات حزنها.

وعند منتصف الليل، استيقظ مذعوراً، وقد أبهظ روحه حلم ثقيل مهلك، ليجد نفسه وسط عالم مبهر غريب، طافح بملايين الأنوار الزئبقية الشفافة التي كانت تزوغ وتومض وسط الحلكة، من آلاف الجثث المنهارة وسط وعور الموت، ثمة عمود من الاشعة أخذ يمتد، وينتشر نحو السماء، اختفى حين راح يراقبه، ولكن الاضواء اشتدت وقويت، حتى أنه، حين تحرك وسط عالم النور، صار يرى قامات القتلى، وأشكال أجسادهم، والتقاطيع الدقيقة لوجوههم المسكينة الملتفة بعباءة الموت السحيقة.

اتضحت الاضواء اكثر، ازداد سطوعها حين صعد يجرُّ وراءه حصانه إلى التلال الصخرية. بدت كالكتابة على جلود البشر، وثيابهم، وهي تشع حول أطراف الجروح، والطعنات، وصار يسمع صراخاً بعيداً آتياً من السهل الرحب، أو من أصقاع الرجوم، أو من الوديان البعيدة حيث ارتمت مئات الارواح.

ظن أنه ما يزال يحلم، وحاول أن يكافح نومه، ليستيقظ. كان طعم الملح طرياً بين شفتيه اللتين راحتا تمتصان عرق ذعره. وحين كافح أكثر اكتشف أنه مستيقظ فعلاً، وبإمكانه أن يشم، ويسمع، ويحس، إضافة إلى ما يراه.

قال إنه إن لم يَجد هايل هذه الليلة، فلن يصدق أبداً أن الفتى ميت، فنهض وعاد يبحثُ عَنْ جثمان أخيه، مستعيناً بأنوار الميتين، لاحظ أنَّ الضباع وقفت بعيداً، هناك عند الاطراف خائفة مرتعدة، وهي تراقب تلألؤ الأجساد وسط بهيم الليل، تحدقُ بعيون مسرجة في القدرة الربانية التي حَمَتْ موت هؤلاء.

شعر بالفرح لأنه يشهد هذا الصعود العظيم لأرواح الموتى، إلى حيث ربهم،

تمنى أن يوقظ سكان الجبل كلهم، كي يريهم كيف منّ الله على بنيه الشهداء برضاه، وبركاته.

صباح اليوم الثاني، انتشرت مئات الحكايات عن الموتى المنورين، وقال المشايخ إن موتى الجبل وحدهم هم الذين أضيئت أجسادهم، أقاموا الصلاة على أرواحهم، وأنكروا أن تكون الأضواء، التي قالوا أنها الملائكة نفسها، قد طالت الاخرين من الجنود الفرنسيين وصار رجال بهاء الدين يقولون: «شفتوا!»، وصارت الامنية الجديدة لآل الفضل، لاأن يروا جثة أخيهم فقط، وإنما أن يجدوها تضيء، وتنور.

توقفوا عن البحث بعد يومين، وقد ملأت رائحة الجثث، الفضاء برمته، رحل سكان القرى كلها نحو الشمال، فراراً من انبعاث الهواء الكريه المنتن، ومن شراسة الحيوانات البرية التي ما عادت تترك مجالاً لأحد. صار يرى في النهار، وفي الليل، كيف تتسلل من اللجاة مئات الضباع، والثعالب، وطيور الجيف لتلتهم جثث الموتى وصارت تلك الحيوانات تهاجم بعضها بعضاً، فيسمع ضجرها، في الليل. أو تندفع نحو أي انسان يظهر حولها في الافق. بأنيابها المدماة، وأرواحها الممسوسة بجنون الموت الفظيع الذي يملأ السهل والتلال.

لن يجازف أحد قطعاً بعد ذلك، والوحوش فهمت الامر، فتركت الجثث حيث كانت التهمت لحمها حتى شبعت، وانتفخت. ولم يبق بعد ذلك سوى الضباع تروح وتجيء وهي مشغوفة بالتهام لحم الحيوانات والجنود الذين كانوا منذ أسبوع فقط يملؤون هذه القفار خوفاً، ورعباً.

كان يتفرج على ذلك كل يوم، وهو ممتلئ بالحيرة، يسأل نفسه عن هذا الانسان التافه الرخيص الذي ما عاد يساوي شيئاً. هذا الكائن الذي لا يتعلم أبداً، لا من الهزائم، ولا من الامجاد. لا يشبع ولا يكتفي. يأتي من آخر الدنيا إلى هنا، كي يموت، ويترك بلا قبر عارياً، أعزل، طعاماً لوحوش الفلا!

وفي الخربة، لم يسمح باقامة أجر، فهايل لم يمت، كما اقتنع أخيراً، بعد أن

أحصى الناسُ القتلى، وعرفوهم جميعاً بلا استثناء. ولا بدَّ أن غيبته مؤقته، وسوف يعود، كما قال لاخواته اللواتي طربن لكلماته، وتوقفن عن النواح، رغم أنهن لن ينقطعن عن البكاء عليه، طوال العمر.

«تذكر أنهن كُنَّ قد نُحْنَ عليه، ولطالما تمنى لو استطاع، وهو يسبح بروحه فوق الديار، ملتمساً بثَّ الطمأنينة في نفوسهم، مخاطباً أخواته وأخيه الباقي. فهل وصلت الرسالة اليهم، أم أنَّ تعاليمه عن اختفاء هايل هي التي أورثتهم ذلك الامان، والامل في عودتهما»

في تلك الايام، ملأه بالحزن، والاسى، منظرُ اخواته وهنَّ قاعدات يرقبن الممرات، أو يجلن وسط المغارات، أو تحت أفاريز الآبار العتيقه، يرسلن المراسيل، ويبعثن الرجال إلى جميع القرى، ويسألن البدو عنه.

أخذ يناديهن من سمائه، دون أن يفهم أن الموتى والاحياء لا يتخاطبون أبداً، الآن، فقط صار يعرف أن الاحياء أكثر حكمة من الموتى، فلو عرفن بموته، لتركنه، ولما بحثن عنه.

أما هو، فما استطاع، طوال أيام، مغادرة أم الجرابيع ظل يطوف هناك، في برودة ليالي حزيران الندية، وحرِّ نهاراته وانتظار اخواته الدؤوب، حتى تلاشى وعلا في الفضاء، ثم أحس بذلك البارق الغريب الذي أضاء عينيه، وسمع صراخاً. ثم ما عاد يذكر شيئاً.

اتضح بعد ذلك أنَّ أهالي المرقب دفنوا جثمان رجل وصل إلى اطراف بلدتهم جريحاً، ثم مات عند حيطان البيادر، وحين ذهب كامل إلى الخشخاشة الفارغة التي كانت لآل أيوب، ورأى الجثة عرف أنها ليست لهايل، فلا ثيابها ثيابه، ولا طولها طوله، ولا العظام عظامه.

آل الرفاعي أوصلوا اليهم ايضاً جثة رجل ظنوا أنه هايل، فدفنوه وراء الخرائب، وهم يبكون، وثنية تقول «ياشحار اهلو».

بعد عشرة أيام، صاروا مقتنعين أنه غاب، رغم أن سرَّ غيابه ظل يعذبهم جميعاً. وقد توصلت ثنيه إلى قناعتها تلك، من حلم، أوحى به لها، شيخ طاعن، رأته في المنام. قال ان الحدود الخمسة حملوا الجثمان معهم، وصعدوا به، حين رأوه يافعاً، ما تزال شعرات ذقنه شهباء متفرقة، ولحم خديه طرياً. وحين استيقظت رأت أن العجوز كان موجوداً طوال سنوات قربها، في الصورة الكبيرة التي رسمها هايل، فصارت تضرع إلى الله، كي يحميه، ومضت إلى اخوتها تخبرهم عن رؤياها العجيبة، وهي تقول لا بد أنهم انقذوه بسبب الرسم المقدس، والخطوط الالهية التي كان يزين بها كتب الحكمة.

لطفت الرؤيا أحزانهم، وصار بكاء النساء شيئاً قريباً من الحنين، نوعاً من الشوق الدفين المملوء بالملح.

* *

وفي القلعة صار شامل يبكي حين وصل نبأ هايل، ويقول للمتطوعين من البارتيزان، ولقحبته ماريا، إن أخاه قد مات، ولأنه يعرف أهواء ثنيه وضعف الاخرين، تمنى لو استطاع الخروج من هنا، والتحليق نحو أم الجرابيع ليغرف من أقواس أخته، ومن استشاراتها، ماء يغسل بها الادران التي علقت بجلده، مثلما يعلق الزيت.

أكثر من مرة فكر بالهرب، جاسَ القلعة من جميع جهاتها وراقب المدخل، وهو في نوبات الحراسة، مخططاً لنفسه طريق الفرار لكن أفكاره، ما كانت تتعدى صدغيه، رغم أنها ظلت تنخر عقله، حتى غدا كالابله، خاملاً بين رفاقه، عجولاً في حضن ماريا التي مُنحت مع رفيقاتها، وقوادهن جناحاً في أطراف القلعة الشرقية.

راحت فكرة الهروب تبرق في الليل، ثم تتبخر في النهار، حين يعيد التفكير في مصيره على ضوء الشمس الحارة القاطعة، أين يذهب؟ وهو يعرف أن جميع الطرق، والتكايا مسدودة أمامه، فيتخلى عن آماله، ثم يأتي الليل مرة أخري،

وينام مسهداً مفكراً في حاله، فلا يرى درباً سوى الفرار، ومغادرة هذا الوكر الغريب الذي حشر نفسه فيه.

بعد ثلاثة أيام فر ثلاثة من البارتيزان من المدخل الجنوبي، أخذوا خيولهم معهم، وأسلحتهم، وقتلوا أحد الحراس.

كان الثوار يعسكرون عند سفوح التلال، وفي المدينة المحررة، وكانوا هنا يرون نارهم، أو دخانهم كل يوم، فلم يجرؤ الكابتن شوفالييه على الخروج خلف الرجال الثلاثة، وأمر بعدم اطلاق الرصاص ايضاً، خوفاً من أن يعتبر المحاصرون ذلك حرباً.

لكنه زج بشامل وسبعة من البارتيزان في السجن بتهمة التواطؤ فصار يقول إنه وحده كان جباناً خوافاً، حين ترك مصيره في يدي الكابتن اللعين!

تلك الليلة تذكرته غريبة، ، وبدأت تهذي باسمه، وتبكي نادبة حظ آلها المنكود، وتنوحُ عليه كأنَّه ميت، وقد استيقظ كامل من غفوته القصيرة حين سمع ذلك، كانت اخواته جميعهن مجتمعات وكانت معهن فضة، وصباح، وزوجة حنا، وقريباً منهن اتكأ صايل على يده، وتسمَّر كالثعبان. كنَّ يطحنَّ قمحاً، ويبكين وثنيه تقول لهن «معلش!» وتسليهن بأنه ربما كان اختباراً لهم من الله، رغم أنها ما عادت تستطيع بعد دقائق فقط، حين ذكرن الاخوة الثلاثة الراحلين، صبراً، فبكت هي أيضاً، وملأ صوت الرحى الأجش، ونحيبُ الاخوات الناعم، فضاء الخرائب، وجوانح قلبه، بنعناع اليأس.

كلاهما، كامل وصايل، لم ينطقا بكلمة، وأدرك كلاهما أنهما إذا ما حاولا أن ينطقا، فسوف يكون ذلك حريقاً، لان كل واحد فيهما حَمَّل الاخر وزر غيبة الصغير. فكامل فكر أن صايل كان بإمكانه الذهاب بدل هايل، وصايل فكر أن أخاه الاكبر، أوقع الفتى في شراك حماسه، واندفاعه المجنون صمتا معاً، صمت متآمرين لا يكلم أحدهما الآخر، شبيهين بجملين، وتسبب صمتهما في افتراق الرجال ايضاً، فظل حنا في الطرف الاخر، مع حدائده ومساميره طوال الفترة ا لتي

أعقبت المعركة، يرحل إلى القرى، والبلدات حين ازداد عدد اولئك الذين يحتاجون إلى بيطرته، بينما ظل الشاعر مع كامل، وصار صالح يعمل في المقلع وحده، تذهب اليه ثنيه والاولاد الصغار الذين استهواهم، مثلما كان آل الفضل دائماً، نحتُ الحجارة، وضرب المهدات.

شمس الدين أخذ يشفى بسرعة، منذ أن رأى غريبة تحوم حوله بكل ذلك الحزن الذي تحمله، كان راغباً في الاعتذار عن هفوته. وفي الليل جاء هايل اليه، حلف أنه رآه، وأن الصبي طلب منه بضع ورقات ليتسلى بها، وأنه أعادها مكتوبة برسالة الاعذار والإنذار، وعندما رأتها غريبة، احتضنت الأوراق المقدسة، وأخذت تقبلها مرة وتضعها على جبينها مرة أخرى، ثم ركضت إلى أخواتها وقالت: «شوفوا! هذا خط هايل! شمو! هذي ريحتو!»، فقالت هنده إنها له، وجاءت فضة، وصباح، وثنيه. ورحن يتأملن الخط المقدس الذي يعرفن شكله، والرسوم النبوية، ولما أردن أن يذهبن إلى شمس الدين لسؤاله، رأينه يمشي اليهن، متوكئاً على عصاه، حاملاً صفحة من كتاب الحكمة خط فيها هايل من قبل، بقلمه، فصلاً من «الرسالة الموسومة بكشف الحقائق»

كانت له، تذكرها كامل جيداً، وفيها ذلك الجزء الذي يصف الله من الرسالة: لم يكن عند ظهوره أيام، ولا أنام، ولا شهور ولا أعوام...» فأخذوا الاوراق وخبؤوها بين ثياب الغائب.

شُفِيَ الشيخ بعد ذلك، لأنه استطاع اخراج النساء من حزنهن، وتبييض أيامهن السوداء، مبتهجاً لانه اقتنع بالكفارة عن غلطته، التي دهاه بها شيطان ماكر تسربل بثياب الخلود «ما الذي يبقى منك اذا لم تنجب؟ ما جدوى اسمك» كان يحوم حوله، ويحرضه. لكنه الان صار متأكداً أن ذلك كان خداعاً محضاً جذبه إلى وادي الشيطان الذي خصَّه وجود شيخ مثله، منقطع إلى كتاب الله، ينسخه ويعيد نسخه، مرة بعد أخرى، ونذر نفسه بكل ذلك لاعناً ابليس مئة مرة، مستغفراً ربه الذي هداه أخيراً إلى أن ثمة معانٍ أخرى لبني الانسان في حياتهم غير انجاب الأولاد.

شفاؤه السريع فُسِّر هنا، على أنَّه إحدى بركات اتصاله بالحدود ومعرفته أسرار الغيب، وقد ختمت جروحه في يومين، وما عاد يظهر في مواضع الشظايا أكثر من ندوب خفيه شبيهة بهياكل حشرات قشرية متيبسه.

لكنَّ صايل جاء إليه، وقال بازدراء: إن حظه طيب، إذ لو كان هو كبير آل الفضل لما وجد نفسه يشعوذ هنا، ويكذب مثل أعور الدَّجال، على نسوان قليلات العقل! فراح يهز رأسه دون أن يتبدل، وأغمض عينيه، فالتمع فيهما من الداخل ضوء ساطع قوي. ثم جعل جسده يشف، ورأى نفسه في حديقة يغمرها ضباب أخضر، وتمتلئ بملائكة بيض وزرق، وصار أحدهم يقول له: «لا تخشَ شيئاً! ولا تغضب!» وحين فتح عينيه، لم يجد أحداً أمامه، وظن أن صايل كان حلماً، أو أن كلماته كانت شركاً ينصبه له شيطان روحه الذي لا يريدُ أن يفارقه، وحين خرج من غرفته، وجد صايل يوزع أسلاباً كثيرة جلبها من أرض المعركة، وكانت هناك عدة خيول محمله بالبواريد والذخائر واقفة قرب الحائط. وأخذت صباح تراقب، كالقطه، سخاء زوجها الذي ملأ أم الجرابيع بمؤن الجيش الميت. وهي لا تعلم ماذا يريدُ من كل ذلك، أو إلى أين سيذهب، وتطلعت إلى الشيخ الناحل، تستجديه. لكنه لم يجرؤ على الكلام، تذكر عبارات صايل، متعجباً من قسوتها، وصراحتها دون أن يستطيع التأكد مما اذا كانت وهماً أم حقيقة.

تلك الليلة خرج كامل إلى البرية، تسلق الصخور ثم نزل من ا لجرف الاسود في شعب حسون، وهناك وجد ذئباً رابضاً عند القمة يحدِّقُ اليه بعينين ناعستين أذبلهما الهرم، وعبثت بهما السنوات. قال «جئت!» كان يظن أنه رسول موت. لكنها كانت أنثى، جاءت إلى مشارف أم الجرابيع، أخيراً، بعد بحث استمر سبع سنوات، وراء رائحة الرجل الذي أنقذها ذات يوم في خراب الشتوليات، كانت تحتضن جرواً مقوضاً يئن تحت وبرها، وقد أرعشه المرض، والبرد.

لم يفهم رسالتها إلا عندما تحركت قليلاً، ليرى الجسد الصغير تحت ثقلها، فاحت رائحة دم حيواني، وجروح متقيحة فجحظت عيناه، وشهق عجباً، مهشماً لحظة الصمت المرعبة التي جمدت الهواء بينهما.

بعد نصف ساعة عاد، جالباً حنا، وأدوية البيطرة، لم تكن الذئبة هناك، كان الجرو وحيداً، شبه متجمد. في سماء آب النجمية، فتحسسه البيطار بيسر، ملاحظاً تلك القروح السوداء الفظيعة التي غطت جلده الرمادي، وقال لكامل: «كمم بوزو» فقبض هذا، على الفم الصغير بأصابعه. رأيا بعد ذلك كيف كان جسد الحيوان الصغير يتلوى من الالم بسبب النار الكاوية الشبيهة بالسكاكين، التي سببها اليود لجروحه النازفه، وحين انتهى، سهرا في المكان يتسامران، بينما ظلت قبضة كامل ممسكة، بفم الجرو الذي أخذ يستكين، ويخمد مطمئناً آمناً، بعد أن زالت عنه الآلام.

أربكه بعد ذلك، وجود ذلك الحيوان الذي أثار في الصباح نباحاً طويلاً في أم الجرابيع، منذ أن شمّت الكلاب رائحته في ثياب كامل، وحنا. وراح أحدها يعوي بالمقلوب، فرجموه مذعورين من الفأل المشؤوم الذي يحمله العواء الحارق.

خبّأ الجرو في أطراف الخربة داخل جرف صخري يطل على وادي حسنة حتى جاء حنا وأخبره أنه وجد جثمان الذئبة متيبساً في أطراف غابة البطم. فقال: «يا بيطار ايمتى بيتعلم الناس هيك؟!» قال البيطار: «حتى يصيروا ذياب»

«تذكر الآن أن ذلك الحيوان الصغير الذي رعاه، جاء من بين مخلوقات الله الكثيرة كلها، وحيداً كي يشهد موته، وأنه راح يضرع إلى الله، في عواء طويل مشرع على الصحراء، وسط الخرائب التي أودت بكامل، كي يشفى. إنه هو، صاحب ذلك الفم الدافئ الرطب الذي راح يتشممه، ويرنو اليه في ذلك الهواء الثقيل الابيض ويحاول أن يوقظه من سباته العميق الشاق، بلا جدوى.

«صارت محاسن تبكي الان. انتحبت قربه، مثل طفلة. ناحت بصوت ممطوط عال كأنما تقيم له أجراً، وندبت عليه، ثم بدت غمازاتها قاتمتين شديدتي الجمال حين ابتسمت له فجأة، وأمسكت يده، وقالت: «يا شحارك!»

«ربما تغيرت قليلاً، إذ أنها صارت أكثر رزانة (وهو مما لا يليق بها) وأشد

حلماً وتفكيراً، صَفَتْ مثل القمر، وهي تحاول أن تمنحه في كل لقاء، طمأنينة، وقوساً عالية من المحبة وسويعات فرح، ونوم ظهيره بين أحراش البلوط، والبطم، والماعز»

«بعد أيام قال أبوه إنه رايح إلى فلسطين، قال إنَّ اليهود أخذوها، وأنهم ذاهبون إلى هناك لطردهم منها، وإنقاذ البلد».

«وفي المساء جاء عشرة فرسان، ثم ذهبوا معاً، مجندين بالاسلحة، والذخائر باتجاه الغرب، هناك حيث كانت الجولان تتلامح بتلالها الصامتة في الفجر»

«تلك اللحظة، رغب في أن يقول له «زوجني!» لكنه بدل ذلك قال: «خذني معك!» فربت الوالد على كتفه وابتسم الفرسان الآخرون الذين تذكر أنه رأى بعضهم ذات يوم لكنه لم يعرف أحداً منهم»

بعد ذلك بيومين قرع باب البيت، وظهر رجل في ثياب شحاذين، بدا مثل حشرة ضخمة، وقد علق على كتفيه، وفي أكمامه، وعمامته مئات الاشياء التالفه، والقذارات، والنفايات وحين تحدث كان صوته أصم ممتلئاً بالزكام، قال إنه عابر سبيل وطلب طعاماً، ثم نام بلا استئذان على الطواطي، وبدا يشخر.

راح حسّان يتأمله، وهو يلهث على ضفة الفراش مثل بحيرة. فيما كان ذلك الغريب، نائماً نصف نوم، يراقب من شبكة رموشه، شخصية الشاب الذي يحوم حوله بلا ضجة.

وفي المساء هزء نصف شبان القرية من الشحاذ، رقصوه على أنغام تنكات جعلوها مثل طبل، وأرغموه أن يعزف بحلقه، وأصابعه، مقلداً صوت الشبابة، وأن يغني.

كان ينفِّذُ كلَّ ما يطلبونه منه برضى قرد، فيركض وينهق، ويصير هرة، ويخشخش بخردواته كالكلب.

غير أنَّه، حين غادر آخر الساهرين، مضافة آل غانم، خلع عن ظهره برذعة

الجنون، وغسل وجهه، ويديه، ورجليه وسأل عن القبله، ثم صلى، وقال لحسّان الذي جمده الرعب: «تعال قربي!»

كان واحداً من النّور الذين جاؤوا إلى المنارة يوم مقتل المغربي حامل كتاب الكنوز، بدا شاحباً وجميلاً حين أزال عن سحنته كتل السخام، والوحل التي تقنع بها، وجميلاً جمال ناسك، وفيما راح حسّان يتطلع إلى الركن، محاولاً قياس المسافة بينه وبين بندقيته، وحساب الحركات المطلوبة لاتقاء الخطر، تململ الرجل، وقال وهو يغمز بعينه: «لا تخاف ما بدي شي!» ثم قرَّب وجهه من وجه حسّان وأكمل: «تخبرني وين صار الكتاب! أقول لك مين قتلك!»

* * *

(٥٩)

لم يدرِ أنَّه سار في طريق موته، فقد كان هايل محملاً بالفرح والشوق لرؤية أم الجرابيع. وقد نهض الماضي الآن صاخباً حافلاً بكل تفاصيله، حتى صارت رأسه ثقيلة، تنوء بحمل الذكريات التي انثالت عليه، كما ينثال الطحين، بيضاء، ناعمة، تزخر بالحياة.

ومنذ أن رأى ثنيه، وهو يحكي لها كلَّ ما صار. حكى ذلك دفعة واحدة، كأنما يريد ضغط أيامه، وتكويرها، لتصغر، وتصير لحظة قبالة أخته: وراء وادي الذهب -قال لها- وجد نفسه وحيداً شارداً، على صهوة حصانه، يجوس القفر الممتلئ بفلول جنود راحوا يفرون نحو الغرب، وهم يصرخون، وينادون.

حاول اختراق صفوفهم متجهاً إلى الشرق، حيث كان يسمع دبيبَ القتال وانفجارات القنابل. لكنه فوجئ أنهم حاصروه، وصاح واحد من ركاب عربة بصوت راعد مشيراً اليه. وحين اندفع بحصانه سمع رشقات موزر، ثم أنيناً خافتاً لحصان. وهوى واقعاً. كان الجواد ميتاً، وشاهد وجوه الرجال، المشدوهين الذين أذهلهم صغرُ سنه. ولكن ذلك لم يحمه من السجن. في حين أنقذته موهبته. وصارت سنوات سجنه التي أمضاها في فرنسا مكرسة للتعلم والرسم. ولكن طريقه انسدت حين صارت معارفه لعنة فاجعة جعلت غربته تطول وذاكرته تؤجل العودة يوماً بعد يوم. ولكنه جاء أخيراً، وسوف يأخذ ثنيه معه ليبحثا معاً عن آل الفضل. فهمست «روح ورا إخوتك وحدك! أني عَ بستني كامل!» قال: «ما حدا ضيَّعهم غير كنج الحمدان» فشهقت مذعورة خائفة، وصرخت: «إياك تقرب منو!»

لكن كنج كان قد عرف كل شيء. ورأى رجالهُ الخواجة الغريب الذي اخترق البلدة، ومضى نحو أم الجرابيع، وعرفوا أنَّه هايل الفضل نفسه فانتظروه هناك على درب الحمير، ليرموه بسبع رصاصات، أيقظت الذاكرة الغافية لحسَّان، وفجرت ماضيه كله.

أحس بالفجيعة، وتدفق الدم إلى رأسه، وهو يكظم حقده على رجل المنارة الذي ظل مخيماً هنا، يهدد آله، ويغتالهم واحداً بعد آخر!»

(٦٠)

بعد المعركة بعشرة أيام راحت الطائرات تغير على القرى والخرائب، ثم تندفع نحو أعماق اللجاة لترمي قذائفها، وتستدير غرباً وتختفي في الآفاق الرمادية العاتمة.

بدا أن القصف ما كان سوى انتقام، أو نوع من الرجم العشوائي الأعمى الذي لم يستهدف تجمعات الفرسان، أو مراكز القيادة التي يُظن أنَّ بهاء الدين يلجأ اليها فقط، وإنما البيوت، والاشجار، والآبار والبيادر، والحيوانات، وأقنان الدجاج.

وحين تختفي الطائرات، ويقولون أن حصتهم من الموت، والدمار، اليومَ، قد انتهت. تتابع المدافع التي نصبوها في قلعة سامي باشا، وحصون فهيدة، القصف بكل حماس. وعندها فإنَّ الفرار، والاختباء، يصبحان الحلين الوحيدين أمام آلاف البشر الخائفين المذعورين الذين يتزاحمون، ويقتتلون، أمام مداخل المغارات، وتجاويف الصخور، بلا رحمة.

ومن بين جميع أهل الارض، كانت صباح هي التي أضاعت بوصلتها أكثر، فمنذ أن سمعت نتف الاحاديث عن كنج، ظنت أن الايام أدارت لها خدها الابيض، فصنعت لنفسها، وهي تتأمل جرف الصخور القاتم، من النافذة، أدعية وابتهالات، تضرعت فيها إلى الله كي ينقذها من هذا العذاب الطويل.

لكن مجيء الطائرات، أفسد أشواقها، وحولّ تلك اللحظات الحلمية الممتلئة بالرؤى، إلى هباء، ومع كل قنبلة، أو أزيز شظايا، أو ضجيج انهدامات،

أو صراخ هاربين، كانت توقن أنّ عالمها يزداد خراباً، وكآبة. وكلما غابت الطائرات أو توقف قصف المدافع، كانت تحاول استعادة الآمال، ولكنها ما لبثت أن أدركت أن ذلك كان خرافة محضة، إذ تبرز من جديد طائرة أخرى، ترمي حمولتها هنا، أو هناك، في المنارة، أو في السماقيات، أو تُغير مُندفعة نحو الشمال، إلى أعماق اللجاة، مخلفة وراءها كيفما اتجهت، ذلك الهروب الشيطاني الشبيه بيوم القيامة.

كل ذلك كان معادياً لها وحدها. هذا ما فكرت به، قائلة أنه ما عاد ينقص تلك الحياة الرديئة، سوى لحظات الرعب هذه. لحظات انقطاع الحس البشري، والشعور بأنك آدمي، لك أن تأكل وتشرب، وتنام، دون أن تفكر في موتك، كلّ لحظة. الموت! هذا ما كانت تخشاه، وتخاف منه، وهي التي صارت تعرف أنها كانت أكثر سكان خرائب أم الجرابيع قرباً اليه، أو ارتباطاً به، وقد ولّد هذا اليقين في نفسها رغبة حيوان في العيش، وكلما فكرت أنّ شبابها كله مضى بلا سعادات، كانت ضرورات استمرارها حية، تزداد عنفاً. إذ ما الذي جاءت من أجله إلى الحياة؟ اليتم؟ أم رؤية هذه الأخت المجنونة التي تنظر اليها نظرات حقد، أو توسل أو بلاهة أو ضياع؟ وماذا تنتظر إذا ما استسلمت، إلا أن يترهل لحمها الابيض المشدود هذا، وينشف في عزلة حياتها الزوجية التي فرضها صايل عليها؟!

وفكرت أكثر: لو أنهم كانوا بلا طائرات، ولا مدافع، لكانت تنعم الآن بنهارات طمأنينة، وليالي نومٍ عميقٍ، آملة أن ترى الناس، مرة واحدة، على الاقل، في أي مكان من اللجاة، أو في القرى المجاورة، ولكن كيف؟ هذا هو السؤال الذي حول لهجتها إلى اللعنات. بحيث أنها ما عادت تقول شيئاً سوى أن تتمتم بالشتائم، والكلمات السوداء، والأمنيات الخرقاء العجيبة، بخراب كل شيء، وانتهائه، وإعادة العالم إلى لحظة البدء. إلى صفاء المغامرة الأولى، للخالق الذي، ما كان يظن، أن عباده ُيمكن أن يفعلوا بها كلّ ذلك!

ولن يمضي شهر آخر، حتى تصير شبحاً. بدأت تتلاشى، وتصغر، وتفقد من لحم جسدها كلّ يوم، بضعة قراريط كأنما هي من الشمع، أو من السوائل.

الأدهى أن أحداً لم يتتبه اليها، فقد انشغلوا بأنفسهم، وكلما سعت إلى أحداهن، أو أحدهم، كأن تسأل ثنيه، أو غريبه، أو هنده، أو الشيخ شمس الدين، أو صالح أي سؤال. كانوا لا يجيبون، أو يغمغمون بكلام غير مفهوم، ثم يقابلونها بذلك الوجوم الملغز الغريب الذي أخذت تظن أنّه كراهية ولؤم محضٌ. ثمة ما هو سري، وغامض يجعلهم يزدرونها، فتمكث على حافة جرف التساؤلات الصخرية المجدبة صارخة: لماذا؟! دون أن تقوى على الاقتراب من أحد حتى تشرح له انشغال الروح وقلقها الفظيع.

حتى كامل تعذر عليها الاقتراب منه، فالرجل بدا مكسواً بأسى نحاسي تدلى من قامته، وجعله شبيهاً باللبلاب، أرغمها على الابتعاد عنه، لا بل أن تفر منه، في حين كانت تعلم أنه لا أحد يمكنه أن يتفهم رعشات روحها، وأشواقها سواه، وقد فكرت بضع مرات بأن تمضي اليه، وتقول له «تعال. نحزن معاً!» ثم تروي له على نحو طائش مجنون، كلّ ما في دمها من اللهفة، والشوق، والحنين.

وأكثر ما رغبت فيه، هو أن يستطيع منع ظلم صايل، فذلك الرجل لم يترك لها، طوال السنة الماضية لحظة إشراق، لقد سرق سعادتها، وأحبط جميع أحلامها، وأمنياتها، واحدة وراء أخرى، الكبيرة منها والصغيرة. وكانت تود أن تجثو عند قدميه، ضارعة كي يحاول حقن أخيه بقطرة من الرحمة، والشفقة، أو يمنحه بلسماً يشفي أحقاده، أو يسكب في عقله الصاخب جناحاً من حصافته وحِلْمِه.

لم يبق لها سوى المنغصات اذن، وسوف تحملها معها بقية عمرها بلا أمل، فهل ترضى بما هو مكتوب في الألواح الربانية، وتدير صفحة الآمال نحو الوراء؟

حين وجد نفسه يتذكر كل ذلك، أدرك أنه كان رباناً فاشلاً، لقد استأثر به غياب هايل، وجعله شبه أعمى مضيعاً، يرى الأشياء على نحو مبهم، من ثقب سرابي في جدار الكون، والحياة. كل الاشياء صارت أمامه قزمية، تافهة لارجاء فيها.

لهذا السبب، لم ير أيّ شيء من عذاب تلك المخلوقة المسكينة التي ناخت هموم آل الفضل على صدرها، وأهلكتها طباعهم الفظه. وثقل مواجهاتهم، وعداواتهم، وحروبهم العجيبة، وانقساماتهم.

وفي كل مرة كان ما يحدث لهم، يحاصرها، هي، ويضيق خناق الحياة عليها.

لم يرها أيضاً، والمرة الوحيدة التي نظر فيها إلى وجهها، فوجئ بها تماماً، بدت له شبه ملاك، ناعمة، ومشبعة بفتنة بسيطة آتية من أعماق شخصها. وقال في نفسه: «أي مجنون هو صايل» حين يحرم نفسه من ساعات احتضانها، وضمها، وتقبيلها!

هذا كل شيء، وهو في كل حال خال من التعاطف، والتفهم. إذ أنّ تأمُّل جمالها، أخفى عنه أدران روحها، ولم يصدق في تلك الايام، أن هذا الجسد الرقيق الشبيه بعصفور، يمكن أن يكون قد خلق لحمل الكآبات. رغم أنه رأى كيف جلدها صايل، وكيف عذبتها ثنيه، ولكن الأحداث التالية، تكفلت بمحو ذلك من ذاكرته، وما عاد يفكر إلا في الطريقة التي ينقذهم فيها من الموت، على يد الامبراطورية التي تزحف نحوهم، بلا توقف.

وقد صار يمضي أيامه محاولاً أن يعيد بناء الأقبية الوسطى، تحت الجناح الكبير. كانت شبه صالحة، وقد ملأتها عقود الريش القوسية، وقوّتها القواعد المزدوجة الضخمة، فيما بدا له أنها كانت ذات يوم مخازن مالٍ، أو اسطبلات ملكيه. وقد لاحظ الانبعاج الغريب في العقد الخامس، وحين تفحصه أصيب بالرعب من فكرة أن من الممكن أن تصير هذه الملاجئ مدفناً لآل الفضل جميعاً، إذا ما أصابت احدى القنابل سطح الارض الهش فوق ذلك المكان بالضبط، ولهذا، فقد بنى خلال سبعة أيام قنطرة عرضية سدّ بها مكان الخرق، ورفع ثلاث قناطر وسقّفها بالحنوت الضخمة المرمية هناك، هكذا خيل اليه أنها كانت ذات يوم، وعندما أنهى ذلك كله، وقف على حافة الحائط وصاح: «غاملان! نحنا هون!»

بذلك فقدت صباح كلّ أمل، فبعد أن حسبت أنهم سيفرون نحو الشمال،

وراء أهل المنارة، رأت أنهم آمنون هنا، باقون، يرفع كبيرهم ذراعه، بوجه الطائرات والمدافع. فانطوت على نفسها أكثر، بعد أن جعلكت حلمها، وخبأته.

وفي مساء أحد أيام تشرين جاء صايل وحيداً، قعد ثم لف سيكارة، ودخنها بعمق، كان يريدها أن ترحل معه إلى أمريكا، فجحظت عيناها من الرعب. ولكن صايل لم يفهم الحركة الهلعة التي أبدتها، وظن أنَّها نوع من الدهشة، والمفاجأة فراح يشرح لها بأجمل الكلمات أبهاء العالم الجديد، قال إنهما سيسافران عبر البحر (وهي التي ما كانت قد رأت بحراً) وسوف تقلهما باخرة ضخمة شبيهة بسفينة نوح، وفي الارض الجديدة، لن يريا سوى الأشجار العملاقة، والأنهار التي يلمع الذهب بين حصاها، فيسكنان في قصر: «بدل هذي الخرايب الملعونة». سألها: «ها شو قلت؟!»

لاذت بصمت كصمت قبر، وقد بوغتت بكل شيء: فكرة الرحيل، وطريقة السرد الغنائيه، والصور الصاخبة، لكن صدرها بدأ يفور ويغلي.

توقف عن الحكي، لم يعد لديه ما يقوله، فقد أجهد عقله كماكنة حتى استطاع اختلاق كل هذه الرؤى.

هي أيقنت أنَّها للمرة الاولى في حياتها ترى أنها محرجة أمام نفسها، لقد حسمت دائماً نهجها، وسيرورة أحلامها، أما الآن، وهي التي تعرف أن صايل ما كان يحلم، ولم يحدثها بمشروع آمال، وإنما قدَّم لها فكرة مكتملة. فقد تاهت بلا انتظار. ماذا تقول؟ وبمَ ترد على الرجل الذي يزيل فُجأة جميع ضغائنه ويقدم لها كل هذه الأمداء من الآمال الضخمة، وسواسن الخيال المجنحة، وسواحل اللؤلؤ؟ ماذا تقول؟ فحين تأمَّلت صايل رأت للمرة الأولى في العمر، أنه جميل، وأن أنفه العريض الضخم الذي كانت تكرهه، هو أروع ما في سيمائه العجيبة، كان متناسقاً ومُنبثقاً من كتلة الوجه الممتلئ كالطود. ثم تعجبت كيف استطاع أن يأتي بكل هذه الرقة! هل كان يخبئها؟ أم استعارها من آخرين؟ ومع هذا فإنه لم يمهلها، كان

يرغبُ في جواب سريع حاسم، كأنما تهيأ للسفر منذ عام، ولم يبق إلا أن يقولا : «يا الله!»

سألته، حين خطرت ببالها فضة «ماذا ستفعل بدونها، اذا ما رحلا؟» فقال: «أنا ما خلفتها ونسيتها!» أصابها القنوط من اجابته القاسية، وبدأت تبكي، ولم تنفع عبارات الاعتذار التي رددها «ما قصدت»، واهلنا ما بيتخلوا عنها»

شعرت بأسى عميق، وانحنت على نفسها، وراحت تنتحب وقد ناءت بكل الأحزان التي انبثقت من الماضي، ودون تفكير تقريباً وبلا أي حساب، قالت: «ما بدي سافر!» فنهض غاضباً، مبدياً تلك الحركات الحمقاء السريعة التي تجعله بلاعقل.

لم يكن ما بينهما يحتاج لسبب كي يؤول للانهيار، ولم يكن حريصاً، كما بدا، لسبب من هذا النوع. وربما ظن بأنها قد تضع شروطاً، وتوصيات، وتطلب ضمانات، وكان مستعداً لتقديمها جميعاً، إذا ما وافقت.

«عمرك!» قال بكراهية، وقد انقلب كيانه كله، واستعاد فوراً، كما خيل اليها، شخصيته الحقيقية التي أضحت لا تعبأ بها ولا تخشاها، وفكرت للحظة بأنها كانت سترحل معه، لو تمهل قليلاً في حديقة الوعود، والفضائل التي اختلقها. أما الآن، فلا قوة في العالم تستطيع زحزحتها من هذ المكان، حدقت فيه باشمئزاز فقال «شو بك؟! ما بتريدي تخلصي من هالخربة اللعينة، بدك تظلي كل عمرك بين القبور؟ ظلي!» دون أن يستطيع اخفاء ذلك الكرب الذي اخترق دمه، وجسده كله، لانه كان قد دبر في السر كل تفاصيل الرحلة، فاقترض مالاً من الذيب الأعرج، وسأل عن أسرار تلك البلاد النائية المضمخة بسمعة الغنى والثراء، وقد جمع مادة خارقة جعلته شغوفاً، مطمئناً، متوجاً بالحلم والصبوات، وراح يقصُّ على نواف أولاً، بدأب ومهارة، ما الذي سيرونه هناك، وما الذي سيعملون به، حتى أن تلك الحكايات التي جمّلها وزخرفها، وزاد عليها من خياله، أضحت حقائق مرئية، حينما كررها أمام صباح، ولهذا بدا له، أنها كانت تكذبه، حين أعلنت رفضها.

وفُتح الباب، وسمع صوت ريح غربية تهب، أعولت وهي تعبر شقوق الخشب القديم، فتلفع بعباءته، لكنه، قبل أن يخطو خارجاً من الغرفة، سمع صباح تكلمه، مكث هناك. لكن نبرات صوتها اختلطت بهبوب الرياح، ولم يفهم شيئاً مما قالت، فأغلق المصراع المفتوح متلهفاً لأمل أخير، وسأل: «نعم؟!» فقالت بصوت أجش عميق: «طلقني!»

بدت شبه ميته، كأنها تنوي أن ترمي نفسها الآن في أتون النار، فقد شحبت وتلاشت، وراح قلبها يدق، حتى ظنت بأن دقاته سُمعت في الأسوار الشمالية. إنه ليذكر الآن، كيف رأى صايل وهو ينزع الباب بكامله، حين لم ينفتح بسهولة، ويرميه وراءه، ثم يمشي في باحة الخرائب، وهو يشتم الكائنات، ويضربُ الأرض بحذائه، ويجدف.

لم يسأله أحد عما به، لأنهم اعتادوا هياجه المفاجئ ذاك وصاروا يبتعدون عن طريقه مختفين في البيوت، أو وراء الجدران، إلى أن ضاع في الممرات. لكن صوته ظل هناك.

تمنى هذه الساعة، لو استطاع أن يذهب اليه، ويطيب خاطره، ويهدئ اندفاعه، وعذابه، ويحضنه، ويقول له: «معلش! هذه بنت عمك»

صباح أيقنت بأنَّ الفرصة الأخيرة التي طلبت من الله أن يأتي بها، قد أفلتت من يديها، ولامت نفسها بسبب تسرعها، وحين جاءت فضة إلى الغرفة، تلفتت حولها خائفة وهمست: «راح؟» فهزت لها رأسها، قالت «مثل الوحش، ظنيت انو أكلك» فضحكت رغماً عنها، بينما اقتربت فضة جادة، وراحت تتلمس لحم أختها، وكتفيها، وخديها، ويديها إلى أن اطمأنت قربها، وقد زال عن وجهها ذلك التعبير الغريب الذي كان يكتسي به كلما داهمتها نوبة جنون، وسألتها بلهجة عاقلين: «ما بتخافي تنامي بفراشه؟»

فبرمت صباح شفتها وقالت: «ما بعرف ريحة عرقه من عشر أشهر» شهقت فضة، واستغربت صباح ردها المفاجئ الذي بدا مشبعاً بأمومة قديمة افتقدتها منذ

دهر طويل. عندها اتكأت على صدر أختها وبدأت تنتحب، فيما راحت تلك تمسِّد شعرها مثلما كانت تفعل من قبل وتقبل ذلك المفرق الناصع، وتهدهدها مثل طفلة إلى أن نامت.

* *

مر التشرينان، وكانون الأول بلا أمطار، وفرَّ حمود الحسن من قلعة آل الحمدان مع عائلته كلها، ملتجئاً إلى السماقيات، وهناك قال إن كتاب كشف الظنون صار بحوزة كنج الحمدان منذ مقتل الشيخ ابراهيم، لكن حمود أقسم أنه لايعرف شيئاً عن قتلة الشيخ.

وحين وصل النبأ إلى أم الجرابيع، راح صايل يصرخ «بدي ديَّة نايل!» وهو يفرِّغ مشطاً من الرصاص في الهواء الجاف الذي كان يهبُ من الغرب.

وفي الليل لم تستطع ثنيه أن تنام، أهلكتها الحيرة والحنق الأعمى، والاحساس بالهزيمة، والخسارة. وهي ترى إلى إخوتها يختفون، أو يقتلون أمام عينيها دون أن تقوى على حمايتهم.

صارعت أفكارها الشبيهة بالضفادع، وظلت نهب رطوبتها، وانزلاق حضورها. حيث راحت تتراءى في ثياب أبالسة وجن، ولعنات، وأقدار سوداء. لكنها في الهزيع الأخير، حين نهضت لتشرب ماء، فطنت فجأة، لما رأت أنه نافذة. فعادت إلى فراشها، وبدأت توقظ صالح: «قوم! قوم!» قالت له، ثم حكت تفاصيل فكرتها.

ذهبا معاً إلى شمس الدين، فقال إنها إرادة الله، وبعد ساعة بذلت كل ما كانت تملكه من حجج وكلمات وروح أمومة كي تقنع صايل بالبقاء في المنازل. ثم قالت لكامل: «ياالله! خذني لعند بهاء الدين».

ما يزال يذكر تلك الساعة الصباحية الرائعة، حين رأى أخته وهي تغادر الخرائب وراءه، برفقة صالح، وشمس الدين راكبة ظهر جمل، ومحمولة على أملها الشامخ، ورجائها.

لقد سكن العالم، وشف، فيما بدأ برق غامض يضرب صفحة السماء الغربية.

كانت ترتعش كما بدا له، وقد فاحت منها رائحة أزهار برية، ولم يجرؤ على سؤالها عن أي شيء. ولكنه أضحى مقتنعاً الآن أكثر من أي وقت مضى، بأنَّ ثنيه كانت في جميع الأيام والسنين سيدة آل الفضل العظيمة. هل كانت مسؤوليته أم أن الله نفسه قدَّرها؟ لن يعرف، ولكنَّ الحقيقة كانت كما هي: ثنيه أمامهم جميعاً تمشي إلى حيث شاءت هي، لا كما شاء أي كائن غيرها.

في الطريق رأوا صايل، أمام مغارة سعد برفقة نواف ورأوا قريباً منه رجلاً ملثماً جذبهم هيكله العجيب، وقامته الاسدية فقالت ثنيه: «الذيب!»، ثم طلبت أن يغيروا طريقهم، «تفاولت منه» همست لصالح، وساقت جملها في اتجاه آخر، بدت حزينة ولم تنطق بكلمة طوال أربع ساعات من المسير وسط عمائر الصخور البركانية، في الطريق إلى الزباير، حيث كان يهاء الدين مع رجاله يعسكر بعيداً عن مرمى المدفعية، وعن الطرق السالكة، معجزاً جيوش فرنسا عن اللحاق به.

حين وصلوا، كانت الخرائب القديمة ملآى بالبشر الذين استقروا هنا، تحت أقواس الزمن، في الشتاء المهلهل ذي الشمس الباهتة القاحلة. ثمة أطفال يلعبون، ونساء يأتين بمناشل ماء من آبار بعيدة وراء التلال، ورجال يتبارزون بالسيوف وآخرون يغنون شروقي حزينة، ولم ينتبه أحد لوصولهم، وسأل صالح إن كانوا لا يرونهم، ثم استفسروا عن مكان بهاء الذين، فدلهم شاب صغير مدجج بالسلاح إلى برج عال محاط بمئات الخيول.

حين أمسك يدها، وهم يصعدون، رأى أنها كانت تطفح عرقاً وارتعاشاً، فاعتقد أنها عادت إلى رقة أنوثتها، وارتباكات جنسها أمام امتحان المواجهة الصعبة. خشي أن تفقد حصافتها وحماسها لعرض مصائب آلها أمام الرجل الذي ظلت تحكي عنه طوال شهور.

أول وجه قابلهم كان وجه المقداد، أحسوا بالفرح جميعاً، لأن مرآه كان نوعاً

من المسكنات التي تجعل الآخرين ممتلئين بالطمأنينة، والأمان، وبأنهم في حضرة سلامٍ شامل يتسرب كالماء من شقوق المكان. ابتسم لهم، أو أنه ابتسم لها وحدها، قائلاً: (كأنما صار يعرف أنها عشقت تلك الجملة): «أهلاً بأخت الرجال» وعندما نطق بعبارته، شاهدتْ كيف التفت نحوهم بهاء الدين كأنما أيقظته الكلمة من سبات طويل، عرفت الآن أنه يشبه عقاباً، بعينيه العميقتين اللتين يلتمع فيهما نجم أبيض غريب، وبشرته الداكنة التي لوحتها شمس الحرب، وقامته القويه التي بدت مجهزة لكي لا تفنى. تضعضعت مرة ثانية، واتكأت في حركة خاطفة على صالح، ثم استقامت بعد لحظة، وتقدمت في عمق المنزل الغاص بالرجال، والأسلحة، إلى أن صارت قبالته. فأفسحوا لها، وجلست، وجلسوا، ثم عمَّ الصمت، فتنحنحت وقالت: «يللي بيعرفوا يحاربو، بيعرفوا يسمعوا الكلام يا باشا؟»

فتطلع بهاء الدين اليها مرة واحدة. كانت أمامه بكل جمالها الحلمي، بعينيها السوداوين البراقتين كعيني غزال، وسمرتها المشوبة بصفرة رقيقة وغامضة، وزوبعة العطور العشبية التي فاحت منها، ورياح الانوثة الراسخة. فأغضى بصره، ثم تمتم ببطء: «تفضلي»..

لم تعرف ثنيه من أين تبدأ، ولكنها حين نطقت ما عادت تتوقف. وقد خيم السكون، وأنصت الرجال لأمطار الشكوى التي هطلت حكايات ملتهبة، كالبارود. جأرت بكل ما ملأ قلبها منذ سبع سنين، وروت سجل آلها الحافل بالعذاب، وسيل الدماء، والهجرات، والخوف، والذعر، واختفاء الرجال، وموتهم. صفحة، صفحة، كأنها كانت تقرأ من الغيب. بهاء الدين، ظل مُطرِقاً طوال الوقت، مستنداً بقبضته على سيفه، وحين انهت كلامها، تنهد بعمق، والتفت إلى المقداد، وقال: «وين بدنا نهرب من وجه ربنا يا بو سليم؟»

بهذه الكلمات، وسط هذا الملاذ العجيب، أيقنت أنها صارت أكثر أماناً، وأن كل شيء هنا راسخ وقوي، وقادر على تجاوز الكارثة. وأن يداً خارقة الرحمة، انتشلتها من الظلمة. سمعت تمتماتٍ وهمساً، ورأت فجأة كنج الحمدان، وهو

يقف من بين الناس، بدا مُسناً، كأنما كبر أربعين سنة، خطا، حاملاً بندقيته بيده فيما تدلى سيفه على جانبه، وحين صار عند الباب، كاد يسدّه بجثمانه الغولي الضخم، ثم سُمع صوته في الخارج، وهو يصرخ: «يا ضامن! يا كلب!»

أطرق معظم الحاضرين، في حين واصل كنج زعيقه، منادياً رجالاً من المنارة، بدأ ركض مشاة، وعدوُ فرسان، وحين خرج المقداد رآه مندفعاً نحو الغرب، يتبعه أكثر من خمسين فارساً راحت حوافرُ خيلهم تقرعُ الصخور، والحجارة، فصار يضرب كفاً بكف، ويقول: «لا حول ولاقوة إلا بالله»

كان ذلك أوّل انشقاق مبكّر في جيش بهاء الدين، وربما لم يدرك ذلك أحد من الثوار المتحمسين الذين رأوا وسمعوا كل ما صار، فحتى تلك الساعة، كان أرجوان المعركة الاخيرة ما يزال مُشتعلاً، وكانت حكاياتها ما تزال ترصع أحاديثهم ولياليهم، ونقاشاتهم، وتنمو بينهم مثل غابة صنوبر، متوجة بأبهاء بطولاتهم، والمشاركة الالهية التي تجسدت في لطف الحدود الذين أنعموا على المعركة، بقتالهم العظيم.

وباستثناء بهاء الدين، والمقداد، وبضعة رجال آخرين شكلوا المجلس العسكري، لم يجد أي واحد من مئات المقاتلين، في رحيل كنج أكثر من حماقة قاتلة، أو انتحار شخصي محض. فراحوا يطلقون الرصاص انتقاماً، ويخبون وسط خرائب الزباير وهم يهزجون، ويغنون، ويرفعون البيارق تأييداً لقائدهم الذي لم يعرفوا أنه لم يكن في حياته حزيناً، حزنه ذلك اليوم.

مَكَثَ داخل مقرِّه، لا يخرجُ منه، بينما راحت ثنيه تلوم نفسها وتقول: «الحق علي أني تسببت بزعله» لكن شمس الدين طلب اليها أنْ تكفَّ عن ذلك، تصرف الآن مثلما كان يفعل من قبل، وراح يقول إن الله أراد كشف حقيقة ابن الحمدان اللئيمة لجميع الناس فلماذا تبكي، فقالت بأنها كانت تظن بأن بهاء الدين لن يصدقها قال الشيخ: «مشيئة الله أقوى يا أم قاسم»

لم تفهم كثيراً مما يلغز به، وراودتها فكرة أن تحتفل بهزيمة كنج، في هذا

الطقس الذي يتردد فيه صدى الرصاص، وصراخ المقاتلين وسط هذا الموات القديم الآتي من أعماق التاريخ. اشتهت أن تزغرد، كما في عرس. فمنعها صالح بإشارة من يده، ثم طلب أن يذهبا ليجلسا بعيداً عن الحشد الذي تراكم قرب المقر.

عند الفجر حلمت ثنيه بأنها ترى كتاب الكشف، ومن تلك الصفحات خرج اليها نايل. وطلب منها أن تبشر الباشا بالنجاة، فسألته: «ينجو؟!» لكنه اختفى حالاً، فاستيقظت وسمعت هدير طائرة، فهزت صالح من كتفه، وقالت: «الحقني»، ركضا معاً نحو البرج، فيما بدأت مئات البنادق تطلق الرصاص نحو السماء، ارتفعت الطائرة، واخترقت غيماً ابيض دون أن ترمي حمولتها، لكنها لم تلبث أن عادت من جهة الشرق تطير منخفضة، ومندفعة كالوميض، سمعوا انفجاراً هائلاً، ورأت ثنيه جانباً من مقر بهاء الدين ينهار، فراحت تصرخ ناسية نفسها، ثم صَحَتْ، حين تذكرت أخاها بلونه الازرق في الحلم، وبشارته البيضاء، فضحكت. حتى صاروا يتطلعون اليها، محيرين بخبلها، وخرافة عواطفها! حكت لهم حلمها، وقالت: «تعالوا رح تشوفوا كيف نجا!»

هناك وجدوا بهاء الدين قاعداً في الحطام، وقد غطاه غبار، وقش، وخشب متكسر، وقصب. كان وحيداً، يحدق في المكان الذي خربته الطائرة، صامتاً، متصدعاً من الهول الذي فاجأه.

هذه المرة استطاعت أن تزغرد، وزغردت نساء أخريات تجمعن عند مدرجات البرج، وفي اللحظة التالية سمعوا هنا صوت المجوز العظيم الذي افتتح انتصاراتهم طوال الاشهر الماضية.

* * *

(٦١)

كان المكان الذي وصلوا اليه، يشبه قبراً، حالكاً، مسدوداً، ولا أثر فيه لأي وجود حي. توقفوا بعيداً، خلف تلة صخرية عالية، فيما ذهب شمس الدين مشياً إلى هناك، شوهد يختفي، رويداً، رويداً في العتمة القمرية الساجية.

وسوى شخير الخيل، ورفسها الهادئ للأرض، وصلصلة أرسانها الشبيهة بتسلل ثُعْبان، ما سُمِعَ هنا أي صوت. حتى عاد الشيخ وقال: «اتكلوا على الله!»

لقد تعلم كامل كيف يصمت طوال الشهور التي رافق فيها ذلك الرجل المسمى بهاء الدين. إذ كان الصمت رسالة الثقة الوحيدة لفرسان جوالين وسط عالم جانح مختل، وحافظ على ذلك أثناء حركته، في ذلك الرتل الغريب، وقد اختفت من حولهم جميع علائم الوجود، باستثناء تلك الكتل الكئيبة المتراصة من أكداس الصخور. ومن باب خشبي، سمعوا صرير مفاصله، برز رجل طويل يلتف بعباءة، ويتلفع بحطة سوداء.

ترجلوا عن الخيل، ونزل بهاء الدين نحو الرجل، الذي ظل جامداً، لايتحرك، وحين سلم عليه كامل، وجَدَ يدَه شديدة البرودة، ناحلة ويابسة كالمذراة، وبدا وجهه، في ضوء السراج الراعش، مثقلاً بانتظار كثيف، وَحوشي. حين جلسوا حول موقد الحطب، قال بهاء الدين وهو يمسك ذقنه بيده: «كفّرونا ياشيخ!» ثم أخرج الرسالة الجديدة التي وقعها الشيخ منصور، وثلاثة آخرون من الشيوخ.

قال الرجل الطويل: «هات احكي لي!»

فراح بهاء الدين يشرح وضع الثورة، محاولاً أن يقول الاشياء المهمة كلها، اندمج صوته في سَمع كامل، بكتل الحجارة المبنية وقطع الاثاث البسيطة الناعمة، والاخشاب، وحديد النوافذ بينما ظل الرجل جامداً في مكانه، مثل جذع ميت. ما نظر إلى أي واحد منهم، ولا تحرك، ولا تكلم.

صوت أنفاسه فقط، بنبرتها الشجية، جعلت الهواء طرياً ورطباً حولهم، وقد تقلص صدره، وصار يبدو كأنما لم يعد قادراً على حمل رأسه تقريباً، وقد ناء، تحت ثقل كتاب المرارات التي تلاها بهاء الدين.

أحس كامل بالرضى، حين تذكر أن ثنيه لم تسمع لهجة الرجل الذي اعتقدت أنه مبعوث الملائكة.

صارت الغرفة كابية، وهي تمتلئ بحزن بهاء الدين، وتلاشى ضوء السراج القرمزي، وظل الشيخ، في المزار، صامتاً ينظر إلى صفحة الكتاب المقدس المفتوح أمامه، بعينيه الصغيرتين حتى ظنوا أنه نام.

قال المقداد: «ها يا شيخ!»

فأجفل، وقال «بدنا نشرب بابونج»، ثم نهض وأشعل ناراً ووضع دلّة صفراء ضخمة، بعد أن ملأها بالماء، لاحظ كامل كم كانت قامة الرجل مستقيمة، بدا مثل قصبة، وهو يشحط حذاء مهترئاً فوق تراب الغرفة، ميَّز فيه تقاليد خاصة به، حين قعد قبالة النار، ينتظر الماء لتغلي، وأخذ الجزء الاوسط من شرواله يمسح الارض، وصغر حجمه، حين ظل مقرفصاً ملتوياً مثل هدهد. استغرب كيف أن مثل هذا الرجل يستطيع أن يبعث رهبة، ويشعل ناراً، ويضع شراباً، بينما هو مجرد هيولى، روح مجسدة في ذلك الوعر الشائك وسط الجبال.

وضع ملء قبضة يده في الدلّة أزهاراً باهتة من قطرميز كبير، رفعها، وجاء بها اليهم، أحضر كؤوساً، ثم راح يصبُّ لهم الشراب الساخن الذي تلألأ، وتصاعد بخاره إلى أنوفهم مائلاً رؤوسهم بعطره الناعم.

ما إن بدأوا يرشفون أول رشفة حتى قال «شايفين هاالمزار؟!» مشيراً إلى الغرفة الأخرى حيث يقبع قبر عال مجلل بالاقمشة «ما صار خُضر إلا يوم حارب التنين! وهذي البلاد انكتب عليها تكون بلاد حرب، من يوم يومها بيجيها الغزو. فمين بقي فيها يا خي؟!: أهلها!» أجاب نفسه «والناس أجناس منهم بيصير مثل الذيب بين الغنم، ومنهم مين بيصير مثل السمك خارج المي، أما الشيخ منصور، الله يسامحه!» «ونحنا يا ولي!» سأل شمس الدين كالمتعبد. «انتو الله معكم!»

ربما مضت قرون، لكن حسان سيظل يذكر إلى الابد ذلك الضياء الغريب الذي أشرق حوله، ابيضّ صوته تماماً، وصفا مثل رنين ذهبي وسط ذلك المنزل الغريب، الذي لم يستطع أن يجده بعد ذلك. لقد مسح تلك الجبال كلها فيما بعد، ونزل صخورها، وغاص في وديانها بحثاً عنه بعد انتهاء المعارك، ودون جدوى، هل كان وهماً؟ هل كان يحلم؟ حين يتذكر أنه لمس جميع الاشياء هناك، وأن طعم شراب البابونج المر، ما يزال يمسك طرف لسانه؟ يوقن بحقيقته، ولكن كيف اختفى؟ وأين راح؟ وهم الذين لم يتركوه إلا عند الفجر، وقد نهض لوداعهم، قال لبهاء الدين «بعرف أنك بتخاف من الله كثير! لكن يا ابني لازم تخاف من الناس كمان!» ثم ظل واقفاً هناك يراقب رتلهم وهم يصعدون التلة إلى أن صاروا في الأعالي، عندها ما عادوا يرونه.

* *

ومرّ كانون الآخر، وشباط أيضاً بلا مطر، وبدأت قوافل الجوعى تخترق اللجاة ذهاباً وإياباً، بحثاً عن الطعام. بينما أخذت تتقدم عبر السهول الجنوبية البعيدة حملة جديدة من الجيش الفرنسي يقودها الجنرال غاملان. متحاشية المرور في أحراش الصخور البركانية التي اغتالت جيش ميشو.

كانت حصافة الجنرال الجديد، قد سبقته. وعزا كثيرون اليه بطولات أسطوريةً، وحنكة عسكرية، بدت كأنها جيش آخر غير جيشه. لكن المقاتلين هنا بدوا منذ عودة بهاء الدين المظفرة من مزار الخضر، أشخاصاً آخرين، لقد انتشرت

ابتهالاته، دعواته لهم، بينهم كالماء، فصاروا عصبين على دعاية الجيوش الاستعمارية، وإشاعاتهم، وعلوم نفسهم، وسوف يسجل معاون غاملان، الكولونيل اندريا كل ذلك في كتابة فيما بعد: «إن تهور اولئك المقاتلين الاشقياء كان ينتمي إلى ا المراحل البربرية من حياة الانسان» هكذا كتب واصفاً شجاعة الفرسان الذي اخترقوا ليل ذلك اليوم العجيب في المسيفرة، دفاعات الجيش الفرنسي المؤلف من الافارقة والمتطوعين السوريين: «لقد رأيت أولئك الجبليين المتعصبين يتقدمون نحونا، وفي جسومهم عدد من رصاصاتنا، يتقدمون ليموتوا فوق أسلاكنا»

كانوا قد انطلقوا من اللجاة، ومن الجبال الشرقية منذ أن رأوا النيران فوق القمم، تحركوا من الزباير في دائرة قوسية واسعة حاولوا فيها أن يخترقوا المناطق السهلية سريعاً لمنع الجيش من التقدم نحو السويداء.

كانت القوة الرئيسية بقيادة بهاء الدين هي التي ستواجه الجيش، وقد ظلت بضع كتائب في المدينة، وكتيبة أخرى في اللجاة لحماية النساء، والاطفال، والعجائز الذين قطنوا في المغاور هناك.

مكثوا طوال الليل ساهرين، يراقبون الحركات الغريبة التي ينفذها الجنود أمامهم داخل القرية، وفي بيادرها الغربية والشمالية، وقبل الفجر سمعوا رصاصة، فاندفع المقاتلون كالريح نحو أرض المعركة.

يذكر أنه رأى وسط الهجوم، رغم العتمة، شبح حارس الخضر بين الجموع المهاجمة، كان طوله، ونحوله مميزين، بين حشد غريب من أصحاب العمائم البيض، كأنما هم أرواح سحرية من عالم غير عالمنا.

«ظلوا يتقدمون نحو تحصيناتنا، ثم راحوا يقفزون من فوقها، ولحاهم تصل إلى ركبهم، ثم يسقطون جميعاً دفعة واحدة. وقد تكوموا هناك، حيث أخمدنا، فيما بعد، آخر خلجة من خلجاتهم بالقنابل اليدوية».

رغم ذلك فإن الأرض صارت تنبع رجالاً، وفي كل هجوم كان عدد

المقاتلين يزداد، بينما راحت رشاشات الجيش تحصد الطلائع بدرزات قوسية طويلة لا تنتهي، ووراء أحد البيوت فاجأ كامل ثلاثة جنود سود، فأصاب أحدهم حصانه، كبَا به، لكنه استطاع أن يقفز عنه، ووجد نفسه أمامهم وجهاً لوجه، هناك انتابه غضب جنوني فحصد اثنين منهما بضربة واحدة من سيفه، أما الثالث فقد فرَّ راكضاً، وهو يعوي مثل ذئب.

ومن شرفة أحد المنازل، ناداه حنا البيطار، فكان ظهوره مثل وصية، وقد رمى اليه حبلاً، وراح يشده.

تسلقا أحد الأسطحة، ثم هبطا إلى باحة دار، وهناك وجدا أنهما صارا خلف الجيش تماماً، كانت سحائب الدخان ترتدُ نحوهما في اندفاعات لولبية سببتها الريحُ التي هبت من الشرق باردة قاتلة، راحت تجوب شوارع القرية الخاوية، مضرمة النار في كل شيء. ما عادا يريان شيئاً، لكن ضجيج القتال بدا كأنما صار حولهما، بدأ كامل يقول كلاماً غير مفهوم، وما عاد بمقدوره معرفة المكان الذي جاءا منه، وصار يخشى على حنا، أكثر مما يخاف على نفسه، وهو يفكر بأنه لن يعود إلى أم الجرابيع إذا ما حدث للرجل أيَّ مكروه.

انتزعا بندقيتين من جنديين ميتين، ثم اندفعا نحو متراس جنود يوليهما ظهره، كانت الشمسُ تشرق، وراحا معاً يطلقان النار بينما رأيا عشرات يركضون في اتجاههم، أحسا أن لاخلاص. وقد صار موتهما على مبعدة ذراع، بدا، فاتناً له، مثل ذلك الموت، حيث ملأ كل منهما مشط بندقيته ثم تهيأا معاً. كان غاضباً ومبدداً، وراح يقاتل من وراء جداره، بلا أي فكرة، لاحظ اختلاط الثوار، بالجنود، والصيحات ببعضها، حين ملأ سمعه كلامٌ من جميع اللغات، وراح حنا يجمعُ من الوراء فشكاً لهما معاً، كان يغيب ثم يأتي حاملاً جعبة أو اثنتين من جعب الجنود، حتى إذا صار الوقت ضُحى لفحتهما فجأة ريحٌ حارةٌ، وغبارٌ، وتقدم منهما حارس مزار الخضر قائلاً: «تعالا!» قادهما كطفلين في الزقاق الصغير المعتم الذي لم يرياه من قبل، بدا آمناً، كأنما شق لأجلهما، وقد أفضى بهما إلى البيادر

الشرقية، حيث كانت جثث القتلى تستلقي هناك بفوضى الحجارة، فقال لهما: «لاتطلعوا!»، لكنهما لم يستطيعا تجاهل ذلك المنظر الكينوني الصامت، المؤلف من أجساد بشر، وجثث حيوانات نافقه، وبنادق، وثياب مبعثرة، وأجزاء آدمية مقطعة مرمية. لم يستطع كامل تمالك نفسه، وهو يشهد هذه الوحدة المتشابكة من حصاد الموت، وكانت الكبرياء وحدها تمنعه من تنفيذ رغبته في أن يقعد هناك، ثم ينوح، ويندب مثل امرأة. أحس أن يد الحارس قد أمسكت بذراعه، كانت يداً حديدية، حملته بقوة عمياء، وجرَّته خفيفاً، طائراً وراءها. لاحظ أن بضعة مدافع كانت ما تزال منصوبة، وقد تراكمت فوقها عشرات الاجساد، فلعن ذلك الحديد الحقير الذي يجذبُ اليه كلَّ هذه الارواح، حين لمح، فجأة، شبح فضل الله بين تلك الاجساد. لا يعرف كيف تملص من قبضة الرجل المسرع، ومتى صار بين كتلة الموتى، ولا كيف قلبَ جثمانين أو أكثر، ليسمعَ حشرجةَ رفيقه الشبيهة بشخير نائم. وبلا حساب أو تفكير رفع الشاعر الذي بدا بلاوزن، وحمله على كتفه، ثم عدا به كالمجنون، قافزاً بصخبٍ منقذٍ جميع الحواجز التي اعترضته، من المجرى الشتوي، إلى حيطان البيادر، إلى جذوع الاشجار المحترقة. وكان حنا وحده يعدو أمامه الآن.

عند العصر تصاعد من أحد البيوت البعيده دخان، فذهبا معاً إلى هناك لكنهما فوجئا بوجود مصفحتين، ودورية خيالة فرنسية، كانت الدار خاوية إلا من الجنود، فاضطرا للتراجع، متخذين من المسيل العميق حيث تكاثرت شجيرات الغار والريحان ستاراً لهما. لاحظ أن فضل الله صار ينزف بشدة. وتمنى لو وجد حصاناً. لكن السهول كانت شديدة الخواء، فقال: «انقذ خويك يا حنا!» فدمعت عينا البيطار، وهو يتأمل الشاعر، توقفا، وفتشا ثياب الجريح فوجدا ثلاث إصابات في كتفه، وفخذه، ومشط قدمه، فهمس حنا: «منقدر نشعّل نار» قال كامل: «حتى لو رحناعَ جهنم»

ثم جمع حطباً وقدح حجارة وأشعل النار وقال «عجّل!» فكوى البيطار

جروح الشاعر بمدينته، بينما كان الجسد يرتجف، ويتفصَّدُ، ويتلوى مثل ثعبان.

أيقظ العلاج الناري حواس الجريح تماماً، وراقب الرجلين الحادبين عليه بعيني ريم، حتى إذا أنهيا تضميده. ربت براحة يده على جذع حنا، الذي أجفل خائفاً، وحدق فيه خالطاً الذهول، بالفرح.

عند المساء عبر قربهما رجل مسلح، قال إنه سيواصل سيره لكنه رجع بعد نصف ساعة، وذكر أن الجيش كله صار أمامهم باتجاه السويداء وأن أرتالاً جديدة تأتي عبر الطريق الأوسط.

قعد في ظلال الريحان وراح يقضم شاربه، بينما حل الظلام والبرد، تسربت اليهم أصوات بشرية، وهدير آلات، وأخذت طلقات خطاطة تخترق الفضاء كلَّ ربع ساعة مثل مذنبات.

بدأ فضل الله يئن، فخلعَ الرجل جبته، ودثره بها، «برد!» قال بشفقة، فانتبه كامل الآن لصوت الريح التي كانت تهب وتتسرب إلى المسيل قوية، قاطعة كل بضع دقائق، راح يراقب الرجل أيضاً.

ظهر القمر من وراء الجبال، ورسم حول الافق نوراً أصفر باهتاً في البداية، ثم أخذ يسطع، فبدا وجه الرجل كاملاً حين انزلق النور نحو الاسفل، إلى حيث كانوا مختبئين وراء الريحان. كان ممتلئاً، وذا أنف ضخم، ولحية غريبة متشابكة. شعر بحضوره القوي، وثقته بنفسه، وشعر أنه يحبه، رغم أن الرجل ترك في داخله استنفاراً مستمراً بوجود خطر ما. تذكر أنه رآه في مكان ما، ولكن العتمة لم تساعده في معرفة الرجل. وعند الفجر عرفه، فقال: «ذوقان!» انتبه الرجل أيضاً اليه، وقال: «كامل!». تعانقا، وراحا يبكيان، ثم قعدا معاً، يستذكران أخبار الخليل الطيبة. وقال الرجل إنه لم يعد يعرف شيئاً عن صديقه منذ أن رحلّوا شاهين من ميناء بيروت. ولكنه قال بأن كل شيء صار جاهزاً لديه، كي يسافر إلى فنزويلا، ومن هناك سيذهب إلى غويانا ليعرف مصيره.

لام نفسه وهو يسمع كلمات ذوقان، لأنه نسي في غمار الحياة عذابات ذلك الرجل المغلول وحيداً وراء البحار. «وقد نسيه الناس فيما بعد أيضاً، وكلما سعى حسّان سائلاً عنه، كانوا يخبطون جبينهم، أو يطلق أحدهم صفرة طويلة بعيدة تدل على اليأس منه»

تحركوا باتجاه الشمال، كانت وجهتهم اللجاة، حيث عرفوا بأن الجيش سيتجه نحوها، بعد السويداء، كان جميع الثوار يذهبون إلى هناك كما توقع كامل، فساروا معاً، رتلاً واحداً يتقدمهم ذوقان، ووراءه حنا، ثم كامل حاملاً فضل الله على ظهره.

ازدادت برودة الهواء، وقد خلت السماء من الغيوم. ولكن الأفق كان رائعاً، حين انعكست أشعة الشمس على قمم جبال الشيخ البعيدة المغطاة بالثلوج. فكر أنه عاجز عن هجرة هذه البلاد، وأنه يحبها كما يحب أمه، وشعر بالندم لأنه لم يرَ جمال هذه الامكنة وفردوس ألوانها، ورشاقتها، وعذوبة المشي فيها. كأنها كانت مطمورة تحت أكداس من المشاغل الصغيرة، وكأن الغزو الاجنبي ما كان سوى عبث، كشف فجأة بيتاً للنمل، كم يصبح ذلك الوكر غالياً وثميناً، وخطراً، في آن واحد! ربما كانت الصورة ناقصة، ولكنها أوحت له بكل شيء: إنَّ ما يقوم به كان صحيحاً، وصائباً، ولن يتراجع عنه، حتى لو تطلب الأمر التضحية بنفسه! ألم يمت عشرات الرجال من حوله، وهم يهزجون! أكانت شهوةً للموت؟ أم اندفاعاً للتعبير عن حب المكان! «ولكنه يا للأسى، ماتَ، رغم ذلك في غير زمانه، نعم لم يمت في معركة، ولا في اشتباك، ولا برصاص فرنسي، لقد ساقه مجنون، ثم ملأ جسده بسبع ثقوب، وتركه جثة هامده، يلتهمها ضبع!»

كانا قد سبقاه، وقد صار فضل الله ثقيلاً جداً، بعد أن خفَّت حرارته واستيقظ وأخذ يتململ، ويربك مشيته بين أحجار الوادي، فوق ذلك الحصى الناعم، راحت الخطى تتباعد بينه وبين رفيقيه. لكنهما ظلا موجودين في مساحة الرؤية، إلى أن صارا وراء تل الحديد. حين اختفيا فجأة. فأسرع خلفهما راكضاً،

راجف القلب، ولا شك بأن الله هو الذي هداه لكي لا يناديهما، فهناك بجانب جسر حجري ذي ثلاث قناطر، وبين دغل أشجار، كان حنا، وذوقان، محاصرين بفصيل من الجنود، يرفعان ذراعيهما إلى الاعلى. فأنزل الشاعر عن كتفيه، ثم خرطش بندقيته، وتسلل وراء شجيرات الغار حتى صار بإمكانه أن يراهما: أدرك أن الرجلين ضاعا، فقد كان يحيط بهما أكثر من ثلاثين جندياً كلهم من السنغال، ما أدهشه هو ذلك الرضى العميق الذي كان يلون وجه ذوقان، لابدَّ أن الرجل يظن بأنهم سيأخذونه إلى غويانا، لكن هذه، كانت فكرة بيضاء وحيدة خطرت له، ثم تلاشت حين سمع وقع حوافر، ورأى ضابطاً برتبة يوتنان يترجل عن جواد أسود، ويقترب من رفيقيه بدا رقيقاً، مغبراً، موشحاً بالنياشين والشارات. وظن كامل أنه كان يبتسم، وربما مرت سنون طويلة، قبل أن يعرف ما الذي كان يحمله ذلك الوجه العسكري الذي بدا متعجلاً، سأل البيطار مباشرة عن اسمه، وتولى جندي أسمر ترجمة السؤال القاطع، فقال هذا: «حنا البيطار!»

«ماذا؟ هانّا!!» صرخ بصوت صحراوي: «أنت مسيحي؟» سأل بوحشية، أجاب حنا: «نعم!» فلكمه على ووجهه بكل قوته *(يذكر أن حنا لم يتزحزح من مكانه، فهل كانت اللكمة ضعيفة، أم أن الموتَ قوي؟!)* وشهر مسدسه، وأطلق النار على صدغه، وهو يزعق «خائن! خائن!» ثم التفت نحو ذوقان وقال «وأنت» فرفع رأسه ومد قامته وقال «أنا درزي!» فانصعق الضابط، وراح يطلق النار على صدره، ورأسه صارخاً: «متمرد! فوضوي! سفاح!»

ظل ذوقان واقفاً ينظر إلى قاتله، وارتسمت على وجهه الضخم فكرة غامضة راحت تتشح بالقرمز، حشرج قليلاً، وسَعَلَ، مثل مصاب بالسل، ثم تهاوى خائراً مثل ثور.

«ماذا حدث بعد ذلك، لا يذكر، ولا يدري إن كان الذعر قد شله، وأعماه، وجعله ينام نوماً غامضاً قصيراً! يذكر أنه وجد نفسه وحيداً، يرمق رفيقيه المضرجين في ظلال الشجيرات، كان مهشم الروح، وسط صخور، وتلال، وسماء.

ويستطيع الآن أن يذهب إلى هناك، حيث نبش الارض طوال النهار بحربته، ودفن جثتيهما بطريقة ناقصة وسرية، وانتظر قربهما حتى جُنَّ الليل.

وسوف تمضي الأيام، والشهور دون أن يفارقه وجه الرجلين، كان حنا غاضباً، مدور الوجه، وقد طفح بالنمش البني الذي لم يلاحظه من قبل، بينما طالت قامة ذوقان أكثر ولا يدري الآن إن كانا حقيقيين فعلاً، أم أنهما مجرد فكرة اختلقها عقله المحارب، الذي سيرغمه على البقاء مع بهاء الدين، في أوقات التخلي الرهيبة»

مشى بعد ذلك في السهل وحيداً، متحاشياً الوقوع بين تجمعات الفرنسيين التي لاحظ أنها كثرت، وازدادت، وقد حثه هلع جعله يظن أن وراء كل الاشجار جنود، وكمائن، صار جريحه غالياً غلاء روحه، وقد غمرته مشاعر أبوة تجاهه، وصار يهذي، مفكراً بمَ سيقول لأهله الآن عن موت حنا، وبدأ يسمع قصفاً شديداً آتياً من جهات الجنوب: «سمعت؟» قال لفضل الله شبه الميت: «هذا بهاء الدين، هذي رصاصاتو، أكيد عَ بيقصف الجيش، موجوع؟! اصبر! أني موجوع كمان، ولك والله مش عارف ليش لاحقتني المصائب؟». . . «لايهمك، بعد نص يوم منكون بالخربة» كان يحس لزوجة الدماء أو جفافها على ظهره العرقان، وهو يحمل الشاعر ويحدثه عن أوجاعه، وفي آخر الليل صارا قريبين منها، فقال «وصلنا! . . بدك تسألني كيف عرفت، بسيطة بعرف من الأرض وبعرف من الهوا القديم فيها، لها ريحة خاصة، ولون جاي من بطن الارض، لون غروب يا بو منصور، حزين يعني. أخ يا ربي شو ساوينا؟ . . مرتاح؟! ولك والله كأن أجدادنا كفروا بالدين حتى يجازينا الله بذنوبهم. لكن بعرف أني! طيبين كانوا، بس مشتهي ابكي شوي قبل ما نوصل! بتسمح لي؟

ماذا قال لذلك الرجل الذي ما كان يسمعه؟!. كل شيء تقريباً، حدثه عن آله كلهم، وعن اخوته. وقال له إن الولد شامل خرج عن طوعه، وراح وتطوع مع الفرنسيين «العمى! تصور!» وأن صايل طيب. . مجنون، لكن طيب، وحكيت له

عن كنج، وكيف يصير الكنج كنجاً، وأن الناس ينسون، لاذاكرة لهم، لهذا يندمون على أنهم تركوه يصير كنجاً، فإذا مات، قاموا، ونصبوا غيره وقالوا له: «صير كنج!»

بَرْدُ تلك الليلة لا ينسى، كانت مقمرة، وجليدية، وهبط الصقيع إلى الارض، فبدأت اسنان فضل الله تصطك، دثره بكل ثيابه، لكنه ظلّ يرتجف. وأمعن الكون في بياض صقيل ناعم أخذ ينفذ إلى لحمه، ويدق عظامه بخفة، في موجات ارتعاش قصيرة، وقاطعة، أخذت تطول كلما ازداد بياض الارض، جرى بجريحه، مغامراً بكل شيء. سوى أنه حين صار أمام الممرات، شعر بالدفء، حجزت الصخور الكبرى، الممتلئة بالضياء، البرد عنه، فتمهل في سيره، ثم بدأ يغني، أحس أن روحاً كونية خفية أخذت تتبعه، فمدّ بحرَ صوته في الليل.

* * *

(٦٢)

بعد أربعة أيام عادت سمرة إلى المنارة، كانت البلدة خاوية تماماً، إلا من كتيبتي فرسان مراكشيين، وشراكس وبعض المتطوعين الذين وصلوا إلى هنا قبل الجنرال بأيام.

نظفت بيتها، وأرسلت زوجها الجديد حسن الناطور إلى السماقيات، ليشتري كلساً، طرشت به دارها، حتى صارت بيضاء كالحمامة، تفوح منها رائحة خردل، وطحين جديد بعث به كنج، وأطعمة، أرسلها الجنود.

لكنها لم تنم هناك أكثر من خمس ليال، فما أن أضاءت المصباح، مساء الليلة السادسة، حتى انبجس أمامها، مسخٌ بشري قصير القامة، أزرق، مشعراً مثل عفريت، كان يتكئ على الحائط، مائلاً جهة اليسار. يختلس منها نظرات ضبع ويشهر بيده مدية، عرفت حالاً أنها سلاح موتها.

قال حسن إن سمره، رمت الرجل بقطعة ثياب كانت تحملها، واندفعت نحو النافذة في خيلاء المنتحرين، هاربةً من النهاية الملفقة الغريبة التي كتبت عليه، محاولة العبور الى مفازة النور الضئيل المتسرب من بقية النهار.

قال إنه لم ير كيف أمسك بها قاتلها، لأنه رآها تشهق، وتفتح فاها، كالجمجمة، وقد طحنها ألم مرمري قصير، ولطخها دم، وقد تقطعت شرايين رقبتها، ثم سقطت على الأرض الحجرية بلا حراك.

هذه هي روايته كلها عن مقتل سمره الفياض على يد الذيب الأعرج. وقد

جحظت عينا الكابتن بورون، وهو يستمع في قصر المطر إلى رواية حسن الأحدب المحزوز في وجهه برفسة بغل، وراح يمزق أوراقاً كانت بيده.

وفي القلعة خيم حزن على كنج، وأمر ضامن والمرابعين أن يدفنوا القتيلة، ومضى بعد ذلك إلى المنزل الابيض، تلحق به ثلاثة كلاب ضخمة دربها منذ مجيئه من الزبابير. لاح برأسه آسفاً على المرأة الزنبقية التي عبقت رائحتها في ذاكرته. راحت الكلاب تهرُ وهي تشمشم بقية الحضور الانساني الراحل.

وحين عاد إلى القلعة أحسَّ أن المكان صار ضيقاً، وأن الحقيقة الوحيدة فيه، هي الحطام. وَغضِبَ غَضَبَ موت من اللعنة المسماة الذيب الأعرج، وصار يصرخ من أعلى أسواره، حتى ظنوا هناك أنَّه جن.

وفي المساء طلب أن يأكل، وقال: «هات لي بيض وسكر» فتطلع العسّال اليه، فقال: «إي، ما هيِّ الحياة مثل هيك؟» هزَّ ضامن رأسه وقال: «لازم يا بك تهتم بأمور ثانية غير موت عاهرة!»

حدق فيه، فأضاف: «لا تزعل مني!.. بس أنت مش شايف انو ما ظل عندنا أكل يكفي؟!»

كانت فكرته أن المؤن ما عادت تكفي لأكثر منهما، ومن النساء، وبضعة رجال يظلون يحرسون القلعة. أما بقية المرابعين فما عليهم سوى تدبير شؤونهم في هذه السنة الجدباء.

استغرب اهتمامات الخولي التي لا تُنسى أبداً. شعر بضعف تجاه لعبته الجديده، وأغراضه. حين عرف أن ثلاثة أرباع الأرض راحت خساره، بسبب انقطاع المطر، وموت البذور فيها، أو يباس الزرع الذي نبت ولم ينمُ..

أبدى الخولي اشمئزازه من مرابعي القلعة الذين لا شغل لهم سوى قضم الخبز. فسأل كنج غاضباً إن كان يريدُ طردهم لكي يذهبوا إلى بهاء الدين! فقال «تمام!» وأوضح فكرته، بأن الجيش يحميهم الان، وأن عشرة رجال يكفون هنا

داخل القلعة مع عائلاتهم، أما الباقون فعلى بهاء الدين أن يبتلي بهم!

حدق كنج في جثمان الخولي الرقيق الاصفر، وقال «يا الله! أين يمكن أن يبطن كل هذه الافكار المخلّصة؟» أشار له بيده وعندما اقترب منه، ابتسم، وقال: «اطرد مين تشاء!»

خوت القلعة بعدئذ من البشر، ولم يبق في العمارة العظيمة سواهما، وقد رحل المرابعون متوجهين نحو اللجاة، في قافلة طويلة على ظهور الدواب، وهمس كنج في سره وهو يراقب اولئك الذين جاؤوا معه حين تخلي عن الثوره: «الله يلعنك يا عسّال!» أدرك أن الله كتب عليه أن يظل وحيداً، ولكن ما لا يفهمه هو، لماذا سلط عليه هذا الرجل، ذا الوجه الجنائزي المتحالف مع الشيطان حتى يظل يسقط بلاتوقف نحو الهاوية، منفصلاً عن ذاته، ممعناً في عزلته، يضيع في متاهة!

بدت السهول الوعرة، غارقة في غلالةٍ سميكةٍ بيضاء من دخان حرائق بعيدة، وكان المساء صاخبا، تعوي فيه كلاب شاردة، وثعالب جوعى. في مثل هذا المساء حملها بين ذراعيه آخر مرة. قاومته بعنف، وكانت غاضبة. غير أنها تأوهت، واستسلمت فراح يدور بها، بين الصخور، وسط البرية. حتى صاحت «يكفي! يكفي!» كان جسدها ينبض بنض عصفور، وقالت «اتركني!» ثم سوت ثيابها، وربطت شعرها بمنديل أبيض، وانتعلت حذاءها كانت قدماها كبيرتين. وقد استغرب كيف أحبها، رغم أن قدميها كبيرتان! لأنه لايحب المرأة ذات القدمين الكبيرتين، ومع ذلك فقد داعبهما مراراً، فذلك ما سمحت له به، فقط. كأنما كانت تحاول قهره، وإرغامه على حب ذلك الجزء التافه من جسدها. «فُزت يا بنت عثمان!» ناداها، ثم أغمض عينيه سعياً لاختبار لحظات أخرى أكثر جمالاً. إن حواسه كلها استيقظت الان. بدأ يكدس ذكرياته، ويستعيد نكهة الحياة الماضية التي ولت. نكهة طيبة. مملوءة بالسكينة والدعة، بالساعات الفارغة.

قفز إلى ذهنه ابراهيم أخوه «ليته ظل حياً» إذ لم يورثه سوى الهموم والمتاعب، وهؤلاء البشر الملاعين، الذين عاثوا في رزقه كالذئاب، وخانوه

كالثعالب، لماذا لم يترك له سوى الكراهية التي ورثها عن آل الحمدان، حتى تقول له صباح، وهي آسفة حزينة: «بينك وبيني جبل من البغض!»؟!

قال لها: «ننساه»

فقالت: «الناس بيكرهوا بعضهم بساعة، بس بظلوا كل العمر من غير ما بينسوا!!»

«رَحْ تشوفي!»

من أجلها وحدها انشأ تلك الصداقة مع كامل الفضل، لكنه كان يخدع نفسه، وحسب، إذ أنه سلَّم عدوَّه أكثر أسرار حياته أملاً: كتاب المغربي السري، وخرائط الوعر الواعده بالكنز!

الآن ماذا سيقول لها إذا رآها؟! صدقت مثلاً! لكي يضفي نوعاً من الشرعية على الأحداث التي تلت؟ ماذا سيحدث؟! قال لنفسه وهو يرشف فنجان القهوة من يد العسّال، ثم يتكئ قرب موقد الحطب حيث كانت جذوع الحطب تشتعل وتتوقد، «لا شيء، لقد انقسمت طريق الحياة، وصار عليه أن يفكر في مئة عدو. أخرهم بهاء الدين الذي لايعجبه أحد، لا كاربيه ولا موريل ولا غاملان ولا سراي نفسه، من يريد اذن؟ صالح الحراني؟ ذلك البغل المتزوج من فاجرة آل الفضل؟ أم الذيب الأعرج؟! إلى جهنم به وبهم، هتف في نفسه ضد بهاء الدين، ونهض فجأة وصرخ بين ذهول ضامن، وشروده: «حرر بلادك إذا قدرت يا باشا!»

كان هناك في البوابة خمسة فرسان من الجنود، بينهم مدني لم يستطع تبين وجهه ولا معرفة شخصيته، صعدوا إلى مضافته وألقوا التحية، كان وجه الرجل حليقاً، ونظيفاً، وقال إنه رسول غاملان، وأنه يطلب موافقة البك، لمنح الدولة أرضاً كي تمدّ السكة الحديدية!

لقد أسهب في شرح فوائد المشروع الذي كان الجيش ينفذه. واقتصرت شروحه على ما هو عائدٌ لكنج وحده، ولم يشر إلى أهداف الجيش سوى مرة

واحدة، حين قال: إن لجوء فرنسا إلى تلك الوسائل القديمة في نقل الذخائر، والمؤن، هو المسؤول عن الجريمة التي وقعت بحق القوات.

داعب ذقنه الخشنة، واشتهى سيكارة، لكنه آثر أن يظل ساكناً صامتاً، وحين أنهى رسول القوات كلامه سأل فجأة: «ها! ماذا قلت؟!»

ما كانت لديه رغبة في القول، لكنه أيقن، بخبرته، أنهم هناك يريدون كلمة «نعم» وهو نفسه، ما كان قادراً على قول: «لا» رغم أنه أراد أن يفعل مثل ذلك، بنوع من الرغبة في تحدي الجنرالات الذين سيشطرون أرضه الآن، من أجل تحطيم بهاء الدين فقط، شعر بالزهو، لأنه صار يفهم اللعبة.

أخيراً، تنحنح، وقال: «خبر الجنرال إنَّ ارضي كلها ملك لامنا فرنسا» كان قد حفظ نصف الاجابة من لغة جان دوتي، وأدرك أنه أحسن استخدامها، وعندما غادر الرسول بيته، تنفسَ الهواء من فمه، ومنخريه، حتى انتفخ صدره، ثم قال: «يا عسّال، صارت أمنا غولة!»

سكة الحديد دُمِرَتْ بعد أسبوع قبل أن تصل إلى سهل الزرازير، لكن اليوتنان ميشيل بونابرت، خبيرُ السكك، تفحّص آثار الخراب، وقال: «لا بأس، إنها قطعة تالفة في الاصل!» وقد زادوا عدد الجنود المكلفين بالحراسة، وأعادوا ترميم الجزء المدمر، ثم واصلوا الاندفاع نحو السويداء.

جنَّدَ كنج خمسة وعشرين رجلاً من عدة قرى لحماية الورشات. فشكل هؤلاء قوة ردع سريعة، استطاعت أن توقف هجمات الثوار خلال أشهر الشتاء، وقد أبدى الجنرال اندريا، الذي صار قائداً للقوات استغرابه من عدم انتقام بهاء الدين من كنج؛ فصار هذا يضحك. وأوضح له أن الرجل لايطلق الرصاص على أبناء وطنه»

كان مؤمناً بأن ما يفعله، هو خدمة جليلة لأبناء وطنه أيضاً! حين يحاول امتصاص ثورة بهاء الدين، وافراغ تمرده من المعاني التي يحاولون اسباغها عليها،

وقد ازداد حماسه ضد الثوار واندفاعه للتهدئة، حين صار يرى كيف ينتقم الفرنسيون، كلّ مرة من العمليات الصغيرة المباغتة التي يشنها الثوار: كان الجيش يدمر القرية التي تخرج منها رصاصة واحدة، وقد فعلوا مثل ذلك بالحي الجنوبي من المنارة، بسبب طلقة واحدة أطلقها أحد رجال كنج على ضبع، وبعد أسبوع صدر أمر بمنع حمل القداحات إلا برخصة من الجنرال نفسه، بعد أن أشعل ثائر متسلل النار في خيمة الجنود، حاول كنج تخفيف العقوبات دائماً، بلا جدوى وصار يقول إن بهاء الدين يريدُ إهانته وحده، لا مقاومة فرنسا.

ولكن كلما امتد الخط الحديدي امتاراً، ازدادت الحرب دموية، وراح الجيش يقاتل كتائب من الثوار تفرقت وانتشرت في جميع أرجاء المنطقة من أقصى الجنوب إلى أعماق اللجاة.

وحين وصلت القوات إلى نبع المزرعة أصيب اندريا بالهستيريا، كانت آلاف من جثث الجنود ما تزال هناك مرمية في القفار، معراة، مأكولة.

وفي فناء القلعة التركية القديمة، رُصِفَ الموتى، مثل حبل، مثل تعاويذ، وعلى الحيطان، حولهم، انتصبت مئات الحراذين، وراحت تراقب المشهد الجنائزي، المبقع بظلال أشجار سرو ضخمة، محاولة معرفة أيّ شيء عن هؤلاء الذين كانوا قبل ستة أشهر فقط، يدقون طبول حرب هنا، ويذخرون ببريق الانتصارات العديدة، للأم البعيدة.

لا فائدة، فقد محت الرياح، والحر، والامطار القليلة التي هطلت، والذئاب، والضباع، والكلاب الشاردة، والعقبان وجرذان الحقول، كل الآثار. وما تركت سوى عظام مغطاة بأسمال رثة، متآكلة، حالَ لونها، واختفى بهاؤها الأمبراطوري القديم واسودت العربات، والمدافع، وخشب الأخامص، وتقشرت بلا رحمة.

بعد ساعات كانت كتائب الجيش تطوق خمسة قرى بحركة التفاف ليلية صامتة، حتى إذا أشرقت الشمس أخذ الجنود يقتحمون البيوت بصخب المنتقمين،

وراحوا يطلقون النار على كل نأمة حياة، وهم يصرخون، وقدا رتدوا ثياب مومياءات كئيبة، وسحرة، وأقنعة عفاريت، وفي دير الحليب ارتكبوا مجزرة هزلية، حين قتلوا ثلاثة رجال، وطفلاً، وبضعة حمير، ثم دفنوا الجميع معاً، وفي كل مرة كانوا يعودون إلى معسكرهم في ا لمزرعة، إذ أن الجنرال كان يقول بأنه يريدُ وضع حد للخرافة التي قالت بأن الفرنسيين لن يجرؤوا على المرور من ذلك المكان.

فيما بعد حاول أن يضفي على الحملات الانتقامية، والوحشية البدائية، رداء قرنفلياً في كتابه الذي ألفه، حين ملأه بعبارات التكريم لجنوده، وضباطه، ناسباً شريعة القتل لبهاء الدين وحده.

بدأ الدخان يتصاعد من أربع قرى، وشبت ألسنة النيران وسط الامداء الزرقاء، برتقاليةً غاضبة، وقد تسبب هبوب الريح في اندفاع كتل بلورية هائلة من الدخان، نحو الأعالي، في حركة دوران شاسعة راحت تحجب الجبال، والتلال وتضغطها، وسط العالم الغريب.

أسروا أكثر من مئة رجل، معظمهم من الفتيان، ومن كبار السن ووضعوهم تحت إمرة جندي أسود ضخم، امتطى حصاناً كبيراً وراح يتجول بينهم. حيث أمروا بوضع العظام الشاحبة، في أكياس بيضاء، ولفها بالبطانيات. اختلطت مرة ثانية الكائنات بعضها ببعض أحياء، وخيل، وصخور. بموتى من البشر والبغال والأحصنة. وبدا الجندي ذئبَ انتقام نهاشاً، وراح يسوطهم بالجلد الطويل بين يديه، كأنما كان يرغب بسلخ قلوبهم مع اللحم، وهم يقولون: «ما هذا العبد؟!»

بعد ساعة جاءت ثلة من عسكر مزركش تتقدم، كانوا يحيطون بالجنرال نفسه الذي بدا فاقع الالوان يخب بعنف منتصر استطاع أخيراً لمَّ رفات جنود دولته.

وقف سليمان النجيب بلا عمل حين رآه، فراح العبد الاسود يصرخ به كالمجنون، ويهوي على ظهره بسوطه، لكن الرجل الذي تجاوز السبعين من عمره

ظل جامداً لا يريم. أمروا الجندي أن يتوقف، وتقدَّم الجنرال من الكهل وخاطبه بالفرنسية كلاماً طويلاً، بلهجة بدا عليها الغضب. فقال سليمان للمترجم الذي أراد أن ينقل الكلام: «وقف، قل له خليه يحكي عربي!»

فقال المترجم: «إنه لا يعرف!»

قال: «قل له، إذا كنت ما بتعرف لغتنا شو جيت تعمل في بلادنا؟»

قال الجنرال المندهش: «جئت أعلمكم لغتي!»

فأشار الشيخ إلى سوط العبد الاسود الذي كان يلوح به فوق رؤوس المسخرين وسأل: «هل هذه هي؟!»

ارتعش اندريا. وعبس في وجه الرجل الذي حَدَّق فيه بعينين عميقتين مثل كأس، ثم عضَّ شفته السفلى، واستقام وقال: «إذا كنتم لا تفهمون إلا بها.. فهذه هي»

تأرجح المترجم على جواده، قبل أن ينقل العبارة إلى سليمان، فأغمض هذا عينيه، وظل واقفاً في الظل الهادئ لخيل الغزاة، ثابتاً، مكشوفاً بلا حراك.

«ربما مضت سنون قبل أن أنسى تلك الحركة البارعة التي قام بها، حين استل سيف الكابتن زهران المخيف، واندفع بخفة قطّ بريّ نحوي، تطايرت جبته في الهواء، وبدا لي أن الموت صار قربي»

هكذا وصف اندريا هجوم سليمان الصاعق «ولكن الرصاص الكثيف الذي انهال من بنادق المرافقين، وعناية الله، وحدهما انقذاني منه»

كان الضحية هو الكابورال السنغالي جان زاموتو الذي قطعه السيف نصفين، فظلَّ بضعَ ثوانٍ يحدّقُ فيما حدث، كأنه لا يصدق، قبل أن يسقط ميتاً تحت حوافر الخيل.

أخذ الجنود يفرغون رصاص بنادقهم في جسد النجيب ثم نزل الجنرال عن

صهوة جواده، وتقدم من الجسد المنهوش المدمى، وقال لمرافقيه: «لا أذكر أن واحداً فعل ذلك منذ واترلو»

لكنه بعد ساعات جرَّ إلى المكان نفسه أكثر من مئة رجل طاعن آخرين، جلبهم الجنود عنوة من القرى، وراح اندريا يتابع العمل بنفسه مجبراً المسخرين على الزحف شمالاً، في أنساق متتالية فوق حصباء شاسعة من الحصى والحجارة والتراب والأغبر. وفيما بعد قال إن المدنيّة وحدها هي الفرق بين مقاتلين يتركون الضحايا نهب الحر والطيور والوحوش، وجيش يلمّ عظام موتاه، كسرةً كسرة!

لكنه عند المساء، عندما كان ما يزال يراقب الرجال وهم ينقبون كالجراد متون الصخور، وجذور النباتات، بحثاً عن العظام. رأى أحد رقبائه يُقْبِلُ برفقةِ فارسٍ من المتطوعة، كان مدمى، ممزق الثياب، وقال إن بهاء الدين أسر فصيلاً من الجَنود، وراء دير الحليب، وهو يرسل اليه شروطه: الافراج عن المسخرين، مقابل الفصيل!

طأطأ الجنرال رأسه، وقد أهلكه النبأ، وقال: «حسناً لقد انتهى سلامنا!»

وفي الصباح سرَّح جميع الرجال بلا استثناء، ثم انتظر، وفق شروط قائد الثورة، جنوده الذين وصلوا عند الظهر، وما أن لاح أول القادمين حتى أعطى أوامره بالتقدم نحو الشمال: «الآن بدأت حربي معك» خاطب بهاء الدين سراً في نفسه، مقسماً أنه لن يعود قبل أن ينسف هذا الضباب الكثيف الذي ينشره عدوه.

ومع هذا، فإن منظر السهوب الجرداء المكشوفة، جعل جسده يرتجف، وهو يتذكر سلفه ميشو، ويمسح، بصبر، ذلك المدى اللا نهائي من طوابير عسكره الذين اضطرتهم الارض البركانية مرة أخرى للسير في أرتال طويلة، مثل سرب سخيف من النمل!

عند الضحى لوَّح لهم من أعالي الخرائب الموحشة بدوي وحيد وهو يصرخ كالعقاب، وأعلم الجنرال أنَّ بضع شراذم من قوات بهاء الدين تتجول في الوعر منذ الصباح، وقال إنهم أخذوا نصف قطيعه، وذهبوا به!

كان الرجل موشماً مثل شجرة عتيقة، وقد انخطف لونه وتعفرت جدائله، وراح يندب أغنامه الضائعة، ندب ثكلى، أمام عسكريين غرباء، تحلقوا حوله يتأملون طقسه الحزين، بفضول سائح.

وخشية المباغتات، حرك جنوده نحو الميمنة، والميسرة، رغم صعوبة اختراق الوعر من هناك، لكنهم لم يروا شيئاً، سوى فلول أغنام ترعى وسط الفسحات المترمدة القليلة.

تقدم كالنسر، ناشراً جناحيه، خطوة خطوة، صامتاً في انتظار رهيف حذرٍ لعدوه الذي اختفى في الهالات اليابسة.

في ذلك اليوم كان بهاء الدين يقظاً، وقد شمخ رأسه بوجود أولئك الشوام الذين أحاطوا به، واندفاع الزعيم البدوي كبير الوجه، المزين بكل الشارات قربه، وكان يقول يا رمضان وجهك سعد ان شاء الله.

هبت ريحٌ وحشية محملة بصقيع القُطب، حين خرجوا إلى سهل شاحب وسيع مليء بحواكير مسيَّجة بحيطان حجرية لا شكل لها. وهناك كانت المئات من أشجار الزيتون، والبطم، تبرز مبعثرة، منثورة، بفوضى آسيوية مفرطة، فتمتم الجنرال: «أي شرق هو هذا» وقد أدرك أن حبائل المكان كانت ألعن من مصائد الوعر البربري.

بدأ بضعة فرسان يطلقون النار من خلف المتاريس الحجرية وسمع من يسأل خلفه: «هل يمزحون؟!» فلم يجب، وأمر أن يقصفوا بالمدفعية، وهو يتساءل: «أي قائد هو هذا؟» لكن الوقت لم يطل به كي يتأكد من سؤاله، فقد اخترق الثوار مؤخرة جيشه مرة ثانية. وانفصل الطابور مثل حية، وراح الجنود يصرخون هلعاً من اندفاع الفرسان الذين شقوهم، واختفوا خلال دقائق في الوعر.

ما كان بوسع أحد أن يفعل شيئاً، وأيقن الجنرال الذي تلهى بالرجال في المقدمه، أنه عاجز عن تقديم العون. فقد اشتبكت قواته وسط الاخاديد، وسبائك

اللافات، وصار مستحيلاً عليه اختلاق معركة مناسبة له. فالارض، وعناصر الطبيعة، والتوقيت المسائي، انحازت إلى صف اعدائه، فبدأ يصرخ: «وجهوا المدافع إلى الوراء» لكنهم لم يستطيعوا اطلاقها إلا بعد غروب الشمس، حيث كان قد اختفى جميع الثوار. . لكنه مع ذلك قال: «لا تتوقفوا أبداً»

ظلوا حتى منتصف الليل، لكنه في الصباح، حين ذهب بنفسه لمعاينة المكان الذي شهد معركة الأمس، لم يرَ آثار الضحايا، وباستثناء خمسة عشر قتيلاً من جيشه، فإنَّ الصخور البعيدة التي شطفتها القنابل، أو بعثرتها، كانت نظيفة، وتفيض برائحة الصباح الندي، والبارود الأخضر.

بعد ساعة عرف أن واحداً من جنوده البارتيزان قد اختفى، أقسم السباهيون أنهم رأوه يقتل هناك وراء الأكمة الصخرية، وأنه تدحرج نحو الاسفل سريعا، وقد فتش المكان كله، فلم يجدوا جثته، ولا آثار دمه، اختفى حصانه أيضاً كأنما ابتلعته الأرض.

* * *

(٦٣)

«بدأت يده ترتعش، وتأرجَّح قليلاً على عتبة المطبخ الكبير في السُّكرة الشمالية. وكاد يسقط من مكانه، حين أيقن أنَّ ذلك الجندي الطويل البطيء الذي أطل عليهم بحصانه الوردي، من امتداد الكثبان النحاسية التي صبغتها الشمس الغاربة، ما كان سوى شامل الفضل!

تذكر أنهم اختطفوا جثته، وأخذوا حصانه، وذخائره ثم مضوا به إلى الخربة.

بدأت محاسن تمسح جبينه العرقان وتواسيه، وهي تبكي بلا إرادة محاولة أن تدفع ذكرياته إلى برك النسيان، أو أن تلألئ ضفاف حزنه، برخام العزاء. لقد انقضى كل شيء، ولن يعود من جهات الماضي أبداً. عانقته، فدفن وجهه في موائد صدرها الكبير، ممتلئاً بيأس دفين سبَّبه له الاكتشاف البغيض الذي تدلى من ميناء الذكريات.

أكثر ما أثار غضبه، أنه لم يبك، توقف أمام الرجل الطويل الميت وسط الاحواض الصخرية يتأمل تلك المقادير التي وضعتهما الآن الواحد أمام الآخر»

كان شامل قد امتلأ قليلاً، واستعاد عافية آل الفضل وطراز أجسامهم. ارتفعت أرنبة أنفه، وانتفخت أصابعه، ولم يكتسب من الفرنسيين سوى بياض شاحب، أظهره مثل عانس حزينة لا أمل لها.

أجهش بلا جدوى، فقد نشفت دموعه، ويبست عيناه اللتان ما عادتا تحفلان

بالموت، لكثرة ما رأتاه في الطريق طوال السنوات الماضية، ولولا مجيء رفاقه، لما تزحزح من هناك قال أحدهم: إن الرجل القتيل كان يريدُ قول شيء لهم، ولاأحد يعرف كيف قتل. فقال كامل بصوت خشن سري: «هذا خي!».

*   *

«هالمرة جبت خيك يا بو محمد!»

قالت له ثنيه وهي ترى أخاها الميت المسجى على صهوة الحصان صرخت البنات الاخريات، فراحت الاشياء تضيعُ من حوله، وقف الأولاد يحدقون بعيون متآكله مذعورة، وهم حفاة، نصف عراة، في أمهاتهم، وعماتهم، وخالاتهم وهن ينشرن في عماء الخرائب والوعر صراخهن العاصف الذي اندلع فوق حصباء المكان المتحجر، ما كانوا يعرفون القتيل، لكن النواح جعله مجسداً، وحاضراً، ينقشُ هناك على الأوابد، شارات أخرى غير تلك التي نقشها هنا. حين كان قاعداً يحتسي الخمر.

سمع ثنيه تندب، ولم يعد يذكر شيئاً من كلماتها، ولكن لحنها الغريب سيبقى يتردد داخل جمجمته نفسها إلى الابد، بايقاع أزرق ممتلئ بالصدى.

دفنوه قرب نايل، بعد أن صلى عليه شمس الدين، وصالح وخمسة رجال من الثوار الذين جاؤوا معه، (كأنما كان حلماً من الحروف المحضة) هكذا تذكره الآن.

لكن ثنيه بدأت تنهار، منذ ذلك اليوم، مثل قلعة. حجر وراء حجر، وأخذت تشحب، وتفقد شهيتها، وتدخل في خريف عمرها بعجلة. رفضت الكلام مع كامل، ولم تستمع إلى روايته، وهو يحوم حولها محاولاً بكل وسيلة أن يشرح لها ما حدث.

كانت صباح، وغريبة، وهنده، وفضة يراقبن حركاته، أشفقن عليه من لعنات أخته. فرجَوْنها أن تصفح عنه، وهي تقول: «ما بقدر!» كانت ترى غريباً

حين تنظر اليه. كأنما يحمل قلب ذئب، وقد تلاشت فيما بعد، ثم مضت إلى إحدى الشرفات القديمة المطلة على الجنوب، حيث سهل الزرازير وقعدت هناك، تراقب اندفاع القطارات نحو الشرق، وتشم رائحة الهباب الخفيف الذي تنشره وسط السماء القاحلة.

«من كانت تنتظر؟ محاسن قالت: «يمكن ظنت ان اخوتها ما ماتوا، وانهم راجعين» ورغم أنه لم يستطع أن يتبين في ذلك الزمن البعيد، هذه الحقيقة، فإن تفاصيلها بدت واضحة الان» لقد ظن أنها جنت، واضطر أن يرحل عن الخرائب، في وقت كانت فيه قوات اندريا تزيد حصارها، وتغلق منافذ اللجاة، على الثوار، خطوة خطوة.

ترك أم الجرابيع صباحاً، كانت رائحة البارود تشيع في الوعر، وبدا الصباح كليلاً طافحاً بالدخان. وفي صور فوجئ بذلك العدد الضئيل الذي وجده مع بهاء الدين من الفرسان.

كان الجيش قد انتشر الآن في ثلاث جهات. من الغرب والجنوب، والشرق. وراح اندريا يستخدم خطةً سماها «اطفاء النار» بحيث يقضي على الثورة برمي التراب فوق الاطراف قرية بعد قرية.

مضى كامل إلى المقداد، وقال: «شو هذا يا مقداد؟!» فأطرق الرجل إلى الارض وقال: «مثل ما شايف، يظهر إن البيوت أغلى من الأوطان!». ثم صمت ولم يعد يتكلم بعد ذلك إلا للضرورات الحربية. لكنَّه حين رأى بهاء الدين، عرف أن آلام المقداد صارت تنزف: كانت عينا القائد مليئتين بكواكب من الحزن، كان يمشي ممسكاً مقبض سيفه وسط رجاله الذين راحوا يتابعونه. ظن أنه سيهوي الآن. لكن الايام كذَّبته، فالرجل لم يتزعزع طوال ذلك الشتاء الكئيب، رغم أن الأنباء كانت ترد اليهم مثل النعوات، لا تحمل إلا جنون التراجعات.

في أواخر الصيف هاجمهم البدو، كانوا مدججين بأسلحة منحها لهم اندريا، وأغلبهم كانوا مشاة. وقد تسللوا في جبهة عريضة من وراء الصخور، ثم

أطبقوا عليهم. بدأوا يطلقون النار على الثوار النائمين في الزبير، فمات ثلاثة عشر رجلاً في الحال. قطع البدو رؤوس عشرة منهم، قبل أن يحاصرهم بهاء الدين قادماً من الشعاب الغربيه. كان الثوار مشاة أيضاً وقد أدرك أن حرب البدو كانت ناجعة، فاستغلها، واخترق المتن الحجري، بلا خيل.

«كان ممكناً أن يموت هناك، فقد جرحت طلقة جبينه، وارتمت بعيداً، ربما صار شخصاً آخر، وعندها من الصعب عليه أن يحب امرأة أخرى غير محاسن».

لكنه في المعركة مع البدو، رأى مرةً أخرى شيخ المزار الناحل يقاتل مرتدياً ثياباً خضراء، يمتطي حصاناً أخضر، وقد حف به خيالة آخرون، وقد استعادوا جميع الابراج ثم ذهبوا شرقاً، ولكن اللون الاخضر ظل دائماً يحرسهم، في تراجعهم الذي لم يتوقف بعد ذلك. كان يأتي اليه في الحلم، وفي كل مرة يقول، وهو يبرز من الحجب: «هذي البلاد!..» ثم يختفي.

وصل رسول من المتطوعة حاملاً رسالة من الجنرال اندريا: «إن كاربيه الذي كنتم تحاربونه قد رحل، ولكن فرنسا باقية!»، كان شابٌ شامي، طويل القامة جهوري الصوت يقرأ قصيدة شوقي الدمشقيه وسط جموع المقاتلين الذين ران عليهم صمت رخامي، وسكينة عُباد. واخترقت الكلمات الكوكبية المليئة بالهتاف، وريح الصبا دمَهم، ووقف بهاء الدين، وراح يحدق في المدى الفضي، ثم اقترب من المقداد، وتأمل وجهه. بدا كأنه يراه لأول مرة، وهو يوغل في شيخوخته وكبر سنه وابتسم وقال: «اكتب له يا مقداد: ماذا نقول لهذا الشاعر يا جنرال؟» لكن اندريا مزّق الرسالة، فاختلط السلام فيها بالدم بالدموع، وقال: «أنا سأرد عليه». وظل طوال ذلك النهار، وفي الليل يقصف اللجاة بالمدافع. ثم لم يتوقف خلال عشرة أيام، واستطاع أن يغلق المخبأ العظيم الشاسع من جميع الجهات. فشلت جميع محاولاتهم في الخروج من هناك. وانتهى الطعام لديهم، وبدأت النساء يبكين، والاولاد الصغار يهزلون. وقد نشبت معركة بالايدي بين ستة من الثوار لم يستطيعوا اقتسام غذائهم البسيط، وصار المقداد يقول لكامل بأن

الثورة صارت موجوعة مثله، لكن إذا قلعت سناً واحداً من أسنانها ماتت. «مثلي يا بو محمد!» قال: «بعيد الشر عنك!» فصار يبتسم ابتسامة غريبة، وقال: «شو بدنا نقدم للناس؟» وتخلص من حطته التي كان يلف بها رأسه، ورقبته شاداً على أضراسه وقال: «أخ!»

في أم الجرابيع ظلت ثنيه ترفض طوال الشتاء غسل فوطتها، حزناً على شامل، حتى صارت سمراء مشبعه برائحة رطوبة ونتانة، ولم تبدل ثيابها أيضاً، ولم تتحمم، وهي ترثي أخاها وسط اللمعان الغريب الذي كسا ثوبها بسبب الأوساخ.

وفي اليوم الذي صادف موته، بعد عام، عجنت في الليل، ثم أوقدت النار قبل طلوع الفجر، حين رأت أنه قد اختمر. كانت رياح باردة تهبُ عبر العنابر القديمة، وراحت تسمع، وهي تفلش الطحين فوق ميزرها، وتعد كارتها، أصوات انفجارات بعيدة مرهقة ممتدة عبر وديان الحجارة الذاهبة إلى الشمال والغرب. وشعرت بعجز، وقد تأكدت أن شواطئ آمالها كلها قد تخربت وضاعت، وما هدأت إلا حين اشتعلت النار تحت الصاج الأسود الواسع، وصار صوت طقطقة الجزل والقصل داخل الدائرة القرمزية يملأ كيانها. بدأت تبكي، وهي تتذكر الرجال الذين تركوا الديار جميعهم منذ أشهر، وزاد الدخان في غزارة دموعها، وهي تبدل ايقاع رق العجين حتى أيقظت معظم أهل الدار. وحين جاءت دلال، ورأت ثنيه شبه ملاك أخضر وسط القناطر المشبعه بهباب النار المتصاعد، زغردت بلا تردد، متوجة بالتهليل، والتفتت ثنيه نحوها، وصارت تمسح دموعها، وتقول: «خلص ما عاد ابكي» لكن حزنها الذي قالت إنها ألغته، ترك محله ندبة فاغرة، جعلتها توقفُ زهوَّ دلال بإشارة من يدها: «بس لا تفرحي كثير! هذا آخر خبز نأكله» فقالت تلك: «الله بيرزق يا أم قاسم»

«ونعم بالله» ردت: «لكن كل الابواب تسكرت!». .

ولأن دلال كانت أعجز من أن تمنح أي انسان قدرة على التحمل، فقد آثرت

أن تصمت، مؤجلة الكلام، أو هاربة منه. حتى إذا انبلج الصبح، جاء الاولاد، تجذبهم رائحة الخبز الطازج. فالتهموا ربعه، قبل أن تهزهم النساء اللواتي رحن يبتلعن لعابهن وحنينهن إلى طعام الأيام السالفة. ثم سحبت كل واحدة منهن أولادها، ومضين إلى الدار، ليجدن هناك أربعة مسلحين يشهرون البنادق قبالتهن. صرخت دلال، ولكن الرعب شلها، وقال أحد الرجال إنهم لا يريدون الاذى لأحد، ولكنهم سيأخذون نصف المؤن للثوار، فقالت غريبة: «ما عندنا شي» وشتمتهم صباح، وقالت: «لو كان صايل هون!» شعرت بالحاجة اليه الآن، فأطرق الرجل الذي كان يحدثهن، ثم قال بحياء: «الرجال ع بيموتوا بالزباير، وعندنا نسوان وأولاد كمان»

بدا لهن طيباً، ورحن يبكين، ويقلن يا شحارنا! وبدأ الرجال الثلاثة يفتشون البيوت ويخرجون ما تبقى من المؤن، لم يعترض طريقهم أحد، سوى الكلب الاسود الذي فوجئ بهم وهو مستلق وراء المنازل قرب شجرة التين الكبيره. فاندفع نحوهم بشراسة، لكنهم قتلوه. فصار الاولاد يبكون، في اللحظة التي ظهرت فيها ثنيه، تحمل على رأسها طبق الخبز. عرفها الرجل، فانحنى نحوها ملقياً سلام الصباح، وهو ممتلئ بحياء بنت، متلعثماً، مخنوقاً بالكلمات الممجدة التي حاول بها أن يخفي الصرة التي نهبوها من الدار. وضعت الخبز الذي كانت تحمله، ثم لفته بالميزر الازرق، وقدمته اليه كله قائلة بيأس: «قول لبهاي الدين: هذا ديني!». فارتعش الرجل، وكاد يسقط في خطوة التراجع التي خطا بها إلى الوراء «خذهم!» قالت له بحزم، فحمل الزاد، وامتطى حصانه، ومضى به خبباً يتبعه رفاقه الآخرون.

وفي الليل أقامت النساء مناحة، بينما كان الرجال الأربعة يوزعون الاطعمة على الثوار، دون أن يذكروا كلمة واحدة عن رسالة ثنية.

المقداد قال: «خلص!» حين نقل اليه أحد الرجال الأربعة أسرار اللقاء الوحشي بسيدة خرائب آل الفضل، فسأله كامل الذي كان قريباً منه: «شو قلت؟»

قال: «ضرسي وجعني» فقال كامل متحمساً: «بروح لعند علي الماجد» كان هذا حلاقاً، وجزاراً، التحق بالثورة منذ أيامها الاولى. فرفض المقداد بطريقة ملتوية، مشوبة بالالغاز: «لمّا يؤون الأوان، راح يجي لوحده!»

لكنَّ سطو الرجال على القرى لم يتوقف، كانت الحاجة تدفعهم إلى هنا، أو هناك كلَّ ليلة، يأخذون عنوة، أو تبرعاً وعطاء، ما يحتاج اليه أربعمئة مقاتل ظلوا برفقة بهاء الدين في قلب اللجاة. والنجاح الوحيد الذي حققوه أنهم استطاعوا أخذ النساء والأولاد إلى الجبل الشرقي في رحلة عذاب استمرت عشرة أيام

* *

وأقامت النساء في أم الجرابيع معاً في الغرف الداخلية. وقدم لهن صايل أربع بنادق قائلاً «اقتلوا كل من بيخطي للدار» لقد نوين القيام بذلك، في حين تولت دلال توزيع حصص الطعام التي صارت تتناقص بلا أمل.

ولكن غزوات صايل ازدادت أيضاً، وراح يجوب الجنوب كلّه بحثاً عن طعام يأتي به إلى أهله، وفي كل مرة، كان يسلمُ كل ما يجلبه إلى دلال. وهي التي استطاعت فرض نظام طعام على الجميع لم يجرؤ واحد على اختراقه.

لكنَّهنَّ ما كن يلاحظن ذلك الرجلَ القصير الذي كان يظل خارج الخرائب منتظراً صايل، وراء رجوم الزبده. كان يلتهم تلك الحصة الاضافية التي يأتي بها صايل بشهية ذئب، ثم يمتطي حصانه ويمضي.

بيد أنَّ صايل أصيب بعد شهر. كان بصحبة الذيب، وثمانية فرسان آخرين، وقد ذهبوا لغزو الهيب في سهل الحولة، ولكن البدو المتأهبين أصابوه في أعلى فخذه، بطلقة نفذت من اليته، وقد عدا بفرسه نصف ساعة قبل أن يقع عنها. وحين رآه الذيب، عاد اليه راكضاً، بدا يائساً، ممتلئاً بالندم، وقال «أعطِ بارودتي لنواف!» وخطر له أن يطلب الأخذ بثأره، ولكن رأسه امتلأت بالمصابيح، وهربت الكلمات من لسانه، بينما صار الذيب يقول «اسكت! اسكت!» هازئاً من حالته.

وبقوة الحيوان الذي تسمى باسمه رفعه، ووضعه على فرسه ثم حزمه اليها، وقال «هاتي لنشوف يا فرحه!»

ظلت الفرس تركض عدواً، ووراءها الذيب طوال ست ساعات، كان منظرهما في ذلك الفجر، غريباً، يثير فضول الفلاحين القلائل الذين رأوهما يخترقان السهوب معاً متوجهين إلى الخرائب.

وصلت الفرس قبل الذيب، ودخلت إلى الباحة، ثم وقعت على قائمتيها الاماميتين أولاً، كأنما تريدُ وقاية صايل من الاذى، ثم هوت ميتة على الارض.

صاحت النساء كلهن: «صايل مات!» *«هل مات حقاً» راح حسّان يعصر دماغه. بدا له أن الزمن يصير كالفقاعات، طرياً ممتلئاً بفراغات لا يمكن سدّها»*

اكثرهن بكاء كانت صباح، حتى أنهن دُهشن من اندفاعها المجنون، ونواحها وهي تمزق وجهها وتحتضن صايل وتصرخ «لا تموت!»

صايل رآها، فتح رموش عينيه بوهن، ورأى أن أخواته ينحن عليه. ففتحهما على وسعهما، والقوة المفاجئة التي أحس بها هي التي جعلت جسده يختلج، ويتحرك، فرحن يضحكن، ويبكين، فيما كان الذيب الآن، واقفاً قبالتهن، لأول مرة في حياته، بكل شخصه الغريب الشبيه بحجر.

ظل صايل طوال أسبوع معلقاً بين موته، وحياته، بينما غضبت ثنيه من النساء اللواتي لم يطلبن من الذيب البقاء في الدار بعد أن أوصل صايل. قمن بدفن فرحه وراء المنازل، ثم رحن يرعين أخاهن. وبعد يومين سمعن ثغاءً عند المداخل، خرجن كلهن، لأنهن لم يسمعن منذ أشهر ذلك الصوت المبحوح الباكي. هناك كانت نعجةٌ وحيدةٌ مربوطة إلى حجر. وكان برد، وقد كشفت الريح الاشياء البسيطة التي تكدست قربها من المؤن.

ثنيه هي التي عرفت صاحب تلك الارزاق فقالت: «كثر خيرك يا ذيب!» وكان أول ما تمنته هو أن يأتي أحد ما من رجال الثورة، كي تقتسم معهم طعام ذلك اليوم.

* * *

(٦٤)

في منتصف آذار فاجأ كنج ورجاله سبعةً من الرجال الملثمين كانوا يتجولون في شوارع المناره، وحين حاول أحدهم استخدام بارودته رأى نفسه محاصراً بالبنادق من كل صوب.

كان بينهم علي الشامي، وأخوةُ أحمد الجزار، وأمسك كنج بكيس كان يحمله أحدهم وقال، وهو يشقه بسيفه: «جايين تنهبوا؟» قال واحد من الجزارين: «هذي بيوتنا يا بك»

قال «لأ.. هذا ملكي!»

ثم احتجزهم نصف ساعة، وأفرج بعد ذلك عنهم قائلاً «لا عاد ترجعوا أبداً». بعد أن سلب منهم بنادقهم، وسيوفهم. وذخائرهم.

حين صاروا وراء المنارة، قال علي: «إذا بدكم تعيشوا لا توقفوا إلا بصور!»

اندفعوا ناحية الشمال، لكنهم لم يدركوا أنهم كلما أسرعوا إنما كانوا يقعون كالفراشات في حبائل شرك نصبه الفرسان الفرنسيون وراء الصخور.

وأمام الطريق الذاهبة إلى التلال، داهمتهم قوة صغيرة مؤلفة من فصيل، وحين ارتدوا إلى اليمين، برزت قوة أخرى من الشراكس المقلبقين، وأمامهم كان ليوتنان شاب شديد الشقرة يبتسم بخبث.

صرخ محمود الجزار: «يا ابن الحرام!» وهو يشير بعينيه نحو قلعة آل الحمدان، عندما كان الجنود يقيدونه. فسأل الضابط عما يتحدث وحين ترجموا له العباره، قال: «خذوهم إلى هناك!»

بدا مشيهم المتعثر، وجنون تطلعاتهم نحو الشمال، حيث يقبع بهاء الدين، نوعاً من الضراعة التي يبذلها ميت لآخر مرة. لقد رآهم كامل جميعاً حين كان عائداً إلى أم الجرابيع، وراح يتابع مسيرهم محاولاً معرفة الوجهة الغريبة التي ينطلقون اليها. توقفوا قرب بوابة القلعة، وراح الضابط يصرخ، ويُلقي أوامر بتلك اللغة الغريبة ذات الحروف الملتوية، فاصطف الجنود في دائرة ناقصة. ثم قاد اليوتنان محموداً الجزار من شعره، ونادى جندياً ضخم الجثة، فرفعه وعلقه بحربة بندقية غرزها في حائط القلعة، تراقصت قدما الرجل، واختفت رقبته بين ثيابه المشدودة. بينما تراجع الفرنسي مسافة عشر خطوات، ثم استدار وأطلق رصاصة واحدة نحوه، فأصابه في كتفه. وسَرَتْ همهمة لغات بين حشد الجنود والمرابعين الواقفين. أعاد اليوتنان الكره، وأصاب محمود هذه المرة في صدره، فارتجف وتأرجح مثل ذبيحة. ثم هدأ بعد ثوان فقط، وتراخى.

تركوه هناك، وقاد جنديان علي الشامي إلى القلعة، ليظهر الثلاثة، بعد دقائق، فوق أعلى سورها، أوقفاه هناك، ثم اختفيا، فبدا كالنسر، صوَّب الجنود بنادقهم نحو الاعلى ثم أطلقوا معاً، فهوى نحوهم، وهو يصرخ: عاشت . . . ساقطاً وسط الهلع الرهيب الذي عمَّ.

يبست ساقاه، وعجز عن الحركة، بينما قعد كنج محطماً فيما شحط الجنود ثائراً ثالثاً صغير الحجم، لم يستطع المشي، مقاوماً موته الوشيك، بشلل، جعل جسده ليناً كالخرق، جروه جراً، ثم ربطه سرجان أسود بسرج حصان أحد الشراكس، حيث خبَّ به قليلاً، ثم اندفع نحو سهل الزرازير مخلفاً وراءه صراخاً، وسحابة غبار، حتى إذا عاد بعد فترة، كان حصانه مبللاً ومغبراً وكان الحبل وراءه مقطعاً مدمى. غطى أحد المرابعين عينيه، وسُمِعَ بكاءُ امرأة من وراء الحيطان. فدمدم كنج: «روحوا قولوا لها تنقبر!» فجرى رجلان، بينما أمر الضابط الرابعَ بأن يركض، لكن الرجل لم يتحرك. وظل ينظر اليه بغضب وحقد «مسيو كنج قل له أن يركض» قال لكنج، فاضطر هذا إلى مغادرة المكان. عندها راح يدفع الثائر بيديه دفعاً إلى أن وقع على الارض. فأفرغ رصاص مسدسه في جسده.

عمَّ الصمت، وتوقف كل شيء عن الحركة، وبينما ساق الجنود الثوار الثلاثة مقيدين إلى حافة الجرف الصخري المطل على وادي الشتا. يبست رجلا كنج، وعجز عن متابعة الصعود إلى القلعة. شعر أنّ جفنيه قد تجمدا أيضاً، ورأى مكرهاً كيف هوى الرجال إلى الخلف، واختفوا، وهو يسمعُ صوت تدحرجهم إلى القبر العميق.

تلك الليلة أحرق الثوار الأجزاء الغربية من قلعته وأخذوا جميع المؤن والذخائر بينما كان مختبئاً يصرخ من وراء السور الأخير «أنا بريء! أنا بريء!» قبل أن تأتي النجدات من قصر المطر، ووادي الذهب البعيد.

حول القلعة، نشبت معركة ليل لأول مرة، بدأت تترى فصائل من الثوار، ونجدات جديدة من الجيش، وامتلأت المنازة، برائحة بارود كثيف، وصليل سيوف راحت تمعن في قتال مرير تقوده الغريزةُ، والحماسُ، والاندفاعُ الجنوبي لرجال رأوا أنفسهم ألعاباً لجنود الامبراطورية «تذكروا علي الشامي» صار المقداد يصرخ من وراء آلامه، وقد طلب من كامل وبضعة فرسان احضار جثامين الرجال السبعة بأي طريقة.

استعاد كامل في خضم تلك الحرب روح قتاله، وراحت الرائحة المخرمشة تذكره بتلك اللحظات التي أخذه فيها أبوه إلى مغارة الشتولية، وقال له «شوف! هذا بارود صنعوا ربنا تعالى» ثم جرب قليلاً منه، وهمس: «شم!» وعلمه كيف يستطيع أن يستخرج البارود الصافي منه، شعر الان بالنشوة، حين رأى كيف استطاع فرسان ومشاة من الثوار ارغام سرية من الجيش على التراجع، أُنزل محمود عن حربة موته، ولُمَّت جثث الخمسة الاخرين. بينما اختفى جثمان القتيل الذي جروه إلى السهل.

راح كنج يشتم المرابعين الجبناء الذين أحاطوا به وراء متراسه، ولم ينم أبداً، حتى بعد أن ابتعدت الطلقات ثم توقفت المعركة، حيث ظلت أذنه تطن طنيناً طويلاً متواصلاً بلاتوقف.

* *

في الصباح كان الجيش ُجاثماً أمامه في السهل مثل حيوان خرافي، وجاء عسكري وطلب اليه أن يستعد للقاء الكولونيل توما شاردن. وريثما لبس ثيابه ونزل، رأى أمامه فجأة انطوان ملحمة ذاته، فعانقه بمحبة. في حين انتزع المترجم القبعة عن رأسه وأبلغه نبأ منحه رتبة مدير ناحية المنارة.

ذلك كل شيء، إذ اكتشف بعد ثلاثة أيام أن جميع الصلاحيات التي مُنحت له في المرسوم الفرنسي، ما كانت تساوي رتبة خولي. وقد امتلك طوال حياته قوة أكبر بمئة مرة من سخافات ذلك اليوم. والاستثناء الوحيد أنَّه صار بإمكانه الباسَ المرابعين ثياباً كاكية جعلتهم كالقرود تماماً.

في بعض الليالي صار يذهب إلى دار سمره، في البداية ظن أنها قد تأتي اليه في الحلم، لكنها لم تفعل، وقال ضامن: «سمره ما تركت وراها مين يذكرها غيرك؟»

قال كنج: «ما تعودت انسى مين خدمني يا عسّال!»

فقال ضامن: «ولا مين خانك يا بك»

فصار يضحك، ويقول بحب: «ولك يا عسّال!»، ثم برقت في رأسه فكرةً مجنونه فنظر إلى الخولي، نظرة تفحص، وثبت عينيه في وجهه، حتى تبسَّم ضامن، وهمس: «وما بتنسى مين بحبك كمان» فهز رأسه. إنها لا تحبه، وإنما هو الذي يعبدها، تمنى لو يراها، ولكن الآن صار بوسعه أن يفعل ذلك، وسوف يذهب إلى أم الجرابيع بدركه الجديد، وخاصة حين عرف أن اندريا كسب معركة في تل المدين وأرغم الثوار على التوغل شمالاً داخل الوعر.

بعد ساعات كان مستعداً، وقد ارتدى أجمل ثيابه، وراح يتمرّى طوال الوقت ويسأل نفسه كيف ستجده؟ أو كيف سيجدها، هل يسألها عن سر نحولها مثلاً أو يطلب منها مرافقته إلى فردوس قلعتها؟! يمشيان معاً كما في الايام السالفة ويتجولان في الممرات.

انتبه إلى أنَّ ضامن قد أسرج حصانه، فبدت مرشحته الصفراء زاهية، وبهية، بينما لَمعَ السرجُ الجلدي بلونه البني وحلقاته النحاسية، وراح قشاط الركاب يتأرجح قريباً من بطن الحصان الذي كان يرتجف ارتجافات نشوة، بعد أن التهم علفة كاملة من الحبوب المهروسة، وراح يلوك لجامه منتظراً صاحبه.

أحسَّ أنه مجرد بهلوان سخيف، وأنَّ كل مافعله ما كان سوى ريش تافه، تذروه ضوضاء زمنه. وهو ينكس رأسه ويطيع مثل حمار، ويمشي بلا حَرَنْ، مطوقاً بالاسلحة والخدم، مثل تمثال، وحين اعتلى صهوة الجواد، ضحك من نفسه، من تفاهته وسخفه، وهكذا، بدلاً من أن يمضي نحو أم الجرابيع. اندفع بكل قوته، يهمزُ حصانه، ويعدو به في سهل الزرازير مثيراً زوبعة غبار، بدت له، أخيراً، أنها أبدع ما يمكن لشخصه أن يثيره في هذا العالم.

* * *

(٦٥)

ما يذكره هو أنه حين عَاد من معركة «وقم» كان ضئيلاً، وناشفاً وبلا روح. وقد منعه الجوع الطويل، وقلة الماء من الأكل، فراح صايل يتوسل اليه قائلاً: «خلينا نترك هالبلاد!» وجاءت دلال تقود محمد، فوقف الصغير في العتبه ينظر اليه بريبة، وقالت: «تعال! هذا بيك، نسيته؟» لكن ثنيه فتحت صدرها للريح التي كانت تهبُّ من جهة الغرب، وصاحت: «أني مش رايحه، يللي ما بحب البلاد يتركها!» راقبت الصخور البعيدة، حيث تتدثر بغلالة من السكون والضباب الغريب، ثمَّ هوت إلى الارض وهي تنشج: «لمين بدنا نتركها؟ وين بدنا نروح؟» قالت ذلك، رغم أنها كانت تعرف أن بهاء الدين أضحى كالعصفور، لا يستطيع أن يفعل شيئاً أكثر من أن يخبط يمناه بالشمال، ويكسر يسراه في الجنوب أو الغرب. وأن آخر حظوظه من الدنيا هو النجاة من وكر الوعر: «ليش يا ربي؟!» قالت

صار عدد الثوار يتناقص، بين قتلى، وبين عائدين وفي كل معركة يقف المقداد محاولاً الإمساك بآخر من تبقى: «لاتخلوا البيوت أغلى من الاوطان». بينما يصمتُ بهاء الدين، ويراقب الموقف كله دون أن يقدِّم ملاحظة، إلا عن القتال، وأساليب الدفاع أو الهجوم، مسكوناً بيقين من اللاجدوى والخسارات. لقد غدا كل شيء يباباً وحين صاروا وراء القرى، داخل تلك اللجاة البيضاء، رآه. عند الفجر، واقفاً على لافة صخورٍ يتكئ بكفيه على بوز بارودته ويحدق في المكان المحاصر، كانت تلك أَول مرةٍ يراه فيها يائساً. وما يزال يذكر صورة وجهه العريض، وقد بدا مشققاً كالتراب يابساً يباس الحجارة، بنفسجياً بسبب الضوء

الشمسي الشفاف الذي انحدر اليه من شقوق التل الحجري العالي، قال: «يا الله يا بو محمد، خلينا نطلع من ها اللعنة!»

لم يعد يذكر كيف خرجوا، ولكن قوةً حارسة خفية حمتهم وهم يتسللون ليلاً، خارج الحصار، ويصعدون إلى ما وراء الجبال الشرقية، كان آخر من تركوا اللجاة، لكنه لم يستطع وداع أهله، وقد تلاشت روحه خارج مملكة الهواء الطيب الذي أحبه، وحين وصل إلى الطيبة، قال بهاء الدين: «روح شوف المقداد!»:

كان كالورَس، مستلقياً على فراشه الأغبر، يئنُ، وقد انتفخ خده الأيمن، وصار طرياً كالعجين. قال «قرّب!»، ثم أوصاه أن يدفنه في خشخاشة «ما بحب العتم يا بو محمد، بالقبر عتم كثير!»، فصار كامل يرتعش، ويقول «سلامتك يا مقداد! بدك تعيش، وتشوف!». فرنا اليه بعطف، وعندها أدرك أن الرجل أضحى عند القشرة اليابسة للوجود فأدار وجهه وبكى، ثم اقترب منه، وقال: «تكرم يا مقداد هذا وعد مني» فابتسم وأمسك يده، وضغط عليها بأصابعه الناحلة، وتمتم: «كثر خيرك!».

واستطاع بعد ذلك أن يمشي أربعين مسافة حاملاً آلامه، وجسده، وبارودته وذخائره التي رفض التخلي عنها، حتى مات على حدود الصحراء، هناك حيث احترقت أجساد كائنات مجهولة واختلطت عظامها بالصخر الذائب! قال: «يمكن صير مثلهم!» كانت قواه قد انتهت ولفظ آخر أنفاسه.

لكن كامل عجز عن دفنه في خشخاشة، فقد بدأت المدفعية الفرنسية تقصف المكان بجنون، فحفروا له قبرا، ووضعوا شاهدة صغيرة عليه، نقش عليها خلال ساعة، اسم المقداد وتاريخ موته.

حين مات، بكتهُ ثنيه، وقَبلَتْ التعازي من جميع سكان أم الجرابيع مفترضة أنها شقيقة الرجل الذي كان بلا أهل. صنعت شلاحاً لتدفنه في خشخاشة العائلة، وطلبت من الشيخ شمس الدين أن يصليه، فصلى الجنازة الوهمية بصوت عالٍ رخيم بينما وقف وراءه صالح الحراني وحده، يردد كلماته بصوت خشن خالٍ من الحياة، جعل الشيخ يرتعد في مكانه من القهر والغم.

لم تغفر لصالح طريقته الفظة في الصلاة، وأرغمته على تناول قطعة من سكر النبات ليليِّن حنجرته الخشنة وصارت تقول: «احكِ» متعجبة من الفرق الشاسع بين كلامه، وترتيله لكنه بصق السكر، وراح يجدف، ويصرخ بها: «الله يلعنك! خليتينا نصلي على خرق!» بينما راح صايل يقهقه.

الوحيد الذي ظل قريباً منها هو شمس الدين، وقد فضل أن يقرأ لها نصوصاً من مواعظ الامير السيد، حتى غابت الشمس ولم يعد يستطيع أن يرى، فواصل القراءة من ذاكرته التي شحذها لؤم صالح، وسخريات صايل المرة.

ولم يجرؤ أن يسألها ماذا فعلت حين اختفى؟ وتخيل الشيخ وهو يقرأ لها مرة ثانية، أو يعظها من كتبه العظيمة عن الموت، فهل نفعت تعاويذه في ترميم روح الأخت الكسيرة؟

أمامه كان بهاء الدين، ثابتاً كالصقر، وحيداً وغاضباً وقد ودَّع واحداً من أشجع الرجال. كانت الحجارة تضيء الآن بطحلبها الآجري العجيب، ووراءه بحر من الوحشة، والضياع. راح الجيش يهاجم من ثلاثة محاور، محاولاً دفعهم دفعاً إلى الصحراء، بينما يحاولون هم اختراقه والعودة إلى الجبل مرة ثانية، لكن القصف المدفعي الشديد، واستمرار غارات الطائرات منعتهم من الحركة. واضطروا للبقاء في أبو زريق، وعند الصباح الباكر سمعوا أصواتاً غريبة، وضجيج عربات، وهجوم فرسان الجيش نحوهم. راحت العربات الجديدةُ، والدبابات تدرزُ مواقعهم بلا توقف، ورأى كيف مزقت القنابل ثلاثة رجال كانوا يطلقون باتجاه ميسرة الجيش، بدأ المجوز يعزف عزفاً متقطعاً، شبيهاً بنواح وداعي أخير. «وفي تلك الليلة جاءته رؤيا الذئاب، بدا زعيمهم الميت حياً في الحلم، وراح يتنزه أمامه في رواق مليء بالارصفة والثياب السوداء، ويترنح ماضياً أمام سارية مرفوعة، بينما أخذ كنج يدفن المقداد مرة أخرى، فقال ما الذي آتى بهذا الرجل إلى هنا؟».

حاول الثوار ضرب ميمنة الجيش التي بدت لهم ضعيفة ومضعضعة بسبب

اضطرارها للسير في منطقة وعره، وتلال، ووهادٍ عميقة. فانسحب الجنود نحو الغرب، مُتراجعين إلى المواقع التي جاؤوا منها، ومفسحين للمدفعية كي تضرب وحدها أولئك الفرسان الذين ارتبكوا، وفقدوا السيطرة على خيولهم.

زحف شرقاً حتى وصل إلى حافة الجرف العالي المطل على جبل الدم: من هناك بدأ هجومهم الأول في معركة الكفر، فهل تنتهي ثورتهم فيه أيضاً؟ رغب في البكاء، حين لم يعد يرى سوى جثث الثوار، وأجساد الخيل الميته. ثم ظل يمشي طوال النهار فيما كان يسمع هدير المدفعية، وزعيق الغارات وراء التلال. وكلما اقترب من الاصوات كان يلاحظ أنَّها كانت تبتعد عنه، ولم تتوقف حتى غروب الشمس. حينئذٍ خرست، كأنما جاءها أمرٌ علي من الله ذاته. صمت كل شيء، وما بقي سوى ذلك الانين الموجع الذي كانت تصدره مئات الحناجر، لرجالٍ، وخيلٍ مصابين، وعاجزين بين شجيرات البلوط، وأعشاب الشيح والعليق.

ربما استطاع أن يتذكر بهاء الدين، حين كان يودع «البلاد»، تلك الكلمة التي كان يحبها أكثر من أية كلمة أخرى «يللي بدو الثورة، الثورة انتهت» قال لهم «ويللي بدو البلاد، شوفوها! باقية طول الزمان!»

سُمع نحيب الرجال، بينما ظلت النساء صامتات يرقبن من وراء براقعهن البيضاء هزيمة حُماتهن.

شعر أنَّه صار بلا غد، وأنَّ كلَّ ما فعله في السنوات الماضية كان تفاهة، وها هو اليوم يضيعُ في التخوم الغريبة لبادية النسيان، وسوف تستهلكه الغربة، وتمحو من جسده ظلال سعادته، بعيداً عن أم الجرابيع، وأهله، والصخور الجرداء التي دافع عنها، والخرائب الجميلة.

لكنه حين عاد لم يفهم لماذا رحل شمس الدين وغريبة عن أم الجرابيع. فقد خرج الرجل، بصمت، يجرُّ وراءه أتانه وقافلة جمالٍ حملها بمتاعه القليل، وكدسة كتب صفراء، كانت ثنيه جامدة، وكان يسمعُ وقع ضربات قلبها، وهي ترى إلى آمالها المبعثرة، وأحلامها التي صارت بلا شكل، وأهلها الذين كالتراب يتفرقون

دون أن تستطيع وقف هجرتهم وغيابهم وموتهم من حولها! «أين ذهب ذلك المتدين الابيض الشفاف الذي لا يفصح أبداً، ولا يقول؟». لا بدّ أنه صار كالورق، ويمكن خلّفت غريبة، لا أحد يعرف، لكنّ محاسن صارت تبتهل إلى الله أن يكون قد عقّبها بولد!»

لم يعرف أن الجميع تركوا الخربة أيضاً حين ذهب ولم يعد. كان كنج هو الذي أرسل اليه ضامن العسّال قائلاً «هات بارودتين، وبغل، وعشر ليرات ذهبيه، وأنا أضمن لك العفو من فرنسا»، *«لا بد أنه سلّم روحه، التي عجّل بخلاصها إلى قاتلها، لم يعد يذكر ماذا حدث، وصارت الاشياء تغوص في وحلٍ رجراجٍ ثخين منع عنه الرؤيا»*. ولكن سكان الخرائب ذعروا، وهم ينتظرون أوبته بلا جدوى، وقال صايل وهو يشير للصغار: «منين بدنا نجيب لهم الامان يا أم قاسم؟!» قالت: «الله بيحميهم» فهزّ رأسه اسفاً، وقال: «ما حمى حدا قبلهم» ثم راح، بلا تردد يحزم متاع من في الدار كلهم «استنوا كامل!» صارت تهتف لهم وهم يواصلون عزمهم على الفرار من يد كنج، التي طالت الآن، وقد رحل من الجوار، ومن الجبل كله، ظلُّ بهاء الدين الذي عرفوا كم تنقصهم كواكبُ فيئه، وأشجار حمايته التي خيم بها عليهم، مضى في انكسارات حربه التي دامت سنتين، يدافع فيهما عن الملح والحجارة، والعنب، والبطم والتين.

حاول صايل، وصالح أن يرغموها على الرحيل معهم، لكنها قالت: «أني باقية، وإذا قربتوا مني يا بقتل حالي! يا بقوسكم!»

* * *

مرة أخرى.. بعد الكلام

كان قد وجدها هناك، وحيدة بين الخرائب، تقتات ُحبوباً وبقايا جذور، وحليب ماعز، تعتاش من بيع الحجارة في ا المقلع القديم. ومنذ أن عرفته، صارت تبكي. كان شعرها شائباً، ولحمها ذائباً، وما تبقى منها سوى كتلة من الجلد والعظام.

وبدت أم الجرابيع خاوية، لا أثر فيها لإنسان. وقد عادت مثلما كانت يوم جاؤوا اليها من المنارة: فراغ من المنازل الغريبة الموحشة. ديارُ هباء، سفت الرياحُ ترابها، وقضمتها الايام، ووشحتها بلحاء من الموت، والسقوف المهدومة، والحيطان المكسَّرة التي بلا ظل.

راحت تتأمل الخرائب القديمة، وتستعيد ماضيها الجميل المليء، رغم كل شيء، بحركة اولئك الذين كانوا معنى حياتها «يا باري!!» همست بعجب، لأنها كانت تأمل أن يرجعوا اليها في أي يوم، وقد تشبثت بالمكان هنا، كي ترغمهم على العودة. لأنها آمنت بأن هواء المنازل لا مثيل له، وأنَّ البلاد تشتاقُ لأهلها، فتملأ غربتهم بالحنين.

وطوال عشرين عاماً، ظلت تصعد إلى الاسوار الجنوبية وتراقبُ بنهم الطريقَ الذاهبة شرقاً إلى تلال الغربان بلا جدوى. لم يعد أحد قط، وصارت تضحك بأسى وتقول: «يمكن نسوني يا ولد» فقال بحماس: «أنا ما نسيتك يا ثنيه!» فنظرت اليه، واختلجت قليلاً، وتمتمت «تقبرني!»

في البداية، لم يستطيعا اجتياز الفراغ العميق الذي عاما فيه، لكنهما تجاوزا

ذلك فيما بعد، وانتهى بهما الأمر إلى أن عبأا جميع الأيام، والشهور، والسنوات، بصلصال الحكايات الضائعة والذكريات المنطمرة، تحت ركام الزمن.

ثمَّ صارا يحسّان بالشوق، الواحد منهما للآخر، وهو يشغل نفسه بالخروج إلى الصيد، وفي كل مرة يعرِّجُ فيها على أم الجرابيع، ويقول: «يا ثنيه! بدك شي؟» ويحضر لها برغلاً، وعدساً، وزبدة، وأرغفة خبز. ثم يقعدان، ويحكيان مدائح للحجارة، وبراري البطم. ويرويان أيام الجنوب، مستذكرين ما حدث: من مساء الضباب الملعون إلى يوم رحيله موعوداً بالعفو من فرنسا، لقاء بارودتين، وبغل، وعشر ليرات ذهبية!

كانت ذاكرتها تخمد أحياناً، أو تسكن، وتتدحرج بعيداً فيؤازرها برؤياه، ويحاولُ أن يملأ الشقوق التي يتسربُ منها إلى الحكاية ماء النسيان، بتفاصيل الأحداث الغائبة.

لكنَّها بدأت تهلوس، وشت عقلها، وصارت تخلطُ الأشياء والناس، وهو مذعور من أن تبدأ مساً شبيهاً بذاك الذي مضت إليه فضة من قبل، فيتوسل اليها أن تصمت، وألا تنطق شيئاً من تلك الكلمات العجيبة التي ماتني ترعبُ حياته الراهنة، وذكرياته.

هزت رأسها بعنف، كأنما أرادت أن تزيل عنه غبار الزمن. أمسكت بيديه الممدودتين اليها، وشعرت أن قساوتهما تبعث في قلبها جليد الماضي وحدهُ، لقد انتهى كل شيء. كانت تلهث لهاثاً خفيفاً، وكانت عيناها شبه مغمضتين، والدم يسري إلى جسدها ببطء، تدثرت بدثارها الممزق العتيق، وقالت: «بردانه!» فاقترب منها لأول مرة، وأحاط كتفها بذراعه، ثم خلع جبَّته، وغطاها بها، فقالت: «خوذ العنزه والحمير، هذول الك»، فارتجفت عظامه، وسرت رعدةُ جسده اليها، وغمغمت: «تأخر الوقت... ها!»

* *

وفي الصباح اختفت، كانت الشمس مشرقة وكان جسده متيبساً من البرد، ولاحظ مذعوراً أنها تركت كلّ شيء. فخرج راكضاً من القبو. وراح يناديها ويبحث عنها في البيوت، والقاعات، والأبراج سمع يعار عنزتها في الجوار، ورأى حماريها مربوطين ووجد هناك دثارها القديم، ورائحة بقائها الطويل الممجد.

مشى في الممرات محاولاً تقصى آثارها فيها، وفتش وراء البيوت، وفي الشرفات، والاسطحة، والاسوار، لكنها لم تترك علامة واحدة. ورغم أن الطريق إلى المنارة، كانت مملوءة بخليط من الجزل والأشواك والأعشاب اليابسة التي تشي بأنه ما من انسان وطئها منذ سنين، فإن ظنونه مضت به إلى هناك.

رغب في اللحاق بها، ولكنه رأى عند العين القديمة المغربي اللعين يجوسُ في الوعر. لا شك أنه يبحث عنه، وربما ذهب إلى المنارة ووشى به. كان يرتدي ثياب الشحاذ، ويقرقع بالاصداف والعلب الفارغة والحدائد الصدئه، فشتمه في سره، واستدار عائداً نحو بيته، وقد طغى ركامٌ من العمى على بصيرته، وكاد يشكُ في ماضيه كله، وفيما إذا كان لثنية من وجود في هذا العالم.

ولكن رائحة أم الجرابيع باتت في دمه. أليست حقيقة كافية كي يصدق ويؤمن؟ وإذا لم يصدق ذلك كله فكيف يمكن أن ينكر أنَّه لامس بيديه هاتين حيطان الخشخاشة القديمة التي دفنوا فيها ذات يوم جثمان نايل وشامل؟ هذه هي! فلا شيء يستطيع أن يخلّد الحياة أكثر من الموت!

لهذا شعر بالقهر لأنه عجز عن حماية هايل قبل أن يغتاله رجال كنج في الجوار. ولكن ماذا يفعل إذا كانت ذاكرته لم تستيقظ إلا على صوت الطلقات التي اخترقت جسد الرجل العائد بأحمال الشوق والحنين؟!

أغمض عينيه، وراح يبكي. وحين فتحهما لاحظ أن ثلة من الفرسان كانوا يعبرون الوعر، كانوا يرتدون ثياباً خضراء زاهية. فنهض وأخذ يجري وراءهم. ولكن حوافر خيولهم ما كانت تطال الأرض ويبدوا له بعد قليل، وهم يندفعون نحو الجنوب، أنهم مجرد هيولى، وجود شفاف، ثم تلاشوا واندمجوا في الصخور، والطحالب الحمراء.

مشى في الوعر وحيداً، مستعيداً لحظات لقاءاته بثنيه متمنياً لو أنها بقيت هناك. تمنى أيضاً لو أنه ظل حياً من قبل وقد أحس أن حياته الماضية ظلت ناقصة، بريّة، ومليئة بعشب الغرائب.

ولكن «ماذا سيربح؟» إذا ما سأل السؤال الذي يردده والده دائماً؟ «لا شيء»

وقد بدا له كل ما قدمه تفاهة محضة. تفسخت وانطوت في خضم السنوات، مضت وانقضت وضاعت بلا جدوى. ماذا تبقى من كامل الفضل؟! بل ماذا تبقى من المقداد؟ «لاشيء» فقد بعثرت الرياح حماسه وخربت ذكراه في حصباء البادية الصفراء، وجذاذات أعشابها، ولم تترك منه سوى شارة قبر، بضع حجرات أسرفت في الغبار! لا أحد هنا يذكر شيئاً عن الرجل الذي كان يملأ هذا الوعر المتراص بزنابق كلماته، وسعيه العظيم لحب الأوطان: «الوطن يا ولاد» كان يقول: «أم»، تذكر حسان الآن أن أكثر ما أشجى المقداد هو أنهم فقدوا آمالهم بعد المسيفرة فراح يجلجل بعباراته اليقينية بينهم: «تفرج إن شاء الله! تفرج!» ويردد كلماته الاثيرة: «البلاد بأهلها». فلمَ ذلك كله؟ لا يدري، ويبدو أنّه لن يعرف شيئاً طوال هذا العمر، فقد أضاع الأدلة، وأضحى كأن الذكريات القديمة التي انثالت أمامه. في الشهور الماضية، رسمت المعالم من جديد تجاه ناظريه. صار يري إلى الطريق والتلال والاشجار والقرى البعيدة التي تتلامح في الآفاق الوعرية، بضوء جديد مغاير، كأنما صارت عوالم أخرى.

في تلك اللحظة مرَّ دركيان في طريق السماقيات، كانا يخبّان وهما يتقلدان بارودتين فرنسيتين، وصفين من الجنادات السوداء المملوءة بالفشك. لم يعيراه أي انتباه، وربما لم يرياه أيضاً، وأيقن أنهما من رجال كنج، وأن هذا الركض الرهواني الذي يتبختران به، معجون بدماء الرجال السبعة الذين صار سيد المنارة ضابطاً بفضل دمائهم.

وقد أسف الآن لأن كل ما حوله من القرى والبلدات كان تابعاً لشخص واحد هو كنج الحمدان نفسه، وقد صار ضابطاً كبيراً يلبس الشارات الملونة! تذكر أنه رآه

قبل أشهر، كان يضع تحت ابطه عصا فرنسيه، ويمتطي حصاناً بأبهة موريليه خالصة، بينما يرى كل من حوله من الناس أن كل ذلك كان شيئاً عادياً وطبيعياً ونابعاً من أصالة الاشياء، وعراقتها. هل نسوا؟ هل غسلوا عقولهم؟ رأى أن كل ما حدث ليس سوى مسخرة، وخسارة، وشعر بالحزن على اولئك الذين ماتوا، اشتاق لعلي الشامي، وحنا البيطار، وذوقان سلام، وأحمد الجزار، والمقداد الكبير: «تعالوا شوفوا مين يللي ربح!» أراد أن يقول لهم، ثم عدل عن فكرته فوراً، قائلاً لنفسه إن من الظلم أن يأتي اولئك الرجال ثانية ليروا أن كل ما دافعوا عنه صار ملكاً لغيرهم. سوف يأسى عنهم جميعاً، وحده. ألا يكفي هذا يا مقداد؟! وسوف يبذل كل ما يستطيع كي يبيض أيامهم. وسوف... لكن هل يقدر حقاً على القيام بأي شيء، أيثور مرة أخرى؟ أيحمل بندقيته ويمضي بها إلى المنارة ثم يروح يطلق النار مرة ثانية على فوانيس المرابعين ولوكسات كنج، ورأس العسال؟! فمن يسمعه؟ لا أحد يا حسان وما عليك الآن إلا أن تحمل معك، مثلما تحمل السلحفاة، صندوق ذكرياتك وصبوات الماضي، وسفر الأحبة، واختفاء أشقائك وأنجالك، وتيجان حبك، ما عليك إلا أن تصمت، وتسير راضياً، قانعاً بما صار.

«مستحيل!» قال لنفسه، وفكر أن يمضي منذ صباح الغد إلى قرى الجبل كله بحثاً عن آل الفضل، يدفعه اليهم شوق دفين انفجر في دمه وتلافيف عقله. صار يغلي وهو يتخيل ماذا سيحدث إذا ما التقى بصايل مرة أخرى.. هل يقدر على حب ذلك الرجل الجلف القاسي ذي ملامح الوحش؟ وهل يستطيعان الآن، وقد فارق بينهما العمر، والايام، والسنوات أن يتفاهما حول لحظة ما من لحظات ذلك العهد الذي انصرم؟ وما الذي يمكن أن يقوله لدلال؟ أو كيف سيجدها بعد عشرين سنة من الغياب والانتقال؟ ماذا يمكن أن يقول أحدهما للآخر؟ وعن أي شيء؟ وماذا عن غريبة، وهنده، والشيخ الفاضل والشاعر القديم، والاولاد الكثيرين، والبنات. ربما ماتوا، أو ربما مات نصفهم، أو اختفى أحدهم، أو... أو..

صار يضرع إلى الله ألا يجمعه بهم أبداً، لعل الناس والذكريات يظلان مضيئين بالقناديل، بصور الماضي اللامعة. وقد أيقن أن على الانسان أن يحتفظ دوماً داخل رأسه بحشد من الخيال الجميل، وسفر من الاشواق المقدسة إلى غائب بعيد. وأنَّ عليه ألا يلوث صبوات القلب بتراب الرؤية المباشرة، فماذا سيجني من ذلك كله؟! الحزن والأسى والترهات؟!

لكن انشغاله على ثنيه لم يتوقف، وحين مضى إلى حقل آل الفياض ليفزع لأسرة محاسن في الحصاد، أحس أن الليل كان شبيهاً بكهف، مظلماً وبارداً في الوقت الحزيراني المشبع بالرطوبة والندى. ظل غارقاً في الوقار العجيب، سارحاً في حشود العالم الغامض الذي لا معنى له، رغم تحرشات محاسن اللصوصية به.

وفي الصباح حين رجع إلى البيت كان النعاس قد هرب منه اغتسل، وارتدى أفضل ثيابه، ثم غادر الدار متجاهلاً نداءات أمه التي حيرها المظهر الاحتفالي الذي خرج به بلامناسبة.

انطلق نحو المنارة على صهوة حصانه، وطوال الطريق راح صدغه يؤلمه، كانت وخزات خفية تعصف به، وطفق صدره يعلو ويهبط مشدوداً، وهو يتخيل ماذا سيحدث حين يرى المنارة!

وصل اليها عند الظهر، وقد انشده تماماً حين وَجَدَ أنه دخل البلدة من منعطف الكلاب ذاته، ماراً قرب دار قاسم الفضل.

كانت خربة أنقاض، كومة من الصدوع والجدران المحطمة أو المبعوجة أو المائلة المشرفة على الانهيار، لقد اتصلت مشاعره الان ببعضها وتأكد تماماً من أنه لا قيمة لأي شيء في الجولان اللا متناهي للعبة حياته وموته كلها!

وفي عمق الدار (حيث كانت ثنيه تغسل جروح نايل ذات يوم) نبتت أدغالٌ من الشجيرات الشوكية الغريبة، وغابة من الاعشاب الطويلة والحشائش، وقد فرَّ منها سرب مذعور من الطيور، وراح بعضها يصطدم ببعض، بينما تقصفت ركبتاه

هلعاً حين رأى الطريق إلى البيوت الجوانية، وقد انهارت الحيطان الشمالية كلها واسودت منذ الحريق القديم الذي أشعله نايل العاشق. وهناك بدت ماضياً خالصاً. أمَّ جرابيع أخرى طاعنة في الكآبة والضياع وكتل التراب الأصفر الذي صار حقلاً للفئران والحراذين المجنونة.

تلك هي الدار اذن! غيمة مشتتة من غبار الايام اللامرئية لا صورة مستعادة، ولا رائحة للآل الذين جعلوها ذات يوم، دار حياة.

أخذ بعضُ الجيران يراقبونه، ولم يعرف أي واحد منهم حين حاول أن ينظر نحوهم، تمنى لو استطاع أن يلوِّح لأي منهم قائلاً: «السلام عليكم! كيفك يا بو حسن؟» ولكن أي أبي حسن هذا؟ ومن هو؟

غادر المكان أخيراً، جاراً حصانه خلفه، ولم يلاحظ أنه كان يمشي في الأزقة مشي مهاجر مسافر، وقد عرف طريقه بلاتعب، وكان كل شيء كما هو، حتى تلك الأحجار الصغيرة المبعثرة قرب الجدران، ونوع الأعشاب، وبقايا زبل الحيوانات، ورائحة أشجار الزيتون والبطم والتوت، المنارة هي المنارة، والاستثناء الوحيد وجود عشرات الاشجار الضخمة من الكينا الشاهقة التي غرسها الفرنسيون في حربهم ضد الملاريا.

«لا أمل اذن!» هذا ما توصل اليه حين وجد نفسه أخيراً وجهاً لوجه أمام بوابة القلعة الحمدانية الباذخة. وما عدا أنهم حصنوها جيداً، وأصلحوا تلك الخروق القديمة التي صنعتها الطبيعة، ومدافع الثوار أثناء الهجوم الاخير، أو رمموا جوانب عالية من الزوايا المحطمة، فقد بقيت كما هي تماماً: رهيبةٌ، وغريبةٌ، وبرجيةٌ تتطاول حتى أطراف الغيم.

لم يستطع أن يقاوم الرغبة في رؤية عدوه وقاتله، فصعد الدرب التليَّة بلاتردد، سار كالأعمى، تقوده الحواس وحدها وكانت الشمس لاهبة في الأزقة التي شهدت معركته الخاسرة ذات يوم مع كنج، حين ولجها. لم يعد يرى خياله بين قدميه، ولاحظ بسرعة أن أزواجاً من عيون جوّالة حذرة أخذت تراقبه: «ما تغير

شي، ولا تبدل أحد» طفق يردد في نفسه ممتلئاً بالاسى، والغضب. وهذه المره، أسف أسفاً عميقاً بسبب بقاء الاشياء، فقد بدا له معادياً للناس والآمال والأمنيات. فمنذ دهور تقف هذه القلعة هنا، ويرصد هؤلاء المرابعون حركات الآتين إلى هنا شكاكين، خائفين من كل إنسان، ومنذ دهور يطأطئ القادم مرغماً تحت وطأة النظرات الغاضبة. مَ يغضبون؟ ولم يغضبون؟!. في هذه اللحظة شعر بالحزن على نفسه لأنه لم يبق حياً يرعب ُكنج الحمدان في عليائه، ويهب ُمرابعيه كل لحظه، مثلما أحس في الوقت ذاته، بأنه نجا، لأن صاحب القلعة لا سلطة له عليه.

ثمة في الداخل بعضُ الرجال، سمع هرجاً ما، ولغط حديث دؤوب بينهم، وحين دخل من الباب وقال: «السلام عليكم» نهضوا جميعاً مرحبين بالشاب الغريب الذي لم يعرفوه، ولم يخفوا استغرابهم من شخصيته، وتبادلوا معاً بضع نظرات متسائلة ومُنكِرة. شعر أن الهواء صار ثقيلاً حين راح يصافحهم واحداً واحداً، فوجئ أنَّه كان يعرف بعضهم، وقد رغب في قول شيء ما لرجل في الخمسين شائب الشعر، نحيفاً ثم عدل عن كل فعل إلى أن صار أمام كنج.

حين تأمله وجد أنّه كان يصرخُ بالموت، واحتار كيف يمكن أن يتنفس مثل هذا الكائن الهواء البشري نفسه! كانت نظراته نظرات جمجمة، من خلف حاجبيه الغليظين ومحجريه العميقين، وكان شارباه قد كبرا، وسمن خداه، وانتفخت جبهته حتى بدا كالصنم.

تصافحا، وابتسم كنج ابتسامة غامضة، ومتسائلة حين شدت أصابع الفتى الطويلة الناحلة على كفه الثقيله، بدت له كالكماشة تماماً، آتية من البازلت والخشب. جافة وقاسية وبلارحمة، لماذا؟ سأل نفسه مستغرباً تصرف الشاب القوي الذي تقصد أن يفعل ذلك به. وقد غضب حين لم يعرفه، وتغير لون وجهه وهو لا يفهم كيف يجرؤ رجل صغير السن على تحديه في بيته، ووسط رجاله، إلا أن يكون أرعن أو مجنوناً!

لكن حسان أدرك منذ أن جلس أنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء لهذا الرجل

الضخم القاعد كالطود في صدر المضافة العالي. كان جزءاً من المكان نفسه، موشحاً بلونه الاسود ذاته، وبتجاعيده، وحفره، وفيهما، كلاهما، عشش عواء خفي عطشان مُرٌّ لا يجارى إلى كل شيء حيواني.

كره منظر العسال التافه الذي صار الآن شبيهاً بسعلاة، مخيفاً وضامراً وناشفاً مثل حمار مشرد. وضحك في أعماقه من سخريات القدر الذي بدا له الآن أكثر تفاهة من العسال نفسه، فبدل أن تثأر من القاتل، نهشت لحم تابعه.

حين انتهى الحاضرون من إلقاء تحية الصباح عليه، التفت كنج نحوه وقال، مخالفاً تقاليده كلها: «مين أنت يا شب؟» إذ لم يستطع الصبر على كتمان رغبته. فحدجه حسان بعينين من نار وسأل بصوت راسخ: «ما عرفتني يا بو هايل؟!»

تطلع الحاضرون إليه كلهم، وقد حفَّزتهم جرأته، وأيقظهم صوته العالي تجاه كنج، بينما تفرّس هذا في وجهه، وراح يحاول أن ينتشل من ذاكرته صورة شخص ما رآه، أو عرفه، أو مرَّ به ذات يوم، ولكن بلا نفع. لم يعرفه، ولم يستوعب سر اللعبة الجديدة التي يلعبها معه هذا الغريب، فقال بعد طول تأمل: «ما عرفناك!»

لكنه فيما بعد سوف يندم كثيراً لأنه لم يقم بدل ذلك، ويقذف بذاك المقتحم خارجاً، طالباً من رجاله جلده، ودحرجته ورميه وراء القلعة في مزبلة آله.

تبسم حسان، ونظر إلى الرجل، وهزَّ رأسه عدة مرات، وقد أحس الموجودون أن دهراً مضى قبل أن ينطق قائلاً: «أني.. كامل الفضل يا كنج!»

لقد رأى جيداً كيف ارتعدت عظام سامعيه، وشعر بأن صوتاً ما كالأزيز راح يصفر داخل دم كنج الذي ظل مطرقاً، متكئاً على عصاه الثخينة بكلتا راحتيه. لقد رسا في غمامة الكلمات النارية التي أحرقت الهواء حوله، وذعر مثلما ذعر حين شد الفتى على يده، لم يجب، ظل يحدقُ في الفراغ الابيض المتراقص حوله، ولم ينقذه سوى نهوض الفتى المستعجل. واستئذانه ورحيله عن أرضه بلا ابطاء.

وفي الطريق إلى الباب العريض خارج وكر الموت الكريه ذاك سمع حسان دمدمة كنج السوداء الغليظة للعسّال المظلم: «والله! حلال قتله في الجيلين»

أراد أن يرجع اليه، وأن يضع خنجره في صدره، ويقول: «مت!» ولكنه أيقن أن الآوان قد فات على ذلك، ولن يستطيع لمس كنج أو الاقتراب منه. أيقن أنه سوف يظل طوال عمره هذا عائماً فوق سائل الذكريات الذبيحة. وسوف تدور الكواكبُ من حوله، وتتغير مواقع النجوم، وتأتي الفصول تلو الفصول، وتمرُّ السحبُ ثم تنطفئ تمطر السماء، وتشمس، ويخضرُ الشجر أو يعرى، سوف يموتُ ناس ويحيا ناس، يولدُ آخرون، ويرحلون، ثم يختفون، ويأتي جيل جديدٌ. وربما ذهب هو أيضاً إلى زمن آخر، وقد يظن أنه نجا، لكنه سوف يصادف شخصاً آخر يذكِّره بكنج، ويفاجئه أنه جالس في الأعالي، يحكمُ ويسيِّرُ ويُحيي ويميتُ، وعندها سيوقن أنه عاجز عن تبديل هذا الكون إذا ما أراد، أو حتى إذا ما غرز خنجره في أي صدر، وعند ذلك أيضاً سيستمر حزنه لأنه مات، مثلما يحزنُ الآن ويغضبُ لانه حي.

* * *

صيف ١٩٩٣

صدر للكاتب:

نحو الماء - قصص

وزارة الثقافة - دمشق ١٩٨٥

معراج الموت وقصص أخرى

دار الأهالي - دمشق ١٩٨٩

١٥٠٠ ط١/١٠/١٩٩٨

طُبعَ في مَطَابع وزارة الثَّقافة

دمشق ١٩٩٨

سِعرُ النُّسخة داخِل القُطر

٤٥٠ ل.س

في الأقطار العربيّة ما يُعادِل

٩٠٠ ل.س